الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة الإسلاميّة –قسنطينة–



كليّة الآداب والحضارة الإسلاميّة

قسم التّاريخ

رقم التّسجيل:...............

الرّقم التّسلسلي:............

الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرّحلة

رسالة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التّاريخ (شعبة المدينة والحياة الحضرية في الغرب الإسلامي)

إعداد الطّالب:

– فاتح بلعمري.

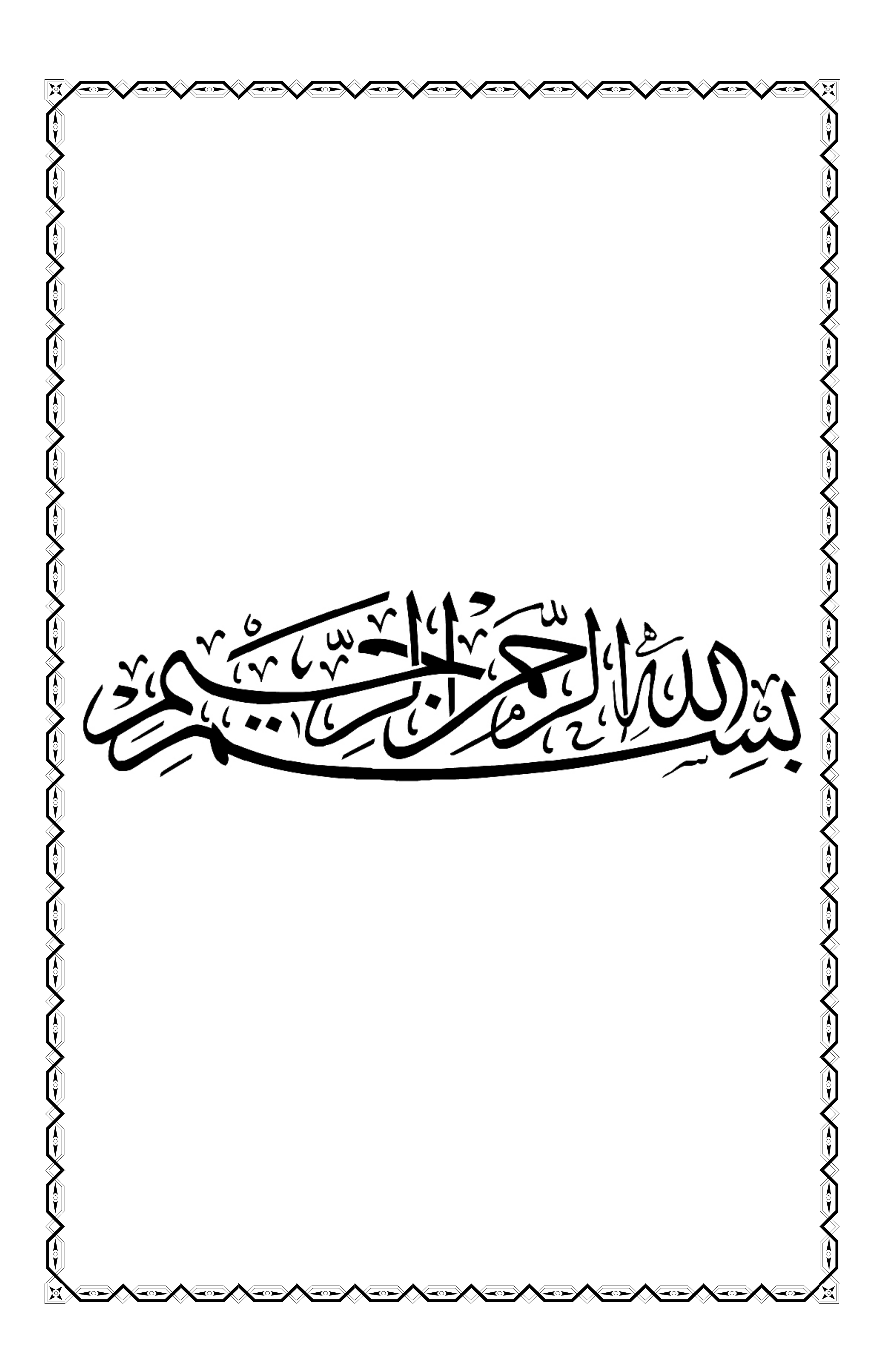
إشراف الأستاذ الدّكتور:

– أحمد صاري.

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللّقب	الرّتبة	الجامعة الأصليّة	الصّفة
أ.د.احميدة عميراوي	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة	رئيسا.
أ.د.أحمد صاري	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة	مشرفا ومقرّرا.
ا.د.أرزقي شويتام	أستاذ	جامعة الجزائر–2	عضوا مناقشا
ا.د.معاشي جميلة	أستاذ	جامعة قسنطينة2	عضوا مناقشا
أ.د.دراج محمد	أستاذ	جامعة الجزائر–2	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1437–1438/ 2016–2017


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

{ٱلنمل: (19)}



إهداء

إلى من حملتني وهنا على وهن، وبصدرها الحنون دفأتني، وبكلامها الموزون نصحتني، إلى أروع مخلوق فتحت عيني عليه في الدّنيا وأجمل باقة ورد أمّي العزيزة "**فاطمة الزهراء**" أطال الله في عمرها.

وإلى من علّمني أنّ الحياة جهد وأنّ القناعة زاد والصّبر سلاح، إلى أعز ما أملك في الوجود أبي "**مبارك**" أطال الله في عمره.

وإلى من تربّيت وكبرت معهم إخوتي "**بشيرة، عبيدة، زينة، طارق، سليم وجلال**" وإلى أبنائهم جميعا...

وإلى من شاركتني طعم الحياة في حلوها ومرّها وكانت سندا لي في كلّ شيء زوجتي الغالية "**سليمة**"، وإلى ولديّ "**عبد المعز ونوح**"، أطال الله في أعمارهم وسدّد خطاهم بالخير والبركة.

إلى كلّ الأصدقاء والطّلبة والغيورين على هذا الوطن المقدّس أهدي ثمرة جهدي.

شكر وعرفان

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك، ولا يطيب النهار إلا بطاعتك ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك، ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك، ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك، الله جلّ جلاله.

إلى من بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمّة، إلى نبيّ الرّحمة ونور العالمين سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم خاتم النبيين والمرسلين.

يسعدنا أن نتقدّم بالشّكر الجزيل للأستاذ المشرف "**أحمد صاري**" الذي منحنا من وقته وأحاطنا بملاحظاته القيّمة والذي كان لنا بحقّ مشكاة أنارت لنا دروب البحث الصّعبة الدّامسة فحفظه الله ورعاه.

واعترافا منّا بالجميل لا يسعنا إلّا أن نتقدّم بأسمى آيات الشّكر والعرفان إلى ابنة أختي الكريمة "شروق" الّتي قدّمت لي يد العون والمساعدة في كلّ مراحل البحث، فجزاها الله عنّا ألف خير.

كما يطيب لنا في هذا المقام أن نتقدّم بوافر الشّكر إلى كلّ من ساعدنا من قريب أو من بعيد على إتمام هذا البحث. وخصوصا الأستاذ: "**كمال خليل**"...

مقدمة

عرف الإنسان الرّحلة منذ القدم، وأدرك قيمتها، فأخذ يتنقّل من مكان إلى آخر، وظهرت الأهمّيّة البالغة والفائدة الجمّة للرّحلة، وأضحت مدرسة للعلم والثقافة، لا تعود فائدتها على الرّحّالة فقط بل على كلّ من يصله خبرها أو يقرأ عنها، حتّى غدت الرّحلة تراثا يتغنّى به الأجيال، ولذلك "فليس من لزم وجهة وطنه وقنع بما وصل إليه من الأخبار من إقليمه، كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع بين أيّامه تقاذف الأسفار واستخراج كلّ دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس من مكمنه"، وخاطب أحدهم الرّحالة قائلا: "ارتحلوا... انطلقوا أيّها الرّحّالة، فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرّحلة".

ولولا الرّحلة لما وصلتنا أخبار عديدة من بقاع الأرض وأقاليمها، قراها ومدنها، عادات السكان وتقاليدهم ونمط حياتهم...، ولما تطلّعنا إلى معرفة التّنوّع والاختلاف الّذي يشوب المعمورة وساكنيها، ممّا يحتم عليهم التّكامل والتّفاهم والتّعايش.

وإذا كانت الرّحلة تتضمّن أخبارا جغرافيّة واجتماعيّة، سياسيّة وعسكريّة، أدبيّة ودينيّة، اقتصاديّة وثقافيّة... فهذا ما يجعلها مصدرا مهمّا لا يستغني عنها أيّ دارس، له علاقة بها ومنهم المؤرّخ والباحث.

لقد ترك كتّاب الرّحلة تراثا غنيا وكنزا ثمينا -رغم تعدّد اتّجاهاتهم وتنوّع أجناسهم وعقائدهم، وحتّى أهداف رحلاتهم- عن الأمكنة الّتي زاروها، فقيّدوا ما لاحظوا وسجّلوا ما شاهدوا، وممّا زاد من قيمة الرّحلة وأعلى شأنها تنافس بني البشر في خوض هذا المجال وفي كلّ الاتّجاهات.

إنّ كتب التّاريخ تخبرنا عن الرّحلة الّتي قام بها قدماء المصريّين سنة 1493 قبل الميلاد، الّتي تعدّ من أقدم الرّحلات، وذلك حين أبحر في النّيل عدد من المصريّين في خمسة مراكب، بهدف تسويق بضاعتهم الّتي تشكّلت حين ذاك من البخور والعطور، ونتج عن هذه الرّحلة اتّصال المصريّين القدامى بسكّان إفريقيا.

ومن بين الرّحّالة القدامى الّذين سجّل لهم التّاريخ إسهاما كبيرا في هذا الشّأن، الرّحّالة الإغريقي هيرودوتس "أب التّاريخ"، الّذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ففي كتابه "**التّواريخ**" نجد معلومات قيّمة عن مصر وليبيا، من خلال رحلاته وقراءاته إلى جانب وصفه الدّقيق للحرب الّتي دارت بين الفرس والإغريق إبّان القرن الخامس قبل الميلاد، قدّم ذلك التّنوّع بين الشّعوب في عدّة نواحي: ثقافيّة، دينيّة، عرقيّة، وقدّم أيضا وصفا دقيقا لمظاهر الحياة اليوميّة عند بعض الأمم، كما قدّم وصفا للبيئة، الملبس، المأكل، المشرب، عادات وتقاليد الزّواج...وغيرها.

إنّ الأمثلة تتنوّع وتتعدّد عن الرّحلة والرّحّالة، ولا يتّسع المجال إلى ذكر الرّحّالة غربيّين كانوا أم

شرقيّين، أهل ذمّة أم مسلمين، قدامى أم حديثين في مختلف العصور والأزمنة، فهذا ماركو بولو «Marco polo»، ابن بطّوطة، فاسكو دي قاما«FascoDegama»، كريستوف كولومبوس « Cristophe Colombos»، فرديناند ماجلّان «Ferdinande Madjelan» وتشارلز داروين «TcharlzeDarwine»...، بالإضافة إلى ابن جبير، المقدسي، المسعودي، ياقوت الحموي، ابن فضلان العمري، ابن سعيد المغربي وابن خلدون، وغيرهم كثير...

ولا بأس هنا أن نستدلّ على قيمة الرّحلة وأهميّتها بما ذكره صلاح الشّامي الّذي ألّف كتابا عنونه بـ: **"الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة في الدّراسة الميدانيّة"**، حيث قال في هذا الشّأن: "إنّ الرّحلة قد رسّخت كلّ العوامل والمفاهيم الّتي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض، بل قد فجّرت في الإنسان استشعار المصالح المشتركة الّتي وثّقت عرى هذه الوحدة على الأرض، ومن غير الرّحلة ينفرط عقد هذه الوحدة وتتضرّر حركة الحياة ومصيرها المشترك".

إنّ الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرّقي إلّا نبّه إليها، وألحّ على العمل بها، وهذا شأنه في الرّحلة، فقد دعا إليها راميا لأغراض سامية، كمعرفة أحوال الأمم، التّفقّه في الدّين وطلب العلم النافع، وفي القرآن الكريم آيات عدّة تؤكّد على فضيلة الرّحلة وتدعو إليها، حيث قال تعالى﴿ **قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ [الأنعام:11]، وقال أيضا: ﴿ **فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ [النّحل:36]، وقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[الروم:9] ، وقال أيضا: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾ [غافر: 21]، وقال أيضا: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [غافر:82]... إلى غير ذلك من آيات الذّكر الحكيم الّتي تحثّ على السّير والارتحال في ربوع الأرض، والاعتبار والتّذكّر بشواهد الأمم.

كما لا يخفى على أحد أنّ الله سبحانه وتعالى لم يجمع منافع الدّنيا في إقليم واحد، بل فرّقها

على جهات كونه، وما أحوج جهة لأخرى وكلّ الجهات لبعضها البعض، لذلك كانت الرّحلات تزيدنا علما بقدرة الله وحكمته.

والرّحّالة يجمع العجائب ويكتسب التّجارب ويجلب المكاسب، ينتفع هو وينفع غيره، خصوصا إذا دوّن رحلته وسجّل ملاحظاته وقيّد مشاهداته، حتّى غدت الرّحلات المدوّنة مصدرا إخباريّا أساسيّا، في نقل الأخبار ووصف المنشآت والمرافق وذكر الحوادث والوقائع، بحكم أنّ صاحبها (الرّحّالة) في الغالب كان في قلب الحدث تمثّل له رأي العين واضح جليّ، وذلك نتيجة اتّصاله المباشر بالمكان واحتكاكه بالنّاس وتنقّله من رقعة إلى أخرى أثناء رحلته.

وكما يقول محمّد أحمد السّويدي أنّ أهداف كتب الرّحلات العربيّة إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر، الّذي يتشكّل عن طريق الرّحلة، والأفكار الّتي تسرّبت عبر سطور الرّحّالة والانتباهات الّتي ميّزت نظرتهم إلى الدّول والنّاس والأفكار...، شكّلت ثروة معرفيّة كبيرة ومخزنا للقصص والظّواهر والأفكار، فضلا على أنّه في الرّحلة مادّة سرديّة مشوّقة، فيها الغريب والمدهش والطّريف ممّا التقطته عيون تتجوّل وتتفاعل بما كانت ترى.

وإذا كانت بعض الجهات قد أخذت الحظّ الوافر في استقبال الرّحّالة والزّوار كالبقاع المقدّسة(مكّة والمدينة)، فقد أخذت بعض المدن النّصيب الكبير من ذلك، وألّفت فيها كتبا وأشعارا مثل "**أخبار مكّة**" للأزرقي، "**بغداد مدينة السّلام**" لابن فقيه الهمذاني، "**تاريخ بغداد**" للخطيب البغدادي، "**تاريخ مدينة صنعاء**" للرّازي، "**تاريخ دمشق**" لابن عساكر و"**وصف القاهرة**" لجومار...

إنّ الأمثلة عن التّأليف حول المدن كثيرة وعديدة، والمدينة في الرّحلات أيضا أخذت حيّزا لا بأس به في هذا المجال، واشتملت على كثير من المعارف والمعلومات حول مبانيها، سكّانها، عاداتهم وتقاليدهم، موقعها، مناخها، حمايتها وتحصيناتها وكلّ ما يتعلّق بها، حتّى أضحى الباحث في تاريخ مدينة معيّنة، لا بدّ له أن يعرّج على مصادر الرّحلة وأصحاب الرّحلات، الّذين حلّوا بتلك المدينة في الحقبة الّتي يريد دراستها، الأمر الّذي ينطبق على مدينة الجزائر في العهد العثماني، والّتي زادت قيمتها وأهميّتها في الحقبة (1516-1830)، وأصبحت تنعت بإسطنبول الصّغرى عند بعض الرّحّالة، واستقبلت العديد من الرّحّالة على مختلف أجناسهم ومذاهبهم ومشاربهم، فمنهم من ألّف فيها كتبا وسجلّات خصوصا الأوروبيّين، ومنهم من ذكرها أثناء رحلته إن كان مارّا بها أو مقيما فيها لمدّة معيّنة، فخطّ عنها أسطرا صوّر من خلالها مشهدا أو ذكر حادثة أو وصف منشأة أو مرفقا...وغير ذلك.

وبحكم أنّ الكتابة عن مدينة الجزائر من طرف الرّحّالة الأوروبيّين، كانت أكثر من نظرائهم

الرّحّالة المسلمين، وجب علينا التّأكّد من صدق ما كتب، ومقارنته وتحليله حتّى نقف على حقيقة الوقائع والأحداث وعلى مظاهر الحياة الحضريّة داخلها، ولذلك كان عنوان هذه الأطروحة:

"الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرّحلة".

ومن بين أسباب اختيارنا لهذا الموضوع هو ذاك الزّخم المعرفي والعلمي، الّذي احتوت عليه مصادر الرّحلة، الّتي تحدّثت عن مدينة الجزائر في الفترة العثمانيّة هذا من جهة، ومن جهة أخرى إشارة الأستاذ الفاضل مولاي بلحميسي في كتابه **"الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"** إلى ضرورة جمع ودراسة وتحليل ومقارنة ما كتبه الرّحّالة العرب مع الرّحّالة الأوروبيّين عن مدينة الجزائر، إذ قال: "وما خصّصوه للجزائر في رحلاتهم جدير بأن يجمع ويدرس ويحلّل ويقارن بما في رحلات الأوربيّين المعاصرين لهم، وهكذا يكون التّكامل النّافع"، بالإضافة إلى إشارة الأستاذ الفاضل أحميدة عميراوي في كتابه "**الجزائر في أدبيّات الرّحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا"** إلى مقارنة رحلات الأوروبيّين إلى الجزائر مع رحلات الجزائريّين داخل وخارج البلاد، وذلك للإجابة على الإشكاليّة التّالية: كيف كانت الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال ما دونّه بعض الرّحّالة العرب والأوروبيّين على حدّ سواء؟ ومنها نطرح عدّة تساؤلات:

- هل نستطيع أن نقف على الحقيقة التّاريخيّة، لما كتب عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر طيلة العهد العثماني من طرف الرّحّالة، ونقارن كتابات بعضهم البعض إن أمكن، وإلّا نستعين بمصادر أخرى لكي نتوصّل إلى صدق ما كتب من عدمه؟

- هل نستطيع التّعرّف على ملامح التّطوّر والتّحوّل الّذي طرأ على الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرّحلة؟

- هل كان لمدينة الجزائر في العهد العثماني مواصفات المدينة الإسلاميّة؟

لقد اعتمدنا في هذه الأطروحة على عدّة مناهج والّتي منها: الوصفي، في وصف المنشآت والمرافق العمرانيّة لمدينة الجزائر، والّتي تحدّث عنها الرّحّالة وبعض المشاهد والوقائع الّتي خصّت كلّ رحّالة، والمنهج التّحليلي، في تحليل الأخبار والمعارف المقدّمة في مصادر الرّحلة بنوعيها معتمدين على مصادر أخرى معاصرة ككتابات الأسرى والعلماء والقناصل... وغيرهم، والمنهج المقارن الّذي تطلّب منّا الوقوف على نقاط الاختلاف والائتلاف بين مصادر الرّحلة، في شأن الحياة الحضريّة في المدينة وفي جوانبها العديدة، سياسيّة أو عسكريّة، اجتماعيّة أو اقتصاديّة، ثقافيّة أو دينيّة.

إنّ الحديث عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر طيلة العهد العثماني، قد يحتاج إلى تآليف عديدة ورسائل متنوّعة، بحكم تعدّد أوجه الحياة في المدينة من جهة، ومن جهة أخرى طول الفترة الّتي فاقت الثّلاثة قرون، بالإضافة إلى تعدّد وتنوّع الرّحلات، فمنها السّياسيّة والسّفاريّة، الخاصّة والعامّة، العلميّة والدّراسيّة، الحجازيّة والفهرسيّة، الاستطلاعيّة والعسكريّة...، وهذا كلّه حسب غرض كلّ رحلة، الأمر الّذي أثّر حتما على نوعيّة الأخبار والمعارف الّتي تدوّن في المصادر ومتون الرّحلات، لذلك ارتأينا أن ننتقي بعض مصادر الرّحلة من 1516 إلى 1830، والّتي حلّ أصحابها بالمدينة، متتبّعين في ذلك التّسلسل الزّمني في ذكر الأخبار ووصف المشاهد، وقمنا باختيار ملامح معيّنة، ومظاهر متميّزة ومقتطفات فريدة في كلّ جانب من جوانب الحياة الحضريّة في المدينة، لأنّنا وجدنا الحديث عن الحياة الحضريّة في المدينة متشعّب ومتعدّد.

وارتأينا أن نقسّم الأطروحة إلى ثلاثة أبواب وثمانية فصول متتالية، وقد خصّص الباب الأول للتّعريف بأصحاب مصادر الرّحلة، فتناولنا في الفصل الأول التعريف بأصحاب مصادر الرحلة العامة، الخاصة، المجازية، العسكرية والاستطلاعية عربا كانوا وأوروبيّين، وذلك لما من شأنه زيادة التّعرّف على العوامل والظّروف الّتي ساعدت وأدّت بكلّ رحّالة إلى كتابة رحلته، والوقوف على خلفيّات تدوينه لرحلته، أمّا الفصل الثّاني، فتناولنا فيه أيضا التّعريف بأصحاب مصادر الرّحلة السياسية، السفارية، العلمية والدراسية، وبحكم تنوّع أغراض وأهداف الرّحلات تنوّعت الأخبار والمعارف حول الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وتحكّمت فيها شخصيّة كلّ رحّالة وميوله.

وخصّص الباب الثاني للتعريف بمدينة الجزائر، بمنشآتها ومرافقها، وتضمن ثلاثة فصول، فالفصل الأول تطرقنا فيه إلى التّعريف بمدينة الجزائر، الّذي اندرج تحته خمس عناصر، وهي: في أصل نشأة المدينة، في تسمية المدينة والسّبب في ذلك، في موقع المدينة وموضعها، وسجّلنا ملاحظات حول نصوص الرّحّالة في التّعريف بالمدينة والمواضيع الّتي ذكرت في مصادر الرّحلة وفي مصادر أخرى معاصرة، وهي لبعض الأسرى والقناصل لزيادة التّوضيح.

أمّا الفصل الثاني فقد تناولنا فيه منشآت مدينة الجزائر، بيّنّا وصفها والحياة داخلها، في كلّ من القصبة (دار الإمارة أو مقرّ الحكم)، القصور، المنازل والأحياء، لما لها من دور كبير في الحياة الحضريّة في المدينة.

بينما الفصل الثالث ذكرنا فيه مرافق مدينة الجزائر، وهي: المساجد، المدارس، الحمّامات، شبكة المياه، المقابر، الأضرحة والقبب، وذلك لتأثيرها البليغ على نمط الحياة الحضريّة في المدينة.

في حين أنّ الباب الثالث تضمن الحديث عن ملامح الحياة الحضرية بمدينة الجزائر من خلال مصادر الرحلة، وينقسم إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول درسنا فيه الحياة الحضريّة في جانبيها السّياسي والعسكري، من حيث نظام الحكم، مشاهدات الرّحّالة في الدّيوان، وكذا الشّخصيّات النافذة في الحياة الحضريّة، وكان تركيزنا على انكشاريّة المدينة، من حيث ذكر ثكناتها والحياة داخلها، ورتب ونياشين أفرادها، بالإضافة إلى ذكر سلاحهم ومؤونتهم، وكلّ ماله علاقة بحياتهم في المدينة، حسب ما دوّن في مصادر الرّحلة.

وفي شأن الفصل الثاني فكان حديثنا فيه عن الحياة الحضريّة في جانبيها الاجتماعي والاقتصادي، من حيث عدد سكان مدينة الجزائر، فئات المجتمع الحضري وعلاقتها ببعضها البعض ومكانة كلّ فئة، كما ذكرنا فيه الأسواق والحرف الّتي كانت متداولة، بيّنّا أنواعها ومحلّ تواجدها، بالإضافة إلى ذكرنا الفنادق الّتي تعتبر مشهد خاص من الحياة الاقتصاديّة في المدينة، وكذلك النّقود الّتي استعملت للتّبادل، الّتي عرفها مجتمع مدينة الجزائر وقتها.

وقد تناولنا في الفصل الثّالث الحياة الحضريّة في جانبيها الثّقافي والدّيني، من حيث اللّغات المتداولة في المدينة حينها، وصف ملابس ساكني المدينة، بعض العادات والتّقاليد (في الزّواج، وفي الختان...)، وحديث أصحاب مصادر الرّحلة عن المرأة وعن العلوم والفنون في مجتمع مدينة الجزائر، وعن بعض الاحتفالات في المناسبات والأعياد مثل: رمضان، ليلة القدر، العيدين والمولد النّبوي الشّريف.

وهناك بعض الجوانب لم نتطرّق إليها، إمّا لكونها أخذت قسطا من الدّراسة، أو لأنّ الحديث عن كامل الحياة الحضريّة في المدينة من خلال مصادر الرّحلة لا يقتصر في تأليف واحد بل يتعدّاه إلى تآليف ودراسات عدّة، بسبب تشعّبه وكثرة جوانبه.

أمّا فيما يخصّ الخاتمة، فهي حوصلة لأهمّ النّتائج المتوصّل إليها من خلال هذه الدّراسة، وقد جاءت مركّزة، حسب كلّ فصل من الفصول، وهي عموما تحمل في طيّاتها إجابات عن الإشكاليّات الّتي طرحت في بدايات البحث.

ومن جملة المصادر الّتي اعتمدنا عليها: "**وصف إفريقيا**" لحسن الوزّان، "**إفريقيا**" لمارمول كاربخال، "**النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة**" لأبي الحسن التّمقروتي، رحلة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي Nicolas De Nicolay سنة 1551، رحلة أبي العبّاس أحمد المقرّي إلى المغرب والمشرق، تأليف ألفرد دابر Alfred D'Apper "**وصف إفريقيا**" ورحلة ابن زاكور الدّراسيّة "**نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان**"، وعلى رحلات كلّ من توماس شو الطّبيب الإنجليزي، بايسونال

Peyssonnel الفرنسي، ج.أو.هابنسترايت الألماني، ابن حمادوش الجزائري في لسان مقاله "**عن النّبأ والحسب والحال**"، وكذا ابن عمّار في رحلته الحجازيّة "**نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب** (المصطفى ﷺ)، وأبو راس في مؤلّفه "**فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربي ونعمته**" وابن زرفة العمري في **رحلته القمريّة**، دون أن ننسى رحلات كلّ من الزّياني والمكناسي وابن المسيّب في **التّرجمانة الكبرى** و**إحراز المعلّى والرّقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشّريف والخليل والتّبرّك بقبر الحبيب** و"**يا الورشان أقصد طيبة**" على التّوالي، بالإضافة إلى رحلات عديدة فاقت الثّلاثين رحلة، مثل رحلة الأب دان إلى الجزائر في القرن السّابع عشر، وعبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني التّواتي، وشونبيرغ الألماني وروزيه الفرنسي والرّسّامين ليسيور وويلد... إلخ.

وبحكم أنّ محور البحث هو الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر من خلال مصادر الرّحلة، فإنّنا اعتمدنا على مجموعة معتبرة من الرّحلات المطبوعة ومذكّرات الأسرى والقناصل، والّتي من أهمّها نذكر:

- Diego de Haedo, **Topographie et histoire générale d’Alger.**
- Joâo Mascarenhas, **esclave à Alger (Recit de Captivité de Joao Mascarenhas).**
- Emanuel D’Aranda, **Les Captifs d’Alger d’aprés la relation de Emanuel d’Aranda jadis esclave à Alger.**
- Chevalier d’Arvieux, **Mémoire du Chevalier d’Arvieux.**
- Laugier de Tassy, **histoire du Royaume d’Alger.**

بالإضافة إلى مجموعة من الدّراسات والرّسائل الجامعيّة والمراجع المتخصّصة والعامّة، والّتي لها علاقة بأدب الرّحلة والرّحلات وبمدينة الجزائر مثل ما ألّفته عائشة غطّاس عن **الحرف والحرفيّون بمدينة الجزائر**، وما دوّنه فرج محمد فرج عن **إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر ميلاديين**، وما قدّمه أرزقي شويتام عن **المجتمع الجزائري وفعاليّاته في العهد العثماني**، جميلة معاشي عن **الانكشاريّة والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، مصطفى بن حمّوش عن **المدينة والسّلطة في الإسلام نموذج الجزائر في العهد العثماني** وكذلك **فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري**، وبعض الدّراسات الّتي من أهمّها: **رحلة الرّحلات (مكّة في مائة رحلة مغربيّة ورحلة)** لعبد الهادي التّازي، **مصر في كتابات الرّحّالة الفرنسيّين في القرن 16و17** لإلهام محمّد علي ذهني، حسين نصّار **في أدب الرّحلة**، حسين محمد فهيم في **أدب الرحلات** وسميرة أنساعد في **الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري**... وغيرها، ناهيك عن بعض المقالات الّتي

وردت في مجلّات متخصّصة، مثل: المجلّة الإفريقيّة، المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة، الأصالة، الثقافة وحوليات جامعة الجزائر، زيادة على عدّة معاجم لغويّة وقواميس ومناجد، الّتي نذكر منها "**لسان العرب** " لابن منظور، و**المنجد في اللّغة والأعلام** و**Petit Larousse en couleur** و **Dictionnaire El MOUNIR Français-Arabe**.

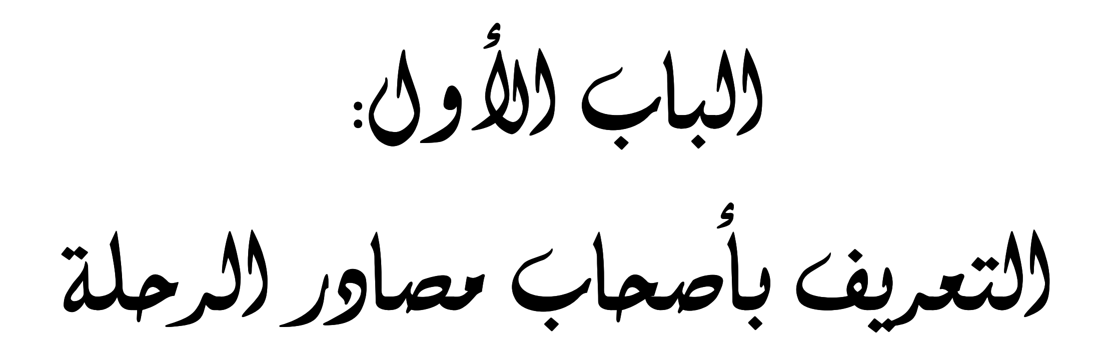
ولما كان البحث العلمي والأكاديمي عملا متواصلا وكتابا مفتوحا فإنّه يحتاج دائما إلى الإثراء والزّيادة، إمّا من صاحب البحث أو من الأجيال القادمة، ولأنّه مهمّا اجتهد الباحث، فإنّه من الصّعب عليه الإلمام بكلّ ما كتب حول الفترة المقترحة للدّراسة والبحث فيها، وهذا ما يبقي المجال مفتوحا للمبادرات وإكمال الدّراسات.

وفيما يخص الصّعوبات الّتي واجهتنا، فتمثّلت في هيكلة عناصر الأطروحة ورسم معالمها، وذلك لكثرة مصادر الرّحلة وطول فترة الدّراسة، وغنى المصادر بالمادّة الخبريّة المتنوّعة والمختلفة حسب تنوّع الظّروف واختلاف المعطيات لكلّ رحّالة، ولكن بفضل خبرة الأستاذ المشرف ونصائحه السّديدة ومنهجه العلمي الدّقيق، نعتقد أنّنا توصّلنا إلى التّغلّب على الكثير منها وتذليلها.

ولا يفوتني في الأخير أن أتوجّه بجزيل الشّكر والامتنان إلى المشرف الأستاذ الدّكتور أحمد صاري، الّذي تحمّل معي مشقّة هذا البحث فكان بحقّ سندا قويّا وموجّها دقيقا، أنار لي درب هذا البحث وأخذ بيدي في ثناياه المتعدّدة، فحفظه المولى وأدامه خادما للعلم ولطلّابه.

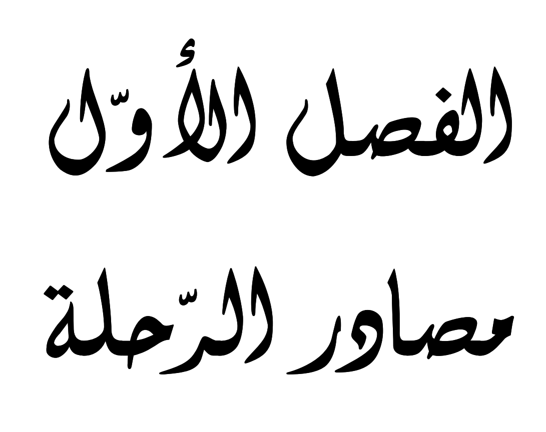
وأتوجّه بالشّكر أيضا، إلى كل من قدّم لي يد العون والمساعدة، وشجّعني ولو بكلمة طيّبة على تحقيق هذا المراد والمبتغى، حتّى خرج هذا البحث إلى النور.

وبالله التّوفيق.



الفصل الأول: مصادر الرحلة العامة، الخاصة، السياسية، الحجازية، الاستطلاعية والعسكرية

الفصل الثاني: مصادر الرحلة، السياسية، السفارية، الدراسية والعلمية



1-أُصحاب مصادر الرّحلة العامّة

2- أصحاب مصادر الرّحلة الخاصّة

3- أُصحاب مصادر الرّحلة الحجازيّة

4- أُصحاب مصادر الرّحلة الاستطلاعيّة والعسكريّة

1- أصحاب مصادر الرّحلة العامّة:

1- 1 الحسن الوزّان:

هو الحسن بن محمّد الوزّان الفاسي، شخصيّة عربيّة إسلاميّة فذّة، اجتمعت لها من الصّفات والخصال العلميّة والإنسانيّة ما أدّى إلى تقديرها والاهتمام بها وبآثارها، ولعلّ في مقدّمتها كتابه المعروف بـ: **وصف إفريقيا**، والذّي دوّن فيه ما شاهد وما عاين وما قيل له عن جزء معتبر من إفريقيا، واصفا فيه المناطق الّتي حلّ بها، والأماكن الّتي مرّ عليها أثناء رحلاته بشيء من التّفصيل والتّدقيق، حتّى غدا هذا التّأليف – **وصف إفريقيا**–مصدرا مهمّا من مصادر الرّحلة لإفريقيا، خصوصا في القرن 10هـ / 16م. فمن يكون هذا الرّحالة إذن؟ وكيف حدثت رحلته؟ وما علاقته بمدينة الجزائر؟

ينتسب الحسن بن محمّد الوزّان إلى قبيلة بني زيات الزّناتية، الّتي تقع أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الرّيف المغربيّة بين ساحل البحر المتوسّط ومجرى وادي لاو القريب من مدينتي شفشاون وتطوان[1]، ولقد ولد فيما يبدو بغرناطة وذلك قبل أمد قصير من سقوطها في أيدي النّصارى، وإن اختلف المؤرّخون في تحديد سنة ولادته، فمنهم من يجعلها في سنة 1495، وبعضهم يجعلها في سنة 1500، اعتمادا على تاريخين وردا في كتاب **وصف إفريقيا**، استطرد بعدهما المؤلّف ذكر سنّه عن طريق الرّبط والمقارنة، ولا يستقيم كلا التّقديرين عادة لأنّه يلزم منهما أنّ الحسن الوزّان دخل الحياة العامّة عدلا وسفيرا في سن الثّانية عشر أو الرّابعة عشر، لذلك رجّح أنّ ولادة الحسن الوزّان كانت قبل سقوط غرناطة بحوالي عشر سنوات (1483)[2] على غالب الظّن، وكما هو الحال حينها سافرت أسرته من غرناطة إلى فاس أين ترعرع وتربّى الحسن الوّزان وتلقّى العلم هناك بمدارس تلك المدينة وبجوامعها وخاصّة جامع القرويّين، فأخذ العلوم اللّغويّة والأحكام الشّرعيّة والفنون الأدبيّة، ولعلّ مكانة أسرته المرموقة كان لها دور كبير في ممارسته مهنة كاتب الماريستان بفاس[3]، وأثناء هذه الفترة بالذّات زادت فيه غريزة حبّ الاطّلاع والشّغف بتسجيل الحوادث، فقد ذكر عنه أنّه اهتمّ بنقل ما تضمّنته شواهد القبور في مصنّف

---

[1]- الحسن الوزّان، **وصف إفريقيا**، ج1 ، ترجمة محمّد حجّي و محمّد الأخضر، ط2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص ص6-7.

[2]- نفس المصدر، ص7.

[3]- اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تعريب صلاح الدّين هاشم، مراجعة ايقوربليايف، القسم الأوّل، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1963، ص450 والحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص13.

أهداه لأخ السّلطان الوطّاسي على الأرجح محمّد البرتغالي[1].

إنّ النّبوغ المبكّر للحسن الوزّان كان من أسبابه ملازمته لأعلام كثر من القرويّين وعلى رأسهم الإمام محمّد بن غازي المكناسي، الذي كان يجيز تلاميذه بفهرسه المعنون بـ: **التّعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد** ، يحتوي هذا الأخير على علوم اللّغة وآدابها، التّصوّف، العقائد، الفقه، الحديث، القراءات، التّفسير، السّير، المنطق، الحساب والفلك[2].

فمن دون شك أيضا أنّ الحسن الوزّان كان كثير التّرحال في المغرب الأقصى وخارجه منذ حداثة سنّه، فقد صحب عمّه في رحلة ديبلوماسيّة ساقته إلى تومبكتو، وقد اضطلع هو فيما بعد بأعباء سفارات هامّة في جنوب مراكش لأسرة بني وطّاس الحاكمة بفاس، وبسبب حظّه الجيّد من التّعليم الّذي تمتّع به وتمرّسه في فنون الكتابة الدّواوينيّة والحنكة السّياسيّة، كلّف لمرّات عديدة ببعثات داخل المغرب الأقصى وخارجه، وقد استطاع أثناء رحلاته أن يتعرّف بصورة واضحة على جزء من إفريقيا الشّماليّة [3].

لقد قام بتسجيل مشاهداته في مذكّرات تشبه يوميّات أصبحت فيما بعد أساس كتابه الجغرافي، والرّحلات التّي فصل القول فيها تسع: أوّلها رحلة إلى الشّواطئ الغربيّة القريبة من فاس وما جاورها سنة 1508، وثانيها رحلة إلى وسط المغرب نواحي تادلا وتفزا سنة 1509، وثالثها رحلة إلى بلاد السّودان عام 1511، حيث صحب عمّه فيها وكان مكلّفا بسفارة الملك أسقيا محمّد الكبير ملك سنغاي، أمّا الرّحلة الرّابعة فكانت إلى بلاد حاحا سنة 1514، كلّف فيها بضرورة الاتّصال بمحمّد القائم بأمر الله الأمير السّعدي، وهناك رحلة سادسة إلى السّوس عام 1515 انطلاقا من مراكش[4].

إنّ معظم رحلات الحسن الوزّان كانت موفّقة من جانبين، جانب سياسي وجانب جغرافي، حيث ترك تفاصيل دقيقة عن كلّ رحلة، وأدّت كلّها إلى استقرار المغرب – ولو إلى حين بين جهات بلاده وزعمائها وقتها– بفضل دهائه وحنكته.

---

[1]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث التّاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرّخين ورحالة وجغرافيّين**، ط1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص290.

= واغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص450 والحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص13.

[2]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص7.

[3]. اغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص ص450-451.

[4]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص ص8-10.

ولعلّ أخطر رحلة وأهمّها في حياة الحسن الوزّان هي رحلته إلى الحجاز عام 1516، سلك فيها مع ركب الحجّاج الفاسي الطّريق الشّمـاليّة عبر مدن: تازا، دبدو، تلمسان[1] فمدينة الجزائر وما جاورها ثم نقرين والحجاز، وفي هذه الرّحلة بالذّات دوّن يراع الحسن الوزّان معلومات في غاية الأهميّة عن مدينة الجزائر في القرن السّادس عشر ميلادي وهي رحلته السّابعة، وفيما يخص الثّامنة والتّاسعة من رحلاته، فقد كانت واحدة منهما إلى الأستانة بعد أدائه فريضة الحج وبغية لقاء السّلطان سليم الأوّل الذي كان سفيرا إليه من قبل محمد الوطّاسي البرتغالي، غير أنّ لقاءهما كان في مصر بتاريخ 13 أفريل 1517، وآخرها هي رحلة العودة إلى المغرب عن طريق البلاد اللّيبيّة وتونس، وفي هذه الأخيرة وقع في شباك أسر قراصنة إيطاليا[2]، وكان هذا أواخر سنة 1519، واقتاده القرصان الصّقلي بييترو بوقاديقليا Pietro-bovadiglia إلى البابا ليون العاشر يوحنا المديسي Leon Jean Medicis (1513-1521) ابن لورانس الفاخر أمير فلورنسة الذي عرف بحبه للعلم وشغفه بالمعرفة واهتمامه بالعلماء والمثقّفين، فثمّن شخص الحسن الوزّان وأكرم نزله وأحسن استقباله ورأى فيه النّباهة والموهبة، وقد قيل أنّه أقرّ له معاشا وهو في السّجن حتّى لا يفكّر في الهروب، كما رغّبه في اعتناق الدّيانة المسيحيّة وخصّص لهذه المهمّة ثلاثة قساوسة[3]، ثمّ بعد ذلك عمّده البابا ليون العاشر وسمّاه يوحنّا الأسد، وفي إيطاليا تعلّم اللّغتين الإيطالية واللاّتينية، كما كان يتقن الإسبانية من قبل، الأمر الذّي ساعده على ترجمة رحلاته في إفريقيا بطلب من البابا، وقد قام الحسن الوزّان بتدريس اللّغة العربيّة في كليّة بولونيا "Bologne"، وهي من أهم جامعات إيطاليا وأحسنها في تلك الفترة[4]، ولعلّه من هذا الجانب يكون قد ساهم في نقل الحضارة العربيّة الإسلاميّة إلى أوروبا عن طريق إيطاليا باعتباره أحد علماء عصره. لقد جمع في تكوينه بين عدة علوم ومعارف ، حيث اهتم البابا ليون العاشر به لما رأى فيه ما يستحقّ الاهتمام والإشادة.

وعلى ما يبدو أنّ الحسن الوزّان تظاهر بالتّمسّح وحمل فعلا اسم البابا، فصار يدعى ليون الغرناطي أو الإفريقي، تستّرا وعملا بقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص 10.

[2]- نفس المصدر، ص10.

[3]- ناصر الدّين سعيدوني ، المرجع السّابق ، ص299.

[4]- عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدّولة السّعديّة دراسة تحليليّة لأهم التّطوّرات السّياسية ومختلف المظاهر الحضاريّة** ، ط 2، منشورات جمعيّة المؤرّخين المغاربة، الرّباط، 2006 م، ص13.

﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾وهناك عدّة أدلّة تثبت بقاءه على الدّين الإسلامي وهو في البيئة المسيحيّة، يذكرها محقّقا كتابه محمّد الأخضر ومحمّد حجّي ، وهي الصّبغة الإسلاميّة المتجلّية في ثنايا كتابه، ولعلّ منها كلمة "عندنا" كلّما تحدّث عن مناسبة دينيّة (العيد مثلا)، وفي حديثه عن العلماء والمشايخ الذّين يمثّلون الإسلام في المناطق التّي زارها...، إذ لو ارتدّ حقّا لما ذكر هذا كلّه.

ومعظم تواريخ الكتاب هجريّة بالإضافة إلى تمسّكه باسمه الحقيقي إذ يقول: «...العبد الفقير إلى الله مؤلّفه يوحنّا الأسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزّان الفاسي...» ، وهو في هذا الشأن يذكّر بمسقط الرّأس ومكان الصّبى والتّرعرع[1]، وعلى غالب الظّنّ أيضا أنّ الحسن الوزّان لا يغفل أو يتناسى عقوبة المرتّد في الدّين الإسلامي بحكم أنّه لازم فقهاء وعلماء، وجالسَ أكابر رجال الدّين أينما حلّ وارتحل، وهذا من دون شك يدحض رواية تنصّره الحقيقي الذّي اتّهِم به، كما ذكر ذلك المؤرخ الأمريكي ج.ب.وولف حيث قال عنه وعن كتابه:« ...وهناك أيضا تأليف جغرافي ومدوّن للحوادث يعتبر أساسيّا، وهو تأليف الباحث العربي المتنصّر الذي ألّفه تحت اسم ليو أفريكانوس Leo Africanus ...»[2].

إنّ ما يثبت بقاءه على الدّين الإسلامي هي فكرة العودة إلى المغرب الّتي كان يتمنّاها، والاندماج ثانية في المجتمع الإسلامي، وهذا ما عبّر عنه بوضوح في خاتمة كتابه عندما أعربَ عن عزمه ونيّته إذ يقول: «...إنّني أعتزم بعون الله حينما أعود من أوربا إلى وطني أن أخصّ كلّ هذه الرّحلات بالوصف...».

اختلف المؤرّخون حول مكان وسنة وفاته، فمنهم من يذكر وفاته في إيطاليا سنة 1538، ومنهم من يرجّح وفاته بتونس أو فاس سنة 1537[3]، وغير مستبعد أن يكون الرّأي الثّاني هو الأقرب إلى الصّواب لعدم وجود أدلّة تثبت بقاء الأسد الغرناطي في إيطاليا أواخر حياته هذا بالنّسبة إلى المكان، أمّا فيما يخصّ سنة الوفاة فلعلّها مثلما ذكر صاحب كتاب **الأدب الجغرافي** وهي سنة 1552 ، ويبقى الشك في هذا الأمر واردا.

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص ص 11-12.

[2]-ج.ب.وولف، **الجزائر وأوروبا (1500-1830)** ، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1986 ، ص464.

[3]-ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص293 .

كتاب وصف إفريقيا: قد يخطر لمحبّ الارتحال والمغامرات أن يرتحل بعيدا عن وطنه لمدّة تستغرق شهورا وأعواما، يسّجل خلالها ما يجلب انتباهه وما يعجبه أو يخالف ما تعودّه[1].

وفي هذا الصّنف من الرّحالة نذكر الحسن بن محمّد الوزّان الفاسي المعروف عندهم بالأسد الإفريقي، حيث مكّنه السّفر والتّنقّل من كتابة ما شاهده وما سمعه وما استنتجه ، ودوّن الكلّ في **وصف إفريقيا**[2]، وهو الكتاب الذّي اشتهر به وبنسخته الإيطاليّة التي حملت عنوان **وصف إفريقيا والأمور الهامّة بها Description dell Africa et dell Cosi Mal Abriliche Quivi Soxo.**

كانت لغة الكتاب إيطاليّة بسيطة، عبّر فيها عن شخصيّته العربيّة الإسلاميّة وذلك اعتمادا على مذكّرات وضعها أصلا بالعربيّة، وعندما أُسر اصطحب فقرات منها، الأمر الذّي أدّى بناشر الكتاب فيما بعد راميزيو "RAMIZIO" بإدخال تحوير على اللّغة والأسلوب مع احترام معاني النّص الأصلي. وتوجد نسخة منه ضمن المقتنيات التّي تحصّلت عليها المكتبة الإيطالية بروما سنة 1931 تحت رقم 953[3]، وإن كان هناك من يرى عكس هذا تماما، أنّ الكتاب ألّف مباشرة باللّغة الإيطالية دون وجود مذكّرات أو مدونات بالعربيّة ومن أمثال هؤلاء ماسينيون " Massignon" وأغناطيوس يوليانوقشش... وغيرهما[4].

لقد جاء كتاب **وصف إفريقيا** في عرضٍ جمع بين كتب الرّحلات وكتب المسالك، ومزج فيه صاحبه بين ما شاهد وما سمع ومن أخذ عنهم من أمثال ابن الرّقيق، الذين رسخوا في ذاكرته رغم مدّة إقامته الطّويلة في أوروبا (إيطاليا) وانقطاعه عن البيئة الإسلاميّة[5]، حيث قال: «... لقد دوّنت بجدّ واجتهاد، ومن يوم لآخر تلك الأشياء التّي رأيتها بعيني وبدا لي أنّها تستحقّ الذّكر عندما عبرت إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها، وما لم أره بنفسي بسبب ضيق الوقت وصعوبة الطّريق فقد جهدت نفسي في الحصول عليه من أهل الثّقة ممّن شاهدوه بأنفسهم ثمّ بذلت جهدي في جمع شتات هذه المادّة وصياغتها في شكل انتهيت من تدوينه أثناء وجودي برومة، وذلك في اليوم العاشر من شهر مارس

---

(1)- مولاي بلحميسي ، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ط2، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر 1981، ص11.

(2)- نفس المرجع ، ص11.

(3)- ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص ص293-294.

(4)- اغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص452.

(5)- ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص294.

1526 من ميلاد المسيح... »[1].

يحتوي كتاب **وصف إفريقيا** على ستّة أقسام: في القسم الأوّل التّعريف بإفريقيا وبسكّانها وعاداتهم ومعتقداتهم وظروف حياتهم، بينما القسم الثّاني خصّ أقاليم المغرب الأقصى الجنوبيّة (مملكة مراكش)، أمّا فيما يخصّ القسم الثّالث فكان عن مملكة فاس ، والقسم الرّابع عن مملكة تلمسان الذي ذكر فيه عدّة مدن منها: ندرومة، أرشقول، هنين، البطحاء، وهران، المرسى الكبير، مستغانم، مازغران، برشك، شرشال، مليانة، تنس، مازونة، مدينة الجزائر، تاقدمت، المديّة، تامنغوست ودلّس، أمّا القسم الخامس من الكتاب فقد تحدّث فيه المؤلّف عن الحفصيين وذكر بعض المدن الجزائريّة الّتي كانت تابعة لهم والّتي منها بجاية، جيجل، المسيلة، سطيف، نقاوس، القّل، سكيكدة، قسنطينة، ميلة، بونة وتيفاش بالإضافة إلى بعض المدن التّونسيّة واللّيبيّة، غير أنّ القسم السّادس خصّ منطقة نوميديا وأقاليم الصّحراء، والسّابع كان عن بلاد السّودان، والثّامن عن مصر، والتّاسع والأخير من أقسام هذا الكتاب تحدّث فيه عن الأنهار والنّباتات والحيوانات في إفريقيا[2].

طبع كتاب **وصف إفريقيا** لأوّل مرّة بالبندقيّة ضمن مجموعة من الرّحلات نشرها راميزيو « Jean Baptiste Ramusio » سنة1550، ثمّ بعد ذلك ظهرت له التّرجمة اللاّتينيّة التّي قام بها فلوريان« Jean Florion » سنة 1556 بآنفير ببلجيكا[3]، وفي نفس السّنة ظهرت له أوّل ترجمة بالفرنسيّة « Description de l'Afrique »[4]بقلم جان طانبورال « Jean Temporale » بليون، ثمّ توالت ترجمات الكتاب إلى لغات عدّة: الإنجليزيّة عام 1660، الألمانيّة عام 1805[5]، وبعد ذلك ظهرت له الطّبعات الكاملة بالفرنسيّة على يد محرّر الطّبعة العلميّة المستشرق الفرنسي شيفر Shefer الّذي قال: « إنّ ما يورده ليون الإفريقي من تفاصيل في وصف المغرب يتميّز بالدّقّة الشّديدة، بل وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتّى في تلك المواضع التّي أثارت بعض الشّك فيما مضى...»[6]. وكان اعترافه هذا ما بين (1896-1898)، ونفس الأمر قام به الإنجليزي براون " Brown" سنة 1896، وقدّمت الإيطاليّة أنجيلا كاردوزا – الباحثة في هذا الشّأن- كتاب **وصف إفريقيا** باللّغة الّتي

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص15.

[2]- المصدر نفسه، الفهرس.

[3]- ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص295.

[4]- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص11.

[5]- ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص295.

[6]- اغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص454.

كتب بها -الإيطاليّة- وفي طبعة محقّقة أيضا رجع إليها الطّبيب الفرنسي أبولار Epaulard الّذي قام بترجمة جزء منه إلى الفرنسيّة ، لكنّ الأجل سبقه قبل إتمامها سنة 1949[1].

وعكف فيما بعد مجموعة من الأساتذة والمختّصين على إتمامها من أمثال: مونودMonod، مونيMouny ولوثLhote يعاضدهم مجموعة من اختصاصيي التّاريخ، وصدر مجهودهم بباريس سنة 1956، وقد قيل بأنّها تميّزت عن غيرها من الطّبعات بالوضوح والدّقّة والإخراج والتّحقيق، أمّا الكتاب بلغة مؤلّفه الأصليّة فقد ظهرت له ترجمتان بالعربيّة، الأولى من عمل عبد الحميد حميدة بالسّعوديّة في سنة 1979 بمراجعة علي عبد الواحد، والثّانية من إنجاز الثّنائي محمّد حجّي ومحمّد الأخضر بالرّباط سنة 1983، ممّا أدّى إلى زيادة الانتفاع بهذا الكتاب.

ولعلّ اختيارنا له كمصدر من مصادر الرّحلة يعود لثبوت أهمّيّته وصدق معلوماته من جهة، وتحرّيه الحياد والنّزاهة من جهة ثانية في معظم ما أورد دون الانسياق وراء أفكار مسبقة كما فعل بعض معاصريه.

1-2 **مارمول كارفاجال** Marmol-Karvajal:

لقد اعتنى الغربيّون بالرّحلات التّي قام بها تجّارهم وقناصلهم ومغامروهم إلى بلدنا الجزائر، ما بين مطلع القرن السّادس عشر وبدايات القرن التّاسع عشر، كما اهتمّوا اهتماما خاصّا بما كتبه أسراهم[2]، ولعلّ في مقدّمة هؤلاء الأسرى الذّين عاشوا في مدينة الجزائر خلال العشريّة الثّالثة من القرن السّادس عشر وكتبوا عنها الرّحالة والمؤرّخ الإسباني "مارمول لويس كارفاجال"، الذّي ولد بغرناطة وعاش في القرن 10هـ/16م، واشتغل ضابطا في جيش الإمبراطور شارلكان[3]، وشارك في الحملة التّي قادته إلى تونس حينها سنة 1535، بعدها وقع أسيرا في يد الأتراك، وبقي في شمال إفريقيا لمدّة قاربت الثّمان سنوات، الأمر الذّي فتح له باب التنقّل والسّفر في أرجاء المنطقة ونواحيها. كما استغلّ الظّرف الذّي كان فيه فتعلّم اللّغة العربيّة، وبعد حصوله على حريّته قام بتأليف كتاب باللّغة الاسبانيّة عنوانه: **وصف عام**

---

[1]- ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص ص495-496.

[2]-مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص13.

[3]-هو شارل الخامس الذّي كان يدعى شارلكان، ملك إسبانيا(1500-1558) قاد حملات عديدة ضدّ فرنسا و ايطاليا، وقاد حملة ضدّ الجزائر مني أثناءها بهزيمة نكراء سنة 1541.

(أحمد السّليماني، **تاريخ مدينة الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1989، ص19).

لإفريقيا[1]. **Description general de Africa** con todos Los successos de guerra a Avido entre Los infideles y el pueblo christiano ,Granada ,1573. وهو في ثلاثة أجزاء، حيث ترك فيه مادّة خبريّة عالية القيمة[2]، بالرّغم من أنّه اعتمد على كتاب حسن الوزّان **وصف إفريقيا** وملاحظاته، ترجم كتاب لويس مارمول كارفاجال إلى الفرنسيّة من طرف دا.بلانكور "Blancourt " سنة 1667 بباريس[3].

في حقيقة الأمر اختلف المؤرّخون في مدّة إقامة هذا الرّحالة في شمال إفريقيا، ففريق يقول عشر سنوات[4]، وآخر يذكر ثماني سنوات، وهناك فريق ثالث يصرح باثنين وعشرين سنة[5]، ولعلّ في هذا الاختلاف شيء من اللّبس والخلط بين مدّة أسره ومدّة زيارته للمنطقة.

إنّ المؤرّخ الأمريكي ج.ب.وولف يقرّ بأسره واسترقاقه في المغرب الأقصى بعد مشاركته في حملة تونس سنة 1535[6]، بينما إسماعيل العربي يذكر بأنّه وقع أسيرا في يد العرب لمدّة ناهزت الثّماني سنوات، غير أنّ هناك من يؤكّد على زيارة هذا المؤرّخ والرّحالة الإسباني الجزائر[7]، وكما هو معلوم فالأسر عكس الزّيارة، هذه الأخيرة التّي كانت على غالب الظّنّ ديبلوماسيّة، وعلى الأرجح أنّها جاءت بعد عمليّة تحريره وافتدائه.

وممّا زاد كتاب مارمول كارفاجال أهميّة وقيمة، أنّ الرّجل ذو خبرة عسكريّة لأنّه كان أحد محاربي إسبانيا وفي صفوف قائدها شارل الخامس ممّا يكسبه دقّة الملاحظة والتّمعّن، كما أنّ زيارته في إطار بعثة أو إرساليّة[8]، تحتّم عليه تنفيذ المهمّة بنجاح ويفتح له مجال الكتابة والتّدوين فيما يراه ضروريّا لذلك فيما نعتقد.

---

[1]-ج.ب.وولف، المرجع السّابق، ص463.

[2]- احميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيّات الرّحلة و الأسر خلال العهد العثماني، مذكّرات تيدنا انموذجا،** دار الهدى، الجزائر،2003، ص30.

[3]- إسماعيل العربي، **"بجاية من خلال النّصوص الغربيّة"**، الأصالة، العدد19، الجزائر، 1974، ص ووليم سبنسر، **الجزائر في عهد ريّاس البحر،** تعريب و تقديم عبد القادر زباديّة، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص192.

[4]- ج.ب.وولف، المرجع السّابق، ص463.

[5]-Nour-Eddine Melki , "**Marmol Karvajal et ses sources arabes ",** actes 2 ème Colleque internationale sur IBN-Khaldoun du 1er ou 4 juillet , 1986, C.N.E.H , Alger,1986, p37.

[6]- ج.ب.وولف، المرجع السّابق، ص463.

[7]- احميدة عميراوي، المرجع السّابق، ص30.

[8]- ج.او.هابنسترايت، **رحلة العالم الألماني ج.او.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ/1732م،** ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدّين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، ص12.

من الأوروبيّين عموما والفرنسيّين والإيطاليّين والإسبانيين خصوصا من كانت تحرّكهم خلفيّات عدائيّة للوجود العثماني في الجزائر، ولعلّ "مارمول كارفاجال" واحد من هؤلاء الّذين عرفوا بآرائهم المتميّزة ونظرتهم الإزدرائيّة فيما سجّل عن أقطار المغرب العربي وبالأخص في الفترة العثمانيّة[1].

لقد اعتمد العديد من المؤرّخين والمهتمّين بالشّأن الإفريقي في القرن السّادس عشر ميلادي على كتاب مارمول كارفاجال ومن بين هؤلاء هنري دالماس دوقرامون[2] Henri Delmas De Grammont صاحب الكتاب المعروف: **تاريخ الجزائر تحت الحكم التّركي Histoire d'Algerie sous la domination de Turque ما بين (1515–1830)** والذّي صدر سنة 1887، وهو من بين أشهر الدّراسات التّاريخيّة للعهد العثماني في الجزائر، ومن دون أدنى شك فقد اعتمد على كتاب مارمول أصحاب رحلات القرن السّابع عشر ميلادي من الأوروبيين أيضا.

ولقد وجدنا في ثنايا بعض الكتب المعاصرة والدّراسات الأكاديميّة التّي اعتمد أصحابها على كتاب مارمول كارفاجال من بينهم على سبيل الذّكر لا الحصر نذكر: ج.ب.وولف، وليم سبنسر، حنيفي هلايلي، ناصر الدّين سعيدوني وأبو القاسم سعد اللّه[3]... وغيرهم كثير، كما أنّ الكتاب قد ترجم إلى اللّغة العربيّة في الرّباط سنة 1984 في ثلاثة أجزاء على يد كل من محمّد حجّي وآخرون (M. Hadji et autres)[4].

1-3وليم ليثغو: Wiliam Lithgow (1582):

ولد عام 1582 من عائلة اسكتلنديّة غنيّة، كان مولعا منذ الصّغر بالتّرحال والتّنقّل لمعرفة كلّ شيء غريب عليه، فما كاد يبلغ سنّ العشرين من عمره حتى بدأ مغامراته في عدّة رحلات التي قادته إلى

---

(1)- نفس المصدر، ص ص12-13.

(2)-ولد دوقرامون بفرنسا في 1830/08/05 من عائلة ارستقراطيّة، أمضى نصف عمره بالجزائر التّي انتقل إليها سنة 1850 في إطار الخدمة العسكريّة، اهتمّ اهتماما بالغا بتاريخ الجزائر في العهد العثماني، يعتبر أحد مؤسّسي الجمعيّة التّاريخيّة للجزائر منذ 1874، كما ارتبط اسمه كثيرا بالمجلّة الإفريقيّة.

(حنيفي هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1، دار الهدى، الجزائر،2008، ص110).

(3)-ج.ب.وولف، المرجع السّابق، صفحات متفرّقة. ووليم سبنسر، المرجع السّابق، صفحات متنوّعة. وحنيفي هلايلي، المرجع السّابق، ص117.وزكريا العابد، **الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبيّة**، رسالة ماجستير، كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، 2007، ص09. وأبو القاسم سعد اللّه، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج1، طبعة خاصّة، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص315. ومولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص13...).

(4)-مارمول كاربخال، **إفريقيا** ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر وآخرون،3ج،مكتبة المعارف، الرباط ،1984.

أوروبا والشّرق وحتّى إفريقيا، وقد كان هذا الرّحالة شاعرا، مؤرّخا وجغرافيّا، كما يعتبر من الرّواد الذّين سجّلوا حضورا قويّا في وصف المشاهد والرّحلات(1). له كتاب معروف عنوانه "**الوصف الكامل لتسعة عشر سنة من المغامرات العجيبة والرّحلات المهلكة**"(2)، وفي هذا الكتاب يذكر مشاهداته عن الجزائر وعن عاصمتها.

تعتبر رحلة وليم ليثغو رحلة فرديّة، لم تكن وراءها جهات معينّة، ولم يكن مدفوعا لغرض معيّن سياسي أو أمني... أو ما شابه ذلك، بقدر ما كانت تدفعه رغبته في حب الاطّلاع والتّعرّف على ما يجهل، لذلك اعتمد هذا الرّحالة على إمكاناته الماليّة لتغطية مصاريف رحلته، وتحمّل كلّ الصّعاب والعقبات(3) في سبيل معرفة الآخر، حتّى جاءت رحلاته تحمل ذلك العنوان في الرّبع الأوّل من القرن السّابع عشر " **المغامرات العجيبة والرّحلات المهلكة**".

وقد قادته رحلته إلى عدّة مدن جزائريّة، ولعلّ في مقدّمتها مدينة الجزائر، ثمّ توجّه شرقا وغربا إلى أن وصل إلى كل من تلمسان، بجاية وقسنطينة... وهي مدن كان لها حضور مميز في تاريخ القطر الجزائري ككل، وعلى غالب الظّن أنّه سمع أو قرأ عنها لذلك كان توجّهه إليها توجّها فرديا أراد من خلاله أن يقف على ما تعرّف عليه وأن يطّلع على حقيقة ما توصّل إليه.

ولقد أورد ناصر الدّين السّعيدوني وليم ليثغو الرّحالة الاسكتلندي ضمن قائمة الرّحالة الذّين زاروا الجزائر وكانوا أكثر الموضوعيّين، وقدّموا تآليف لم تكن لها خلفيّات سياسية معادية للحضور العثماني في الجزائر(4).

كما أننا نعتقد بأنّ هذا الرّحالة لم يتأثّر بما كان يسمع من إشاعات وأقاويل التّي كانت تشاع في أوروبا عن الجزائر ورجال بحريّتها، وحتّى عن شعبها وكل ما تعلّق بهما.

---

(1)- ميشيل آبار، " **الجزائر في القرن السّابع عشر لرحّالة اسكتلندي**"، ترجمة حنفي بن عيسى، الثّقافة ، العدد 3 ، الجزائر ، 1971 ، ص ص 44-45.

(2)-Wiliam Lithgow thtotall , **Discourse Of The Rare Adventures And Painefull peregrinations of long nineteene years travayles from scotland to the most kingdom in Europe , Asia and Africa**, London, 1614,tard, et Pub ,en Français par Pierre Grandchamp sous le titre : **Voyage dans les états barbaresques (1615-1616),**R.A ,T91,1947,pp213-214

(3)- زكريا العابد ، المرجع السّابق ، ص 22 .

(4)- ناصر الدين سعيدوني ،**ورقات جزائرية،دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائرفي العهد العثماني**، دار الغرب الإسلامي بيروت،2000 ،ص ص 21-100 .

وإن سجّلت الكتابات سنة تواجده في الجزائر ما بين 1614-1615، إلّا أنّه بقي فيها مدّة أشهر تنقّل أثناءها في أرجائها وكتب عنها فيما بعد، وعلى غالب الظّن أنّ رحلاته فيها نوع من الحقيقة عن بلادنا وعن أهمّ مدنها والحياة الحضريّة فيها، وهذا بحكم أنّه كان مغامرا، كما أنّه لم يكن ينوي أن يرفع تقريرا خاصّا إلى جهات رسميّة مثلما فعل بعض المبعوثين والقناصل، والأمثلة عن هذا ذلك كثيرة[1].

1-4**أبو القاسم الزّياني**: (1734-1833):

هو أبو القاسم بن أحمد بن محمّد بن علي بن إبراهيم الزّيايي، ينتسب إلى قبيلة زيان الصّنهاجيّة القاطنة بنواحي فاس، ولد بفاس عام 1734م، تلقّى تعليمه بها حيث درس الفقه، الحديث، التّفسير، النّحو والمنطق...على يد أساتذة فطاحل في كل من مدرستي العطاريّين والصّهريج، مسجد الأندلس وجامع القرويين[2].

في عهد السّلطان مولاي عبد الله رافق الزّيـاني والديه لأداء فريضة الحج، ودام هذا الغياب عامين كاملين، وطريق عودتهم كان عبر إيطاليا الّتي مكثوا بها قرابة 4 أشهر في انتظار المركب الذي لم يأت، الأمر الذي اضطرّهم إلى إكمال رحلة العودة إلى المغرب عن طريق مرسيليا وبرشلونة برًا دخلوا المغرب الأقصى[3].

في بداية العقد الثّالث من عمره ، انتقل إلى البلاط الملكي ليعيّن كاتبا بالقصر، فأظهر إتقانه للعمل وتفانيه فيه، الأمر الذي قربه من السّلطان مولاي محمّد بن عبد الله (1757-1790)، فأسندت له عدّة مهام[4].

عُيّن سفيرًا بإسطنبول أيّام عبد الحميد (1774-1789) لكن لمدة لم تتجاوز الثّلاثة أشهر، ثمّ عُزل أيّام مولاي اليزيد بن محمّد (1790-1792)، لكنّه عاد مرّة أخرى إلى البلاط الملكي في فترة حكم مولاي سليمان بن محمّد (1792-1822)[5].

---

(1)- Nicolas Rosalem, **"la mission à Alger du consul du Venise Nicolas Rosalem 1753-1754"** , trad de l'italien par , MLLe M . Despois , in R.A,1952 ,pp66-104.

(2)- أبو عمران الشّيخ وآخرون، **معجم مشاهير المغاربة**،منشورات دحلب،الجزائر،2000، ص234.

(3)- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص20.

(4)- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص476.

(5)- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص21. وناصر سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص476.

بعد مدّة قاربت الإحدى عشرة سنة أو أكثر من الخدمة في البلاط الملكي والوظيف الحكومي والمهمّات الدّبلوماسيّة تفرغ الزّياني للكتابة والتّأليف، بما حمله من تجارب وخبرات ورحلات ساعدته في الأخير على التّدوين والتّسجيل، وفي هذا الشّأن ذكر أنّ للزّياني مؤلّفات عدّة قاربت العشرين تأليفًا، لكنّ الأستاذ ناصر الدّين سعيدوني يحدّد له ثلاثة كتب رئيسية هي[1]:

أ- **التّرجمان المعرّب عن دول المشرق والمغرب.**

ب- **البستان الظّريف** (**الرّوضة السّليمانيّة**).

ج- **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا.**

والسّؤال الّذي يجدر بنا طرحه، ما علاقة الزّياني بمدينة الجزائر؟

إنّ كتاب رحلة الزّياني "**التّرجمانة الكبرى**" من المصادر التّاريخيّة الهامّة الّتي تتّصل بمدينة الجزائر[2]، حيث نزل فيها وأقام بها وأكرمه أهلها وحكّامها هذا خلال ذهابه إلى المشرق، وفي أثناء عودته أيضا زارها مرّة ثانية قادما إليها عن طريق تونس وقسنطينة فوجد التّرحاب والضّيافة والمساعدة، فكتب عنها صفحات عديدة فاقت العشرين[3].

يقول أبو القاسم سعد الله: «...يبدو أنّ اختلاف النّظم السّياسيّة بين المغرب والجزائر كان رحمة على العلماء، فبقدر ما كان سلاطين المغرب يقرّبون علماء الجزائر ويعطونهم مثاقيل الذّهب ويوفّرون لهم الكساء و...والاحترام بقدر ما كان باشوات الجزائر يستقبلون بعض علماء المغرب ويقدّمون لهم المال والوظيف والوجاهة... ومن المعروف أنّ أبا القاسم الزّياني قد اختار الإقامة في الجزائر...»[4]، غير أنّ إقامته لم يكتب لها أن تتحقّق بغضّ النّظر عن أسبابها وعواملها.

ما يهمّنا في هذا الموضوع هو إقامة الزياني في مدينة الجزائر (1791) حيث ذكر الأشخاص، المساكن، المأكولات وحتّى الفنادق، كما ذكر شخص القاضي أبو عبد الله محمّد بن مالك وأشار إلى عقد المحكمة الشّرعية في المسجد الجامع (الجامع الكبير) وسجّل ملاحظات عديدة في الجانب الثّقافي

---

[1]- ناصر سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص476.

[2]- ناصر الدّين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، ط2،دار البصائر،الجزائر، 2008 ،ص98.

[3]- أبو القاسم الزّياني، **التّرجمانة الكبرى**، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء المغربيّة، فضالة،1967،ص ص140-157 و374-380.

[4]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج1، المرجع السّابق، ص439.

والدّيني وحتّى الجانب العمراني[1] وقليل من الجوانب الأخرى الاقتصاديّة، الماليّة والسّياسيّة أيّام حسن باشا، حيث قال: «...الحمد لله الّذي خلق الإنسان، وعلمّه البيان...وتقدّست أسماؤه وصفاته... رجوعنا من الحرم الشّريف ودخولنا إلى ثغر الجزائر الشّهير عن التّعريف وإقامتنا به للمانع الّذي حصل... كنت أجتمع مع أفراد من الأخيار وجماعة من العلماء الأحرار وأتفاوض معهم في سيرة سلطانهم الأعظم، الماجد الأكرم حامي بقبضته الإسلام...»[2].

ولعلّ لعلماء المغرب الأقصى السّبق الكبير في الكتابة والتّأليف في جانب الرّحلات، خصوصا ما تعلّق بمسلكهم إلى البقاع المقدّسة أو لآدائهم مهام أخرى ، والأمثلة على هذا كثيرة، ممّن دوّنوا الأخبار العديدة والمعارف الجمّة عن مدن الجزائر وفي مقدّمتها مدينة الجزائر، من أمثال الحسن الوزان، التّمقروتي، ابن زاكور، الجامعي، المكناسي، الزّياني، ...وغيرهم.

أما التّصانيف الأخرى فما هي إلاّ اقتباسات من الكتب الرّئيسيّة الثّلاثة السّابقة الذّكر وهي: **رسالة السّلوك فيما يجب على الملوك، رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق، تحفة الهادي في نسب شرفاء المغرب** و**الدّرة السّنية الفائقة في كشف أهل البدع والزّنادقة**...ومواضيعها تاريخ الدّولة العلويّة والتّاريخ العام[3]. وما يهمّنا من كتب الزّياني التي ذكر فيها الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر أواخر القرن الثّامن عشر هي بلا شك "**التّرجمانة الكبرى**".

أنهى الزّياني كتابة "**التّرجمانة الكبرى**" في 20 جوان 1818 وعنونها بعنوان طويل جدّا وهو: "**التّرجمانة الكبرى الّتي جمعت أخبار العالم برًا وبحرًا وما تخلّلها من الأمصار والمدن والقرى والقفار والبحر والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار وما يزيد ذلك من تفسير والآثار ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار**"، وهي تجمع رحلاته الثّلاثة خارج المغرب الأقصى (رحلته الأولى إلى البقاع المقدسة (1755-1757) والرّحلة الثّانية إلى إسطنبول (1785) والثّالثة إلى الحجاز (1791)[4]، هذه الأخيرة التي كانت محور اهتمامنا بما تحمله من أخبار عن مدينة الجزائر، لأنّ الزّياني أقام فيها وكان شاهد عيان لما حدث فيها في تلك السّنة.

---

[1]- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص ص185-186.

[2]- أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص192.

[3]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص477.

[4]- أبو عمران الشّيخ وآخرون، المرجع السّابق، ص235.

وإذا ما عدنا إلى مضمون **التّرجمانة الكبرى**، فنجدها قد احتوت على العديد من الأخبار، منها ما تعلّق بشخص الزّياني ومنها ما هو معلومات وأخبار تاريخيّة منقولة عمّن سبقه في مجال الرّحلة كالبكري والعيّاشي في مؤلفيهما "**المسالك والممالك**" و"**ماء الموائد**" على التّوالي[1].

نلمس في **التّرجمانة الكبرى** وصفا لمعالم أثريّة ومظاهر عمرانيّة، مثل وصفه لمسجد بمدينة الجزائر، بل قال فيه وفي مشيّده أبياتا شعريّة لا تزال شاهدة عليه، ويجدر بنا أن نقول بأنّه كانت للزياني نيّة الاستقرار في تلمسان، إلاّ أنّه عدل عنها واستقرّ أخيرا في بلاده المغرب الأقصى، أين تمّ كتابة معظم تآليفه بعد اعتزاله الوظيف الحكومي في سن متقدّمة، وبعد تاريخ حافل وافته المنيّة في نوفمبر 1833[2].

2- أصحاب مصادر الرّحلة الخاصّة:

2-1 عبد الرّزاق بن محمّد (ابن حمادوش): (حوالي 1695-1785):

هو عبد الرّزّاق بن محمّد بن محمّد المعروف باسم ابن حمادوش، ولد في مدينة الجزائر حوالي 1107هـ/ 1695م على غالب الظّن، وكان من أسرة متوسّطة تمتهن حرفة الدّباغة على ما يظهر من اسم والده، عمّر طويلا حيث يقال أنّ ابن حمادوش تجاوز التّسعين سنة في عمره[3].

تتلمذ ابن حمادوش على يد العديد من مشايخ عصره وفي مقدّمة هؤلاء محمد بن ميمون[4]، وكان علمه وتكوينه في الغالب يعتمد على القراءة حتّى صار موسوعيا يملك عدة معارف وعلوم، وجالس العديد من مشاهير العلماء، سواء داخل الجزائر أو خارجها[5]. ونلمس هذا من خلال رحلاته وتنقّلاته إلى المغرب الأقصى، إلى تونس وإلى المشرق حيث أكمل دراسته، كما أنه عرف باسم الطّبيب، وقد

---

(1)- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص480.

(2)-المرجع نفسه، ص477.

(3)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، تقديم وتحقيق و تعليق أبو القاسم سعد الله، موفم،الجزائر،1983، ص09.

-وأبو القاسم سعد اللّه، "**رسالة في الكرة الفلكيّة منسوبة إلى ابن حمادوش (ق18)**"، حوليات جامعة الجزائر، العدد05، 1991، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ص18.

(4)- محمّد بن ميمون (ت بعد1120هـ/ 1708م) هو محمّد بن ميمون الزّواوي الجزائري، وكنيته أبو عبد اللّه، فقيه صوفي له مشاركة في الأدب والتّاريخ، من آثاره التحفة المرضية في الدّولة البكداشية.

(عادل نويهض ،**معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر**،ط2،بيروت،1980 ،ص13).

(5)- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص432.

أخذ هذا العلم عن العلامة عبد الوهاب الأدرق الطّبيب الخاص للسلطان مولاي إسماعيل، وكان ذلك بفاس، واطّلع على الكتب الطّبيّة المشهورة، ولا سيما كتب ابن سينا، ابن البيطار والأنطاكي... وغيرهم، واعتنى أيضا بالمنطق، الرّياضيات، علم الفلك والطّبيعيات[1].

إنّ لابن حمادوش من التّأليف والكتب العديد، ولعلّ من بينها القاموس المشهور في جل أسماء الأعشاب[2]، وقد ذكر فيه بيئة كلّ نبات وأسماء الأعشاب عربية كانت أو أوروبية، وهذا ما يدحض أقوال الأوروبيين حول انعدام الطّب في الجزائر عموما، وكذا افتراؤهم بعدم اهتمام الجزائريين خصوصا والمسلمين عموما بالأمور الصّحية والطّبية.

بقدر ما فشل ابن حمادوش في حياته الزّوجية خصوصا الأولى، فقد نجح في حياته العلميّة، لأنّ زواجه الأول كان من ابنة عمّه والثّاني كان من فتاة تمتهن عائلتها حرفة تلميع النّحاس، ففي زواجه الأول كان ابن حمادوش حديث السّن يسكن مع عمّه، إلّا أنّ حياته الزّوجية كانت مجهولة القيمة عنده[3].

ولعلّ الفقر المدقع كان وراء طلب زوجته الأولى الطّلاق، لذلك تزوّج ثانية، ورغم هذا كان كثير الملازمة للكتب، وحاول مرارا أنّ يجمع بين التّجارة والعلم[4].وإذا كان لم يوفّق مع الأولى فقد نجح مع الثّانية، فأصبح يؤلّف الكتب ويتاجر فيها حتّى ينفّس عن فقره المادي.

وهناك في حقيقة الأمر عدّة عوامل صقلت شخصيّة ابن حمادوش وجعلته في قائمة العلماء والمثقفّين، ولابأس أن نذكر ما استنتجناه من ذلك:

1- الموهبة وحبّه للعلم جعلا منه شخصيّة مميّزة في عصره.

2- حالة الفقر دفعته إلى ملازمة الكتب ونسخها [5].

---

[1]- أبو القاسم سعد اللّه، **رسالة**...، المرجع السّابق، ص18.

[2]-أبو عمران الشّيخ وآخرون، المرجع السابق، ص139.

[3]- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق.

[4]- أبو القاسم سعد اللّه، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج2، المرجع السّابق، ص425.

[5]- فاتح بلعمري، **مدينة الجزائر في القرن 12هـ/ 18م من خلال بعض الرّحّالة العرب والأوربيّين – دراسة مقارنة**- رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2009، ص7.

3- تتلمذه على يد عدّة مشايخ فطاحل كان لهم الباع الكبير وقتها داخل الجزائر وخارجها[1].

4- الرّحلة شرقا وغربا، إلى الحجاز وإلى المغرب الأقصى، لأنّه كان شغوفا بالتّنقّل والرّحلات شديد الاهتمام بطبائع الناس وعاداتهم وغرائب الأمور عندهم[2]...، ورغم ما كتب عن حياة ابن حمادوش وبحكم أنّه ابن مدينة الجزائر وعاش فيها طيلة حياته ، إلا أنّه مازالت هناك جوانب عديدة مظلمة في حياة هذا الرّحالة الّذي قدّم الكثير وبالأخص في جانب التّأليف والكتابة، ولا بأس أن نذكر في هذا الصّدد ما نسب إليه من عناوين وهي: **الجوهر المكنون في بحر القانون، شرح على منظومة ابن غرنوط، بغية الأديب في علم التّكعيب، فتح المجيب في علم التّكعيب، تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج**... وكتابات أخرى في مجالات عدّة، في الرّزنامة، الأعشاب، علم الفلك، علم البلوط (الطّرق البحرية)، عمل البونبة، الرّخامة الظليّة والقوس الّذي يعتمد عليه النّصارى في حركة الشّمس؛ كما قدّم تعليقا على ألفاظ الدّيباجة الواردة في منظومة ابن سينا، وكذا خارطة اتّجاهات رياح البحر[3].

من خلال القائمة المتنوّعة للكتب الّتي سال فيها قلم ابن حمادوش يبدو جليا أنّه كان رجلا موسوعيّا حاول أنّ يلج عدّة علوم لم تكن معروفة في بيئته. لكن وللأسف معظم كتاباته لاتزال غير معروفة وهذا من بين أهم النّقاط الغامضة الّتي تستحق البحث والتّمحيص[4].

إنّ أهم عمل قام به في مجال الرّحلة هو كتابه " **لسان المقال في النّبأ عن الحسب والنّسب والحال**"، والّذي نحن بصدد إستخلاص منه ما تعلّق بالحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وبالتّحديد زمن حياة هذا الطّيب الرّحالة (1695-1785).

لقد طبعت رحلة ابن حمادوش في ورشة أحمد زبانة التّابعة للمؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، وكان هذا سنة 1983، أي بعد ما مضى وقت طويل على كتابتها (أكثر من قرنين من الزّمن)، وقد تفضّل الأستاذ سعد اللّه بتحقيقها ونال شرف التّعريف بها، معتمدا على النّسخة العامّة الموجودة في مكتبة

---

(1)- ومن هؤلاء: المفتي محمّد بن نيقرو، القاضي مصطفى بن رمضان، أحمد الورززي المغربي، أحمد بن عمّار، محمّد البناني وابن علي...(ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص432).

(وأبو القاسم سعد اللّه، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج2، المرجع السّابق، ص426).

(2)-المرجع نفسه، ص426.

(3)-المرجع نفسه، ص431.

(4)- فاتح بلعمري، المرجع السّابق، ص08.

الخزانة العامّة بالرّباط تحت رقم ك 463، وهي في شكل مسودّة، وهذه النّسخة فيها ما يذكر في بدايتها أنّها الجزء الثّاني من الرّحلة، لأنّ هذا الجزء لا يحتوي علي الدّيباجة المعروفة في التآليف المعتادة وقتها، ولا بيان الغرض والدّافع إليه، ولا الخطّة ولا سبب اختبار العنوان، وقد تكون عليها عبارة حسب ما ذكر محقّقها تملك الشيخ المفتي أحمد العمالي، ولكنّ الشيخ عبد الحي الكتاني أزال هذه العبارة وكتب اسمه لأنّه ملك النّسخةا[1].

وقام أبو القاسم سعد اللّه بتحقيق هذه الرّحلة في مدّة زمنيّة قاربت العشر سنوات، وهو بهذا العمل قدّم مساهمة للعلم والباحثين وكذا المهتمّين بمجال الرّحلة وتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني (ق18).

وتعتبر رحلة ابن حمادوش وثيقة هامّة لمعرفة أوضاع الجزائر الاجتماعيّة والثّقافيّة وحتّى السّياسيّة وأيضا أوضاع المغرب الأقصى، ونتلمس فيها الوصف الدّقيق للحياة اليوميّة في المناطق الّتي زارها وأقام بها[2].

وفي حقيقة الأمر، إنّ الرّحلة مكوّنة من عدّة أجزاء، لكنّ الموجود منها والمعروف لحد الآن هو الجزء الثّاني والبقيّة لاتزال مفقودة[3]، وهذا ما يبقي مجال البحث مفتوحا، ولم لا إمكانية العثور عليها، ولا نودّ هنا أنّ نتحدّث عن المخطوطة أو عن من أشار إليها بقدر ما نريد أنّ نعرف الحياة الحضرية من خلال هذه الرحلة.

كانت بداية هذا الجزء من الرّحلة غرة عام 1156هـ الموافق لـ 1743م وهو تاريخ انطلاق رحلة ابن حمادوش إلى المغرب الأقصى، وآخر تاريخ كتب فيها هو 1160هـ/1747م[4]، وعلى هذا الأساس فإطارها الزّمني هو أواخر النّصف الأوّل من القرن الثّامن عشر، أمّا فيما يخصّ مضمونها فإنّ ابن حمادوش يتحدّث عن مدينة الجزائر وعن سكّانها في مراحل من الرّحلة منها مثلا: عادة أهل مدينة الجزائر في المولد النّبوي، قصّة تهرّبه من المكس في ميناء المدينة، بعض الأحداث العائليّة كختان ابنه وكيفيّة حدوث ذلك وكذا نوع القماش المستخدم والرّائج في تلك الفترة، كما أنّه لم يغفل الظّواهر

---

[1]-عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص ص13-14.

[2]- الشّيخ أبو عمران وآخرون، المرجع السّابق، ص139.

[3]-أبو القاسم سعد اللّه، **الطّبيب الرّحّالة ابن حمادوش حياته وآثاره**، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1982، ص56. وأبو القاسم سعد اللّه، **أبحاث**...، المرجع السّابق، ص ص182-183.

[4]-أبو القاسم سعد اللّه، **الطّبيب الرّحّالة**...، المرجع السّابق، ص129.

الفلكيّة وبعض الأمور السّياسيّة كقضايا افتداء الأسرى، رفض الدّاي استقبال المرسول العثماني، وعرج أيضا على ذكر بعض الظّواهر الثّقافيّة كعادة قراءة **صحيح البخاري** في الجامع الكبير وحادثة الحجر الصّحّي بالميناء لسفينة قادمة من الإسكندريّة[1].

يذكر ابن حمادوش عدّة حوادث ووقائع وعادات حصلت في مدينة الجزائر، ولو في جوانب معيّنة دون أخرى، الأمر الذّي يستحقّ التّوقّف والذّكر والتّمعّن، كما زوّدنا ببعض الأمكنة والشّخصيّات الفاعلة في تلك الفترة سياسيا وثقافيا، وهذا ما نسعى لتوضيحه.

إذا ما تصفّحنا رحلة ابن حمادوش نجدها مقسّمة إلى ثلاثة أقسام:

قسم خاص بالمغرب وقسم عن سيرة المؤلّف نفسه في الجزائر على شكل مذكّرات وحوادث يوميّة، وقسم يتضمّن النّقل من كتب قديمة وبعض عقود الزّواج على عادة أهل المدينة وبعض الأسانيد[2].

وممّا يلاحظ على رحلة ابن حمادوش أنّ التّرتيب الزّمني للأحداث جاء فيها عن طريق السّرد الحولي حسب ما وقع وشاهد وهي بالسّنين الهجريّة في الغالب، ولقد حاول ابن حمادوش تحرّي الأمانة والدّقّة فيما كتب حيث قال: «... لم أدر كيف كتب ولا ما صنع وإنّما بلغني...»، كما نجده مرّات عدّة يفتخر بعلمه وحلّه لبعض النّوازل خصوصا في الجامع الكبير مع أقرانه، أمّا عن مصادر رحلته فإمّا النّقل من الكتب السّابقة أو المشاهدة الشّخصيّة، وأنّ أخباره الّتي يذكرها والحوادث الّتي يوردها متنوّعة ثقافيّة واجتماعيّة أكثر منها سياسيّة[3].

إنّ رحلة ابن حمادوش تندرج في قائمة المصنّفات الهامّة من تراث الجزائر العربي الإسلامي، نظرا لما تحويه من أخبار دقيقة[4]، وما تنبّئنا عنه من معلومات ومعارف جديدة في غاية الأهميّة، وهذا ربّما لتفرده بكتاباته المتنوعة وابتعاده عن الوظيف الحكومي، حيث قال في هذا الشّأن: «... كان من فضل اللّه عليّ أن لم أجعل علمي سلما للدّنيا، ولم أنل به شيئا، ولم أمدح أحدا لطمع...»[5].

كان ابن حمادوش –إلى حد كبير– موضوعيّا إذا ما قورن بثلّة العلماء الّذين كتبوا في القرن

---

[1]– عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، صفحات متفرّقة.

[2]–أبو القاسم سعد اللّه، **أبحاث**...، المرجع السّابق، ص231.

[3]–المرجع نفس، ص231.

[4]–المرجع نفسه.

[5]–المرجع نفسه، ص07.

الثّامن عشر ميلادي، كما برع أيضا هذا الطّبيب الرّحالة في نظم الشّعر وكتابة المقامات، ووجد فيها ما يؤكّد على أنّه رحّالة وزار العديد من المناطق والجهات إذ يقول:

قطعــت بحـــارا مـــوهلات ودونهـــا قفـــارا لا تأويهــــا الوحـــــوش مــــع الطّيــــر.

وجبـــت بـــلاد التّـــرك والعـــرب والعجـــم علـــى قـــدمي طـــورا وطـــورا علـــى الحميـــر[1]

تفرد ابن حمادوش"عن معاصريه في تفكيره وكتاباته، وهذا ما تجلى في رحلته **"لسان المقال"** ما جعلنا نختارها من بين أهمّ الرّحلات العربيّة الّتي تحدّثت عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بعض الغربيّين الّذين كتبوا عن ابن حمادوش من أمثال ج.كولين ول.كليرك... وغيرهما[2].

2-2**محمّد أبوراس النّاصر (حوالي 1737–1823)**:

"هو العلاّمة المحقّق، الحافظ، البحر الجامع، المتدفّق اللاّفظ سيدي محمّد أبوراس بن أحمد بن ناصر الرّاشدي"[3]، ولد بضواحي جبل كرسوط[4]، حوالي 1737 من أسرة فقيرة، عُرف بالتّرحال منذ نعومة أظافره، فتنقّل بين متّيجة وحوز مجّاجة (نواحي الشّلف)، واستقّر أخيرا بمعسكر[5]، ورغم الاختلاف الوارد في سنة ولادته بين (1737-1751) ، إلا أن الأكيد أنه مخضرم بين القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر ميلادي.

بدأ حياته بتعلّم القرآن وحفظه، ثمّ تتلمذ على يد عدّة مشايخ كان لهم السّبق في العلم والورع، أمثال الشّيخ عبد القادر المشرفي[6] بمدينة معسكر، وبعدها ارتحل إلى الرّيف، هناك تزوّج ودرس وقلّد

---

(1)-أبو القاسم سعد اللّه، **"أشعار ومقامات ابن حمادوش الجزائري"**، الثقافة، العدد49، يناير فبراير 1979، ص38.

(2) -G.Colin, **Abderrazzàq el-Jezairi in le médecin arabe du XIIeme siécle de l'hégire** (These a Mon pelier), Alger, 1905.
Et L.Leclerc, **Histoire de la médecine arabe**, T1, Paris, 1876.
et L.Leclers**, Kachef er-Romoz**, (trad), Paris, 1874.

(3)- أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج2، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985 ،ص167.

(4)- كرسوط: جبل يقع غربي بلدية وادي التاغية على بعد 150 كلم من مدينة سعيدة بالغرب الجزائري أبوراس، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، ج1، تقديم وتحقيق محمّد غانم، منشورات المركز الوطني في البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثّقافيّة، وهران، 2005، ص10.

(5)- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث...**، المرجع السّابق، ص460.

(6)- لقد قيل بأن لعبد القادر المشرفي رحلة مخطوطة بزاوية الهامل، لكن بعد تأكّدي من هذا فلا توجد رحلة لهذا العالم الجليل بالمنطقة المشار إليها (زاوية الهامل ببوسعادة).

القضاء أيضا، ثمّ عاد إلى مدينة معسكر واستقرّ بها، وأصبح بعدها محطّ ومقصد الطّلاّب من كلّ جهات الوطن، فأقام حلقات العلم من شرح وتفسير وإفتاء...وهذا كلّه بإذن من شيخه عبد القادر المشرفي، واستمر على هذه الطّريقة مدّةً من الزّمن ناهزت ستة وثلاثين عامًا[1].

وتذكر المصادر والمؤلّفات أنّ "أباراس" حجّ مرّتين على الأقل، الأولى سنة 1790 والثّانية سنة 1812.

كان أبوراس ذو قلم سيال، وإلى العلم ميّال، وفي هذا الشّأن ترك العديد من المؤلّفات في شتى أنواع من العلوم، ولابأس في هذا المقام أن نذكر بعضا منها:

درء الشّقاوة في حروب درقاوة، زهرة الشماريخ في علم التّاريخ، الحلل السّندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة و**روضة السّلوان المؤلّفة بمرسى تطوان،** كما ترك **در السّحابة فيمن دخل المغرب من الصّحابة،** بالإضافة إلى **الوسائل في معرفة القبائل، ذيل القرطاس في ملوك بني وطّاس، الزّمردة الورديّة في الملوك السّعديّة، الزّهرة السّماوية في أخبار الملوك العلويّة، العزّ المتين في ذكر ملوك بني مرين، القصص الفتّانة في ذكر البربر وزناته وما رواه الواعون في أخبار الطّاعون...**[2].

وفيما نعتقد ليست كلّها فيما ألّف، بل هناك مؤلفات أخرى، وما يبدو جليّا أنّها إمّا في التّراجم أو السّير أو التّاريخ أو الأخبار والأنساب.

يعدّ أبوراس بحق عالما موسوعيّا، ترك تآليفا عدّة، وآراءً تنم عن شخصية علميّة مثقّفة ومتديّنة، وتأثّر بما حدث في عصره من أحداث وقعت سواء في الجزائر، أو في المغرب الأقصى، أو في أنحاء العالم الإسلامي ونذكر منها: حملة أوريلي على مدينة الجزائر[3]1775، فتح وهران الثّاني 1792، ثورة درقاوة ضدّ العثمانيّين في الغرب الجزائري في القرن 18، ظهور الدّعوة الوهابيّة وحملة نابليون على مصر

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي...**، ج2، المرجع السّابق، ص 378.

[2]- أبوراس النّاصر، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، تحقيق وضبط وتعليق عبد الكريم الجزائري، م، ،و،ك ،ص ص17-182.

وناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث...**، المرجع السّابق، ص 462.

ومحمد الصّالح الصّديق، **أعلام من المغرب العربي**، ج1، موفم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2000م، ص ص15-21.

[3]- Général Felix Geronimo Buch, **"Expédition de Conte Oreilly Contre Alger 1775"**, In R.A N°:9, 1895, pp39-42.

1798[1].

لقد أضاف الجزائريون إلى أدب الرّحلة عدّة مؤلّفات، وكان لهم حضور فيها أثناء العهد العثماني، إلاّ أنّها قليلة إذا ما قورنت بالرّحلات الأوربيّة أو رحلات المغاربة مثلا، والّتي تعدّدت أغراضها وأهدافها[2]، ورحلة أبوراس لا تخرج عن نسق أنّها رحلة حجازيّة علميّة وهي تحت عنوان: **فتح الإله ومنته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته** وهي من **عدّتي ونحلتي في تعداد رحلتي**، كما أنّ له تأليفا آخر هو **عجائب الأسفار والطّائف الأخبار** في جزأين، وسنحاول أن نستخلص منهما ما تعلّق بمدينة الجزائر وبالحياة الحضريّة فيها، خصوصا أيّام مروره بها وإقامته فيها، وإن كانت أخباره الّتي يقدّمها لنا علميّة ثقافيّة ودينيّة أكثر منها شيءٌ آخر فيما نعتقد ولهذا الأمر أسباب عديدة.

لكن ماهي مضامين رحلة أبي راس **فتح الإله**... وما الجديد فيها عن مدينة الجزائر وعن الحياة الحضريّة فيها؟

تضمّ رحلة أبوراس خمسة أبواب[3]، تناول في الباب الأوّل (الولادة، النّشأة، التّعلّم، التّرحال، الزّواج، ...)، أمّا في الباب الثّاني فتحدث عن شيوخه الّذين تتلمذ على أيديهم ونال منهم علمًا وافرًا، وفيما يخصّ الباب الثّالث (والّذي يهمّ الموضوع) وله علاقة بمدينة الجزائر أثناء رحلته إلى المشرق والمغرب ولقاءه بعدة علماء وما دار بينهم من مناقشة وتدارس، فتناول فيه علماء المدينة وسرد في هذا الأمر المسائل التي طرحت والأحاديث التي درست بينهم، أمّا الباب الرّابع فتطرّق فيه أبوراس إلى الأسئلة الّتي طرحت عليه، بينما الباب الخامس والأخير فخصّصه لتآليفه ومصنّفاته وهو المعنون بـ: العسجد والإبريز فيما ألفت من بسيط ووجيز.

وإذا ما عدنا إلى كتابه **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار** فيحتوي أخبارا عامّة عن مدينة الجزائر في العهد العثماني، ويذكرها بالجزائر المحروسة ويروي جزءا من تاريخها، ويعرج على ميناء الجزائر ويذكر بعض الحملات الأوروبيّة الّتي تعرّضت لها المدينة دون أن ينسى أهمّ مساجدها وأوليائها الصّالحين منهم بالخصوص عبد الرّحمان الثّعالبي[4] سالف الذّكر.

---

(1) – أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**...، ج2، المرجع السابق، ص ص377-381.

(2)– نفس المرجع، ص382.

(3)– أبوراس النّاصر، **فتح الإله**...، المصدر السّابق، ص185

(4)– المصدر نفسه، ص ص23-25.

لقد نال كتاب **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار** اهتمام المنشغلين بالتّاريخ، حيث ترجم إلى الفرنسيّة من طرف أرنو تحت عنوان[1]: **Voyages extraordinaires et nouvelles agréable Alger**، وطبع سنة 1885، كما نشرت المجلّة الإفريقيّة عدّة فصول منه قبل ذلك[2].

وبحكم أنّ كتاب "**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**" مطبوع في جزءين، فإنّنا سنحاول الاقتباس منه ما تعلّق بالحياة الحضريّة في مدينة الجزائر حسب ما يذكره أبوراس نفسه من عناصر وهي: الحملات الصّليبيّة على المدينة وتأثيراتها، إشارات إلى بعض الأمكنة، المساجد، بعض الدّور والشّخصيات[3] ، ونحن باستعمالنا لهذا المصدر نريد أن نلم بموضوع الحياة الحضريّة في المدينة ، حتى تتسنّى لنا معرفة حقيقة هذه المدينة وحقيقة الحياة فيها من خلال الرحالة وما رصدته لنا أقلامهم في رحلاتهم، خصوصا العربيّة منها رغم قلّتها والتّي منها أبوراس.

توفّي أبوراس عام 1823، تاركا وراءه تاريخا حافلا بالتّأليف والمواقف العلميّة والدّراسية والبحث، وقد قيل بأنّه تجاوز التّسعين عند وفاته، وصلّى عليه ألف وخمسمائة نفس، جلّهم من حملة القرآن وعلماء وأشراف ودفن رحمه الله بمعكسر، وعليه بناء مشهور[4].

2-3-**ابن زرفة العمري (ق18)**:

ابن زرفة على ما يبدو لقب ينسب إلى مرضعة هذا الشّخص (العمري)، يقال أنّه من أولاد سيدي دحّو، وهي عائلة إدريسيّة انتقلت من الجزيرة الخضراء بإسبانيا إلى معسكر، وعائلته ظهرت على مسرح الأحداث في غرب الجزائر قبيل تحرير مدينة وهران[5].

لا تزال الأخبار شحيحة عن صاحب الرّحلة الموسومة بـ: **الرّحلة القمريّة** وهي الّتي لها علاقة وطيدة بفتح وهران سنة 1792، حيث التحق ابن زرفة العمري بديوان الباي محمّد الكبير الذي كلّفه بالإشراف على الطّلبة المرابطين في وهران، ويتّضح من دوافع رحلته القمريّة أنّها دوّنت لكي تقدّم للباي محمّد الكبير، والّذي يعتبر من أهمّ بايات الغرب الجزائري، ويعود له الفضل في استرجاع مدينة وهران من

---

[1]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص 465.

[2]- Arnaud (M.A)**, " Voyages extraordinaires et nouvelles agréable par Mohamed bouras ben Ahmed ben Abdelkader En-nasr ",** In R.A, N°:22, 1878, pp 434-443.

[3]- أبوراس النّاصر، **عجائب** ...المصدر السّابق، ج1، ص ص163-165.

[4]- محمّد الصّالح الصّدّيق، المرجع السّابق، ص21.

[5]- ابن زرفة العمري، **الرّحلة القمريّة**، تحقيق مختار حسّاني، جامعة الجزائر، 2003، ص147.

السّيطرة الإسبانيّة، وهذه الرّحلة هي تخليد للمناسبة المذكورة [1].

نسخة من الرحلة موجودة في المكتبة الوطنيّة تحت رقم: 2597، قام الدّكتور مختار حسّاني بتحقيقها في مخبر المخطوطات وظهرت للوجود في سنة 2003.

والحقيقة أنّ في هذه الرّحلة معلومات وأخبار هامّة تتعلّق بمدينة الجزائر ولعلّ صاحبها ارتحل إليها ودوّن معلومات عنها، أو استعان بمصادر أخرى كالّتي قدّمها له باي وهران محمّد الكبير والّذي كان يملك مكتبة في غاية الأهميّة.

تحدّث في رحلته عن دخول الأتراك إلى الجزائر، سياسة الأتراك بعد دخولهم الجزائر والحملات الأوروبيّة على مدينة الجزائر ويسمّيها بالغزوات، متتبّعا معالمها بالزّمن وفي ثنايا كلّ هذا نجد بعض ملامح الحياة في المدينة منها السّياسيّة والعسكريّة على وجه الخصوص[2].

ونظرا لقلّة الرّحلات العربيّة الّتي تتحدّث عن مدينة الجزائر في العهد العثماني إذ ما قورنت بالرّحلات الأوروبيّة فإنّنا سنحاول جاهدين استنباط مؤشّرات الحياة داخل هذه المدينة بما توفّر لنا من مصادر رحلة حتّى وإن كان اهتمام أصحابها ليس هو مدينة الجزائر فحسب، بل وقائع وأحداث أخرى.

2-4 **عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني** (1181هـ/1233هـ-1817م):

هو عبد الرّحمان بن إدريس بن عمر الأكبر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التّنلاني ينتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وكنيته أبوزيد، كان عالما ماهرا في أصول الفقه والتّفسير وكان حافظا للمسائل، ولد بتوات[3] سنة 1181 هـ.

تلقّى العلم عن الشّيخ سيدي عبد الرّحمان بن عمر وسيدي أحمد بن حميدة الزّجلاوي وهما من كبار علماء عصرهما في توات خلال القرن الثّاني عشر هجري، الثّامن عشر ميلادي[4].

---

[1]-ابن زرفة العمري، **الرّحلة القمريّة**، المصدر السابق، ص148.

[2]- نفس المصدر، ص ص220-229.

[3]- توات: إقليم يقع في جنوب غرب الصّحراء الجزائريّة الّتي هي جزء من الصّحراء الكبرى الإفريقيّة، غير أنّ أدرار هي الّتي كانت تعرف باسم: توات، تيميمون باسم القرارة وعين صالح باسم تيديكلت. والكلّ يسمّي إقليم توات. (فرج محمّد فرج، **إقليم توات خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر الميلاديين**، دكتوراه الدّور الثّالث في التّاريخ، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1977، ص1.

[4]- حساني مختار،"**رحلة عبد الرّحمن بن إدريس التّواتي التّنلاني**"، حوليات جامعة الجزائر، العدد 16، الجزء1، الجزائر، 2006، ص201.

له قصيدة رثاء في العالمين الجليلين عمر بن عبد الرّحمن التّنلاني والشّيخ عبد الله بن عبد الرّحمن بن عبد الرّحمن التّنلاني وعدد أبياتها اثنان وثلاثون بيتا ومنها نختار ما يلي:

فيــــا لتـــــنلان أصـــــيب وحيـــــدها وســــيّدها المرجـــو للنّفـــع والضّـــر.

أبـــو حفـــص حليمهـــا وفقيههـــا وعالمهـــا والمرتـــدي بـــرد الفخـــر.

وقــد خصّـــه المــولى بكـــلّ فضـــيلة ومحمدة من غير زهو ولا كبر...[1]

لم يكتف "عبد الرّحمن بن إدريس" بما تعلّمه في توات، بل رحل إلى فاس وأخذ العلم عن الشّيخ عبد القادر بن شقرون، الذي ينسب إلى بني شقران في الجزائر[2].

إنّ من بين أهمّ المؤلّفات الّتي خطّها قلم عبد الرّحمن بن إدريس **رحلته** من توات إلى مدينة الجزائر سنة 1816، وقبل هذا كان كاتبا ومدرّسا تتلمذ على يديه مجموعة من العلماء، سواء تعلّق الأمر بمنطقة تمنطيت جرارة أو تيديكلت...أو غيرها من مناطق (أدرار حاليا)، وقد كان له تأثير خارج هذه المنطقة خصوصا بالسّودان الغربي.

زاولت أسرته -الّتي استقرّت بقصر تنلان - مهنتي التّعليم والقضاء[3]، ولذلك عرف بالتّنلاني، وكان من محبّي مهنة التّعليم لذلك امتهن التّدريس بتوات ، تعتبر **الرّحلة** وثيقة ذات درجة كبيرة من الأهميّة، إذ أنّ مسلك صاحبها يعطينا من الأخبار والمعارف الّتي تزوّدنا عن مجموعة من المدن والقرى الّتي مرّ بها هذا الرّحالة، من قصر ملوكة إلى أدرار، تيميمون، المنيعة، متليلي، وادي ميزاب، ومليكة ثمّ الأغواط، الجلفة، المديّة ومدينة الجزائر، وهو نفس الطّريق البرّي الآن[4].

إنّ انتقال الشّيخ عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني التّواتي إلى مدينة الجزائر، كان ضمن قافلة وادي ميزاب أيضا الّتي توجّهت إلى هذه المدينة، وكما هو معروف فإن للميزابيين في هذه المدينة دور كبير في مجال بعض الحرف والمهن وكذا المعاملات التّجاريّة[5]، وهذا ما ذكرته العديد من المصادر.

---

[1]- **ثلاث رحلات مغاربية ويليه مجموع رحلات جزائرية** ،المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011 ،ص224.

[2]- حساني مختار، المصدر السّابق، ص 201. و**ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السابق، ص224.

[3]- حساني مختار، المصدر السابق، ص ص201، 202.

[4]- حساني مختار، المصدر السّابق، و**ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السابق، ص203.

[5]- عبد الله بن محمّد الشّويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر (1695-1705)**، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدّين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص ص17، 22، 50.

إنّ أهميّة هذه الرّحلة لموضوع الدّراسة الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال تواجد هذا الرّحّالة بها تكمن في عناصر عديدة والّتي نذكر منها: (دخوله من باب عزّون، إقامته في فندق الجديد، اجتماعه بقاضي المالكيّة (سيدي الحسن)، نزول سفن الإنجليز لضرب مدينة الجزائر (حملة اللّورد إكسماوث سنة 1816)، ولعلّ في هذه الرّحلة تزداد الأهميّة والقيمة العلميّة للأخبار الّتي يوردها شاهد عيان عن كيفيّة سير الهجوم الإنجليزي، وما جرى أثناءها بالتّفصيل إلى غاية ذكره أثر الحملة على المدينة وشروط الصّلح بين الجانبين[1]. لقد أقام هذا الشّيخ التّنلاني التّواتي بمدينة الجزائر سبعة وثلاثين يوما، وتزامن وجوده فيها مع ولاية الدّاي باشا عمر[2]، الّذي يثني عليه وعلى شجاعته وبسالته، إنّ معلومات رحلة الشّيخ تكاد تقتصر على ما جرى أثناء حملة اللّورد إكسماوث، لولا بعض الإشارات الطّفيفة الّتي نستخلصها بين الفينة والأخرى والتي تدل على نوع من الحياة في المدينة حينها وهي شهادات مسجّلة من طرف رجل دين، عالم وشيخ زاوية له مكانته الخاصّة، ولعلّنا نجد فيها ما يثبت قول الأوربيّين عن المدينة أو عن الحياة الحضرية فيها أو ما يدحض أقاويلهم.

حُقِقَتْ **الرّحلة** من طرف حساني مختار سنة 2006، كما حقّقت أيضا من طرف مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع سنة 2009، وتمّ طبعها سنة 2011 في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثّقافة الإسلاميّة، ولذلك سنعتمد على كلا التّحقيقين.

2-5**ليسيور وويلد** (ق**19**):

يعتبر تأليف **رحلة طريفة إلى إيّالة الجزائر**[3] مميّزا في شكله ومضمونه، ففيه صور لمشاهد عدّة يقابلها تعاليق عن تلك الصّور لمدينة الجزائر، ولمدن كثيرة وفي السّنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي (بعد 1830).

إنّ الوصف الّذي نجده في هذه الرّحلة، يعتبر بحقّ انعكاسا صادقا لصورة البلد في ذلك العهد، لأنّ يد المحتل لم تتمكّن بعد من تغيير منظرها، أو بالأحرى من تغيير مرافق ومنشآت المدينة والتي فيها

---

[1]- **ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السّابق، ص ص243-257.

[2]- **عمر باشا**: تعود أصوله إلى جزيرة ميدلي، كان لا يتكلّم العربيّة، بلغ رتبة آغا، بعد أن ارتقى في مناصب الجيش، وصل إلى سدّة الحكم بالجزائر في 1815/4/10.

(عبد الرّحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج3، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1994، ص318).

[3]- E.Lessore et W.Wyld**, Voyage pittoresque dans la Régence d'Alger ,** (1 ed), pub et imp. Par Charles Molle, Paris, 1835.

الكثير عن السّكّان الأصليّين وعاداتهم وسلوكهم.

ولعلّ قيمة هذه الرّحلة تزداد أكثر كون مؤلّفيها أ.ليسيور وويلد كانا يتجوّلان في مدن الجزائر كسائحين عاديين، لكنّهما رسامان لهما ثقافة واسعة ومتنوّعة، فهما يصفان لنا ما وقعت عليه حواسهما وصفا دقيقا وافيّا، وموقفهما الحيادي ونظرتهما الموضوعيّة إلى المباني والمرافق والمدن تجعلنا نكتشف حقائق تاريخيّة كثيرا ما حاول بعض المؤرّخين المغرضين طمسها[1].

إنّ رحلة أ.ليسيور وويلد بها خمسون نصّا ولكلّ نص صورته، مطبوعة كلّها في الأصل على الحجر، رسمها المؤلّفان في عين المكان أثناء تنقّلاتهما، فهي تعتبر صورا حقيقيّة موثوقا بها، تثبت لنا مناظر عدّة لمشاهد متنوّعة في مدن الجزائر عشيّة احتلال فرنسا لها، وبذلك فهي شهادات صادقة عن الحياة في تلك الفترة.

ومن زاوية أنّ هذه الرّحلة وثيقة نفيسة جمعت بين النّصوص والصّور، فقد أحيت حقيقة من بلادنا كاد الاحتلال الفرنسي أن يطمس معالمها ويخفي خصوصيّتها وتميّزها، إرتأينا أن ندرجها كمصدر رحلة في الدّراسة، ورغم أنّنا نجهل حياة مؤلّفيها، إلا أنّنا وجدنا فيها ما ينمّ عن الحياة داخل مدينة الجزائر: نهج باب الواد، نهج باب عزّون، مقهى مغربي، تاجر مغربي، منظر مسجد، مطحنة عربيّة، مناظر البحرية، طريق حديقة الدّاي، معمل قرميد، داخل المنزل، سوق بباب عزّون، الخرّاط، الصّبّاغ، مدرسة، حفلة مغربيّة، مدخل البيت...و حمّامات الدّاي.

3- أصحاب مصادر الرّحلة الحجازيّة:

3-1أبو العبّاس أحمد المقرّي (1578-1632):

هو شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرّحمان بن أبي العيش المقرّي التّلمساني ولد سنة 1578، ونشأ بدار آل المقرّي بتلمسان، تلقّى تعليمه الأوّل على يد شيوخ أجلّاء في مقدّمتهم عمّه أبو عثمان سعيد المقرّي، توجّه إلى فاس وهو ابن الرّابعة والعشرين واتّصل بأحد الفقهاء المسمّى إبراهيم بن محمّد الآيسي زمن أحمد المنصور الذّهبي سنة 1600، وتعرّف هناك بالمغرب على أحمد بابا التّنبكتي وأحمد بن القاضي[2].

---

[1]- أ.ليسيور وويلد، **رحلة طريفة إلى إيّالة الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق وترجمة محمّد جيجلي، ط2، دار الأمّة، الجزائر، 2002، (المدخل).

[2]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص ص327-328.

تولّى المقرّي الخطابة والإمامة بجامع القرويّين، وارتقى إلى منصب الافتاء، اضطرّ إلى الاختفاء لتجنّب الخوض في قضيّة تسليم الشّيخ المأمون السّعدي لمدينة العرائش إلى الإسبان مقابل إعانتهم له على استرجاع عرشه، كما اتهم المقرّي بالميل لقبيلة الشّراقيّة الّتي تعود أصولها إلى تلمسان، ولذلك قرّر مغادرة المغرب فتوجه إلى الحجاز سنة 1617، اشتغل بالتّدريس في جامع الأزهر بمصر، كما درس أيضا بالقدس وأدّى فريضة الحج خمس مرّات، جاور بمكّة وأقام بالمدينة المنوّرة[1].

قام أحمد المقري عقب حدوث مشكل سياسي بالمغرب باستئذان العاهل المغربي للقيام بمناسك الحج، وتلك عادة كبار المغاربة إذا أرادوا أنّ يتخلّصوا من وظائفهم السّياسيّة يطلبون الإذن للذّهاب إلى الحج، وعليه فرحلة أحمد المقرّي رحلة حجازيّة[2].

خلّف المقرّي عدّة تآليف في أمور العقيدة وعلوم القرآن والحديث، وكذلك في اللّغة والنّحو والأدب، بالإضافة إلى كتب قيّمة أخرى في التّاريخ والتّراجم والفهارس، ولعلّ ما اشتهر به، كتابه المعروف بـ: **نفح الطّيب**[3]، وكذلك **رحلته إلى المغرب والمشرق**، وفي رحلته هذه مرّ بمدينة الجزائر واجتمع بالعديد من علمائها حيث تدارس معهم، وأجاز بعضا منهم، ونظّم في المدينة شعرا، يتغنّى بها وبعلمائها[4]. وافته المنيّة بمصر بعد أن مرض واعتلّت صحّته سنة 1632 ودفن في قرافة المجاورين بالقرب من جامع الأزهر

3-2-أبو عبد الله محمّد بن مسايب التّلمساني (ت1776):

يقال أيضا آمسيب التّلمساني، ولد في أواخر القرن السّابع عشر ميلادي، وهو من أسرة أندلسيّة نزلت بفاس ثمّ رحلت إلى وجدة واستقرت أخيرا بتلمسان، أين تعلّم بعض مبادئ الفقه والنّحو وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، ثمّ اندمج بعدها في الحياة العامّة حيث عمل في صناعة الزّرابي والحياكة، وكان ذا قريحة في نظم الشّعر الملحون، أو كما قيل عنه بأنّه جمع بين الصناعتين نسج الزّرابي ونسج الكلام[5].

---

[1]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص328.

[2]- عبد الهادي التّازي، **رحلة الرحلات، مكّة في مائة رحلة مغربيّة ورحلة**، مراجعة عباس صالح طاشكندي، ج1، مكة، 2005، ص188.

[3]- المقرّي، **نفح الطّيب في غصن الأندلس الطّيب**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1968 (8 أجزاء).

[4]- أبي العبّاس أحمد المقرّي، **رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق**، تحقيق محمّد بن معمّر، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلاميّة في شمال إفريقيا، مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ص ص72-75.

[5]-ناصر الدّين سعيدوني، **من التراث** ...، المرجع السّابق، ص405.

لقد كان لأصله الأندلسي دور كبير في نبوغه أيضا في ميدان الموسيقى والغناء، ومعظم قصائده تشبه إلى حد كبير أدب "التّروبادور" في الأندلس، ورغم هذا فقد كان مطّلعا على الكتب شغوفا بالقراءة متردّدا على مجالس العلماء، الأمر الّذي زاد من ثقافته وعمّق تجربته الشّعرية، وكان له نظم شعريا في الغرام، منه ما قاله في زوجته، وحتّى في بعض نساء تلمسان حينها، وهو ما جلب له نقمة أهل تلمسان ورجالها، فكان دوما هاربا من منطقة إلى أخرى[1].

لعلّ لتجارب ابن مسايب أثر كبير في تحوّل شخصيّته وتهذيب نفسيّته الّتي اندفعت به مباشرة إلى الزّهد والتّصوّف منذ سنة 1737، وهي السّنة الّتي أدّى فيها فريضة الحجّ وتوشّح بنظم قصائد المديح النّبوي وغلب على شعره إبداء التّوبة والتّوسّل وطلب الغفران دون أن ينسى أمجاد تلمسان الّتي تحسّر على أحوالها وتغيّر شؤونها[2].

تناقل العامّة قصائده في الزّهد والتّصوف، كما تناقلوا قبلها قصائده في الحب والغزل، وظلّ كذلك إلى أن وافته المنيّة سنة 1776، ودفن بالقرب من ضريح الإمام السّنوسي بمقبرة وازرة واشتهر ابن المسايب بالعديد من القصائد، ولعلّ في مقدّمتها قصيدة: **يا الورشان**[3].

إنّ قصيدة **يا الورشان** هي وصف لرحلته من تلمسان إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وهي القصيدة الّتي أدرجت اسمه ضمن ناظمي الرّحلات الحجازيّة عبر طريق الحجّ التّلمساني، فوصف أهم المدن والمحطّات الّتي يمرّ بها الحاج لأداء فريضة الحجّ وفي مقدّمة هذه المدن مدينة الجزائر.

يعتبر ابن مسايب بحق أحد المساهمين في إغناء المكتبة التّاريخيّة والأدبيّة لسكّان المغرب العربي في العصور الحديثة، لم لا وهو الّذي ألّف قصائد شعريّة لا تقلّ عن الألفي بيت بين غزل وتصوّف، إلّا أنّه لم يبق منها سوى سبعون قصيدة، والّتي منها أربعة وستّون تضمّنها ديوانه المنشور بتلمسان، ولقد كتب العديد من الكتّاب والمؤلّفين مقالات ومختصرات حول ابن مسايب ورحلته من جهة، وحول شخصيّته وأشعاره من جهة أخرى[4].

---

[1]- ناصر الدين سعيدون، **من التراث**...،المرجع السابق، ص406.

[2]-المرجع نفسه، ص ص406-407.

[3]-هو نوع من الطّيور يعرف باسم: الورشان.

[4]- Mohamed Bencheneb**, "Itinéraire de Tlemcen a la Mekke par ben Messaib (XVIII émé siecle)",** R.A 44 1900, N ° 238-239, pp 261-282 …

وأبو القاسم سعد الله، **أبحاث** ...، المرجع السّابق، ص180.

وابن مسايب عبد الله، **الدّيوان**، نشره محمّد بخوشة، تلمسان، 1370هـ.

وبما أنّ الرّحلات العربيّة قليلة إذ ما قورنت بالأوربيّة إرتأينا الاستفادة من رحلة ابن مسايب، لعلّنا نجد فيها ما ينمّ عن وصف الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر أيّام مروره بها سنة (1737) ولو في قالب شعري، وإن تعذّرت المقارنة مع ما ورد في رحلات أوروبيّة فإنّنا لا نستطيع تجاهلها.

لقد ذكر ابن مسايب كل محطّة نزل بها وكلّ مدينة حلّ فيها، وتغنّى بها وبصالحيها، فقدّم بذلك وصفا دقيقا لمسلك الحجّاج من غرب الجزائر حتّى الوصول إلى البقاع المقدّسة، وكان مطلع القصيدة:

يـــا الورشـــلان اقصـــد طيبــة	**وســلّم علــى الســاكن فيهــا.**
يـــا الورشـــان اقصـــد طيبـــة	**وزروا فقـــد مرســـم شـــيبه**
تخـــم فـــي أمـــر الغيبـــة	**ولا تحـــدث نفســـك بهـــا**
يـــا الورشـــان اعـــزم بمشـــيك	**واتكـــل علـــى الله وعليـــك**

وكل القصيدة مدونة في كتاب **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين وجغرافيين ورحالة لناصر الدين سعيدوني**.

3-3 ابن عثمان المكناسي: (ق18)

هو محمّد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي، إحدى الشخصيّات البارزة في مخزن السّلطان سيدي محمّد بن عبد الله، يعتبر من كبار رجال الدّولة الذّين ساهموا بفعاليّة في صنع أحداث النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر ميلادي، خلف ثلاث مؤلّفات تعتبر مصادر ثمينة لارتساماته ومشاهداته خلال رحلاته السّفاريّة الّتي قادته إلى كل من إسبانيا ومالطا ومملكة الصّقليتين والإمبراطوريّة العثمانيّة[1].

إنّ رحلته إلى إسبانيا تضمّنها كتابه: **الأكسير في فكاك الأسير**، أما رحلته إلى مالطة ونابولي قيّدها في تأليف عنوانه: **البدر السّافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**، بينما رحلته إلى السلطنة العثمانيّة وإلى الحجّ معا سمّاها: **إحراز المعلى والرّقيب في حجّ بيت اللّه**

والشّاوش الحاج محمّد بن رمضان، **باقة السّوسان في التّعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيّان**، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995، ص ص549-556.

وأبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي** ... ، ج2، المرجع السّابق، ص389.

[1]- محمّد بن عبد الوهاب المكناسي، **رحلة المكناسي، إحراز المعلى والرّقيب في حجّ بيت اللّه الحرام وزيارة القدس الشّريف والتّبرّك بقبر الحبيب 1785**، حقّقها وقدّم لها محمّد بوكبّوط، ط1، دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، الإمارات، 2003، ص11.

الحرام وزيارة القدس الشّريف والتّبرّك بقبر الحبيب[1].

لقد كان المكناسي سفيرا متضّلعا، اكتسب رصيدا ثقافيّا غير عادي، وحنّكته تجاربه واهتماماته بشؤون البحر المتوسّط، ممّا جعله ملاحظا دقيقا وناقدا متفتّحا لما كان يقف عليه في رحلاته، وغير خفي أنّ هذا الوزير والرّحّالة والدّيبلوماسي تكوّن في مدرسة السّلطان سيدي محمّد بن عبد اللّه الدّيبلوماسيّة، التّي طبعت تاريخ العلاقات المغربيّة مع الخارج بطابع متميّز يدلّ على إدراك واضح باستحالة استمرار القطيعة مع العالم الخارجي[2].

إنّ ما يهمّنا من رحلات هذا الوزير العديدة، هي رحلته إلى إسطنبول المسمّاة: **إحراز المعلى والرّقيب**... وذكره لمدينة الجزائر والحياة الحضريّة فيها أثناء مروره بها، إذ تأكّد لنا بأنّ المكناسي دقيق الملاحظة واسع الاطّلاع. ورحلته تصنّف ضمن التّقارير التّي تنظر إلى أوضاع الدّولة العثمانيّة من الخارج، كما تساهم في تصحيح كثير من الأفكار التّي علّقت بتاريخ العثمانيّين جرّاء الاعتماد شبه المطلق على كتابات وتقارير الأوروبيّين. بل يمكن القول بأنّ صاحبها يتّخذ موقفا وسطا[3].

إنّ صاحب **رحلة إحراز المعلى والرّقيب** عربي مسلم غير خاضع للحكم التّركي، له غيرة على إبراز مظاهر القوّة والمنعة في هذه الدّولة الإسلاميّة... وفي ذات الوقت لم يتردّد في ذكر مناطق الضّعف والجوانب السّلبيّة في شتّى مجالات الحياة كما عاينها، وهذا ما يجعل هذا الكتاب مصدرًا مهمًّا لمعرفة نظرة أحد ممثّلي النّخبة السّياسية لمغرب القرن الثّامن عشر ميلادي[4].

لقد كان الحجّ من أعظم بواعث الرّحلات، فإنّ ألوف المسلمين يتّجهون كلّ عام من مختلف أمصار العالم الإسلامي إلى الحجاز لتأدية فريضة الحجّ وزيارة قبر النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وكان الحجّاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطّرق التّي سلكوها والأحداث التي صادفوها[5]، وهذا ما فعله المكناسي وربّما أكثر من ذلك.

---

[1]- عبد السّلام بن عبد القادر ابن سودة، **اتحاف المطالع بوفيات إعلام القرن الثّالث عشر والرّابع**، القسم الأوّل، ومعه **تتمّة تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السّنين** (عبد الكبير الفاسي)، تنسيق وتحقيق محمّد حجّي، ط8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص24-63.

[2]- محمّد بن عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص13.

[3]-المصدر نفسه، ص14.

[4]- المصدر نفسه، ص14.

[5]- زكي محمّد حسين، **الرّحّالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار الرّائد العربي، بيروت، 1981، ص7.

إنّ رحلة المكناسي عبارة عن رواية لمشاهدات على طول الطريق إلى الحجّ ، بحيث ينفرد صاحبها بميزات عدّة، تمثّلت أوّلها في تنوّع الوصف للمدن والقرى الّتي زارها وثانيها تناوله إقامته في كلّ واحدة منها[1].

وفي نفس هذا الإطار، كان المكناسي يسأل عن أصحاب المعارف ومشايخ العلوم في كلّ منطقة يحلّ بها، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على شغفه بالعلم والمعرفة، كما أنّه لم يكن يتردّد في السّؤال والاستفسار، وهذا ما أهّله للحصول على معلومات من أصولها ضَمّنها مؤلّفه فزاده ذلك غنى وتنوّعا وطرافةً[2]، وطبيعيّ أن تكون الرّحلات والأسفار من أوّل السّبل لطلب العلم في تلك العصور، فقد كانت الكتب نادرة، وكانت الدّراسة العملية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبّع المراجع والمؤلّفات[3].

لقد وصف محمّد الفاسي رحلة المكناسي بأنّها أنموذجًا أصيلاً للرّحلة العامّة، لما جمعته من أغراض شتّى فهي حجازيّة، سياحيّة، اكتشافيّة، سفاريّة، زياريّة وعلمية[4].وفي هذا الصّدد هناك من يعدّد خمسة عشر سببًا من أسباب الرّحلة، وإن تداخلت فيها أمور عدّة، عندئذٍ تصبح رحلة عامّة[5]، ولعلّ هذا القول ينطبق على رحلة المكناسي من وجهة نظرنا أيضا.

لكن السّؤال الّذي يفرض نفسه، لماذا تمّ إهمال رحلة المكناسي من قبل معاصريه؟ هل لعدم علمهم بتأليفها وعدم إطلاعهم عليها؟ أم أنّ هناك أسبابا أخرى؟...ومن أشهر هؤلاء المؤرّخ عبد السّلام الضّعيف[6]، وأبو القاسم الزّياني[7]...وغيرهما.

إنّ أوّل من أعاد الاعتبار لرحلة المكناسي كمخطوط هو عبد الرّحمن بن زيدان، حيث لخّص مراحل سفر المكناسي ورفاقه من الرّباط وطنجة إلى غاية إسطنبول، ثمّ العودة عبر الحجاز وفلسطين

---

[1]- ابن عثمان المكناسي، المصدر السّابق، ص14.

[2]- المصدر نفسه، ص16.

[3]- زكي محّمد حسين، المرجع السّابق، ص6.

[4]- محمد بن عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص16.

[5]- حسين نصار، **أدب الرّحلة**، ط1، الشّركة المصريّة العالمية للنّشر، مصر، 1991، ص ص17-19.

[6]- عبد السّلام الضّعيف (1752-1818)، ولد بالرّباط من أسرة أندلسيّة ذات أصول مغربيّة، عرف بالعلم والصّلاح، عاش حياة متقشفة، اكتسب محبّة العامّة، له مشاركة في التّاريخ وعنوان تأليفه هو: **تاريخ الضّعيف أو تاريخ الدّولة السّعيدة**، تحقيق أحمد العماري (الرّباط، 1987)، كان عبد السّلام كثير الاطّلاع على أوضاع بلاده.ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص ص453-459).

[7]- أبو القاسم الزّياني صاحب **التّرجمانة الكبرى** سيأتي الحديث عنه فيما بعد.

والمغرب وتونس والجزائر[1].

إنّ مدن الجزائر يذكرها صاحب الرّحلة عند عودته، وهي حوالي سبع بين قرى ومدن، ولعلّ أوّلها عين الزّرقا، تيفش ثمّ مرج كحيل، مهيرز، قسنطينة، الجزائر، وتلمسان...[2]

وعن المخطوط، هناك نسختان في الخزانة الحسنيّة بالرّباط، الأولى تحمل رقم 5264، والثّانيّة 12307ز، فيهما اختلافات طفيفة في عدد الأوراق ومقياس الورقة وعدد أسطر كل ورقة، مما يرجح بأنّ ناسخها واحد[3].

أمّا فيما يخصّ تدوين الرّحلة، فمن الرّاجح أنّ المكناسي كان يكتب أثناء سفره على المسودّة، وما يدلّ على هذا الاقتباسات الّتي تضمّنتها رحلته من كتب موجودة في اسطنبول خصوصا، كما أنّه كان يشير إلى المكتبات والنّسخ والكتابة في رحلته[4].

لكن ما يهمّنا نحن في رحلته هاته، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر أيّام مروره بها، فهو على حدّ قوله لم يدخل هذه المدينة نتيجة الوباء الّذي حلّ بها، لكنّه قدم من ناحية أخرى وصفا لتحصيناتها (الأسوار، الحفير، الأبراج، المدافع...) وتحدّث عن زيارته لقبر عبد الرّحمان الثّعالبي[5]، ثمّ ذكر أهميّة المدينة وتعرّضها لهجمات عديدة من طرف الأوربيّين وخصوصا الإسبان منهم ويسرد في هذا الشّأن هجمة أو حملة أوريلي على المدينة عام 1775، ولا ندري كيف بلغه هذا، ويثني على مدينة الجزائر وعلى القائمين في الدّفاع عنها.

---

(1)- محمد بن عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص19.

(2)- نفس المصدر، ص45.

(3)- نفس المصدر، ص26.

(4)- نفس المصدر، ص27.

(5)- عبد الرّحمن الثّعالبي: (1384-1472) من علماء الجزائر الفطاحل في العصر الوسيط، وله مشاركة في عدّة علوم، أهمّها تفسيره للقرآن الكريم،" **الجواهر الحسان**"، أبو القاسم سعد الله، **أبحاث**...، المرجع السّابق، ص302.

3-4 أحمد بن عمّار: (ت بعد 1791):

"هو العلاّمة المحقّق والفهّامة المدقّق أبو العبّاس سيدي أحمد بن عمّار مفتي مالكيّة الجزائر، كان من أفاضل مصره ونوابغ عصره، وهبه الله حظّا من سيلان القلم وطلاقة اللّسان، ذكر في المشارق والمغارب، وكفى به تعريفا ما طبعته الحكومة من كتاب "**نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب**"[1]، والّتي تعتبر في حكم المفقود، إلا نبذة منها سلمت من الضّياع، أما ابن عمّار مازال مجهولا رغم مكانته العلميّة، الأدبيّة والفقهيّة، ولغاية السّاعة لا نعرف شيئا عن ميلاده ولا عن وفاتة وكلّ ما نعرفه أنّه من أهل القرن الثّاني عشر والثّالث عشر هـ/ 18 و19م[2].

إنّ من بين أقدم المصادر الّتي تحدّثت عن ابن عمّار كتاب ابن حمادوش **الرّحلة** حيث قال:«إنّه من العلماء المنصفين الّذين لا يحملون حسدًا ولا ضغينةً»[3]، أما الورتلاني فأكّد على أنّ ابن عمّار قد أدّى فريضة الحجّ معه[4]، وكذا الرّحالة المغربي أحمد الغزال حينما جاء للجزائر، حضر درسًا لابن عمّار في الجامع الكبير، فأعجب بعلمه وإثر ذلك مدحه بقصيدة والّتي جاء في مطلعها:

هلمّــوا إلــى مــأوى المفــاخر والعــلا ... هلمّــوا إلــى الأســمر ابــن عمــار أحمــد [5].

يبدو أنّ ابن عمّار سليل أسرة أنجبت العلماء والنّوابغ، فهذا والده كان من علماء مدينة الجزائر وعلى حسب ما قيل أنّه هو عمّار المستغانمي، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد خاله محمد بن سعيدي الهادي أحد العلماء البارزين في مدينة الجزائر خلال القرن الثّامن عشر ميلادي أيضا، وهذا ما يؤكّده زميله أبوراس النّاصر[6]، حيث قال: «...خاتم ابن عمّار عليه عبارة سليل الأشراف الصّالحين وخلاصة مجد النّفر والدّين...».

عاش ابن عمّار فترة حياته الأولى في مدينة الجزائر دارسًا وموظّفًا حكوميا فيما بعد، عاصر مجموعة من العلماء منهم: محمّد بن ميمون، ابن حمادوش، ابن علي محمد بن نيكرو، عبد الرّحمن

---

(1)- أبو القاسم الحفناوي، المرجع السّابق، ص83.

(2)- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج2، المرجع السّابق، ص224.

(3)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص ص259-260.

(4)- الحسين بن محمّد الورتلاني، **نزهة الأنظار في فصل علم التّاريخ والأخبار** المشهورة **بالرّحلة الورتلانيّة**، ط2، دار الكتاب العربي، لبنان، 1974، ص286، ص311.

(5)- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ**...، ج2، المرجع السّابق، ص225.

(6)- أبوراس النّاصر، **فتح الإله** ...، المصدر السابق ،ص92.

المرتضي، أحمد الزّروق بن عبد اللّطيف (ابن عم صاحب القصر الّذي وصفه ابن عمار)، محمد بن الشّاهد، الحسين الورتلاني[1]...وغيرهم.

تولّى ابن عمّار وظيفة الإفتاء في مدينة الجزائر مرّتين[2]، ومن المؤكّد أنّه كان محسودًا لقلمه وعلمه واستقلاله ونلمس ذلك من خلال عدّة إشارات في الرّحلة، وهذا ما بيّن مقته لمعاصريه على ضعف عارضتهم، وعن جمودهم الفكري وأيضا تخليهم عن الاجتهاد والنظر[3].

ارتحل ابن عمّار إلى المشرق مرّتين، الأولى جاور خلالها بالحرمين لمدة اثني عشر سنة، وخلال هذه المجاورة كتب رحلته **نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب**، وفي رحلته الثّانية أجاز الخليل المرادي الشّامي[4].

ألفّ ابن عمّار عددا من الكتب والّتي منها نذكر: **لواء النّصر في فضلاء العصر** (تراجم)، **حاشية علي الخفّاجي، في شرح الشّفا للقاضي عيّاض، رسالة في قوله تعالى:** «**إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك**»، **تاريخ الباي علي باشا بن حسن** (تونس)، **رسالة في الطّريقة الخلوتيّة، رسالة في مسألة الوقف ضمن أجوبة وفتاوى إسماعيل التّميمي، ديوان شعر في المدائح النّبوية والوصف، مقاليد الأسانيد**[5]...وغيرها.

وفي اعتقادنا، أنّ أهم عمل قام به هذا العالم الرّحالة هو كتابته لرحلته من الجزائر إلى البقاع المقدّسة، لكن: هل ثبت تحدّثه عن مدينة الجزائر والحياة الحضريّة فيها؟ من خلال الجزء الموجود منها لغاية اليوم (المقدّمة) أحالنا ابن عمّار إلى الموشحات النّبويّة وعادات أهل الجزائر في الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف واخترنا منها ما يلي:

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ**...، ج2، المرجع السّابق، ص229.

[2]- نور الدّين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، نشر كلية الآداب ،الجزائر،1965،ص184.

[3]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ**...،ج2، المرجع السّابق، ص229.

[4]- أبو القاسم سعد الله، "**إجازة أحمد بن عمّار لخليل المرادي الشّامي**"، الثّقافة، العدد45، 1978.

[5]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ**...،ج2، المرجع السّابق، ص ص230-231.

ونفس المؤلّف، **أبحاث**...، ج1، المرجع السّابق، ص ص183-185.

1- عن زيارة البقاع المقدّسة:

دار الحبيـــــب أحــــــقّ أن تهواهـــــا ونحـــن مـــن طـــرب إلـــى ذكراهـــا

وعلـــى الجفـــون متّـــى هممـــت بـــزورة يـــا ابـــن الكـــرام عليـــك أن تغشـــاها... [1]

2- عن المولد النّبوي الشّريف:

...وهي الّليلة الثّانية عشر من ربيع الأوّل على الصّحيح من مذهب الجمهور...

وينبغي أن تزيّن الأولاد بأحسن زينتهم ويدخل السّرور بما أمكن على معلمهم..."[2]

ولعلّنا نحاول الاستفادة منها قدر المستطاع عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر بما ذكر صاحبها.

4- أصحاب مصادر الرّحلة الاستطلاعيّة والعسكريّة:

4-1 **قريقوروفيتش كوكوفتسوف** (1787) Grigorovitch kokovtsov:

في جوان سنة 1787 طبع في سان بترسبورغ كتاب **وصف أمني للجزائر** من طرف ماستي قريقوروفيتش كوكوفتسوف، وتوجد نسخة من هذا الكتاب باللّغة الرّوسية في مكتبة موسكو، أرسلت إلى مارسيل إمريت صورة طبق الأصل، فقام بترجمتها وتقديم ملخّص عن هذا الكتاب باللّغة الفرنسيّة[3].

إنّ الكتاب عبارة عن مجموعة من الرسائل من المرسل (كوكوفتسوف) إلى المرسل إليه تيودور أوسيبوفتش "Theodor Ossipouitch" ويقول فيها: «...كلّ هذه الأعمال حقائق عملتها بنفسي في أوقات انتهائي من عملي...، وإن تفضّلتم بنشرها للجمهور والمجتمع أحسن من أن تبقى غير معروفة، إنّها تتعلّق بالبحريّة في البحر المتوسّط وكذا تجارة روسيا في المنطقة مع شعوب البحر المتوسط الّتي ستتطوّر في المستقبل القريب ويكون هذا العمل (الكتاب) معروف لدى البحّارة الّذين يأتون إلى شمال إفريقيا»[4].

كوكوفتسوف هو ضابط أرسل على رأس أسطول روسي إلى البحر المتوسط من طرف رئيس القيادة البحريّة إيفان قريقوروفيتش تشرنيتشيف، في عهد الأميرة كاترين الثّانية، الّتي عملت بما في وسعها

---

[1]- أحمد بن عمّار، **نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب**، مطبعة فوتانة، الجزائر، 1902، ص9.

[2]- نفس المصدر، ص98.

[3]- Marcel .E," **Description de l'Algérie en 1787 par l'officier russe kokovtsov**", R.H.M, Juillet, 1975, p209.

[4]- Ibid, p209.

لضمان وحماية تجارة بلادها وإقامة قواعد لها في البحر المتوسّط، وحاولت كسب ودّ الدّولة العثمانيّة نظرًا لتحسن المعاملات التّجارية مع دول شمال إفريقيا.

انخرط كوكوفتسوف في صفوف البحرية الرّوسية سنة 1760، صار معلما في السفينة A64، رحل مسافرا إلى البحر المتوسّط ما بين سنتي 1765-1768 وعمل على غليوطات مالطة، ثمّ فرقاطات روسيا-تركيا ، شارك في معركة سنة 1770، بعد ذلك أبحر نحو أرخبيل وسواحل إسبانيا وشمال إفريقيا بين سنتي 1780-1781، ذهب إلى ليفورن بإيطاليا ثمّ رجع بعدها بين (1782-1784) وصار عميد الأسطول، بينما تحصّل قبل ذلك سنة 1775 على عطلة حتّى يستطيع أن يتعرّف على إفريقيا الشّماليّة، لكنّه لم يزر سوى ساحل تونس وبونة (عنّابة)، لأنّه بقي في تونس ما بين 24 ماي إلى 08 أوت 1776، ثمّ أقام في بونة من 14 أوت إلى 07 سبتمبر 1777، ولا نعرف متّى زار الجزائر لكن يرجح بعد 1778، والمهم أنّه زارها وقدّم لنا رسمًا عن مينائها ومعلومات مهمّة عنها. في سنة1787 قام الكاتب ثيودور فازيليفتش "Theodor Vasilivetch" بطبع كتاب **وصف أرخبيل وسواحل برباريا** وهو أوّل كتاب لضابط البحريّة(1).

إنّ السّلطة الرّوسيّة كانت جدّ متلهّفة لمعلومات حول البحر المتوسّط، لأنّ كاترين الثّانية كانت تعتقد بأنّ نهاية الإمبراطوريّة العثمانيّة قد حانت، وتستطيع بعدها أن تضع على رأس ابنها قسطنطين تاج بيزنطة.

في عملية البحث عن القواعد الممكنة للبحريّة الرّوسية تطلع الروس إلى جزيرة صغيرة شمال طبرق وجعلوا فيها عمود إنارة (منارة)، وحاولوا استغلال جزيرة مالطا، لكنّ هذه الجزيرة كانت تابعة لإحدى الممالك الإيطالية والّتي لا تنوي تركها أو التّنازل عنها.

في هذه الأثناء كان البحّارة الرّوس يستريحون في موانئ ليفورن، ومن هذه الأخيرة (Livourne) كان "كوكوفتسوف" يذهب لزيارة ساحل شمال إفريقيا، وكان هذا الضّابط الرّوسي يريد أن يعرف كلّ شيء عن القوّات البحريّة التّونسيّة والجزائريّة وفي حالة حدوث نزاع (قتال) يتمّ الاتّصال بالأسطول العثماني(2).

إنّ مهمّة كوكوفتسوف في شمال إفريقيا كانت موجّهة لتحضير التّفاوض حول السّلم بين روسيا

(1)- Marcel. E,op.cit, p209.

(2)- Ibid,pp209-210.

ودّول شمال إفريقيا، وهذا بغية ضمان الحياد في حالة وقوع حرب بين روسيا وتركيا، وكان يأخذ كلّ المعلومات حول رجال البحريّة ووسائلهم المعتمدة في القتال وتنظيماتهم...

كوكوفتسوف كان حريصا على أن يعلمنا بشأن التّحضيرات الدّبلوماسيّة والعسكريّة، وكلّف بعمل خاص لدراسة إمكانيّة ربط علاقات تجاريّة مع هذه الدّول، ويزوّدنا بمعلومات مفيدة تهمّ البحّارة الرّوس[1].

ونظرا لتعلّمه العربيّة جمع بعض الوثائق الّتي كانت في متناوله حول هذه الدّول وخاصة الجزائر، وعدد الرّحالة العرب الذين زاروا المنطقة، ووصف مرمول وشو، لكنّه شغّل ملاحظاته هو، قد يطوّل الحديث عن هذا الرّحالة وعن كتابه، لكن سنحاول أن نلخّص ما جاء فيه في النّقاط الرّئيسيّة التّالية (وهي حوالي 14 فصلا)، اسم البلاد الجزائر، تغيير في تاريخ البلاد، مواضيع حول الحكومة الجزائريّة، في الدّيانة، العادات والتقاليد، تقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات، في وضعيّة واسم مدينة الجزائر (تحصيناتها-مؤسّساتها)، في تكوين الجيش البرّي ورؤسائه، المحاكم العسكرية والمدنية، تنظيم حملات الجيش البرّي، تسليح الأسطول، في بيع الأسرى وطريقة الجزائر في هذا، في التّجارة (الإنتاج، مداخيل الدّولة، عملتها) وأخيرا في السّياسة الخارجيّة للجزائر[2].

ثم قام بعدها مرسيل إميريت بتقديم ملخّص عن كيفيّة بيع الأسرى المسيحيّين في الجزائر وطريقة الجزائريّين في هذا الأمر، والحق يقال أنّ كتاب هذا الضّابط الرّوسي عبارة عن وثيقة هامّة لمعرفة أحوال الجزائر ومدنها، خاصّة مدينة الجزائر خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر، ورغم أنه لم يترجم كلّه من الرّوسية إلى الفرنسية، إلا أنّنا سنحاول جاهدين أن نستغلّه قدر الإمكان فيما ورد فيه عن الحياة الحضريّة في مدينه الجزائر.

4-2فون شونبيرغ (1841/1782) Von Shoonbirg:

ولد يورغن يوهان فون شونبيرغ في 27 سبتمبر سنة 1782، بجزيرة سيلاند بالدّانمارك، درس في كوبنهاجن، ثمّ في جامعة قوتينفن بألمانيا، وتخرج على إثرها طبيبا سنة 1808، رحل إلى العديد من البلدان الأوروبيّة، واستقرّ أخيرا بمدينة نابولي، وعمل في المستشفى العسكري النّمساوي رئيسا للأطباء هناك كما عمل في مستشفيات أخرى، رُقّي إلى مقام النّبلاء من طرف ملك نابولي، وتحصّل على

[1]- Ibid, p210.

[2]- Marcel. E,op.cit. pp210-212.

الدّكتوراه الفخريّة من جامعة فورتسبرغ بألمانيا سنة 1829[1].

شارك هذا الطّبيب فون شونبيرغ في الحملة الفرنسيّة على الجزائر، شأنه شأن العديد من الأوربيين[2]، وبصفته رئيسا للأطبّاء أيضا في هذه الحملة، وعندما عاد إلى بلاده تقلّد منصب المستشار الأوّل لملك الدّانمارك إلى أن توفّي سنة 1841 بكوبنهاجن، مخلفًا وراءه العديد من الأعمال والإنجازات[3].

كتب فون شونبيرغ عن مجال الطّب في الجزائر ونشر مقاله في المجلّة الألمانيّة اعتمادا على يوميّاته وملاحظاته، وقام أبو العيد دودو بترجمة هذا المقال، وما يهمّنا في موضوع الدّراسة هو تأليفه: **نظرات على الاحتلال الأخير والتّاريخ الحديث للجزائر واستعمارها** صدر بكوبنهاجن سنة 1839[4].

إنّ تأليف فون شونبيرغ عبارة عن يوميّات في الميدان وهذا ما تضمنه الفصل الأول، بينما في الفصل الثّاني تناول ثمانية دايات (1798-1830)، وفي الفصل الثّالث والأخير ألقى الضّوء على المناخ والحركة التّجارية والصّناعية في الجزائر[5].

إنّ المصادر الّتي اعتمدها فون شونبيرغ عديدة، منها روايات أشخاص عاشوا في مدينة الجزائر لمدّة زمنية طويلة أيّام الحكم التّركي، وبعض الوثائق والتّقارير الرّسمية على حد قوله [6]، لكن فيما نعتقد وبعد قراءتنا لما قدّمه أبو العيد دودو خصوصا عن هذا الطّبيب ، وجدنا أنّ معلوماته وأخباره عسكرية حربيّة أكثر منها شيءٌ آخر، ومع هذا ففيها من المعلومات ما يؤكّد الحياة في المدينة وفي أنحائها سنة 1830، من خلال بعض الإشارات الطّفيفة أثناء سير جيش الاحتلال من منطقة سدي فرج إلى مدينة الجزائر.

وفيما يخصّ حديثه عن الدّايات الثّمانية (مصطفى، أحمد خوجة، علي باشا، الحاج علي باشا، الحاج مصطفى، عمر باشا، علي باشا، حسين باشا)[7]، فقد اعتمد في رواياته على شاهد عيان عاش

---

[1]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات الرّحّالين الألمان (1830-1855)**، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1989، ص29.

[2]- منهم الأمير التّمساوي فريدريش شفارتسنبيرغ، له كتاب:"**التفاتات إلى الجزائر واحتلالها من طرف القوّات الملكيّة الفرنسيّة في سنة 1830**".

[3]- أبو العيد دودو، المرجع السّابق، ص29.

[4]- أبو العيد دودو، "**المؤرّخون الألمان والجزائر**"، الأصالة، العدد 14-15 ،الجزائر، 1973 ،ص118.

[5]- نفس المرجع، ص119.

[6]- نفس المرجع، ص 119.

[7]- أبو العيد دودو، **الجزائر في**...، المرجع السّابق، ص ص39-75.

مدّة طويلة في الجزائر ويعرف خباياها.

ونعتقد أنّ هذه الرحلة فيها الكثير عن الحياة السّياسية في مدينة الجزائر منذ أواخر القرن الثّامن عشر إلى غاية الاحتلال الفرنسي، مع إشارات إلى ما كان يحدث هنا وهناك في باقي جهات الجزائر، والمتتبّع لثنايا ترجمة هؤلاء الدّايات سيجد ممّا لا شكّ فيه الكثير عن الحياة الحضريّة في المدينة قبل نزول فون شونبيرغ بها، حتّى وإن كنّا نجهل مصدر أخباره بدقة، إلاّ أنّ هذا لا يمنعنا من إبداء الآراء حول ما نقل لنا وما كتبه عن الحياة الحضرية في مدينه الجزائر ولو في جوانب دون أخرى.

ونسجّل تعصب شونبيرغ لدينه وعرقه، إذ صرّح: «...اسم الجزائر لا يعمل على التّفكير في جمال سمائها وصحّة مناخها وخصوبة أراضيها، بقدر ما يعمل على التّفكير في الآلام التي عرفها العبيد المسيحيّون فيها...»[1]، ومن هذا التّصريح نفهم مقدار العداء الّذي أكنّه معظم الأوربيّين للجزائر. هذه الأخيرة الّتي كان مجرّد ذكر اسمها يؤدّي إلى خوف ورعب شديدين من أبناء القارّة الأوروبيّة.

3-4النّقيب روزيه (ق 19):

لقد قدّم نقيب الهندسة العسكريّة في الجيش الفرنسي رحلته المسمّاة: **Voyage dans la Régence d'Alger** بعد أن كان ضمن أفراد الحملة العسكريّة على مدينة الجزائر، ويبدو أنّه اعتمد في كتابة رحلته هاته على العديد من المصادر والمراجع الّتي تحدّثت عن الجزائر، لأنّه أسهب في الحديث عن النّاحية التّاريخيّة للمنطقة، وقبل ذلك تحدّث عن تكوينها الفيزيائي (المورفولوجي)، وعن مناخها، حيواناتها، منتوجاتها، سكّانها وبعض عاداتهم وتقاليدهم... ثمّ انكشاريّة الأتراك والكراغلة في المدينة، وأعطى عدّة آراء حول نظام الحكم والقضاء وكيفيّة تسيير باقي المقاطعات[2].

ويهمّ في رحلة روزيه ما ذكره عن مدينة الجزائر من حيث عدّة عناصر تناولها وهي: موقعها الفلكي والجغرافي، شكلها، منازلها، خندقها، ساحلها، شوارعها ودروبها، مؤسّساتها المهمّة (حصن البحريّة، المساجد، القصبة والثّكنات)، دون أن ينسى التّحدّث عن سكّانها وحدائقها الموجودة خارج الأسوار، وكذا شبكة المياه المستعملة فيها، وأثار إعجابه سهل متّيجة وما يحويه من منازل ريفيّة وأشجار فواكه... وغيرها[3].

---

[1]- أبو العيد دودو، "**المؤرّخون الألمان**..."، المرجع السّابق، ص123.

[2]- Rozet et Carette, **Algérie par MM. Les Capitaines du Génie Rozet et Carette**, ed, Bouslama, Tunis, pp1-14.

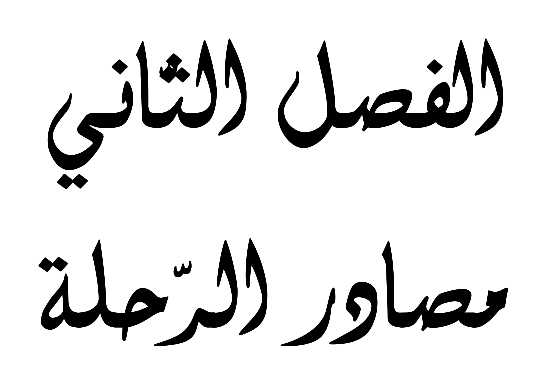
[3]- Ibid, pp14-16.

والحقيقة أنّ روزيه قدّم معلومات أخرى عن كلّ من القليعة، البليدة، المديّة، وهران، قسنطينة وضواحيها، بونة وبجاية، وبعد ذلك خصّص عنصرا تاريخيّا أسهب في الحديث عن هذا الجانب (تاريخ المنطقة ككل)، منذ أقدم العصور حتى انتهاء العهد التّركي وكيفيّة تبعيّة المنطقة للأتراك (بربروس وخير الدّين)، ثمّ حملة شارلكان سنة 1541، والحملات الأوروبيّة المتعاقبة على المدينة، وحملة اللّورد إكسماوث سنة 1816 ثمّ حملة 1824 وأخيرا سقوطها في قبضة الجيش الفرنسي سنة 1830[1].

إنّ الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر بمنظور رجل عسكري، خاصة أيّام الحملة الفرنسيّة قد تضيف جوانب أخرى كانت مجهولة أو معتّمة لم تذكرها مصادر رحلة أخرى، وعلى هذا الأساس يبدو أنّ رحلة هذا الضّابط في غاية الأهميّة والفائدة لموضوع دراستنا، أو لمواضيع أخرى لها علاقة بتاريخ الجزائر.

---

[1]- Ibid, pp16-32.



1-أصحاب مصادر الرّحلة السّياسيّة

2-أصحاب مصادر الرّحلة السّفاريّة

3-أصحاب مصادر الرّحلة الدّراسيّة والعلميّة

1- أصحاب مصادر الرّحلة السّياسيّة:

1- 1 الأب بيار دان "Père Piere d'An": ق17

مؤرّخ فرنسي، تحصّل على شهادة في اختصاص علم اللاّهوت Théologie من كليّة باريس، كان كاهنا ورئيسا لدير الثّالوث المقدّس، الّذي أسّس بقصر فونتانبلو Fontainbleau في القرن الثّاني عشر للميلاد، كما أنّه كان أيضا مستشارا وراع للملك الذّي يوجد الدّير بقصره[1]. وفي هذا الإطار فقد شهدت أوروبا حملات إغاثة وفدية لأبنائها منذ سنة 1192م، حيث تذكر لنا المصادر الأوروبيّة أنّ المسيحيّين قد شرعوا في التّفكير في قضية افتداء أسراهم منذ الحروب الصّليبيّة، وكذلك منذ صراعهم مع المسلمين، فذكروا أنّ أوّل تنظيم ديني وسياسي أنشئ لهذا الغرض بالتّحديد في إحدى كنائس باريس يسمّى بثالوث الفداء المقدّس: La Santa trinidad y redemcion، وقد جاء هذا التّنظيم بناءا على فكرة أحد الفرنسيين المتعصّبين للدّين المسيحي وهو المدعو جان دي ماطا Jean de Matha، وقد سارع البابا إينوسونتو الثّالث Inicento3 إلى مباركة هذا التنظيم سنة 1198م، وعلى إثر ذلك شرع في نشر دعاياته المسمومة في أوساط أوروبا، واختلاقه للأهوال التّي يتعرّض لها الأسرى المسيحيّون في بلاد الإسلام، وأغلب رواياته وقصصه من نسج الخيال، وذلك قصد البلوغ إلى الهدف المسطّر وهو تشويه الإسلام والمسلمين، واستجداء العطف وإثارة الحمية الدّينيّة للحصول على التّبرعات الماليّة أكثر[2].

ومهما قيل عن هذ التنظيم وعن رجاله فأكيد أنّه ظلّ ينشط إلى غاية زمن الأب دان وبعده، وهذا الأخير (دان) تأثّر به وبأعماله واندمج في مهامه، وقد قام هذا التنظيم بحوالي ستّين(60) عمليّة افتداء أثناء العهد العثماني (خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 15 و18)، تمّ خلالها تحرير حوالي ستّة آلاف أسير، ومن المهام الّتي كلّف بها الأب دان هي تحرير الأسرى ولذلك توجّه إلى مدينة الجزائر يوم 12 جويلية سنة 1634، بعد عدّة عوائق أخّرت سفره، لكن في الأخير أتمّ مهمّته وأنجز في هذا الشّأن كتابه المعروف باسم: **Histoire de Barbarie et de ses corsaires** أي **تاريخ برباريا وقراصنتها** والّذي نشر بباريس سنة 1637[3].

---

[1]-زكريا العابد، المرجع السّابق، ص91.

[2]- عبد اللّه حمادي، **"جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان"**،المصادر،العدد6، الجزائر،2002،ص ص270-271.

[3]-Denise Brahimi, **Opinions et regards des Européens sur le Magreb aux XVII^eme^siecle**, societé nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1978, p13.

وفي السّنة الّتي توفّي فيها الأب دان ظهرت له طبعة جديدة (1649) بها إضافات كثيرة [1].

لقد تمكّن الأب دان من تحرير حوالي اثنان وأربعون أسيرا عاد بهم إلى فرنسا سنة 1635، وبالتّالي نجحت مهمّته في تحرير وفدية الأرقاء[2].

لقد مكث بمدينة الجزائر[3] حوالي شهرين، سجّل خلالها ملاحظاته العديدة التّي تضمّنها كتابه **تاريخ برباريا وقراصنتها، مملكاتها، مدن الجزائر، تونس، سلا وطرابلس،** وهو عبارة عن مجلّد ضخم مقسّم إلى ستّة كتب يعالج فيها مختلف حكومات تلك الدّول وما تعلّق بها من خصوصيّات.

فالكتاب الأوّل مقسّم إلى حوالي ثمان فصول بدءا من مصطلحي بربايا وباري، إلى وصف بربايا، إلى ذكر بعض القراصنة القدماء والقراصنة الجدد، ثمّ تطرّق بعدها إلى بعض العناصر والأعراق التّي تقطن بربايا (شمال إفريقيا) إلى أن يصل إلى الفصل السّابع الذّي تحدّث فيه عن رحلته إلى بربايا، ولعلّنا سنستفيد من بعض المعارف والمعلومات التّي قدّمها عن كيفية دخول الباشا الجديد إلى مدينة الجزائر والإجراءات المتّبعة في هذا الشّأن من احتفالات وبروتوكولات، وختم هذا الكتاب الأوّل بفصل ثامن تحدّث فيه عن عودته إلى فرنسا، وبه عشر عناصر فيها وصف لبعض المدن السّاحليّة مثل بونة (عنابة)[4].

أمّا عن الكتاب الثّاني فتحدّث فيه عن مدينة الجزائر، والذّي خصّها بخمس عناصر مهمّة، وهذا محور اهتمامنا، وباقي الفصول في هذا الكتاب تحدّث فيها عن قراصنة كل من تونس، سلا وطرابلس مع ذكره لملاحظات عديدة تخصّ تلك المدن ومملكاتها، وبقيّة الكتب فيها مواضيع متنوّعة، فالكتاب الثّالث يلقي الضّوء على طريقة التّسلّح أثناء عمليات القرصنة، وكذا عدد المراكب البحريّة، وكل ما يلاقيه القراصنة فوق سطح البحر، بينما الكتاب الرّابع تحدّث فيه عن بعض الخصوصيات التّي تمسّ المهتدين Les Rénègats، والكتاب الخامس عالج فيه بعض أنواع البؤس والعذاب اللّذين سلّطهما الأتراك والعرب على الأسرى المسيحيّين على حدّ ذكره، وآخر كتاب تحدّث فيه عن هيئة الثّالوث المقدّس وعدد

---

(1)-(وجدت له طبعة سنة 1659 كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1540،ترجمة جمال حمادة،د.م.ج،الجزائر،1991، ص123.) .Denise Brahimi, op.cit. p13

(2)- Piere Père D'an, **Histoire de barbarie et de ses Corsaires des Rayaumes des villes d'Alger, de Tunis, de Salé, et de Tripoli**, 2ed, Pierre Rocolet, 1649, p49.

(3)- ج.ب.وولف، المرجع السّابق، ص135.

(4)-Piere Père D'an ,op.cit, p49.

عمليات فداء الأسرى، ومواضيع أخرى تصبّ في هذا الشّأن، غير أنّنا سنركّز على الكتاب الثّاني[1] لما له أهميّة لموضوع الأطروحة.

يصف الأب دان مدينة الجزائر في عدّة جوانب، أسماؤها المختلفة، أقدميّتها ووضعيّتها، حدائقها وعماراتها، مساجدها وأبوابها، أبراجها، حمايتها ومنظومتها الدّفاعيّة، دون أن يهمل اللّغات الثّلاث المعتمدة فيها وقتها على حدّ ذكره. وأخيرا يلقي الضّوء على القناصل[2]، الذّين يمثّلون مختلف الشّعوب والأمم وتربطهم بالجزائر روابط عدّة، وهذا إنّما هو دليل على مكانتها بين معظم الدّول في العهد العثماني حيث كانت تخطب ودّها وتهاب جانبها لسيطرتها على البحر الأبيض المتوسّط.. لذلك كانت تسارع إلى تعيين سفراء لها وقناصل يمثّلونها، بغية كسب صداقتها ومعالجة مختلف الأمور معها.

(1)- Ibid, pp86-93.

(2)- Ibid, pp90-91.

1-2 **توماس هيز** Thomas Hees (**1634–1693**):

ولد توماس هيز بويسب Weesp بالقرب من أمستردام سنة 1634، وهو دكتور في الطّب، حصل على هذه الشّهادة من جامعة آنجرزAngers، كلّف من طرف حكومة الأراضي المنخفضة للتّفاوض مع دولة الجزائر حول معاهدة سلم وصداقة، توفّي سنة 1693 بأمستردام[1].

ترك لنا كتابا بعنوان: **Journal d'un vayage à Alger 1675–1676** أي **يوميات رحلة إلى الجزائر بين 1675 و1676**، وعلى غالب الظّنّ أنّه كتب باللّغة الهولنديّة، وقام كلٌ من G.W.B. Mirandalle , G. H. Bousquet بترجمته إلى اللّغة الفرنسيّة، ونشرت رحلته في المجلّة الإفريقيّة سنة 1957[2].

يتناول توماس هيز الطّبيب الهولندي في رحلته كلّ ما حدث له وفي كل يوم بمدينة الجزائر، بدءا بتلك الإجراءات والبروتوكولات الّتي تخصّ كيفية إرساء السّفن في ميناء المدينة، إلى غاية مغادرته لها. لقد عاش توماس هيز في مدينة الجزائر لمدّة زمنيّة أهّلته أنّ يتحدّث عنها وعن أحوالها، فقد كان حديثه عن الدّاي محمد التّريكي الذّي لقيه في قصره الملكي حين حلّ بالمدينة، ولأنّ عينه حاذقة فقد أتى هذا الطّبيب على وصف ما وقعت عليه عيناه: في الميناء، في القصر، في أطراف المدينة حين زيارته إلى قناصل الدّول الأوروبيّة، وعلى رأسهم قنصل بريطانيا[3].

ويبدو أنّ توماس هيز كان محظوظا جدّا في حياته اليوميّة في مدينة الجزائر، ربّما هذا بحكم مهنته الدّيبلوماسيّة والوظيفة التّي جاء من أجلها، وهي عقد معاهدة سلم وصداقة مع الجزائر، لأنّ حديثه لا يكاد يخلو عن شخصيّات المدينة والقادة الكبار الذّين يسيّرون الدّولة، دون أن ينسى بين الفينة والأخرى تقديم وصف لما شاهد من بنايات، أسرى، سلع، خمّارات وأنواع النّبيذ الموجودة بها، المأكولات والأطعمة... وهو في ذلك كلّه يثني على كرم وحسن ضيافة الأتراك للغرباء والأجانب، وفي مقدّمتهم أصحاب المهمّات الدّيبلوماسيّة. ولعلّ رحلة توماس هيز تحمل في طيّاتها الكثير عن الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في جانبها السّياسي أكثر من جوانب أخرى، وهو ما سنحاول استغلاله وتحليله أثناء تناول هذا الموضوع.

---

[1]- Thomas Hees, **Journal d'un vayage à Alger 1675-1676** , trad, par G.H.Bousquet et G.W.B.Mirandolle , in R.A.Tome CI, Alger, 1957, p85.

[2]- Ibid , pp85-128.

[3]- Ibid, p93.

وكما هو معروف، فإنّ مدينة الجزائر مرّت بمرحلة ذهبيّة خلال القرن السّابع عشر وذاع صيتها وعلا شأنها، وهذا كلّه بسبب فوائد القرصنة[1]، كما تنعتها العديد من المصادر الأوروبيّة، لكن يحضرنا في هذا المقام أنّ الحركة المضّادة للقرصنة الأوروبيّة والتّي قام بها المسلمون وعلى رأسهم المغاربة هي حركة جهاد، جاء ضمن سياق الصّراع العسكري والحضاري الإسلامي المسيحي للهيمنة على البحر المتوسّط منذ العصور الوسطى، واستمرّ هذا الصّراع والاحتكاك إلى بداية القرن التّاسع عشر[2]. كما أنّنا نرى بأنّ هذا الصّراع لايزال مستمرّا من جهة، ولولاه لما تمكّن أحد الجانبين من الاهتمام بالآخر والكتابة عنه من جهة ثانية، ولا أمكن لنا نحن اليوم الاستفادة بما كتبوه ودوّنوه.

---

(1) - Marcel Emerit," **un Document inédit sur Alger au XVII^{e}siecle"**, in A.I.E.O.Tome XVIII, 1959, p233.

(2)- حنيفي هلايلي، المرجع السّابق، ص ص67-68.

3-1 بوتي دولاكروا "Petit De la Croix": (1713/1654):

إنّ هذا الشّاب من عائلة مستشرقين، كان أبوه أستاذا في المدرسة الملكيّة بفرنسا، كرسي اللّغة العربيّة، وتقلّد أيضا منصب سكرتير وترجمان الملك لويس XIV فيما يخص اللّغات التّركيّة والعربيّة بباريس[1].

درس بوتي دولاكروا الرّياضيات، الفلك، الجغرافيا، الموسيقى والرّسم وكذا اللّغات الشّرقيّة، وهو في سن أقل من ستّة عشر سنة سافر إلى المشرق بأمر من كولبير Colbert للتعمّق في الدّراسات التّركيّة والعربيّة، حتّي يتخصّص أكثر في هذا الجانب، ثمّ توجّه من طولون بجنوب فرنسا نحو الاسكندريّة سنة 1670م، ثمّ انتقل إلى حلب وبقي هناك حوالي ثلاث سنوات ونصف، عامين في أصفهان وأربع سنوات في القسطنطينيّة، وعندما رجع إلى فرنسا أصبح يعرف الأرمينيّة ولغات أخرى... كما رجع وفي حقيبته العديد من المخطوطات أتى بها من المشرق وتركيا[2]. وفي نفس هذا الإطار تحدّث التّمقروتي قبله عن القسطنطينيّة وما تحويه من مخطوطات كثيرة ومكتبات عديدة[3].

لم يجد كولبير –الذّي أرسله إلى المشرق- غير إلحاق بوتي دولاكروا بالبحريّة كسكرتير للّغات الشّرقيّة، وفي سنة 1682 أرسل إلى المغرب كسكرتير للقنصليّة في خدمة البارون سانت آموند Saint-Amond المرسول إلى الملك مولاي إسماعيل، والإمبراطور نفسه كان يعرف بأنّ الشّاب فرانسوا بوتي دولاكروا يتحدّث العربيّة ويتقنها كثيرا لذلك كان اهتمامه به شديدا فأرسله في رحلة إلى الشّمال الإفريقي وإلى المغرب، ولعلّه ومن خلال هذه الرّحلة قدّم للملك (الإمبراطور) بطاقة حول تاريخ فاس والمغرب[4].

لقد رافق بوتي دولاكروا بواخر دوكسين Dequesne، تورفيل "Tourville" وآمفريفيل "Amfreville" في الحرب ضدّ الجزائريّين، وقام بحوالي سبع رحلات معهم، وحضر في المصالحة بين فرنسا والجزائر لسنة 1684. وقام بترجمة عقد الصّلح إلى التّركيّة، وقرأه أمام الدّيوان[5].

---

(1)- Marcel Emerit ; "**Un mémoire sur Alger par Petit de Lacroix 1695**", in A I.E.O. Tome XI, ed, jules Carbonel, Alger, 1953, p6.
(2)- Ibid , pp5-6.

(3)- محمّد التّمقروتي، سيأتي الحديث عنه فيما بعد.

(4) - Marcel Emerit, op.cit. p6.

(5)- Ibid, p6.

وفي رحلة دولاكروا إلى مدينة الجزائر توجد معلومات تخصّ وصف مختصر للمدينة، ويبدو لنا أنّ مهمّته قد كلّلت بالنّجاح، نظرا لما تلاها من تبادل ديبلوماسي بين الجانبين، إذ رافقه أثناء عودته إلى فرنسا ممثّل الجزائر سافارار Safarar بغية ملاقاة لويس XIV، وتوجّه إلى الجزائر في نفس الإطار وفد كان يرأسه دولاكروا بمعيّة مجموعة من المترجمين، وهم بصدد تطبيق ما تعلموه عن العربية والتركية(1).

تقلّد دولاكروا منصب أستاذ اللّغة العربيّة في المدرسة الملكيّة بعد وفاة أبيه، وهو نفس منصب عمل والده، وأثناء مكوثه بباريس أخذ في طبع بعض المخطوطات التّي جاء بها من المشرق، وأثناء رحلاته خارج فرنسا والتّي منها:

–Histoire de la Sultane de Perse et de visir

-les Milles et un jour , Une Histoire deTamerlan(2).

و العديد من أعماله مازالت غير معروفة رغم أنّه توفّي سنة 1713 عن عمر ناهز السّتين عاما (60). وقد خلّف ابنا له هو السّيد ألكسندر لويس Alexendre Louis وأعدّه ليشغل نفس المهمّة، وهي تدريس مادّة اللّغة العربيّة في المدرسة الملكيّة وكان هذا بين(1744–1751)(3).

إنّ الوصف المختصر لمدينة الجزائر، عبارة عن مجموعة ورقات لمعلومات موجّهة لوزير البحريّة سجّلها هذا السّكرتير والتّرجمان حول الحياة الحضريّة في المدينة، وهي تحوي عموما العناصر التّالية: أقدميّة مدينة الجزائر، مناداة الجزائريّين للأتراك سنة 1504، عدد الباشوات، الثّغريّين، ثراء الباشوات، سلم مع فرنسا سنة 1666، التّريكي أوّل داي للجزائر سنة 1670، ثمّ تحدّث عن الميزومورتو وشعبان خوجة إلى أن أتي على ذكر بعض ضبّاط الانكشاريّة وجنودها وبعض مسؤولي الدّولة، دون أن ينسى ذكر أوصاف بعض البنايات والأبواب والأسوار، وفي العناصر الأخيرة ختمها بحديثه عن البايلك ومنزل الدّاي، ثمّ المدارس والسّجون والنّساء(4).

وقد أصبحت رحلة دولاكروا فيما بعد مصدرا مهما يعطي حقائق عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، وحظيت بعناية مركّزة، مثلها مثل باقي المصادر والأعمال الأوروبيّة التّي نشرت في الفترة الاستعماريّة(5).

---

(1)-Marcel Emerit. op.cit.p 6.

(2)-Ibid ,pp6-7.

(3)-Ibid , p7.

(4)-Ibid , pp8-24.

(5)- ناصر الدّين سعيدوني، **ورقات**...،المرجع السّابق، ص98.

1-4 الآباء:

وهم أربعة جاؤوا إلى الجزائر سنة 1725 لفداء الأسرى الفرنسيّين وهم: ج.دولافاي Jean de la Fay ود.ماكار Denis Macker وأ.دارسيزار A.D'arcisar وه.لوري Henri Leroy، ودام بقاؤهم في مدينة الجزائر حوالي شهرين[1]، غير أنّ عنوان الكتاب يحمل في طيّاته اسما للمغرب الأقصى أيضا وهو **Relation en forme de journal de voyage pour la rédemption des Captifs aux Royaumes de Maroc et d'Alger pendant les années 1723, 1724 et 1725.** وقد طبع هذا الكتاب في أكثر من دار نشر، ولعلّ في مقدّمتها دار الطبع بباريس لي.سوفستL.Seveste سنة 1726، وطبع فيما بعد بمطبعة بوشانBouchéne، منها طبعة سنة 2000، وقبلها طبعة أخرى بتقديم أحمد فاروق بباريس دائما خلال القرن العشرين...[2].

بدأت رحلة هؤلاء الآباء الأربعة من مرسيليا يوم 15 ماي 1725 باتّجاه الجزائر، وهم من هيئة الثّالوث المقدّس الفرنسيّة (Sainte Trinité)، وكان في حسبانهم فكرة تحرير الأسرى المسيحيّين في مكناس، حيث توجّهوا لهذا الغرض في فترة حكم مولاي إسماعيل سلطان المغرب[3]، الّذي خيّب آمالهم إذ لم يتمكّنوا من تحرير إلا سبعة عشر أسيرا فقط، نتيجة ظروف صعبة تحكّمت في خروجهم من المغرب، توجّهوا بعدها إلى الجزائر والتّي وصلوها في أوّل جوان من سنة 1725، وكالعادة توجّهوا إلى قنصل فرنسا الذّي كلّف بضيافتهم ومرافقتهم لداي الجزائر حينها وهو كورد عبدي[4].

لقد كلّلت مهمّة هؤلاء الآباء هذه المرّة بالنّجاح إلى حد ما، إذ ما قورنت بمهّمتهم في المغرب الأقصى، حيث حرّروا حوالي ستّة وأربعين أسيرا، والذّين لم يكونوا كلّهم فرنسيّين، بعدما ترك لهم الدّاي حرية التّفاوض مع مالكي الأسرى الذّين سهّلوا لهم الأمر، وحتّى الدّاي نفسه باع لهم بعض أسراه ولكن بثمن غال، وغادروا مدينة الجزائر يوم 26جويلية من السّنة نفسها (1725)، بحصيلة من الأسرى

---

[1]- زكريا العابد، المرجع السّابق، ص29.

[2]-ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص133.

[3]- مولاي إسماعيل: دام حكمه حوالي 57سنة، لم يتمكّن من تحقيق أيّ انتصار على الجزائريّين. إذ قام بعدّة حملات على الغرب الجزائري، وأراد الإطاحة بنظام الأتراك في الجزائر، إلّا أنّ خططه باءت بالفشل.

(صالح عبّاد، **الجزائرخلال الحكم التّركي، (1514-1830)**، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر،2005، ص ص147- 149.

[4]- كور عبدي: انتخب الدّاي كور عبدي بعد مقتل الدّاي محمّد باشا، إذ تمرّدت طائفة ريّاس البحر، وكان عبدي هذا يشغل وظيفة آغا الصّبايحيّة، حيث تمكّن في التّحكّم في قصر الجنينة وأعدم كل قاتلي الدّاي محمّد باشا.

(عزيز إلتر سامح، **الأتراك العثمانيّون في إفريقيا الشّماليّة**، ترجمة محمود علي عامر، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1980، ص472.

فاقت أضعاف ما حرروه في رحلتهم إلى المغرب الأقصى[1].

وعن الأسرى في الجزائر في تلك الفترة لا يفوتنا أن نقول بأنّ وضعهم كان يختلف من أسير لآخر، ووضعهم عموما كان أحسن بكثير من وضع الأسرى المسلمين في الدّول الأوروبيّة، حيث أنّه عندما يصل الأسرى إلى مدينة الجزائر، يقوم الدّاي بأخذ نصيبه، فينتقي العناصر الكفأة منهم، والتّي تمتاز بمواصفات خاصّة، بينما البقيّة يعرضّون للبيع على الخواص[2]. ولهذا السّبب تكون أموال فدائهم مختلفة، كما أنّ لمهنة الأسير ومستواه وحتّى طبقته دور كبير في زيادة مبلغ فدائه أو نقصانه.

وضعت الدّولة الجزائريّة حينها شروط فداء الأسرى في وثيقة خاصة بالإسبانيين دون غيرهم، ولعلّ هذا راجع إلى طبيعة العلاقة المميّزة والعدائية بين الجزائر وإسبانيا طيلة التّواجد العثماني في الجزائر، حيث اتّسمت بالقطيعة السّياسية والعداء المستحكم[3].

تزامنت رحلة الآباء مع رحلة الطّبيب بايسونال في نفس السّنة (1725)، وفي هذا المقام نشير إلى أنّ القرن الثّامن عشر شهد استقبال مدينة الجزائر للعديد من الرّحّالة، وبالأخص الأوروبيّين منهم، غير أنّ أهداف رحلاتهم اختلفت من رحالة إلى أخر، ولهذا سننتقي ما تحصّلنا عليه من رحلات دون الاعتماد عليها كلّها، وسنحاول توزيعها طيلة هذا القرن حسب التّسلسل الزّمني حتّى نرصد التّطور في مدينة الجزائر ونقف على الاختلاف والتّشابه بين هذه الرّحلات فيما يخص الحياة الحضريّة في المدينة أثناء العهد العثماني.

---

[1]- زكريا العابد، المرجع السّابق، ص62.

[2]- أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعاليّاته في العهد العثماني (926هـ-1246هـ/1519م-1830م)**، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ت، ص201.

[3] -حنيفي هلايلي،**أوراق**...، المرجع السّابق، ص ص76-79.

1-5 السّيّد طولو Le Sieur Tollot:

هو رحّالة فرنسي، قدم إلى الجزائر رفقة لاكوندامين "Lacandamine"، وصلا إليها يوم 12 جوان 1731، إلاّ أنّ رحلة السيد طولو لم تدم طويلا، حيث أنّها لم تتعدّ ثمانية أيّام إقامة في مدينة الجزائر، ورغم ذلك فقد قدّم ملخّصا عن حياة الجزائريين في حوالي خمسين صفحة، اعتمد فيه على معلومات صحيحة حسب ذكره، لأنّها تعود إلى مقيمين فرنسيين قدماء لهم معرفة جيّدة بالبلاد وأحوالها، لقد تكلّم عن بعض الشّعوب والقبائل التي كانت غير خاضعة للأتراك وتقيم على مسافة خمس أوست فراسخ (حوالي 24 كلم) عن مدينة الجزائر، فتدفع الإتاوات وتجنّد أثناء الحروب، وقدّم أسماء لهذه الشعوب والقبائل مثل الزّوار Les Zoires، الجيبيجيles Gébègys، التّوبيجي Les Topigys والعربجي Les Arabagys...وأصبحت عناصر من زواوة وفرق من الجيش العثماني تكوّن شعوب مملكة الجزائر[1].

مهما كانت نوعيّة هذه الأخبار والمعارف التّي يقدّمها هذا الرّحالة الفرنسي، فإنّها جاءت مرتّبة ترتيبا زمانيا حسب الأيام والحوادث، فمنذ مغادرته لباريس في يوم 10 ماي 1731 يتحدّث عن كلّ محطّة يتوقّف فيها: كليون، أفينيون، مونيميار، مرسيليا، وتولون، هذه الأخيرة التّي بقي فيها حوالي عشرة أيّام بسبب رداءة الجو والمناخ الذّي أعاق سير الرّحلة، ثمّ بعد ذلك يقدّم تفصيلا دقيقا للثّلة التّي رافقته من حيث: عدد القوارب المستعملة وعدد مدافع كل قارب مع ذكره قيادة كلّ قارب[2].

والمهم في هذه الرّحلة أنّ السّيّد طولو قضى مدّة شهر في رحلته من باريس وتحدّث عن ذلك البروتوكول في الاستقبال الّذي أقيم في ميناء المدينة بسبب قدومهم من طلقات للمدافع والتّحية المتبادلة بين الجانبين، لأنّ رحلتهم تزامنت مع قدوم السّيّد دولان Delane القنصل الجديد لفرنسا في الجزائر، وقد ذكر السّيّد طولو تفاصيل المقابلة بين الجانبين (القنصل والدّاي) وسبب مجيء تلك البعثة إلى مدينة الجزائر التّي كانت في عهد الداي عبدي باشا [3].

وفيما نعتقد أنّ رحلة السّيّد طولو يكثر فيها الحديث عن عبدي باشا وعن أسباب مجيء تلك

---

[1]- A.Berbrugger, **"Un voyage de Paris à Alger en 1731, par le Sieur Tollot"**, in R.A, N °66, Tome II, 1867, Alger, pp417-434.
[2]- Ibid, pp419-420.
[3]-Ibid, p421.

البعثة إلى مدينة الجزائر، أهمّها افتداء بعض الأسرى (من البحّارة الفرنسيّين)، والتّجارة الفرنسيّة في البحر الأبيض المتوسّط وأمنها... لكن قلّ فيها وصف المدينة وذكر الحياة الحضريّة فيها، لكنّها تحوي جانبا كبيرا من الحياة السّياسيّة في مدينة الجزائر، وكيفية تعامل السّلطات الجزائريّة مع الوفود الأجنبيّة، وخاصّة الفرنسيّة منها.

لقد تزامنت هذه الرّحلة أيضا مع رحلة المؤرّخ الإنجليزي جوزيف مورقن[1] Joseph Morgen، الذّي كتب هو الآخر الكثير عن مدينة الجزائر سنة 1731[2]، وتفضّل الأستاذ أبو القاسم سعد الله بتقديم ملخّص باللّغة العربيّة عن كتابه، ومن هذا المنطلق سنحاول أن نستقي منها ما تعلّق بالحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، بالرّغم من اختلاف سبب مجيء كلّ منهما من جهة، واختلاف منطقة مجيئهما من جهة ثانيّة (فرنسا وبريطانيا).

وبحكم أنّ المجلّة الإفريقيّة نشرت رحلة السيّد طولو[3] فإنّنا سنحاول ترجمة ما ورد في هذه الرّحلة وفق ما يخدم موضوع الدراسة عن مدينة الجزائر والحياة الحضرية فيها في بداية العشريّة الرّابعة من القرن الثّامن عشر.

6-1 دالنسو كانو Dalonso Cano (1711-1780):

ولد في ثيبانكا "Cuenca" بتاريخ 23 جانفي 1711، دخل في خدمة الثّالوث المقدّس في مدريد وهو صبيّ لا يتعدّى الخامسة عشر، في 07 جانفي 1726، درس الفلسفة وعلم اللّاهوت في مدرسة القلعة في هيناراس Henars، وفي سنة 1736 رقّي إلى درجة قارئ اللّاهوت في دير طليطلة ثمّ أستاذ القراءات في جامعة طليطلة، وبعد ذلك توسع وتعمق في قراءاته لعلم اللّاهوت لمدّة ثماني سنوات (1738-1746)[4].

استدعي من طرف البابا حتّى يشغل منصب أوّل حبر في مدرسة روما (1746-1752)، وعند عودته إلى إسبانيا في مارس 1752م رقي إلى الإداري العام للافتداء في كاستيلا، وبعد ذلك بقليل

---

[1]- جوزيف مورقن: عاش سنوات طويلة في الجزائر، وتولّى بعض المهام في قنصليّة بلاده عندنا، وكان هذا زمن القنصل البريطاني العام السيّد روبيركول.

(أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء**...، ج1، المرجع السّابق، ص313).

[2]- **الجزائر في مؤلّف إنجليزي قديم 1731** من كتاب **أبحاث وآراء**...، المرجع السّابق، ص ص313-327.

[3]-A.Berbrugger, op.cit.pp 417-434.

[4]- D'Alonso Cano, **La Régence d'Alger au XVIIIe siècle**, manuscrit pré, et trad, de l'éspagnol par IsmetTerki-Hassaine, ed, Dar EL QUDS EL ARABI, ORAN 2010, p11.

أصبح وزيرا للكنيسة، وفي سنة 1768 جاء إلى مدينة الجزائر لافتداء الأسرى الإسبان، وبقي في هذه المدينة إلى غاية 1769، وكلّلت رحلته هاته بالنّجاح إذ حرّر 1402 أسيرا[1].

وفي حقيقة الأمر أنّ هذا اللّاهوتي تقلّد العديد من المناصب وشغل الكثير من الوظائف في بلده إسبانيا، بعد نجاح مهمّة تحرير الأسرى وكتب عدّة مؤلّفات، ومن أهمّها ما كتبه عن مدينة الجزائر باللّغة الاسبانيّة[2]، **Histoire de la Ciudad y reino de Argel**.

وقام الدّكتور عصمت تركي حساين بترجمة هذا التّأليف إلى اللّغة الفرنسيّة تحت عنوان **La Régence d'Alger au XVIIIe siècle**، بعد أن كان مخطوطا في المكتبة الوطنيّة بمدريد، والكتاب يقدّم معلومات في غاية الأهمية من حيث القيمة التّاريخيّة، لأنّه يعتمد على مصادر القرنين السّادس عشر والسّابع عشر، بالإضافة إلى شهادات بعض الأسرى الإسبانيّين، وخصوصا الملاحظات الخاصّة للكاتب كانو حينما كان في مدينة الجزائر، حيث قام بأكبر عمليّة تحرير واستبدال الأسرى.

وتحتل مدينة الجزائر والحياة الحضريّة بها الحيّز الكبير من هذا التّأليف، إذ تحدّث عن وصفها، تسميتها، قدمها، موقعها، ووصف مؤسّساتها، سكّانها، حمايتها، قوّتها وحكومتها... بما فيها الدّاي، الطّائفة، الوزراء، الدّيوان، الضّبّاط، البايات، وكلّ ذلك مقارنة مع من سبقه، ولذلك اعتمدنا عليه كمصدر مهم من مصادر الرحلة.

---

[1]- Ibid, p11.

[2]- Ibid, p12.

2-أصحاب مصادر الرّحلة السّفاريّة:

2-1نيكولاس دو نيكولاي Nicolase de Nicolay:

هو جغرافي الملك هنري الثّاني Henri2، رافق السّفير ق.دارامون إلى القسطنطينيّة سنة 1551، وتوقّف هذا الوفد الذّي كان هذا الرّحالة معه بموانئ عدّة منها: ميناء مدينة الجزائر، بجاية، عنّابة... وقدمّ فيما بعد وصفا لهذه المدن، وحمل كتابه عنوان **Les quatre premiers Livres de navigation orientale** أي: **الأربع كتب الأولى للبحريّة الشّرقيّة**، وطبع بمطبعة ليون بفرنسا سنة 1568[1]، أي بعد أكثر من خمسة عشر سنة من رحلته.

لقد قدّم الرّحالة نيكولاس وصفا لمدينة الجزائر[2] في منتصف القرن السّادس عشر، بالرّغم من أنّه كان متوجّها إلى إسطنبول، ويعدّ هذا المصدر من الكتب النّادرة التّي تحدّثت عن منطقة شمال إفريقيا، وبالأخص المدن الجزائريّة، كما أنّه لم يترجم حسب علمنا إلى العربيّة. ونعتقد أنّ جلّ المصادر المهمّة لم تترجم إلى العربيّة، وهذا ما يفسح المجال إلى إمكانيّة عمل فرق تقوم بهذه المهمّة تحت إشراف وزاري أو مؤسّساتي، لأنّ لغة كتابة العديد من المصادر- والتّي من بينها كتاب نيكولاي- فرنسيّة قديمة كلاسيكيّة، الأمر الذّي يصعب من استيعابها وترجمتها.

و قال زكريا العابد: «...فمن المصادر التّي لم أعثر عليها سوى في قوائم المصادر والمراجع وعند الإحالة على الهوامش رحلات كل من نيكولاي دونيكولاس ورهباندير... »[3].

يبدو أن الرحالة الفرنسي نيكولاس لم تدم إقامته في مدينة الجزائر إلا بضعة أيام إلا أنّه طاف في أنحاء المدينة وكتب عنها وعما شاهده، وخصوصا منها مرافق المدينة التّي أوردها محفوظ قدّاش في كتابه[4].

---

(1)- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص 13.

وزكريا العابد، المرجع السّابق، ص 26.

(2). أحميدة عميراوي، المرجع السّابق، ص 09.

(3)-زكريا العابد، المرجع السّابق، ص09.

(4)-Mahfoud Kaddache , **L'Algérie durant la période ottomane**, O.P.U, Alger, 1992,p59.

2-2 التّمقروتي 1520-1594:

هو أبو الحسن علي بن محمّد الجزولي التّمقروتي[1] ولد سنة 967هـ / 1520 م على غالب الظّن، وتوفيّ سنة 1003 هـ / 1594 م، كان أبوه أبا الحسن عالما، أخذ عنه جماعة من الشّيوخ، وهو الّذي وجّهه السّلطان المنصور بهديته لملك التّرك بإسطنبول مع الفقيه الكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي، وفي هذا الإطار ألّف هذا السّفير الرّحالة كتابه الذي يصف فيه رحلته وهو: **النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة**، وهو كتاب مفيد[2] وعنوانه طنان، ربما تأسيا بمن سبقوه وعاصروه لأنّهم كانوا يعنوون (يُعَنْوِنُونَ) كتبهم بنوع من السّجع.

وبحكم تتلمذه وتعلّمه بقرية تمقروت الصّغيرة من أعمال درعة جنوبي مراكش، الّتي تقع بها الزّاوية النّاصرية، فأكيد أنّ التّمقروتي تأثّر بما قرأ وسمع لأنّه نال حظا واسعا من التّعليم، فعيّن كاتبا لأحمد المنصور السّعدي، (1578 - 1603) بفاس[3].

ولأنّ العلاقات بين العثمانيين في الجزائر والمغاربة كانت تتّصف بالتّوتر في معظم الأحيان، فقد حاول الشريف المنصور كسب ود الأتراك، ولأنّهم وبفضلهم تقلد السّلطة في المغرب الأقصى، في سنة 1581 خشي أحمد المنصور أن يشنّ أتراك الجزائر غارة على بلاده فقرّر إرسال بعثة دبلوماسية إلى اسطنبول، ومنذ هذا الزّمن تكرّرت السّفارات والبعثات الّتي كانت تحمل الهدايا للسلطان العثماني[4]، بعث التمقروتي من طرف مولاي المغرب أحمد المنصور إلى السّلطان مراد الثّالث (1574 – 1595)، وكان هذا سنة 1589، فخرج على إثرها من مراكش ونزل بتطوان ثمّ تنقّل بحرا ونزل ببعض المدن الجزائريّة... واستمر في سفره هذا إلى أن عاد إلى تطوان في نوفمبر سنة 1591، ولقد سجّل التّمقروتي انطباعاته في كتابه السّالف الذّكر.

لقد اعتنى بطبع كتاب التمقروتي وترجمته إلى الفرنسية هنري دي كاستري، وظهرت هذه الترجمة بعد وفات دي كاستري سنة 1927، وإن كان رأيه عن المؤلّف يتّسم بالتّعسف الشّديد بسبب كون

---

[1]- أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد الجزولي التّمقروتي، **النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركية**، تقديم وتعليق سليمان الصّيد المحامي، ط1، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، تونس، 1988، ص3.

[2]- محمّد الصّغير بن محمد اليفرني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، مطبعة حجريّة، فاس، ص106.

[3]- اغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص459.

[4]- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص ص16-17 وعمار عمورة، **الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962**،**الجزائر خاصة**، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2009،ص ص78-79. وعبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق ص 154.

صاحب الرّحلة كان ينقل عمّن سبقه ولا يهتم بخط الرّحلة، ضف إلى ذلك تفاخره بعلمه الّذي يحاول إظهاره في كل مرّة[1]، إلّا أنّ هذا الأمر لم ينفرد به التّمقروتي وحده، بل سبقه آخرون، غير أنّ ما ظهر للآخرين نقصا وعيبا يبدو لنا اليوم فضلا، لأنّه أطلعنا على صفحات من هذه الرّحلة التّي ما كنّا لنصل إلى مضمونها لولا التّمقروتي، ثمّ إنّ لهذه الأخيرة أحكاما صائبة حول طريق السّاحل من هنين إلى بونة (أي المدن الجزائريّة)، ولقد ورد في الرّحلة جميع المدن بأسمائها تقريبا ما عدا القلّة، وكانت وقتها محاطة بأسوار دفاعيّة والعمران بها موجود، إلّا أنّ التّمقروتي عني عناية خاصّة بالعلم والعلماء، فكانت في رحلته قائمة للمشهورين منهم[2].

وكان لمدينة الجزائر الّتي مرّ بها هذا السّفير الرّحالة ذهابا وإيابا حضورا قويّا في رحلته بسبب إقامته فيها والّتنقّل داخل أرجائها، فدوّن أسطرا عديدة عن الحياة الحضرية فيها أواخر القرن السّادس عشر، ولو في جزء منها.

لقد أقام التّمقروتي أكثر من شهرين في مدينة الجزائر[3]، من 28أوت إلى 5 نوفمبر سنة 1589 وهو في هذا لا يعيقه عامل اللّغة ولا عامل الدّين، كما أنّ رحلته التي كانت باتّجاه إسطنبول لا تدفعه فيها أحكاما مسبقة، لا عن المدينة ولا عن حكّامها ولا حتّى عن شعبها، عكس بعض الرّحالة الأوربيّين تماما.

ونسجّل في هذا المقام رأي الأستاذ أبو القاسم سعد الله في هذا الرّجل حيث يقول:« ... والتّمقروتي لم يقم في الجزائر طويلا، ولم يتولّ فيها الوظائف كما لم يأتها غاضبا سياسيا ولا مفاوضا ديبلوماسيا، وإنّما جاء مارّا أثناء سفارته لإسطنبول، ومع ذلك لقي بعض علماء الجزائر، ووصف أحوالها الماديّة والسّياسيّة، ولعلّ من مهمّته السّياسية تقديم تقرير عنها أيضا إلى سلطانه... »[4]. وعلى أيّة حال وإن كانت لديه نوايا أخرى لم تتّضح ولم تذكر، فإنّ كتاب التّمقروتي يعتبر من النّصوص التّاريخية، الّتي تتّصل بالحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، والّتي وضعت أساسا باللّغة العربيّة[5].

وتشير قرائن الأحوال إلى أنّ ثمّة تقريرا كان من المفروض أن يرفعه التّمقروتي إلى سيّده، ولذلك

---

[1]- اغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص459.

[2]- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص ص23-24.

[3]- عبد الرّحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص 252. ومولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص61.

[4]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 440.

[5]- ناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص96.

فلا عجب إن احتوت رحلته هاته على قصائد في المديح، وهو يعبّر فيها عن شكره وامتنانه لولي نعمته، حتّى قارنه بسلاطين الدّولة العثمانيّة وفضّله عليهم في مرّات عدة، كما أنّ رحلة التّمقروتي نفسها لا تخلو أيضا من معطيات واقعيّة قيّمة، خاصّة إذا أخذنا في حساباتنا أنّها كبقية الرّحلات المشابهة لها، ولم يكن الغرض منها وقف الحركات، بقدر ما كان وضع تقرير عنها[1].

كما أنّ الكتاب الّذي صنّفه التّمقروتي لا يخلو من فقرات عديدة نقلها عن مؤلّفين سبقوه، من أمثال ابن عبد ربه (من القرنين التّاسع والعاشر)، والبكري (من القرن الحادي عشر)، وأبو البقاء البلوي (من القرن الخامس عشر)، وهو بهذا يقلّد الجغرافيّين الّذين سبقوه، دون أن يعنى بالتّتابع الزّمني، أو يشير إلى أنّ معلوماته تنتمي إلى عصر سابق للعصر الّذي يعالج الكلام فيه[2].

غير أنّ التّمقروتي يذكر الأحداث ويركّز على الوقائع حسب الأمكنة والمدن الّتي نزل بها، لذلك كان عمل سليمان الصّيد (محقق الرّحلة) -الّتي سنعتمد عليها- وفق هذا الإطار، حيث تحدّث في مستهلّها عن ترجمة للمؤلف وقدّم نبذة عن حياته وعن رحلته، ثمّ انتقل إلى ظروف بدء الرّحلة والكلام عن المغرب، بعدها تأتي الرّحلة عبر المدن الجزائريّة ثمّ المدن التونسية، ويليها الكلام عن طرابلس وليبيا، ثمّ الحديث عن بلاد التّرك وكلّ هذا خط رحلة الذّهاب، أمّا عن خط رحلة العودة فيستهلّه بالرّجوع إلى طرابلس ثمّ تونس عبر جزيرة جربة إلى أن يدخل الجزائر مرّة أخرى، ثمّ الدّخول إلى بلاده إلى أن يحلّ بتطوان وهذا كلّه في كتاب لم يتجاوز عدد صفحاته 117 صفحة[3].

لقد وصف التّمقروتي كل المراكز والمدن الّتي مرّ بها، ما عدا مدن المغرب الأقصى ولعلّه في هذا كان يقصد عدم تعريف ما هو معروف لبني وطنه ولولي نعمته، غير أنّه فعل عكس ذلك تماما عند تنقّلاته خارج المغرب الأقصى- وما يسجّل لصالحه- والجديد في هذا الكتاب وفي هذه الرّحلة أيضا، أنّه ابتداء من طرابلس بليبيا بدأت تظهر شخصيّته بسبب نقص المصادر التي تحدثت عنها، لذلك كان وصفه لها انطلاقا ممّا شاهد وعاين.

واعتمادا على نفسه، أقدم التمقروتي على وصف رحلته في البحر المتوسط، باتّجاه اسطنبول وما أحدثته في نفسه، وفي هذا الشّأن سجّل المهتمّون برحلته عدم معرفته بأمور البحر ومصطلحاته، غير أنّ مدينة اسطنبول أخذت حظّها الوافر في رحلته فأقدم على وصفها، ووصف خططها ومساجدها

---

[1]- اغناطيوس يوليانوفقشش، المرجع السّابق، ص460.

[2]-نفس المرجع، ص460.

[3]-محمّد التّمقروتي، المصدر السّابق، ص118.

وحتّى أسواقها، والأمر الّذي سجله أيضا عنها توفّر المخطوطات والمكتبات بها[1].

وفي الأخير، وبعد الحديث عن المدن التّي حلّ بها أثناء ذهابه وإيابه، يسهب في ذكر استقبال السّلطان له بفاس، ويورد في هذا المقام مجموعة من الأبيات الشّعرية، وقد توفّي التّمقروتي بعد هذا العمل الدّبلوماسي بقليل في مراكش سنة 1003هـ / 1594م، وكانت رحلته هاته هامّة ومعروفة جداّ بوطنه[2].

وها نحن اليوم نقتبس منها ما تعلّق بمدينة الجزائر وحالتها أواخر القرن السّادس عشر ميلادي بعدسة ديبلوماسي عريف ورحّالة نزيه حتّى نقف على الحقيقة الّتي كانت عليها هذه المدينة وعلى الحياة الحضريّة فيها.

---

[1]- محمّد التّمقروتي، المصدر السّابق، ص65.

[2]- اغناطيوس يوليانوقشش، المرجع السّابق، ص461.

2- 3شوفالييه دارفيو Chevalier D'Arvieux (**1635-1702**):

هو لوران دارفيو، رحّالة مشهور وديبلوماسي فرنسي، ولد في مرسيليا سنة 1635، وتوفّي بها أيضا سنة 1702، ذهب إلى فلسطين ثمّ عاصمة الدّولة العثمانيّة في مهمّة رسميّة من طرف لويس الرّابع عشر، كما توجّه أيضا إلى دول شمال إفريقيا(تونس والجزائر)، تقلّد منصب قنصل حلب بين (1676 و1686)، يعتبر دارفيو من كبار العارفين بالعالم الشّرقي في القرن السّابع عشر، كان يتحدّث ويكتب باللّغتين العربيّة والتّركيّة[1].

إنّ كتابه **مذكّرات شوفالييه دارفيو** يتكوّن من ستّة أجزاء، طبع بعد ثلاثين سنة من وفاته من طرف جين باتيست لابا، قدّم لنا وصفا دقيقا للجيش الانكشاري، ولحكومة الجزائر وأهمّ ما حدث فيها بين 1660 و1675، وأسهب في ذكر الحياة الحضريّة في المدينة من خلال عدّة جوانب: الدّيوان، وظائف الضّبّاط، طريقتهم في القرصنة وتقسيم الغنائم، افتداء الأسرى، لباس الرّجال والنّساء، كما دعّم تأليفه هذا عن المدينة بتلك الرّسائل الّتي تبادلها داي الجزائر مع نظيره الفرنسي لويس الرّابع عشر[2].

بقدر ما كانت رحلة دارفيو إلى العالم الشّرقي رحلة رسميّة، فقد كان مبعوث الملك الفرنسي إلى الباب العالي وحلب، والجزائر، طرابلس، تونس ومناطق أخرى تضمّنت وصفا في غاية الأهمّيّة عن هذه البلدان، وعن دياناتها وعاداتها وتقاليدها وتجارة شعوبها وحكومتها وتاريخها الطّبيعي...[3].

وهي عبّارة عن مجموعة مذكّرات سجّل فيها ما شاهد وما وقعت عليه عيناه، مستندا إلى مصادر أخرى سبقته إلى تلك المناطق، ولعلّ في مقدّمتها رحلات القرن السّادس عشر.

إنّنا نرى أنّ ما سجّله هذا الدّيبلوماسي عن مدينة الجزائر، جدير بالتّرجمة ومقارنته بما كتبه غيره، سواء من حلّ بالمدينة قبله أو بعده، لأنّ معلوماته مسّت جوانب عديدة من الحياة الحضريّة داخل مدينة الجزائر؛ السّياسيّة، العسكريّة، الاجتماعيّة، الثّقافيّة والاقتصاديّة.

---

(1)- بيوغرافيا حول دارفيو مأخوذة من: WWW.Algerie ancienne

(2)- Chevalier D'Arvieux, **Mémoires du Chevalier D'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la porte, Consul d'Alep, d'Alger de tripoli et autres echelles du levant**, par R.P.G.Baptiste labat de l'ordre des frères precheure, Paris.

(3)- Ibid, Tome Cinquième.

2-4**لوجي دي تاسي**: Laugier De Tassy:

رحّالة فرنسي، لكنّ المعلومات حوله شحيحة للغاية، غير معروف عنه لا متى ولد ولا متى توفّي، ولا حتّى كيف نشأ وترعرع، لولا أنّه معروف بتأليفه **تاريخ مملكة الجزائر** أي **Histoire du Royaume d'Alger**، والذي صدر لأول مرة سنة 1725 بالعاصمة الهولندية أمستردام، وقد مثّل لوجي دي تاسي مذهبا فكريا ساد في أوروبا في النّصف الأوّل من القرن الثّامن عشر، تمثّل نشاطه عموما في الدّفاع ضدّ الأحكام المسبقة الّتي كانت منتشرة في أوروبا عن الأتراك وسكّان شمال إفريقيا[1].

كان دي تاسي مسؤولا في القنصليّة الفرنسيّة بالجزائر، وزيادة على هذا كان قد عمل بهولندا في بعثة ملكية إسبانية، إلّا أنّ عمله هذا كان معتما[2]، وكتابه المذكور آنفا، الّذي نحن بصدد الاستفادة منه فيما يخص الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في الرّبع الأوّل من القرن الثّامن عشر، يعتبر جديرا بالاهتمام والدّراسة وحتّى التّرجمة نظرا للأخبار الّتي يحتوي عليها[3].

احتفظ الفرنسيّون خصوصا بأحكام مسبقة تخصّ سكّان شمال إفريقيا، وهي أحكام لا تخرج عن صفات الازدراء والاحتقار والحطّ من قيمة الإنسان، ووجود ذلك التّمييز العنصري الكبير، كلّ هذا كان في اعتقاد كاتب **تاريخ مملكة الجزائر** يعود إلى الرّهبان والآباء الكاثوليكيين، الّذين قاموا بهذا الإشهار والادّعاء الكاذب، بغية استمالة شعور المجتمع كي يقدّم الصّدقات من أجل فدية الأسرى المسيحيين في الجزائر، وكان تركيزه خصوصا على الرّهبان الإسبانيين[4].

في هذا الشّأن بالذّات فإنّ العديد من الرّحالة الفرنسيّين قد أعادوا النّظر في جملة ما كتبه القساوسة ورجال الدّين عن الجزائر، ذلك أنّ هناك نوعان من الرّحلة؛ رحلات دينيّة مؤسّسة على أسطورة الباربرسك، ورحلات سياسيّة واستكشافيّة مؤسّسة على واقع علمي وحيوي، وتعتبر الثّانية أكثر مصداقيّة[5].

فدي تاسي لا يتّفق مع بعض رجال الدّين من أمثال دارندا، دان وهايدو في أحكامهم

---

(1) - Denise Brahimi, op.cit; p 121.

(2)-ج.ب.وولف، المرجع السّابق، ص462.

(3)-زكريا العابد، المرجع السّابق، ص07.

(4)-Denise Brahimi, op.cit. p 123.

(5) - كمال فيلالي "**الرّحّالة الدّينيّين في منظور لوجي دي تاسي، مستشار القنصليّة الفرنسيّة بالجزائر**". الهجرة والرّحلة، مخبر الأبحاث الاجتماعيّة والتّاريخيّة حول حركات الهجرة، جامعة منتوري، قسنطينة، أفريل، 2005، ص102.

وكتاباتهم[1]. إنّ كشّاف أهم الفرنسيّين الذّين حلّوا بالجزائر من 1686 إلى 1830 لـ: أ.دوفو A.Delvoux خصّص له ملاحظة قصيرة وهي لوجي جاك فيليب Laugier Jaques Philippe معيّن كموثّق للعقود في القنصليّة الفرنسيّة بقرار 27 جويلية 1717 والّذي سجّل بالجزائر يوم 16 جانفي 1718، يغادر بسرعة وبلا رجعةٍ يوم 02 جويلية من السّنة نفسها بعد إقامة دامت خمسة أشهر ونصف تاركا لقنصله م.بوم "M.Baume" عبء ديوان القنصليّة الذّي تحمّله بعزيمة صبرٍ طيلة خمسة أشهر. وقد ذهب "دي تاسي" على متن سفينة المعلّم مولينيي دوكا سيس " Moulinier de Cassis".وكان هذا في اليوم الثّاني من جويلية سنة 1718. وبعد سبع سنوات اشتغل في منصب مفوّض البحريّة لملك فرنسا بأمستردام أين نشر كتابه **تاريخ مملكة الجزائر**، ولقد كان هذا الدّيبلوماسي على اتّصال مباشر بواقع مدينة الجزائر ومن ثمّ انكبّ على كتابة تأليفه المذكور[2].

يظهر أنّ دي تاسي لم يقم طويلا في الجزائر، كما أنّه على الأرجح قد اعتمد على مصادر أخرى في تأليفه المذكور، وفي كتابه حوالي خمسين صفحة من تفكيره، وعن النّصوص التّي أتى بها جدليّة –تقول براهيمي- كوّنت إعادة الاعتبار لحكومة الأتراك في الجزائر والجزائريّين بصفة عامّة، وأراد من خلال كتابه أن يقترح اتّجاها مرتبطا بالأخلاق عن طريق مونتيسكيو، لقد عرف بعمق ما سمّي بأزمة الإدراك الأوروبي واقترح على المواطنين بصفة عامّة قلب الأوضاع لرؤية آراء الآخرين[3].

يعتبر دي تاسي أحد الباحثين والرّحالة الأوروبيّين الموضوعيّين –إلى حد ما- حيث استنكر الكلام الخرافي لرجال الدّين والرّهبان وتصدّى بالانتقاد لزعماء التّنظيمات الدّينيّة المتعصّبة والمغرضة والتّي كان هدفها تشويه الإسلام والمسلمين[4]، لذلك جاءت كتاباته تدين الأحكام المسبقة لغالبيّة المسيحيّين ضدّ الأتراك والمسلمين.

لقد تكلّم دي تاسي بصورة عامّة عن الحكومة القائمة آنذاك في الجزائر، وكذا القوّات البريّة والبحريّة، وتطرّق إلى مواضيع عدّة كالمداخيل، الشّرطة، العدالة، السّياسة والتّجارة[5].

---

[1]- كمال فيلالي، المرجع السّابق، ص64.

[2]- Laugier de Tassy, **Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, de ces forces de terre et de Mer, de ses Revenus, police, justice, politique et Commerce**, Loysel, Paris, 1992, p11.

[3]-Denise Brahimi, op.cit, pp121-122.

[4]- عبد الله حمادي، المرجع السّابق، 271.

[5]- Laugier de Tassy, op.cit.

فيما يخص تأليفه، فهو في الحقيقة كتابين: الأوّل تحدّث فيه عن مملكة الجزائر، وفيه إحد عشر فصلا وهي كالتّالي: ثورات المملكة، سكّان المملكة، عرب مملكة الجزائر، يهود مملكة الجزائر، أتراك المملكة، مسيحيّو المملكة، ديانة المملكة، عادات وتقاليد شعب الجزائر، تقسيم المملكة وأخيرا تكلّم عن الحكومة التّي جزّأها إلى قسمين.

بينما الكتاب الثّاني خصّه بمدينة الجزائر (La Ville d'Alger)، حيث قسّم هو الآخر إلى إحد عشر فصلا، وهي: حالة ووضعيّة مدينة الجزائر، مؤسّسات المدينة، الحمّامات في المدينة، ضواحي مدينة الجزائر وريفها، انكشاريّة المدينة، سلطتها وقوّاتها، الدّاي (ملك الجزائر)، الآغا والضّباط الآخرين للانكشاريّة، البايات (نوّاب الملك) وضبّاط الأسلحة، ثمّ تحوّل إلى الحديث عن الموظّفين من أمثال الخوجات، القاضي الخزندار وضبّاط آخرين، وأخيرا ألقى الضّوء على العدالة وكيفيّة سير الأمور في هذا الجانب ثمّ ختم تأليفه بالحديث عن عملة ونقود الجزائر[1]. ولذلك جاء كتابه متنوّعا بالأخبار عن الجزائر في مجالات عدّة.

2-5جون ميشال فونتير دي بارادي:"John Michel Venture de Paradis" (1739-1799):

يعتبر الفرنسي دي بارادي من الرّحالة البارزين الّذين زاروا الجزائر في أواخر القرن الثّامن عشر، وكتبوا عنها وعن شعبها وعن عاصمتها، كما يعتبر كتابه **الجزائر في القرن الثامن عشر** مميّز وحضوره قويّا على عدّة مستويات، ترى لماذا؟ ومن يكون هذا الرّجل وما علاقته بالحياة الحضريّة في مدينة الجزائر؟

ولد جون ميشال فونتير بارادي يوم 08 ماي 1739 بمرسيليا من أم يونانية وأب كان يعمل ترجمانا، في عدّة قنصليّات فرنسيّة ببلاد المشرق، ولم يكد يبلغ فونتير سن الثّالثة عشر حتّى استفاد من منحة دراسيّة إلى باريس ليتعلّم العربية والتّركية واللّاتينيّة بمعهد اللّغات الشّرقيّة، وبعد خمس سنوات من الدّراسة، عُيّن بمكتب التّرجمة بالقسطنطينيّة، ثمّ تقلّد وظائف في: صيدا، القاهرة وتونس...الأمر الّذي سهّل عليه التّكلّم بلغة هذه البلدان[2].

وفي سنة 1788 صدر أمر من الملك لويس السّادس عشر برفعه إلى منصب مترجم اللّغات الشّرقيّة في وزارة الخارجيّة الفرنسيّة، وكان ذلك في عهد الداي محمّد عثمان باشا (1766-

---

(1)-Laugier de Tassy, op.cit, pp18-149-182.

(2)- Venture de Paradis, **Tunis et Alger aux XVIII e siècle** (Mémoires et observations rassemblés et présentés par Cuoq, Sindbad, Paris, 1983, pp13-14.

1799)[1].

أوفدت فرنسا فونتير للجزائر لتسوية خلافات نشبت بين الطّرفين، فأقام سنتين (1788-1790) في العاصمة الجزائريّة، درس خلالها نظمها وتراتيبها وكتب عنها المذكّرات القيّمة[2]، كما تعلم اللّغة البربريّة وألّف قاموسا في هذا الشّأن (فرنسي-عربي-بربري)، دعاه بونابارت للمشاركة في حملته على مصر، فلبى دعوته وأصبح لسانه الّذي يتكلّم به مع عموم أهل الشّرق، ومكث هناك معاونا له حتّى مرض وسئم، ومات أثناء حصار الجيش الفرنسي لعكا سنة 1799، تاركا وراءه عدّة مؤلّفات بعضها مطبوع وبعضها لا يزال مخطوطا في المكتبة الوطنيّة بباريس[3]، ومن بين أهمّ مؤلّفاته ترجمة بعض الكتب من العربيّة إلى الفرنسيّة والّتي نذكر منها: **تاريخ الخلفاء والمماليك بمصر للشّيخ يوسف المقدسي، الموجز الجغرافي التّاريخي لدولة المماليك لابن شاهين الزّيري**، إضافة إلى **قاموس الملخّصات البربريّة** الّتي نشرت بباريس سنة 1944، لكنّ أهمّ عمل قام به والّذي يخصّ الجزائر هو كتابه **الجزائر في القرن الثّامن عشر Alger au XVIIIe siecle** وقد تفضّلت المجلّة الإفريقيّة بنشر صفحات من هذا الكتاب في أعداد متتالية[4]، كما طبع من طرف سندباد في الثمانينات، وتفضلت مطبعة Grand Alger Livre بطبع صفحات الكتاب سنة 2006[5].

يعتبر دي بارادي أحد مستشرقي القرن الثّامن عشر وقد نادى بضرورة دراسة اللّغات الشّرقيّة. وأنّ مشاهداته وملاحظاته وانطباعاته القيّمة حول سكّان الجزائر والحكّام الأتراك وكذا الحضر والبدو والمعلومات التّجاريّة والدّبلوماسيّة والعسكريّة وحتّى الماليّة، قد ساعدت فيما بعد في قضيّة التّحضير للسّيطرة على دول المغرب[6]، وفي مقدّمتهم الجزائر، بحكم أنّه مكث فيها من 28 سبتمبر 1788 إلى 4أفريل1790، وبذلك سمحت له هذه المدّة برصد العديد من الأخبار والمعلومات حول الجزائر في

---

[1] - الدّاي محمّد عثمان باشا: (1766-1791) مدّة حكمه، كان رحمه الله مؤثرًا للعدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزمًا بأحكام الشّريعة المطهّرة، كان يحبّ الجهاد، وقعت في أيّامه حروب عديدة ورزقه الله النّصر فيها...أحمد توفيق المدني، **محمّد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدّولة والحياة العامة في عهده**، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986، ص80.

[2]- نفس المرجع، ص161

[3]- Venture de Paradis, **Alger aux XVIII^{e} siècle**, In manuscrit, bib.Nat.ms, France, N°:892.

[4]- Venture de Paradis, "**Alger aux XVIII ^{e} siècle**", In R.A, N°:39, 1895, pp265-314, et N°:40, 1896, pp33-78 et 256-277, N°:41, 1897,pp67-118.

[5]- Jean Michel Venture de Paradis, **Alger aux XVIII ^{e} siècle,(1788-1790), Mémoires, Notes et Observations d'un diplomate-espion**, présentation et note par Abderrahmane Rebahi, Edition, Alger, Grand Livres, 2006.

[6]- زكريا العايد، المرجع السّابق، ص112.

جوانب عديدة، كما لا ننسى أنّه دبلوماسي، والّذي ينتسب عادة إلى هذه المهمّة يكون دقيق الملاحظة متصفّحا لأخباره متيقّنا منها.

وللحقيقة التّاريخية، لقد برهن دي بارادي على أنّه ملاحظ كبير ومسجّل دقيق لما جاء به من معارف ومعلومات حول الجزائر في اعتقادنا، وذلك نظرا لما احتوى عليه كتابه من عناصر شاملة، والتّي أوردها في النّقاط التّالية: مدينة الجزائر، ميناء الجزائر، حماية المدينة، إقليم المدينة وسكانه، الصّناعة والتّجارة في مدينة الجزائر، القراصنة، الأسرى، اليولداش، الأوجاق، تكوين حكومة الجزائر، التّشريع، منزل الدّاي، الضّبّاط المكوّنون للحكومة، ديوان الجزائر، العادات والأعراف والممارسات، نكت (نوادر)، طريقة معالجة الأمور، تصالح بين حكومة مالطة والجزائر، الضّرائب المفروضة في الجزائر، القناصل، العائدات الثّابتة، تحرير الأسرى، الخروج أثناء اللّيل، أوزان الشّرطة، معلومات مختلفة والنشاطات أثناء الحرب[1]. ومهما يكن فإنّ دي بارادي قدّم عملا لا يقلّ أهمّيّة عمّا قدّم في عصره، ورغم الغرض من كتابة تأليفه، فإنّ كتابه يعتبر من المصادر الأساسيّة الّتي تتحدّث عن تاريخ مدينة الجزائر وعن الحياة الحضريّة فيها أواخر القرن الثّامن عشر، وأكيد أنّ صاحب هذا الكتاب صال وجال كثيرا في المدينة وتعرّف على معظم خباياها.

---

[1]- Venture de Paradis, **Tunis et….,**op.cit, pp107-263.

3-أصحاب مصادر الرّحلة الدّراسيّة والعلميّة:

3-1أحمد بن زاكور الفاسي:

هو أبو عبد اللّه محمّد بن قاسم بن محمّد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي، ولد بمدينة فاس في سنة غير معلومة من بداية الرّبع الأخير من القرن الحادي عشر هجري، ولم يذكر أحد من المؤرّخين أو من ترجموا له سنة ولادته، بل توجد هناك بعض الاجتهادات فقط[1].

على كل حال، فابن زاكور أديب ورحّالة وشاعر تعلّم بفاس، ثمّ انتقل إلى مدينة تطوان فأخذ عن علمائها، من بينهم عبد القادر الفاسي (1599-1680) والشّيخ محمّد مهدي الفاسي (1630-1691)...وغيرهما، ثمّ قدم إلى مدينة الجزائر بحرا سنة 1683، للاجتماع بعدد من علماء المدينة والأخذ عنهم واستجازتهم، وحصل على الإجازات التي كانت آنذاك بمثابة الشّهادات العلميّة اليوم، ثمّ عاد إلى تطوان[2]. من أشهر أساتذته وشيوخه في مدينة الجزائر محمّد بن سعيد المعروف بقدورة...وغيره ممّن ذاع صيته وقتها ويذكرهم ابن زاكور في رحلته [3].

لقد تضلّع ابن زاكور في علوم اللّغة والفقه وحتّى التّاريخ... وصار يدرّس العديد من الطّلبة، وقد ذكره ابن حمادوش في رحلته وأثنى عليه بعبارات يقول فيها:« ...بن زاكور شيخنا العلّامة المحقّق المدقّق الأديب الشّاعر المقلق أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن زاكور، صاحب التّآليف العجيبة والتّصانيف الأنيقة... قرأت عليه شرحه على الخزرجيّة...»[4]. ويبدو من خلال كلام ابن حمادوش أنّ ابن زاكور عاش إلى غاية القرن الثّامن عشر، وتتلمذ على يديه عبد الرّزاق بن حمادوش الطبيّب الرّحالة الجزائري.

ترك ابن زاكور مؤلّفات عديدة منها: **الاستشفاء من الألم بذكر أثر صاحب العلم، المغرب**

---

[1]- منهم من يرى ولادته في منتصف القرن 11هـ (1050) / 1640م.

ومنهم من يرى أنّها تتعدّى ذلك إلى غاية الرّبع الأخير من القرن السّابع عشر (1675).

ومنهم من يرى بأنّ ولادته بالتّقريب حوالي 1076هـ/ 1665م، وهي الأقرب إلى الصّواب على حدّ قول عبد اللّه كنون ومحمّد بن تاويت. (**ثلاث رحلات مغاربيّة ويليه مجموع رحلات جزائريّة**، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، طبعة خاصّة، المعرفة الدّولية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2011،ص ص13-15).

[2]- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص19.

[3]-**ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السّابق، ص ص20-21.

[4] -عبد الرّزاق بن حمادوش،المصدر السابق، ص58.

المبين عمّا تضمّنه الأنيس المطرب وروضة النّسرين[1]، **الحلّة السّيراء في حديث البراء، معراج الرّسول إلى سماوات الأصول، الرّوضة الجنيّة في ربط السّنة الشّمسية، روض الأريض في بديع التّرشيح ومنتقى القريض**... وأيضا **الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول، التّعاسة في شرح ديوان الحماسة والدّرة المكنوزة في تذييل الأرجوزة**... وكلّ هذه التّآليف وغيرها في التّراجم، الطّب، الحديث، الأصول، وفي اللّغة والتّوقيت... ولعلّ أهم تأليف له والذّي سيزوّدنا بمعارف عدّة ومعلومات جمّة كان في الرّحلة وجانب من التّاريخ وهو: **نشر أزاهر البستان فيمن أجازني في الجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان** وهو عبارة عن فهرسة ذكر فيها شيوخه في مدينة الجزائر وتطوان وبعض شيوخه في فاس[2].

تعتبر رحلة ابن زاكور من المصادر التّاريخيّة الهامّة التّي تحدّثت عن مدينة الجزائر وعن الحياة الحضريّة فيها، ولو في شقّها العلمي والثّقافي لأنّه كان محور انشغال صاحبها، كما أنّ الهدف من رحلته كان التّزوّد والاستجازة بالعلم من طرف علماء هذه المدينة، وتنتهي رحلة ابن زاكور إلى ما يسمّى أدبيّا بـ: فهرسة الرّحلة، فهي عبارة عن فهرسة تكتب في شكل رحلة، قام المؤلّف فيها بتسجيل ما رأى، ودوّن أسماء الشّيوخ الذّين لقيهم واستفاد من مجالستهم فأخذ عنهم الرّوايات والعلوم، دون أن ينسى الوصف الجغرافي والتّاريخي للمناطق التّي مرّ بها.

لقد طبعت رحلة ابن زاكور بالجزائر سنة 1902[3]، بمطبعة فونتانة في ستّة وتسعين صفحة، مع مقدّمة في ثلاث صفحات خصّصت لسيرة حياة ابن زاكور، كما أقدم عبد الوهاب بن منصور على طبعها سنة 1967 بالرّباط، وهي صورة طبق الأصل لطبعة الجزائر[4].

كما أقدم الأستاذ مولاي بلحميسي على طبع الجزء الخاص بالجزائر سنة 1982 وهو جزء صغير جدّا، وأخيرا تفضّل كل من مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع بتحقيق ثلاث رحلات مغاربيّة: أوّلها رحلة ابن زاكور الفاسي، وثانيها رحلة الشّيخ أبي حفص عمر الأكبر بن عبد القادر إلى فاس، وثالثها رحلة عبد الرّحمان بن ادريس التّنلاني التّواتي الجزائري إلى العاصمة، ونشر هذا العمل في إطار تلمسان

---

(1) – عبد المرابط التّرغي، **فهارس علماء المغرب منذ النّشأة إلى نهاية القرن الثّاني عشر للهجرة، منهجيّتها، تطوّرها، قيمتها العلميّة**، ط1، مطبعة الجناح الجديد، الدّار البيضاء، 1991، ص461.

(2) –**ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السّابق، ص ص24-25.

(3) – توجد نسخة منها في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، بمكتبة الشّيوخ.

(4) – مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص19.

عاصمة الثّقافة الإسلاميّة[1].

وإنّنا سنعتمد على الطّبعة الأخيرة (2011) في ذكر الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، لأنّ فيها معلومات ومعارف أخرى خلت منها الطّبعات السّابقة.

لقد استهلّ ابن زاكور رحلته بنثر مسجوع تحدّث فيه عن قيمة العلم والعلماء، وكذا أهميّة الرّحلة حيث يقول: «... وبعد: فإنّ الرّحلة منّة من اللّه ونحلة، تكسب غليظ الطّباع غاية الرّقة والانطباع، وتعقب من كابد لها نصبا، علما غزيرا وأدبا...»[2] ثمّ يأتي على وصف المدينة ومدحها، وينتقل بعدها إلى الحديث عن شيوخه وأساتذته كلٌ على حدى، ومن بينهم أبي حفص عمر بن محمد المانجلاني، علي بن عبد الواحد السجلماسي، سعيد بن إبراهيم قدورة، عبد اللّه محمد بن عبد المؤمن الحسني وعبد اللّه بن خليفة... إلى غاية خروج المؤلّف من مدينة الجزائر وتأسّفه على فراقها، وهو في هذا كلّه ينمّق رحلته بأبيات شعريّة بين مدح وإجازة عالم، وحتّى وهو في بلاده بالمغرب الأقصى يكمل حديثه في رحلته عن أفاضل الشّيوخ والعلماء، ويثني عليهم أيضا فردا فردا، وبالأخص ممّن كانوا سببا في تعلّمه[3].

أضحت رحلة ابن زاكور **نشر أزاهير البستان** من بين أهمّ المصادر التّي يعوّل عليها في دراسة جوانب من تاريخ الجزائر والمغرب من أواخر القرن السّابع عشر إلى بداية القرن الثّامن عشر، والأخبار التّي ذكرت في هذه الرّحلة –وخاصّة أخبار الجزائر وعلمائها– صارت مصدرا لمن أتى بعده كالحفناوي[4]، وعادل نويْهِض[5]... وغيرهما.

وفيما يبدو أنّ ابن زاكور خلّف علما مازال ينتفع به من بعده، سواء عن طريق التّآليف العديدة والمصنّفات الكثيرة في فروع العلم المتنوّعة، أو عن طريق العدد الهائل من الطلبة الذّين درسوا على يديه حتّى صاروا علماء في ذلك الوقت، ويكفيه فخرا ما نحن بصدد الاستفادة منه في مجال الرّحلة ""**نشر أزاهير البستان**...".

وقد توفّي ابن زاكور بعد عطاء حافل في ميدان العلم والتّعليم حوالي 1120هـ/1708م[6].

---

(1)- **ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السّابق.

(2)-**ثلاث رحلات مغاربيّة**، المصدر السّابق، ص39.

(3)- نفس المصدر، ص ص39-117.

(4)- محمّد بن أبي القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السّلف**، ط2، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1985.

(5)- عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر**، ط2، بيروت، 1980.

(6)- مولاي بلحميسي، المرجع السّابق، ص19، وناصر الدّين سعيدوني، المرجع السّابق، ص96.

عبد الرّحمان الجيلالي، المرجع السّابق، ص151.

(غير أنّ ابن حمادوش يذكر بأنّه توفّي سنة 1122هـ. عبد الرّزاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص58).

1- الجامعي: (ق17م-ق18م):

هو أبو زيد عبد الرّحمان بن عبد الله الفاسي الشّهير بالجامعي، أديب وكاتب ورحّالة، ولد بفاس عام 1087هـ ونشأ بها وتتلمذ على يد مشايخها، فحصل على علوم شتّى، ثمّ ارتحل إلى تونس وامتهن التّدريس بها بجامع الزّيتونة، له قريحة في نظم الشّعر البليغ، وله مهارة في فنون عدّة وله تأليف لطيف في فتح وهران[1].

له أيضا في مجال الرّحلة ما عرف به رحلة الجامعي الّتي ذكر فيها مدينة الجزائر في جانبها العلمي والثّقافي[2]، وكما تغنّى بها في أبيات شعريّة فضّلها عن غرناطة ولنا في هذا المقام أن نسوق بعض الأبيات فيما قاله عنها:

عــــروس تجلّـــت فـــي أعـــالي المنـــابر	**بـــدت كمنصّـــات الزّمـــان كأنّهـــا.**
وصـــيغت لهـــا الأمـــواج خلخـــال حاســـر	**وقـــد قلّـــدت مـــن بحرهـــا بموشـــح.**
وشـــــنيل فالحســـــن انتهـــــى للجزائـــــر	**فـــدعني مـــن غرناطـــة وربوعهـــا[3].**

إنّ أهميّة رحلة الجامعي ومكانة صاحبها جعلها في متناول العديد من العلماء في تلك الفترة وعلى رأسهم أحمد بن عمّار الّذي ذكرها في رحلته المسمّاة نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب وأشاد بعلماء المدينة وقتها وعلى رأسهم أبي عبد الله محمّد بن محمّد المعروف بابن علي[4].

ويبدو أنّ رحلة الجامعي تحمل في طيّاتها الكثير عن مدينة الجزائر وبالأخص في شقّها العلمي والمعرفي حينما مدحها وبيّن فضائلها وحصانتها والعديد من خصوصيّاتها، ولا يفوتنا أن نذكر أيضا في هذا الشّأن دعاءه لها بالسّتر والحفظ إذ يقول:

وهـــــذه ربـــــوع حاطهـــــا بإحاطـــــة	**مؤلّفـــــة مـــــن ســـــتره خيـــــر ســـــاتر**

2- توماس شو Thomas Show (**1692م-1751م**):

هو عالم إنجليزي، كان أشهر رحّالة أوروبي قام بزيارة إلى الجزائر في القرن الثّامن عشر، حيث

[1]- عبد الرّحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثّلاث، الجزائر-المديّة-مليانة في موسمها الألفي (360هـ-1370هـ) (970م-1971م)، ط1، دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2007م، ص149.

[2]- نفس المرجع، ص ص149-150.

[3]- عمّار عمّورة، المرجع السابق، ص77.

[4]- أحمد بن عمّار، نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، موجودة بأرشيف قسنطينة رقم 36، ص ص81-82.

مكث حوالي اثنى عشرة سنة بين (1720م-1732م). كان ذو دهاء وعقل علمي[1].

يكاد يتّفق الجميع على قيمة مهمّته العلميّة التّي أنجزها في بلادنا. ومع أنّ عمله كان يقتضي عليه الارتباط بمدينة الجزائر بصفته كاهنا لدى الشّركات التّجاريّة الإنجليزيّة، إلّا أنّه كان يسافر كثيرا، حيث زار بالإضافة إلى إيّالة الجزائر، كل من إيّالة تونس، الدّول العربيّة ببلاد المشرق كسوريا ومصر. وفي رحلته في الجزائر وصل الدّكتور "شو" حتّى جبال ترارا Trara غربا، حيث زار وهران والمدن السّاحليّة الأخرى كالشّلف... وذهب شرقا إلى جرجرة ثمّ صعد ناحية نحو السّاحل إلى بونة وباستيون فرنسا[2].

عاش الدّكتور "شو" حوالي ستّين سنة (60)، إذ ولد سنة 1692م بكيندال بإنجلترا، وتوفّي بها سنة 1751م، تقلّد كرسي رئاسة كليّة الطّب بإكسفورد. ومعرفتنا بهذا الرّحالة كانت أكثر من خلال كتابه: "Travels or observation, relatini several ports of barbary and levant" والذّي نشر بأكسفورد عام 1738م، وترجم إلى الفرنسيّة في لاهاي عام 1743م تحت عنوان: Vayage de Menssieur Shaw M.D، وله ترجمة أخرى أيضا من طرف ماكارثي صدرت عام 1830م بباريس، وممّا لا شكّ فيه أنّه طبع وترجم إلى لغات عدّة والتّي من ينها الهولنديّة[3].

لقد درس الدّكتور "شو" أثناء إقامته الطّويلة العديد من المواضيع والتّي منها الجغرافيا القديمة للجزائر وأتمّها على ضوء المعطيات الجديدة المعاصرة سواء ملاحظاته هو أو أوراق رجال الدّين الفرنسيّين وأسئلة الاختصاصيين بأكسفورد[4].

أمّا فيما يخص مجال العلوم، فالدّكتور "شو" درس المناخ، المنتوجات الطّبيعيّة، الحيوانات التّي تعيش بالمملكة، وأيضا المميّزات الثّقافيّة للمجتمع... وفي اعتقادنا لولا أهميّة رحلة شو وقيمتها العلميّة لما أعيدت ترجمتها للغات عدّة.

إنّ ما يستدعي انتباهنا في رحلة الدّكتور شو، هو ما ذكره هذا الرّحالة حول مدينة الجزائر وضواحيها وأرباضها وفحوصها... وخصوصا الحياة الحضريّة داخل المدينة وما تعلّق بها، لأنّه كما قال

---

(1)-Thomas Show, voyage dans la régence d'Alger par Docteur Show ; tard, de l'anglais par J.M.Carthy, 2ed, Bouslama ; Tunis, 1980.

(2)- زكريا العابد، المرجع السّابق، ص108.

(3)-Denise Brahimi, OP.Cit. PP139-140.

يذكر أبو العيد دودو: أنّ رحلة توماس شو ترجمت إلى الألمانيّة سنة 1765م واعتمد عليها كثير من الألمان.(أبو العيد دودو، المؤرّخون الألمان والجزائر، الأصالة، العدد14 و15، الجزائر، 1973م، ص ص118-119.

(4)-Denise Brahimi, OP.Cit. P140.

مؤلّف كتاب: الجزائر وأوروبا (1500-1830):«... باستثناء توماس شو الذّي برهن على أنّه كان ملاحظا لا يقلّ نباهة عن الرّجال الذّين أرسلوا إلى الجزائر ليبحروا في أحوالها لفائدة وزراء الملك...»[1].

إنّ ما يهمّنا في رحلة هذا الكاهن والرّحالة دقّة ملاحظته واستعانته بمعارفه العلميّة وعقله الوقاد... وهي صفات وسمات نستخلصها من تأليفه. وعلى العموم فالرّحالة "شو" قدّم عملا وتأليفا يشكّل مصدرا مهمّا استوحاه بكلّ موضوعيّة، مبتعدا عن التّضليل والخرافات ممّا يعطيه قيمة خاصّة، وهذا ما جاء في الواجهة الأولى للكتاب على حد ذكر النّاشر، وعلى هذا نريد أن نقف على حقيقة ذلك بالإثبات أو النّفي فيما يخص الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خصوصا في العشريّة الثّالثة من القرن الثّامن عشر ميلادي واضعين في الحسبان بأنّ هذا الرّحالة عضو في الإكليروس كنيسة، حيث أنّه كان فعلا إكليركيا "Ecclesiastique" باعترافه هو[2].

وإذا ما عدنا إلى الكتاب الذّي نستقي منه المعلومات والأخبار حول الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر ما بين 1720م-1732م، فهو الصّادر عن مطبعة بوسلامة بتونس سنة 1980م، يحوي حوالي 401 صفحة، قام الرّحالة شو بتقسيمه إلى عشرة فصول وهي على النّحو التّالي: طبوغرافيّة مملكة الجزائر بما فيها أرضها، مناخها، إنتاجها، الحيوانات في المملكة ذات الأربع أرجل، طيورها، حشراتها، أسماكها ثمّ انتقل إلى الحديث عن العلوم والفنون والورشات وتطرّق بعدها إلى العادات والتّقاليد واللّباس. ولقد تحدّث أيضا عن حكومة الجزائر (الدّاي، الآغا والضّباط)، وألقى الضّوء على ميليشيا الجزائر (قوّتها، تكويناتها، ثكناتها) وطريقة القتال عندها، وقد أعطى وصفا لمقاطعة الجزائر ومقاطعة التيطري، مقاطعة قسنطينة ومقاطعة الزّاب[3].

وما يسجّل في هذا الإطار حول رحلة الدّكتور "شو" أنّ الكثير من الرّحالة الإنجليز قد عادوا إلى مطالعة رحلته، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الإنجليز كانوا من الأوائل الذّين زاروا الجزائر وكتبوا عنها وعن جمالها[4].

وبالرّغم من العمل الضّخم الذّي أقدم عليه "توماس شو": إلاّ أنّه لم يهتم بالعلوم الإنسانيّة

---

[1]- ج.ب.وولف، المرجع السّابق، ص466.

[2]-Thomas Show, OP.Cit. P5.

[3]- Ibid, Tableau de Matières.

[4]-عبد اللّه ركيبي، الجزائر في عيون الرّحالة الإنجليز، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م، ص145.

والاجتماعيّة بسبب الازدراء الذّي خصّ به العرب[1]. كما أنّ رحلته لم تتضمّن إلّا نزرا قليلا عن الحياة السّياسيّة والإداريّة في الجزائر[2]، ولعلّ هذا راجع إلى تكوين هذا الرّحالة واهتمامه القريب من العلوم (مجال الطّب)، بالإضافة إلى كونه رجل دين لذلك جمعت رحلته بين سمات رجل العلم الدّقيق وصفات رجل الدّين الملتزم.

3- جون أندري بايسونال: Jean André Peyssonel (1694-1759م):

ولد بمرسيليا، جاء إلى سواحل شمال إفريقيا خلال سنتين 1724-1725م في إطار مهمّة علميّة لدراسة طبيعة المرجان وكذلك لإتمام أبحاثه حول "الطّاعون" الذّي توفّي به والداه - الطّبيب كذلك – أثناء الوباء الذي عمّ المقاطعة سنة 1720م. وألّف كتابا حول رحلته سمّاه: قصّة رحلة على سواحل بربارِيا أي: Relation d'un vayage sur les Cotes de Barbarie وقد شمل العديد من الملاحظات العلميّة الهامّة[3]. بالإضافة إلى محاولة لفهم النّظام السّياسي.

وللحقيقة فإنّ كتاب "بايسونال" على شكل رسائل للأب بينيون "Abbe Bignon"، لم ينشر إلاّ في سنة 1830م من طرف "ديروديلاي" Dureau de la maIle وذلك في الجزء الأوّل من كتابه الذّي أخذ عنوان: بايسونال وديسفونتين، رحلة في ممالك تونس والجزائر بمكتبة جيد بباريس[4].

والجدير بالذّكر أنّ "بايسونال" جاء إلى شمال إفريقيا بتكليف من أكاديميّة العلوم، وقدّم عملا هامّا عن الجزائر تضمّن معلومات جغرافيّة وطبيعيّة واجتماعيّه قيّمة، لأنّه بقي في المنطقة لمدّة قاربت السّنة، ولعلّ في كتابه حقائق علميّة بحكم تكوينه وانتمائه، لكن ما السّرُ في تأخير طباعة كتابه وعدم ظهوره للوجود إلاّ في سنة 1838م أي بعد مرور أكثر من قرن عن رحلته، وطباعته كانت ضمن رحلة ديسفونتين أيضا: Peyssonel et des fontaines, Relation d'un rayages dans les régences de Tunis et d'Alger, 2t, Gide, Paris[5]

ولقد كانت رحلة "بايسونال" علميّة واضحة الأهداف، أرادها أنّ تكون رسميّة، لكنّها لم تحز على الاعتراف، ولا على التّمويل من السّلطات الفرنسيّة لأنّه أراد أن يكمّل أبحاثه حول طبيعة المرجان

---

(1)-Denise Brahimi, OP.Cit, P146.

(2)- أحميدة عميراوي، المرجع السّابق، ص10.

(3) -Denise Brahimi, OP.Cit, P131

(4)-أحميدة عميراوي، المرجع السّابق، ص 10.

(5)- نفس المرجع، ص10.

الحقيقيّة، والتّي توقّعها هو بأنّها حيوانيّة، لكنّه لم يستطع إقناع الأوساط العلميّة الفرنسيّة بما توصّل إليه، إلاّ بعدّ مدة طويلة، كما وجد ضالّته في المنطقة، وهي إكمال أبحاثه حول الطّاعون الذّي دمرّ مرسيليا عام 1720م، وكان من ضحاياه أعزّ إنسان لديه، وهو والده[1].

أورد ناصر الدّين سعيدوني رحلة بايسونال ضمن قائمة العلماء المستكشفين والعسكريّين المستطلعين لأحوال المغرب العربي وأقطاره في العهد العثماني، والتّي تمتاز بجانب من الأهميّة العلميّة[2]، والحقائق الدّقيقة في مجاله.

إذن ظهرت رحلة "بايسونال" بعد احتلال فرنسا للجزائر بثمان سنوات، وأصبحت هي الأخرى مرجعا أساسيّا لمن يحاول الكتابة عن مدينة الجزائر أو حتّى شمال إفريقيا قبل الاحتلال الفرنسي، كما تعتبر رحلته مصدرا مهمّا من المصادر الفرنسيّة المعاصرة للفترة العثمانيّة[3].

ويعتبر "بايسونال" بحق رحّالة، لأنّه لم يبق أقل من عشرين سنة في طفولته بفرنسا، إذ جرّب الرّحلة، كما أنّه مغامر يحمل ذهنا فضوليّا، وهو من عائلة نبيلة كانت مستقرّة بالبروفانس، وقد ساهمت أسرته في تكوينه العلمي أيّا مساهمة، كما كان لمدرسة لوراتوار "Loratoire" الدّور الكبير في تنشئته وتكوينه العلمي، إذ يعتبر بايسونال من القلّة –وهي النّخبة- التّي تكوّنت في هذه المدرسة[4].

إن كنت أعتقد أنّ لطفولته وتعلّمه دور في إعداد شخصيّته وإبداء آرائه، إلّا أنّ الأهم من هذا ما دوّنه يراع هذا الطّبيب الرّحالة، حيث جاءت رحلته على شكل رسائل مؤرّخة باليوم والشّهر والسّنة، وفي مجملها هي أربعة عشر رسالة، الرّسائل التّسع الأولى تتحدّث عن تونس من أوّل جوان 1724م إلى غاية 6 أكتوبر من نفس السّنة، بينما الرّسالة العاشرة تتحدّث عن "Le Capnégre" في 28 نوفمبر 1724م والرّسالة الحادية عشر يبدأ في وصف الطّريق بمايلك قسنطينة، وفي القالة كان بتاريخ 15 فيفري 1725م. وهو في رسائله هذه يوجّهها إلى الأب بينيونAbbe bignon يصف فيها كلّ ملاحظاته، على النّباتات، الحيوانات، ويقدّم وصفا دقيقا لمسلكه ويذكر المدن والقرى التّي مرّ بها، وكلّ ما له علاقة بما يعتبره جديدا عنه أو تقع عليه عيناه[5].

---

(1)-J.A.Peysonnel, voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, ed, la découverte Paris Ve, 1987.P12.

(كما توجد نبذة عن حياة هذا الطّبيب المرسيلي في هذا الكتاب، من ص10 إلى ص16).

(2)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص12.

(3) - ناصر الدّين سعيدوني، ورقات...، المرجع السّابق، ص98.

(4)-J.A.Peyssonnel, OP.Cit, P12.

(5)-Ibid ,PP41-164.

وفي الرّسالة الثّانية عشر يصف رحلته من عنّابة إلى مدينة الجزائر ويدوّن مشاهداته الجغرافيّة والعلميّة وحتّى النّباتيّة... وقليلا من ملاحظاته الأخرى الإنسانيّة والاجتماعيّة وهي عموما تحت عناوين صغيرة والتّي منها: ملاحظته لتيّار بحري، حكاية أحمد بن بلعبّاس، تحرّك مخيّم الباي ودخول الضّابط الكبير إلى مخيّمه، ضريح ميتكزم، جبل الأوراس، التّاريخ الكنسي لسطيف، وهو في هذا يذكر القبائل بأسمائها وبعض المدن(1).

يقدّم "بايسونال" بطاقة جغرافيّة للدّروب، السّهول والجبال التّي مرّ بها ويوضّح بعض ثروات تلك القبائل من ماشية وحيوانات والّتي تعتبر ثروة عندهم(2)، وعموما فالحديث حول مدينة الجزائر يبدأ من الصّفحة 216 لكن يستهلّه بذكر شيء عن تاريخها، ثمّ يقدّم فكرة عامّة حول حكومة الجزائر لينتقل بعدها إلى كيفية انتخاب الدّاي ويكمل حديثه حول انكشاريّة المدينة، وفيما بعد يدخل في تفاصيل حول وضعيّة المدينة وموقعها ويقدّم الآراء حول قدم مدينة الجزائر، ثمّ يسرد تفاصيل أخرى تتعلّق بحمايتها، مينائها-بطاريّتها، حصونها.. إلى أن يأتي على ذكر العيون- المساجد- سجون الأسرى- الثّكنات- منزل الدّاي وثروات المدينة... إلى أن يأتي أيضا على ذكر الحفل الذّي أقامه الدّاي على شرفه تكريما له(3).

وأخيرا يختم "بايسونال" كتابه برسالتين يتحدّث فيهما عن مغادرته لمدينة الجزائر متوجّها إلى القل وعنّابة، وعلى غالب الظّن أنّ هذا الطّبيب الرّحالة كان يعتمد على كتب أخرى وفي مقدّمتها كتاب لوجي دي تاسي "تاريخ مملكة الجزائر"، كما زوّد الكتاب –الذّي نحن بصدد أن نأخذ منه ما ورد عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في 1725م (الرّبع الأوّل في القرن الثّامن عشر)- بخرائط توضّح خط سير هذا الرّحالة، وما يهمّنا في هذا الشّأن هو رحلته داخل "مملكة الجزائر" التّي بدأها من النّاحية الشّرقيّة مارّا بتونس إلى عنّابة ذاكرا لأهمّ المدن والقرى التّي حلّ بها، ويبدو لي أنّ خطّ سيره ليس نفسه الطّريق السّلطاني المعتاد في العهد العثماني، إذ يزور عدّة مدن لا تقع عليه، خصوصا جهة الأوراس مثل سيقوس وعين كرشة وضواحيها. غير أنّ خط سير رحلته أثناء عودته كان بحريّا، من مدينة الجزائر إلى عنّابة(4). وسيكون اعتمادي على رحلة "بايسونال" وفق ما تقتضيه خطّة البحث.

---

(1)-J.A.Peyssonnel, OP.Cit,PP185-201.

(2)-Ibid, P200…

(3)- Ibid, PP216-258.

(4)-Ibid, PP244-245.

4- ج.أو.هابنسترايت: J.A.Hebenstreit(1702-1757م):

جون أرنست هابنسترايت من سكسونيا ومن أكبر علماء القرن الثّامن عشر ميلادي، قدّم خدمات جليلة في مجال الطّب والطّبيعة، عيّن أستاذا بجامعة لايبزيغ "Leipzig" بعد عودته من رحلته إلى شمال إفريقيا بإطار بعثة علميّة[1].

لقد درس "هابنسترايت" الطّب في شبابه بجامعة يينا Iena واستقرّ فيما بعد في لايبزيغ، وتحصّل هنالك على عمل بفضل عالم النّباتات المعروف حينها ريفيناس "Rivinas"، حيث اشتغل عند أحد التّجّار الأغنياء، ومن المهام الّتي أوكلت له هي العناية بالنّباتات والأعشاب النّادرة، هذا الأمر سمح له بمواصلة دراساته الّتي منح من خلالها مؤهّل علمي يسمح له بامتهان الطّب. وأثناء ذلك عرف بتفانيه في العمل وإخلاصه في أدائه[2].

إنّما جلب اهتمام أمير سكسونيا بالطّبيب "هابنسترايت" هو أخلاقه أوّلا ثمّ حبّه لعمله وتفانيه فيه ثانيا وكذا ثقته به فعيّنه على رأس بعثة علميّة متكوّنة من سبعة أفراد إلى بلدان شمال إفريقيا (الجزائر، تونس وطرابلس) بغرض جمع الحيوانات والنّباتات لفائدة الأمير المذكور الّذي كان في نفس الوقت يعتلي عرش بولونيا[3].

قد نجحت مهمّة هذا العالم الألماني إلى حدّ كبير، وعرف كيف يكسب ودّ ثقة حكّام المنطقة، وقد كانت معارفه الطّبية وملاحظاته الدّقيقة خير معين له على القيام برحلات وجولات داخل الجزائر وتونس بصحبة الأفراد المرافقين له، غير أنّ الظّروف لم تساعده أكثر على معرفة تونس وطرابلس، وقد تزامن وجوده في الجزائر مع احتلال الاسبان لوهران والمرسى الكبير ثانية سنة 1732 م[4].

لعلّ العامل الكبير الّذي قلّص من تحرّكات "هابنسترايت" وحدّد برنامج عمله في المنطقة هو عودة الاسبان إلى السّيطرة على بعض المدن في الغرب الجزائري وما يفعله هذا العمل في أوساط الجماهير والسّلطة على حد سواء، إلّا أنّه بمجرّد سماعه نبأ وفاة الملك أغسطس الثّاني (1670-1730م) الّذي أرسله في هذه المهمّة العلميّة عاد أدراجه إلى ألمانيا في 14/ماي/1733م فحضي مجدّدا برعاية الملك

---

(1)- Mounir Fendri, "trois voyageur allmends en tunisie aux XVII éme siècle," R.H.M.N°= 36, 1984, Tunis, P72.

(2)-ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص13.

(3)- Mounir fendri , OP.Cit, P72.

(4)- صالح عبّاد، المرجع السّابق، ص156.

أغسطس الثّالث. هذا الأخير هو الّذي عيّنه في جامعة لايبزيغ نتيجة عمله المتقن، هذا الأمر ساعده على نشر أعماله العلميّة.. بينما بقيت رحلته العلميّة غير معروفة[1].

ولقد استدعي هابنسترايت إلى جهة القتال في حرب السّبع سنوات في أوروبا لتقديم الإسعافات الأوليّة لجيش أمير سكسونيا ضدّ الملك الفرنسي لويس 14، وأثناء هذه الحرب أصيب هابنسترايت بحمّة معدية أدّت إلى وفاته وهو في ميدان المعركة يوم 5 ديسمبر 1757 م. الأمر الّذي أعاق ظهور رحلته إلى شمال إفريقيا[2]، والّتي نحن بصدد أن نستخلص منها ما يتعلّق بالحياة الحضريّة في مدينة الجزائر زمن هذا الطّبيب الرّحالة.

للعالم الموسوعي بيرنولي "Bernouilli" الفضل في التّعريف برحلة "هابنسترايت"، حيث نشرها ضمن مجموعته المختصرة عن الرّحلات "Sammulung Kleiner Reisen"، لكن بعد حوالي عشرين سنة من وفاة صاحبها، أي سنة 1780 م، غير أنّ العنوان الذي أطلقه عليها هو: " De Antiquatatus Romanis Africa Repertis" أي جدول الآثار الرّومانية المكتشفة في إفريقيا الشّماليّة[3].

وفي حقيقة الأمر بقدر ما اهتمّ هذا العالم الألماني "هابنسترايت" بالآثار الرّومانيّة، اهتمّ أيضا بالأمور الأخرى، ولعلّ في مقدّمتها النّباتات والأعشاب ووصف للحياة والمناطق الّتي مرّ بها. كما كان للعالم الفرنسي المهتم بالرّحلات أريس "Eyries": دور في التّعريف برحلة هابنسترايت أيضا حيث نقل نصّها الأصلي إلى اللّغة الفرنسيّة ونشره في مجلّة الحوليات الجديدة للرّحلات والعلوم الجغرافيّة: وهوNouvelles annales des voyages et science Géographique لسنة 1830م، المجلّد 46 بإشراف مكتبة جيد بباريس[4].

وأخيرا تفضّل الأستاذ "ناصر الدّين سعيدوني" بترجمة نص هذه الرّحلة إلى العربيّة وقد قدّم لها وعلّق عليها وأضاف لها عدّة ملاحق تخدم الموضوع من صور وقائمة بأهم الكتابات الغربيّة المتعلّقة بولايات المغرب العثمانيّة ورتّبها حسب تاريخ تأليفها وإصدارها كما دعّمها بخرائط وآراء تنمّ عن نظرة

---

[1]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص1.

[2]- نفس المصدر، ص14.

[3]- نفس المصدر، ص15.

[4]- نفس المصدر، ص15، ومنير الفندري، "هابنسترايت وبعثة أمير سكسونيا العلميّة بشمال إفريقيا "1732م -1733م، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، السّنة 11، العدد 35-36، تونس، 1984م، ص ص231-233.

مؤرخ موضوعي، وبها أيضا يكون له الفضل الكبير والباع الطّويل في التّعريف بهذه الرّحلة وبصاحبها الّذي حلّ بمدينة الجزائر يوم 1732/02/16 وأتت رحلته على شكل رسائل وتقارير إلى ولي نعمته أمير سكسونيا أغسطس الثاّني السّالف الذّكر، وهي أربع رسائل، غير أنّ المعارف حول الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر فقد جاءت في الرّسالة الأولى والّتي من خلالها تحدّث عن أمور عديدة زمن كورد عبدي باشا[1].

أراد هابنسترايت أن يصحّح بعض معلومات مارمول، دابير، تاسي وعلى حدّ قوله فيماكتبوه عن الجزائر وأتى في رحلته على ذكر اسمها، موقعها، جزء من تاريخها ثمّ تطرّق إلى بعض الفئات الاجتماعيّة الّتي تقطن المدينة مع ذكره لمكانة كل فئة وأعمالها ثمّ قدّم وصفا للمنشآت العمرانيّة والدّفاعيّة بما فيها الحصون والأبراج، الحمّامات، المساجد، قصر الدّاي... دون أن ينسى حتّى مقابرها[2].

وإنّي أعتقد أنّها تحوي معلومات في غاية الدّقّة والأهميّة عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر لأنّها صدرت عن نفسيّة عالم ألماني لم تدفعه أحكام مسبقة ولم تتحكّم فيه جهات معادية، وبذلك جاءت رحلته تلقي الضّوء على جوانب عدّة داخل المدينة وحتّى خارجها بحكم أّن صاحب الرّحلة هابنسترايت رافق المحلّة أثناء جمع الضّرائب، فهو في هذا الشّأن يصف كلّ شيء غريب عنه ويبدي رأيه بصدق عن كلّ حادثة يراها، كما لا ننسى الدّافع العلمي الّذي جاءت لأجله البعثة، والّتي كان على رأسها هذا الطّبيب الرّحالة، فنظرته للأمور علميّة أكثر منها دينيّة أو عسكريّة.

---

[1]- كورد عبدي باشا: حكم الجزائر بين 1724-1732م عرف بشخصيّته القويّة ومواقفه الشّجاعة ومنشآته العمرانيّة، وسّع ضريح سيدي عبد الرّحمن الثّعالبي، (1730م)، أنشأ مسجد المقرئين: أظهر استقلاله عن الدّولة العثمانيّة، توفّي بعد أن عاود الإسبان السّيطرة على وهران المرسى الكبير (1732م) (ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص21. وصالح عبّاد المرجع السّابق، ص156).

[2]-ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص ص24-40.

5– لويش رينيه ديفونتين: Luiche Rénè Desfantaines:

هو عالم الطّبيعيّات الفرنسي لويش رينيه ديفونتين، تمثّلت مهمّته الأساسيّة أثناء زيارته للجزائر ابتداء من سنة 1783م في جمع الأعشاب والنّباتات لأغراض علميّة، إلاّ أنّه فضّل تونس في رحلته هاته عن الجزائر على حسب قوله، وأراد أنّ يرتحل إلى بلاد تستقبل الأجنبي على عكس ما تتّصف به الجزائر، وله في هذا الشّأن كتاب عنوانه:" Fragments d'un voyage dans les regences de Tunis et d'Alger "أي نبذة عن رحلة في إيّالات تونس والجزائر[1].

لقد زار هذا الرحّالة "ديفونتين" العديد من المدن الجزائرية، في الشّرق، وفي الغرب، وحتّى في الوسط؛ ولعلّ في مقدمة زيارته للمدن، مدينة الجزائر ثمّ معسكر، تلمسان، البليدة، قسنطينة وعنّابة... وترك لنا روايته المذكورة عن أسفاره ورحلاته هاته، حيث سمحت له الحكومة المحلية بإتمام رحلته العلميّة صحبة صانع السّاعات (من دوفينيا) والّذي خدم البايلك لمدّة زمنيّة قاربت العشرين سنة وهو الشّخص الّذي أشار إليه تيدنا "Tidna"[2] في مذكّراته[3].

ونظرا لأنّ الدّافع من هذه الرّحلة كان عمليّا، فقد تنقّل هذا العالم في ربوع الوطن ما بين (1783م-1784م) ويعتبر عمله وثيقة هامّة للتّعرّف على أنواع النّباتات والمناجم في الجزائر فهي ذات أهميّة خاصّة لما تضاف إلى أدب الرّحلات وتقارن بما قدّمه تيدنا Tidna على حدّ ذكر الأستاذ أحميدة عميراوي، ومن غير المستبعد أن تكون سلطة الاحتلال الفرنسي قد استفادت من معلومات وأخبار "ديفونتين" ووظّفتها في استغلال الموارد الطّبيعيّة في الجزائر[4].

اهتمّ أيضا "ديفونتين" بالزّراعة والأرض الخصبة وحتّى الأزهار، وأخذ معه بعد المدّة الّتي قضاها في كل من تونس والجزائر بين (1783م-1786م) مجموعة هامّة من الأعشاب والأغراض الّتي جاء من أجلها، وحفظت فيما بعد بمتحف العلوم الطّبيعة بباريس، استعملها فيما بعد في إصدار كتابه حول: نباتات الأطلس[5].

---

(1)-Denise brahimi, OP. Cit. P153.

(2) – تيدنا: ولد في 1758م في يوزيسلانغدوك، من عائلة كاثوليكيّة ميسورة الحال، فرّ من المدرسة الكاثوليكيّة الّتي وضعته فيها أسرته، ثمّ انضمّ في صفوف فيلق الحامية العسكريّة بكوريسكا، إلاّ أنّه سئم هذا العمل، وفضّل العمل المدني، فسقط في قبضة رجال بحر الدّولة الجزائريّة، فعاش أسيرا في الجزائر لمدّة ثلاث سنوات وسبعة أشهر، أحميدة عميراوي، المرجع السّابق، ص ص32-35.

(3)-نفس المرجع، ص15.

(4)-نفس المرجع، ص15.

(5)- زكريا العابد، المرجع السّابق، ص56.

وقد ذكرت آنفا أنّ رحلتا كلّ من بايسونال وديفونتين قد طبعتا في كتاب هو: "Relation d'un voyage dans les regences de Tunis et d'Alger" في جزأين بمكتبة جيد (Gide) بباريس من طرف ديرو دو لاماي Dureau De Lamalle سنة 1838 م[1].

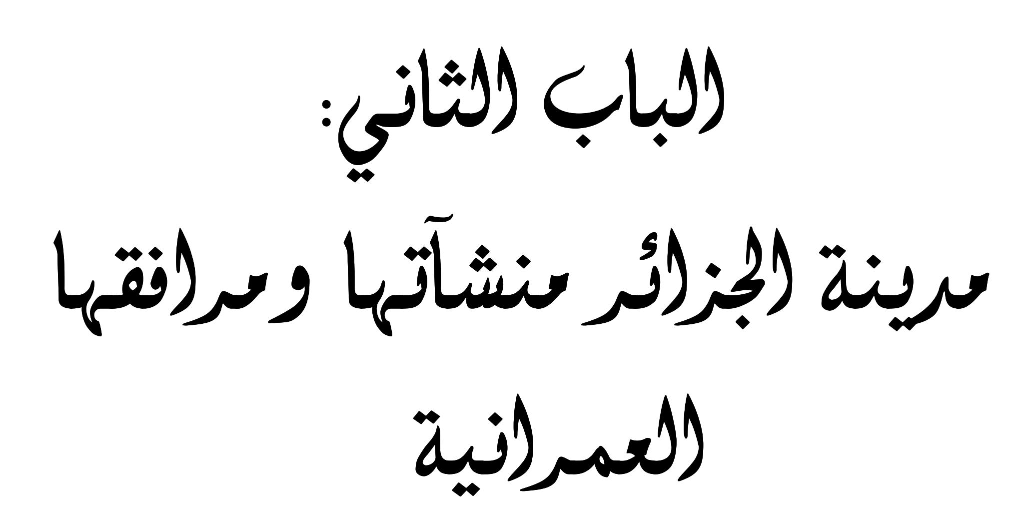
وفي هذا الصّدد بالذّات، ونظرا لتزامن عدّة رحلات أوروبيّة إلى الجزائر والّتي منها رحلة بواري، ديفونتين، مذكّرات أسير الدّاي كاثكارت... سنة 1785م[2] فإنّي قد أستعين بواحدة دون الأخريات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ القرن الثّامن عشر ميلادي سجّل الكثير من الرّحلات عكس القرون الأخرى (16-17و19) ممّا يحتم انتقاء البعض منها دون ذكرها كلّها.

ولعلّ الدّافع العلمي هو القاسم المشترك بين ديفونتين وبايسونال في سبب مجيئهما إلى الجزائر الّذي تمحور حول البحث عن الأعشاب والنّباتات والأزهار وكلّ ما له علاقة بالطّبيعة، وتبقى آراؤهما إلى حد ما علميّة بحكم التّكوين والانتماء.

---

(1)- أحميدة عميراوي، المرجع السابق، ص10 وج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص134.

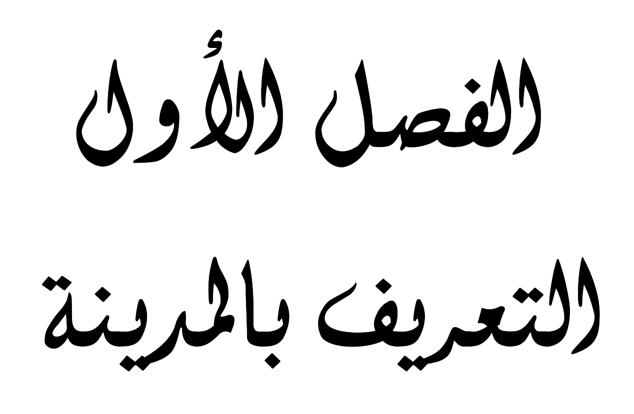
(2)- ناصر الدّين سعيدوني، ورقات...، المرجع السّابق، ص98.



الفصل الأول: التعريف بالمدينة

الفصل الثاني: منشآت المدينة

الفصل الثالث: مرافق المدينة



1-في أصل نشأة المدينة

2-في تسمية المدينة

3-في موقع المدينة وموضعها

4-ملاحظات حول نصوص الرّحّالة في التّعريف بالمدينة

5-المواضيع التّي ذكرت في مصادر الرّحلة ومصادر أُخرى للتّعريف بالمدينة

مدخل: نصوص عن مدينة الجزائر من خلال بعض كتب الرّحّالة والجغرافيّين العرب قبل 1516م.

قبل التعريف بمدينة الجزائر وبمنشآتها ومرافقها العمرانية من خلال مصادر الرحلة في الفترة العثمانية، إرتأينا أن نقدّم نصوصا لرحالة وجغرافيين كتبوا عنها قبل سنة 1516، حتّى تتضح لنا صورة المدينة في جوانب عديدة قبل فترة الدراسة وهي:

1- نص ابن حـوقل[1] عن مدينة الجزائر:

«وجزائر بني مزغنّة مدينة عليها سور في نحر البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهّز عنهم والسّمن والتّين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجاهز إلى القيروان وغيرها. ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذ نزل بهم عدوّ لجأوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن ممّن يحذرونه ويخافونه...»[2].

2- نص المقدّسـي[3] عن مدينة الجزائر:

"أمّا إفريقيّة فقصبتها القيروان ومن أهمّ مدنها... المسيلة، أشير، سوق حمزة، جزيرة بني زغناية على ساحل البحر مسوّرة يعبر منها إلى الأندلس، ولهم عيون، ومتّيجة في مرج لهم ماء جار، عليه أرحية، وشعبة من النّهر تدخل الدّور، كثيرة البساتين"[4].

---

(1)- هو محمّد بن حوقل البغدادي، طاف البلاد الإسلاميّة لمدّة ثلاثين سنة، دخل مدينة الجزائر سنة 337هـ الموافق لـ: 948م. (حليمي عبد القادر، **مدينة الجزائر نشأتها وتطوّرها قبل 1830**، ط1، المطبعة العربيّة لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص ص200- 201.)

(2)- أبي القاسم بن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ص87-88.

(3)- هو شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد وسمّي بذلك لأصله من بيت المقدس وقد زار بلدان المغرب العربي وأتمّ تأليفه سنة 375هـ/985م. (حليمي عبد القادر، المرجع السّابق، ص201.)

(4)- شمس الدّين أبي عبد الله محمّد، **أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم**، علّق عليه ووضع حواشيه محمّد أمين الضّناوي، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003، ص184.

3- نص البكـري[1] عن مدينة الجزائر:

«مدينة جزائر بني مزغنّي هي مدينة جليلة، قديمة البنيان، فيها آثار للأوّل وأزاج محكمة تدلّ على أنّها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملوّنة صفار مثل الفسيفساء، فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة، ولم يغيّرها تقادم الزّمن ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغنّي كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدوّر من الشّرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشّريعة للعيدين مفصّص كثير، النّقوش والصّور، ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السّفن من أهل إفريقيّة والأندلس»[2].

4- نص الإدريسي[3] عن مدينة الجزائر:

«مدينة الجزائر على ضفّة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار، وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشّعير، وأكثر أموالهم المواشي والبقر والغنم، ويتّخذون النّحل كثيرا، فلذلك العسل والسّمن في بلدهم كثير وربّما يتجهّز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم، وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة...»[4].

5- نص ياقوت الحموي عن مدينة الجزائر:

"الجزائر، جمع جزيرة، اسم علم لمدينة على ضفة البحر بين إفريقيّة والمغرب، بينها وبين بجاية أربعة أيّام، كانت من خواص بلاد بني حمّاد بن زيري بن مناد الصّنهاجي، وتعرف بجزائر بني مزغنّا، وربّما قيل لها جزيرة بني مزغنّاي..."[5].

---

[1]- أبو عبد الله البكري، من أشهر جغرافيّ ق 5هـ. له كتاب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب. (عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث –الجزائر–المديه –مليانة في موسمها الألفي**، ط1، دار الامّة، الجزائر، 2007، ص146.)

[2]- أبو عبد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب (المسالك والممالك)**، مكتبة المثنّى، بغداد، ص66.

[3]- هو أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الله بن إدريس من نسل الإمام علي ولد بسبتة سنة 493هـ/1099م، ولما كبر طاف ببلدان شمال إفريقيا والأندلس وأوروبا وأسيا، ثمّ استدعاه ملك جزيرة صقليّة، فعاش هناك إلى أن توفّي سنة 562هـ/1164م.

[4]- حليمي عبد القادر، المرجع السّابق، ص ص202-203 (من كتاب: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**).

[5]- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، بيروت، دار الفكر، د.ت، ص132.

6- نص ابن سعيد المغربي[1] عن مدينة الجزائر:

«... وفي شرقيها مدينة الجزائر، وهي فرضة من عمل بجاية حيث الطّول عشرون درجة وثمان عشرة دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف»[2].

7- نص القلقشندي عن مدينة الجزائر:

«وغربي بجاية، جزائر بني مَزْغِنَّاي بفتح الميم وسكون الزّاي وكسر الغين المعجمتين ثمّ نون بينهما ألف الأولى منهما مشدّدة... وهي فرضة مشهورة هناك...»[3].

8- نص لمؤلّف مجهول[4] عن مدينة الجزائر:

«... مدينة على ضفّة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي قديمة البناء أزليّة فيها آثار عجيبة تدلّ على أنّها كانت دار مملكة لسابق الأمم، وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملفّقة مثل الفسيفساء فيها صور الخيل والحيوان بأحكم صناعة وأبدع محلّ ويتّصل بجزائر بني مزغنّة فحص كبير يسمّى فحص متّيجة، وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقّه الأنهار... وكانت بمدينة مزغنّة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقي اليوم منه جدار هو قبلة الشّريعة في العيدين وهو كثير النّقوش والصّور، ومرساها مأمون...»[5].

9- نص العبدري[6] عن مدينة الجزائر:

«... وهي مدينة تستوقف لحسنها ناظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حازت مزيتي البرّ والبحر، وفضيلتي السّهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة الحمل، يسرح الطّرف عنها حتّى يملّ، ولكنّها أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفر من أهله ملحوب، فلم يبق بها من هو أهل للعلم محسوب، ولا شخص إلى فنّ من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها

---

(1)- ولد أبو الحسن علي بن سعيد بن موسى بن عبد الملك بن سعيد في 22 رمضان سنة 610هـ الموافق لـ: فيفري 1214م بغرناطة في قلعة يقال عنها قلعة بني سعيد، وألّف العديد من الكتب، وقد اختلف في تاريخ وفاته.

(2)- ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، ط2، حقّقه ووضع مقدّمته وعلّق عليه إسماعيل العربي، د.م.ج، الجزائر، 1982، ص142.

(3)- إسماعيل العربي، **المدن المغربيّة**، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص161.

(4)- مؤلّف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الامصار (وصف مكّة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)**، وهو كاتب مراكشي من كتّاب ق6هـ/12م، نشر وتعليق سعد زغلول عبد المجيد، إدارة دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة.

(5)- نفس المصدر، ص132.

(6)- محمّد ين علي العبدري، زار مدينة الجزائر وهو في طريقه إلى الحجّ سنة 677هـ/1289م وكتب رحلته في ذلك.

سائلا عن عالم يكشف كربة، وأديب يؤنس غربة، فكأنّي أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق...»[1].

10- نص الشّيخ البلوي[2] عن مدينة الجزائر:

«ولما طرزت طرز الظّلام يد الإصباح، وأرسل الفجر في رداء السّحر خيط الصّباح، أسرعنا مبادرين، وبادرنا مسرعين، وتفرّقنا في سكك المدينة أجمعين، فرأيت محيا صبيحا، وترتيبا مليحا، ومسجدا عتيقا، وبناء أنيقا وأناسا قد سلكوا إلى الحسن والإحسان طريقا، من مدينة قد أحاط بها البحر إحاطة السّوار بالزّند»[3].

---

[1]- محمّد بن علي العبدري البلنسي، **الرّحلة المغربيّة**، تحقيق أحمد بن جدّو، د.ط.د.ت، ص23.

[2]- هو أبو البقاء خالد بن عيسى من فضلاء الأندلس وعلماء ق 8هـ/14م، حجّ فصنّف في رحلته. **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، (مخطوط بالمكتبة الوطنيّة بالجزائر تحت رقم Cd464-1566).

[3]- أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، المصدر نفسه نقلا عن عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث**...، المرجع السّابق، ص149.

وحليمي عبد القادر، المرجع السّابق، ص204.

1-في أصل نشأة المدينة:

لقد تحدّثت أغلب مصادر الرّحلة -التّي هي قيد الدّراسة- عن أصل مدينة الجزائر وعن تاريخها أو جزء منه، فهذا حسن الوزّان يقول: «المدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقيّة تدعى مزغنة فأطلق عليها القدماء هذا الاسم»[1] في حين أنّ مارمول يذكر بأنّ المدينة: «من بناء البربر المعروفين بهذا الاسم، وهي مدينة شهيرة منذ القدم، أبدع الرّومان في تزيينها، وزادها الأتراك إغناء بفضل ما وقع في أيديهم من غنائم سلبوها من النّصارى»[2]، غير أنّ الرّحالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي يذكر: «الجزائر مدينة إفريقيّة جدّ قديمة، أسّست أوّلا من قبل شعب إفريقي سمّي مزغنة، والّذي أخذت اسمه الأوّل ثمّ صارت فيما بعد مجمع اتّخاذ القرارات»[3]، بينما الأسير الإسباني أنطونيو دي صوصا يقول: «مدينة الجزائر كانت تقع ضمن ولاية إفريقيّة مسمّاة موريطانيا القيصريّة...»[4]، وهذا ديغو دي هايدو ينبّئنا برأيه فيها فيقول: «... نجهل زمن إنشائها...»[5] ويعتمد على مؤلّف حسن الوزّان في ذكر معلوماته ويردف قائلا: « ليون الإفريقي قال بأنّ مدينة الجزائر قديمة في بنائها من طرف قبيلة تسمّى Mesgrana Beni Meseranna، واتّخذت فيما بعد هذا الاسم، وفي كلّ الحالات لم يتم تحديد تاريخها... ولا أحد من الكتّاب استطاع تحديد ذلك...»[6].

ومدينة الجزائر عند السّفير المغربي التّمقروتي هي جزائر بني مزغنا إذ يقول: «... أرسينا لميناء الجزائر حرسها الله...وقال ابن عبد ربّه هي: جزائر بني مزغنا...»[7]، أمّا أصل مدينة الجزائر عند الأب دان فهو يقول: «للحديث عن أيّ مدينة، وعن عزّها ومجدها نبدأ دائما باسمها وبالمدح والثّناء على مؤسّسها، وهذا ما ينقصنا عن مدينة الجزائر، لأنّه لم يبق لنا أيّ ذكرى عن مؤسّسها، ولا أيّة معارف عن تاريخها، غير أنّها كانت عاصمة موريطانيا زمن الملك يوبا [8]، وفيما يخص رأي الأسير إيمانويل دارندا عن أصل المدينة فهو يحدّثنا: "مدينة الجزائر تقع في مقاطعة إفريقيّة كانت تسمّى قديما موريطانيا

---

(1)- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

(2)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص362.

(3) – Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

(4)- عبد الله حمّادي، **"جزائر القرن السّادس عشر..."**، المرجع السّابق، ص262.

(5) – Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, p11.

(6) –Ibid, p11.

(7)- أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق، ص18.

(8) – P.P.Dan, op.cit, p86.

القيصريّة على ساحل البحر المتوسّط والّذي جاء بمعلومات أكيدة هو سترابون معالج موريطانيا القيصريّة والذّي ذكر بأنّها توجد مدينة تسمّى أيول IOL...»[1].

بقدر ما وجدت مصادر رحلة عربيّة وأوروبيّة تحدّثت عن أصل مدينة الجزائر وعن تاريخها مثلما ذكرنا، وجدت أخرى تحدّثت عن الحياة الحضريّة في المدينة أو عن جزء منها دون ذكرها ولو نبذة قليلة عن أصلها ولا تاريخها، والأمثلة في هذا الشّأن كثيرة، ومنها على سبيل الذّكر لا الحصر نورد كلا من: توماس هيز، جوزيف بيتس، السيّد طولو، ابن حمادوش، ديسفونتين، كاثكارت، المكناسي، أحمد ابن عمّار، الحسين الورتلاني، تيدنا، جيريت ميتزون، سيمون بفايفر وعبد الرّحمان بن إدريس وهذا ما لم يكن ليشدّ انتباه الرّحالة، ولا هو من دائرة اهتماماته واختصاصاته... في حين سجّل لنا قلم ابن زاكور التّغنّي بهذه المدينة وبأهميّتها فقال: «... وأنّه لما منّ عليّ المولى الكريم ذو الفضل السّابغ العظيم بدخول مدينة الجزائر، ذات الجمال الباهر وحلول مغانيها النّواظر، والّتي غصّ ببهجتها كلّ عدوّ كافر، فلذلك يتربّصون بها الدّوائر في الموارد والمصادر... وأبداها للعيون آنق من جيرون...»[2]، بينما موظّف القنصليّة الفرنسيّة لوجي دي تاسي كان دقيقا في توضيح هذا العنصر من زاوية رؤيته فقال: «...أمّا عن مدينة الجزائر فإنّ الرّأي الأكثر احتمالا، هو أنّ يوبا الثّاني أبو بتولومي Ptolémée أعطاها اسم جول أو جوليا سيزاريا، تخليدا لذكرى سيّده الإمبراطور سيزار أوقست، وقد وجدوا بعض الأوسمة الدّالة على هذا الاسم...»[3]، بينما الطّبيب الإنجليزي توماس شو فهي عنده: «... مدينة سيزاري Cesarée، بنيت من طرف يوبا الثّاني Juba2، والّذي بدوره أهداها وقدّمها إلى أوقست Auguste بعد إصلاحها وترميمها عندما كان على عرش نوميديا...»[4].

وإذا ما تصفّحنا ما جاء به الرّحالة والطّبيب الفرنسي جين أندري بايسونال الّذي يمجّد الفترة الرّومانيّة، حيث نجد ما نصّه: «...هذه الفترة عظيمة وسطوع هذه البلاد زمن سيزار أوقست Jules Cesaret d'Aguste...»[5] ولقد حمّل بايسونال العرب مسؤوليّة تحطيم الآثار والتّماثيل وحتّى المدن الّتي كانت قائمة، وهو في هذا الجانب بالذّات كان ناقما وأبدى مقته لهم، وإذا ما عدنا إلى رأي

---

(1) – Imanuel D' aranda, op.cit, p81.

(2) – ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص40.

(3) – Laugier de Tassy, op.cit, p99.

(4) – Thomas Shaw, op.cit, pp7-9.

(5) –J.A.Peyssonnel, op.cit, p216.

جوزيف مورقن، فقد استهلّ ذلك بعبارة رائعة على شكل تساؤل حيث قال: «...من حقّ الجزائر أن تدّعي القدم والشّرف معا، ومن حقّها أن تحتلّ مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم، أليست على أنقاض (قيصريّة) رومانيّة؟...»[1]، ثمّ ناقش الآراء المتعدّدة حول أصل المدينة ونشأتها، فقدّم ملاحظات مارمول وآراء ابن الرّقيق واستنتاجات سترابون strabon، وخلص إلى أنّ المدينة خربت تماما، وهي قيصريّة بنيت على أنقاض يول القديمة، وأنّ هذا أمر كاف على شرف وقيمة وعظمة مدينة الجزائر الحاليّة[2].

إن كان موظّف القنصليّة البريطانيّة مورقن قد أسهب كثيرا في الحديث عن أصل مدينة الجزائر ونشأتها، فإنّ الطّبيب والعالم الألماني ج.أو.هابنسترايت قد حذا حذوه، فقدّم في هذا السّياق معلومات تنمّ عن اقتناعه بأنّ مدينة الجزائر هي جوليا قيصريّة ظهرت زمن يوبا الثّاني، وتحدّث مطوّلا عن أصلها ونشأتها وتطوّرها حيث نقتبس ممّا ذكره ما يلي: «...الملك يوبا الثّاني الّذي أطلق عليها هذا الاسم "قيصريّة" نسبة إلى حاميه ووليه الإمبراطور أغسطس، وكان الملك يوبا مرتبطا بحزب بومباي Pompeé، وعندما أسر من طرف أغسطس حمل إلى روما ولقي منه الرّعاية لخصاله وحسن سلوكه، وهذا ما دفعه لإعادته إلى مملكته وتزويجه بكليوباترا سيليني ابنة الملكة المصريّة كليوباترا...»[3]، ويؤكّد هابنسترايت وقوع هذا الحدث بعثوره على قطعة معدنيّة تؤرّخ له، ثمّ ذكر بعد ذلك سيطرة الوندال عليها من طرف جنسريق Genseric، وقد طرد القائد البيزنطي بليزيرBelisaire منها الوندال سنة 533م. ثمّ فتحت من طرف العرب سنة 663م إلى غاية مجيء شارلكان ثمّ الأتراك، والّذين طلب منهم العون سليم ملك مدينة الجزائر، حيث كان يخشى الإسبان، ومنذ ذلك الحين ومدينة الجزائر تحت حكم الأتراك بدءا بعرّوج ثمّ أخيه خير الدّين[4]، وممّا تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ الرحالة هابنسترايت استعمل كلمة: على الأرجح أنّ مدينة الجزائر هي جوليا القيصريّة[5]، ويتأكّد لنا من خلال هذا الرّأي أنّه يوجد احتمال بأنّها ليست ما ذهب إليه.

لقد سجّلت مدينة الجزائر حضورا في شعر ابن المسيّب التّلمساني والّذي نستشفّ منه قدم مدينة الجزائر واسمها الّذي ذكر في عدّة مصادر، حيث قال:

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، "**مدينة الجزائر في مؤلّف**..."، المرجع السّابق، ص ص27-36.

(2)- عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث**...، المرجع السّابق، ص ص278-280.

(3)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص26.

(4)- نفس المصدر، ص27.

(5)- نفس المصدر، ص35.

قـــم كـــي تنحـــل البيـــان	**للجزائـــر داخـــل فرحـــان.**
زر ســـيّدي عبـــد الرّحمـــان	**بركتـــه ينفعنـــا بيهـــا.**
ليلـــة الجمعـــة أطلـــع للشّـــيخ	**ترســـلك وإذا كنـــت صـــريخ.**
تـــورخ منازلهـــا تـــوريخ	**واعـــرف الـــدّار وارجـــع ليهـــا.**
ادخـــل مزغنّـــة يـــا صـــاح	**عنـــدهم اتمتّـــع وارتـــاح [1].**

وإن كانت هناك ملاحظات عدّة يجب استنباطها من شعر ابن المسيّب في عناصر أخرى من هذه الأطروحة، فإنّه اتّضح في هذا المقام تاريخ منازل مدينة الجزائر وقدمها.

وهذا الضّابط الرّوسي في سلاح الهندسة العسكريّة المسمّى كوكوفتسوف فقد اعترف بأنّ عاصمة الجزائر مشهورة منذ زمن بعيد[2]، دون أن يحدّد هذا الزّمن ولا يعطي أيّة إشارة إليه، عكسه تماما الرّحالة والمؤرّخ المغربي الزّياني الّذي يكاد ينفرد مع أبو راس النّاصر في تحديد الشخص باني المدينة والزمان الذي بنيت فيه، حيث قال الزّياني: «...وأمّا مدينة الجزائر فكانت قرى لبني مزغنة من صنهاجة، والّذي أسّس المدينة بلكين بن زيدا الصّنهاجي عام أحد وستّين وثلاثمائة...»[3]، أمّا عن رأي القنصل الفرنسي دي بارادي فهو لم يأت بالجديد، حيث اعتبر المغاربة هم بناة المدينة، ويوبا الثّاني أعطاها اسم جوليا قيصريّة Julia Caesarea تمجيدا للإمبراطور سيزار أوقست، إلّا أنّ دي بارادي أبقى مجال البحث مفتوحا في هذا الشّأن حيث قال: «...وأترك هذا للعلماء لمعالجة آرائي...»[4]، وبهذا الاعتراف يكون قد فتح مجالا لتقصّي الحقيقة والتّنقيب عنها، وهذا ما حدث فعلا فيما بعد.

إنّ الرّحّالة أبو راس النّاصر يذكر بأنّ مدينة الجزائر بناها بلكين في أيّام أبيه زيري بن مناد، ثمّ بعد ذلك بلغت في القرن الخامس الهجري نوعا من الاستقرار والازدهار، واعتمد على كتاب البكري (**المسالك والممالك**) في ذكر بعض معارفه، ثمّ عرج أبو راس على الممالك التّي سيطرت على المدينة والدّول التّي تجاذبت القبضة عليها من أمثال: بنو حمّاد، المرابطون، بنوغانية، الموحّدون، الحفصيّون، الزّيانيون، المرينيّون والأتراك[5]، وهو بهذا العمل قد أضاف الكثير عن نشأة المدينة وتاريخها.

---

[1]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السابق، ص415.

[2]-Marcel.Emerit**, "Description de L'Algérie en 1787"**, op.cit, p210.

[3]- أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص149.

[4]-Venture de Paradis, op.cit, p107.

[5]- أبوراس النّاصر، **عجائب الأسفار**...، ج2،المصدر السّابق، ص ص23-24.

ومن الّذين أسهموا في الكتابة عن تاريخ الجزائر عامّة، وعن عاصمتها (المدينة) خاصّة القنصل الأمريكي وليام شالر، الّدي عاش فيها مدّة زمنيّة ناهزت العشر سنوات بين 1816و1824، فقد ذهب إلى ما ذهب إليه الدّكتور شو الّذي ذكر أيضا بأنّ مدينة الجزائر تقع في مكان مدينة ايكوسيوم"Icosium" القديمة[1].

ونختم هذا العنصر، بما ذهب إليه النّقيب الفرنسي روزيه في سلاح الهندسة العسكريّة الفرنسيّة سنة 1830، عندما اجتاحت القوّات الفرنسيّة الجزائر، حيث قال: «...مدينة الجزائر هي أقدر مدينة في ممالك البربريسك، أقيمت وارتفعت على أنقاض إمبراطوريّة المور...»[2].

من خلال ما تقدّم حول أصل مدينة الجزائر ونشأتها، وحسب ما ذكرته مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة منها، فهناك من أرجع تأسيسها إلى قبيلة مزغنة، ولعلّ هذه الأخيرة ذكرت وفقط في كتب الرّحلة العربيّة ومن نقل عنهم بعد ذلك، ومنهم من أرجعها إلى الملك البربري يوبا الثّاني، غير أنّ هذا الأخير عاش فيها كملك ما بين سنتي 25 و23م، ويبدو حسب الأبحاث الأثريّة أنّ المدينة في نشأتها أقدم من هذا التّاريخ[3]، غير أنّ الملك يوبا الثّاني يكون قد جدّد ورمّم ما استطاع ترميمه في المدينة حينها، ومنهم من اكتفى بذكر أنّها قديمة، أو مشهورة منذ القدم دون تحديد وتوضيح دقيق، في حين أنّ هناك من أكّد على أنّ بلكين بن زيري هو مؤسّس هذه المدينة سنة 361م، وفيه رأي آخر ذهب إليه أصحاب الرّحلة حيث اعتبروا أنّ مدينة الجزائر هي إيول، غير أنّ أصحاب هذا الاتّجاه قد خالفوا الحقيقة التّاريخيّة، إذ أنّ الأبحاث أثبتت أنّ شرشال الّتي تقع غرب مدينة الجزائر بحوالي 90كلم هي إيول[4].

لعلّ الرّأي السّديد والأقرب إلى الصّواب، هو ما ذهب إليه أصحاب فكرة أنّ مدينة الجزائر تقع في مكان مدينة إيكوسيوم أو اكسم على حدّ ذكر نور الدّين عبد القادر[5].

وذلك لأنّ هذه المدينة نشأت في فترة ظهور الفينيقيّين في حوض البحر الأبيض المتوسّط، والّذين

---

[1]- وليام شالر، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر1816-1824**،تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي،ش،و، ن،ت، الجزائر، 1982، ص34.

[2]- Rozet et Carette, op.cit, p14.

[3]- عبد القادر حليمي، "**أصول النّشأة لمدينة الجزائر**"،الأصالة، العدد08، ص10.

[4]- عبد القادر حليمي، **مدينة الجزائر نشأتها**...،المرجع السابق، ص139.

[5]- نور الدّين عبد القادر، المرجع السابق، ص ص12-13.

أطلقوا عليها هذه التّسمية المركّبة من كلمتين: إ تعني جزيرة وكسم تعني الطّير (الدّجاج أو دجاج البحر) كما يسمّونه، لأنّ هذا الأخير موجود في المنطقة.

إنّ ما ذكر حول أصل نشأة مدينة الجزائر لا بدّ أن يعتمد على الآثار مهما كانت قيمتها، لأنّ ما يعترض الباحث في هذا الشّأن بالذّات، هو الضّبط بالأرقام والّذي لم تحدّده مصادر الرّحلة لا العربيّة ولا الأوروبيّة ما عدا القليل منها.

ولقد اتّضح للكثير من الكتّاب أنّ مدينة الجزائر فينيقيّة الأصل، لتوفّر أدلّة أثريّة وجغرافيّة والّتي منها نذكر:

– انتقاء المكان يدلّ على أنّه اختيار فينيقي، حيث تعوّد هؤلاء على إنشاء المحطّات التّجاريّة على ضفاف البحر المتوسّط الجنوبيّة، والّتي منها: قرطاجة، روزيكاد وهيبون... حيث كانت هذه المحطّات تساعدهم في عدّة مهام، وما يلاحظ على هذه المحطّات أنّ البعض منها أسس في مطلع الألف الأوّل قبل الميلاد، وربّما كانت منها مدينة الجزائر، أو إحدى هذه المحطّات.

– كان الفينيقيّون يختارون المواضع الّتي تساعدهم طبيعيّا على رسو سفنهم مثل الجزر، الرّؤوس، الخلجان، مصبّات الأودية، توفّر المياه العذبة، الظّهير الغني ببعض المواد، ولعلّ هذه العوامل مجتمعة موجودة في إقليم مدينة الجزائر.

– إنّ موقع مدينة الجزائر جاء بين تامنفوست وتيبازة، وهما محطّتان فينيقيّتان باتّفاق العديد من الأثريّين[1].

أثناء هدم الدّور الّتي كانت بحّارة دار العمالة القديمة "بمدينة الجزائر" وأيضا باب الدّزيرة، وجدوا... من شهر نوفمبر 1940- وبنحو مترين من عمق الأرض- 158 قطعة من العملة منها 154 من الرّصاص وأربع من البرونز، وهذه العملة مكتوب عليها من جهة واحدة ومن اليمين إلى اليسار كلمة باللّغة البونيقية هي ايكسم، حسب ما أثبت هذه القراءة أستاذ اللّغات السّامية بكليّة الآداب بالجزائر كانتينو[2].

ولقد عثر على تمثال في نهج القصر القديم، يتكوّن من صخرة واحدة نقش عليها ما يرمز للعالم

---

[1]- عبد القادر حليمي،" **أصول نشأة...**"، المرجع السّابق، ص ص13-14.

[2]- نور الدّين عبد القادر، المرجع السّابق، ص ص11-12.

العلوي والآلهة القرطاجيّة، كالإله بعل الّذي كان يعبده الفينيقيّون، واكتشف الأثريّون أيضا في مدينة الجزائر سنة 1848 ضريحا صخريّا يعود إلى الفينيقيّين بحديقة سيدي عبد الرّحمن (قبر فينيقي) طوله 2.39 متر وعمقه 0.82م، وجدت به تميمة وآنية من طين وقطع أخرى من زجاج، ولا شكّ أنّها فينيقيّة الأصل، لما تبيّن أنّه يغلب عليها الطّابع الشّرقي ومعتقد الفينيقيّين الّذين كانوا يدفنون موتاهم مع أوانيهم وحليّهم الّتي تعوّدوا استعمالها في حياتهم[1].

كما عثر على بئر أثريّة سنة 1952 بحي باب الجزيرة وأواني فخّاريّة ترجع إلى عصور تاريخيّة مختلفة وأقوام متعدّدة، تداولت النّفوذ في هذه المنطقة، وبالطّبع فإنّ أقدمها الواقع أسفل هذه الطّبقات، حيث كان عمق هذه البئر 14.50م وهي آثار فينيقيّة ثمّ رومانيّة، وأخرى عربيّة[2].

إنّ الأهم في كلّ هذه الاكتشافات، هي القطع النّقديّة الّتي حملت الاسم القديم للمدينة وهي Icosium، وهو اسم فينيقي حرّفه الرّومان فيما بعد إلى إيكوسيوم حتّى يتماشى ولغتهم حينذاك والّذي يحمل في جزء من معناه الجزيرة، والّتي هي في مجموعها الجزائر.

وإذا ما سلّمنا بالأصل الفينيقي للمدينة، فالتّساؤل الوجيه والحري بنا طرحه هو متى تمّ تأسيس مدينة الجزائر؟ وبالأحرى، ما هي الفترة الزّمنيّة الأقرب إلى الواقع الّتي ظهرت فيها نواة مدينة الجزائر؟ هذا ما يجيبنا عنه العالم الأثري صنطاس، الّذي قام بأبحاث أثريّة بعد ح.ع2 في مدينة تيبازة، وتوصّل إلى أنّ أقدم آثار فينيقيّة بتيبازة لا تتعدّى القرن السّادس قبل الميلاد. وعليه يتبيّن لنا أنّ مدينة إيكوسيوم الفينيقيّة أسّست في هذه الفترة، وحتّى باب الجزيرة –على غالب الظّن– يعدّ أقدم أحياء المدينة، وقد كان بمثابة النّواة الأولى للفينيقيّين ولمركزهم التّجاري[3]، الذّي سينمو ويتطوّر تدريجيّا تبعا لمراحل لاحقة، وبتأثير أقوام متعدّدة تداولت على المنطقة حتّى غدت مدينة الجزائر بصورها المتنوّعة وفي فترات مختلفة. لكنّ المهم في كلّ هذا ظلّت نواة المدينة من تأسيس فينيقي تلعب الدّور الرّئيسي والجوهري لمدينة الجزائر على مرّ العصور.

وعليه فمصادر الرّحلة العربيّة والأوروبية وإن تكلّمت عن أصل نشأة مدينة الجزائر، فإنّ أغلبها تكلّم عن فترات من تطوّرها وبروزها، ونادرة هي تلك مصادر الرّحلة الّتي أرجعتها إلى فينيقيّتها أو إلى أوّل تأسيس لها وبفضل تطوّر العلوم والأبحاث أمكن هذا الأمر.

(1)– عبد القادر حليمي، "**أصول نشأة**..."، المرجع السّابق، ص ص14-15.

(2)– نفس المرجع، ص15.

(3)– نفس المرجع، ص16.

2- في تسمية المدينة:

لقد تحدّثت العديد من مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة عن تسمية مدينة الجزائر والسّبب في هذه التّسمية، والّتي نستهلّها بذكر ما ورد في كتاب **وصف إفريقيا** لصاحبه حسن الوزّان الّذي حلّ بالمدينة سنة 1516، حيث قال في هذا الشّأن: «...الجزائر معناها الجزر، سمّيت بذلك لأنّها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة، لكنّ الإسبانيّين يسمّونها ألجي من بناء قبيلة إفريقيّة تدعى مزغنّة فأطلق عليها القدماء هذا الاسم...»[1]، ومن المعروف أنّ الجزر الّتي ذكرها الوزّان تقع جنوب شرق إسبانيا، فهي بذلك بعيدة عن الجزائر، كما أنّ الإسبانيّين -حسب ما ورد في عدّة دراسات وأبحاث- فإنّهم ينطقون الجيم (ج)خاءً (خ) وهي عندهم -أي مدينة الجزائر- Argel، وفيما يخصّ مزغنّة فقد وردت هذه التّسمية في كتب الرّحّالة العرب ومن نقل عنهم، أي أنّ للمدينة تسمية أخرى قبل مزغنّة.

ولا يختلف كثيرا المؤرّخ الإسباني مارمول كاربخال عن الحسن الوزّان فيما ذهب إليه حول كلمة مزغنّة حيث يقول: «...يسمّي المسلمون هذه المدينة جزائر بني مزغانة...حتّى أنّها عرفت عند قدماء المؤرّخين بمزغانة...»[2]، ويضيف رأيا آخر حول تسميتها وجزءا من تاريخها حيث ذكر: «...يذهب البعض إلى القول بأنّ الرّومان كانوا يسمّونها يوليا قيصريّة على شرف يوليوس قيصر، وحرّف اسمها فصارت تدعى اليوم الجزائر جمع جزيرة بالعربيّة...»[3]، وعلى هذا القول فإنّ مارمول لم يحدّد هو الآخر من هم قدماء المؤرّخين الّذين اعتمد عليهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أثبتت الأبحاث بأنّ يوليا قيصريّة هي مدينة شرشال اليوم وليست مدينة الجزائر.

وفي نفس السّياق كيف يحرّف الاسم من يوليا قيصريّة إلى الجزائر؟ بحكم أنّ الأبحاث أثبتت عكس ذلك، بحيث أنّه لا توجد علاقة لغويّة بين التّسميتين ولا أي رابط يدلّ على هذا، أمّا ما ذكره نيكولاس نيكولاي، فقد جانب هو الآخر الحقيقة التّاريخيّة تماما، ويبدو أنّه اعتمد على بعض مصادر الرّحلة في حديثه عن مدينة الجزائر، فقد سبّق اسم مزغنّة على إيول Iol، كما أطلق عليها اسم يوليا القيصريّة، ثمّ نعتها السّكّان الأصليّون (Les Maures)على حدّ ذكره جزيرة بالعربيّة (الجزائر) ويذكر نفس السّبب الّذي اقتنع به الحسن الوزّان، وتسمية الإسبانيّين لها ب ألجي[4].

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

[2]- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص362.

[3]- نفس المصدر، ص362.

[4]- Nicalas de Nicalay, op.cit, p17.

ويكاد نفس الأمر ينطبق على الدّكتور الإسباني دي صوصا -الّذي كان أسيرا في مدينة الجزائر بين 1577و1581- حول تسمية مدينة الجزائر في العهد الرّوماني IOL Cesarea، ثمّ أخذت تسميتها الجزائر منذ 697م (فترة الحكم الإسلامي)، والدّالة على صيغة الجمع لجزيرة، ويخلص إلى القول بأنّ هذه التّسمية العربيّة اشتقّت أو نحتت منها التّسميات الأوروبيّة ك Argel في اللّغة الإسبانيّة وAlger في اللّغة الفرنسيّة[1].

بقدر ما ابتعد هذا الدّكتور عن الحقيقة فيما يخصّ إيول هي مدينة الجزائر، فإنّه تناسى بأنّ في فترة الحكم الإسلامي كانت المدينة تسمّى بجزائر بني مزغنّة، ولعلّ ديغو دي هايدو الأسير الإسباني أيضا في سجون المدينة بين 1578-1581، وهي نفس الفترة الّتي أسر فيها دي صوصا، كان أكثر جرأة حين قال: «...والعرب حينما وصلوا إلى إيول سيزاريا حذفوا اسم هذه المدينة القديمة، وأعطوها اسم El-Djezair، والّتي تعني الجزيرة...»[2]، وخالف هايدو حسن الوزّان في سبب تسمية المدينة حيث صرّح بما يلي: "...الجزيرة، وهذا لا يعني ما ذهب إليه ليون الإفريقي وصرّح به بأنّها مقابلة لجزر البليار من جهة الغرب، بل هناك جزيرة صغيرة مقابلة لميناء المدينة وهي غير بعيدة، بالنّسبة للعرب اسم الجزائر يعني مدينة الجزيرة (الجزر)"[3]، ثمّ اعترف بصعوبة نطق بعض الكلمات العربيّة عند المسيحيّين لذلك تحور وتتبدّل، الّتي منها الجزائر، فهي عند الإسبانيّين Argel، وعند الفرنسيين Alger.

لقد اتّضح عند بعض الكتّاب الأوروبيّين، ومنهم الرّحّالة على وجه التّحديد، أنّهم يحاولون إبراز فضل الرّومان والحضارة الرّومانيّة في منطقة الشّمال الإفريقي، عكسهم تماما الرّحّالة العرب والمسلمون الّذين يحاولون إبراز ما تعلّق بتاريخهم وتمجيده، فهذا السّفير المغربي التّمقروتي الّذي حلّ بالمدينة حوالي 1589، حينما كان ذاهبا إلى إسطنبول في مهمّة رسميّة، فقال فيها: «...أرسينا بميناء الجزائر حرسها الله...وهي جزائر بني مزغنّة، وهي مدينة آهلة مانعة...»[4]، وفي طريق عودته أيضاعاود النّزول بها متوجّها إلى وطنه، وقد ذكرها بأنّها تسمّى عند البعض ب إسطنبول الصّغرى[5]، ربّما هذا للدّلالة على قيمتها وأهميّتها والدّور الّذي كانت تلعبه في ذلك الوقت حتّى صار يدعو لها بالحفظ.

---

(1)- عبد الله حمّادي، **جزائر القرن السّادس عشر**...، المرجع السّابق، ص263.

(2)- Diego de Haedo, op.cit, p20.

(3)-Ibid, P20.

(4)- أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق، ص18.

(5)- نفس المصدر، ص90.

نفس الأمر تكرّر مع المقرّي الّذي أقام بها أثناء رحلته إلى المشرق، حيث كتب عنها ما نصّه: «...ولما حللت محروسة الجزائر...»[1]، ثمّ نظّم فيها أبياتا شعريّة أهداها لبعض علماء مدينة الجزائر نقتبس منها ما يلي:

جزائـــر الغـــرب لا تطرقـــك أحـــزان   يـا بهجـة الـدّهر طالـت منـك أزمـان.

وزادك الله يـــا أرض الجهـــاد علـــى   فكـــم عـــلا فيـــك إســـلام وإيمـــان[2].

لقد تغنّى المقرّي بمدينة الجزائر خاصّة وبسائر البلاد عامّة، وكان يتمنّى لها الرّفعة والعلا لأنّها كانت في نظره تدافع عن الإسلام، فهي عنده أرض الجهاد والرّباط، ولولا هذا ما ذكرت بالمحروسة، غير أنّ الأب بياردان مؤلّف كتاب: **Histoire de la Barbarie et de ses Corsaires**، ذهب في نفس السّياق الّذي ذهب إليه بنو جلدته فيما يخصّ المدينة وسبب تسميتها، فهي عنده جوليا قيصريّة Julia Caesarea الّتي تحوّلت إلى اسم مدينة الجزائر Algezair والّتي تعني الجزيرة، لأنّها تقع قريبا من جزيرة صغيرة، وهذه الأخيرة هي اليوم (القرن 17م) جزء من الميناء، غير أنّ هناك من يحرّفه على حدّ قوله هو الآخر، منهم من يسمّيها Alger، وآخرين Arger أو Argel[3]، وهي نفس الفكرة تقريبا الّتي ذهب إليها الأسير إيمانويل دارندا، غير أنّه يكتبها Algerit، وهي تنطق وتكتب عند الإسبانيّين والإيطاليّين بـ: Argil وعند الفرنسيّين بـ: Alger[4]، وهي التسمية الّتي يدوّنها توماس هيز في رحلته[5].

أمّا عن الحاج جوزيف بيتس الّذي عاش في المدينة حوالي خمسة عشر سنة، فهي عنده مرة الجزائر ومرة مدينة الجزائر، حيث يقول: «...ينادي المنادي في مدينة الجزائر الّتي أعيش فيها...»[6] وفي أخرى يذكر: «...خرجت من الجزائر قاصدا مكّة...»[7]، فإن كان سبب تدوين جوزيف بيتس لرحلته إلى البقاع المقدّسة (مكّة والمدينة) وحتّى مصر، تنويها منه إلى الصّعاب والمشاق في الطّريق، وتصويرا له للمشاهد الدّينيّة وكلّ ما لاقاه ووقعت عليه عيناه، قد أخذ القسط الوافر من رحلته دون أن يترك له

[1]- أبي العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص72.

[2]- نفس المصدر، ص74.

[3]- P.P.Dan, op.cit, p87. (Second Livre).

[4]- Imanuel D'Aranda, op.cit, P82.

[5]- Tomas Hees, op.cit,

[6]- جوزيف بيتس، **رحلة جوزيف بيتس(الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة،1995،ص23.

[7]- جوزيف بيتس، المصدرالسابق، ص24.

مجالا للحديث عن مدينة الجزائر وعن تسميّتها، وهذا عكس بعض الرّحالة العرب والأوروبيّين الّذين أقاموا بها أو مرّوا عليها وكتبوا عنها الكثير.

من بين العلماء الّذين أقاموا بمدينة الجزائر نذكر ابن زاكور الفاسي، الّذي حلّ بها أواخر القرن السّابع عشر ميلادي ليتزوّد من علمائها وفقهائها، غير أنّه لم يذكر سبب تسمية المدينة ولا تاريخها، فهي عنده مدينة جميلة باهرة حيث قال: «...وأنّه لما منّ عليّ المولى الكريم...بدخول مدينة الجزائر ذات الجمال الباهر...»[1]، ولسان حاله ينطق بأنّ رحلته كانت علميّة دراسيّة لا غير، وهذا أيضا ما لوحظ عند الجامعي الّذي تدارس مع علماء المدينة وأدبائها، حيث جاء حديثه عنهم قائلا: «...مدينة الجزائر أوّل بلد لقيت بها مثلما فارقته من أدباء بلدي، فهي الجزائر والحمد للّه دار الجوهر الفرد في الأدب والعلم..."»[2]، وفي هذا الصّدد، فمن الطّبيعي أن تتحكّم الغاية من الرّحلة في شكلها ومحتواها، لذلك تعدّدت أنواع الرّحلات بتعدّد الغايات والأهداف، ولهذا نجد سبب تسمية مدينة الجزائر في مثل هذه الرّحلات الفهرسيّة منعدما وغائبا.

أمّا عن موظّف القنصليّة الفرنسيّة لوجي دي تاسي، فرأيه أنّ العرب هم الّذين قاموا بتغيير اسم المدينة، وأعطوها اسم Algezair، والّتي تعني الجزيرة بالعربيّة بسبب وجود جزيرة أمام المدينة، والّتي هي في وقته (القرن 18م) جزء من الميناء، غير أنّه يخلط بين البربر والعرب في نزولهم بالمدينة، حيث ذكر: «...البربر نزلوا المنطقة بقيادة عربي يسمّى Moztgana الّذي استولى على المدينة..."»[3]، وكما هو معروف فإنّ مزغنّة هي قبيلة صنهاجيّة (بربريّة)، استوطنت المنطقة حتّى غدت فيما بعد تسمّى: جزائر بني مزغنّة مثلما ذكرته عدّة مصادر رحلة عربيّة وأوروبيّة.

إن كان الطّبيب الإنجليزي شو قد ناقش قضيّة وجود جزيرة أمام مدينة الجزائر أو مدينة أخرى ذكرتها مصادر سبقته اعتمد عليها، إلّا أنّه ذكر مؤسّسها يوبا الثّاني الّذي أعطاها اسم مدينة سيزاري "La ville de Cesarée"[4]، وفي نفس السّياق يذكر وليام شالر القنصل الأمريكي، الّذي اعتمد كثيرا على رحلة شاو في تدوين مذكّراته، بأنّ مدينة الجزائر مبنيّة مكان إيكوسيوم القديمة[5]، وهذا ما

---

[1]- ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص40.

[2]- عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن**...، المرجع السّابق، ص149.

[3]- Laugier de Tassy, op.cit, p99.

[4]- Tomas Shaw, op.cit, p7.

[5]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص34.

أثبتته مؤخّرا العديد من الدّراسات والأبحاث الّتي ذكرناها آنفا.

استقبلت مدينة الجزائر طيلة العهد العثماني قوافل من الرّحالة إن صدق هذا التّشبيه، وكلّ منهم كتب عنها وفق ما تحكّمت فيه من الرغبات والظروف، فهذا الطّبيب الفرنسي بايسونال، المدينة عنده Alger[1] وفقط دون ذكره لسبب تسميتها، وهذا بالرّغم من أنّه قدّم لمحة تاريخيّة عن كامل المملكة، وقد ورد فيها بأنّه نقل كثيرا عن قنصل بلاده صاحب تأليف **تاريخ مملكة الجزائر** لوجي دي تاسي.

وبحكم أنّ رحلة السيّد طولو كانت رسميّة، وتمثّلت في محاولة تحرير بعض الأسرى، وإعادة بعث العلاقات من جديد بين فرنسا والجزائر سنة 1731، فقد أهمل هذا الدّيبلوماسي ذكر سبب تسمية المدينة وحتّى الأسماء الّتي عرفت بها من قبل، فهي عنده مدينة الجزائر وفقط[2]، عكسه تماما الإنجليزي جوزيف مورقن الّذي قال بأنّها قيصريّة على أنقاض يول القديمة، ثمّ ذكرها باسم مزغنّة وهو الاسم الشّائع في وقته (القرن18م)، غير أنّه يسرد رأيه فيقول: «...السّكان...يستعملونه بشيء من المضض لأنّهم يعرفون بأنّهم ينطقون اسما أقل أهميّة من اسمها القديم (قيصريّة)...»[3]، الأمر الّذي يوضّح أفضليّة الاسم الرّوماني على الاسم المحلّي الإسلامي عند مورقن، هذا من جهة ومن جهة أخرى بيّن اختلاف كل من ليّون الإفريقي ومارمول كاربخال في شكل كتابة اسم مزغنّة، وهي عنده تكتبMuzgunna، وهو شعب ليبي قديم، لا يُعرف من أيّ قبيلة هم، أسّسوا المدينة قبل مجيء الرّومان بعهد طويل، غير أنّ العرب أطلقوا عليها اسم جزيرة بني مزغنّة، ويكاد يتميّز مورقن ببعض ملاحظاته حول نطق وكتابة اسم المدينة وحتّى عن سبب تسميتها، فهو يقول: «اسمها الحالي الجزيرة...والعرب (البدو) وأهل الحضر يسمّونها (تزير)، والتّرك غيّروا الاسم العربي إلى جمع، وهم يسمّونها الجزائر، ولكنّ الإفريقيّين أهل المغرب الأقصى قلبوا الجيم الخفيفة إلى جيم ثقيلة على عادتهم فهم ينطقونها جزائر Gezier، غير أنّ للأوربيّين أسماء عديدة يطلقونها على مدينة الجزائر، فهي عندهم Alger وألجيريAlgieri وأرجيرArgier، وهي عند الإسبان أرخيلArgel (وأحيانا Ariel)، ولكنّ الإنجليز والهولنديّين يطلقون عليها اسم Algiers[4]».

---

[1]- J.A.Peyssonnel, op.cit, p185.

[2]- A.Berbrugger, **"Un voyage de Paris a Alger"** , op.cit, p417.

[3]- عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن**...، المرجع السّابق، ص270.

وأبو القاسم سعد الله، "**مدينة الجزائر في مؤلّف إنجليزي قديم**"، الأصالة، العدد08، ص34.

[4]- أبو القاسم سعد الله، "**مدينة الجزائر في مؤلف...**"،المرجع السابق، ص34.

لم يكتف مورقن بهذا التّوضيح، بل ذهب أبعد من هذا حيث ذكر بأنّ الأتراك يطلقون عبارة جزايري على سكّان الجزائر، بينما ينسب المغاربة إلى الجزائر(جزيري Gezieri)، أمّا بقيّة الحضر والعرب الإفريقيّين فيقولون تزيري Tezeiri أو زيري Zeiri، وهو نفس الاسم الّذي أطلق على أسرة بني زيري (أو الدّولة الزّيريّة)[1]، وقد تبنّى مورقن إمكانيّة ثنائيّة في سبب تسمية مدينة الجزائر، إمّا إلى زيري هذا، أو إلى قيصريّة المحرّفة فيما بعد إلى الجزائر، واستبعد سبب التّسمية المأخوذ من الجزيرة المقابلة للمدينة أو إلى جزر البليار الواقعة بالتّقريب من واجهتها، وفي اعتقادنا هو رأي بعيد عن الصّواب.

لقد ذهب هابنسترايت الطّبيب الألماني مذهب البعض من أصحاب الرّحلة، فيما يخصّ سبب تسمية مدينة الجزائر، وذكر ما نصّه: «...وسميّت عند العرب بالجزائر بسبب وجود جزيرة قبالتها بالقرب من السّاحل، وهذه الجزيرة أصبحت اليوم موصولة بالمدينة...»[2]، ممّ يتّضح بأنّه شاهدها واقتنع بسبب تسميّتها من خلالها، في حين انّ التّلمساني ابن المسيّب صاحب قصيدة: **يا الورشلان** فالمدينة عنده هي مزغنّة، محلّ الرّاحة والتّمتّع حيث كتب[3]:

ادخـــــل مزغنّـــــة يـــــا صـــــاح عنـــــــدهم اتمتّـــــــع وارتـــــــاح.

ولأنّها كانت تقع على طريق الحج السّاحلي، وهي محلّ إقامة نظرا لما توفّره من ظروف ملائمة ومواتية للحاج، ولعلّ ابن مدينة الجزائر الوحيد الّذي ذكرت عنده: «...بلدتنا الجزائر المحروسة بعين الملك القادر...»[4]، وهو عبد الرّزّاق بن حمادوش الّذي فسّر سبب تسمية المحروسة تفسيرا صائبا، بالرّغم من أنّه لم يتحدّث عن سبب تسمية الجزائر ولا عن تاريخها.

وهذا أيضا ما ينطبق على القنصل الفرنسي فاليار، الّذي يكتفي بذكر اسم مدينة الجزائر (La ville d'Alger)[5]، بالرّغم من أنّه كتب الكثير عنها وعن الحياة الحضريّة فيها سنة 1781، ويعتبر تأليفه من المصادر الهامة التي أظافت الكثير عن الجزائر في هذه الفترة.

لقد أضاف الرّحالة الرّوسي كوكوفتسوف في هذا الشّأن تسمية مدينة الجزائر بالرّوسيّة، حيث

---

[1]-أبو القاسم سعد الله، "**مدينة الجزائر في مؤلف**..."،المرجع السابق، ص34.

[2]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، 35.

[3]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص411.

[4]- عبد الرّزاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص261.

[5]-Valiere C.PH, **L'Algérie en 1781**, présenté par Lucien Chaillou ,imprimerie nouvelle, Toulon, 1974, p1.

قال: «...الرّوس يسمّونها Algir، ودولة الجزائريّين تنسب إلى عاصمتهم...وهي مفخرة وعمل بطولي لرجال بحريّتها...»[1]. وإن كانت البلاد الجزائريّة عامّة قد أخذت اسمها من العاصمة، فإنّ هذه الأخيرة قد أخذت اسمها من الجزيرة المقابلة لها، وهذا ما دوّنه يراع كاثكارت –الأسير الأمريكي الّذي عاش فترة طويلة في مدينة الجزائر– حيث كتب: «...يمتدّ بنيانها من الجزيرة الّتي تشكّل جزءً من المرفإ، والّتي أخذت منه المدينة اسمها...وتقع هذه الجزيرة على مسافة فورلنغ (220 ياردة) من البحريّة، وترتبط باليابسة...»[2]، الأمر الّذي نستشفّ منه أنّ كاثكارت كان دقيقا في ملاحظاته ومقتنعا بمعلوماته.

أمّا أبوالقاسم الزّياني الديّبلوماسي المغربي والمؤرّخ الموسوعة، الّذي أقام بمدينة الجزائر أثناء ذهابه إلى المشرق وأثناء إيابه منه، فمدينة الجزائر عنده كانت لقرى بني مزغنّة من جهة، ومن جهة ثانية فهي ثغر شهير عن التّعريف على حدّ قوله[3]، وربّما هذا بسبب الحالة الّتي كان عليها والظّرف الّذي عاشه بسبب ضياع أمتعته، وقد نوّه بقدرة وقوّة أفراد الأسطول الجزائري في البحر المتوسّط، غير أنّ الرّحّالة المغربي الآخر عبد الوهاب المكناسي، فمدينة الجزائر عنده في غاية التّحصين والمنعة[4]، وذكر بأنّه لم يدخل إليها بسبب وجود وباء الطّاعون حينها (1785)، ولعلّ القاسم المشترك الّذي تكاد تتّفق عليه مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة في معظمها، أنّ الجزائر تسمية عربيّة تنسب إلى تلك الجزر المقابلة للمدينة، وهو نفس الرّأي الّذي ذهب إليه فونتير دي بارادي بإضافة جزائر الغرب Gesair el-Gharb، والّتي تعني جزر الغرب[5].

وفي اعتقادنا أنّ للأوربيّين مصادر موحّدة في الكتابة عن مدينة الجزائر، بسبب تداول نفس الأفكار عند العديد من الرّحّالة والكتّاب مع قليل من الاختلاف.

أمّا أحمد بن عمّار، عالم مدينة الجزائر وفقيهها صاحب رحلة متميّزة في عنوانها، وهي **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب**، فقد ذكرها باسم الجزائر وزاد على ذكرها بالدّعاء لها بالأمن والسّلامة [6]، وعلى غالب الظّنّ هذا بسبب ما كانت تتعرّض له من هجومات وفتن طيلة العهد

---

[1]- Marcel.Emerit, **"Description de L Algérie en 1787"...**, op.cit, p210.

[2]- جيمس ليدر كاثكارت، **مذكرات أسيرالداي كاثكرت قنصل أمريكا في الجزائر**، ترجمة وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د،م،ج، الجزائر، 1982، ص68.

[3]- أبي القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص149، وص375.

[4]- عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص330.

[5]- Venture de Paradis, op.cit, p107.

[6]- أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص15.

العثماني، وبحكم أنّ رحلة ابن عمّار إلى البقاع المقدّسة كثر فيها الحديث عن المشرق ومزاراته ومشاهده الدّينيّة، شأنها شأن العديد من الرّحلات الحجازيّة، الّتي نجد فيها إشارات طفيفة عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، إلا أنّ العالم الموسوعي محمّد أبوراس يقول في شأن تسمية مدينة الجزائر ما نصّه:«...سمّيت بجزائر بني مزغنّة نسبة لقبيلة صنهاجيّة كانت تقطن بجوارها، ولوجود جزر صغيرة على مسافة من الموقع الّذي بنيت فيه»[1]. وهو نفس الرّأي الّذي تبنّاه العديد من الرّحّالة على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم.

بينما مؤلّف رحلة **نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار** الحسين الورتلاني، أقرّ بتسمية المحروسة إذ يقول: «...في المدينة المحروسة الجزائر...»[2]، «...استوطن محروسة الجزائر...»[3]، دون ذكره سبب تسمية المدينة ولا ذكره نبذة عنها، بالرّغم من أنّه قصدها وعاش فيها فترة معيّنة، وعلى الأرجح أنّ اهتماماته لم تنصب في هذا الاتّجاه، أو أنّه لم يملك من المعارف ما يجعل قلمه سيّالا في هذا العنصر(تاريخ المدينة وسبب تسميتها).

هناك مصادر رحلة عربيّة وأوروبيّة تحدّثت عن مدينة الجزائر، وعن الحياة الحضريّة فيها، إلّا أنّها أهملت سبب تسمية المدينة كما أهملت تاريخها، ومن الأمثلة على هذه المصادر نذكر: **الرّحلة القمريّة مثلا** ورحلتي الألماني شونبيرغ والفرنسي روزيه.

غير أنّ القنصل الأمريكي وليام شالر، يوضّح سبب التّسمية فيقول: «...اسم الجزائر بالعربيّة معناه جمع جزيرة في البحر...»[4]، ويضيف على هذا بأنّ المدينة تلقّب بالحربيّة[5]، ولعلّ شالر يقصد بالحربيّة، ذاك الطّابع العسكري والدّفاعي الّذي تميّزت به مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وهي خصوصيّة أفرزتها ظروف تلك الفترة.

ويكاد ينفرد عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني التّواتي بإعطائه صفتين لمدينة الجزائر الّتي حلّ بها سنة 1816 حيث قال: «...فلمّا قدّر الله سفري لمحروسة ثغر الجزائر...»[6]، وعلى أغلب الظّنّ أنّ

---

(1)- محمّد أبوراس النّاصر، **عجائب الأسفار**...، المصدر السّابق، ص23.

(2)- الحسين الورتلاني، المصدر السّابق، ص5.

(3)- نفس المصدر، ص547.

(4)-وليام شالر، المصدر السّابق، ص72.

(5)- نفس المرجع، ص72.

(6)- عبد الرّحمان بن إدريس، المصدر السّابق، ص72.

لهذا الوصف دلالة عميقة في شخص التّنلاني، كما تدلّ على أنّه يملك جملة من المعارف الإسلاميّة والثّقافة التّاريخيّة حتّى يزاوج بين المصطلحين (المحروسة–الثّغر)، ولأنّه يدرك معنى المحروسة، كما يدرك معنى الثّغر أي المدينة المقابلة للعدّو مباشرة، وهو حال مدينة الجزائر تماما.

3-في موقع المدينة وموضعها:

لقد أبدعت مصادر الرّحلة في ذكر موقع المدينة وموضعها، وهذا حسب ما لاحظه الرّحّالة بأنفسهم من جهة، وحسب ما اطّلعوا عليه في كتب الرحلات السابقة من جهة ثانية، ولعلّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة تتميّز في ذكر موقع مدينة الجزائر وموضعها عن مصادر الرّحلة العربيّة، فإن كان حسن الوزّان يتحدّث عمّا كان يحيط بالمدينة من بساتين وأراضي مغروسة بأشجار الفواكه، ويذكر النّهر الّذي يمرّ قريبا منها في الجهة الشّرقيّة، ويذكر أيضا أنّ المدينة تقع على شاطئ البحر[1]، فإنّ مارمول كاربخال يقول: «...وموقعها على سفح جبل عال...يحيط بها خندق عميق، ...الشّمال حيث توجد المرسى وإحدى الجزر...أسوارها ترتفع فوق التّلال، ثمّ تتّجه نحو الجنوب مكوّنة رأس مثلّث، والمدينة من الأسفل عند شاطئ البحر، ثمّ ترتفع بشكل متدرّج على سفح جبل...»[2]، لقد تميّزت ملاحظاته بالدّقّة والوضوح في هذا العنصر أكثر من حسن الوزّان، ويذكر أيضا ذلك النّهر الّذي يمرّ جهة الشّرق من المدينة، وينبع من الأطلس الكبير ويخترق متّيجة على حدّ قوله، إلى أن يصبّ في البحر، وتكاد تكون هذه هي نفس ملاحظات الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي مع قليل من الاختلاف والاختصار، حيث ذكر بأنّ المدينة تقع على البحر المتوسّط، على منحدر جبل ومحاطة بحصون قويّة، مخندقة... وهي تقريبا على شكل مثلّث..."[3]، ويذهب الأسير الدّكتور أنطونيو دي صوصا إلى أبعد من هذا فيذكر أنّ ارتفاع المدينة 37° أو أكثر قليلا وموقعها الجغرافي يشبه قوس منجنيق Arcode Ballestra حيث ظهر المدينة يمثّلها القوس وهو يتّكئ على هضبة وعرة المسالك، يتدرّج علوّها إلى أن يتحوّل إلى مكان شاهق منيع[4].

وعلى هذا الأساس، ومن منطلق هذا الوصف والتّشبيه فمن المعلوم أنّ مدينة الجزائر وإن بنيت على سفح جبل قاعدتها شاطئ البحر وقمّتها رأس الجبل فهذا سيؤثّر حتما على شكلها ومبانيها ودروبها وكلّ ما لها علاقة بها وبهندستها، أمّا من زاوية الأسير الإسباني هايدو، فهي عنده تقع في إفريقيا، وفي مقاطعة كانت تسمّى موريطانيا القيصريّة، وهي على ارتفاع حوالي 37°[5].

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

[2]- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص363.

[3]- Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

[4]- عبد الله حمّادي، **"جزائر القرن السّادس عشر**...، المرجع السّابق، ص264.

[5]- Diego de Haedo, op.cit, p11.

ربّما من بين أهمّ مميّزات مصادر الرّحلة الأوروبيّة، هي ذكرها موقع مدينة الجزائر بنوعيه الجغرافي والفلكي، والّذي تكاد تصمت عنه مصادر الرّحلة العربيّة ما عدا تلك الإشارات الطّفيفة، فهذا أبوالحسن التّمقروتي نستخلص من كتابته عن المدينة بعض الملامح الجغرافيّة كالمرسى ورأس الجبل، الّذي أقيم فيه قبر الولي الصّالح عبد الرّحمان الثّعالبي، إلّا أنّ التّمقروتي يعتمد على ما خطّه -في هذا العنص على رحلة- أبو البقاء خالد بن خالد، حيث يقول: «...مدينة أقسمت بعلوّ هضابها...أحاط بها البحر إحاطة السّوار بالزّند...»[1]، غير أنّنا ندرك بأنّ مدينة الجزائر لا يحيط بها البحر من جميع جهاتها، بل وفقط من الجهة الشّماليّة، أمّا الجهات الأخرى فهي تتّصل باليابسة.

لقد اتّفقت معظم مصادر الرّحلة على أنّ مدينة الجزائر تقع على ساحل البحر وعلى سفح جبل، غير أنّ هناك من يشبّه شكلها بشراع سفينة، ومنهم الأسير جاو ماسكارنيهاس والّذي يقول بأنّ محيط هذه المدينة هو 1800 قدم جهة البر و1600 جهة البحر، يعني حدود ذلك الشّراع 3400 قدم[2]، الملاحظ أنّ جاو ماسكارنيهاس قام بجمع الطّولين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ تشبيه شكل المدينة بشراع سفينة للرّائي من بعيد وهو في البحر المتوسّط، تشبيه يليق بمقامها من خلال ملاحظاتنا للعديد من صورها وشكلها في مصادر الرّحلة، كما أنّه يذكرها بأنّها مثلثيّة الشّكل، القاعدة في الأسفل والرّأس في الأعلى.

أمّا المقرّي فيحيلنا إلى جهة من جهات المدينة عندما خرج مع ثلّة من العلماء فقال: «...خرجنا مع المولى إلى رأس تافورة...فصارت به تلك المعاهد معمورة...»[3]، إلّا أنه لم يوضّح مكان رأس تافورة ولا سبب تسميته، وعلى غالب الظّنّ أنّ للتّسمية دلالة جغرافيّة كما أنّه -أي رأس تافورة- الحدّ القريب جدّا من مدينة الجزائر من جهتها الشّرقيّة.

ويبدو أنّ الأب دان في ملاحظاته وتقييداته عن موقع مدينة الجزائر وموضعها، كان أكثر دقّة وتوضيحا حيث ذكر في هذا السّياق: «...هي على شكل مدرّج، في ارتفاع من الأسفل إلى الأعلى، لأنّها أقيمت على منحدر هضبة، ومحيط هذه المدينة في حوالي **Cinq Quatre de lieus** (خمسة أرباع

---

[1]- أبي الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، 91.

[2]- Joao Mascarenhas, **esclave à Alger (recit de captivité de joao Mascarenhas1621-1626**,traduit de Portugais, annoté, présenté par Palil Teyssier , édition chandingne, Paris, 1993 p67.

[3]- أبي العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص73.

الفراسخ)...»[1] ثمّ يأتي على ذكر ترتيبها وأرضها الصّلبة وكذا تربتها الخصبة حول الأودية والشّواطئ.

غلبت المعارف الفلاحيّة والزّراعيّة الّتي قدّمها دان في عنصر موقع المدينة وموضعها، ولا يخرج عن هذا الإطار الأسير إيمانويل دارندا، والّذي تبيّن أنّه أخذ معارفه من رحّالة سبقوه ولعلّ في مقدّمتهم هايدو، فهي عنده –أي مدينة الجزائر– على ارتفاع 37°، وعلى ساحل البحر، وهي قديمة تقع في مقاطعة موريطانيا القيصريّة[2].

وكما ذكرنا آنفا، فطبيعيّ جدّا أن تؤثّر نوعيّة الرّحلة وغرضها في ذكر عناصر دون أخرى، فهذا الدّيبلوماسي توماس هيز الّذي حلّ بالمدينة في 12 أكتوبر سنة 1675، في مهمّة رسميّة إلى داي الجزائر، لا يذكر إطلاقا موقع المدينة ولا موضعها ما عدا تلك الإشارات، الّتي جاءت عن غير قصد إلى بعض الملامح الجغرافيّة؛ الميناء، الضّواحي والفحوص الّتي تجوّل فيها، فأكّد على خيراتها وثرواتها[3]، ولا يختلف عنه كثيرا الحاج جوزيف بيتس الّذي يشير وفقط إلى ساحل الجزائر وميناءها، عندما كان مغادرا باتّجاه مكّة أو عندما قرب وصوله إليها[4]. في حين أنّ بوتي دولاكروا الّذي عاش في المدينة في أواخر القرن السّابع عشر، يذكر بأنّ المدينة تقع على منحدر جبل (ميلان) باتّجاه البحر[5]، ولا يزيد عن هذا شيئا، غير أنّ المغربي ابن زاكور، ونظرا لتفوّقه في نظم الشّعر، فقد أورد ما ينصّ على أنّ للمدينة بحرا جميلا ومنظرا رائعا إذ يقول: «...أبرأني من عليلي ووجدي ما عاينته من روائها العسجدي (المنظر الحسن) وبحرها الآزوردي...»[6]، ولعلّه في هذا الشّأن يختلف اختلافا تامّا عن ابن وطنه الجامعي، الّذي لا يذكر شيئا عن موقعها ولا موضعها بالرّغم من أنّ لسان حالهما واحد، وهو الحديث عن علمائها وأدبائها، وعن الحياة الثّقافيّة والعلميّة بها.

لقد سجّل موقع المدينة وموضعها حضورا قويّا في مصادر الرّحلة الأوروبيّة، والّتي منها ما دوّنه لوجي دي تاسي، إذ قال في هذا المقام: «...هي تقع على 36 درجة و30 دقيقة طولا، المدينة توجد بين بجاية وتنس، يحدّها ساحل البحر المتوسّط شمالا في حوالي فرسخ، وقد أقيمت على منحدر هضبة

---

(1)- P.P.Dan, op.cit, pp88-89.

(2)- Emannuel D'Aranda, op.cit, p81.

(3)- T homas Hees , op.cit, pp92-93.

(4)- جوزيف بيتس، المصدر السّابق.

(5)-Marcel Emerit, **"un mémoire sur Alger…",**op.cit, p18.

(6)- ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص150.

إلى غاية ساحل البحر، كما أنّها على شكل مدرّج، وشكلها يشبه شراع سفينة عندما تقترب منها»[1].

لقد تبيّن أنّ لوجي دي تاسي، كان هو الآخر يقتبس من رحلات سبقته إلى المدينة، لأنّ التّشبيه الّذي ذكره عن المدينة (شراع سفينة) لمسناه عند الأسير جاو ماسكارينهاس، الّذي كان في المدينة بين 1621و1625، وربّما يكون في مصادر أخرى وكتابات عديدة تناقلت الفكرة والتّشبيه.

وقد اختلف الطّبيب الإنجليزي شاو مع لوجي دي تاسي ومع غيره من أصحاب الرّحلة، في تحديد موقع مدينة الجزائر عرضا وطولا، إذ يقول شاو: «...تقع مدينة الجزائر عند خط 36° و47' عرض شمالا و0 و44' طولا، وهذا الحساب عنده على حسب خط طول باريس»[2]. لكنّ التّساؤل الّذي يفرض نفسه هنا: لماذا هذا الاختلاف؟ هل شاو كان أكثر دقّة من لوجي دي تاسي؟ أم أنّ هذا الأخير لم يعر الموقع الاهتمام الكبير؟ وهذا بالرّغم من أنّ حساب شاو كان وفق خط باريس الفرنسي. وقد أضاف شاو على الموقع الفلكي لمدينة الجزائر معلومات أخرى عن موقعها الجغرافي، فهي عنده مدينة تشبه المدرّج وهي على انحدار هضبة تمتدّ طولا إلى غاية ساحل البحر، كما تحدّث عن معالمها الجغرافيّة الأخرى في الضّواحي[3]، كما زاد شاو إضافات عديدة في رحلته والّتي منها أنّه قدم حدود مقاطعة دار السّلطان ككل شمالا، جنوبا، شرقا وغربا، وهو بذلك أثبت دقّة ملاحظاته وتنوّع معارفه ومعلوماته عن العديد من أصحاب الرّحلة، سواء من سبقه إلى مدينة الجزائر أو من جاء بعده.

ولقد سجّل جوزيف مورقن الكثير عن موقع المدينة، عكس الفرنسيّان بايسونال والسيّد طولو، اللّذان لم يتحدّثا عنه، ولعلّ الدّافع في تدوين معلومات جوزيف مورقن وفي تأليف كتابه، من بين أهمّ العوامل الّتي جعلته يولي اهتماما كبيرا ليس فقط لمدينة الجزائر، بل لكامل منطقة شمال إفريقيا، فمدينة الجزائر عنده تقع على خليج واسع، وقد بني جزء منها على أرض منبسطة تنتهي بالبحر عند سفح الجبل، أمّا الجزء الآخر فمبني على منحدر يبدأ حيث ينتهي الأوّل، ويمتدّ على 21 درجة و20 دقيقة طولا و36 درجة و30 دقيقة عرضا[4]، ويعرف مورقن باختلاف المؤرّخين والجغرافيّين في تحديد موقع مدينة الجزائر في درجة أو أكثر أو أقل، وهذا بالفعل ما لمسناه في مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه

---

[1]- Laugier de Tassy, op.cit, p99.

[2]- Thomas Shaw, op.cit, p288.

[3]-Ibid, p303.

[4]- أبو القاسم سعد الله، "**الجزائر في مؤلّف إنجليزي...**"، المرجع السّابق، ص284.

التّحديد، والّتي نذكر منها رحلة العالم الألماني هابنسترايت الّذي قدّم كامل حدود مملكة الجزائر[1].

في اعتقادنا أنّ هذا الاختلاف راجع إلى عدم توحيد مبدأ العمل في الحساب، هذا من زاوية، ومن زاوية أخرى عدم وجود الدّقّة في هذا الحساب لأنّه أمر فلكي مازال لم يضبط في ذلك الوقت بالذّات.

إنّ اهتمام مصادر الرّحلة الأوروبيّة بموقع مدينة الجزائر بنوعيه الفلكي والجغرافي، له مبرّرات عدّة، وفي مقدّمتها أنّ العديد من الرّحّالة الأوروبيّين كانوا يكتبون للتّعريف بالمدينة عند بني جلدتهم ولأهميّة هذا في ذلك الوقت بعكس الرّحّالة العرب فهم لا يذكرون الحدود الفلكيّة لاعرضا وطولا، ويكتفون بذكر بعض الملامح الجغرافيّة، وهذا ليس في كل مصادر الرّحلة العربيّة بل في بعض منها فقط. فابن المسيّب يشير في شعره إلى معالم جغرافيّة تخصّ المدينة ومحيطها، حيث قال:

شـــــف متّيجـــــة واســـــتخبر البليـــــدة بيّـــــت فيهـــــا.

ليلـــة الجمعـــة اطلـــع للشّـــيخ ترســـلك وإذا كنـــت صـــريخ,

قـــم يـــا طيـــر جلوســـك طـــال طـــر وانـــزل فـــي جبـــل عمـــال[2].

غير أنّ ابن مدينة الجزائر عبد الرّزاق بن حمادوش، الّذي ارتحل شرقا وغربا لا يذكر شيئا عن موقع المدينة ولا عن موضعها، ما عدا تلك التّلميحات الّتي وردت في سياق الحديث، كدخوله لمرسى الجزائر وذهابه إلى جبل بومعزة تحت بوزرّيعة على حدّ ذكره[3]، في حين أنّ القنصل الفرنسي فاليار الّذي كتب عن مدينة الجزائر وعن الحياة الحضريّة فيها سنة 1781 لم يزد شيئا يذكر على انحدارها وعن شكلها الّذي يشبه المدرّج، وهي مدينة تشاهد من بعيد، من خلال البحر[4]، بينما ضابط الهندسة العسكريّة الرّوسيّة كوكوفتسوف أشاد بنواحي مدينة الجزائر وبخيراتها[5]، شأنه في ذلك شأن الطّبيب الفرنسي ديسفونتين الّذي تجوّل في نواحيها وذكر حدودها، وهو برفقة عسكري عيّنه له الدّاي، فقدّم بذلك معلومات في غاية الأهميّة عمّا يحيط بالمدينة، من تلال وأنهار ووديان وحتّى السّهول، متناسيا موضع المدينة. ولا يفوتنا ذكر أنّ الطّبيب الفرنسي ديسفونتين كتب ملاحظات قيّمة عن شاطئ مدينة الجزائر

---

(1)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص25.

(2)- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص ص410-411.

(3)- عبد الرّزاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص114 وص120.

(4)- Valliere,C.PH, op.cit, p1.

(5)- M.Emerit, **Déscription…**, op.cit, pp111-112.

وخليجها من حيث العمق، وكثرة الرّمال وحتّى الصّخور، ووصف جزيرة سيدي فرج (لسان برّي يمتدّ في البحر) ودوّن رأيه في هشاشة برجها[1].

ولا يكاد يختلف الأسير الأمريكي كاثكارت عن باقي الأوروبيّين في وصفه لموقع المدينة وما يحيط بها، حتّى أنّه قدّم معلومات في غاية الدّقّة حول مرفئها وخليجها وتلالها، وكذا موضعها والجزيرة المقابلة لها[2]، فأثبت بذلك أنّه لا تنقصه الدّقّة في الوصف ولا القدرة على التّصوير.

وفي نفس السّياق عن موقع مدينة الجزائر وموضعها، الّذي تكاد تصمت عنه مصادر الرّحلة العربيّة إذا استثنينا تلك الإشارات الطفيفة، مثلا لمرساها أو لساحلها أو للجبل الّذي أقيمت عليه، والّتي وجدناها عند كل من الزّياني أبي القاسم[3] أو المكناسي صاحب **إحراز المعلى والرّقيب**[4]، بعكس ما دوّنه صاحب تأليف **مدينة الجزائر في القرن الثّامن عشر،** فونتير دي بارادي الّذي قدّم ما نصّه: «...تقع على 36درجة و30دقيقة طولا من النّاحية الشّماليّة و21درجة و20دقيقة عرضا، وهي مبنيّة على منحدر هضبة وعرة وشديدة الانحدار، وهي تمثّل مدرّج مسرّح...»[5]، ولم يكتف بذكر هذا الوصف، بل زاد في ذكر نواحيها وكامل إقليمها، والّذي يسمّيه بإقليم الدّاي، ولعلّ إقامته الطّويلة في الجزائر– لمدّة سنتين– قد ساعدته في تدوين ما سجّل.

أمّا صاحب **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب** وهو ابن مدينة الجزائر وأحد علمائها الفطاحل، لم يذكر لا موقعها ولا موضعها، بل كان مجمل حديثه عن الحجّ والشّوق إلى البقاع المقدّسة، وبذلك فرحلته حجازيّة، بعكس محمّد أبو راس والّذي وإن تحدّث عن تاريخ بناء المدينة إلّا أنّه خصّص أسطرا معتبرة لمتّيجة والثّعالبة من النّاحية التّاريخيّة[6]، دون ذكره لموقع المدينة وموضعها، ونفس الأمر ينطبق على الشّيخ الحسين الورتلاني الّذي ذكر مدينة الجزائر كمحروسة لبلاده في العديد من مواضع

---

[1]-L.R Desfontines, **Le voyage botanique de Desfontines dans les Régences de Tunis et d'Alger,1783-1786**,préface de Denise Brahimi,édition cartaginoiserie,Tunis,2010, pp137-140.

[2]- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص ص76-85.

[3]- أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص379.

[4]- عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص330.

[5]- Venture de Paradis, op.cit, p107 et 114.

[6]- محمّد أبو راس، **عجائب الأسفار**...، المصدر السّابق، ص ص62-64.

رحلته[1]، دون تحديد لموقعها، وهو ما حدث أيضا مع ابن زرقة العمري، غير أنّنا لا نجد تفسيرا لهذا إلّا أن نضع في الحسبان الهدف من كل رحلة والغاية من كتابتها، الّتي تحكّمت في عناصر الرّحلة وفي شكلها وفي محتواها.

في حين أنّ الأسير الألماني تيدنا، ترك انطباعا صادقا –حسب رأينا– فيما دوّنه عن موقع مدينة الجزائر وموضعها أواخر القرن الثّامن عشر، حيث قال: «...وعندما وصلنا إلى قمّة الجبل الّذي أقيمت على سفحه مدينة الجزائر، تمكّنت من ملاحظة موضع هذه المدينة والّتي تعطي منظرا رائعا جدّا، وبين جمال ضواحيها صورة تشرح الصّدر بمنظرها المميّز وبساتينها الرّيفيّة المبنيّة على منحدر جبل.. على كلّ حال ليس هناك أجمل من هذه المدينة...»[2].

وإن كان عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني لم يتحدّث عن موقع المدينة لا من قريب ولا من بعيد، بالرّغم من أنّه أقام بها لمدّة زمنيّة فاقت الشّهر، ومن المحتمل أنّه تجوّل في أرجائها وصال في جهاتها ونواحيها، إلّا أنّ حديثه عنها غلب عليه واقعة حملة اللّورد إكسماوث ومجرياتها ومخلّفاتها، بخلاف الأسير الألماني بفايفر الّذي قال عنها: «...تقع المدينة فوق جبل وتمتدّ منه منحدرة إلى الميناء، بحيث أنّ المياه تلامس الصّفوف السّفلى من المنازل...الجبل في القسم الأعلى من المدينة...وهناك على جانبي المدينة تلال ووديان وسهول...ويمتاز موقع الجزائر بتنوّع مظاهره...»[3]، وإن كان هذا الوصف يكاد يكون نفسه وصف وليام شالر، هذا الأخير الّذي أضاف ما يعبّر عن رأيه حيث ذكر: « إنّ مدينة الجزائر مبنيّة على شاطئ البحر، على قاعدة واسعة نسبيّا في شكل نصف دائري، على هضبة سريعة الانحدار، ويبلغ قطرها حوالي ميل ونصف...»[4]، وإذا ما تأمّلنا ما كتبه الأمريكي شالر أيضا بأنّ المدينة تشبه شراع سفينة، تنتشر في مرج أخضر اللّون والجبل المشرف عليها...تترك في نفسك انطباعا وأنت تقترب منها[5]، فهذا الكلام مقتبس من رحّالة سبقوه، إلّا أنّ حكمه على منظر المدينة من بعيد، ليس هو نفسه حكمه عليها من الدّاخل (داخلها)، ويبدو لنا أيضا في نفس هذا السّياق أنّ القنصل الأمريكي زاوج في تدوين معلوماته بين ملاحظاته ومشاهداته وبين أفكار من سبقه من الأوروبيّين، كما أنّه لا

---

(1)– الحسين الورتلاني، المصدر السّابق، ص547– وص683...

(2)– أحميدة عميراوي، **الجزائر في**...، المرجع السّابق، ص51.

(3)– سيمون بفايفر، **مذكرات اولمحة تاريخية عن الجزائر**، تقديم وتعريب أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر،1974، ص ص13–14.

(4)– وليام شالر، المصدر السّابق، ص73.

(5)– نفس المصدر، ص ص73–74.

يخفي اعتماده كثيرا على رحلة شاو التي أعجب بها كثيرا.

وقد ذكر شونبيرغ الألماني، الّذي حلّ مع جيش الحملة الفرنسيّة سنة 1830 لاحتلال الجزائر، بعض المعلومات في سياق حديثه عن نواحي وحدود مدينة الجزائر، بدءًا بمنطقة سيدي فرج، حيث ذكر: «...الأراضي تتخلّلها الجبال والتّلال بشكل متصاعد وخلف الجزائر تمتدّ سلسلة جبال الأطلس...»[1]، وهو بذلك يقصد مدينة الجزائر، ويكاد يتّفق الضّابط والنّقيب روزيه، الّذي حلّ هو الآخر بالجزائر سنة 1830، مع ما دوّنه الطّبيب الإنجليزي شاو فيما يخصّ موقع مدينة الجزائر، والّتي هي عنده عاصمة المملكة تقع بين 36 و47 عرضا و0 و42 طولا وهي على شكل مدرّج قائم على هضبة إلى غاية قدم الجبل وعندها البحر، شكلها مثلّثي ورأسه هو الأعلى في المدينة[2].

---

[1]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص31.

[2]- Rozet et Carrete, op.cit, p14.

4 - ملاحظات حول نصوص الرّحّالة في التّعريف بالمدينة:

نجمل بأنّ صورة مدينة الجزائر في مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة خلال العهد العثماني من 1516إلى1830 تميّزت ببعض الخصائص والسّمات فيما يخصّ التّعريف بها، وهي عموما رسمت الخطوط التّالية:

– حاولت مصادر الرّحلة الأوروبيّة استحضار التّاريخ الرّوماني في المنطقة، وتبيان دور الرّومان في التّأثير فيها حضاريّا وعلى رأسهم مارمول، دان، دي صوصا، بايسونال، هابنسترايت، مورقن... بالرّغم من تعدّد وتنوّع غرض رحلة كل واحد منهم، فمنها الرّسميّة كرحلة مارمول ودان والعلميّة كرحلة كل من بايسونال وهابنسترايت والعامّة ككتاب مورقن، إلّا أنّه تجلّى لدينا أنّ العالم الألماني هابنسترايت كان يبحث عن الآثار الرّومانيّة ليس في مدينة الجزائر فقط، بل أثناء رحلته في المناطق الّتي زارها في بدايات الثّلث الثّاني من القرن الثّامن عشر[1].

– لمسنا الإقرار في بعض مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة بأنّ مدينة الجزائر قديمة أو مشهورة منذ القدم، ومن بين أصحاب هذه الرّؤية نذكر: مارمول، نيكولاس نيكولاي، كوكوفتسوف، روزيه وحسن الوزّان... ولعلّ هناك رحّالة آخرين يقرّون بنفس هذه الرّؤية[2]، لكن صعب عليهم تحديد إطارها الزّماني الّذي نشأت فيه.

– من مصادر الرّحلة بنوعيها استنتجنا انبهار الرّحّالة بجمال مناظر مدينة الجزائر، والإقرار أيضا بأنّها من أجمل مدن العالم، لذلك منهم من عبّر عنها بطريقة أدبيّة، ولعلّ ابن زاكور كان في مقدّمة هؤلاء، كما لا يفوتنا في هذا المقام أن نشهد باعتراف بفايفر –الأسير الألماني– بهذه الخاصيّة، دون نسيان ما دوّنه أحمد بن العبّاس المقرّي في رحلته، وعلى غالب الظّنّ أنّ هذا الانبهار والاعتراف كان نابعا من صدق مشاعرهم ونبل أحاسيسهم اتّجاه المدينة.

– هناك من مصادر الرّحلة الأوروبيّة من حاول أصحابها إغفال دور العرب والمسلمين في منطقة الشّمال الإفريقي عموما ومدينة الجزائر على وجه الخصوص، في حين هناك منها (مصادر الرّحلة الأوروبيّة) من حاول أصحابها إضفاء مساهمة المغاربة والسّكّان المحلّيين في مدينة الجزائر، وبأنّ المور

---

[1]– ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص35، ص81، ص86...

[2]– ممن لم نستعمل رحلاتهم في هذه الدراسة كالألماني رهباندر مثلا

(Les Maures)[1] هم بُناة المدينة، من أمثال (مارمول، نيكولاس نيكولاي، فونتير دي بارادي، روزيه... وبهذا ساهموا بقسط من الموضوعيّة في التّعريف بالمدينة، بينما شالر وشو، - قنصل أمريكا في الجزائر والطّبيب الإنجليزي-، توصّلا إلى أنّ المدينة أسّست مكان إيكوسيوم[2].

– ما سجّلناه في بعض مصادر الرّحلة العربيّة، أنّ أصحابها يدعون للمدينة بالسّتر والحفظ من أمثال التّمقروتي، المقرّي، ابن عمّار[3]... ولعلّ لهذا ما يبرّره؛ غلبة المقياس الوطني والإسلامي، حيث تجلّى في العبارات الواردة في رحلاتهم، بعكس مصادر الرّحلة الأوروبيّة أو البعض منها، التي نوّهت بضرورة السّيطرة على المدينة والقضاء عليها واستغلال خيراتها وثرواتها من أمثال (بانانتي وشالر...) على وجه الخصوص.

– وما تجدر الإشارة إليه، أنّ في مصادر الرّحلة بنوعيها تعدّدت تسميات المدينة، فمصادر الرّحلة العربيّة وجدنا فيها تسميات: المحروسة، بهجة الدّهر، جزائر بني مزغنّة، محروسة ثغر الجزائر..... ومصادر الرّحلة الأوروبيّة ترجعها إلى يول، يوليا القيصريّة، مدينة سيزاري...وكذا جزائر بني مزغنّة وأخيرا الجزائر (Alger)، ولعلّ لهذا الاختلاف أسبابا عديدة في مقدّمتها سبب وهدف الكتابة وثقافة أصحاب الرّحلة عربا كانوا أم أجانب، بالإضافة إلى سبب وجيه يتعلّق بشخصيّة الرّحّالة ومدى تقبّله لفكرة معيّنة من عدمها، فشخصيّة العالم تختلف عن الدّيبلوماسي، كما تختلف عن الحاج وتختلف عن العسكري أيضا وهكذا...

-زوّدتنا مصادر الرّحلة الأوروبيّة بعدّة تسميات لمدينة الجزائر، تختلف فقط في كتابتها ونطقها من لغة أوروبيّة إلى أخرى (Algir – Algeirs – Argel – Alger)، وأقرّ أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة بصعوبة نطق اسم الجزائر، لذلك يحرّف ويخفّف في النّطق إلى اللّغات المذكورة.

– تمّ ذكر موقع مدينة الجزائر في العديد من مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة، لكن ما تبيّن لنا من هذه الأخيرة أنّها تميّزت بالدّقّة والوضوح في هذا الجانب أكثر بكثير من مصادر الرّحلة العربيّة، ولعلّ هذا يسوقنا دائما إلى الغاية والهدف من كتابة تلك الرّحلات الأوروبيّة عن الجزائر، والّتي منها التّقارير

---

[1]- المور: هو اسم السكان القديم، الاسم العام لجميع سكان المغرب الأقصى وبلاد البربر. وليام شالر،المصدر السابق،ص107.

[2]- نفس المصدر، ص34.

[3]- أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق، ص18.

-أبي العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص72.

الرّسميّة والمرامي العسكريّة بغية السّيطرة عليها، وهذا ما تجلّى سنة 1830.

-انفردت مصادر الرّحلة الأوروبيّة بذكر الموقع الفلكي لمدينة الجزائر، بالرّغم من تسجيل ذلك الاختلاف في درجة أو درجتين. إلّا أنّ أصحابها أرادوا تحديد إحداثيّات المدينة، وهم بهذه العمليّة كان لهم السّبق والتّميز عن مصادر الرّحلة العربيّة.

-تغنّى الرّحالة العرب بالمدينة شعرا، فنظموا فيها أبياتا شعريّة رائعة، وبالأخص المقرّي وابن المسيّب[1]، وعلى غالب الظّنّ هذا ما أثّرت فيه سمة تلك الفترة من جهة وتكوين وميولات الرّحّالة من جهة ثانيّة.

-دلّتنا مصادر الرّحلة إلى أنّ الجزيرة الّتي اشتقّت منها تسمية الجزائر في بدايات القرن السادس عشر كانت غير متّصلة باليابسة، ولعلّها كانت مجموعة من الجزر، لذلك سمّيت بجزائر بني مزغنّة نسبة إلى القبيلة الّتي حلّت بها، ونظرا لاضمحلال وأفول تسمية القبيلة (مزغنّة) بقيت الجزائر، والّتي اتّخذها الأتراك وغيرهم من الأوروبيّين تسمية للمدينة ولكامل القطر فيما بعد، وهذا راجع إلى الدّور الجوهري والفعّال الّذي كانت عليه مدينة الجزائر، بأبعاد محليّة وإقليميّة في الشّمال الإفريقي وفي البحر المتوسّط حتّى انتشر اسمها على كامل القطر.

[1]- أبي العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص72.

وابن المسيّب، "**يا الورشلان اقصد طيبة**" في كتاب **من التّراث التّاريخي**...، المرجع السّابق، ص410.

5-المواضيع الّتي ذكرت في مصادر الرّحلة وفي مصادر أخرى للتّعريف بالمدينة:

أ-مصادر الرّحلة والأسر في القرن 10هـ/16م (من1516إلى1588):

مصدر الرّحلة	صاحب الرّحلة	سنة الرّحلة	مدّة الإقامة في المدينة	المواضيع المذكورة في مصدر الرّحلة
1-وصف إفريقيا (ج2)	حسن الوزّان	1516	بضعة أيام من شهر أوت 1516	التّسمية، العدد، الأسوار، الدّور، الأسواق، الفنادق، الحمّامات، الجامع الكبير، ماء الشّرب، سهل متّيجة، المدينة بين سالم التّومي وعروج وخير الدّين.
2-مارمول كاربخال (ج2)	إفريـقيـــا	1536		التّسمية، تاريخ المدينة، موقعها، أسوارها، خندقها، أبراجها، مرساها، بعض حصونها، الباستيونات، حاميتها، بنايات المدينة، قصورها، ساحاتها وأزقّتها، مسجدها الكبير، شرب أهل المدينة، شبكة المياه في المدينة، سهل متّيجة، استيلاء بربروس على صخرة الجزائر، سوء خاتمة هجوم شارلكانت على مدينة الجزائر.
3-الأربع كتب الأولى للبحريّة في الشّرق	نيكولاس دي نيكولاي	1551	5أيام من سنة 1551	التّسمية، وصف مدينة الجزائر، الموقع، الضّواحي، الأسوار، بعض قلاعها، القصر الملكي، منازلها الخاصّة، حمّاماتها الكثيرة، حاناتها العموميّة، أسواقها المنظّمة، مسجدها الكبير، ميناؤها، سكّانها، سهولها، جبالها، وديانها، فواكهها، حبوبها، حدائقها خارج الأسوار، ماء شرب أهل المدينة، بعض العادات والتّقاليد في اللّباس والتّزيين، المدينة بين الملك الكاثوليكي فرديناند وخير الدّين بربروس.

4-سارفونتس ميخائيل	سيرفانتس في الحامة	1577	حوالي خمس سنوات 1577-1581	موقعها، تاريخها، بنياها، مرفأها، سوق النّخاسة، باب عزّون، مستودعات ولوازم بناء السّفن، باب البحريّة، محكمة العبيد، مبنى الجمارك، البطّاريات الموجودة بالقرب من الميناء، عين بالميناء، الشّارع الرّئيسي، القصر، بعض العادات الاجتماعيّة، وجود اليهود بالمدينة، العدالة، بعض العادات السّياسيّة، الدّنوش، كيفيّة استقبال باي قسنطينة، السّجن، أبواب المدينة، المقابر، المدارس، الثّكنات، الفنادق، وصف منزل مهم في مدينة الجزائر.
5-طبوغرافيا والتّاريخ العام لمدينة الجزائر	ديغو دي هايدو	1578	حوالي أربع سنوات 1578-1581.	تأسيس المدينة، التّسمية، مختلف القيادات الّتي حكمت المدينة، كيفيّة سقوط الجزائر تحت حكم الأتراك، أسوارها، أبوابها، ثكناتها وحمايتها، خندقها، أبراج المدينة خارج الأسوار، منازلها وشوارعها، سكّانها، انكشاريّة المدينة، الآغا، مختلف الرّتب، عادات الانكشاريّة في الحرب وفي السّلم، قراصنة المدينة، عاداتهم وتقاليدهم، عدد القراصنة وعدد السّفن في عام 1581، تجّار المدينة، حرفيّوها، لباس مسلمي المدينة العامّة والخاصّة، مرابطو المدينة، اليهود، اللّغات والنّقود المستعملة، بعض الاحتفالات، النّساء في المدينة، وصف منازلهم، أعياد المسلمين واحتفالاتهم المشهورة في السّنة، بعض الملاحظات المسجّلة عن عادات المسلمين، بعض الإيجابيّات الموجودة عند الأتراك والموريّين في المدينة، العادات المتّبعة في المآتم والجنائز، بعض المؤسّسات العامّة والعيون في المدينة،

				هواء المدينة، الحدائق خارج أسوار المدينة وخصوبتها، حكومة المدينة، العادات المحصّلة لسادتها.
6-النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة	أبي الحسن علي التّمقروتي	997هـ /998 هـ 1588 م	بضعة أيام	التّسمية، العدد، الحماية، الخصوبة في الضّواحي، كثيرة الأسواق، كثيرة الجند، حصينة، أبراجها، المسجد الجامع، المذاهب في المدينة، مرسى المدينة، ريّاسها، مدح مدينة الجزائر، طلبة العلم، الكتب في المدينة، قبور الأولياء، الهديّة الموجّهة من الجزائر إلى السّلطان العثماني، حادثة استيلاء النّصارى على سفينة الهديّة، الرّايس أرنط مم، ثمّ يقتبس من كتاب أبو البقاء خالد في رحلته بعض المقتطفات عن المدينة.

ب- مصادر الرّحلة والأسر في القرن 11هـ/17م (1621-1697):

مصدر الرّحلة	صاحب الرّحلة	سنة الرّحلة	مدّة الإقامة في المدينة	المواضيع المذكورة في مصدر الرّحلة
1-أسير في مدينة الجزائر	جاو ماسكارينهاس	1621-1625	حوالي خمس سنوات	مجيء الأسرى القدامى لزيارة الأسرى الجدد، بيع الأسرى في سوق العبيد، بعض النّصائح المقدّمة للأسرى، المنظر العام لمدينة الجزائر، ثكناتها، مساجدها، سجون الأسرى المسيحيّين، اليهود، الحمّامات العموميّة، الخندق والسّور، المرفأ، باستيونات ضواحي المدينة، الأبراج خارج الأسوار، الجنائز، حدائق الرّيف المحيطة بالمدينة، حكومة الأتراك، عائدات المدينة، سلطة المدينة، الدّيوان، نقيب الانكشاريّة، تنظيم الأتراك في الحرب.
2-رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق	أحمد أبو العبّاس المقرّي	1027هـ-1627م	بضعة أيّام	المقرّي مع مجموعة من علماء المدينة منهم ابن راس العين، سعيد قدّورة يكتب للمؤلّف ملغزا في القوس، أبيات شعريّة من المقرّي في مدحه المدينة وبعض من علمائها، سعيد قدّورة يكتب للمؤلّف ملغزا، المقرّي يجيز ابن القاضي.
3-تاريخ برباريا وقراصنتها	الأب دان	1634	حوالي سبعة أشهر	مدينة الجزائر والتّسميّات المتعدّدة الّتي أعطيت لها وما يلاحظ فيها،

الكتاب الثّاني				قدم المدينة، وصفها، حدائقها، بناياتها ومساجدها، أبوابها وحصونها الأساسيّة، الحماية المستعملة، اللّغات الموجودة بها، القناصل ممثّلو الأمم، انكشاريّة المدينة، الدّيوان ومجلس الدّولة وحكومة المدينة، أشياء أخرى خاصّة حدثت في المدينة، معاهدات وتسريح أسرى وبروتوكولات سياسيّة...
4-أسرى في مدينة الجزائر	إمانويل دارندا	1642-1640	حوالي سنتين	قدم مدينة الجزائر، كيف سقطت المدينة تحت سلطة الأتراك، موقعها، شرطة المدينة، وقصص عن بعض الأسرى والمتديّنين، عادة البكاء على الميّت، عادة الزّواج في مدينة الجزائر، كيفيّة التّداوي دون جرّاح، معظم الحديث عن الأسر وبعض الأسرى وحالاتهم الخاصّة.
5-يوميات رحلة إلى مدينة الجزائر	توماس هيز	1676-1675	بضعة أشهر	إجراءات التّعامل في الميناء وتحيّة السّفن بالطّلقات، رد أبراج وحصون المدينة بالتّحيّة بثلاث طلقات، وجود الضّبّاط السّامون وترجمان الدّاي، وصف محمّد التّريكي داي الجزائر، وصف القصر، اللّغة المتداولة، حسن وكرم الضّيافة عند الأتراك، وصف إقامة قنصل بريطانيا خارج أسوار

				المدينة، النّقود، المقابر، زيارة القنصل البريطاني لتوماس هيز، رمضان، عين السّلطان، الأسرى في المدينة، معبد اليهود، يوم العيد، اللّباس، نقاش حول المسائل الاقتصاديّة بين فرنسا والجزائر "التّجارة خصوصا"، وصف الدّيوان والباشا.
6-مذكّرات شوفالييه دارفيو	شوفالييه دارفيو	1675	بضعة أشهر	وصف الميليشيا، المملكة، الحكومة، والّذي حدث فيها من سنة1660 إلى غاية 1675، مدينة الجزائر وإقليمها، حكومة المدينة، الميليشيا، المجلس الأعلى للمدينة، عدد أفراده، وظائف الضّبّاط في الجمهوريّة، طريقة الجزائريّين في القرصنة، تقسيم المستوليات وافتداء الأسرى، أنواع التّعذيب المستعمل في المدينة، لباس الرّجال، النّساء والمتزوّجين الجدد.
7-جوزيف بيتس	رحلة الحاج يوسف	1695	كان مقيما في مدينة الجزائر	العادة المتّبعة في مدينة الجزائر أثناء الرّحلة إلى الحج، الموظّفون لا يسمح لهم بالذّهاب إلى الحج إلّا بإذن الدّاي، عقوبة الموظّف الّذي يذهب إلى الحج دون إذن السّلطة، بعض الإجراءات المتّبعة في العلاج من الدّمل...
8-نشر أزاهر	ابن زاكور	1682-1680	حوالي سنتين	وصف مدينة الجزائر ومدحها،

البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان	الفاسي			ذكر أبي حفص عمر بن محمّد المانجلّاتي الجزائري، مدح ابن زاكور للمانجلّاتي، نص إجازة المانجلّاتي لابن زاكور، ذكر الشّيخ علي بن عبد الواحد السّجلماسي الأنصاري، ذكر الشّيخ سعيد بن براهيم قدّورة، ذكر أبي عبد الله محمّد بن عبد المؤمن الجزائري، قصيدة في مدح محمّد بن عبد المؤمن، نص إجازة أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن لابن زاكور، أرجوزة لهذا العالم في العقائد والعبادات، إجازة أبي عبد الله محمّد بن سعيد بن إبراهيم قدّورة للمؤلّف، ذكر أبي عبد الله بن خليفة، أبيات في مدح هذا الشّيخ، خروج المؤلّف من الجزائر وتأسّفه عن فراقها.
9-مذكّرة حول مدينة الجزائر سنة 1695	بوتي دو لاكروا	1695		قدم مدينة الجزائر، الأتراك نودي بهم إلى الجزائر في 1504، عدد الباشوات، الثّغريين، ثراء الباشوات، سلام مع فرنسا في سنة 1666، تريكي أوّل داي لمدينة الجزائر في 1670، القصر الملكي، الدّيوان، الآغا، بعض الضّبّاط والموظّفين، درب الشّرف، ثكنات الانكشاريّة، بايات الجزائر الثّلاثة، عائدات المملكة،

				المدارس، المساجد، السّجون، النّساء، النّقود، بعض القوانين الّتي هي موجودة في المدينة...
10-رحلة الجامعي	الجامعي	1697	بضعة أيام	يتحدّث عن الأديب الماهر ابن علي، بالمدينة قرّاء نجباء وعلماء أدباء، وخطباء كثر، المكاتب مملوءة بالأطفال، علم النّحو، الفقه، الحديث، إحياء ليلة المولد النّبوي الشّريف، بها مائة مكتب ملأى بالأولاد، يتعلّمون بها القراءة والكتابة ويحفظون القرآن... وكانوا بعدد كثير.

ج- مصادر الرّحلة والأسر في القرن 12هـ/18م (1718-1790):

مصدر الرّحلة	صاحب الرّحلة	سنة الرّحلة	مدّة الإقامة في المدينة	المواضيع المذكورة في مصدر الرّحلة
1-تاريخ مملكة الجزائر	لوجي دي تاسي	1718	5 أشهر ونصف	موقع وموضع مدينة الجزائر، مؤسّسات مدينة الجزائر، حمّامات مدينة الجزائر، خارج المدينة، ريفها، انكشاريّة المدينة، حكومتها، قوّاتها، الدّاي أو ملك الجزائر، الآغا والضبّاط الآخرين في الميليشيا، الخوجات، القاضي، الخزندار وباقي الضبّاط، العدالة المدنيّة والإجراميّة، النّقود، المعسكرات وتسييرها، وطريقتها في الحرب، بحريّة الجزائر وسلاحها، المستوليات والمبيعات، بيع الأسرى وكيفيّة الغداء، السّكّان الأجانب في الجزائر، التّجارة، السّلع الواردة، الصّادرات، العائدات، أهميّة جمهوريّة الجزائر بالنّسبة لإفريقيا والإمارات المسيحيّة.
2-رحلة الطّبيب شو	توماس شو	1720-1732	حوالي 12 سنة	وصف مقاطعة الجزائر، حكومتها، الدّاي، الآغا والضبّاط الآخرين في الميليشيا، انكشاريّة الجزائر، قوّتها ووصفها، تكويناتها أجرتها، ثكناتها (معسكراتها) طريقتها في القتال، ملاحظات مختلفة، وفي عنصر وصف مقاطعة الجزائر،

				تحدّث عن مرافق ومنشآت المدينة كما أعطى مقتطفات عن الحياة الحضريّة في المدينة.
3-رحلة الآباء لافتداء الأسرى	فرانسوا كامولين فيليمودولاموت جوزيف برنارد	1720		مدينة الجزائر، تسميتها، موقعها، منازلها، شكلها، مرافقها العمرانيّة وبعض من منشآتها، سكّانها، ميناؤها، مساجدها، مدارسها، ضواحي المدينة، الحصون والأبراج، حكومتها. ديوانها، القضاء والعدالة ما بين الأتراك والموريّين، علاقة الدّاي بالموريّين، الميليشيا، الثّكنات، الأكل، السّلاح، البايات، العائدات، المجتمع، البحريّة، في مقابلة داي الجزائر، افتداء حوالي 603 أسير.
4-رحلة في إيّالة الجزائر وتونس	جين أندري بايسونال	1724	سنة واحدة	رأي في قدم مدينة الجزائر المندثر، موقع المدينة، حصونها، ميناء الجزائر، حصن الفنار، العيون داخل المدينة، المساجد، السّجون، الثّكنات، بيت الملك، القناصل، ممثّلي الأمم، حماية المدينة، زلزال أرضي، خارج أسوار المدينة، المصريات في ضواحي المدينة، حفلة الدّاي المقامة على شرف بايسونال، تغيير جنود الحاميات وكيفيّته.
5-رحلة من باريس إلى الجزائر	السيّد طولو	1731	8 أيام	الدّخول إلى الميناء والبروتوكولات المتّبعة في هذا الشّأن، كيفيّة

				استقبال الدّاي عبدي باشا للسيّد طولو ورفاقه، وصف عبدي باشا، في القصر، مسائل تجاريّة وقرصنيّة، سكّان ضواحي المدينة، حماية مدينة الجزائر، تنظيم الأتراك، إجراءات سياسيّة واجب اتّباعها في القصر، رسائل موجّهة إلى سلطات البلاد.
6- الكامل في تاريخ الجزائر والأقاليم التّابعة لها منذ استيلاء الأتراك عليها	جوزيف مورقن	1731		الجزائر في القديم، أسماؤها، الثّورات الّتي وقعت فيها، ثمّ يذكر كل من حكم بلاد الجزائر من عرّوج إلى غاية خضر باشا وتحدّث عن القوّة البحريّة، فيه الكثير عن الحياة الحضريّة وكل ما تعلّق بأعمال وإنجازات الباي لاربايات والباشوات وحتّى الآغوات.
7-رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732	ج.أو.هابنسترايت	1732	5أشهر	تسمية البلاد الجزائريّة وتحديد موقعها، نبذة عن تاريخ المملكة، أصول سكّان الجزائر ومكانة الأتراك المتميّزة، الحضر واليهود، الأسرى المسيحيّون، مدينة الجزائر، موقعها، تحصيناتها، منازلها، حمّاماتها، مساجدها، العدالة والقضاء، وضعيّة الدّايات وتعرّضهم للاغتيال، خزينة الجزائر، فدية الأسرى والغنائم، تنظيم الدّيوان وإدارة المقاطعات، عادات وتقاليد الجزائر، حريّة الأسرى

				المسيحيّين، رمضان، مراسم العيد، ضواحي المدينة، الخروج مع المحلّة إلى متّيجة والبليدة...، استعداد حكومة الجزائر لصدّ الهجوم الإسباني، تأثير هذا الوضع على هابنسترايت، استقبال الدّاي لهابنسترايت وإعطائه رسائل لإكمال مهمّته العلميّة.
8-يا الورشان اقصد طيبة	ابن المسيّب	1737	بضعة أيام	زيارة سيدي عبد الرّحمان الثّعالبي، قدم منازل مدينة الجزائر، تسمية مزغنّة، الرّاحة والتّمتّع، على شكل أبيات شعريّة في مدح المدينة والثّناء عليها.
9-لسان المقال في النّبأ عن الحسب والنّسب والحال	عبد الرّزّاق ابن حمادوش	(1156هـ-1160هـ) 1749م	عاش في مدينة الجزائر في ق18.	التّهرّب من المكس في الجزائر عند عودته من المغرب، ختان ابنه، بيعه لقماش الملف، تدريسه الحبّاك لقاضي قسنطينة، رفض النّصارى فدية الجزائريّين، رفض استقبال سفير عثماني في الجزائر، المدارس، الحجر الصّحي على مركب حجّاج، وظيفة حضور البخاري، الصّلاة المعهودة في الجزائر عقب ختم البخاري، عادة أهل الجزائر ليلة القدر، ذكر بعض الألغاز، حاكم تونس وحاكم تطوان في الجزائر، وفاة أحد أبنائه وتعزية العلماء له، علماء المدينة (محمّد بن حسن، ابن ميمون، ابن علي،

				ابن عمّار)، قراءة البخاري بالجامع الكبير، ميزان الماء، باشوات الجزائر، وفاة إبراهيم باشا، الصّلح بين الجزائر والدّنمارك، تآليف ابن حمادوش المتعدّدة.
10-مملكة الجزائر في القرن الثّامن عشر	دالنسو كانو	1768-1770	حوالي سنتين	مؤرّخي الجزائر والخلاف في وصفها، التّسمية، القدم وموقع المدينة، وصف المدينة، مؤسّساتها وسكّانها، سورها، حمايتها وحصونها، الأبراج في الميناء والضّواحي، فرقها وقوّتها البريّة، سلاحها وقوّتها البحريّة، الدّاي رئيس المملكة، الطّائفة ووزراء الحكومة، الدّيوان، الحالة العسكريّة للجزائر، ضبّاط الفرق ونياشينهم المتعدّدة، البايات وحكومة باقي البلاد (المملكة)...
11-الجزائر في 1781 مذكّرات القنصل فاليار	القنصل فاليار	1781		مدينة الجزائر، قصر الدّاي، حكومة الجزائر، انتخاب الدّاي، المؤامرات، وزراء وضبّاط المملكة (الإيّالة)، الدّيوان، الباشا، السّكّان، العادات المتنوّعة للسّكان، اللّغات، تقسيم المملكة، الشّرطة، الشّواش، سياسة الأتراك نحو الموريّين، وطريقتهم في الاستعباد بالقوّة وبالتّواضع لمن مثلهم، مستشفى المدينة، دخول البايات إلى الجزائر،

				قوّات المملكة زمن السّلم وزمن الحرب، أجرة الجنود، طريقة معالجة القضايا مع الجزائريّين، إنتاج الجزائر، الزّراعة، التّربية، المدارس، الزّنوج، انصراف الحجّاج إلى مكّة، الدّين، الخرافات، السّحر، المرابطون، المساجد، التّسامح، المآتم والقبور، مكّة، مسيحي وجد مع محمّديّة (مسلمة)، الزّواج، النّساء، المجنّدون، الحصون، البحريّة، سلاح القرصنة، صناعة المسبك، الماليّة، المرتدّين، الحمّامات، من الأمم في سلم ومع الجزائر ومن الأمم في حرب مع الجزائر، القيصريّات أو الثّكنات...
12-رحلة الضّابط الرّوسي إلى شمال إفريقيا	كوكوفتسوف	1787	سنة واحدة	اسم دولة الجزائر، تغيّراتها في التّاريخ، حكومة الجزائر، اللّغة، بعض السّكّان في المدينة، اليهود، الإنجليز، الإسبان...، الوظائف العليا، الدّيانة، العادات والتّقاليد، المقاطعات الإداريّة، موقع مدينة الجزائر، حصونها ومؤسّساتها، مكوّنات الجيش البرّي، المحاكم العسكريّة والمدنيّة، تنظيم فرق الجيش البرّي، سلاح السّفن، القرصنة وتقسيم الغنائم، التّجارة والإنتاج ومواد الدّولة، النّقود،

				السّياسة الخارجيّة، طريقة بيع العبيد الأسرى.
13-رحلة الطّبيب الفرنسي ديسفونتين	ديسفونتين	1783-1786	1785(من أفريل إلى سبتمبر 6أشهر)	في مقابلة الدّاي، الجزائريّين واستعدادهم لصد هجوم الاسبان 1785، ديسفونتين يأخذ الإذن من الدّاي للذّهاب إلى غرب الجزائر تلمسان ومعسكر...سبتمبر 1785، العودة إلى الجزائر، خليج الجزائر والتّحدّث فقط عن ساحل الجزائر.
14-التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برّا وبحرا	أبو القاسم الزّياني	1786	بقي في المدينة 24 يوما أثناء ذهابه إلى المشرق. وأثناء عودته بقي فيها 7 أشهر	وجود وباء الطّاعون بالمدينة، وإصابة الزّياني به وعلاجه له، صلاة الجمعة بالمسجد، حديثه عن المرسى، حسن ضيافة أبو القاسم الزّياني من طرف الدّاي حسن باشا وموظّفيه وإرسال داي الجزائر رسائل إلى كل من داي قسنطينة ووكيله في تونس بواسطة الزّياني، كراء بيت في مدينة الجزائر، المحكمة الشّرعيّة، الحديث عن المركب الجزائري الّذي أخذه النّصارى، النّقود، عادة الأكل (أنواع المأكولات)، الحديث عن جامع كتشاوة، ومدح بانيه حسن باشا.
15-مذكّرات أسير الدّاي	جيمس ليدر كاثكارت	1785-1796	بضع سنوات 10 أعوام	حالة مدينة الجزائر، التّحصينات البحريّة، حوض السّفن، بلاط

كاثكارت				البحريّة، الممر البحري، المسجد، الفنار، برج بناه الإسبان، مقعد مدير البحريّة، تناول الغذاء، ورشات بالبحريّة، تجهيز السّفن للقرصنة، مداخل مدينة الجزائر، تحصيناتها، جمال مناظرها، قلعة السّيّد تقليلت، برج النّجم، مقبرة المسلمين، مقابر الدّايات السّبع، مقبرة المسيحيّين، مقبرة اليهود، وصف القوّة البحريّة، وصف قصر الدّاي، وصف السّاحة الّتي تقطع فيها رؤوس المسيحيّين، بلاط القصر، درج السّلم، عرش الدّاي، أبواب الخزينة، ورشة حدّاد القصر، مذبح القصر، المطبخ، جناح العبيد، الماء العذب، حمّام الدّاي، حديقة القصر، جناح الخزنادارات، أثاث القصر وتزيينه، خزينة الدّاي الخاصّة، مسجد الدّاي الجامع، وصف الجامع الكبير، المدارس، ثكنات الجيش، الكنيسة الكاثوليكيّة، وصف المستشفى الاسباني...
16-إحراز المعلى والرّقيب	أبو عثمان المكناسي	1785	بضعة أيام	وجود وباء الطّاعون بالمدينة، الإقامة خارج المدينة، التّبرّك بقبر عبد الرّحمان الثّعالبي، تعرّض مدينة الجزائر للهجوم، تحصيناتها، هجوم اسبانيا على المدينة وكيفيّة مواجهة

				المسلمين لهذا الهجوم بالإبل الكثيرة، وفاة الكثير من سكّان المدينة بسبب الطّاعون.
17-الجزائر في القرن 18	فونتير دي بارادي	1788-1790	حوالي سنتين	مدينة الجزائر، ميناؤها، حماية المدينة، إقليم الدّاي وسكّانه، الصّناعة والتّجارة في الجزائر، القراصنة، العبيد، اليولداش، الوجق، مكوّنات حكومة الجزائر، التّشريع، منزل الدّاي، ضبّاط الحكومة، ديوان الجزائر، عادات وتقاليد، طريقة معالجة القضايا، تقارب بين حكومتي مالطا والجزائر، الرّسوم والضّرائب المقدّمة للجزائر، القناصل، عائدات ثابتة، الزّاد والمؤونة، تحرير العبيد، الخروج أثناء اللّيل، المساجد والمدارس، مقاييس الشّرطة، معلومات مختلفة، إجراءات الحرب.
18-نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب صلّى الله عليه وسلّم	أحمد بن عمّار	1788	ابن المدينة عاش في القرن18م	بعض علماء المدينة، ابن علي، المانجلّاتي...، عاداتهم عند اقتراب موعد المولد النّبوي الشّريف، قرض الشّعر والنّثر والموشحات والأزجال والمدائح النّبويّة.
19-فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته	أبو راس النّاصر	1790		بعض علماء المدينة، محمّد بن جعدون (مفتي)، محمّد بن مالك (قاضي)، المجالسة في حانوت أحد الطّلبة، مفتي الجزائر الحاج علي بن الأمير، أحمد بن عمّار

				(مفتي)، محمّد بن الحفّاف (مجلس حكمه)، محمّد بن الشّاهد، جامع الجزائر الأعظم، نزول العلماء عند بعضهم البعض، التّحدّث في المسائل الفقهيّة، التّفسيريّة، اللّغويّة...
20-نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار	الحسين الورتلاني	1789		-يقرّ بأنّ سكّان القبائل المجاورين للجزائر حكم السّلطان غير نافذ فيهم لأنّهم سكنوا الجبال. - اشتهر أمر سفرنا وبلغ أمره أطراف نواحي عمالة الجزائر وقام فضلاء العامّة والخاصّة ورفع النّداء في أسواق بلدنا ولعلّ من بينها مدينة الجزائر. - كانت مدينة الجزائر مقصد سكّان القبائل لتحصيل المعيشة. - سمعت أنّ المفتي والقاضي لا يتولّى إلّا بإعطاء لهم وإنشاد لديهم وكذا من عمالة الجزائر. -والي الجزائر كان متزوّجا وصهره هو الحاج محمّد بن معمّر اللّمداني. -يقرّ على لسان أحد جلسائه أنّ سلطان الجزائر له مال كثير. -قاعدة الملك مدينة الجزائر وتحتها تونس، سلطان الجزائر.

21-الرّحلة القمريّة	ابن زرفة العمري	1790		-دخول الأتراك الجزائر. -سياسة الأتراك بعد دخولهم الجزائر. -الحملات الأوربيّة على مدينة الجزائر.
22-مذكّرات تيدنا	تيدنا (الأسير الألماني)	1790	بقي تيدنا في الجزائر ثلاث سنوات وسبعة أشهر وكان كل مرّة يأتي من معسكر إلى المدينة 4 مرّات أي 8 أيام.	-اقتياد العبيد إلى السّجن بعد نزولهم في مدينة الجزائر. -ثمّ التّوجّه إلى سوق العبيد، الدّاي يأخذ حصّته من الأسرى، يتدخّل القناصل لتسريح الضّابطين، اشتراء اليهود للعبيد، اللّغة، النّقود، حياة أسير منذ البداية. -جمال مدينة الجزائر، تلالها الخصبة، شوارعها، بناءاتها، قصر الدّاي، سهل متّيجة. -سفر تيدنا من معسكر إلى مدينة الجزائر 4 مرّات. -وجود المتسوّليين المسيحيّين في مدينة الجزائر. -حادثة افتدائه، لجوئه إلى أحد مساجد مدينة الجزائر للاحتماء بها طلبا لعودته إلى بلاده.

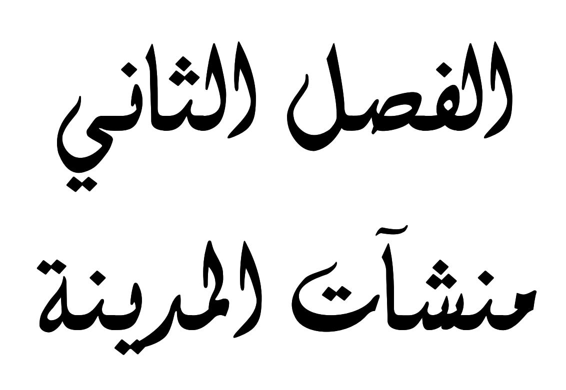
د- مصادر الرّحلة والأسر في القرن 13هـ/19م (1814-1830):

مصدر الرّحلة	صاحب الرّحلة	سنة الرّحلة	مدّة الإقامة في المدينة	المواضيع المذكورة في مصدر الرّحلة
1-يوميات أسير في الجزائر	جيريت ميتزون	1814-1816	حوالي سنتين	ميناء مدينة الجزائر، لباس بعض العثمانيّين، القصر الملكي، لباس الباشا، المحادثة، السّجن، لباس المسيحي العبد، الحانة داخل السّجن، الأكل، وصف سجن البايلك، الحياة داخل السّجن، وصف باب القصر، كيفيّة التّحيّة، وجود فرق موسيقيّة على شرفة القصر، عمل العبيد في المرفأ، عادة يوم الجمعة لدى العبيد، حملة اللّورد اكسماوث على مدينة الجزائر 1816 وآثارها.
2-مذكّرات أو لمحة تاريخيّة في الجزائر	سيمون بفايفر	1825-1830	حوالي خمس سنوات	-الوصول إلى مدينة الجزائر، وصفه للمدينة وبعض مرافقها ومنشآتها، الأوضاع في المطبخ، الفرار، تحوّل المصير من طبّاخ إلى طبيب خاص للخزناجي، مشاكل عديدة في القصر، قطع العلاقات مع فرنسا، معركة بين أسطولين، حوادث وانشغالات، تعلّم بفايفر اللّغة العربيّة، أحداث وقعت بالجزائر، استعداد الجزائريّين للحرب وأخطاء الدّاي المرتكبة، حادثة المركبين الفرنسيين، أوضاع الجزائر قبل 1830، نزول الفرنسيّين إلى البر

				وانتصارهم، ظروف بفايفر في خضم هذا الانتصار...
3-مذكّرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر	وليام شالر	1816-1824	حوالي تسع سنوات	موقع مدينة الجزائر، امتدادها، طوبوغرافيّتها، تحصيناتها، حاميّتها، حكومتها المدنيّة والعسكريّة، ثروة السّكّان، أمن الأشخاص ورخاؤهم، أنواع السّكّان ومميّزاتهم، حالة العلوم والمعارف، تعلّم الأطفال وتربيّتهم، الملابس، جمال النّساء، تحسّن عادات المسلمين، طريقة لباسهم وغذائهم، اليهود وأحوالهم في المدينة والظّلم الّذي يعيشون فيه، الإفريقيّون في المدينة، الفنون، المنتجات، المنازل، الطّرق، الأحياء السّكنيّة، الخوف والخرافات عند الجزائريّين، المباني العموميّة والمؤسّسات الدّينيّة، حالة العبيد المسيحيّين، التّجارة، حياة البذخ في الجزائر وآثاره، مجمّع الوكلاء الأجانب، سهل متّيجة، الموازين والمقاييس.
4-رحلة عبد الرّحمان بن إدريس	عبد الرّحمان بن إدريس	1816	37 يوما	الوصول إلى مدينة الجزائر، الاجتماع بقاضي المالكيّة، وصول الأسطول البريطاني، التّظاهر بالصّلح، كتاب قائد الأسطول، حرق السّفن الرّاسية بالمرسى، أثر الحملة على المدينة، مدّة الصّلح، التّخريب النّاتج عن الحملة، أهميّة برج الفنار، إعادة بناء

				ما خرّبته الحملة، وصف عمر باشا، الخروج من الجزائر والعودة إلى تنلان، تعليق الرّحّالة على الحملة (حملة اللّورد إكسماوث).
5-رحلة الضّابط الألماني إلى الجزائر	شونبيرغ	1830	بضعة أشهر من سنة 1830	شونبيرغ في الجزائر سنة 1830، المعارك المشارك فيها، دايات الجزائر من الدّاي مصطفى 1798-1805 إلى أحمد خوجة، علي باشا، الحاج علي باشا، الحاج مصطفى، عمر باشا، علي باشا، حسين باشا، يذكر معلومات قيّمة عن الحياة في المدينة في عدّة جوانب سياسيّة، اقتصاديّة، اجتماعيّة، عسكريّة.
6-الجزائر من خلال رحلة النّقيبين روزيه وكاريت	رحلة الضّابط روزيه	1830		مدينة الجزائر وضواحيها، موقعها، منازلها، حصن الميناء، مساجدها، ثكنات الانكشاريّة، القصبة، سكّان المدينة، ضواحي المدينة، متّيجة، البليدة، القليعة...
7-العود الجزائري	علي المرالي التّونسي	1830		المقدّمة النّجيبة في كلام الوصيّة الغريبة، عرّوج، أهل خير الدّين، لمبرادور، الدّايلار، فساد نظام الحكم العثماني وكثرة الاغتيالات، الوزراء، الدّيوان والقضاء، الدّاي حسين والحملة الفرنسيّة...، دخول الفرنسيّين إلى الجزائر، رحيل الدّاي حسين من الجزائر.

8-رحلة طريفة في إيّالة الجزائر	ليسيور وويلد	بعد 1830		عبارة عن رسومات لمناظر ومرافق ومنشآت مدينة الجزائر نذكر منها: منظر عام لمدينة الجزائر، نهج باب الوادي، باب عزّون، المسجد، داخل المنزل، سوق باب عزّون، المدرسة، مدخل البيت، حمّامات الدّاي، فندق البحريّة، ضريح سيدي فرج، صيوان القصبة...



الفصل الثاني
منشآت المدينة

1- القصبة مقر إقامة الحاكم

2- القصور والمنازل

3- الشوارع والأحياء

1- القصبة مقر إقامة الحاكم:

يقول ابن منظور عن القصبة: «قصبة البلد مدينته وقيل معظمه. وقصبة السّواد مدينتها. والقصبة جوف الحصن يبنى فيه بناء هو وسطه. وقصبة البلاد مدينتها، والقصبة القرية، وقصبة القرية وسطها»7[1].

من هذا التعريف قصبة الجزائر هي مدينتها، ووسط هذه المدينة تقريبا تمّ بناء الحصن، وهذا ما يقودنا إلى مكان إقامة الحاكم، ولعلّ هذا ما يقودنا أيضا إلى تعريف الحصن.

ويقول ابن منظور في هذا الشّأن: «الحصن: حصن المكان يحصن حصانة، فهو حصين: منيع، وأحصنه صاحبه وحصّنه. والحصن كلّ موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه والجمع حصون...»[2]، ولهذا السّبب تحدّثت مصادر الرّحلة الأوروبيّة والعربيّة كثيرا عن مكان إقامة الحاكم في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وبقدر ما اختلفوا في ذكر التسمية، فمنهم من يسمّيها القصر الملكي، منزل الدّاي، قصر الجنينة، منزل الملك، قصر الدّاي ودارالإمارة... فقد اتّفقوا على ذكر بعض تفاصيلها، كلّ رحّالة حسب اهتمامه وملاحظاته من جهة أو حسب منقولاته ومرويّاته من جهة ثانية، غير أنّ هناك صنفا ثالثا من أصحاب مصادر الرّحلة من لم يتحدّث عن مكان إقامة الحاكم إطلاقا، لا كقصبة، ولا كقصر، ولا كمنزل ولا غير ذلك، ومنهم الرّحالة حسن الوزّان الّذي حلّ بالمدينة سنة 1516، ولعلّه من الأسباب الّتي أدّت بهذا الرّحالة إلى عدم ذكر مكان إقامة الحاكم، هو أنّ مدينة الجزائر مازالت لم تخضع بعد إلى العثمانيّين هذا من جهة ومن جهة أخرى هو ظرف الصّراع الّذي وجدت فيه المدينة حينها، بين سليم التّومي وبربروس من زاوية وبين سكان المدينة وإسبانيا من زاوية أخرى[3]،

غير أنّ الرّحالة الإسباني مارمول كاربخال ينبّئنا بذلك الحديث الّذي دار بين رسول الإمبراطور وحاكم الجزائر[4]حسن آغا[5] حينها، حيث طلب الإمبراطور الإسباني سنة 1536 من هذا الأخير

---

[1] – جمال الدين أبو الفضل ابن منظور، **لسان العرب**، المجلّد الخامس، مادّة قصب،دار صادر،بيروت، ص95.

[2]– نفس المصدر، المجلّد الأوّل، مادة حصن، ص655.

[3] – حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص ص38-39.

[4] – مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص ص366-367.

[5] – حسن آغا، ثالث حاكم في مدينة الجزائر، أسر قبل ذلك من طرف خير الدّين في ضواحي سردينيا، تقلّد منصب حاكم الجزائر من 1535 إلى 1541، وأظهر براعته في ذلك.

Diego de Haedo**, Histoire des Rois D'Alger,** trad de l'espagnol par H.D de Grammont, ed, Grand Alger livres, Alger, 2004, pp 70-71.

تسليم المدينة، ولا شكّ أنّ اللّقاء كان في مكان إقامة الحاكم أي بقصر الجنينة، فكان جواب حسن آغا بمعيّة أتراك وآخرين ما يلي: «... من الحمق أن يشرك المرء عدوّا في تدبيره، وأقبح من ذلك أن يركن لما يقدّم العدو من نصائح، فبأيّ حق يريد الإمبراطور أن يأخذ هذه المدينة»[1]وكان ردّ الرّسول: «بمشيئة هذا الجيش الّذي لا يهزم، والّذي تشهدون بأنّه قد انتزع من سيّدكم مدينتي تونس وحلق الوادي، وأجاب الحاكم مؤكّدا بأنّه سيدافع عن مدينته أحسن ممّا دافع الآخرون، ولا يستبعد أن يهلك جيش إسبانيا هذه المرّة مادام قد انهزم أمام الجزائر مرّتين فيم مضى، وبعد ذلك أمر الرّسول بالانصراف...» [2] فإن كان هذا وجه من أوجه الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، وفي أهم منشأة بها، ألا وهي قصر الجنينة وبالتّحديد في أيّام حسن آغا، الّذي أبى إلاّ أن يدافع عن المدينة رغم وعود الإسبانيّين الكثيرة وهي تأكيد على التّمسّك بها والذّود عنها مهما كانت الظّروف، ولعلّ أقدم وصف لقصر الجنينة هو ذلك الّذي يعود إلى الرّحالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي، حيث كتب عبارات تنمّ عن وصف دقيق لهذا القصر سنة 1551، حيث يقول: إنّ قصر الباشا يقع وسط المدينة في هذه الفترة، لا يرتفع عن شارع كاتاروجيل، ندخل إليه أوّلا إلى ما يسمّى بالفناء، والّذي بدوره يوصلنا إلى فناء ثان أقل من الأوّل وفي وسطه حوض مسمكة صغير مربّع محاط بمقاعد، بلاطه مربّعات خزفيّة، كما توجد به نافورة كبيرة لخدمة المنزل من الماء[3] ويؤكّد هذا الرّحالة -الّذي لم تدم إقامته في المدينة إلّا بضعة أيّام- بأنّ القصر الملكي مميّز وجميل، مثله مثل بعض البنايات[4].

ولعلّ كلمة قصر الجنينة، تفسّرها معلومات هايدو، الّذي يقرّ بوجود حديقة صغيرة وجميلة في المنزل الملكي "maison Royal" وهي الوحيدة في المدينة الّتي لديها هذه الخاصيّة [5]، وتكاد تتّفق معظم مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه الخصوص، بأنّ كل منازل مدينة الجزائر خلال العهد العثماني لديها نفس الشّكل تقريبا مع بعض الفروقات في التّزيين والزّخرفة ليس إلّا، لكن تبقى خصوصيّة إقامة الحاكم تنفرد ببعض السّمات دون غيرها، من منازل هؤلاء الريّاس والقادة الّذين ذكرهم هايدو[6].

لم نسجّل حضور قصر الجنينة عند بعض الرّحالة أيضا من أمثال السّفير المغربي التّمقروتي، ولا

---

[1] – مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص367.

[2] – مارمول كاربخال، المصدرالسابق، ص367.

[3]-Diego de Haedo**, Topographie…,** op.cit, p220.

[4]- Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

[5]-Diego de Haedo, op.cit, p220.

[6]-Ibid, p221.

المقرّي ولا حتّى عند الأسير الإسباني سيرفانتس ولا ماسكارينهاس وقد يكون هذا سببه ظرف كلّ واحد منهم واهتماماته بمسائل أخرى تتعلق بحياته والهدف من رحلته، لكن سجّل حضورا عند الأب دان، الّذي يصرّح بأنّ أجمل ما في مدينة الجزائر هو منزل الباشا أو نائب الملك والّذي هو تقريبا وسط المدينة، وفيه كلّ الأشياء الملاحظة، رواقين صغيرين الواحد فوق الآخر، مدعومين بأعمدة كثيرة رخاميّة وبصفّين مزدوجين وبفسيفساء مجمّلة، بالموازاة توجد ساحتين في الأسفل، الأولى أوسع من الثانية، محاطة بالأروقة والممرّات أين تتمّ جلسات الدّيوان(1)، وغير بعيد من النّاحية الزّمنيّة عن الأب دان الّذي كان في المدينة سنة 1634، نجد الأسير إيمانويل دارندا سنة (1640-1642)، يعترف بأنّ قصر الباشا بناية عموميّة، وهذا القصر يأخذ على عاتقه هذه المسؤوليّة، وهو قوي ومبني جيّدا بطريقة حديثة، فيه خمسة مساكن كبيرة ومنشأة مربّعة الشّكل، بها ساحة كبيرة وفي وسطها ساحة السّلاح... ثمّ يردف قائلا بأنّ القصر الّذي يسمّى القصبة، ولا شيء آخر في هذه المدينة يقع في الوسط...(2)، إنّنا لا نشكّ في الوصف المعماري للقصر من طرف مصادر الرّحلة الأوروبيّة بقدر ما نشك في ذكر الحياة في هذا القصر من طرف نفس أصحاب مصادر الرّحلة، ولعلّ هذا ما يقودنا إلى ذكر ما شاهده توماس هيز الفرنسي في هذا القصر سنة 1675، حيث يقول: في القصر الملكي يجلس محمد تريكي(3) على أريكة في زاوية قريبا من وزارته (ديوانه)، وهناك أشخاص كثر بصدد الكتابة، وينظرون إلى ما يحدث، وفي الجانب الآخر ضباط أتراك كثيرون يجلسون، بالإضافة إلى الضابطين الّلذين أوصلانا، الترجمان تكلم معي –أي مع توماس هيز– ورحّب بي وأثنى عليّ... تواصلت معه باختصار على عادة البلد(4)، ثم بين القصد من رحلته الرسمية والمتمثل خصوصا في عقد اتفاقية سلام مع الجزائر. المهم في القضية أنّ هناك بروتوكولات رسمية كانت تؤدى قبل ملاقاة الحاكم، فهناك الضابطان، وهناك الترجمان الفرنسي لمعرفة المغزى من الزيارة إلى أنّ يقف بين يدي الحاكم، حيث يردف قائلا أيضا: وجدناه جالسا على طريقة الأتراك على وسادة حرير موضوعة فوق البساط، وكان في قاعة استقبال مربعة دون سقف، أين توجد هناك نافورة تصب في حوض مربع، وعلى الجوانب توجد أشجار البرتقال والليمون، وهي دلالة على أنّ لهذّا الرجل ذوق مقبول (حسب قول هيز)، وطلب المترجم من توماس هيز ورفيقه نزع حذاءيهما على عادة أهل البلد، وفيما بعد أجلسا على أريكتين مغطّاتين بالحرير، والترجمان جالس على البساط قريب منهما بكل

---

(1)-P.P.Dan,op.cit, P88.

(2)- Imanuel D'Aranda, op.cit, p98.

(3)-Thomas Hees, op.cit, p93.

(4)- Ibid, p94.

أدب... ثم قدم عليهما تركي ناولهما كؤوس بن، وبعدها كؤوس ليمون من فضة يشربونه كل حسب دوره، وبعدها طرحا القضية على الحاكم محمد التريكي بمحضر ديوانه. وبعد رفع الجلسة أخذ هيز ورفيقه إلى الغرفة المخصّصة لهما للمبيت والراحة، وهناك تواصل معهما القنصل البريطاني[1]. وفي اللقاء الثاني الذي تم أيضا مع هيز ومحمد التريكي يذكر الرحالة الفرنسي بأنّ محمد التريكي كان جالسا على كرسي مغطى بقماش في نفس المكان السابق، وكانت بجانبه مروحة ورقية... وطلبنا منه وصلا لرسائلنا، بحيث كان قد وعدنا به قبل ذلك، في هذه الأثناء قام الترجمان بترجمته بكل احترافية وبراعة، وقلنا بأننا موجودون هنا في مدينة الجزائر، حتى يسمح القانون لنا بالتجارة في الجزائر، بالإضافة إلى حاجة البواخر الفرنسية في التعبئة والتزود بالماء من ميناء الجزائر[2].

ونستشف من المشهد الذي يصوره لنا هيز عن الحياة في قصر الجنينة أمورا عدة وهي:

- الحراسة الأمنية له ولمرافقه.
- كيفية التواصل بوجود الترجمان الفرنسي بحكم أنّ هيز لا يحسن الفرنكية.
- ضرورة التّحلّي بنفس عادات البلد في الاستقبال ونزع الحذاء...شرب القهوة واللّيمون...
- مكان انعقاد الدّيوان وكيفيّة الجلوس فيه بين الكتّاب والضّباط.
- الاهتمام بالوفود الخارجيّة والرّسميّة وضرورة تكريمها "المسكن، المأكل والمشرب"

لم يذكر جوزيف بيتس القصر ولا الحياة فيه في رحلته بل ذكر بأنّ السّفر إلى الحجّ عند الأتراك المنخرطين في الوظائف لا يكون إلّا بإذن من الدّاي [3] دون ذكره للحياة في القصر، أما الرّحالة المغربي ابن زاكور فلمّح إلى وجود قصور رائعة البناء وجميلة المنظر زادت المدينة بهجة وإشراقا[4]، ولعلّ من بينها قصر الجنينة.

لقد سجّل الفرنسي بوتي دولاكروا عدّة معلومات مهمّة في رحلته عن غنى بعض الباشاوات، والّذين منهم حسن باشا الّذي تشكلت ثروته من عدّة أدوات ووسائل حربيّة غالية الثّمن، كالخناجر، السّيوف، السّروج والخوذات... لكن لا نعرف إن كان قد شاهد ذلك أم هي مجرّد روايات؟ وعن القصر

---

(1)-Ibid, pp95-96

(2)-Ibid, p96

(3) – جوزيف بيتس، المصدر السّابق، ص23.

(4)– ابن زاكور، المصدر السّابق، ص40.

الّذي يسكن فيه الحاكم يزوّدنا بالتّسمية التّركية، والفرنسيّة فيقول: «... القصر الملكي يسمّى عند الأتراك باشا كابيسيCapisi، ومن طرف العبيد الفرنسيين منزل الملك، ومن طرف الآخرين القصا Casa delRe et le Beylic وفي هذا القصر يعقد الديوان...»[1] ويسلط الضوء على نوعية النّظام السّياسي في الجزائر، وعن ذلك الصّراع الذي كان محتدما بين الضّباط على كرسي الحكم، ويقر بأنّ محمد التّريكي هو أوّل داي يتقلّد هذا المنصب[2].

إنّ بحثنا في مصادر الرّحلة العربيّة والأوربيّة قيد الدّراسة طيلة العهد العثماني، لم تكن كلّها تتحدّث عن الحياة في القصر، من أمثال الجامعي –الرّحالة المغربي صاحب الرّحلة العلميّة– وابن المسيّب التّلمساني –صاحب الرّحلة الدّينيّة نحو البقاع المقدّسة– وابن المدينة الطّبيب الرّحالة ابن حمادوش، بالإضافة إلى كل من المغربيين الزّياني والمكناسي، ولا حتّى باقي أصحاب الرحلة الأخرى من الجزائريين من أمثال ابن عمّار والحسين الورتلاني وأبو راس النّاصر. ولعلّ أهم عامل مشترك فيما بينهم جعلهم يهملون الحديث عن القصر وعن الحياة فيه، وذلك راجع إلى الهدف الأساسي من كل رحلة، فمعظمها رحلات علميةّ دينيّة اهتمّت بمسائل العلم والعلماء وطريق الحج وكل ماله علاقة بهذا الرّكن المقدّس، وحسب رأي توماس شو فإنّ قصر الداي في المدينة الجزائر أكثر المنشآت خصوصية[3]، أمّا الطّبيب الفرنسي جين أندري بايسونال فيقدّم وصفا لهذا القصر سنة 1725، كما يصوّر لنا مشهد الحياة في هذه المؤسسة أيام عبدي باشا حيث يذكر: « منزل الملك، يسمّى منزل الدّاي، هو أيضا مؤسسة عموميّة، مخصّص للدّولة، هنا يسكن الدّاي في حالة عدم زواجه، لأنّه لو ملك نساء لكان له منزل خاص لهم، وهو مسكن كبير جدّا، فيه الرّخام، في مدخله مجموعة من الجنود للحماية، كما يوجد به مرافق يجتمع فيها الضباط، والشّواش وآخرون، في داخل المنزل هناك ساحة كبيرة مبلطة بالرّخام وفي العمق توجد الغرف، هناك صفّان من الكراسي وضعت على الجانبين أين يجلس ضبّاط الدّيوان

---

(1)- Marcel Emerit**," un mémoire sur Alger"**op. cit, pp10-11.

محمّد التّريك "Hadj Mohamd Trick" (1671-1682)

(2)-Ibid, p10

كان قد ساعده صهر بابا حسن والّذي وضعت فيه الانكشاريّة ثقة تامّة، طيلة مدّة حكمه، كثيرا من الأمم الأوروبيّة استهواها هذا الدّاي وأرادت أخذ بعض المحاسن في تجارتها في إفريقيا.

Mouloud Gaid, **L'Algerie sous les turque**,2 ed,edition Mimouni,Alger,1991, p143.

(3)-Thamas show,op. cit, p291.

ويجتمعون كلّ يوم سبت، أو أثناء مناداة الدّيوان لهم...»[1]. في كثير من مصادر الرّحلة الأوروبيّة نفس مشهد الدّيوان يروي ويذكر، رغم اختلاف أزمنة تواجد أصحاب الرّحلات في المدينة كلّها وفي القصر بالذّات، لقد أقدم جين أندري بايسونال على سرد موقف مقابلته لعبدي آغا بعد أن ذكر تخوّف هذا الأخير من عودة علي خوجة من تونس وأخذه مكانه، ولذلك إعتقد بأنّ هذا الطّبيب ما هو إلاّ جاسوس بعث بطريقة سريّة في شخص مسيحي، لذلك بعث بالشّاوش للإتيان به عاجلا، حيث يردف قائلا: « دخلت إلى منزل الملك، وجدت الداي جالسا على كرسي من عجرد وبجانب ساحة المنزل، ... شخص ضخم جالس يساعده يثقب في شيء صغير بيده، أعور، إنّ الصّبر والخوف صارا شنيعين...»[2].

يقول تقدّمت وسلّمت على يديه، ثمّ سألني لماذا لم أحضر لمقابلته؟ فقال بايسونال إنّي فرنسي ولا أعرف هنا إلّا قنصل فرنسا، فردّ عبدي: من أين أتيت؟ فقال بايسونال: من تونس عبر بونة، ثمّ قسنطينة وأضاف عبدي أسئلة: ماذا تفعل في هذه المدينة؟ فقال بايسونال: القنصل سيقول لك، ثمّ ردّ قائلا إنّني طبيب مرسول من طرف قنصل فرنسا، فقال عبدي: هل لديك رسائل؟ فردّ الطّبيب: نعم، لكن القنصل هو الّذي يقدّمها لك، بعد كلّ هذه الجلسة (جلسة الاستجواب) قدّم بايسونال رسالة من عاصم باي قسنطينة إلى عبدي آغا، فقرأها وهدأ ضميره وشكر هذا الطّبيب وقدّم له تفّاحة[3]، ولعلّ الحقيقة في ما ذكرها بايسونال في وصف شخص عبدي آغا واستجوابه له، ما يقرّ به صاحب الرّحلة الرّسميّة السّيّد طولو(1731) حيث يذكر: «الدّاي شخص في حدود السّبعين عاما، أعور العين اليمنى، عليه احترام كبير، لديه سبع سنوات وهو في الحكم، نجا ثلاث مرّات من الاغتيال...»[4]، ثمّ يأتي على ذكر جميع المقابلات الّتي حدثت مع الدّاي عبدي آغا فيما يخص سبعة جنويين تمّ الاستيلاء عليهم بالقرب من سواحل فرنسا، والخمسة عشر ملّاحا والّذين اختطفوا أيضا من تلك السّواحل، وكذا الأسيران الفرنسيّان اللّذان يعيشان عند باي وهران...

واحتدم النّقاش بين الوفد الفرنسي وعبدي آغا حول قضيّة التّاجر الفرنسي ميشين Meshein، وألحّ داي الجزائر حينها على تعويض، لما فقده مع هذا التّاجر الّذي كان يأخذ حمولات سفينته معبّأة

---

(1)- G.A. Peyssonnel, op. cit, pp252-253.

(2)-Ibid, pp256-258.

(3)-Ibid, p258.

(4)-A.Berbrugger**," un voyage de Paris a Alger"**,op.cit, p421.

بالصّوف دون دفع الثّمن[1]، واستعملها ورقة ضغط ضدّ الوفد، حتّى لا يأخذون الخمسة عشر ملّاحا فرنسيّا إلّا بضمانات.

وما تجدر الإشارة إليه أيضا في هذا الشّأن، أنّ السّيّد طولو رافق م. دولان إلى غرفة نوم الدّاي حيث يصوّر ذلك المشهد، فيقول: «قادونا إلى إقامة الرّئيس والّتي تشبه المنزل، وهي تقوم مقام غرفة نوم، (غرف موجودة أعلى السطح)، نزعنا أحذيتنا للدّخول إلى غرفة صغيرة تشبه تجويفا داخل غرفة، في هذه الإقامة الصّغيرة وهي على 12 قدما طولا و8 عرضا، عبدي كان على فراش النّوم...»[2]، ولم يشأ لا استقبال ولا سماع حديث القنصل ومرافقه (م.دولان والسّيّد طولو)، وتركت القضيّة إلى الغد، وفي صبيحة اليوم التالي بطلب من عبدي تمّ الاجتماع ثانية وحدث نفس النقاش لكن بحضور كل من القنصل ناتوار والتاجر ميشينMeshein، وأخذت القضية بعدها أبعادا خطيرة، بحيث أمر عبدي آغا بالزج بهما في السجن، لكن بعد تدخل م. دو بوكير M. De boucaire تم إطلاق سراحهما[3].

والجدير بالذّكر أنّ جوزيف مورقن يذكر بأنّ قصبة مدينة الجزائر، تمّ بناؤها من طرف ملوك تلمسان، لكي يقيم فيها ولاتهم، وعندما أصبح سليم بن التّومي زعيم المدينة جعل قصره في هذه القصبة ولكنّه لم يتمتّع طويلا بزعامته[4]، والحاصل أنّ ملوك تلمسان وملوك إفريقيّة تداولوا الخلافة على مدينة الجزائر، فتكون لمن غلب عليها [5].

إذا كانت قصبة المدينة هي القصر ومكان إقامة الحاكم، فإنّ الطّبيب والعالم الألماني الرّحالة هابنسترايت (1732)، دخل هذا القصر مرّتين أثناء حلوله بالمدينة منذ البداية وأثناء مغادرته لها، حيث يذكر بأنّ قصر الملك أي الدّاي يستعمل في نفس الوقت كقصر للعدالة، فالدّاي يجلس منذ الصّباح وحتّى المساء في أحد أركان فناء هذا القصر المستخدم كقاعة استقبال، ويمكن لأيّ شخص أن يعرض قضيّته وقبل هذا يجب أن يتخلّى عن سلاحه، ولم يتوقّف هابنسترايت عن ذكر هذا فحسب، بل يؤكّد احترام الأجانب لهذه المؤسّسة بنزع القبعة أثناء مرورهم أمامها[6].

---

(1)-Ibid, pp422-,423

(2)-Ibid, p424.

(3)-Ibid ,p424

(4)- أبو القاسم سعد الله، **"مدينة الجزائر في ..."**، المرجع السابق، ص35.

(5)- عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث**...، المرجع السّابق، ص203.

(6)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص ص38-39.

لكننا لم نجد إشارة واضحة للقصر عند ابن المسيّب التّلمساني الّذي مرّ بالمدينة سنة 1737، غير أنّنا نعتقد من خلال حديثه: «...عندهم أتمتّع وأرتاح...»[1]، يقصد بما في مدينة الجزائر حينها من مناظر ومبان وقصور ولعلّ منها قصر الدّاي.

إنّ ابن حمادوش يحيلنا إلى قضيّة أخرى، ألا وهي مبايعة إبراهيم دولاتلي وقت عبدي باشا[2]، ونحن نتساءل عن مكان هذه المبايعة، وعن كيفيّتها، فممّا لا شك فيه أنّها تمت في القصر، أو دار الإمارة كما تسمّيها بعض مصادر الرّحلة العربيّة والإسلاميّة.

إنّ الرّحالة الفرنسي كوكوفتسوف يعترف بأنّ خدم الدّاي كلّهم أسرى، وهم في أحسن حال من باقي الأسرى الموجودين في المدينة من ناحية اللّباس، الأكل، النّظافة...وغير ذلك[3]. ولعلّ هذا ما ترجمته بعض كتابات الأسرى من أمثال سيمون بفايفروكاثكارت... وغيرهما.

في اعتقادنا أنّ مصادر الأسرى نوع من أنواع الرّحلات الإجباريّة، حيث أنّ أصحابها أجبروا على الرّحلة إلى مكان ما، وبقدر ما تطول مدّة الأسر ونوعيّته وكذا حالة الأسير ودرجة اهتمامه، تزداد قيمة ما يكتبه، وإن كان هذا هو شأن كتابات الأسرى، فإنّ كتابات القناصل والمبعوثين الدّيبلوماسيّين تزيد قيمتها من حيث رسميّتها (رحلات رسمية)، وفي هذا الإطار تندرج مذكّرة القنصل سيزار فيليب فاليار (1781) الّتي قدمها لوسيان شايو (Lucien CHaillou)، وفيها الكثير عن مدينة الجزائر وعن الحياة الحضريّة فيها، وهذا ما يقودنا إلى ما ذكره عن قصر الدّاي –على حدّ ذكره–، لا شيء فاخر، الباب والدّهليز (الرّدهة) مزوّد بالحماية للأمير، وهو مكان مزيّن بالفؤوس، الدّبابيس، الرّماح الصّغيرة والبنادق... ووسائل أخرى قاتلة تدلّ على نوع من البربريّة، في العمق توجد ساحة بقيت كبيرة (واسعة)، وعلى جوانبها توجد أروقة مدعمة بركائز، هناك الأرائك، السّاعات الحائطيّة والدّقاقة (الخاصة برقاص)، وهناك كرسي العرش، ويترأس الداي المقابلات العموميّة والاحتفالات الكبيرة واحتفالات الدّولة[4]، ولعلّ الإضافة الّتي نراها جديرة بالاهتمام، هي تزيين باب القصر بالوسائل الحربيّة الّتي تعطي الانطباع الأوّلي لمشاهدها بأنّه مكان قوّة وسلطة، ناهيك عمّا يقام بداخلها من احتفالات واجتماعات ومقابلات، إن كانت هذه هي مشاهدة فاليار (Valliere)، فإنّ المبعوث الرّسمي الإسباني ألفنسو كانو

---

(1)– ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص411.

(2)– عبد الرّزاق بن حمادوش، **لسان المقال**...، المصدر السّابق، ص225.

(3). Marcel Emerit,**"description de L'Algerie…",**op.cit,p213

(4)-C.PH.Valiere,op.cit,p1.

قد سجّل الكثير عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في القرن الثّامن عشر، أثناء تأديته مهمّة افتداء الأسرى (1768) أيّام الدّاي محمد بن عثمان باشا (1766-1791)[1]، وفي حديثه عن القصر-أين يقيم الدّاي- يقول: «...مرّة دخلت القصر أين يقيم الباي، مررنا برواق صغير، مفتوح على ساحة كبيرة مثلثيّة، وفي المدخل يوجد رواق يأخذ المنظر كلّه، مشكّلا بثلاث أقواس كبيرة مرتكزة على أعمدة، البلاط بالرّخام، الحائط تحيط به كراسي حجريّة، وبالخزف مطلية، وبارتفاع متساو، وبالقرب من الزّاوية المشكّلة للكرسي الحجري على يسار من يدخل... يوجد درج للصّعود إلى الطّابق الأعلى، أين يوجد مقعد الباي أو كرسي العرش الملكي... المقعد هو كرسي حجري أيضا مغطّى بجلد الأسد ووسادة يتّكئ عليها... من يأتي ويتحدّث يجثو على ركبتيه حتّى يسلّم على يد الباي، الكلّ هنا يجلسون القرفصاء وهي عادة المسلمين، في الجهة اليسرى من المدخل المسقوف وعلى يمين الباي، يجلس الأربع خوجات والوزراء الأوائل بالقرب منه تقريبا...»[2].

لقد أفاض دالنسو كانو في الحديث عن الحياة داخل القصر، فقدّم ما شاهده من مناظر عمرانيّة تكاد تكون مفصّلة، كما أضاف ما شدّ انتباهه من طريقة العيش هناك أيّام تواجده، وتبيّن لنا أنّه كتب الكثير في هذا الشّأن، فقال: «...وسط السّاحة توجد عين عذبة جارية وبالقرب منها يوجد الخزناجي (أمين عام للمملكة) مع ضابطين يجلسون بشكل دائري على الأرض، هم بصدد حساب النّقود، لأنّ هناك وبحضور الباي تجري كل إيرادات وعائدات الحكومة، في الباقي من السّاحة وعلى جانبيها هناك أروقة صغيرة، بأقواس وتقسيمات غير متساوية، وبكراس يجلس عليها المترجمون، الشّواش، الضّبّاط الآخرون الّذين يحضرون المقابلات العامّة، أمّا الحرّاس الّذين يسمّون نوفادجي "Novadjies" فيجلسون في وضعيّة أكل على كرسيين على طرفي باب القصر وسيوفهم في أغمادها، واثنان في الدّاخل يجلسان على عتبة الباب، يحمل كلّ واحد منهما عصا غليظة في يده، حيث يمنعان كل من لا يملك استدعاء الدّخول، في اللّيل ينامون كلّهم في السّاحة على أسرّة خاصّة تحت رواق المدخل وفي اليمين حارس الخفارة...»[3]، كما تطرّق أيضا إلى وصف المخطّط الثّاني من الأروقة، وأبدى رأيه في بعض التّفاصيل، حيث ذكر بأنّه في عمق البناية يوجد منزل الباي دون أي اتصال بالساحة، إلاّ بواسطة سلالم، وهي

---

[1]- أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدّولة والحياة العامّة في عهده**، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر 1986.

[2]- D'Alonso Cano,op.cit, p91.

[3]-Ibid, p92.

ضيقة جدا بحيث لا يستطيع اثنان الصعود معا، وإذا التقى اثنان يسند أحدهما ظهره إلى الحائط، وفي بداية هذا السّلم الضّيق مكان مخصّص لحارس اللّيل، لأنّه في النّهار غير موجود[1]، ولعلّ لهذا التّخطيط والحراسة ضرورة أمنيّة للحفاظ على حياة الحاكم.

وعلى ما يبدو أنّ دالنسو كانو تجوّل في معظم أرجاء القصر (قصر الجنينة) حيث ذكر بأنّ المطابخ توجد في الرّواق العلوي، وهي مقابلة لكرسي الباي، تحجب مدخل القصر. وعلى الباب الرّئيسي -والّذي هو مدخل القصر-، وضعت فوقه مشكاة الإنارة والعلم الّذي يرى من الطّريق، وهي سمة مقر الحاكم. والخزندار (أمين الخزينة الخاصّة) هو رئيس المنزل العائلي للباي، الطّباخون هم الأشّخاص الوحيدون الّذين يسكنون مع الباي في الطّابق الأوّل برفقة الأسرى العبيد، يخدمونه في غرفته ويقدّمون له ما يحتاجه، وهم حماته في بيته، لا شخص غيرهم يرى الباي بعد المقابلات العامّة أكثر منهم[2]، إنّ ما ذكره دانسو كانو في هذا الشّأن تكاد تذكره معظم مصادر الرّحلة الأوروبية على وجه الخصوص- بأنّ خدم الحاكم كلّهم أسرى أوربيون-.

لقد تحدّث دالنسو كانو عن كيفيّة الاستيلاء على السّلطة والتّربع على كرسي العرش داخل القصر، وقد أفاض فيها كثيرا، وعلى ما يبدو أنّه استعان ببعض المصادر الّتي كتبت في هذا الإطار، نناقش البعض منها في الحياة السّياسيّة في مدينة الجزائر، غير أنّه أضاف الجديد عن الحياة في القصر، حيث ذكر بأنّ الحاكم يجلس في كلّ الأيّام- باستثناء الجمعة- على كرسي العرش لمقابلة الوفود والنّظر في القضايا، وهذا في الرّواق، وهي عنده نوع من الأشغال، الّذي يبدء في كلّ يوم بعد أن تطلع الشّمس وبقليل في السّاعة الأولى من الفجر، الأسير الكنّاس الأوّل للقصر الّذي يسمّى النّقيب "بروا Proa" يطلق صيحة في وسط السّاحة صباح الخير، ويتمنّى يوما سعيدا للرّئيس باللّغة الفرنسيّة Boungiorno "Fendi"، والّتي تعني صباح الخير سيّدي، بالموازاة الشّواش على جانبي الباب الخارجي للقصر، بعد برهة من الزّمن يحيّون قائدهم باللّغة التّركيّة، وهذا بمثابة ساعة استيقاظ الباي، لكن قبل طلوع الشّمس كلّ الوزراء والمساعدون يلتقّون أمام الباب في انتظار أن يفتح لكي يدخلوا جميعا ويفتح باب القصر عند الإشعاع الأوّل للشّمس، وعلى إثر هذا تسمع الموسيقى الّتي نسمّيها النّوبة Nouba في الوقت الّذي ينزل فيه الباي، ويأخذ مكانه في المجلس وفي نفس الوقت يخرج النّوفاجي أو الحرّاس الّذين ناموا في السّاحة ويأخذون أمكنتهم عند باب القصر، الوزراء يأخذون أمكنتهم قبل بدء المقابلة والموسيقى هي

---

(1)-D'Alonso Cano,op.cit, P92.

(2)-Ibid,p P93.

الّتي تدلّ على البدء، وفي حالة ما إذا تعذّر على الباي النّزول بسبب مرض أو أي مانع خطير فالخزندار يتولّى ذلك، المقابلة تستمرّ وكأنّ الباي موجود، غير أنّه في الأعمال والقضايا الّتي تتطلّب العزم والقرار، أحد الوزراء يذهب ويبلّغ الباي ويأتي بالإجابة من عنده شفهيّا[1].

إنّها فعلا ملاحظات هامّة تدلّ على مشهد من مشاهد الحياة اليوميّة داخل قصر الجنينة، مسجّل من طرف رحّالة أوروبي، دلّ على أنّه اهتمّ بهذا الجانب كثيرا في أدقّ تفاصيله، كما أنّه يقرّ فيما بعد بأنّ يوم الثّلاثاء هو يوم راحة أيضا، وتقرّر ذلك في تعليمات الباي الأخير على حد ذكره.

يستمر دالنسو كانو في الحديث عن الحياة في القصر، فيقول: المقابلة الاعتياديّة تستمرّ إلى غاية التّاسعة، وهي تقطع لنصف ساعة، حتّى يستطيع الباي أن يصعد ويأخذ وجبة صغيرة، الوزراء والضّبّاط يستطيعون أخذها أيضا في مطبخ الباي- إذا تحصّلوا على الإذن- ويعودون فيما بعد إلى الاجتماع لمدّة ساعة ونصف، في الوقت الّذي ينسحب فيه الباي ويصعد إلى غرفته لتناول شيء، تنتهي المقابلة بموسيقى أخرى مثلما بدأت، ويأكل الضّبّاط في الأسفل وفي أثناء نهاية هذه العمليّة، الكلّ يعود إلى بيته[2].

هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ هناك نظاما متّبعا ونمط حياة مسيّر، وإنّ الاجتماعات العامّة تعقد في الفترة الصّباحيّة بحضور الموظّفين والضّبّاط.

بعد تناول وجبة الغذاء وإلى غاية ساعة الغسق-وقت غلق باب القصر-، يجلس الباي للمقابلات الخاصّة، والّتي يلحّ أصحابها على ذلك ويلتمسون إعادة النّظر فيها، وهي بتصريح معيّن يقول كانو في كلّ مرّة مفتدي الأسرى يطلبون المقابلة، يقبل الباي بذلك فيشكر، ويردف قائلا:"...على وقع إزعاج نزع الأحذية (مثلما يحدث ذلك في غرفته)، يستقبلنا في الرّواق الّذي يؤدّي إلى المدخل، بعد أن ننتظره في تجويف في الجدار، يقدّم لنا كراسي صغيرة مثلما هي عند الأوربيّين، وخصوصا للّذين لا يستطيعون الجلوس على الأرض والخزندار (أمين المال) يبقى واقفا دائما بالقرب منه[3]، ومن خلال ما تقدّم نخلص إلى أنّ المقابلات نوعان، عموميّة صباحا وخصوصيّة مساء، وفيها تحلّ القضايا المطروحة والعالقة، ولعلّ فيها ما تبقّى دون ذلك، كما ينبّئنا كانو عن دور الخزندار الحامي للحاكم والمتصرّف في الخزينة، وكذا إشرافه على إعطاء الخبز للموظّفين والجنود واهتمامه بكل ما من

(1)-D'alonso Cano,op.cit, p97.

(2)-Ibid,p97.

(3)- Ibid, p98.

شأنه أن يسير إلى الخزينة[1].

إن كان قلم هذا الاسباني كانو قد سجّل الكثير عن الحياة في القصر، وأبدى رأيه في العديد ممّا لاحظ، إلّا أنّ الطّبيب الفرنسي ديسفونتين الّذي قابل أحد دايات الجزائر لمرتين (1785)، بغية السّماح له برحلة داخل الجزائر إلى غاية جبال الأطلس، لم يهتم بحياة القصور ولم يقدّم الوصف لها، ولم يذكر الحياة فيها ماعدا تلك الإشارة الّتي تنمّ عن كيفيّة الاتّصال بطلب من التّرجمان، حيث طلب هذا الأخير منه كتابة طلب يقدّمه للدّاي، يحدّد فيه طريق سيره نحو الأطلس، وبعد الموافقة تقدّم البغال لحمل ما يحتاج بصحبة م.فور وهو جندي وساعاتي الدّاي بمرافقة دودو فيني الّذي يعرف عادات العرب لأنّه من سكّان مدينة الجزائر منذ عشرين سنة[2]، وبقدر ما تتخوّف السّلطة حينها من الأجانب بقدر ما تقدّم لهم الخدمة، وتحاول حمايتهم خصوصا بعدما تظهر نوايا رحلاتهم، ولعلّ هذا ما انطبق على ديسفونتين Desfontaines صاحب الرّحلة العلميّة، والمهتم بالشّؤون الطّبيّة والنّباتات وكذا الأعشاب للتّداوي من الأمراض والعلل.

لقد انفرد الأسير الأمريكي كاثكارت عن باقي مصادر الرّحلة في تدوين التّفاصيل الدّقيقة والصّغيرة عن قصر الدّاي وعن الحياة فيه، واعتبره من المباني العموميّة وبدأ حديثه عن هذا القصر مقدّما الوصف المعماري ويطيل الحديث عن هذا، لذلك سنختصره في بعض النّقاط التّالية رغم القيمة العالية والأهميّة الفائقة لها:

- أنّه يقع وسط المدينة تقريبا، ويتكوّن من عدد من البنايات الّتي تمّ تشيّيدها على فترات.
- يقع على مساحة تبلغ نحو 4000 متر مربّع.
- باب القصر، وهو المدخل الوحيد ويقع على الطّريق الكبير (باب الواد-باب عزون).
- على جانبي باب القصر مقاعد النوبتجية أو الحرس، وعددهم 32 حارسا.
- هناك ساحة عموميّة تغطّيها دالية، مقابلة لباب القصر، حول هذه الساحة توجد مقرات الكيخيا، رئيس الأطباء، حلاق الداي، ضبّاط البوليس، ومقر الجلاد[3].
- فوق باب القصر شرفة يحيط بها سياج من القضبان المذهّبة في وسطها أعمدة بها الرّاية، وفي

[1]-D'alonso Cano,op.cit, p98..

[2]- Desfontaines, op.cit, pp97-98.

[3]- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السابق، ص 90.

هذه الشّرفة تجلس فرقة الموسيقى أيّام الجمعة وفي الأعياد تعزف الموسيقى، وهذا ما ذكره دالنسو كانو.

– هناك عين مبنيّة بالمرمر تجري دائما، وهناك مقاعد يجلس عليها كبار الشّخصيات.

– السلسلة المعلّقة عند باب القصر لها وظيفتان؛ وظيفة غلق الباب ووظيفة من يمسك بها يطلب العدالة باسم الله[1].

– على يسار الدّاخل إلى القصر يوجد جناح الدّاي والّذي يصعد إليه بواسطة سلالم ضيّقة جدّا، مثلما ذكرها دالنسو كانو ذات وظيفة أمنيّة، بحيث لا تسمح إلّا بمرور شخص واحد، وفي الانقلابات تعطي الفرصة للحاكم بالدّفاع عن نفسه أو الهروب.

– هناك غرفة يجلس فيها الكتّاب العرب والشّاوش والأرضيّة مفروشة بالمرمر ونحو قدم ترتفع، وفي نهايتها تقع قاعة الاستقبال.

– على يمين الدّاي يقع ديوان واسع يجلس فيه الخوجات الأربع ووزراء الدّولة.

– الدّيوان مثل قاعة الدّاي تنشر فيه أعمدة من المرمر.

– في وسط هذا الفضاء نافورة بنيت بالمرمر، والمكان مزيّن بمرايا من البندقيّة[2].

– هناك إلى اليمين خزينة المال والتي أمامها كل ليلة 32 حارسا.

– في الجزء الأسفل من القصر هناك ورشة الحدادة يعمل فيها الأسرى.

– العبيد يستخدمون في تنظيف الأسلحة النّاريّة.

– المذبح في الدّور الأرضي من القصر، فيه زريبة الغنم ومخزن حطب النار[3].

– الغرفة الصغيرة بجانب السّلّم المفضي إلى بيت الدّاي، ينام فيها المسؤولون عن نظافة القصر ومعهم وسائل عملهم، وفيها دهليز صغير نظيف مفروش بالآجر ويؤدي بعد مسافة إلى مطبخ الدّاي، وفي هذا الدّهليز مقعد يجلس عليه الدّاي للنّظر في القضايا بعد الظّهر، ومنه يتلقّى القناصل المسيحيّون أوامر الدّاي[4].

---

[1]–جيمس ليدر كاثكارت، المصدرالسابق، ص 90.

[2]–نفس المصدر، ص 91.

[3]– نفس المصدر، ص92.

[4]– نفس المصدر، ص92.

والحقيقة أنّ كاثكارت أفاض في الحديث عن قصر الدّاي بكل تفاصيله وتفرّعاته، وحتّى الأشخاص الّذين يعملون فيه، ولعلّ هذا راجع إلى مدّة الأسر الّتي قضاها من جهة وإلى الحياة الّتي كان يحياها داخل القصر من جهة ثانية، لذلك أتت شهاداته وأحاديثه عن الحياة في القصر تنمّ عن صدق وموضوعيّة في الكثير ممّا ذكر، ويردف قائلا بأنّ القاعة الّتي بها كرسي العرش أكثر جمالا وبذخا، ويتحدّث عن غرفة نوم العبيد الكبيرة، والمخازن الّتي تستعمل لمختلف أغراض التّدبير المنزلي، كما توجد هناك غرفة تعدّ فيها القهوة للشّخصيات المهمة، وفيما بعد يقدّم التّفصيل الكبير لحديقة القصر، الّتي قال عنها هايدو بأنّها الحديقة الوحيدة في المدينة[1]، وهي صغيرة فيها أشجار البرتقال، اليمون، الرمّان والعنب، كما أنّها محاطة بأسوار، وفيها أقفاص لبعض الحيوانات الوحشيّة مثل: الأسود، النّمور والظباء، كما توجد في الحديقة مخازن تحتوي على كثير من الأشياء: ملابس الجند، ملابس العبيد، أسلحة ناريّة، جلود الأسود والنّمور، ولعلّ ما ذكره كاثكارت عن عادة توزيع القمح والشّعير كلّ يوم أمام قاعة العرش للحمام، الّذي يعيش في منزل قديم متداع[2] ينمّ على أنّه دقيق الملاحظة ومسجّل بارع لما يشاهد.

والجدير بالتّسجيل عن الحياة في القصر (قصر الجنينة)، الحديث عن غرفة الدّاي وما بها من أثاث وأدوات حيث يقول كاثكارت:«...على يمين درج السّلّم الّذي ينحدر إلى جناح الدّاي يقع جناح الخزندار الأوّل، وهو عبارة عن غرفة جميلة واسعة مزخرفة بنقوش من الأزهار وغيرها ومؤثّثة بالسّجّاد الفاخر وبصفة مريحة وعددٌ من الصّناديق ومنضدة مطعّمة بالصّدف وترس السّلحفاة...وعلى الحائط تعلّق الأسلحة النّاريّة من البنادق والمسدّسات والسّيوف وكلّها مركّبة بالفضّة والذّهب ومعظمها مطعم بالمرجان...»[3]، ويواصل حديثه عن جناح الدّاي الّذي يشبه إلى حد كبير جناح الخزندار، غير أنّ ما فيه من الأسلحة والسّاعات أكبر قيمة وأغلى ثمنا[4]، وعلى غالب الظّنّ أنّها عبارة عن هدايا مقدّمة للسّلطات حينها من الدّول الّتي كانت تطلب ودّ الجزائر وتشتري سلامتها وأمنها في البحر المتوسط وتعقد معها معاهدات سلم وصداقة وكثيرة هي الأمثلة في هذا.

لم يتوقّف كاثكارت في حديثه عن قصر الدّاي عند هذا، بل ذكر بأنّ كلّ المرافق الّتي كان يستعملها الدّاي محمّد باشا (1785) مفروشة بالمرمر الفاخر والآجر.

---

(1)- Diego de Haedo **,topographie**…, op.cit, p220.

(2)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السابق، ص 95.

(3)- نفس المصدر، ص95.

(4)-نفس المصدر، ص 95.

وزاد حسن باشا خليفة محمّد باشا عددا من الأجنحة الجميلة لهذا القصر، كما أضاف منزلا كاملا إلى القصر[1]، ولعّل هذا ما يحيلنا إلى الحديث عن منازل مدينة الجزائر وعن الحياة فيها، فممّا لا شكّ فيه أنّ الحياة في القصر تختلف عن الحياة في منازل المدينة، ولذلك سنترك هذا الحديث ونوظّفه في "المنازل والقصور".

يبدو أنّ مصادر الرّحلة العربيّة غير مهتمّة بالحياة في القصور، إذ نادرًا ما نجد تلك الإشارات الطّفيفة بهذا الشّأن فالمكناسي، لم يدخل المدينة بسبب وباء الطّاعون[2]، والزّيّاني مدح حسن باشا وأفاض في هذا المدح دون أن يدخل إلى القصر[3]، ونفس الأمر ينطبق على كل من أحمد بن عمّار وأبوراس النّاصر والحسين الورتلاني، وربّما يعود هذا إلى أنّ رحلاتهم حجازيّة علميّة اهتمّت بما له علاقة بالمشرق وطريق الحجّ، مثلما ذكرنا سابقًا.

أمّا فيما يخصّ معلومات فونتير دي بارادي عن الحياة في القصر ووصفه فهي لا تخرج عمّا ذكره سابقوه، ولابأس أن نذكر بعض ما دوّنه هذا الدّيبلوماسي، وبالأخص الأشخاص الّذين يعملون هناك كلّ حسب وظيفته، حيث يقرّ بأنّ كلّ من يوجد في القصر يجب أن يكون تركيّا أصلا أو مرتدّا، ولا وجود للكراغلة ومنهم نذكر:

- الخزندار وهو أمين الخزينة والمسؤول عن الغرف، "سايجي" وهما مغربيان، ترجمان الدّاي (دائما موري) وظيفته التّرجمة، كاتبان موريّان يعملان على قراءة الرّسائل المكتوبة بالعربيّة ويجيبون عنها، اثنا عشر شاوشا موريا يقومون بالجلد في منزل الدّاي للموريّين والمسيحيّين والعرب، طبّاخان (آسكي باشا) وهما تركيان رئيسا مطبخ الدّاي، وهناك أيضا أربعة صولاكSolac انكشاريّين بخوذات مزيّنة بالرّيش، بالإضافة إلى أربعين أسيرا مسيحيّا في خدمة القصر والكناسين، واحد في الطّابق الأعلى والثّاني في الأسفل، هذا الأخير هو الّذي ينادي بصباح الخير أفندي مثلما ذكر دالنسو كانو.

ويضيف فونتير دي بارادي أربعة من أصحاب الوظائف الخارجيّة وعشرة سايس وحارس السّجن، وكاتب حماية الدّاي (نوبتاجيخوجياسي) و32 نوتباجيا وأخيرا المهتارباشي[4]، يبدو أنّ تعداد أفراد القصر يفوق المائة حسب ما ذكر فونتير دي بارادي، ولعلّه في هذا الشّأن انفرد بذكر ما تقدّم عن باقي

---

[1]-جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السابق، ص 96.

[2]- عبد الوهاب المكناسي، المصدر السابق، ص 330.

[3]- أبوالقاسم الزياني، المصدر السابق، ص 151 و ص 375 و 376.

[4]-Venture de paradis,**Tunis et Alger…,** op.cit, pp 212-214.

أصحاب الرّحلة، أمّا حديثه عن الوصف الخاص بالقصر، الّذي دخله واستقبل من طرف الدّاي مرّتين على حسب ذكره، فإنّه لم يشيد باختلاف كبير عن بقيّة المنازل، فساحته واسعة جدّا وحواليها أروقة أين يعقد الدّيوان، ويقول: نحن في حماية من المطر بالأروقة المتقدّمة في السّاحة...في نهاية هذه السّاحة مستودعات أعمال الدّايلك وفي الأسفل توجد خيول وبغال الدّاي[1].

وما يدلّ على أنّ هذا القنصل الفرنسي اهتمّ بالحياة داخل القصر هو حديثه عن غرف القصر كلّها صغيرة وضيّقة لا تتعدّى ستّة أقدام عرضا، ولا أحد يستطيع أن يصعد إلى غرف الدّاي إلا بإذنٍ[2]، ولا غرابة في هذا.

الحقيقة تذكر أنّ هذا الفرنسي سجّل الكثير عن الحياة في القصر، ودلّ ذلك على أنّه ملاحظ بارع وربّما هذا يعود إلى طبيعة عمله ونوعيّة رحلته، كما ذكر عادة مرافقة الضّبّاط الأربع الكبار للدّاي إلى المسجد يوم الجمعة، وقال بأنّ مطبخ الدّاي يوجد في الرّواق الأعلى، والأكل يقدّم للكبار الّذين يتواجدون في القصر من الفجر إلى العصر، دون أن ينسى ذكر القهوة الّتي تقدّم ثلاث مرات في اليوم للنّوبتجية (في الصّباح على التّاسعة، ووقت الغذاء، وفي العصر)، وما شدّ انتباهه أيضا هو أنّ حرّاس الباب النّوبتجية يأكلون غداءهم وعشاءهم في مكان حراستهم، وهم مجبرون على النّوم هناك، وقال بأنّ القصر يوم الثلاثاء مغلق[3].

لقد أقدم فونتير دي بارادي على وصف القصر وكيفيّة التّمييز بينه وبين المباني الأخرى الموجودة في المدينة، وقال: تميّز منزل الدّاي بسارية علم مرفوعة فوق مدخل القصر، وكذا مصباح (مشكاة) على الجهة اليسرى فوق الباب، وفيه تعليقة مربوطة بسلسلة...أمّا واجهة هذا البيت فعليها الآجر الخزفي مثلما هو الشّأن في منازل إسبانيا وبرباريا، ويذكر بأنّ هذا المنزل يسمّى باشا كابوسي Pacha Capousi والفرنسيّون يسمّونه منزل الملك، يقع في أكبر شارع لمدينة الجزائر المؤدّي إلى حدود باب الواد في الشّمال، والآخر إلى الباب المسمّى بابا عزّون، ويعلّق على خوجة باب القصر الّذي هو على رأس النّوتيجيّة، ويقول:«...يبقى في السقيفة (المدخل) وبها ينام، وهي وظيفة ثقة تؤدّي إلى مناصب عالية...»[4].

---

[1]-Venture de paradis,**Tunis et Alger…,** op.cit, p110.

[2]-Ibid, pp110-111.

[3]-Ibid, pp111.

[4]-Ibid, p112.

ولخصوصيّة مكان إقامة الحاكم في مدينة الجزائر وأهميّته، أسهبت مصادر الرّحلة الأوربيّة في ذكر الحياة فيه بأدقّ تفاصيلها، من النّاحية العمرانيّة وكذا نمط الحياة وأسلوب العيش فيه، وتخلفت مصادر الرّحلة العربيّة عن هذا، لأنّها اهتمّت بأمور أخرى.

ولا غرابة أن نقول بأنّ الأسير الألماني تيدنا لم يجذبه شيء في القصر إذ صرّح بذلك وذكر بأنّ قصر الباي لا يملك ما يجذب النّظر، حيث قال: «لأنّنا كلّما طفنا فيه وجدناه ناقص الجمال»[1]، وهو رأي يخالف أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة، ولعلّ هذا راجع إلى طبيعة شخصيّة تيدنا من جهة وكذا الظّرف الّذي وجد فيه كأسير من جهة أخرى.

غير أنّ الأسير الهولندي جيريت ميتزون الّذي مثّل أمام "الباشا" على حدّ ذكره سنة 1814 يقول:«وجدناه جالسا على دكّة صخريّة حسب العادة العثمانية وهو يعب دخان نرجيلته قفارًا...»[2]، ثمّ أتى على وصف ملابسه، وذكر أيضا استجواب الباشا له ولمرافقيه فيما يخص بلادهم، والجدير بالذّكر في هذا، أن ميتزون يقرّ باحترام الأجانب لقصر الحاكم أثناء مرورهم أمامه بنزع القبعات والقلنسوات[3].

من المعروف أنّ مكان إقامة الحاكم حوِل إلى أعالي المدينة بعد 1815، وهذا ما نستشفّه من حديث الألماني سيمون بفايفر، الّذي يذكر بأنّ القصبة هي القلعة محلّ إقامة الدّاي الّتي تقع فوق الجبل في القسم الأعلى من المدينة، وتمتدّ من طرفها إلى الطّرف الآخر، وفوقها علم كبير يخفق في كبرياء[4]، الظّاهر أنّ بفايفر لم يعرف مكان إقامة الدّاي من قبل، ورغم أنّه عاش في القصر وتقلّد عدّة وظائف كطبّاخ، وطبيب، ...إلّا أنّه لم يقدّم الوصف الكامل لقصر القصبة، ماعدا تلك الإشارات الّتي جاءت في سياق حديثه عن أمور أخرى، كبيوت الحريم في الأعلى، وجود ساحة في القصر، وأنّ هذا الأخير يشرف على كامل مدينة الجزائر تقريبا[5]، وهذا أيضا ما لمسناه عند القنصل الأمريكي وليام شالر الّذي كتب الكثير عن المدينة وعن الحياة الحضريّة فيها ولديه إضافات في هذا، فهي عنده القصبة (أو

---

[1]- أحميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيات...**، المرجع السابق، ص 51.

[2]- جيريت ميتزون، **يوميات أسر في الجزائر(1814-1816)**،ترجمه إلى الفنسية ج .هـ.بوسكي وج .ق . بوسكي ميراندول تعريب محمد زروال ،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر،2011 ، ص 24.

[3]- نفس المصدر، ص 31.

[4]- سيمون بفايفر، المصر السابق، ص 13.

[5]- نفس المصدر، ص 30 و ص 31، وص58.

القلعة)، مقر الدّايات وهي عبارة عن مدينة محصّنة تشغل جميع القسم الأعلى من المدينة، وهي بمساحة عشر مدينة الجزائر كلّها، وبها مسجد جامع كبير، وعدد من القصور وجميع المرافق الضّروريّة، بالإضافة إلى حامية عسكريّة مهمّة[1]، وفيما يخصّ الرّحالة التّنلاني عبد الرّحمان بن إدريس الّذي تزامن وجوده في المدينة مع حملة اللّورد إكسماوث سنة 1816، فيقول: « دار السّلطان باشا عمر تخرّبت بمقدار دويرة، ومات فيها من حشم الباشا وعياله إحدى عشر نفسا»، وقد حضر التنلاني وزن الكورة الّتي ضربت دار السّلطان[2].

إنّ أصحاب مصادر الرّحلة العربيّة لم يكن ليستهويهم ذكر تفاصيل القصبة ولا الحياة فيها، وهذا ما انطبق أيضا على التّونسي علي اللّنبيري المرالي، الّذي تحدّث عن المكان الّذي بنيت فيه القصبة، وهي قريبة من باب الجديد الّذي يؤدّي إلى حصن السّلطان بدربٍ وعر المسالك[3]، غير أنّنا لمسنا الجديد فيما كتبه الضّابط الفرنسي روزيه الّذي حلّ بالمدينة مع جيش الحملة الفرنسيّة سنة 1830 حيث يقول عنها: "القصبة، قلعة مدينة الجزائر وإقامة الداي، هي بناية كبيرة محاطة بجدران عالية جدّا، تذكّرنا بالحصن، يخرج منها فوهات المدافع من خلال الفتوحات، وبعض المرامي المخصّصة لهذا الغرض في الأعلى، وفي الوسط الجدار، هذا الجدار يحمي قصر الدّاي، المسجد، مستودعات ومخازن مخصّصة للبضائع، ومصنع البارود وبطّاريات كثيرة مسلّحة بمدافع هاون لحماية المدينة ورفيقتها القصبة، وهناك حديقتان جميلتان مأهولتان بحيوانات مفترسة ومن كل الأنواع، ...سطح القصبة نرى من خلاله حصن الإمبراطور المهيمن الّذي يرتفع على حدبة رابية[4]، وهو بحقّ وصف يدلّ على أنّ صاحبه يمتهن وظيفة عسكريّة بحكم تركيزه على الأمور الأمنيّة وعلى ما يبدو هذا ما كانت عليه القصبة في ذلك الوقت حقًا، كما يتبيّن بأنّ هذا الضّابط صعد إلى سطح القصبة.

وأمّا فيما يخص شونبيرغ الرّحالة الألماني، الّذي رافق أيضا جيش الحملة الفرنسيّة على مدينة الجزائر فيتحدّث بإسهاب كبير عن خزينة القصبة الّتي كانت في القبو، وقد نزل كل من دي بيري ودي بورمون إليها يوم 7 جويلية، وهي عبارة عن كومة من الذّهب والفضّة، وراح يصوّر المشهد الّذي وجدت فيه تلك الخزينة، ولعلّه مبالغ فيه بكثير، إلّا أنّه يعترف بأنّ ما وجد حمل إلى فرنسا لتغطية نفقات الحرب

(1)- وليام شالر، المصدر السابق، ص ص98-99.

(2)- عبد الرحمان بن ادريس، المصدر السابق، ص 215.

(3)-علي اللّنبيري المرالي التّونسي، **العود الجزائري**، تقديم وعرض أحميدة عميراوي، دار الهدى، عين مليلة،الجزائر،2006، ص 114.

(4)-Rozet et Carette, op.cit, p15.

ووزّع البعض منها على الضبّاط، بعد أن صارت ملكا للمنتصر[1]، وفي مصدر آخر من وثيقة أمريكيّة معاصرة للحدث تقول: «على السّاعة الواحدة استولت القوّات الفرنسيّة على القصر... وعلى خزينة الجزائر العامّة الذّائعة الصّيت، والحاوية على مقدار من الذّهب والفضّة والجواهر...أكثر بكثير من التّكلفة المحتملة لعمليّة الغزو...»[2].

وممّا سبق نستشفّ أنّ مصادر الرّحلة الأوربيّة هي الّتي دوّنت الكثير عن القصبة وعن الحياة فيها، سواء كانت القصبة السّفلى (قصر الجنينة) أو العليا بعد تحويلها سنة 1815، وهي بذلك فاقت مصادر الرّحلة العربية، غير أنّنا نسجّل التّطابق في أخبار مصادر الرّحلة الأوروبيّة، فيما يخصّ الوصف المعماري والتّكامل الكبير في ذكر الحياة داخل هذه البناية، رغم اختلاف الأزمنة بين الرّحّالة، ولعّل معظم أصحاب مصادر الرّحلة اعتمدوا على كتب ورحلات من سبقهم إلى المكان انطلاقا من كتابات هايدو والحسن الوزّان ومارمول كاربخال...وغيرهم.

2- القصور والمنازل:

ذكر ابن منظور في تأليفه **لسان العرب** التّعريف بالقصر، والتّعريف بالمنزل، فقال في الأوّل القصر من البناء معروف وقال اللّحياني هو المنزل وقيل كلّ بيت من حجر قرشيّة سمّي بذلك لأنّه تقصر فيه الحرم أي تحبس وجمعه قصور[3].

وفي التّنزيل العزيز﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[4].

أمّا عن المنزل فقد ذكر بأنّه من الفعل نَزَلَ:النّزول: الحلول وقد نزلهم ونزل عليهم ونزل بهم، ينزل نزولا ومنزلاً والنّزل المنزل[5].

وعلى هذا الأساس نجد بعض مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة الّتي تناولت مدينة الجزائر في العهد العثماني والحياة الحضريّة فيها تتحدّث عن القصور والمنازل في آن واحدٍ، وهناك من يعتبر القصر منزلاً،

---

[1]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات...**، المرجع السّابق، ص 36.

[2]- محمّد الهادي الحسني، **الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة** (جمع وتقديم)، مؤسسة عالم الأفكار، الجزائر، 2006، ص ص31-32.

[3]- ابن منظور، المصدر السّابق، المجلّد الخامس، ص 99.

[4]- القرآن الكريم، سورة الفرقان ، الآية 10.

[5]- ابن منظور، المصدر السابق، المجلّد السّادس، ص 619.

ولذلك سنستهل حديثنا عن قصور ومنازل مدينة الجزائر في العهد العثماني بما أورده حسن الوزّان الّذي قال:«المدينة تضمّ نحو أربعة آلاف كانون...فيها دور جميلة...»[1].

إن كان الوزّان قد اعترف بجماليّة منازل ودور المدينة وبيوتها، فكيف له أن حسب عدد الكوانين؟ فمن الرّاجح أنّ لكلّ بيت كانون، وعلى هذا فعدد الدّور هو أربعة آلاف دار، وفي اعتقادنا هو عددٌ قابل للزّيادة والنّقصان، في حين أنّ الرّحّالة الإسباني مارمول يقرّ بأنّ بنايات المدينة تبدأ من شاطئ البحر، ثمّ ترتفع بشكل متدرج على سفح الجبل، وهي تشكّل منظرًا جميلا، لأنّ بها جميعا منافذ وممّاش ولا تحجب بعضها بعضا، وهي جيّدة البناء، كما يخبرنا بوجود عدّة قصور مبنيّة على هيئة عصريّة بذل في رونقها جهد كبير، شيّدت من طرف رؤساء البحر أتراكًا ومرتدّين ممّن سكنوا المدينة[2]، وهي نفس الملاحظة الّتي سجّلها نيكولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay الّذي يعترف بوجود منازل جميلة مميّزة[3]، دون ذكر تفاصيل أخرى، وهذا ما يفسّره ديغو دي هايدو Haedo، حيث يقول: "هناك منازل جد ملاحظة...كلّها لديها نفس الشّكل، لكلّ منزل ساحة أنيقة ومضيئة مثل منزل رمضان باشا (مرتد سردي)، الحاج مراد (مرتد كان أسيرا عند القائد التّركي داوود)، للقائد مامي (مرتد اسباني)، للقائد حميدة (موري أي مغربي)، للقائد التّركي مصطفى، للقائد حسان (مرتد يوناني)، للقائد محمد اليهودي...[4].

في الحقيقة أنّ هايدو خصّص فصلا بكامله الحديث عن منازل وشوارع المدينة، وقال بأنّ المدينة لا تحوي إلاّ 12.200 بيت كبير وصغير، كما أكّد على أنّ كل المنازل لديها ساحة، وهذه الأخيرة إما أن تكون كبيرة أو صغيرة حسب مساحة البيت[5]، ولعلّ هذا ما يقودنا إلى تشبيهها بمنازل المشرق في تلك الفترة[6].

لقد أبدى هايدو رأيه في منازل المدينة، وذكر بأنّها مجتمعة إلى حد كبير ومتراصّة مع بعضها البعض، وهي تماثل حبّة صنوبر موحّدة جيّدا، واعترف بأنّ هندسة هذه المنازل موحّدة، والأغلبيّة حينما

---

[1]- حسن الوزان، المصدر السّابقّ، ص 37

[2]- مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 363.

[3]-Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

[4]-Diego de Haedo, op.cit, p221.

[5]-Ibid, p46.

[6]- إلهام محّمد علي ذهني، **مصر في كتابات الرّحّالة الفرنسيّين في القرنيين السّادس عشر والسّابع عشر**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، 1991، ص 105.

يدخل إليها الشّخص يجدها تقريبا كلّها جميلة، وهي عموما مبنيّة جيّدا وبالجير مطلية (الكلس)، وهي صلبة، ولديها سطوح وعليها يتم نشر الثّياب حتّى تجف، ونستطيع أن نمر من منزل إلى آخر عبر السّطوح والنّساء يكون اتّصالهن مع بعضهنّ البعض عن طريق السّطوح هذه[1].

إنّ منازل مدينة الجزائر في العهد العثماني تملك دهاليز(أروقة)، وساحات معدّة للإضاءة في الدّاخل، لأنّ الموريين لا يحبّون أن تُرى نساؤهم وبناتهم من الخارج، كما أنّهم لا يفتحون النّوافذ على الطّرقات، مثلما هي العادة في البلاد المسيحيّة.

إنّ أروقة المنازل وساحاتها مبنيّة عموما بالآجر وبذوق كبير، والأغلبيّة مزيّنة في جدارها الدّاخلي بمربّعات الزّليج المختلفة الألوان، وهناك أيضا الدّرابزين والكوريدوس **Corridos**، توجد في السّاحة بالدّاخل، وتقوم النّساء بغسلها بعناية فائقة كلّ أسبوع، وهذا الغسل يحتاج كميّات كبيرة من الماء وكلّ منزل فيه بئر عموما، وكثيرة هي المنازل التي فيها الصهاريج، لأنّ ماء الآبار ثقيل ومالح، فهم يشربون من ماء العيون الجميلة الموجودة داخل المدينة وخارجها[2]، لقد بدا لنا أنّ هايدو كان مصدر كتابات العديد من بعده خصوصا في مجال الرّحلة وأن تعدّدت أغراضها عند الأوربيّين.

غير أنّ التّمقروتي لم يتحدّث عن منازل المدينة ولا قصورها حديثا مباشرا، واعتمد في رحلته وفي حديثه عن المدينة ما ذكره الرّحّالة أبو البقاء خالد في كتابه **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق،** فذكر أنّه لما ورد مدينة الجزائر رأى ترتيبا مليحا...[3]، وعلى غالب الظّنّ أنّ هذا التّرتيب المليح يشمل منازل المدينة وقصورها دون أن يزيد عن هذا شيئا آخر، غير أنّه يعترف بأنّها آهلة دون ذكر عدد سكّانها، وهذا بخلاف أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة والأسر والّتي منها جاو ماسكارينهاس الذي كان في المدينة بين 1621و1626 فذكر بأنّ عدد منازلها اثنا عشر ألف منزل[4]، ونحن نشكّ فيما ذكره من هذه النّاحية، لأنّه جاء بعد هايدو الّذي كان في المدينة بين 1578و1581.

كما أشار ماسكارينهاس إلى أنّ المدينة لا تحوي أي مسكن مخرب ولا ساحة للمواشي، ولا يوجد بها مكان فارغ، ونستطيع أن نتطلّع إلى جزء كبير من المدينة من خلال سطوح منازلها على حد

(1) –Diego de Haedo, op.cit, p47.

(2)–Ibid, P48.

(3)– أبي الحسن علي التمقروتي، المصدر السّابق، ص 91.

(4)–Joao Mascarenhas, op.cit, p68.

ذكره، وهي بالآجر مبنية وبالجير مطلية[1].

ومن خلال مخطّطها وهندستها، هذه المنازل هي مثل أروقة دير، لها ساحة مفتوحة على السّماء، مزيّنة بزخارف جميلة ومنيرة ووضّاءة، محاطة بأروقة وشرفات، وعادة ما نجد بها إمّا صهريج أو بئر، وهي لا تملك نوافذ باتّجاه الطّريق، ماعدا تلك الصّغيرة، التي من خلالها ترى النّساء الموريسكيات ما في الخارج دون أن يراهنّ أحد[2]، لعّل معظم أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة يجهلون طريقة تفكير سكّان منطقة ما ومعتقدهم اللّذين يؤثّران في هندسة منازلهم، وهذا ما انطوت عليه منازل مدينة الجزائر في العهد العثماني، ولعلّها خاصيّة مميّزة لهندسة ومنازل المدن الإسلامية في تلك الفترة[3]، ولهذا لم يرد هذا العنصر عند الرّحّالة المقرّي الّذي حلّ بالمدينة ونزل عند علمائها في نهاية العشريّة الثّانية من القرن السّابع عشر.

غير أنّ الأب دان يؤكّد أنّ كل المنازل مطليّة بالجير في الدّاخل والخارج، وهي عموما جميلة حينما نراها من البحر، وهي تترك إحساسا عميقا، مبنيّة على شكل مدرّج لأنّها تقع على انحدار هضبة صغيرة وسطوح كلّها ترى، غير أنّ هذه البنايات الواحدة تحجب الأخرى، وهي مربّعة، وجزؤها العلوي أقلّ عرضا من جزئها السفلي، والّذي يأتي يرى خطأ في قواعد الأبعاد، وهي تنتهي على شكل هرمي[4]، إن كان هذا هو رأي الأب دان فإنّ رأي الأسير الهولندي إيمانويل دارندا D'aranda كان على العموم مشابها له فيما يخصّ طريقة البناء الموحّدة ووجود السّطوح، وبنايات المدينة من أسفل الميناء إلى الأعلى كلّها متراصّة ببعضها البعض[5]، غير أنّ توماس هيز في رحلته إلى المدينة بين 1675و1676 لم يقدّم التّفاصيل الدّقيقة للمنازل بالرّغم من أنّه أقام مدّة لابأس بها في المدينة، وكان يتنقّل حتّى إلى منزل القنصل البريطاني خارج المدينة[6]، ولعلّ هذا ما نفسّره باهتمام الرّحّالة بأمور رسميّة جاء لأجلها، دون تركيزه عن أمور أخرى، في اعتقادنا ثانويّة أو هامشيّة بالنّسبة إليه، وهذا ما انطبق على الرّحّالة المغربي ابن زاكور الّذي جاء لغرض دراسي، إلّا أنّه يمدح نوعيّة البناء من القصور، فيقول:"...وقصور نوع المحاسن عليها مقصور، والّذي أعارها ذلك المرأى الجميل، وأصارها فضية الصّباح عسجديّة

---

(1)-Joao Mascarenhas,op.cit, p68.

(2)-Ibid, p68.

(3)-Raymond And,**grand ville arabe à L'époque ottomane**,la bibliothéque arabe,édité par Pierre Bernard, édition Sindbad,Paris ,1985.

(4)-P.Pierre Dan, op.cit, p88.

(5)-Emanuel D'aranda, op.cit, p97.

(6)-Thomas Hess, op.cit, p98.

الأصيل..."[1].

وعلى غالب الظّنّ أنّه يقصد تلك القصور الّتي كانت موجودة في أسفل المدينة، وهي من بناء ريّاس البحر الأثرياء في تلك الفترة مثلما صرّح هايدو بذلك.

غير أنّ الرّحّالة الفرنسي بوتي دولاكروا صرّح بأن منازل مدينة الجزائر لها سطوح[2]، دون الإفاضة في ذكرها والحديث عنها.

والحقيقة أنّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة تفوّقت في وصف وذكر المنازل والقصور عن مصادر الرّحلة العربيّة، وفي هذا الإطار قدّم لوجي دي تاسي معلومات كثيرة بحكم أنّه خصص جزءا كبيرا عند حديثه عن مدينة الجزائر فقال، بأنّ منازل مدينة الجزائر مبنيّة بالحجارة والآجر، وهي قويّة ومربّعة، وهناك ساحة مرصوفة بالحجارة في الوسط، مربّعة وكبيرة حسب المنزل، ويحيط بهذه السّاحة أربع أروقة مدعّمة بأعمدة وهناك الغرف، وفي الطّابق الأعلى نفس ما في الطّابق السّفلي من أروقة وأعمدة وغرف، وأمّا أبواب الغرف فهي بعلو الأروقة تلامس الألواح في الأعلى، وهناك نافذتين[3] صغيرتين يدخل الضّوء منهما للغرف مع الباب أيضا، هذه الأروقة تدعم السّطوح وهي تستخدم عادة كمتنزّه للرّجال والنّساء وكذلك لتجفيف الثّياب، ومعظمها حدائق صغيرة، وبجانب السّطح عادة ما توجد شرفة تستعمل كمخبأ لمسبّات الهواء، والتمتع بمشاهدة ساحل البحر وما يحدث فيه، لأنّ أكبر انشغال الجزائريين هو رؤية رجال بحريّتهم يعودون بالغنائم.

إنّ مداخن البيوت (الكوانين) لا شيء ينقصها، وهي معدّة ومهيّأة لكي توضع في أيّ زاوية من السّطح، وهي عبارة عن قبّة مجيرة ومزيّنة، والغرف مضاءة من خلال السّاحة في النّهار، وجهة الطّريق لا توجد إلا نوافذ صغيرة مشبّكة حتّى تعطي للغرف بعض الضّوء، وهي معدّة بجانب السّلّم الكبير وغير متّصل بشيء، يقومون بتبييض المنازل من الداخل سنويا، وكذلك السّطوح[4].

يعترف دي تاسي بجمال بعض المنازل، ولعلّ هذا ما شدّ انتباهه، غير أنّه يقرّ بأنّ منظهرها الخارجي غير ملفت[5]، وعلى الأرجح أنّ هذا ما كانت عليه معظم بيوت مصر خلال القرن السّادس

---

[1]- ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص 40.

[2]-Marcel Emerit, **"Un mémoire sur Alger…"**, op.cit, p18.

[3]-Laugierde Tassy, op.cit, p104.

[4]-Ibid ,104

[5] -Ibid, p105.

عشر والسّابع عشر[1]، ويذكر فيما بعد أنّ هذه المنازل تمّ بناؤها من طرف الباشوات والدّايات، والكثير منها مكسوّة بالرّخام من الأعلى إلى الأسفل، وكذلك أعمدتها الّتي تدعم الأروقة فهي من الرّخام، وهذه التّلبيسة مزخرفة وملوّنة باللّون الذّهبي، والاتّصال بين المنازل يكون من خلال السّطوح، والصّعود والنّزول يكون من خلال سلالم، وكل بيت مجاور للآخر، ورغم سهولة الاتّصال إلّا أنّنا لم نسمع بأنّ هناك سرقات، لأنّه إذا وجد شخص ما في بيت فإنّ نهايته الموت، وهذه عادة من عاداتهم[2].

وذكر هذا القنصل، بأنّ تعداد سكّان المدينة نواحي مائة ألف ساكن، منها خمسة آلاف منزل لعائلات يهوديّة من أصول بربريّة على حدّ ذكره، دون أن يعدّ المسيحيين، غير أنّه يبقى التّعداد المذكور غير دقيق. أمّا فيما يخصّ الوصف المعماري للمنازل فلعلّ أهم مصادر الرّحلة الّتي ذكرت هذا كانت في مجملها تقترب من هذا الوصف، فهذا أيضا الطّبيب الإنجليزي توماس شو يكاد يذكر نفس حديث لوجي دي تاسي في هذا الشّأن[3]، وكأنّه اعتمد على كتاب هذا القنصل، الّذي زار المدينة قبله، وذكر أيضا بأنّ هناك منازل جد جميلة للأثرياء والدّايات والباشوات، وعموما فالمنازل لديها ثلاث طوابق[4]، في حين أنّ جين آندري بايسونال -الطّبيب الفرنسي-، يعترف بأنّ منازل المدينة مبنيّة على الطّريقة التّركيّة والسّطوح موضوعة باتّجاه ساحل البحر[5]، ولا نراه إلّا في أعلاها أو في طرفها، والّذي يكسب المدينة منظرا متميّزا جدّا هو البياض النّاصع لمنازلها ذات السّطوح المشرفة على البحر[6]، وفيما يخص شهادة الألماني الرّحّالة هابنسترايت الّذي دوّن الكثير عن منازل المدينة في سنة 1732 فقد اعترف بأنّها منظّمة وبناؤها جيّد بالنّسبة لنوعيّتها، كما شدّ انتباهه انفصال كلّ جزء من المنزل عن الأجزاء الأخرى وعلى وجه الخصوص الأجنحة الدّاخليّة حتّى تبقى النّساء في معزل على حدّ تعبيره، وذكر بأنّ الرّواق يستخدم كمدخل وفيه تنزع الأحذية[7]، وهي عادة متّبعة تنمّ عن مشهد من مشاهد الحياة في المنازل في تلك الفترة، وهي دليل على المحافظة على نظافة البيت، وهذا ما أقرّ به هذا الرّحّالة الألماني، والّذي ذكر بأنّ مدخل المنزل ينفتح على بناء مبلّط بقطع رخام مربّعة الشّكل من أربع إلى ست خانات، وهذا

---

[1]- إلهام محمّد علي ذهني، المرجع السّابق، ص

[2] -Laugier de Tassy, op.Cit, p105.

[3] -Thomas Shaw, op.cit, p290.

[4] -Ibid, p289.

[5] –J. A. Peyssonnel, op.cit, p247.

[6]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص36.

[7]- نفس المصدر، ص37.

الفناء يكون مربّع الشّكل تحيط به أروقة، وصوّر لنا مشهد الغرف، فذكر بأنّها مستطيلة تزيّنها صور أوراق الأشجار وأشكال المنمنمات المحفورة على الجبس، والأسطح أمكنة استراحة، ولاحظ وجود الزّهور والنّباتات والأثاث الجميل في منازل مدينة الجزائر، وعلّق أيضا على عدم وجود نوافذ كبيرة من جهة الشّارع، وذكر بأنّ مجمل ضوء النّهار ينفذ إلى الغرف من خلال الفناء المنفتح في الوسط[1]، وهي شهادة حقيقيّة تدلّ على التّميّز في البناء عكس ما كانت عليه دور أوروبا، وهذا ما سجّله معظم أصحاب مصادر الرّحلة الأوربيّة، ولنا أن نذكر في هذا المقام ما ذكره الرّحّالة التّلمساني ابن المسيّب عن منازل المدينة أيّام مروره بها:

تـــــــورخ منازلهـــــــا تـــــــوريخ   واعـــــرف الـــدّار ارجــــع ليــــه[2].

دلالة على أنّ لهذه المنازل تاريخ حافل يجب معرفته، كما ينصح الحاج والمسافر بمعرفة المنزل الّذي نزل به حتّى يتمكّن من العودة إليه.

فإذا كان الطّبيب الرّحّالة ابن حمادوش، –ابن مدينة الجزائر–، قد دلنّا على وجود مكان في أعلى المنزل يسمّى العلوي[3]، دون تدقيق وتفصيل، فإنّ الرّحّالة الإسباني دالنسو كانو D'Alonso Cano الّذي حلّ بالمدينة في سنة 1768 قد استهلّ حديثه عنها وقال بأنّها تسمّى المصرية "Massarias" أو "Holies"، والعليّة هذه عبارة عن غرفة صغيرة تنشأ في الجزء الأعلى من المنزل، ويصعد إليها بواسطة سلّم دون أن يتّصل هذا بالسّقيفة أو المدخل الرّئيسي للبيت، وهي صغيرة وشكلها غير منتظم، وتوجد في كثير من المنازل الّتي بها فراغات وهي ذات تركيبة مصغّرة وعلى نمط واحد تقريبا[4]، ولعلّ وظائفها متعدّدة بحكم أنّها تبنى في الأعلى من المنزل.

لقد أبدى دالنسو اهتماما كبيرا بما ذكره سابقوه عن منازل مدينة الجزائر خصوصا، واعتمد في كتابه على ما شاهد وعلى شهادات بعض الأسرى الإسبان، لذلك فمعلوماته نراها جديرة بالاهتمام لأنّه أضاف الجديد، وحسبنا هنا أن نذكر ما أضاف، فبقدر اعترافه بعدم جماليّة المنازل من الخارج، بقدر ما تعرّف على عناصر المنازل الأساسيّة الّتي تحوي عادة بابا عريضا نسبيا وعال كما ماهو معتاد، ويقول بأنّ السميرة ومقابض الأبواب معمولة بشيء من الجهد، وهي مصنوعة من الحديد مثلما هو

---

(1)–ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص37.

(2)– ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص411.

(3)– عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص118.

(4) –D'Alanso Cano, op.cit, p58.

الشّأن في مدن إسبانيا، ومدخل المنزل (الباب) عموما هو على شكل قوس في الأعلى، قليل الارتفاع ممّا يحتم على الدّاخل إلى المنزل الانحناء وهذه هي منازل الموريّين، حتى لا يضطرّون لكرائها للصبايحيّة أو الخيّالة الأتراك، لأنّها تمنع دخول خيولهم[1]، على حسب رأيه.

كما تطرّق هذا الرّحّالة الإسباني أيضا إلى ذكر السّقيفة، الّتي هي عبارة عن ردهة صغيرة تؤدّي إلى ساحة مربّعة عموما، ووصف الأروقة المحاطة بها وكذا الأعمدة المدعّمة لها وشبّهها بمثل ماهو موجود في الأديرة، وذكر بأنّ المنزل به طابقان (مخطّطان)، وكلّ طابق به مجموعة من الغرف، وأبواب هذه الأخيرة متماثلة ومتناظرة وكلّ غرفة هي قطعة منفصلة عمّا تجاورها، وأمام الباب هناك كرسي على شكل وسادة وفراش للجلوس، كما تطرّق أيضا إلى تلك الأسلحة الرّائعة المعلّقة على جانبي الباب من داخل الغرفة وقال بأنّها مستأجرة، وذكر أيضا بأنّ السّرير وضع فوق ارتفاع أرضيّة في حدّ الغرفة وهو مغطّى بقطعة من القماش[2]، لكن هل تلك الأسلحة مستأجرة حقا؟ فإن كانت كذلك، فهل كلّ البيوت بها هذا النّوع المستأجر؟ ونحن نعلم أنّ ساكني المدينة منهم الفقير والغنيّ، فكيف يكون للفقير استئجار الأسلحة لتزيين منزله؟

كما أنّ دالنسو انتقد دى تاسي وقال بأنّه أعلمنا خطأً عندما قال بأنّ كوانين المدينة متماثلة وكلّها متحرّكة، وهي عادة فرن طيني (حزفي) ومدفأة، وبها قدر عادة مايوضع في ركن معزول، كما أنّه لم يعطينا معلومات عن بساطة المأكل المألوف لدى سكّان مدينة الجزائر[3]، ولم يتوقّف عند هذا بل انتقده فيما ذكره حول نوافذ المنازل، وذكر بأنّ كلّ غرفة كبيرة لها نافذتان متوسّطتا الحجم تطلّان على الأروقة، وقال بأنّ هناك الكثير من النّوافذ الصّغيرة والعالية، الّتي تطلّ على الشّارع ولكي يُتجنّب الاتّصال فهي مشبّكة بقطع مصنوعة بنفس الطّريقة وبجهد، وهي تماثل في تصميمها نوافذ القطع الحجريّة لكنائس الغوط الإسبانيّين[4]، في حين أنّ القنصل فاليار Valliere في مذكّراته المهمّة حول مدينة الجزائر والحياة الحضريّة فيها سنة 1781 لم يقدّم الكثير عن منازل المدينة ماعدا تلك الملاحظة الّتي قال فيها بأنّ المنازل فوق بعضها البعض[5]، على تلك الهضبة الّتي بنيت فوقها المدينة عموما.

---

(1) – D'Alonso Cano,op.cit, p59.

(2) –Ibid, p59.

(3) – Ibid,p59.

(4) –Ibid, p59.

(5) – C.PH.Valliere, op.cit, p1.

وبحكم أنّنا لم نعثر على التّرجمة الكاملة لكتاب كوكوفتسوف الرّوسي، الّذي زار مدينة الجزائر وكتب عنها وعن الحياة الحضريّة فيها سنة 1787، إلّا أنّنا نحتمل بأن يكون قد كتب عن منازل المدينة في الفصل السّابع من كتابه الّذي يحمل عنوان: "موقع واسم مدينة الجزائر حصونها ومؤسّساتها"[1]، ولعلّ الملاحظة الجديرة بالذّكر هي الّتي جاء بها القنصل الأمريكي كاثكارت الّذي وصف منزل حسن باشا، واعتبره نموذجا لأعظم منازل مدينة الجزائر حينها (1785)، وقال بأنّ شكله مربّع، جزؤه السّفلي لا يستعمل إلّا نادرا، وهو دعامة لطابق الشّقق الأنيقة العليا، بلاطه من المرمر مثل جميع الغرف، والشّرفة تقوم على أعمدة من الرّخام، الأبواب ومصاريع النّوافذ تطلّ على الدّهليز، منقوشة ومدهونة، وحواشيها مزيّنة بالذّهب، السّقف مزخرف بنقوش هي عبارة عن زهور وعناقيد العنب وبعض النّباتات والفواكه، كما لاحظ بأنّ الحيطان مطعمة بالآجر الرّفيع حتّى منتصفها، وهذا الآجر من جنوة، وبأعلى الحيطان فتحات بها نقوش مجصّصة تمثّل باقات من الأزهار، وتغطّيها من الجانب الخلفي من الزّجاج الملوّن بمختلف الألوان، والنّاظر إليها تترك في نفسه أثرا رائعا –على حد ذكره–[2].

إنّ معلومات كاثكارت عن منزل من منازل مدينة الجزائر تعتبر معيارا حقيقيا لما كانت عليه هذه الأخيرة، بحكم أنّه عاش مدّة طويلة في المدينة، وتبين ممّا ذكره عنها أنّه في غاية الأهميّة، كما زوّدنا بمعارف جمّة حول أثاث المنازل من أرائك جميلة فخمة، والسّجّاد التّركي، الصّناديق المطعمة بالمرجان والصّدف وترس السّلاحف، وكذا السّاعات الفاخرة، كما أنّه ذكر عادة تزيين الحيطان بالبنادق والسّيوف ذات حدٍّ أو حدّين والعديد من المسدّسات المرصّعة بالأحجار الكريمة[3]، وإن كان قد اعترف كاثكارت بأنّ حسن باشا قد صرف كلّ أمواله على هذا المنزل، ويحدّد لنا قيمة هذه الأموال، فهذا يدلّ على أنّه متابع حاذق للأحداث ومسجّل ماهر لما كان يجري حوله، الأمر الّذي زاد من قيمة ما كتبه عن مدينة الجزائر وعن الحياة الحضريّة فيها، وحتّى في أهمّ منازلها وقصورها.

غير أنّ ما ذكره فونتير دي بارادي فيه الجديد عن منازل المدينة، حيث لاحظ بأنّ أسفل المنزل مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر، وهو مغطّى بالكلس والحطب، ويبيّض ولو مرّة في العام، وبالمدينة حوالي 5000 بيت (منزل)، واعترف بأنّها كلّها مبنيّة بنفس المخطّط، وحينما نرى واحدا منها كأنّنا رأيناها جميعا ونحصل على فكرة واحدة عن هذه المنازل، الكبيرة أو الصّغيرة، غير أنّه ذكر ملاحظة مهمّة عن

---

[1] – Marcel.Emerit**," Description de l'Algérie…",** op. cit, p211.

[2]– جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص96.

[3]– نفس المصدر، ص97.

طوابق المنازل، وقال بأنّ أغلبها لا تحتوي إلّا على الطّابق الأوّل، بالإضافة إلى الطّابق الأرضي، والمدخل يفتح على السّقيفة، والباب الدّاخلي يفتح على ساحة مربّعة أو مستطيلة[1]، وقد شابه من سبقه من الرّحّالة في الوصف المعماري للمنزل من ناحية الغرف، الأعمدة، البلاط، النّوافذ، السّطوح والسّلالم...، غير أنّه شدّ انتباهه غرفة الحيوانات الأليفة الّتي هي بجانب السّلالم المؤدّية إلى الطّابق الأعلى والسّطح وأفادنا بالتّسمية التّركيّة للسّاحة فهي Pati باتي، وUaset el dar، وسط الدار بالعربيّة، والأروقة تسمّى Sahi ساحي، والدّاخل يسمّى SahiUaset el dar ساحي وسط الدّار، والجزء العلوي يسمى Sahi el âli أي ساحي العلي[2].

ويعترف سيمون بفايفر –الأسير الألماني بالجزائر أيّام نزوله بها– بأنّ ماء البحر يلمس الصّفوف الأولى من المنازل، وأنّ الدّور العالية تنتصب بجانب بعضها البعض، كلّها مبيّضة بالكلس بحيث أنّها تضفي على المدينة منظرا بديعا وساحرا من جانب البحر، وهناك مجموعة من المنازل تنفرد عن بقيّة البنايات[3]، وفي الحقيقة أنّ بفايفر لم يخصّص وصفا دقيقا للمنازل والقصور، وإنّما كان حديثه عن الحياة داخل القصر على شكل مذكّرات، نستشّف من خلاله بين الفنية والأخرى ملامح الحياة في مؤسّسة مهمّة في مدينة الجزائر ألا وهي القصبة العليا، لكن كان هذا في منتصف العشريّة الثّانية من القرن التّاسع عشر.

في اعتقادنا أنّ معلومات القنصل الأمريكي وليام شالر عن منازل مدينة الجزائرلا تقلّ أهمية عمّن سبقه، إلّا أنّه تبيّن أنّ لديه ملاحظاته الخاصّة في هذا الشّأن، حيث سجّل عدد المنازل بين 8و 10 آلاف، سقوف المنازل متقاربة الأمر الّذي يحول دون وصول أشعة الشّمس، وسطوح المنازل تمكّن من الاتّصال بين مختلف أحياء المدينة، كما ذكر بأنّ عدد سكّان المدينة قد يصل إلى 50 ألف نسمة واعترف بجماليّة مدينة الجزائر ومنازلها البيضاء وبعض المباني الفخمة، وهي من أجمل ما يرى على شواطئ البحر المتوسّط[4]، وقدّم تفصيلا دقيقا للمنزل الّذي كان يقيم فيه، وهو لا يخرج في وصفه عمّا ذكرناه آنفا، حتّى أنّه يعترف ويقرّ بأنّ منازل مدينة الجزائر مخطّطة ومبنيّة كلّها على نفس الطّراز، وأنّ تصميمها ملائم جدّا لأحوال المناخ، وأنّ هذا يدلّ على فكرة معيّنة عن الفنّ المعماري السّائد في

---

[1] –Venture de Paradis,**Tunis et Alger,** op.cit, pp109-110.

[2] –Ibid, p110.

[3]– سيمون بفايفر، **مذكّرات أو لمحة**...، المصدر السّابق، ص13.

[4]– وليام شالر، المصدر السّابق، ص96.

الجزائر[1]، لكن على مايبدو هذا ليس في الجزائر فقط، بل في المدن التي انضوت تحت الحكم العثماني مثل: تونس، حلب، دمشق، ...وغيرها، ولنا أن ندرج في هذا المقام شهادة الضّابط الفرنسي روزيه: "منازل مدينة الجزائر مفتوحة السّطوح مثلما هو الشّأن في جميع مدن الشّرق، وكلّها بنيت بطريقة واحدة "ويعترف بأناقة أروقتها ويقرّ بأنّ الأعمدة المورسيكيّة زادت من زينتها، وهي موجودة في كلّ الطّوابق على حدّ ذكره (الثّاني أو الثّالث)[2]، بخلاف من ذكر عكس ذلك.

ولنا في هذا المقام ما رسمه لسيور وويلد في رحلتهما الطّريفة إلى إيّالة الجزائر، فيما يخصّ المنزل، السّقيفة، الأروقة والشّرفات الّتي تطلّ على السّاحة[3]، وهي صور معبّرة فعلا عمّا كتبته مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه الخصوص، ونستعملها كملاحق مساعدة تلقي الضّوء على أجزاء هامّة من المنزل، كما تحيلنا عن مشاهد خاصّة عن الحياة المدينة.

والحقيقة أنّ هناك من مصادر الرّحلة الأوروبيّة من تجاهلت ذكر منازل المدينة والحياة فيها، شأنها شأن مصادر الرّحلة العربيّة، ونذكر أصحاب مصادر هذه الرّحلات من أمثال: جوزيف بيتس، السّيّد طولو، ديسفونتين، جيريت ميتزون، وكذلك: الجامعي، ابن حمادوش، المكناسي، أحمد بن عمّار، أبو راس النّاصر، الورتلاني، ابن زرفة وعبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني، ولعلّها رحلات غلب عليها الطّابع العلمي والدّيني والرّسمي وكذلك طابع السّيرة الذّاتيّة، دون اهتمام من أصحابها بالطّابع الاجتماعي وماله علاقة بالحياة مثل المنزل أو القصر.

ولنا أن نستدلّ بما أورده محمّد الطّيب عقاب كملاحظات حول **قصور مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني**، ونحاول إسقاط ذلك على ما ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

- يعتبر الفناء (السّاحة) المجال الحيوي والعصب المركزي في المسكن، وهو يتوسّط أجزاء مختلفة من القصر، غير أنّ الصّحن في المسكن يأتي مباشرة بعد السّقيفة عادة، بينما يكون في القصر منفصلا عن السّقيفة تماما.

- الصّحن هو حلقة الوصل بين الغرف والمرافق الأخرى.

- الأروقة تقوم بدور المعدّل للحرارة على الغرف في فصلي الصّيف والشّتاء.

---

[1]-وليام شالر، المصدرالسابق، ص96.

[2] -Rozet et Carette, op.cit, pp13-14.

[3]- أ.ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص20، ص26، ص40.

– اختلاف مقاسات الصّحون من قصر إلى آخر وذلك تبعا لمساحة كلّ قصر.

– عادة ما تكون الأروقة في عرضها متساوية في كلّ الأضلاع والاتّجاهات.

– الأعمدة الرّخاميّة موزّعة على مسافات متساوية فيما بينها، وهذا ما أقرّت به بعض مصادر الرّحلة، وعدد الأعمدة يختلف من قصر إلى آخر حسب المساحة طبعا.

– الغرف تمتاز ببساطتها ماعدا القلّة منها، الّتي بها بعض التّعقيدات[1]، والملاحظة الواجب ذكرها من التّأثير المناخي على تخطيط المنازل أنّها كانت غير مصمّمة أي أنّها تتخلّلها فراغات وأفنية[2]، وهذا ما كانت عليه منازل وقصور مدينة الجزائر أثناء العهد العثماني، وذلك لسهولة التّهوية الدّاخلية بإيجاد متنفّس يسمح للهواء البارد بتخلّل أجزاء الدّار، والهواء الساخن بالتّصاعد للجو، ولعلّ صغر فتحات النّوافذ الّتي تطلّ على الشّارع الموجودة في أعلى المنازل والقصور، تحفظ حرمة أهل البيت من أنظار الغرباء وتسمح في نفس الوقت بمرور الهواء والضّوء[3]، وعموما في مجمل التّصاميم الهندسيّة لمنازل مدينة الجزائر وقصورها وضعت وفق تخطيط مسبق مراعاة للعامل العقائدي من جهة والعامل المناخي من جهة أخرى (أنظر الملحق رقم 5).

---

[1]- محمّد الطّيب عقّاب، **قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني**، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص ص60-65

[2] –عبد العال عبد المنعم، **"جغرافيّة المدن عند العرب"**، عالم الفكر، المجلّد التّاسع، العدد الأوّل، ص148.

[3]- نفس المرجع ، ص149.

3- الشوارع والأحياء:

الحي واحدٌ من أحياء العرب والحي بطن من بطون العرب...والجمع أحياءٌ[1]، بينما الشّارع هو الطّريق والسّبيل الموجود في المدينة أو في تجمّع سكّاني.

اهتمّ بعض أصحاب مصادر الرّحلة، بنوعيها العربيّة والأوربيّة، بوصف شوارع مدينة الجزائر وأحيائها أثناء العهد العثماني، وتجاهلها البعض الآخر منهم، واختلف حكمهم عليها بين الاستحسان والاستهجان، فإذا كان حسن الوزّان لا يشير إليها إطلاقا، فإنّنا وجدنا اهتمام مارمول بها، فهو يسمّيها بالأزقّة وقد اعترف بأنّها مرتّبة ومنظّمة، وقال بأنّ لكل أصحاب حرفة حيٌّ خاصٌ بهم[2]، وهذا ما يجب أن يقودنا إلى تعريف الزّقاق، الّذي هو الطّريق الضّيق[3]، وعلى ما يبدو أنّ مارمول استعمل كلمة أزقّة نظرا لضيق شوارع المدينة، وهذا ما ذكره الأسير الاسباني ديغو دي هايدو، حيث خصّص فصلا تحدّث فيه عن منازل وشوارع مدينة الجزائر، وذكر بأنّ كلّ الطّرق ضيّقة جدّا وحاول أن يقارنها بما كانت عليه الطّرق في كل من غرناطة، طليطلة وكذا لشبونة، وهي لا تسمح إلا بمرور فارس واحد، واستثنى طريقا واحدا في مدينة الجزائر وهو -على حدّ ذكره- الطّريق الكبير (أين تقع السّوق)، وأكّد بأنّ هذا الطّريق يقطع المدينة على خط مستقيم من باب عزّون إلى باب الواد، وهو الأوسع، ويعتبر الطّريق الرئيسي في المدينة، وعرضه على أقصى اتّساع 40أنبون[4]، وفوق هذا الطّريق، طرق ضيّقة وكثيرة[5]، غير أنّ ما قاله هايدو أيضا يستدعي التّحقّق من أنّ الطّرق وسخة جدّا، لأنّه عندما يهطل المطر تصير كلّها سيئة، لأنّها غير مبلّطة جيّدا ماعدا الطّريق الكبير أين توجد السّوق، كما لاحظ أيضا عدم وجود طريق آخر مستقيم[6]، وعلى هذا الأساس يجب أن لا ننظر إلى اتّساع الشّوارع في ضوء اتّساعها اليوم أي في العصر الحاضر، وإنّما يجب أن ننظر إليها في ضوء ظروف تلك الفترة، ومهمّة الشّوارع أيضا، فقد كانت الشّوارع تستخدم للسّير على الأقدام، ولم تكن تستخدم للباعة المتجوّلين، لأنّ التّجارة لها أحياؤها الخاصّة بها[7]، وهذا ما أقرّته معظم مصادر الرّحلة، كما أنّ صفة ضيق الشّوارع كانت ميزة مشتركة عند

---

[1]- ابن منظور، المصدر السّابق، المجلّد الأوّل، ص775، (مادة حيا).

[2] -مارمول كاربخال، المصدر السابق،ص363

[3]- المنجد في اللّغة والأعلام، ط39، دار المشرق، 2002، ص301 (مادة زق).

[4]- أنبون: وحدة قياس في تلك الفترة .

[5] -Diego de Haedo, op.cit, p47.

[6] -Ibid, p47.

[7]- عبد العال عبد المنعم، المرجع السّابق، ص146.

بعض المدن العربيّة والأوربيّة وإن اختلفت العلّة في ذلك، لأنّ ساكن المدينة الأوربيّة يتطلّع إلى الوقاية من ريح الشتاء، كما مكّنه ضيق الشّوارع من تقليل مساحة الأوحال، وكذا وقاية السّائر فيها من المطر أو من وهج الشّمس بفضل تلك الأجزاء البارزة من المنازل[1]، وهذه الخاصيّة كانت عليها شوارع المدينة أيام التّواجد العثماني، وكما ذكرنا آنفا فإنّ الشّوارع في مدينة الجزائر لم تكن مصدر الهواء والضّوء بالنّسبة للمنازل على نحو ماهو متبع في عصرنا الحالي، إنّما كان التّقليد بما في المدن العربيّة[2] من هندسة وتصميم، غير أنّ نيكولاس دي نيكولاي الرّحالّة الفرنسي الّذي حلّ بالمدينة سنة 1551، يعترف بجمال الشّارع الكبير الآهل، حيث تسمع فيه صوت بالك بالك أي احذر احذر، وحركة الذّهاب والإياب كثيفة فيه بواسطة الخيول البربريّة الّتي لم تكن تملك لا سروج ولا ألجمة...[3]، ولا شكّ أنّ أنطونيو دي صوصا في وصفه للموقع الجغرافي اّلذي أقيمت عليه مدينة الجزائر، قد تحدّث عن شوارعها وأزقّتها، فذكر بأنّها وعرة المسالك يتدرّج علوّها إلى أن يتحوّل إلى مكان شاهق منيع[4]، وهذا ما كانت عليه معظم الطّرق في مدينة الجزائر، في حين أنّ جاو ماسكارينهاس Mascarenhas الّذي عاش في المدينة لمدة قاربت خمس سنوات وهو من أصل برتغالي، يقرّ بأنّ كل طرق المدينة تغلق على السّاعة الثّانية ليلا (deux heures)، وكلّها بها بابان ولا يفتحان إلّا قبل ساعة من طلوع النّهار، لكن في اللّيل، لا نستطيع أن نمر من طريق إلى آخر، إلّا في الطّريق الكبير أين يوجد السّوق (مكان بيع السّلع وأدوات الحرفيّين)، أين توجد هناك دوريتا التّفتيش، واحدة للمزوار والأخرى للأتراك الجنود بواسطة نقيبهم ورئيس رهطهم، كما يذكر بأنّ كلّ الجنود يشاركون في هذه الدّورية بالتّناوب[5]، وعلى هذا الأساس فالطّريق الكبير والواسع في مدينة الجزائر، كان محل اهتمام السّلطة العثمانيّة، فوفّرت فيه الأمن باعتباره محور استقطاب ونشاط في الحياة الحضريّة في المدينة، لقد أكّد بيار دان ضيق الطّرق والشّوارع في مدينة الجزائر، وقال بأنّه من الصّعوبة أن يمر رجلان متقابلان في العديد من طرق المدينة ماعدا الطّريق المفضي إلى بابي المدينة[6]، ولعلّه يقصد باب الواد وباب عزّون، وأرجع سبب ضيق هذه الطّرق إلى التّخفيض من حدّة درجة الحرارة الّتي تعرفها المدينة، خصوصا في فصل الصّيف، وهذا ما ذكره أيضا

---

(1)- عبد العال عبد المنعم، المرجع السّابق، ص146.

(1) _Raymond Andre,op.cit.

(3) –Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

(4)- عبد الله حمّادي، **جزائر القرن**...، المرجع السّابق، 264.

(5)–Joao Mascarenhas, op.cit, p68.

(6) –P.P.D'An, op.cit, p88.

الأسير إيمانويل دارندا الّذي تحدّث عن الضّيق الشّديد للطّرق، والّتي تغلق ليلا بواسطة حاجز حديدي مشبّك باستثناء الطّريق الرّئيسي الّذي يعبر المدينة من باب الواد، مرورا بالجامع الكبير وقصر الباشا إلى باب عزون [1]،

إنّ وصف شوارع وطرق مدينة من حيث الضّيق في أغلبها ماعدا الشّارع الكبير، هي ميزة اختصّت بها مصادر الرّحلة الأوروبيّة دون غيرها، ومنها أيضا بوتي دولاكروا[2]، غير أنّ الّذي يقدّم لنا مشهدا عن الحياة في هذه الشّوارع بصورة تكاد تكون كاملة هو دي تاسي، الّذي يقرّ بصعوبة السّير فيها ويقول وسط الشّوارع أقلّ ارتفاعا من الجوانب، التّجوّل في هذه الشّوارع يكون بمضايقة كبيرة، حيث توجد أعداد كبيرة من الجمال، الخيول، البغال والأحمرة المحمّلة، وهي مصطفّة وملتصقة بالجدران، كما أنّ التقاء الجنود الأتراك في هذه الشّوارع أيضا أمر مزعج جدّا، ويوصي من يذهب إلى المدينة بانتظار الجنود الأتراك حتّى يمرّون، بغية تفادي الشّجار معهم بسبب فضاضتهم وخشونة طباعهم، والّتي يتميّزون بها ويفصحون عنها[3]، كما يستثني دي تاسي الطّريق الوحيد العريض في المدينة وهو يمتدّ من حدّها الشّرقي إلى حدّها الغربي، ويصوّره على أنّه عريض جدّا، وبه توجد الحوانيت والدّكاكين الأساسيّة، للسّلع وفي كل الأيّام به سوق للحبوب والمواد الغذائيّة المستهلكة، ويرجع دي تاسي ضيق الطّرق إلى عامل أساسي مهم وهو تفادي حرارة الشّمس، إلا أنّ هذا الأمر عنده زاد من تأثير ظاهرة الزّلازل والهزّات الأرضيّة على المنازل والشّوارع وكلّ المدينة.

كما شدّ انتباهه أيضا تلك القطع الخشبيّة الموجودة في كل واجهات المنازل، والّتي تطلّ على الشّوارع[4]، وإذا كانت شهادة الدّكتور شو حول ضيق شوارع المدينة، ماعدا الشّارع الرّئيسي تنطبق على شهادات باقي الرّحّالة، بالإضافة إلى أنّها شوارع غير نظيفة عنده مثل دي تاسي[5]، فمن هنا نتساءل ما دور مصلحة النّظافة في المدينة في تلك الفترة؟ لأنّها في هذه الحالة تكون ملزمة بهذا الواجب، إذ يجب عليها أن تنقّي الأسواق من الطّين في زمن الشّتاء[6]، كما لا يجوز لأحد من التّجّار أن يترك فضلات حانوته أمامه، وإن حدث ذلك فهي تنمّ عن تقلّص دور المحتسب، الموظّف الحكومي الّذي من واجباته

---

(1) -Imanuel D'Aranda, op.cit, p97.

(2) –Marcel Emerit**," un mémoire sur Alger...**", op.cit, p18.

(3) -Laugier de Tassy, op.cit, p100.

(4)-Ibid, p100.

(5) -Thomas Show, op.cit,pp288-289 et Laugier de Tassy, op.cit, p100.

(6)- عبد العال عبد المنعم، المرجع السّابق، ص156.

الحرص على نظافة المدينة بالإضافة إلى دوره المتعدّد والمتنوّع داخل المدينة.

في حين أنّ بايسونال الطّبيب الفرنسي يقدّم تفسيرا خاصّا لضيق شوارع المدينة، فيقول أنّ الّذي يعرف الأتراك ويعرف ما يوجد في المدن التّركيّة، يدرك بأنّه من عادتهم الإنشاء الضّيق جدّا للطّرق، ولا علاقة لهذا الضّيق بالهزّات الأرضيّة مثلما حدث في المدينة سنة 1717[1]، كما صوّره البعض من الكّتّاب والرّحّالة.

بقدر ما كانت رحلة السّيّد طولو إلى مدينة الجزائر رسميّة، تمثّل هدفها في تحرير بعض الأسرى وحماية التّجارة الفرنسيّة في البحر المتوسّط، إلّا أنّنا لمسنا اهتمام هذا الرّحّالة بالحالة الأمنيّة للمدينة وتحدّث عن طريق سمّاه بطريق الجراد الموجود في حي البحرية ولفظه هو: **زنقة العربجي**، وهم أهالي يعرفون الجزء العلوي من الطّريق وهم تحت قيادة براهام دجاباجيDjabadjiBraham ولعلّه إبراهيم، وذكر بأنّ حماية المدينة في اللّيل من طرف ستّين شخصا وهم (30 من أصحاب المهن، 10 من زواوة، 10طوبجية المدافع، 5جاباجي، 5 عربجي)، كان هذا زمن شعبان خوجة (1692-1693)[2].

وبحكم أنّ حماية المدينة في اللّيل متنوّعة الأشخاص بين الأتراك الانكشاريّين من جهة والأهالي من جهة ثانية، لعلّها تلك الدّوريّة الّتي تحدّث عنها الأسير البرتغالي جاو ماسكارنيهاس، والّتي كانت تجوب الشّارع الكبير على حسب قوله.

ولقد صرّح هابنسترايت الرّحّالة الألماني بذكر تدرّج أزقّة مدينة الجزائر الّتي يعلو بعضها فوق بعض مثل مدرّجات مسرح روماني[3]على حدّ تعبيره، ولا يفوتنا في هذا الشّأن أنّ نذكر هذا الرّحّالة كان يبحث أيضا عن الآثار الرّومانيّة حيث ما حلّ وارتحل في الجزائر، إلّا أنّه يشابه زملاءه من الرّحّالة الأوربيّين في حديثه عن أزقّة مدينة الجزائر، حيث قال بأنّها غير مستقيمة وضيّقة ووسخة ويصعب السّير فيها بسبب كثرة المارّة، كما توجد بها الجمال والبغال بأعداد كبيرة، وسجّل نفس الملاحظة الّتي سجّلها دي تاسي حول أخذ الحيطة والحذر بعدم ملامسة الأتراك والاصطدام بهم، لأنّه كما يذكر ليس في مقدور أي أجنبي أن ينصف المصطدم بالأتراك، وهم متعجرفون[4]، وغير بعيد من النّاحية الزّمنيّة عن هذا الرّحّالة، فقد ذكر دالنسو كانو D'Alonso Cano معلومات قيّمة فيما يخصّ نظافة أزقّة المدينة

---

[1] –J.A.Peyssonnel, op.cit, p255.

[2] – A.Berbrugger, "**Un voyage de Paris à Alger…",** op.cit, p431.

[3]– ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص35.

[4]– نفس المصدر، ص ص36-37.

وشوارعها سنة 1768 وقال: فيما يتعلّق بالأنقاض والقمامة الّتي تخرج من المنازل، هناك بجانب كلّ الأبواب ما سمّاه بـ "FASA" مسندة إلى الحائط بطول ذراع ونصف وعرض لا بأس به، مزوّدة بحاشية من الحجارة بمقاس أنبون من الأعلى تتناسب ومخطّط الشّارع، وموضعها معروف من طرف النّاس، توضع فيها القمامة مثلما هو موجود في الثّكنات وفي الأحياء[1]، وصوّر لنا مشهدا حيّا في العمليّة حيث تحدّث عن إجباريّة استعمال الخيول في نقل الفضلات خارج المدينة، وهي مضمونة من طرف عامل مكلّف بنظافة الشّوارع والطّرق، ثمّ قدّم تفسيرا واضحا لضرورة عمليّة النّظافة، حيث رصد عمليّة تجميع الفضلات في المكان السّالف الذّكر "FASA"، حتّى لا تنقلها العربات وتدوسها خطوات الخيّالة، وهذا كلّه بسبب ضيق الطّرق، كما علّق على بلاط الأزقّة، بواسطة تلك الحجارة غير المتناسبة في مقاسها وتنظيمها[2]، ومن خلال شهادة دالنسو فيما يخصّ بلاط الأزقّة، لعلّها كانت عملية مرحليّة من طريق إلى آخر، غير أنّنا نعتقد بأنّه ليست كلّ الأزقّة والطّرق في مدينة الجزائر طيلة العهد العثماني مبلّطة، فمن الرّاجح أنّه كان هناك البعض منها على طبيعتها التّرابيّة، ومن دون شك أنّ مكان وضع القمامة كان وظيفيا إلى حدّ كبير، غير أنّ القنصل الفرنسي فاليار Vallier كتب في مذكّراته بأنّ المشاهد لمدينة الجزائر من بعيد تترك لديه انطباعا جيّدا من خلال مشهدها وشكلها الجميل، غير أنّه يصطدم بعكس ذلك حينما يدخل إليها بحيث يجد طرقها ضيّقة، نتنة ومظلمة، حتّى أنّ فارسا واحدا أثناء سيره في الطّرق يلامس الجدران بركبتيه[3]، وغير بعيد من النّاحية الزّمنيّة عن هذا القنصل فقد كتب فونتير دي بارادي (1788-1790) ملاحظاته حول طرق وشوارع المدينة، فقال: هي ضيّقة للغاية[4]، واستثنى الطّريق الوحيد الواسع في مدينة الجزائر وهو طريق السّوق الكبير، والّذي لا يتعدّى 10 أقدام عرضا، ثمّ قدّم تفسيراته الخاصّة حول وضعيّة الطّرق والشّوارع الأخرى، وذكر بأنّ ثلاثة أشخاص من الصّعوبة أن يمرّوا متقابلين، وهذه الشّوارع والطّرق وسخة ونتنة ومظلمة، ويردف قائلا وسخة ونتنة، لأنّ الكلّ يضع فضلات المنزل وقمامته في مزود أو في مكان مصنوع بجانب الباب، ومظلمة بسبب المنازل الموجودة في صفّين، وهي موثوقة غالبا بواسطة جسور متقدّمة في الطّابق الأوّل على الشّارع، ثمّ يذكر بأنّ السّير في مدينة الجزائر وفي أماكن كثيرة بها يكون في مأمن من المطر[5]، كما

---

(1) -D'Alonso Cano, op.cit, p64.

(2) -Ibid, p64.

(3) –C PH Valliere**," l'Algérie en 1781…",**op.cit, pP1.

(4) -Venture de Paradis, op.cit, p108.

(5) -Ibid, pp111-112.

يذكر الأسير الألماني تيدنا رأيه أيضا فيما يخصّ الشّوارع، وهي عنده غير جميلة، وكلّها ضيّقة ومتّسخة ومنخفضة وبسيطة البناء، وهذا كلّه عكس منظرها الخارجي الّذي يملأ النّظر بهجة[1]، غير أنّ شهادة الأسير الهولندي جيريت ميتزون تصوّر لنا مشهدا آخر من مشاهد الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر بعد العشريّة الأولى من القرن التّاسع عشر، حيث يعترف باكتظاظ شوارع المدينة بالمتفرّجين على الأسرى وهم-أي المتفرجون- يسخرون ويشتمون الأسرى[2]، ونحن هنا نتساءل: إذا كانت هذه الشّوارع ضيّقة فكيف تكتظّ بالمتفرّجين؟ حتّى وإن كان شارعها الكبير كذلك، فهل يسمح ذلك بالاصطفاف حوله للتّفرّج؟ وهو ما يؤذي المحلّات والمارّة معا.

إن كانت ظاهرة التّمتّع بالنّظر إلى العبيد من طرف الجزائريّين تذكرها العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة، مثلما فعل سمون بفايفر في مذكّراته[3]، فإنّه قد تحدّث أيضا عن شوارع مدينة الجزائر أثناء فراره من القصر، وقال بأنّها شوارع مظلمة تتميّز بالانحدار[4]، وشارع البحريّة قريبٌ من الميناء، وقد صوّر لنا بفايفر أيضا بعض المشاهد في شوارع المدينة قبل دخول الفرنسيّين إليها وبعد هذا الحدث أيضا، وقال بأنّ للشّوارع أرصفة عادة ما يصطفّ فيها النّاس[5] لرؤية الجديد، وحينما يعرقل السّير فيها عادة ما تتدخّل فرقة من الانكشاريّة وتضرب رؤوس النّاس بالعصيّ، ممّا يؤدّي إلى الهروب والانفلات[6]، وفي حقيقة الأمر أنّ بفايفر لم يقدّم وصفا دقيقا لشوارع مدينة الجزائر وأزقّتها، بل نراه في مذكّراته يصف بعض ملامح الأحداث الّتي تقع فيها وكان هذا بين (1825-1830).

لعلّ كتابات وتقارير القناصل لديها أهميّة بالغة في إبلاغ الأخبار ونقل الوقائع وتصوير الحياة لما كانت عليه، وفي هذا الإطار تندرج كتابة وليام شالر عن شوارع وطرق مدينة الجزائر، فهي عنده ضيّقة جدّا، واعترافه هذا يشبه اعتراف الباقي من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة، إلّا أنّه ينفرد بذكر المزيد، فهي أيضا عبارة عن ممرّات ليس إلّا، ومن الصّعوبة أن يمر بها فارسان دون أن يصطدما ببعضهما، لكنّها مفروشة بالحجر، ويعنى بنظافتها وصيانتها في العادة[7]، وهذا الاعتراف يفنّد ما ذكره البعض من

---

(1)- احميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيّات الرّحلة**...، المرجع السّابق، ص51.

(2)- جيريت ميتزون، المصدر السّابق، ص25.

(3)- سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص14.

(4)-نفس المصدر، ص22.

(5)-نفس المصدر، ص70.

(6)-نفس المصدر، ص70.

(7)- وليام شالر، المصدر السّابق، ص97.

أصحاب مصادر الرّحلة كفاليار وفونتير دي بارادي...وغيرهما، كما أقرّ وليام شالر بوجود شارع في المدينة هو الشّارع الكبير، والّذي فيه إمكانيّة مرور عربتين دون أن تلمس إحداهما الأخرى وطوله نصف ميل متعرّج يمتد من بابا الواد حتّى باب عزّون.

وأخذ وليام شالر على عاتقه وصف هذا الشّارع بما يوجد فيه من مقاهي ودكاكين الحلاّقين، ويكون فيه التقاء معظم النّاس، كما فيه المتاجر ومختلف الأشياء العاديّة معروضة للبيع، وشدّ انتباهه ذلك الإسكافي الّذي جلس القرفصاء وعكف بوقار على الأحذية الّتي يصنعها، دون أن ينهض من مكانه[1]، ولعل وليام شالر- القنصل الأمريكي- من بين القلائل الّذين تحدّثوا عن أحياء مدينة الجزائر، فقال بأنّها منفصلة عن بعضها البعض، تغلق أبوابها بعد صلاة المغرب مباشرة، وهي محروسة من طرف البساكرة، إلّا أنّهم يضطرّون لفتحها للسّكان الّذين يريدون الخروج منها ليلا، وذكر بأنّ هؤلاء البساكرة يخضعون لأوامر الشّرطة[2]، ولعلّ أهمّ صورة تنقلها لنا مصادر الرّحلة الأوروبيّة السّير في شوارع المدينة ليلا، والّتي هي جزءٌ من الحياة الحضريّة فيها هي إجباريّة حمل المسلم أو المسيحي مصباحا مشتعلا، واليهودي يجب عليه أن يرفع ضوءا دون مصباح، وهذا كلّه بسبب وجود تمييز بين الجانبين، وكلّ مخالف لهذه القوانين الحضريّة يعاقب بعد أن يعتقل[3].

بقدر ما سجّلنا تطابق مصادر الرّحلة الأوروبيّة في ذكر أوصاف ووضعيّات شوارع مدينة الجزائر وأزقّتها، وأحيائها مثل ضيقها وظلامها، واتّساع الشّارع الكبير الّذي هو محور حياة مدينة الجزائر، سجّلنا أيضا اختلافها في ذكر بعض الحالات والّتي منها: بلاطها، نظافتها، ساعات غلق أبواب الأحياء، وعلى غالب الظّنّ أنّ العديد من الرّحّالة كان ينقل عمّن سبقه من مصادر رحلة توفّرت له، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نضع في الحسبان أنّ وسائل نقل تلك الفترة كما صوّرتها لنا مصادر الرّحلة هي البغال، الأحمرة، الأحصنة والجمال...الّتي كانت تكترى لأغراض الحياة اليوميّة[4]، فرائحة فضلاتها تكون ملازمة للمكان حتّى وإن حدثت النّظافة، كما أنّه لا يكاد يخلو بيت من إصطبل وعادة ما يكون في أسفل المنزل، ولعلّ طرق مدينة الجزائر وأزقّتها كانت تختلف في عرضها من طريق إلى أخر، وهذا حسب تشبيه مصادر الرّحلة لعمليّة المرور بها، بين فارس وفارسين، وثلاث فرسان...وغير ذلك من الأوصاف.

---

[1]-وليام شالر، المصدر السّابق، ص97.

[2]- نفس المصدر، ص ص97-98.

[3]- نفس المصدر، ص98.

[4]- أبو القاسم الزّيّاني، المصدر السّابق، ص374.

لقد أخبرنا الرّحّالة التّنلاني عبد الرّحمان بن إدريس بتخريب الطّرق، وتضرّرها بعد حملة اللّورد إكسماوث سنة 1816، وكان هذا التّخريب عظيما[1]، وكان شاهد عيان عن هذه الحملة الإنجليزيّة، فقد قدّم في هذا الشّأن الكثير عنها وعن الحياة الحضريّة في المدينة أيامها، وتحدّث أيضا عن إعادة إصلاح وترميم ما تهدّم[2]، وعلى غالب الظّنّ أنّ هذه العمليّة مسّت الطّرق والشّوارع من دون شك، حتى شونبيرغ الرّحّالة والضّابط الألماني حينما تحدّث عن بعض دايات الجزائر والّذين منهم عمر باشا[3]، أشار إلى عمليّة الإصلاح الّتي مسّت المدينة بعد حملة اللّورد إكسماوث، وذكر بأنّ المدينة أعيدت إلى ما كانت عليه بسرعة فائقة[4]، وعلى الأرجح أنّها مسّت الطّرق والشّوارع المتضرّرة وأزيلت الأنقاض والأكوام عنها، وفيما يبدو أنّه تمّ تجنيد عددا معتبرا من العمّال والبنّائين، في حين أنّ الضّابط الفرنسي روزيه يذكر في رحلته إلى مدينة الجزائر سنة 1830 التواء طرق مدينة الجزائر وتعرّجها، في حين أنّه أقرّ بصعوبة مرور جمل محمّل بأوسع طريق، وقال أنّه في الغالب لا نستطيع السّير إلا بالجنب، وانحدار المكان يجعل السّائر يستعمل السّرعة، غير أنّه لفت انتباهه وجود السّلالم الطّبيعيّة في معظم دروب مدينة الجزائر[5].

لقد صوّر لنا كل من ليسيور وويلد الرّحّالين الفرنسيين، عدّة مشاهد أثناء رحلتهما إلى مدن الجزائر، وعلى وجه الخصوص داخل مدينة الجزائر، فكانا يصفان ما تقع عليه حواسهما وصفا دقيقا وفيّا متبوعا برسوم تدلّ على ملامح عديدة من الحياة الحضريّة في المدينة أواخر العهد العثماني، وفي هذا الشّأن كتبا وصَوّرَا الكثير عن أنهج مدينة الجزائر والّتي منها: نهج باب الواد، نهج باب عزّون، نهج الباب الجديد، نهج القصبة وحي باب عزّون، والّتي كانت لها صفات وخصائص نستخلصها من خلال الصّور في النّقاط التّالية:

- وجود ثلاثة أنهج[6] في الجزء السّفلي من المدينة وهي: نهج البحريّة نهج باب الواد ونهج باب

---

[1]- عبد الرّحمان بن إدريس، المصدر السّابق، ص212.

[2]- نفس المصدر، ص ص212-213.

[3]- عمر باشا حكم الجزائرمن (1815/4/7إلى1817/9/8) لم يتلقّ أيّ نوع من التّعليم، اتّسمت أعماله بالعدل والحلم في مدينة الجزائر، حدثت في عهده حملة اللّورد إكسماوث على المدينة. (أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات الرّحّالين**...، المرجع السّابق، ص64).

[4]- نفس المرجع ، ص64.

[5] -Rozet et Carette, op.cit, p14.

[6]- أنهج: من الفعل نهج-الأمر أبانه وأوضحه والطّريق سلكه، وأنهج: الطّريق أو الأمر: وضح واستبان والنّهج: الطّريق الواضح. (المنجد في اللّغة والأعلام،المرجع السابق، ص841، مادة نهج).

عزّون، كانت ضيّقة، بها كوات عظيمة تعلو كلّ دكّان لتحمي البائع وبضاعته من حرارة الشّمس.

– وكما يتبيّن في الصّورة أنّ هذا النّهج ليس بالضّيّق، فيه مجموعة من الدّكّاكين الصّغيرة جدّا ولعلّ مدخل باب الواد غير مبلّط، وفيه نوع من الانحدار يدلّ على وجود انخفاض في طبوغرافيّة المكان[1]، كما صوّرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

– يبدو نهج باب عزّون مبلّط، فيه حركة تجاريّة من خلال كثرة المتسوّقين والمارّة، كما أنّنا نلاحظ وجود جمال تسير في النّهج، وهي لا تأخذ عرض النّهج، بل هو واسع يسمح بمرور النّاس ووسائل النّقل الأخرى[2]، وهذا جزء من الطّريق الأوسع في المدينة.

– حي باب عزّون دياره كلّها واطئة، توجد بها دكاكين، وهو متعرج وأرضه غير مستوية، الشّيء الّذي يحول دون رؤية باب المدينة الموجود بطرف الحي[3]، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ حي باب عزّون في حركة نشطة يوميّا، بحكم اتّصاله بمدخل المدينة من النّاحية الشّرقيّة.

– هناك طرق وأزقّة كثيرة في مدينة الجزائر فوق الطّريق الرّئيسي –باب الواد باب عزّون– ومن أهمّها طريق القصبة وطريق باب الجديد، وهما يصعدان إلى قمّة المدينة ثمّ يمتدان إلى أن يلتقيا أمام قصر الدّاي بعد تعرّج طويل، ويبدو بلاط طريق باب الجديد غير متجانس من حيث تصميم حجارة التّبليط، كما توجد في هذا الطّريق دكاكين قليلة، إذ ما قورنت بالطّريق الرّئيسي في المدينة، وقد ذكر ليسيور وويلد أنّه في هذا الجزء وفقط مازالت فيه ملامح المدينة الأصليّة، بسبب وجود المغاربة الّذين يسكنون فيه، إمّا لسبب الفاقة أو لتعلّقهم به[4].

لعلّ أصدق لوحة تبيّن لنا ما ذكرته بعض مصادر الرّحلة الأوروبيّة فيما يخصّ الطّرق والأزقّة، هي لوحة نهج القصبة الّذي يرتفع متعرّجا من أسفل المدينة إلى قمّتها القصبة، وهذا النّهج مقوسٌ في عدد كبير من نواحيه، كما يبدو أيضا مبلّطا وبدرجات سلّم، وهو ضيّق إلى حد ما ومظلم بسبب تقارب البنايات من بعضها البعض، إلّا أنّه يبدو نظيفا وقليل الحركة، ولعلّ هذا كان بعد دخول الفرنسيّين إلى المدينة (1830)، على حسب ما ذكر ليسيور وويلد[5]، لأنّ سكّان المدينة كانوا يتجنّبون هذا الطّريق

---

[1]– ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص3.

[2]– نفس المصدر، ص4.

[3]– نفس المصدر، ص14.

[4]– نفس المصدر، ص29.

[5]– نفس المصدر، ص33.

حتّى لا يكون التقائهم مع الجنود الفرنسيّين.

وممّا تقدّم يتّضح بعد الشّهادات الّتي أدلى بها أغلبية أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة حول شوارع وطرق مدينة الجزائر وكذا أزقّتها مايلي:

– للمدينة شارعها الأعظم الّذي يكبر أضعاف شوارعها الأخرى.

– ضيق الشّوارع جاء استجابة للمناخ الحار، بغية تقليل وهج الشّمس في فصل الصّيف.

– السّقائف المتّصلة بالمنازل تحمي المارّة والمتردّدين على الدّكّاكين من المطر وكذا أشعّة الشّمس.

– الشّوارع في مدينة الجزائر لم تكن مصدر الضّوء للبيوت، بل هذا الدّور تقدّمه الصّحون والأفنية الّتي هي وسط الدّور والمنازل والّتي عادة ما تحوي على نوافير مياه.

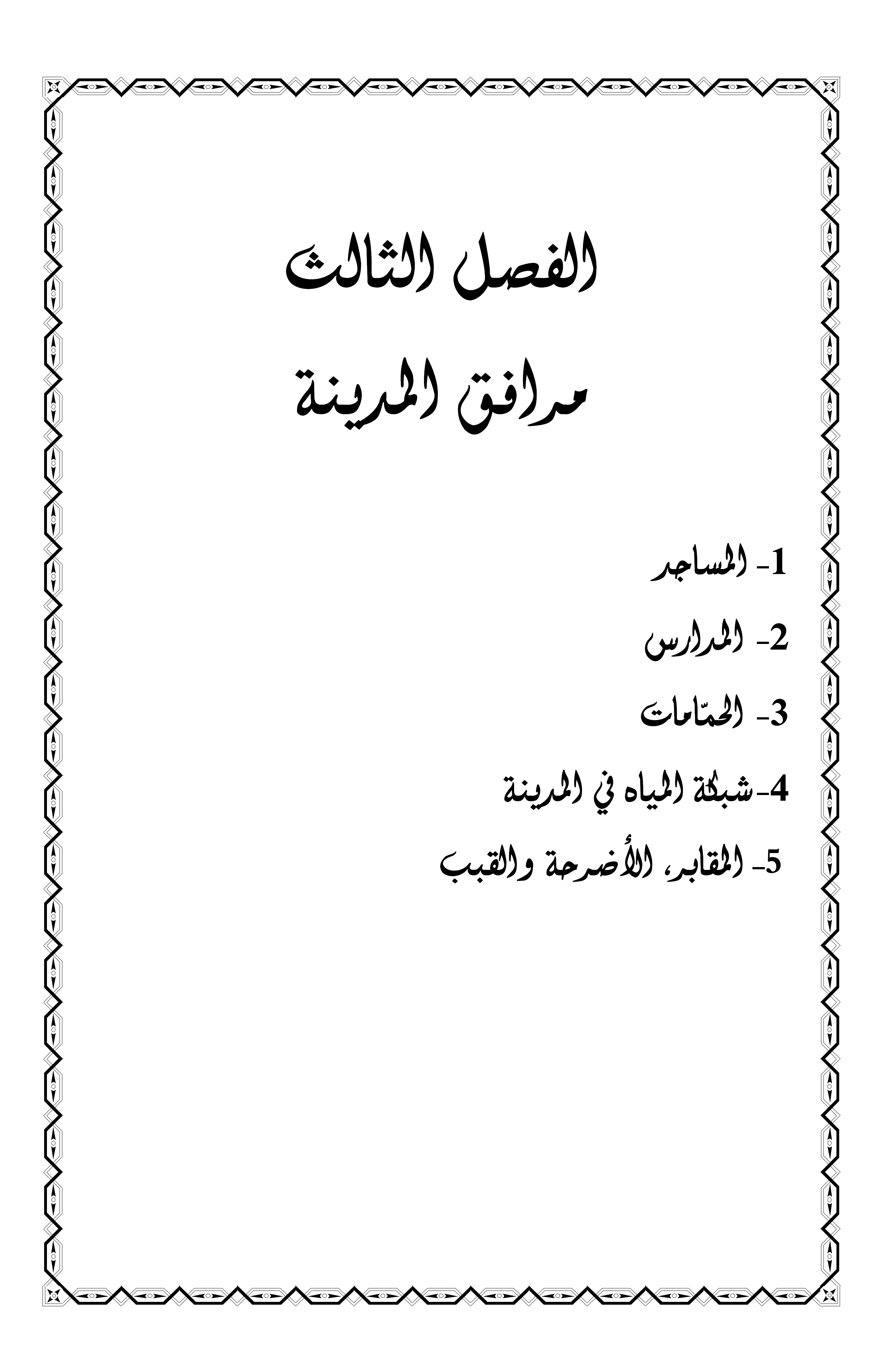
– لولا اهتمام سكّان مدينة الجزائر بالنّظافة، ما تمّ وضع دكّات مخصّصة لتجميع فضلات المنازل، ثمّ إخراجها خارج المدينة.

–يتبيّن دور المحتسب في الشّوارع والأزقّة لمعاقبة المخالفين، وكذا دور مصلحة النّظافة في تنظيفها وتجميلها.

– الشّوارع كانت تستخدم للسّير على الأقدام، ولم تكن تستخدم للبيع والشّراء، بل هذا الأمر له أمكنته المحدّدة (أنظر الملحق رقم 19 ص 368)[1].

---

[1]– عبد العال عبد المنعم ، المرجع السّابق، ص ص142-145.



الفصل الثالث

مرافق المدينة

1- المساجد

2- المدارس

3- الحمّامات

4-شبكة المياه في المدينة

5- المقابر، الأضرحة والقبب

1-المساجد:

جاء في لسان العرب أنّ المسجد المكان الّذي يسجد فيه، الصّحاح واحد المساجد، وقال الزّجاج: كل موضع يتعبّد فيه فهو مسجد، أنّ النّبي ﷺقال: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا»، وقال ابن الأعرابي: مسجَد بفتح الجيم: محراب البيوت ومصلّى الجماعات ومسجِد بكسر الجيم، وجمعها مساجِد، والمساجِد الآداب الّتي يسجد عليها[1].

من هذا المنطلق، اهتمّت العديد من مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة بذكر مساجد مدينة الجزائر إبّان العهد العثماني، لكنّ هذا الاهتمام، هل كان بالمبنى دون المعنى؟ أم لهما معا؟ أم أنّ هذه المصادر ذكرت أوصاف المساجد وهندستها وتأثيثها، كما ذكرت الحياة داخل هذه المساجد ودورها المنوط بها؟ وباعتبار أنّ المساجد مرافق هامّة وأساسيّة في الحياة داخل المدينة لاتّصالها بشؤون الحياة العامّة والمتعدّدة، وجب علينا البدء بها، فهذا حسن الوزّان يعترف بوجود جامع[2] ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر[3]، وهو من جملة البناءات المشاهدة، في حين الرّحالة مارمول يقول: "على ساحل البحر مسجد شامخ رائق يوجد في واجهته رواق ينظر إلى البحر، وجداره الموالي للبحر جزء ممتد على سور المدينة، وتتحطّم على أسفله الأمواج[4]"، لعل المسجد الكبير في مدينة الجزائر كان مجذب اهتمام الرحالة ومستقطب أنظارهم بحكم تميّزه وانفراده عن باقي بنايات المدينة، لأنّه رائع وممتاز عند الوزّان ومارمول، غير أنّ الفرنسي الرّحّالة نيكولاس دي نيكولاي يذكر بأنّ السّكان شيّدوا مسجدهم في مكان شاسع[5] ، ولعلّه يجهل تاريخ تشييد هذا المسجد، دون أن يزيد عن هذا شيئا.

غير أنّ الّذي يستحق الذّكر في هذا الشّأن ما قاله الأسير الإسباني هايدو، الّذي خصّص حيزّا لا بأس به في الحديث عن المساجد والمرابطين، وقال بأنّ في مدينة الجزائر مؤسّسات لائقة تستحقّ الثّناء وفي مقدّمتها المساجد، وذكر بأنّها في حدود المئة مسجد، ما بين الكبيرة والصّغيرة، وهي مسيّرة من طرف المرابطين، لعلّه يقصد الأئمة، ويتلو فيها القرآن في العموم، وأثناء الصّلاة في الأوقات المضبوطة،

---

[1]- ابن منظور، المصدر السّابق، المجلّد الثّالث، ص89.

[2]- الجامع، جمع جوامع: معبد المسلمين، وسمّي كذلك لأنّه يجمع المسلمين في المسجد (المنجد في اللّغة والأعلام، المصدر السّابق، ص 101،مادة الجامع-الجمعة).

[3]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

[4]- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص363.

[5] -Nicolas de nicolay,op.cit,p17.

وأضاف بأنّها مشيّدة من طرف الموريين، الأتراك والمرتدّين، ولها دخلها الخاص سواء كان كبيرا أو قليلا، يوجّه لحماية بعض الأشخاص وصيانة الوسائل والأدوات المهمّة والضّروريّة[1]، وعلى ما يبدو أنّ الإسلام يعتبر نظام الوقف الذي كان متّبعا حينها عملا محمودا، وأموال الوقف تستخدم لأغراض شتّى[2].

يقرّ هايدو في هذا المجال بأنّ هذه المؤسّسات الدّينيّة مبنية جيّدا، لديها قبب موضوعة على أعمدة وبها كذلك أقواس مبنية بطريقة جيّدة، إلّا أنّ الرّخام غير موجود فيها لأنّه غير متوفر في البلاد، وهذه الأعمدة مصنوعة من الآجر والجبس، ثمّ ذكر بأنّ المساجد المهمّة في مدينة الجزائر- أيام تواجده بها ما بين(1578-1581)- هي سبعة، وبدأ حديثه عنها بالمسجد الواسع جدّا والكبير إذ ما قورن ببقية المساجد، وقال بأنّه يقع بالقرب من الميناء[3]، وعلى الأرجح أنّ هذا المسجد الّذي ذكره كل من الوزّان ومارمول قبله في رحلتهما، ثمّ بعد ذلك أتى هايدو على ذكر بقية المساجد، فقال بأنّ المسجد الثاني يوجد في غرب المسجد الأول، أنجز سنة 1579، من طرف موري ثري جدّا، معمول بطريقة مقبولة وحجمه معتدل. والمسجد الثّالث بجوار قصر الباشا، وهو في سوق الخضر وهؤلاء الأسياد-يقصد حاكم الجزائر ومرافقيه- عادة ما يقصدونه يوم الجمعة للصّلاة.

أمّا المسجد الرّابع فيقع في طريق السّوق الكبير، وهو غير بعيد عن قصر الباشا، لكنّه موجود قبل الوصول إلى باب الواد، في حين أنّ المسجد الخامس يقع في سوق المسيحيّين الّذين يبيعون الحلفاء ويصنعون القباء (القبابطية) خلف حمّام الملك، بينما المسجد السّادس فيقع في طريق إصطبلات الباشا، وهو بالقرب منهم، وأخيرا المسجد السّابع يوجد في أعلى المدينة وقريبا من القصبة[4]، وعلى ما يبدو أنّ هذه المساجد السّبعة الّتي ذكرها هايدو، أشار إليها أيضا ألبير دوفو[5]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى اتّضح أنّ هايدو الأسير الإسباني قد تجوّل في المدينة ويعرف العديد من خباياها ومرافقها، وربّما هذا

---

(1)-Diego de Haedo,op.cit,p213.

(2) - حنيفي هلايلي.، **أوراق**...،المرجع السابق،ص186

(3) -Diego de Haedo,op.cit,pp213-214.

(4) -Ibid,p215.

ولقد تحدّث ديفولكيس عن هذه المساجد الّتي ذكرها هايدو، وقام مصطفى بن حموش بترجمة: **مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني** كما حقّقها وعلّق عليها، ط1،دار الأمةّ، الجزائر، 2007، ص30.

(5) -Albert Devoulx,"**Notes Historiques sur les mosquées et autres edifices relegieux d'ALGER**", R.A ,N°9,10,11,année 1866-1867.

راجع إلى المدّة الّتي قضاها في المدينة، والّتي ناهزت الخمس سنوات.

لقد أقدم هايدو على ذكر عدّة مشاهد في المساجد، تنمّ عن الحياة داخلها في فصل مهمّ عنونه "بمرابطي مدينة الجزائر"، وقبل هذا اعترف بقدم المسجد الكبير في مدينة الجزائر وبطريقته المتقنة في البناء، وذكر بأنّ ذلك كان يماثل ما في الحقبة الرّومانية من حيث علوّه وهندسته[1].

وفيما يخصّ الحياة داخل المساجد الّتي تحدّث عنها هايدو، فقد ربط ذلك بوجود المرابطين–الأئمة– حيث قال: هم عادة موريّون، أتراك ومرتدون يعيشون على طريقة ما، ومنهم القاضي، وقدّم فيما بعد الأسباب الثّلاثة الّتي من أجلها يوجد الأئمة في المساجد وهي على حدّ ذكره:

–الأولى: من أجل نظافة المكان وإشعال مصابيح المساجد في أوقات الصلاة.

–الّثانية: من أجل نداء العامّة للصّلاة ثمّ ذكر طريقة الأذان، وكيفيّته وعدده (5 مرات في اليوم)، وعلّق على ذلك.

–الثّالثة: من أجل إمامة النّاس أثناء الصلاة.–وفي كلّ مرّة يضفي على المشهد تعاليقه الخاصّة الّتي تدلّ على جهله بالدّين الإسلامي أو احتقاره له–.

كما أشار إلى أهمّيّة مرابط المسجد الكبير–لعلّه المؤذن–، الّذي ينادي في المنارة وحينما يبدأ في المناداة، ولا مؤذّن آخر يستطيع أن يؤذّن معه، وذكر كذلك بأنّه الأوّل الّذي يضع العلم في المنارة في منتصف النّهار، وهي عادة ملازمة حين مناداة النّاس للصّلاة، لأنّ هذا موجه للّذي لم يسمع نداء الصّلاة، فهو يرى العلم من بعيد وهذا دليل على وقت الصّلاة، وكلّ المساجد فيما بعد تضع الأعلام وتقوم بالأذان[2]، إلّا أنّه أنقص من قيمة هذا الآذان بتشبيهه الغير لائق.

وتبيّن لنا أيضا أن هايدو، إن لم يكن قد دخل المساجد إلّا أنّه كان يسترق السّمع والنّظر معا إليها، حيث ذكر بأنّ البعض من المرابطين–الأئمة– يقومون بوعظ النّاس، ويتلون فصولا من القرآن ويشرحونه ويحثّون على تطبيقه[3]، ولعلّه في هذا الشّأن يقصد حلقات الذّكر والدّروس الّتي كانت تقام في المساجد، كما شدّ انتباهه، جلوس الكثير من المرابطين في المساجد والقرآن بين أيديهم وأنّ الذي يريد سماع شيء من القرآن يأتي إلى هذا المرابط ويعطيه صدقة بعد أن ينتهي من تلاوته، وإن كانت هذه

(1) –Diego De Haedo,op.cit,p215.

(2) –Ibid, p113.

(3) –Ibid, p114.

الظّاهرة اليوم غير موجودة، ولعلّ هذا ما كان يسمى الحزاب الّذي يقرأ القرآن في المساجد.

يذكر هايدو بأنّ للمساجد عائدات تقل وتكثر، ومنها يستطيع الأئمة والقائمون على المساجد العيش بها، وأنّ الموظّفين في المساجد الكبرى والأساسيّة يتلقّون ما بين 7و8 دوبلا، كما يتحصّلون من الباشا على راتب شهري ما بين(10-12-15-و20 دوبلا "Double")[1]، ولهم عائدات أخرى حسب النّشاط، غير أنّ المشهد الّذي يستحقّ الوقوف عنده، هو ما ذكره أيضا عن بعض المرابطين الّذين يأتون بالماء إلى المدينة في فصل الصّيف، ويقدّمونه إلى الجميع طلبا للأجر من الله، ويكون هذا العمل يوم الجمعة، لأنّ المسلمين يجتمعون في المساجد، وعلى إثر هذا يدخل المرابطون إلى بيوت الله وبأيديهم كؤوس معبّأة بالماء، ويمرّون عبر الصّفوف في القاعة ويقدّمون الماء لمن يطلبه، ويكون هذا المشهد من منتصف النّهار إلى غاية العصر[2]، غير أنّ التّمقروتي في رحلته **النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركية** وأثناء عودته إلى المغرب، دخل مدينة الجزائر مرّة ثانية وذكر فيها المسجد الجامع، وقال بأنّه واسع، وإمامه مالكي المذهب، كما أقرّ بوجود ثلاث خطب، إحداها للتّرك، إمامهم حنفي المذهب[3]، وعلى غالب الظّنّ أنّ هذا السّفير المغربي، دخل المسجد الكبير وصلى به، كما أنّه قد لاحظ مسجد السيّدة القريب من مقر الحاكم، وأدرك الاختلاف بين المذهبين؛ المالكي والحنفي.

لقد أضاف الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس Joao Maçarenhas عددا من مساجد مدينة الجزائر، وقال بأنّها مائة وعشرة، وكان هذا بين 1621-1626، في حين أنّها كانت مائة فقط أيام هايدو(1578-1581)، كما أنّه أثنى على طريقة بنائها الجيّدة ونظافتها، وقال بأنّ فيها المصابيح والسّجاد، وهناك ثمانية مساجد كبرى، مزوّدة بمنارات عالية، وفي كل منارة سارية يوضع بها علم وقت الصّلاة، وهذا ما حدّثنا به هايدو، وهو لا يختلف عنه في ذكر كيفية الأذان والصّلاة[4]، غير أنّه ينفرد بملاحظة خاصّة في عدم وجود صور ولا زخرفة (طلاء) في المساجد، وتكاد كلّ المساجد الموجودة في المدينة تتبع المسجد الكبير في الآذان ورفع الرّاية، رغم استقلاليّتها في أمور أخرى، وقد ذكر بأنّ للعديد من المساجد نافورات بثلاث أو أربع حنفيّات، تستعمل فقط من طرف الأتراك، يغتسلون بها قبل آداء الصلاة[5].

---

[1] - Diego De Haedo,op.cit,p114.

[2] - Ibid , p117.

[3]- أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق،ص90.

[4] -Joao Maçarenhas,op.cit,p70.

[5] -Ibid,Ppp70-71.

إن اهتمّت مصادر الرّحلة الأوروبيّة بهندسة المساجد وألقت الضّوء على جزء من الحياة داخلها فيما يخصّ الصّلاة، الأذان وتلاوة القرآن... فإنّ مصادر الرّحلة العربيّة وعلى وجه الخصوص في هذا المرفق بالذّات، أعطت اهتماما بالغا وانفردت بوصف حقائق تعجز المصادر الأوروبيّة عن ذكرها، وفي هذا الشّأن يذكر المقرّي بعض خطباء وعلماء وفقهاء المدينة، وكذا مفتييها الّذين جالسهم وتحدث إليهم بطريقة تلك الفترة، وهي نظم الشعر[1]، وعلى غالب الظّنّ أنّ جلساتهم تلك وحديثهم ذلك، كان في معظمه داخل المساجد، فقد التقى بمفتي الحنفية الخطيب المولى محمود بن حسين بن قرمان الشّهير[2]، سيدي سعيد بقدورة[3]، ابن راس العين[4]، وعلى ما يبدو أنّ للمقري مكانة خاصّة بين علماء الجزائر وفقهائها إذ طلبوا منه علم النّحو، وحل بعض الألغاز حيث قال:

يـــا فقهـــاء حضـــرة الجزائـــر ومـــن بهـــا قـــاطع وزائـــر
طلبـــتم لـــدي علـــم النّحـــو والبـــين ســـدّد السّـــهام نحـــوي[5]

وقال له: سيدي بسعيد بقدورة:

أحاجيـــك يـــا فخـــر الزّمـــان بلغطـــة أتـــت فـــي مقـــام الرّفـــع دون محـــاذر[6]

ولقد لمسنا في رحلة المقرّي خاصيّة معيّنة تميّز بها العلماء عن غيرهم، وهم في جملتهم خطباء مساجد وفقهاء مدينة ومجمّتع، وكان التّخاطب بينهم بواسطة الكتابة المنظّمة والمنمّقة وفي معظمها عبارة عن شعر موزون، وهذا ما لم تذكره مصادر الرّحلة الأوروبيّة تماما، وفي هذا الإطار يقول سعد الله: «يدخل في شعر اللّهو الاجتماعي التّلغيز أو استخدام الألغاز بغية التّخفيف من عبء الحياة واختبارا للذّكاء وتنشيطا للذّهن»[7]، ولعلّها ظاهرة كانت منتشرة في ذلك العهد بين عناصر الطّبقة المتعلّمة.

---

(1)- أبي العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص ص 72-75.

(2)- حسين بن قرمان، هو مفتي الحنفيّة.

(3)- سيدي سعيد بقدورة: جزائري الولادة والدّار، ممّن اتّفق أهل البلد على حبّه، وتولّى الفتوى بعد رجوعه من فاس، أخذ إمامة مسجد البلاط، ثمّ خطابة جامع سيدي رمضان وتولّى الافتاء سنة 1068هـ، نور الدّين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر**، المرجع السّابق، ص 279.

(4)- ابن راس العين: كان حيّا سنة 1058هـ، رحّالة وأديب جزائري، في العهد العثماني، اشتهر بالشّعر الملحون، وكان محل تقدير العلماء. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج2، المرجع السابق، ص 267.

(5)- أبي العباس احمد المقري، المصدر السّابق، ص 74.

(6)- نفس المصدر، ص75.

(7)- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، المرجع السّابق،ص268.

اعترف الأب دان بوجود العديد من المساجد في المدينة، والّتي فيها تؤدّى الصّلاة، وهناك مسجد أساسي بالقرب من ساحل البحر، وهو على جدار المدينة المقابل للسّاحل ويسمّى بالمسجد الكبير، لاشيء فيه يستحقّ الملاحظة مثله مثل باقي المساجد[1]، وهي شهادة تنمّ عن احتقار لأقدس مكان في الاسلام وهو المسجد، كيف لا وقد اعترف العديد من أصحاب مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة بجمال هذا المسجد وطريقة بنائه وقدمه، في حين أنّ إيمانويل دارندا يقرّ بوجود عدد كبير من المساجد[2]، دون ذكر تفاصيل أخرى عنها ولا عن الحياة داخلها، غير أنّه يذكر حادثة 1517 الّتي وقعت بالمسجد الكبير وقت صلاة الجمعة من طرف بربروس وتتمثّل في قتله عشرين رجلا ثريا من سكّان مدينة الجزائر، لأنّه شكّ في نيّتهم وعدم قبولهم للوجود التّركي في مدينة الجزائر[3]، وكما هو معروف فإنّ دارندا كان أسيرا في المدينة بين سنتي 1640-1642، بمعنى أنّه كان يتكلم عن حدث قبل تواجده في المدينة بأكثر من قرن (123سنة)، ومن هذا المنطلق لم يكن شاهد عيان لما ذكره، ولعلّه اقتبسه من كتب أخرى أو سمعه، غير أنّنا نشكّ فيما ذكره عن بربروس في هذا الشّأن، خصوصا وأنّ الحادثة وقعت بالمسجد الكبير في وسط مدينة الجزائر حينها على حدّ ذكره.

والحقيقة أنّ الجامعي الرّحّالة المغربي يعترف بوجود علماء خطباء، والمساجد التي يعملون فيها في مدينة الجزائر معمورة بالتّدريس[4]، وذكر منهم ابن علي[5]، فالرّحّالة المغربي يلقي الضّوء على الحالة العلميّة في مدينة الجزائر، ويعترف بعلو شأنها ويقرّ بمكانتها، وهذا في معظمه كان في المساجد الّتي كانت تقدّم الكثير في حياة الأفراد وفي الحياة الحضريّة داخل المدينة.

ينبّئنا دي تاسي بزيادة عدد المساجد الكبرى، فيقول: نرى في المدينة عشر مساجد كبرى وخمسون صغرى[6]، ونضيف لها ثلاث مدارس كبرى، ولعلّه يقصد تلك المدارس الّتي كانت تابعة للمساجد وفي مقدّمتها مدرسة الجامع الكبير، ويبدو أنّ توماس شو الرّحّالة الإنجليزي قد اقتبس نفس

---

(1)- P.Piere.D'AN,op.cit,p89.

(2)- Imanuel D'Aranda,op.cit,p97.

(3)- Ibid,p89.

(4)- عبد الرّحمن الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث**...، المرجع السابق، ص149.

(5)- هو الشيخ محمّد بن محمّد ابن علي من أشهر أدباء الجزائر، تولّى افتاء الحنفيّة من 1150هـ إلى 1169هـ، له بناء فيه ضريح معروف باسمه في حي القصبة.

نور الدّين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر**...، المرجع السابق، ص ص 195 - 201.

(6)- Laugier de Tassy, op.cit,p104.

العبارة الّتي وردت عند دي تاسي فيما يخصّ المساجد والمدارس، إلّا أنّه أضاف مرافق أخرى تخصّ المسيحيّين واليهود، وقال بأنّ في المدينة أيضا كنيسة كاثوليكيّة ومعبد لليهود(1)، وفيما يخصّ تلك الكنيسة فقد تحدّث عنها أيضا عبد الرّزاق بن حمادوش في رحلته **لسان المقال**(2)، وهذا ما يقودنا إلى ظاهرة حريّة المعتقد في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وممارسة الشّعائر الدّينيّة كان مسموحا بها للمسيحيّين واليهود على حد سواء.

ونفس المعلومات الّتي قدّمها كل من دي تاسي وشو حول المساجد، نجدها عند الرّحالة الفرنسي الطّبيب جي أندري بايسونال(3)، لكن الملاحظة المسجّلة في هذا الشّأن هي اقتران المساجد بالمدارس عند الرحّالة الأوروبيّين، وكما هو معلوم فإنّ من أهم أدوار المساجد تعليم النّاس صغارا وكبارا، من أساسيات القراءة والكتابة إلى الشّرح والتّفسير، خصوصا ما تعلّق بالدّين الإسلامي.

وحتّى ملاحظة الآباء المسجّلة في هذا الإطار أثناء رحلتهم إلى المدينة لافتداء الأسرى، لا تضيف شيئا يذكر إلى هذا المرفق وهو المسجد، فقد أحصوا عشر مساجد كبرى وخمسين صغرى(4)، وهي نفس ملاحظة أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبية في القرن الثّامن عشر، لكنّ الشّيء المسجّل هو ازدياد عدد المساجد الكبرى في مدينة الجزائر من القرن السّادس عشر إلى القرن الثّامن عشر، ولعلّ هذا يفسرّه ازدياد العدد السّكّاني في نفس الفترة، والّذي يتطلّب زيادة في عدد المساجد.

إن لم يهتم البعض من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة بذكر المساجد في مدينة الجزائر من أمثال توماس هيز، بوتي دو لاكروا، السّيّد طولو وحتّى جوزيف مورقن، إلّا أنّ هناك من خصّص لهذا المرفق عدّة أسطر، وأقرّ ببنائها المتقن وذكر عددها ومناراتها، وفرّق بين المساجد الكبرى والصّغرى من أمثال الرّحّالة الألماني هابنسترايت(5)، والّذي ذكر بأنّ أماكن العبادة هذه لا يمكن للمار بها التّعرّف على ما بداخلها، ويعترف بأن أرضيتها مغطّاة بالحصائر والزّرابي، أبنيتها تشدّها عرصات قويّة تتدلّى بينها في اتّساق ونظام قناديل من الزّجاج، وقال أيضا بأنّ هذه المساجد تظلّ مفتوحة طيلة اليوم لأداء الصّلوات

(1)- Thomas Show,op.cit,p290.

(2)- عبد الرّزاق حمادوش، المصدر السّابق، ص119.

(3)- J. A. Peyssonnel,op.cit,p251.

(4)- Les Peres (François Camelin et autres), **Voyage pour la Redemption de captifs aux royaumes d'Alger et de Tunis fait en 1720,** avec approbation,privilége du roy, Paris, France , p98.

(5)- ج،أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص 37.

الخمس، وبفضلها يمكن تقسيم اليوم على حد ذكره. كما ذكر الآذان الّذي يرفع من المنارات وتعليق الأعلام البيض وقت صلاة الظّهر، والأعلام الخضر وقت صلاة العصر[1]، وعلى ما يبدو أنّها عادة كانت متبعة ليس في المساجد فحسب، بل حتى في السفن، كما يخبرنا نفس الرحالة الألماني، إذ يقول: هذا يسمونه بان تيرانيفا PanThera niva أي ساعة نشر علم السفينة، وبان تيرا اباسا Panthera Abassa أي ساعة طي العلم[2]، ويتّضح جليا أنّ علم المساء يطوى لمجرّد غروب شمس اليوم، ولعلّ الصّلاة كانت تقام على ظهر السّفن بحكم أنّها كانت تتّبع نفس عادة تعليق العلم فوقها مع المساجد.

أمّا عن ابن حمادوش الرّحّالة الجزائري فينبّئنا عن الحياة داخل المسجد، فيما يخصّ وظيفة حضور البخاري، ويسرد الطّريقة في هذا الشّأن ويذكر البعض من القرّاء والعلماء، الّذين كانوا يقرأون من كتّاب البخاري وعلى رأسهم الحاج أحمد الزّروق[3]، وأحمد العمالي[4]... وغيرهما، ويقدّم ابن حمادوش تفصيلا دقيقا لما كان يقرأ من البخاري بالأبواب، وتحدّث عن الصّلاة المعهودة عقب ختم البخاري[5]، وكان هذا كلّه بالمسجد الكبير، ويؤكّد ابن حمادوش على عادة قراءة البخاري في المسجد الكبير في رحلته، كما تحدّث عن الدّرس الّذي ألقاه الشّيخ الورززي أحد علماء المغرب الأقصى، على علماء مدينة الجزائر في مسجد المدرسة[6]، ولعلّها هي إحدى المدارس الكبرى الّتي تحدّث عنها أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة، ولعلّ أصدق مثال عن وجود أئمة علماء في مدينة الجزائر الذين قدّموا الكثير في حياتهم ما ذكره ابن زاكور في رحلته: **نشر أزاهر البستان**، حينما قال:«...غرر أعلام ينجلي بهم الإظلام، وشموس أئمة تنفرج بهم كلّ غمّة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة... »[7]، من أمثال: المانجلاتي[8]، عبد الواحد السجلماسي الأنصاري [9]، سعيد بن إبراهيم قدورة[1]، محمّد بن عبد المؤمن

---

[1]- ج،أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص38.

[2]- نفس المصدر، ص38.

[3]- أحمد الزّروق بن محي الدّين، تولّى الافتاء المالكي سنة 1153 هـ خلفا لمحمّد بن نيكرو، ابن حمادوش، المصدر السّابق، ص122.

[4]- أحمد العمالي: أحد القراء الذين دأبوا على قراءة صحيح البخاري في الجامع الكبير بمدينة الجزائر.

[5]- عبد لرّزاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص125.

[6]- نفس المصدر، ص 263.

[7]- **ثلاث رحلات**...، المصدر السابق، ص40.

[8]- المانجلاتي، هو أبو حفص عمر بن محمّد بن عبد الرحمن المانجلاتي، توفي سنة 1104هـ.
عادل نويهض، المرجع السابق، ص318.

[9]- هو عبد الواحد بن محمد بن عبد الله (أبو الحسن الأنصاري السجلماسي)، توفي سنة 1057هـ.
اليفرني، **صفوة من انتشر**...، المصدر السابق، ص243.

الجزائري[2]، ... حيث كانوا مقصد الطّلاّب ومنابر علم ومبتغى الإجازات، بلغة ذلك العصر، وهذا ما تفنّنت في ذكره مصادر الرّحلة العربيّة ذات المبتغى العلمي وتجاهلته مصادر الرّحلة الأوروبيّة بشتّى أنواعها، لأنّه يخرج عن دائرة إدراكها.

والحقيقة أنّ ابن زاكور قد أفاض كثيرا في المسائل العلميّة، لأنّ غاية رحلته كانت الاستزادة في العلوم بمدينة الجزائر، فألقى الضّوء على الكتب والطّرائق والمسائل وأنواع العلوم المدرّسة حينها، ونعتقد في هذا الجانب أنّ جزءًا كبيرًا منها كان يقع في المساجد، وبالأخص في المسجد الكبير، الّذي كان محط أنظار العديد من أصحاب مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة.

فالمتصفّح لمصادر الرّحلة العربيّة يدرك من خلال ما كتب، أنّه كان هناك نشاط علمي، وعادات دينيّة تقام في المساجد، كإقامة الدّروس واستقبال العلماء المهاجرين، وقراءة صحيح البخاري وكذا الصّلاة المعهودة بعد ختمه، كلّ هذا يصوّر لنا مشهدا من مشاهد الحياة داخل المساجد، يؤطّره مجموعة من العلماء وكوكبة من الفقهاء والخطباء والأئمة والأعلام.

يذكر فاليار القنصل الفرنسي مساجد مدينة الجزائر أثناء تواجده، بأنّها تشابه مساجد الشّرق، ويعترف بأنّها مؤسّسات مبنيّة بترف وعظمة، لكنّها منشأة بذوق بسيط، بوعاء واسع وهي مدعومة بعرصات، البلاط فيها مغطى بالسّجاد، والمحمدّون يجلسون على ركابهم، وهناك يوجد منبر وعظ الإمام، وتتألّف زخارف هذه المؤسّسة الدّينيّة من المصابيح، وفي ركن معيّن منها ترتفع منارة، ومن خلالها يتم تنظيم وقت النّهار، وفي شرفة صغيرة منها ينادي للصّلاة[3].

لقد أقرّ فاليار بوجود الكنائس والقساوسة في مدينة الجزائر، كما اعترف بحرية ممارسة جميع الشّعائر الدّينيّة، وقال بأنّ كل فرد يستطيع ممارسة معتقده دون خوف ولا قلق، غير أنّه ينفرد عن بقية مصادر الرّحلة الأوروبيّة بذكره وجود كنيستين للكاثوليك مع وجود كنيسة صغيرة، تقام فيها الاحتفالات والمهرجانات وأسرار الدّين المسيحي، وقد لاحظ أيضا وجود مصلّى يوناني، ومعبد لليهود[4]، وفي

---

[1]- هو سعيد بن ابراهيم قدورة، من رجال الافتاء المالكي في مدينة الجزائر في العهد التركي، تولى الافتاء سنة 1030هـ.
نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر**...، المرجع السابق، ص183.

[2]- محمد بن عبد المؤمن قاضي المالكية بمدينة الجزائر، توفي سنة 1101هـ/1690م.
نور الدين عبد القادر، نفس المرجع، ص 194.

[3]- C. PH. Valliere,op.cit,p30.

[4]- C. PH. Valliere,op.cit, p30.

الحقيقة أن دالنسو كانو الرّحّالة الاسباني، أبدى رأيه في المساجد وقال: منها الكبيرة والرّائعة والأخرى صغيرة، لكنّه زاد أربع مساجد كبرى من وقت هايدو، وذكر بأن هذه المساجد تتكون من منارات مربعة مثلما هو في الكنائس على حدّ ذكره، وعلّق على شكلها وهندستها وذكر بأنّها عربية–قوطية– تحاكي ماهو موجود في إسبانيا خلال القرنين الخامس عشر والسّادس عشر[1]، وقدّم نظرته المعماريّة في هذا الشّأن، بحيث أنّ هيئة المساجد تكون شكلا مربّعا مقسّما إلى أربع أو خمسة أروقة متناظرة ومتماثلة، لديها أقواس مدعومة بعرصات، لكنّه يشبه هذا بكاتدرائيّات قرطبة[2].

ويقول بأنّ الصّحن الثّالث الرّئيسي ترتفع فيه قبّة بمصباح، ويتطرق إلى عدد المساجد الصّغرى، والّذي أقرا بعدم استطاعته ذكر عددها، لكنّه أعطى رقم 100، وهو رقم تخميني ليس إلّا، لأنّه ذكر بأنّ لكلّ حي أو حامية مسجد وفرن، وأنّ المساجد الصّغرى فيها صومعات لخطاب العامّة، وهي تختلف حسب قدرة استقبالها للمصلّين من مسجد إلى آخر، وذكر بأنّ الصّلاة فيها تكون في أوقات استحالة الذّهاب إلى المساجد الكبرى (في اللّيل، وفي الأعياد)[3]، في حين أنّ الرّحّالة الرّوسي كوكوفتسوف يشيد بحريّة المعتقد لدى المسيحيّين واليهود في مدينة الجزائر[4]، ويظهر عدم تسامح بعض الشّعوب الأوروبية مع المسلمين[5]، ولعلّها مفارقة عجيبة تقودنا إلى طرح حقيقة وجيهة في هذا الشّأن وهي حريّة المعتقد المعترف بها في المدينة، وعدم اعتراف الآخر بمعتقدنا، وهذا ما يجيب عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[6] من جهة، وقوله تعالى أيضا ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[7].

إذ كانت المدّة الّتي قضاها كاثكارت في المدينة تفوق الأربع سنوات، وجعلت منه ملاحظا من

---

[1] – D'alonso Cano,op.cit,p61.

[2] – Ibid, p62.

[3] – Ibid,,p62.

[4] – Marcel Emerit,**" Description de l'Algerie en 1787 …",** op.cit,p211.

[5] – Ibid,p211.

[6] – القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية256.

[7] – القرآن الكريم، سورة البقرة،الآية 119.

الطّراز الأوّل لكلّ ما هو حوله، ومدّونا لما شاهد عن مظاهر الحياة الحضرية في مدينة الجزائر أيام تواجده بها، فإنّ المساجد قد أخدت حيّزا لا بأس به في وصفه لها وذكره إيّاها، فقد تحدّث عن وجود مسجد صغير بالقرب من باب البحريّة وقال عنه بأنّه: «مسجد صغير جميل بناه السيّد علي، حينما كان وزيرا للبحريّة، يقوم على أعمدة، ومفروش بالمرمر الّذي استجلب من جنوة...»[1]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الأتراك كان لهم نصيب في بناء المساجد والصّلاة فيها، وهي بالقرب من أماكن عملهم (حي البحرية)، كما كان لهم اهتمام كبير بها من ناحية مواد بنائها الواردة من أوروبا.

واهتمّ كاثكارت في هذا الميدان أيضا بذكره مسجد الدّاي، الّذي كان مقابلا للقصر تقريبا، وفيه تؤدى صلاة الجمعة من طرف الدّاي وحاشيته، وقال عنه: «بأنّه أنيق وصغير وهو يتكوّن من قاعة مغطّاة بالحصير وقطع من السّجاد» ويوافق الرّحّالة الّذين فنّدوا وجود زخارف باستثناء آيات من القرآن منقوشة بالخط العربي على الجدران، وشدّ انتباهه تلك السّدّة الّتي يقرأ منها القرآن، وكذا منبر يقف عليه الإمام لقراءة خطب الجمعة، وهو يعترف بعدم وجود فوّارة في هذا المسجد[2]، والصّلاة فيه تكون بالاستعداد بالوضوء من قبل[3].

ثمّ أتى على ذكر الجامع الكبير، وحاول أن يعقد مقارنة بينه وبين مسجد الدّاي، فقال بأنّ في الجامع الكبير ميضاء، وهو أوسع ومناراته أعلى كثيرا، وهي تضاء في شهر رمضان، مثلها مثل منارات باقي المساجد، غير أنّ به بعض الكتابات على الحيطان لا يمكن قراءتها بالعين المجرّدة، ونقل لنا مشهدا عادة ما يحدث في هذا المسجد، وهو سرقة أحذية المصلّين من طرف العبيد، لقد صرّح أيضا كاثكارت بأسبقيّة الجامع الكبير في رفع العلم أثناء حلول وقت الصّلاة، ثمّ تحذو حذوه المساجد الأخرى[4]، وهذا ما ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه الخصوص.

ومن مصادر الرّحلة العربيّة الّتي اهتمّت اهتماما بالغا بالمسجد هي **التّرجمانة الكبرى** لصاحبها أبي القاسم الزّياني، الّذي صلّى الظّهر أثناء عودته من الحجاز بالجامع الكبير، والتقى بأحد قضاة المدينة فيها وهو أبو عبد الله محمد بن مالك[5]، ثم حدّثنا فيما بعد عن المسجد الجديد الّذي أسّسه حسن

---

(1)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص69.

(2)- نفس المصدر، ص97.

(3)- نفس المصدر، ص98.

(4)- نفس المصدر، ص98.

(5)- أبوعبد الله محمّد بن مالك الشّيخ محمّد بن مالك الفقيه المعاصر للشّيخ بن جعدون. (نور الدّين عبد القادر، **صفحات من تاريخ الجزائر**...، المرجع السابق، ص195).

باشا[1]، ولعلّه جامع كتشاوة، حيث صلّى فيه صلاة الجمعة وعاود الذّهاب إليه مرة أخرى لمعاينته، فأتى على ذكر تفاصيله وهندسته، وقال فيه وفي بانيه أبياتا شعريّة[2]، تدلّ على حبّه لهذا المرفق ولصنيعه ولنا أن نستدلّ بالبعض منها:

صـــــيّرني مســـــجدا لله عمرنـــــــي   بالــــذّكر ذاك الّــــذي عظـــم مقــــداري.

أمهـــر مـــولاي أكياســـا بـــلا عـــدد   فـــي زينتـــي ليـــرى حســـني وأنـــواري.

أقــام فــي خــدمتي حــورا علــى ســرر   هـــنّ شموســـي وإن أمســـي فاقمـــاري[3].

وعن باني جامع كتشاوة حسن باشا قال:

ابشـــر فقـــد فـــزت بـــالفردوس والرّتـــب.   فخـــر السّـــلاطين بنـــى الـــورى حســـن

إن جئـــت روضـــته شـــوقا علـــى ضـــمأ   فأقصـــد إلـــى منهـــل أرفتـــه وأشـــرب[4].

وهذا يدلّ على أهميّة بناء المساجد طلبا للأجر والثّواب في الآخرة، حيث استدلّ الزّياني على هذا بما ورد في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة، ولا يفوتنا في هذا المقام إلا أن ننوه بأنّ الزّياني ذكر بأنّ مكان جامع كتشاوة كان منطقة للأشرار، يباع بها الخمر للكفّار، فاشتراها حسن وصيّرها مسجدا جامعا للإسلام، من ماله الخاص، وجعل أسفل هذا الجامع دكاكين ومقاهي وقفا عليه، كما أنّ قبلته تحقّقت بأهل العلم والفتوى، والحقيقة أنّ الزياني انبهر أيّما انبهار بهذا المسجد الجديد وممّا ذكره أيضا، أنّ فيه كان يصلّي الأمراء وكبار الضباط وأعيان الدّيوان، وأنّ به كذلك كشكا يجلس فيه المؤذّنون وأهل الألحان والقراءات، ومن له وظيفة بالمسجد كالموقّت والرّاوي للأحاديث[5]، ولنا نحن أن نقرّ من جهتنا أنّ الزّياني الرّحّالة المغربي كان ملاحظا دقيقا ومسجّلا بارعا لما شاهد وعاين، ولعلّ هذا التّسجيل والمشاهدة تحكّمت فيهما حبّ الزّياني لهذا المرفق بصفة عامّة وجامع كتشاوة بصفة خاصّة، وكذا هندسة الجامع الرّائعة وبناؤه المتقن وجماله الفائق، الّذي سلب أنظار الزّياني فراح يكتب عن تفاصيله الدّقيقة، فصوّر لنا مشهدا حقيقيّا عمرانيّا (عماريّا) كان ولا يزال إلى يومنا هذا.

---

(1)- حسن باشا، داي الجزائر (1791-1798)، عين بعد وفاة محمّد باشا، وفي عهده نشبت الحرب بين الجزائر والسّويد وأمريكا. وانهزم الاسبان بوهران وغادروها.

(مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات**...، المرجع السّابق، ص175).

(2)- أبي القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص ص 378-379.

(3)- نفس المصدر، ص378.

(4)- نفس المصدر، ص379.

(5)- نفس المصدر، ص ص 376-377.

وإن انفرد الزّياني بهذا الوصف للمسجد فإنّ القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي، الّذي كان في المدينة أواخر القرن الثامن عشر (1788-1790) قال بأن في المدينة اثني عشر مسجدا كبيرا، لديها كلّها منابر ومنارات، وعددا كبيرا من المصلّيات (المساجد الصّغرى)، وذكر بأنّ الجامع الكبير تحت وصاية المذهب المالكي، وقال أيضا بأنّ منارات المساجد لديها خادمها ولعلّه يقصد المؤذّن، الّذي ينادي النّاس للصّلاة في أوقات محدّدة من خلال شرفة بيضاء تقع في المنارات المذكورة[1]، ثمّ تحدّث عن ذاك المشهد الخاص بمدينة الجزائر، والّذي تعلّق فيه قطع القماش البيضاء من منتصف النّهار إلى الواحدة والنّصف في شرفات المنارات، وكذا تلك القطعة الخضراء الّتي تعلّق وقت صلاة الجمعة، وقد أعطانا اسم بانديرا باسا bandiera bassa، وهي ساعة ونصف بعد منتصف النّهار وتسمّى كذلك، وربط هذا الوقت بمنزل الدّاي الّذي يتمّ فيه القرع بالعصي، وفيه أيضا ينادى الأوروبيّون إذ كانت لديهم أعمال وانشغالات بغية معالجتها، بينما بانديرا أريفا bandiera Arriva تعني وقت منتصف النّهار[2].

تكاد تكون معلومات هذا القنصل عن المساجد نفسها في باقي مصادر الرّحلة الأوروبيّة، فيما يخصّ وقت النّهار بالآذان، والعدد الكبير للمصلّيات أو المساجد الصّغرى، وذكر مناراتها، غير أنّنا سجّلنا زيادة في عدد المساجد الكبرى، على حد ذكره (من عشرة مساجد إلى اثني عشر مسجداً)، وتجدر الإشارة أيضا في هذا المقام أنّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة اهتمّت بذكر العدد فيما يخصّ هذا المرفق، أو غيره، وهذا ما تجاهلته مصادر الرّحلة العربيّة، والّتي تهتم بشؤون أخرى أدقّ من العدد، فهذا الرّحّالة الجزائري ابن عمّار ذكّر بما كان يحدث في المساجد لمجرد دخول شهر ربيع الأول[3]، من نظم القصائد المديحيّة والموشحات النّبوية، وله في هذا القصد ما قاله:

يـــا نســـيما بـــات مـــن زهـــر الرّبـــا ... يقتفـــــــــــي الرّكبـــــــــــان.
احملـــــن منّـــــي ســـــلاما طيبـــــا ... لأهيـــــــــــــل البـــــــــــان.
اقـــــرأن منّـــــي ســـــلاما عبقـــــا ... إن بـــــــــــدت نجـــــــــــد.
إنّ لـــــي قلبـــــا إليهـــــا شـــــيّقا ... شـــــــــــقّه وجـــــــــــد[4]...

وعلى ما يبدو أنّ العديد من علماء مدينة الجزائر وفقهائها قد دأبوا وتعوّدوا على مثل هذه

---

(1) – Vanture de Paradis,**Tunis et Alger…,** op.cit,p254.

(2) – Ibid, p255.

(3)– أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص 15.

(4)– نفس المصدر، ص16.

القصائد مثل أحمد المانجلاني وابن علي... وغيرهما، وهذا ما أخبرنا به ابن عمّار في رحلته[1]، ووجدنا فيما حقّق وقدّم سعد الله في تأليف أشعار جزائرية، مقدّمة لقصيدة المانجلاني في المديح النّبوي[2]، تدلّ حقا على حبّهم للرّسول ﷺوباعهم الطّويل في مثل هذا النّظم، ولعلّها كانت في معظمها تلحّن وتقرأ في المساجد، وهذه الخاصيّة في ذكر مثل هذه المشاهد الّتي كانت تحدث بمعظم مساجد مدينة الجزائر، انفردت بها مصادر الرّحلة العربيّة دون غيرها من الأوروبيّة، والّتي لم تكن لتدرك مثل هذه الحياة الأدبيّة والدّينيّة في أهم مرفق من مرافق المدينة، ألا وهو المسجد، والّذي وجدنا له حضورا في رحلة أبو راس النّاصر، لكن في الجامع الكبير، حيث كان ملتقى العلماء، وقد قال هذا الرّحّالة فيه بأنّه محطّ أهل التّنسّك المخبتين الوافين والّذي بناه أبو تاشفين[3]، فبقدر ما حدّثنا هذا الرّحّالة عن باني هذا الجامع، فقد حدّثنا أيضا عن المسائل العلميّة الّتي كانت تناقش في حضرة علماء المدينة، والّذين منهم محمّد بن مالك[4]، السّيد الحاج محمد ابن الشاهد[5]، وكذا السّيد محمّد بن الحفّاف[6]، وهذا ما صمتت عنه مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

وللإشارة أيضا أنّ محمّد أبو راس التقى بصاحب رحلة **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب** أحمد بن عمّار وأثنى عليه كثيرا، وفي ذلك الوقت كانت رحلته معروفة حسب ما أخبرنا أبو راس[7].

ويحدّثنا ابن زرفة العمري في رحلته القمريّة، أنّ المساجد تضررت جرّاء الغزو الفرنسي لمدينة الجزائر، وكان هذا في بداية سنة 1093هـ[8]، أيام بابا حسن دولاتلي[9]، دون زيادة أو نقصان، دون

---

[1]- أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص ص 34-39.

[2]- ابن علي، ابن عمار وآخرون، **أشعار جزائرية**، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1988، ص 1773.

[3]- محمّد أبو راس، **فتح الإله ومنته**...، المصدر السّابق، ص96.

(هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، المصالي الصّنهاجي، اللّمتوني الحميري أمير المسلمين وملك المسلمين وسلطان المغرب الاقصى وهو الذّي بنى الجامع الأعظم بمدينة الجزائر سنة 460هـ / 1068 م، محمّد أبو راس، نفس المصدر، ص123).

[4]- هو الفقيه المعتبر، كان معاصرا لمجموعة من العلماء في ق 18 م.

[5]- الشّيخ محمّد بن الشّاهد، فقيه وأديب بارع صاحب القصائد.

نور الدّين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر**...، الرجع السّابق، ص195.

[6]- الشّيخ محمّد بن الحفّاف كان جميل الأفعال والأوصاف من العلماء الفقهاء وهو معاصر لمجموعة من العلماء في القرن 12هـ/18.

نور الديّن عبد القادر، نفس المرجع، ص 195.

[7]- محمّد أبو راس، المصدر السّابق، ص92.

[8]- ابن زرفة العمري، المصدر السّابق، ص92.

[9]- بابا حسن: حسن قبطان التريكي تولى قيادة الجزائر مرتين (إبن المفتي حسين بن رجب، **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائروعلمائها**، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع،الجزائر،2009، ص55.

ذكره كيف كان هذا الضرّر؟ أو مكانه؟ أو حتّى أسماء المساجد الّتي تضرّرت من ذلك الهجوم.

تحدّث تيدنا عن ظاهرة كانت موجودة في مدينة الجزائر أثناء الحكم العثماني، وهي الاعتصام في أحد مساجد المسلمين المقدّسة، طلبا للصّفح أو الحريّة، حيث اعتصم هو بأحد هذه المساجد يريد تحقيق رغبته في العودة إلى بلاده بمجرد وصول مبلغ فدائه[1]، وتحقّقت رغبته بعد مدّة زمنيّة قاربت الخمسة عشر يوما من خروجه من ذلك المسجد، لكن لم يحدّد اسم هذا المسجد ولا مكان تواجده، ولا حتّى أوصافه، وعلى غالب الظّنّ أنّه ضريح لرجل صالح أقيم حوله مسجد، والعثمانيون يبجّلونه ويوقّرونه، وإن حدث أنّه التجأ إليه أحدٌ ما، فإنّه يفوز بمبتغاه، وهذا ما ذكره أيضا حمدان بن عثمان خوجة[2].

والحقيقة أنّ ويليام شالر يعترف بأنّ المسيحي غير مسموح له بالدّخول إلى المساجد، لذلك لم يأت على ذكر أوصافها، غير أنّه قال بأنّها من المباني العموميّة، وهناك تسعة مساجد كبيرة إلى جانب عدد لا يحصى من المساجد الصّغيرة[3]، وعلى هذا الأساس فمن غير المعقول أن تتناقص المساجد الكبرى بل تزيد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا ندري السّند الحقيقي الّذي اعتمد عليه شالر في هذا الشّأن.

إنّ عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني تزامن وجوده في مدينة الجزائر مع حملة اللّورد إكسماوث، فقال إنّ عددا كبيرا من منارات المساجد قد خرّبت جرّاء القصف، وقد شاهد في الجامع الكبير بعد تسعة أيّام من القتال أعضاء لقتلى، منهم من كان ينقل خراب الجامع على حد ذكره[4]، وفي موضع آخر، حينما تحدّث عن إعادة بناء ما خرّبته حملة اللّورد إكسماوث في مدينة الجزائر، فقد ذكر بأنّ عمر باشا[5] قد أفرد طائفة من المعلّمين لبناء المسجد الكبير المنسوب للمالكيّة، وأنّ آثار التّخريب امتدّت إلى مسجد

---

(1)- أحميدة عميراوي، **الجزائر في**...، المرجع السّابق، ص ص 118-120.

(2)- حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري،ط1،ش.و.ن.ت،الجزائر،1982،ص88.

(3)- ويليام شالر، المصدر السّابق، ص98.

(4)- عبد الرّحمن بن إدريس، المصدر السّابق، ص ص 212-213.

(5)- عمر باشا: أصله من جزيرة ميتلان، وكان لا يتكلّم اللّغة العربيّة، بعد عشر سنوات من وصوله إلى الجزائر، بلغ رتبة آغا، ثمّ تقلّد منصب حكومة البلاد في 1815/04/10.

عبد الرّحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج3، المرجع السابق، ص 318.

الحنفيّة عند سوق الحوت، وكذا قبّة الشّيخ العلاّمة عبد الرّحمن الثّعالبي[1]، هذا الأخير الّذي كتب عنه المكناسي في رحلته **إحراز المعلى والرّقيب** ما وجده مدوّنا في خشبة معلّقة على ضريحه[2].

إن كان شونبيرغ غير مهتم بذكر المساجد، ولا الحياة فيها، إلّا أنّه دوّن حادثة مهمّة يقول بأنّه استمدّها من شخص عاش في المدينة لفترة طويلة، وهذه الحادثة وقعت يوم 18 سبتمبر 1801، حينما كان الدّاي يؤدّي صلاة الجمعة في مسجد قريب من القصر، اقتحم هذا الأخير من طرف تركي يدعى بالي خوجة وأعلن نفسه دايا، في حين أنّ الدّاي مصطفى بقي في المسجد المذكور إلى أن تمّ القضاء على بالي خوجة ورفاقه[3]، ولعلّ هذا ما يقودنا إلى اعتبار المسجد مكانا آمنا للتّحصّن والاختباء ولو لمدّة وجيزة.

أما عن الضّابط الفرنسي روزيه فقد سجّل ملاحظات عديدة فيما يخصّ المساجد، واعتبرها من المؤسّسات المهمّة في مدينة الجزائر، وقال بأنّ هناك عشرة مساجد كبرى وخمسين صغرى، في حين شدّ انتباهه بأنّ المساجد الصغرى ماهي إلّا أضرحة لمرابطين أو مصلّيات، بينما الكبرى هي بنايات رائعة مقسّمة إلى ثلاثة أقسام، وبها الأعمدة، وداخل الصّحن الأكبر (قاعة الصّلاة) وباتّجاه الشّرق يوجد المحراب، (فتحة صغيرة موجودة في الحائط)، فيها يقف الإمام لتأدية الصّلاة، وبجانبه يوجد المنبر المصنوع من الخشب، وفي بعض الأحيان من الرّخام الأبيض، كما ذكر النّافورة الموجودة في الصّحن الأوّل لغرض الوضوء، وذكر أيضا تلك المصابيح المعلّقة بالسّلاسل والمربوطة بالقبّة، وهذه المصابيح تضاء في الاحتفالات الكبرى وفي الأمسيات[4].

ويتّفق روزيه مع بعض أصحاب مصادر الرّحلة فيما سجّله في عدم وجود تماثيل ولا صور داخل المساجد، ما عدا بعض آيات القرآن الكريم المكتوبة بالخط العربي، وقال بأنّ الدّخول إلى هذه المساجد يكون بنزع الأحذية، إلّا أنّه لاحظ الخشوع الكبير خلال الاحتفالات[5]، ولعلّه يقصد الهدوء والسّكينة أثناء إلقاء الدّروس. بينما الخشوع عادة ما يكون في الصّلاة.

---

(1)- عبد الرّحمن الثّعالبي: أحد العلماء البارزين في شمال إفريقيا بما تركه من آثار علميّة ومؤلّفات في مختلف أصناف العلوم، يعود أصله إلى قبيلة الثّعالبة الّتي حكمت متّيجة في نهاية القرن 8هـ/ توفّي الشّيخ سنة 873 هـ/ 1468،1469م.

مصطفى بن حموش، **مساجد مدينة الجزائر**...، المرجع السّابق، ص 151.

(2)- المكناسي، المصدر السّابق، ص 330.

(3)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص 40.

(4)- Rozet et Carette, op.cit, pp14-15.

(5) -Ibid , p15.

وفي ختام الحديث عن المساجد نسجّل اعتراف كلّ من الرّحّالين ليسيور وويلد بأنّ الهندسة المعماريّة المغربيّة لا تعنى بالتّفاصيل إلّا قليلا، ولا تنظر للبناء إلّا ككل بسيط فسيح ومتنوّع في نفس الوقت، بحيث أنّه ومن خلال المظهر الخارجي يمكن التّنبّؤ بما في الدّاخل خصوصا لدارسي هذا النّوع من الهندسة[1]، في حين أنّ ما دوناه عن مسجد كتشاوة أنّه من أجمل مساجد المدينة[2]، يكاد يتّفق مع ما سجّله الزّياني الرّحّالة المغربي الّذي انبهر به وقال فيه وفي بانيه أبياتا شعريّة، لا زالت خالدة إلى اليوم، كلّها تنمّ عن وجود اعتناء كبير واهتمام بالغ بهذا المرفق وبالحياة فيه، حتّى غدا معلما مهمّا من معالم مدينة الجزائر في العهد العثماني، وهذا باعتراف العديد من أصحاب مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة (انظر الملحق رقم 03 ، الملحق رقم 4).

2–المدارس:

لقد جاء عن ابن منظور في تأليفه: **لسان العرب** بأنّ المدرسة من الفعل درس: الشّيء والرّسم يدرس دروسا... يقولون أنّك درست أي تعلّمت، ودرست الكتاب أدرسه درسا أي ذلّلته بكثرة القراءة حتّى خفّ حفظه علي. والمدارس والمدرس الموضع الّذي يدرس فيه[3].

من هذا المنطلق والتّعريف، هل اهتمّت مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة بذكر هذا المرفق؟ وكيف كان التّعليم والتّمدرس في هذه الفترة؟ وما هي خصوصيّاته ومميّزاته؟ وما الّذي سجّلته مصادر الرّحلة في هذا الشّأن؟

لم يتحدّث حسن الوزّان الرّحّالة المغربي عن هذا المرفق إطلاقا في رحلته، بالرّغم من أنّه نزل في مدينة الجزائر ضيفا عند سفير بعث به إلى اسبانيا، وعاد حاملا معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من شاطبة إحدى مدن مملكة بلينسة[4]، وإن كان هذا الرّقم مبالغ فيه، إلّا أنّ حسن الوزّان لم يحدّثنا عن نوعيّة هذه المخطوطات ومحتواها، كما أنّ كلامه عنها جاء في سياق حديثه ليس، غير أنّ الرّحّالة التّمقروتي يعترف هو الآخر بوجود عدد كثير من كتب الأندلس في مدينة الجزائر، بل أنّ الكتب فيها أوفر من غيرها من بلاد إفريقيّة[5]، وكان هذا أواخر القرن السّادس عشر، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه

---

(1)– ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص 8.

(2)– نفس المصدر، ص9.

(3)– ابن منظور، المصدر السّابق، المجلّد الثّاني، ص969 (مادّة درس).

(4)– حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص39.

(5)– أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق، ص 90.

الكتب تنشّط الحياة الثّقافيّة والدّينيّة في المدينة، لكونها توجّه في غالبيّتها إلى الطّبقة المتعلّمة، كما اعترفا التّمقروتي أيضا بوجود طلبة العلم بها وهم لا بأس بهم إلّا أنّ حبّهم للدّنيا غلب عليهم كثيرا[1]، ولعلّ هذا الحكم نابع عن إدراك ووعي تامّين لحالة طلبة العلم.

من أهمّ مصادر الأسر الّتي تكلّمت عن هذا المرفق في القرن السّادس عشر هو كتاب هايدو، والّذي اقترنت عنده المدرسة بالمرابطين، حيث يقول بأنّ بعض المرابطين هم أساتذة مدارس، يعلّمون الأطفال القراءة والكتابة بالعربيّة والتّركيّة، لأنّ هناك مدارس مخصّصة لهذه اللّغة أو لتلك، كما يعلّمون الأطفال العد بطريقة "فيثاغور"، وطريقة كتابة الأرقام مثلما هي عند المسيحيّين، كما يعلّمونهم أشهر السّنة القمريّة، وهي الطّريقة الّتي يعيّنون بها أعيادهم ومناسباتهم الدينية[2]، في حين أنّه استهجنها.

لقد تحدّث هايدو عن القرآن الكريم، وقال بأنّه المصدر الأوّل في تعليم الأطفال، حيث يزوّدهم بالمعارف، والفهم... ثمّ تطرّق إلى المعلّمين، وقال بأنّهم لا يتلقّون راتبا، لا شهريّا ولا سنويّا، لكن حينما يصل التّلميذ إلى حفظ جزء من القرآن يقبض المعلم 2 أو 3 دوبلا "Doubles"، تقدّم له من طرف أولياء التّلميذ، وفي حالة ما إذا حفظ القرآن كاملا (في ثلاث سنوات) يقدّم للمعلّم أكلة جيّدة ولكلّ زملائه، مع هدية تتكوّن من عدد من البيك "Pics" وقطعة من قماش أو من حرير ليستعملها، أو ما بين 15 و20 دوبلا تكريما له، وهناك بعض العائلات من تقدّم له اللّباس جاهزا وهو ما يسمّى بالفرجة[3].

ثمّ صوّر لنا مشهدا احتفاليّا حيّا لحافظ القرآن الكريم، الّذي يمتطي حصانا يجول به في أرجاء مدينة الجزائر برفقة زملائه، لإعلام النّاس بأنّ هذا التّلميذ أكمل حفظ القرآن الكريم، ثمّ بعد ذلك يعود إلى منزله ويصير بدرجة أستاذ[4].

وتحدّث عن طريقة العقاب الّتي تمارس على الأطفال في المدارس، في حالة ما إذا لم يحفظوا القرآن، وهي الفلقة (الضّرب أسفل القدمين)، وصوّر مشهدا حقيقيّا عن ذلك[5]، وإذا كان هذا ما تعلّق بالأطفال فإنّ الرّحّالة المغربي أبو العبّاس أحمد المقرّي يحيلنا إلى تعليم آخر وهو تعليم الكبار، حين

---

[1]- أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق، ص90.

[2]- Diego De Haedo,**Topographie…,** op.cit,p114.

[3] - Ibid, p115.

[4] - Ibid , p115.

[5] -Ibid ,p116.

اجتماعه بفقهاء مدينة الجزائر، حيث طلبوا منه علم النّحو إذ قال:

طلبـــــتم لـــــدي علـــــم النّحـــــو والبـــين ســـدّد السّـــهام نحـــوي[1].

كما استنبطنا من رحلة المقرّي مجالسة العلماء مع بعضهم البعض[2]، وهي من دون شك مظهر من مظاهر التّعلّم والتّعليم في ذلك الوقت، ولعلّ معظمها إن لم تكن في المساجد، فهي في مدارس بعض المساجد، على اعتبار أنّ لكلّ مسجد في ذلك الزّمان مدرسة[3].

وهذا ما ينبّئنا به خصوصا الرّحّالة المغربي ابن زاكور، الّذي جاء قاصدا المدينة بغية الاستزادة في العلم، إذ يقول: في المدينة غرر أعلام ينجلي بهم الإظلام، وشموس أئمّة تنفرج بهم كلّ غمّة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمّة[4]، من أمثال "أبو حفض عمر بن محمّد بن عبد الرّحمن المانجلاتي، سعيد بن إبراهيم قدّورة، أبو عبد الله سيدي محمّد بن عبد المؤمن الحسين الجزائري، أبو عبد الله سيدي محمّد بن أبي عثمان، سعيد بن إبراهيم، أبو عبد الله بن خليفة"، ولعلّ القيمة العالية لهذه الرّحلة أنّها تلقي الضّوء على الجانب العلمي والتّعليمي، حيث يحدّثنا صاحبها عن الإجازات الّتي تحصّل عليها من أعلام وعلماء المدينة، وكذا المواد الّتي درسها، وعلى سبيل الذّكر لا الحصر نذكر: **جمع الجوامع** للإمام السّبكي[5]، **مختصر ابن حاجب**[6]، **تلخيص المفتاح**[7]، **أرجوزة ابن التلمساني** في الفرائض، **صحيح البخاري**...، والجدير بالذّكر في هذا المقام أنّ في إجازات هؤلاء العلماء لابن زاكور ما تعلّموه عن شيوخهم، وهذا ما دلّنا عليه ابن زاكور نفسه في رحلته، ولعلّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة لم تكن لتدرك هذا النّوع من التّعليم ولا مواده ولا كيفيّته.

فإن كانت رحلة ابن زاكور تندرج في إطار الرّحلات العلميّة، فإنّ بوتي دولاكروا المبعوث الرّسمي

---

(1)- أبي العباس أحمد المقرّي، المصدر السابق، ص 74.

(2)- نفس المصدر، ص72.

(3)- مصطفى بن حموش، **مساجد مدينة الجزائر وزواياها**...، المرجع السّابق.

(4)- ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص 40.

(5)- **جمع الجوامع**: كتاب في أصول الفقه من تأليف عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السّبكي أبو نصر تاج الدّين الشّافعي توفّي سنة 711هـ.

(6)- **مختصر ابن حاجب**: المسمّى **منتهى السّول والأمل في علمي الأصول والجدل** ومختصره هو المعتمد في التّدريس شرقا وغربا.

(7) - **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان**: وهو تلخيص لكتاب مفتوح العلوم للسّكاكي تأليف محمّد بن عبد الرّحمن بن عمر بن أحمد بن محمّد بن عبد الكريم جلال الدّين، توفي سنة 739هـ.

الفرنسي إلى مدينة الجزائر تحدّث عن المدارس في مدينة الجزائر[1]، ورحلته تندرج في إطار البعثات والرّحلات الرّسميّة، وقدّم مختصرا بعنوان **مذكّرة حول مدينة الجزائر سنة 1695**، حيث أنّ ملاحظته كانت في كيفيّة قراءة القرآن وترتيله، وكذا عقاب المتمدرس بضربه أسفل رجليه إن لم يحفظ القرآن، أو مكافأته إن هو حفظه [2]، بمثل ما ذكر هايدو[3].

تنفرد مصادر الرّحلة العربيّة بذكر نوعيّة التّعليم وقيمته، وكذا انتشاره في مدينة الجزائر في العهد العثماني، ومن أهمّ هذه المصادر؛ **رحلة الجامعي**، هذا الرّحّالة المغربي الّذي اعترف وأقرّ بأنّ مدينة الجزائر دار الجوهر الفرد في الأدب وعلم النّقل والعقل، وأنّها تنبت العلماء والصّالحين، كما تنبت السّماء البقل، كما لا تخلو من قرّاء نجباء وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتّدريس معمورة ومكاتب أطفالها بالقراءة مشحونة ومشهورة[4]، كما أنّه أثنى على صفات علماء المدينة، الّذين هم في الأصل أساتذة وشيوخ ومعلّمون، وذكر تضلّعهم في علوم النّحو والفقه والحديث، وقال في هذه الحاضرة-أي مدينة الجزائر- نحو مائة مكتب ملأى بالأولاد، حيث أنّ المحل الّذي لا يسع التّلاميذ يجعلون فيه سدّة يصعدون إليها بالدّرج يتعلّمون القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن الكريم، وحفّاظه كانوا كثيرين...[5]، ومن خلال حديث هذا الرّحّالة نستشفّ نوعين من التّعليم؛ تعليم الكبار وعادة ما يكون في المساجد أو المدارس الملحقة بها، وتعليم الصّغار ويكون في الكتّاب، ولا يكاد يخلو حي في مدينة الجزائر من كتّاب، وعددها الكبير أقرّ به الجامعي، ولعلّ القاسم المشترك في مصادر الرّحلة المغربيّة في هذا الشّأن، اعترافها بمكانة مدينة الجزائر العلميّة والتّعليميّة سواء كرحّالة مارّين على المدينة، أو كقاصديها بغرض العلم والتّعلّم.

هناك من مصادر الرّحلة الأوروبية من أقرّ أصحابها بوجود مدارس كبرى، عموميّة وهي في عددها ثلاثة[6]، منهم الدّيبلوماسي الفرنسي دي تاسي، كما ذكر العدد اللامتناهي للمدارس الصّغيرة المخصّصة للأطفال[7]، لكنّنا من هذه الزّاوية نقرّ بوجود عدد معيّن لهذه المدارس، ورغم كثرتها صعب

---

(1) -Marcel Emerit , "**un mémoire sur Alger ...**", op.cit,p19.

(2) -Ibid , p19.

(3) -Diego De Haedo, **Topographie... ,**op.cit,p116.

(4)- عبد الرّحمن الجيلالي، **تاريخ المدن**...، المرجع السّابق، ص ص 149-150.

(5)- نفس المرجع، ص 150.

(6) -Laugier de Tassy, op.cit,p104.

(7) -Ibid,p104.

على دي تاسي عدّها والتّحقّق من عددها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتبيّن لنا أنّ التّعليم في الكتّاب أو المدارس الصّغيرة كان منتشرا، ولو أنّه تعليم قاعدي لا يخرج عن الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم، إلّا أنّه يبعد الأميّة ويقلّل من نسبتها في أوساط سكّان مدينة الجزائر حينذاك، ونفس العبارة الّتي ذكرها دي تاسي نجدها عند الدّكتور الرّحّالة شو في هذا الشّأن[1]، إلّا أنّ هذا الأخير لديه إضافات في شأن المدرسة والمتمدرسين، حيث يقول بأنّ الأهالي والأتراك يرسلون أبناءهم إلى المدرسة في سن السادسة، فيتعلّمون القراءة والكتابة دون استعمال الورق، والّذي يعوّض بلوح خشبي دقيق ومربّع، ويطلى بطبقة خفيفة من الصلصال، تسهّل إزالة الحروف الّتي خطّت عليه، وعندما يحرزون تقدّما في تعلّم القرآن الّذي يعلّم لهم أوّلا، يتعلّمون بعد ذلك جميع قواعد دينهم باهتمام بالغ، ويذكر كيفيّة الاحتفال بالطّفل الّذي يختم القرآن[2]، ويكاد يكون هذا الاحتفال تقليدا متّبعا، سجّلناه عند هايدو في القرن السّادس عشر، مثلما ذكرناه آنفا.

والحقيقة الّتي يذكرها شو في ميدان العلوم، أنّ المسلمين كانوا سبّاقين في دراسة الفلسفة والرّياضيّات والطّب[3]، إلّا أنّ هذا التّقدّم والاهتمام قد ولّى أيام العثمانيّين، وصار الاهتمام بالعلوم النقليّة فقط وعلوم الدّين، ويحدّد شو أجر معلّم المدرسة، بفلسين[4]أسبوعيا عن كل تلميذ، عكس ما ذكره آخرون من أمثال "هايدو"، وهنا تكمن المفارقة بين أصحاب مصادر الرّحلة وآخرين، ومن الرّاجح أنّ هذا كان مطبّقا في مدارس دون أخرى، وذلك راجع إلى تفاهم أولياء المتمدرسين مع معلّمي القرآن على المبلغ الواجب إعطاؤه له.

لقد أضاف شو معلومة مهمّة فيما يخصّ تعلّم الطفل، بعد أن يقضي ثلاث أو أربع سنوات في المدرسة يعلّم حرفة ما، أو يجنّد بإحدى فرق الجيش، ويصبح سانجا قدار "Sanja Cktar" أو معلّما في الجيش، وكذلك موظّفا في تحصيل الأتاوات ومستخدما في مكاتب الجمارك، وهم الّذين لا ينسون ما تعلّموا بحكم وظائفهم[5].

---

(1) -Thomas show, op.cit,p290.

(2) -Ibid, p78.

(3) -Ibid,p77.

(4)- مفردها فلس وقد ذكرها ب Sol=Sou: عملة فرنسيّة قديمة من النّحاس أو البرونز تعادل الجزء العشرون من الفرنك. زكريا العابد، المرجع السّابق، ص 110.

(5) -Thomas Show, op.cit,pp78-79.

وقد قال شو الكثير عن العلوم، وأعاب على السّكان عدم الاهتمام بعلوم العصر، مثل (علم الفلك، علم الكيمياء، الطّب، علم الحساب والجبر...)[1]، وفي اعتقادنا أنّ هذه حقيقة تاريخيّة، فهناك بون شاسع بين العلوم العقليّة والعلوم النّقليّة، هذه الأخيرة الّتي كان الاهتمام منوطا بها دون غيرها، وهذا ما وقف عليه الأستاذ أبو القاسم سعد الله[2]، باستثناء القلّة القليلة من أمثال ابن حمادوش الّذي زاوج بين علم العقل وعلم النّقل وهذا ما لمسناه في رحلته.

إنّ ملاحظة أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة حول المدارس الكبرى والصّغرى في القرن الثّامن عشر (لوجي وشو وبايسونال وحتّى الآباء) تكاد تكون نفسها، فهي ثلاثة كبرى وعدد لا يحصى للثّانية، غير أنّها لا شيء خصوصي فيها، على حسب رأي الطّبيب الفرنسي بايسونال[3]، في حين أنّ كل من الآباء جوزيف وفرنسوا كامولين وفليب دو لاموت –في رحلتهم لافتداء الأسرى–، قالوا بأنّ المدارس مبنيّة بواسطة العامّة[4]، وهذ يدل على عدم اهتمام العثمانيّين بهذا المرفق.

وليس هناك ما هو أصدق من موقف ابن حمادوش الّذي نقل ابنه من كتّاب العمّالي إلى كتّاب الشّمّاعين[5]، ليثبت اهتمام سكان مدينة الجزائر بتعلم أبنائهم القرآن العظيم، وحرصهم الشديد على هذا الأمر.

ويحدّثنا هذا الرّحّالة في جانب آخر عن مدرسة الجامع الكبير، حينما حضر الورززي –العالم المغربي– وألقى درسا في التّفسير، وكان هذا في الرّابع من شوال سنة 1159هـ[6]، وفي اعتقادنا أنّها إحدى المدارس الكبرى الّتي تحدّثت عنها مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

لقد خصّص فاليار حيّزا كبيرا للحديث عن المدرسة والتّربية، فقد قال عنها بأنّها غرف صغيرة موجودة في كل حي من أحياء المدينة، بها معلّم يحمل بين يديه عصا، والمتمدرسون يجلسون القرفصاء خلف بعضهم البعض، وشدّ انتباهه الوسائل المستعملة في تلك الفترة، وعدم وجود دفاتر للتعلّم، وقال

---

(1) - Thomas Show, op.cit, pp79-81.

(2)– أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**،ج1، المرجع السابق،ص352.

(3) –J. A. Peyssonel, op.cit,p251.

(4) –P.P. Francois comelin et autres, op.cit,p89.

(5)– عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص221.

(6)– نفس المصدر، ص263.

بأنّ أصوات المتمدرسين تملأ الشّوارع عند قراءتهم للقرآن[1]، وفي مقام آخر ذكر بأنّ الفتيات لا يتلقّون أيّة تعليم، يبقون في المنازل، ويأخذون شيئا فشيئا بعض فنون الطّبخ استعدادا للزّواج[2]، في سن مبكّرة جدّا، في حين أنّ الأسير كاثكارت يلقي الضّوء على المدارس العموميّة، والّذي قال في شأنها أنّها أربعة[3]، ونحن لا ندري في هذا المقام، لم أضاف مدرسة أخرى عمّا ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة سواء بعده أو قبله؟ وقدّم وصفا عنها؛ بأنّها بنايات مربّعة تتألف من غرف صغيرة، فيها يتم تعلّم القراءة، الكتابة والحساب، والمعلّمون هم أئمة المساجد، يتلقّون منحة سنويّة من الحكومة إلى جانب بعض الهدايا من النّاس، والكتب المدرسيّة هي القرآن والتّفسير، ثمّ تحدّث عن الوسائل المستعملة من أقلام القصب ولوحات خشبيّة وصلصال أبيض... وغير ذلك إلّا أنّه أثنى على جماليّة الخط من خلال طريقة الكتابة على تلك الألواح، وقال بأنّ غرف المدرسة المخصّصة لنوم الطّلبة مفروشة بالحصير، والطّعام المقدّم إليهم خشن جدّا، وهم يعيشون على تبرّعات المحسنين والمتصدّقين[4].

ولا يفوتنا في هذا المقام التذكير أنّ كاثكارت اعترف بتدنيّ مستوى التّعليم في المدينة [5]، إذ ما قورن بما في العالم الغربي، من تطوّر خصوصا في العلوم العقليّة (علم الفلك، الحساب والملاحة...)، ولعلّها نفس ملاحظة العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

يقول فونتير دي بارادي بأنّ في المدينة ثلاث جامعات، أين يدرس مذهب الإمام مالك بن أنس[6]، دون أن يحدّد موقع هذه الجامعات أو أسمائها، ومن دون شك هي مدارس تابعة للمساجد الكبرى وفي مقدّمتها مدرسة الجامع الكبير، والّتي ضمّت العديد من الأساتذة والعلماء، مثلما أخبرتنا مصادر الرّحلة العربيّة[7]. وقد أثنى سيمون بفايفر على معلمه، حيث علّمه في مدّة قصيرة مبادئ العربيّة والتّركيّة، وكثيرا منالعادات والتّقاليد الشّرقيّة[8]، وهذه الظّاهرة إن صدقت فإنّما تدلّ على اهتمام الأتراك

---

(1)-C. PH. Valliere ,op.cit,p26.

(2) -Ibid, p27.

(3)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السابق، ص98.

(4)- نفس المصدر، ص99.

(5)- نفس المصدر، ص99.

(6) - Venture de Paradis ,op.cit,p255.

(7)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص121.

أبو راس النّاصر، **فتح الاله**...، المصدر السّابق، ص 96.

أحمد بن عمّار، المصدر السّابق.

(8) - سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص51.

بمن يقدّم لهم خدمة جليلة مثل مداواة مرضاهم، حتّى يسهل التّعامل معه، ولا ننسى أنّ هذا الأسير كان يعيش في القصر، مقر إقامة الحاكم حينها (أعالي القصبة)، وخدماته موجّهة إلى الطّبقة الحاكمة، مثلما ذكر هو، كما أنّ معلّمه هذا حدّثه عن طريقة العقاب للأطفال بالفلقة، في حالة ما إذا لم يحفظوا ما طلب منهم[1].

وكما عوّدنا وليام شالر قنصل أمريكا في مدينة الجزائر على اهتمامه بالتّفاصيل، فقد اعترف هو الآخر بوجود عدد كبير من المدارس العاديّة، يتردّد عليها الأطفال بين سن الخامسة والسّادسة، وأتى على ذكر طريقة التّدريس ووسائله ومواده، وهي لا تخرج عمّا ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة في القرن الثّامن عشر خصوصا (شو)، إلّا أنّه أضاف تعليقه بأنّ هذا النّظام التّربوي لا يكلّف إلّا شيئا قليلا من المال، والبنات يتعلّمن في مدارس من نفس النّوع تشرف على إدارتها نساء[2]، وهذا ما ينفي رأي فاليار تماما بأنّ الفتيات لا يتلقّين أيّة تعليم. كما ذكر شونبيرغ -الرّحّالة الألماني- الّذي جاء مع الحملة الفرنسية سنة 1830، خبرا جديرا بالذّكر، وهو أنّ علي باشا الّذي تولى بين 7 نوفمبر 1808 و4 مارس 1809 منصب الدّاي في مدينة الجزائر، كان يشتغل مدرّسا في أحد المساجد بعد أن ترك الخدمة العسكريّة ببضع سنوات[3]، ونادرا ما نجد إماما كان يشتغل عسكريّا خصوصا في الجزائر خلال العهد العثماني.

ونحن نتحدّث عن المدرسة والمدرّسين والكيفيّة المتّبعة في التّدريس، فقد سجّل كل من ليسيور وويلد انطباعاتهما عن هذا المرفق وما حوى، وقدّما رسما واضحا ينمّ عن حقيقة ما كانت عليه هذه المدرسة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، ولا يفوتنا في هذا الشّأن أن نقتبس بعض آرائهما، حيث اعترفا بأنّ عدد المدارس في المدينة كبير نسبيّا، ومعلّمو المدارس يتمتّعون باحترام كبير، وعلم المعلّمين لا يتعدّى في الغالب القرآن الكريم[4]. وذكر أيضا طريقة التّعليم، حيث أنّ التّلاميذ يعيدون بالإجماع الحرف أو الآية الّتي يمليها المعلّم، وهذا الأخير يعاقب المتكاسلين بواسطة عصا يضعها في يده، والتّلاميذ يحلمون لوحة صغيرة يسجّلون فيها الآيات القرآنيّة الّتي يحفظونها عن ظهر قلب ويرتّلونها معا، والمدارس بسيطة جدّا، مفتوحة على الشّارع، فيها طابق ثان، يصعد إليه التّلاميذ، وهم يكتبون بقصب يسمّى قلم، ودواتهم على شكل محابر القرون الوسطى، وفي ختام حديثهما عن المدرسة والتّلاميذ، أثنى كل من

---

(1)- نفس المصدر، ص50.

(2)- وليام شالر، المصدر السّابق، ص82.

(3)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص58.

(4)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص 24.

ليسيورد وويلد على جمال فتيان مدينة الجزائر، وغضاضة سحنتهم، وحسن ملابسهم[1]، وعلى ما يبدو أنّ ملاحظات الرّحالين وشهادتهما حول هذا المرفق، تكاد تتّفق في معظمها مع مصادر الرّحلةالأوروبيّة الأخرى، ولنا في هذا صور تجسّد مظهرا حيّا عن المدرسة[2] (انظر الملحق رقم 10).

3-الحمامات:

جاء في **لسان العرب** ما قاله ابن سيّدة: والحمّام الدّيماس مشتق من الحميم... وأحم نفسه، إذا غسلها بماء حار، واستحمّ إذا اغتسل بماء الحميم، والاستحمام الاغتسال بالماء الحار[3]، ولأنّ الحمامّات تعدّ من المرافق المهمّة في المدينة، فقد ورد ذكرها عند العديد من أصحاب مصادر الرّحلة، لأنّها تقترن بالنّظافة والطّهارة، فهذا حسن الوزّان يقرّ بأنّ عدد الحمامّات في مدينة الجزائر كثير[4]، دون أن يقدّم رقما دقيقا لها، كما أنّه أشار إلى مقتل سليم التّومي زعيم الأعراب القاطنين بسهل متّيجة من طرف بربروس في أحد الحمّامات[5]، وإن كانت هذه الرّواية تذكرها العديد من مصادر الرّحلة، وعلى وجه الخصوص الأوروبيّة منها، إلا أنّ الشّكّ في مصداقيّتها (صدقها) ضروري من هذه النّاحية.

فقد نوه سيرفانتس الأسير الإسباني في مدينة الجزائر خلال القرن السّادس عشر بعادة لها علاقة بالحمّام عند الجزائريّات، فيذكر بأنّ هناك عادات قديمة مترسّخة فيهن، فهنّ عندما تنزل عندهنّ ضيفة، يستضفنها أحسن ضيافة، ويقمن بغسلها في الحمّام[6]، وعلى ما يبدو أنّ الحمّامات في المدينة كانت موجودة قبل مجيء العثمانيّين، بحكم اعتراف مصادر الرّحلة بذلك، وفي هذا الشّأن أيضا نذكر شهادة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي الّذي قال بأنّ مدينة الجزائر مشتهرة بعدد كبير من الحمّامات[7]، وكان هذا سنة 1551.

إنّ كثرة الحمّامات في مدينة الجزائر تدلّ على اهتمام السّكّان بالنّظافة، لأنّها مطلب ضروري للمحافظة على الصّحة والوقاية من الأمراض، ومن أصحاب مصادر الرّحلة الّذين قدّموا المعلومات

---

[1]-ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص 24.

[2]- نفس المصدر، ص 24

[3]- ابن منظور، المصدر السّابق، ص737، (مادة حمم)، المجلّد الأوّل.

[4]- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

[5]- نفس المصدر، ص39.

[6]- جمال غلّاب، **سيرفانتس في الحامّة**، ط1،منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005،ص ص 91-92.

[7]- Nicolas de Nicolay, op.cit,p17.

القيّمة حول هذا المرفق –الحمام– نذكر ديغو دي هايدو، الّذي اعتبر الحمّامات مؤسّسات تستحقّ الذّكر، وقال بأنّها مبنيّة من طرف العديد من الباشوات أو السّكّان ويقصدونها في كلّ الأيّام، وذكر عددا ما بين الخمسين والسّتّين حمّاما لها أهميّة، وتحدّث عن حمّامين كأنموذجين مهمّين ومهيّأين جيّدا في مدينة الجزائر، الأوّل يسمّى حمّام حسان باشا ابن بربروس الّذي بناه، وهو مكوّن من قبب، مغطّى بالرّخام اللّمّاع المصقول، يتكوّن من قاعتين مربّعتين واسعتين، في القاعة الأولى يتمّ نزع الثّياب ووضعها في مكان آمن، وفي القاعة الثّانية أقيمت العديد من الغرف، تتسع كلّ واحدة منها ما بين 10 و12 شخصا.

في كلّ هذه الغرف وضعت حنفيّات جداريّة يصل إليها الماء، وعن طريق أنابيب من البرونز، يصل الماء بكميّات كبيرة، ويسخّن في قاعة موجودة في الخلف، يسخّن الماء باستمرار، وحرارتها اصطناعيّة[1]، أقيم جرن من الرّخام ووضع كمخرج للأنبوب، كلّ غرفة تستقبل الماء، وكلّ مستحم يأتي ليأخذ الماء حسب حاجته بواسطة إناء نحاسي، حتّى يصبّه على نفسه، وبالقرب من هذا الجرن –الّذي يوجد فيه الماء السّاخن–، هناك ماء آخر دافئ (فاتر)، وهو موصول بنفس الطّريقة بواسطة أنابيب خاصّة، ودرجة حرارة هذه الغرف مرتفعة تؤدّي إلى التّعرّق بإفراط، يحجز ليلا إلى منتصف النهار للرجال يصاحبهم أشخاصا مهنتهم الكياسة أمّا من منتصف النهار إلى الغروب فدور النساء في الإستحمام ومعهن الزنجيات للتدليك والكياسة، كلّ واحد يدفع اثنان آسبر عند دخوله، والّذي لم يحضر منشفته يضيف آسبر واحد بغية الحصول على منشفة، وكذلك يفعل المسيحيّون مثل المسلمين، غير أنّ اليهود لا يدخلون الحمّام بتاتا، لأنّهم لا يحبّون أن يلمسهم أحد، أمّا موقعه فيقع تقريبا وسط المدينة، وهو المرتاد ليلا ونهارا[2].

الحمّام الثّاني يحمل اسم محمّد باشا، الّذي شيّده، وهو غير بعيد عن الأوّل، مبني بنفس الطّراز ولكنّه صغير وقليل المرتادين[3]، وعلى ما يبدو أنّ هايدو كان دقيق الملاحظة في ذكر أقسام الحمّام، كيفيّة تسخين الماء، الأشخاص العاملين في الحمّام، المبلغ الواجب دفعه أثناء أو قبل الاستحمام ومكان تواجد أهم حمّامين في مدينة الجزائر في النّصف الثّاني من القرن السّادس عشر.

---

(1)-Diego de Haedo,op.cit, p215.

(2)- Ibid, p216.

(3)- Ibid, p217.

والحقيقة أنه ليست كلّ مصادر الرّحلة ذكرت الحمّامات، فهذا مارمول كاربخال، المؤرّخ الإسباني، وأنطونيو دي صوصا الأسير الإسباني، وأبوالحسن التّمقروتي السّفير المغربي، لم يهتمّوا بذكر هذا المرفق، وعلى غالب الظّنّ أنّ هذا مردّه إلى صاحب مصدر الرّحلة وعدم رغبته في تدوين المعارف حول حمّامات في المدينة.

غير أنّ الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس، الّذي عاش في مدينة الجزائر قرابة الأربع سنوات في القرن السّابع عشر (1621-1625)، يذكر بأنّ في مدينة الجزائر ستّين حمّاما [1]، وبالرّغم من أنّه بين المدّة الّتي كان فيها هايدو أسيرا في المدينة وجاو ماسكارينهاس أسيرا كذلك هي حوالي 40 سنة، فعدد الحمّامات بين 50 أو 60، إمّا أنّه عدد ثابت بسبب عدم بناء حمامات جديدة، أو عدد غير دقيق، بسبب عمليّة الإحصاء التقريبية.

لقد قدّم الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس آراءه وملاحظاته حول الحمّامات فقال: فيها يغتسل سكّان المدينة ما عدا اليهود، وأيضا يغتسل فيها الأسرى المسيحيّون، فهي غير ممنوعة عليهم، هذه الحمّامات حسب رأيه منجزة بتصميم جيّد، وهي نظيفة جدّا، وصحيّة للأجسام، ويضيف بأنّه لم يجد لا امرأة ولا رجلا متألّما من دملة أو ما شابه ذلك، ويقرّ بأنّ الأتراك يتجنّبون هذا المرض مثلهم يقوم مثل المسيحيّين[2]، وهي شهادة تنمّ عن قيمة الوقاية من الأمراض وإدراك مكانة النّظافة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

ولقد أضاف هذا الأسير البرتغالي أخبارا هامّة عن الحمّامات في مدينة الجزائر، تخصّ الوقت الّذي يستحمّ فيه الرجال، والوقت الّذي تستحمّ فيه النّساء، إلى غاية منتصف النّهار الرّجال يغسلون من طرف الرّجال ومن منتصف النّهار إلى غاية السّادسة مساء يأتين النّساء لغسل النّساء[3].

وأردف هذا الأسير قائلا عن الحمّام، أنّه إذا دخل رجل ما إليه بعد منتصف النّهار يحرق حيّا، ثمّ بعد ذلك أتى على ذكر طريقة الاستحمام وكيفيّته، حيث ذكر بأنّ الثّياب تنزع في غرفة معزولة، بعدها يقدّم للمستحم قماشا يكسو به نصف جسمه بعد أن يترك ثيابه في مكان آمن، لينتقل إلى الغرفة الثّانية والّتي بها درجة حرارة مرتفعة تؤدّي إلى التّعرّق، ليتمدّد المستحم على الأرض ويضع أمامه زهريّتان من ماء بارد، إلى أن يتعرّق جيّدا ثمّ يأتيه رجل موريّ وبيده كيّاسة، يغسله وينظّفه تماما دون أن

---

[1]- Joao mascarenhas,op.cit , p76.

[2]-Ibid, p77.

[3]- Ibid, p77.

يحدث له خللا، وعندما ينهي غسله وكياسته تقدّم له قطعتان من قماش، يلتفّ فيهما ويذهب ويجلس في الغرفة الّتي وضع فيها ثيابه، ثمّ يتناول قنينة من ماء الصّابون، وفي الأخير يدفع ثمن استحمامه ويخرج(1). على غالب الظّنّ أنّ ماسكارينهاس دخل إلى أحد الحمّامات في المدينة بغرض الاستحمام، ولأنّه ذكر بأنّ الحمّامات يغتسل فيها الأسرى المسيحيّون وهي غير ممنوعة عليهم، ما عدا اليهود، وهنا نتساءل أين كان يغتسل اليهود؟ فمن دون شك أنّ لديهم حمّاماتهم الخاصّة إمّا في دورهم أو في الأحياء الّتي يقيمون فيها.

ولأنّ رحلة المقرّي يغلب عليها الطّابع الدّيني والعلمي، فقد غاب فيها ذكر الحمّامات في مدينة الجزائر، إلّا أنّنا وجدنا لهذا المرفق حضورا في تأليف الأسير إمانويل دارندا، حيث ذكره في حادثة مقتل سليم التّومي في قصره من طرف بربروس الّذي سكن في نفس القصر حيث صرّح بما يلي: «في يوم من الأيّام، دخل سليم التّومي إلى الحمّام الموجود في قصره، حتّى يغتسل للذّهاب إلى الصّلاة، مثلما هي العادة عند الأتراك والموريّين، بربروس الّذي سكن في نفس القصر دخل سرا إلى الحمّام، ووجد الأمير وحده وبدون سلاح فخنقه وقضى عليه...»(2)، وتكاد تتّفق معظم المصادر الأوروبيّة على هذه الرّواية، -رواية مقتل سليم التّومي من طرف عروج وليس بربروس-.

ومثلما غاب ذكر الحمّامات في مدينة الجزائر عند المقرّي غاب أيضا عند العديد من أصحاب الرّحلة من أمثال توماس هيز الفرنسي، وكذا شوفالييه دارفيو وجوزيف بيتس (الحاج يوسف)، وابن زاكور المغربي، وحتّى بوتي دولاكروا وأيضا الجامعي، وفي اعتقادنا أنّ غياب هذا المرفق وعدم الاهتمام به مردّه إلى نوعيّة وغرض رحلة كلّ واحد منهم، الّتي تنوّعت بين الرّحلة الرّسميّة من جهة والرّحلة الحجازيّة والعلميّة من جهة أخرى.

أمّا الرحالة دي تاسي فخالف الرحالة السابقين الذكر وذكر في كتابه **تاريخ مملكة الجزائر** أنّ عدد حمّامات مدينة الجزائر عدد لا متناهي، وهي حسب رأيه حمّامات ساخنة(3)، ولأنّه ذهب في يوم ما إلى حمام عمومي في مدينة الجزائر مع قنصل فرنسا بوم Baume بدافع الفضول، حسب ما صرّح به هو، وقدّم تفاصيلا دقيقة عن هذا المرفق، وكيفيّة الاستحمام فيه، إذ تعتبر مشهدا حيّا من مشاهد الحياة في مدينة الجزائر وفي أهمّ مرافقها، إذ قال بأنّ الحمّام مقسّم إلى ثلاث غرف، الأولى مضيئة جدّا وهي

(1)- Joao mascarenhas,op.cit , p78.

(2) -Imanuel D'aranda ,op.cit, pp87-88.

(3)- Laujier de Tassy, op.cit,p106.

مغطّاة بفراش، يتمّ فيها نزع الثّياب وأخذ منشفتين وإزار، واحدة تلفّ حول الخصر، والثّانية توضع على الكتف، أمّا الغرفة الثّانية فحرارتها متوسّطة يستطيع الإنسان تحمّلها، وثالث الغرف كبيرة وهي الحمّام، أرضيّتها واسعة مبلّطة بالرّخام وتحيط بها غرف منجزة بطراز واحد، أين يتمّ الاستحمام وفي وسطها كرسي من الرّخام بشكل دائري، في هذه الغرفة ترتفع درجة الحرارة الّتي تسبّب العرق حتّى تتبلّل المناشف، بعد ذلك تكون عمليّة الدّلك في غرفة معتدلة الحرارة من طرف شخصين أسودين فوق بساط أبيض، وهذان الشّخصان من تونس[1]، كما ذكر دي تاسي وجود عين بحائط الغرفة يؤخذ منها الماء الّذي يرشّ به المستحم، وقال بأنّه تستعمل مادّة كيمياويّة لإزالة الشّعر، ولو طالت على جسم الإنسان لأحرقته، وقال بأنّ المستحم يغسل وينشّف وتفرقع عظامه... وفي الأخير يؤخذ إلى مكان تواجد ملابسه، ويدفع مقابل ذلك ربع بياستر، ويتلقّى التّهنئة من طرف القائم على الحمّام ويشجّعه على العودة مرّة أخرى، وتقدّم له ثيابا جديدة ويلبس برنوسا ويضعون فوق رأسه قلمونا ثمّ يغادر الحمّام[2]، ولعلّ في ختام خبره هذا ما يؤكّد على المعاملة المتميّزة لأصحاب المناصب.

وما يمكن ذكره أيضا ما قاله دي تاسي بأنّ للنّساء حمّامات خاصّة بهنّ، لا يجرأ الرّجال على دخولها مهما كان الأمر، وهي غرف معزولة لأنّ النّساء تُخدمن من طرف نساء عبيد[3]. وهذا ما يفنّد قضيّة التّداول على الحمّام بين الرّجال صباحًا والنّساء مساءً، ما ذكره أصحاب مصادر الرّحلة، أم أنّ هناك من الحمّامات ما هو مخصّص للفئتين معا، كما أنّ هناك حمّامات مخصّصة للنّساء فقط وهي تقع في أماكن خاصّة.

إن كانت الحمّامات عند دي تاسي عددًا لا متناهيا، فهي عند الطّبيب الإنجليزي توماس شو محدّدة ونوعان، عموميّة عاديّة وبخاريّة، حيث قال بأنّ في مدينة الجزائر اثنا عشر حماما عموميّا عاديّا واثنان وستّون (62) حماما بخاريّا[4]، دون تقديمه لتفاصيل كيفيّة الاستحمام وأقسام الحمّام وما شابه ذلك، بالرّغم من أنّه أقام طويلا في المدينة.

تجاهل الآباء الحمامات في رحلتهم لافتداء الأسرى في مدينة الجزائر وحذا حذوهم الطّبيب الفرنسي جين أندري بايسونال في رحلته العلميّة والسّيّد طولو في رحلته الرّسميّة إلى الجزائر، إلّا أنّ

---

(1)– Laujier de Tassy, op.cit, p 107.

(2)– Ibid, p108.

(3) –Laugier de Tassy,op.cit, p108.

(4) –Thomas Show, op.cit, p290.

جوزيف مورقن في كتابه – حسب ما ترجمه أبو القاسم سعد الله– أشار إلى أنّ حسن باشا بن خير الدّين شيد سنة 1550 حمّاما عامّا فخما، على غرار ما فعله والده في مدينة اسطنبول[1]، ومن دون شك أنّ هذا الحمّام ذكره هايدو كأنموذج للحمّامات في مدينة الجزائر، وقال بأنّه أحسن الحمّامات وأكثرها مرتادين[2]، مثلما ذكرناه سابقا.

يعترف الطّبيب الألماني ج.أو.هابنسترايت في رحلته بأنّ حمّامات مدينة الجزائر مريحة ومزيّنة وأنّ الّذين يستعملونها تقدّم لهم خدمات جيّدة[3]. ولعلّه يقصد بأنّ الوافد إلى الحمّامات في المدينة يجد الرّاحة والنّظافة وحسن المعاملة، وهذا ما ترجمته مصادر الرّحلة الأوروبيّة الأخرى، الّتي اهتمّت بذكر هذا المرفق.

وإذا ما تأمّلنا نصّ الرّحّالة التّلمساني ابن المسيّب في قصيدته **يا الورشان** اقصد طيبة نجده يقول:

ادخـــل مزغنّـــة يـــا صـــاح   عنـــدهم اتمتّـــع وارتـــاح[4].

ولعلّه يقصد في جزء من الرّاحة، الاستحمام في حمّامات المدينة، لأنّه بعد الاستحمام تكون الرّاحة.

يبدو أنّ ابن مدينة الجزائر الطّبيب الرّحّالة ابن حمادوش لا يعير اهتمامه لذكر الحمّامات في رحلته، غير أنّ المبعوث الإسباني دالنسو كانو إلى مدينة الجزائر، والّذي كان بها بين 1768-1770 تحدّث عن الحمّامات وقال بأنّ الكثيرين يدخلون إليها وفيها العمومي والخاص، وذلك لأجل المبدأ الدّيني والعادة المتّبعة من طرف المحمّديّين، وهي تستعمل للنّظافة اليوميّة، توجد بها مواقد صغيرة، تتّصل بها أنابيب مربوطة بسريّة توصل الماء السّاخن إلى الأحواض الصّغيرة المخصّصة والمجهّزة بحنفيّات نهائيّة، يستطيع كلّ واحد أن يأخذ من هذه الأحواض ما يحتاجه لأجل الغسل، وعلى هذا فإنّها ليست حمّامات غطس، مثلما نراه في أوروبا، لكنّها للغسل، أنجزت بتصميم واحد، أرضيّته مبلّطة بالرّخام أو بحجر آخر، نظيف إلى أقصى حد، والماء المستعمل يخرج بواسطة أنابيب، وهذا الإنجاز ليس من السّهل أن يوصف[5].

---

[1]– أبو القاسم سعد اللّه، "**الجزائر في مؤلّف إنجليزي قديم**"، المرجع السّابق، ص35.

[2] –Diego de Haedo, op.cit, p215.

[3]– ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص37.

[4]– ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث التّاريخي**...، المرجع السّابق، ص411.

[5] –D'Alonso Cano, op.cit, p63.

والحقيقة الواجب ذكرها على رحلة دالنسو كانو، في شأن الحمّامات، أنّه يذكرها مع الثّكنات والمساكن المخصّصة للأسرى، إلّا أنّ الفرق بين هذه المؤسّسات واضح وجليّ، ولا ندري لماذا أقرّ بأنّ اسم الحمّام في مدينة الجزائر مبهم[1]، ونحن نعلم أنّ الحمّام هو مقصد الجميع من أتراك وأسرى وباقي فئات المجتمع، إلّا فئة اليهود، إذا سلّمنا بعدم ذهابهم إلى هذا المرفق.

بقدر ما اقترن ذكر الحمّام بالنّظافة، فقد اقترن ذكره أيضا بالعلاج للعديد من الأمراض، وهذا ما صرّح به القنصل الفرنسي فاليار سنة 1781، إذ قال: «ذوق الحمّامات، دعم المبدأ الّذي يصف النّظافة الفائقة للجسم، مثل نقاء الرّوح، عموما عند كلّ المحمّديّين، إناثا وذكورا تستعمل الحمّامات كعلاج لعدّة أمراض»[2]، وهذا اعتراف قويّ على أنّ النّظافة ميزة أساسيّة في المسلمين أقرّ بها العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

يكمل فاليار حديثه عن الحمّامات ويدلي بشهادته حولها، فهي عنده عديدة وعموميّة وهي حمّامات تعريق، أين الأجساد تلين وترتخي بفضل الحرارة الخانقة، والّتي تسبّب عرقا كبيرا[3]، ولعلّه يقصد الحمّامات البخاريّة الّتي ذكرها شو، في هذه الحمّامات يدعك الأفراد بخشونة من طرف أشخاص، وبواسطة أجزاء من القماش تزال الأوساخ ويتمّ التّطهير، هؤلاء الأشخاص يمدّدون الأذرع والأرجل، يدعكون الظّهر، ويقومون بعمليّات على جسم المستحم، وعند الخروج تكون كلّ مسامات الجسم مفتوحة، ومن المسلمين من يتعرّض للهواء دون احتراز ومرّات يكون هناك مصابين، لكنّها حالات غير متكرّرة، أمّا حمّامات النّساء فهي ميدان للبهجة والسّرور والتّحرّر فيما بينهنّ، بكلّ تواضع، وحسب رأي فاليار، فإنّ الحمّامات هي أحد الأسباب الرّئيسيّة لذبول جمال النّساء لأنّ الأجساد في الحمّام ترتخي وتذهب صلابتها...[4].

من خلال ما ترجمه مارسيل إميريت حول رحلة الضّابط الرّوسي كوكوفتسوف إلى الجزائر سنة 1787، فإنّ هذا الأخير لم يذكر حمّامات المدينة، ونفس الأمر ينطبق على رحلة الطّبيب الفرنسي ديسفونتين الّذي اهتمّ بالنّباتات والأعشاب والمناخ، غير أنّ الأسير الأمريكي كاثكارت أبدى اهتماما بالغا جدّا بهذا المرفق، فقد ذكر حمّام الدّاي، بحكم أنّه كان أسيرا في القصر، وقدّم تفاصيلا دقيقة

---

(1) – D'Alonso Cano, op.cit, p63.

(2) –C.PH.Valliere, op.cit, p44.

(3) –Ibid, p44.

(4) – Ibid, p44.

نلخّصها ما يلي[1]:

- الدّاي يستعمل الحمّام يوم الجمعة، الخزندار ورئيس الطّبّاخين يستعملونه باقي أيّام الأسبوع.
- يسمح للعبيد بالاستحمام فيه، ما لم يكن مستعملا.
- حمّام الدّاي أقلّ اتّساعا من حمّامات مدينة الجزائر، وهي عموما منجزة بطراز واحد.
- حمّام الدّاي يحتوي على ثلاث غرف، والدّخول إليه عن طريق غرفة صغيرة، تفضي إلى أخرى.
- فيه أغطية رفيعة وأريكة.
- بني الحمّام على فرن، به عمّال مزابيّون تربّوا على العمل في الحمّام منذ صغرهم.

وحسب رأيه أنّ الدّخول إلى الحمّام يكون بالتّدريج حتّى يتعوّد المستخدم على الحرارة الشّديدة، وذلك أنّه إذا قصد شخص ما حمّاما تركيّا، ولم يسبق له أن استحمّ في حمّام مثله، إنّه يصاب بما يشبه الاختناق، إن لم يكن قد تعوّد على الحرارة بالتّدريج[2].

بعد أن يتصبّب العرق من جسمه، يُلفّ المستحمّ بمناشف قطنيّة ويلبس قبقابا، ثمّ يدخل إلى الحمّام الرئيسي، وفيه يدلك ويكيّس على مائدة مصنوعة من خشب الزّان، ثمّ يغسل بالصّابون، ومتى اقتنع المكيّسون بأنّ المستحمّ قد نظّف بما فيه الكفاية، صبّوا عليه الماء بواسطة دلوين نحاسيّين، يحتوي الأوّل على ماء ساخن والثّاني على ماء بارد، ثمّ يغطّى بمناشف جافّة، ليذهب بعدها إلى الغرفة التّالية أين ينتظر وقتا قصيرا مثلما فعل عند الدّخول، بعدها يتوجّه إلى الغرفة المؤثّثة والمزوّدة بأريكة، يغطّى ويستريح لمدّة نصف ساعة أو أكثر لتقدّم إليه القهوة والنّرجيلة إن كان من المدخّنين، وإثر ذلك يكسى بثياب جديدة ويلبس برنوسا جديدا ويضع القلّمون على رأسه، وفي الأخير يغادر الحمّام، ولا يكشف عن رأسه قبل أن ينتهي تعرقه، وهذه هي نفس الطّريقة الّتي يستحمّ بها النّاس في الحمّامات العموميّة[3]، وهي تفاصيل تكاد تنطبق على ما ورد ذكره في بعض مصادر الرّحلة، بغضّ النّظر عن المكانة الاجتماعيّة للفرد ومنصبه. وهناك طريقة واحدة للاستحمام للجميع حسب شهادة كاثكارت، إلّا أنّه أقرّ بأنّ الجندي –أي الانكشاري– يدفع مقابل استحمامه ثلاث سنتات، ولكنّ الأغلبيّة يدفعون أكثر

---

[1]- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص ص93-94.

[2]- نفس المصدر، ص94.

[3]- نفس المصدر، ص94.

من تسع سنتات[1]، ولا غرابة في هذا الأمر إذا علمنا بأنّ الرّجل العسكري له خصوصيّات تميّزه عن باقي أفراد مجتمع المدينة، وفي مقدّمتها حمايته ودفاعه عن المدينة من الهجمات الأوروبيّة المتعدّدة والمتكرّرة طيلة العهد العثماني.

لقد أثنى كاثكارت على ذكر حمّام الدّاي وقدّم وصفا له وأتى على ذكر مكوّناته الهندسيّة والوسائل والمواد الّتي بني بها، فقال عنه بأنّه مفروش بالرّخام (المرمر)، ومزيّن بآجر استورد من جنوة، به قبّة ذات نوافذ صغيرة، يتسرّب من خلالها ضوء النّهار والهواء[2].

كما يعترف كاثكارت بأنّ كلّ حمّامات إيّالة الجزائر منجزة بنفس القواعد، لكنّها تختلف في درجات زخرفتها، وحسب ما قيل له أنّ حمّامات زوجات الشّخصيّات الكبيرة، وكذا زوجة الدّاي أعجوبة في البذخ والتّرف[3].

إنّ ما يؤكّد وجود المزابيّين وعملهم في الحمّامات العموميّة، ما ذكر فونتير دي بارادي حينما كان في مدينة الجزائر أواخر القرن الثّامن عشر، وقال عنهم أيضا بأنّهم متديّنون أكثر من الموريّين[4].

هناك مجموعة من أصحاب مصادر الرّحلة من لم يتطرّق إلى ذكر الحمّامات في مدينة الجزائر ومنهم الزّياني، المكناسي، ابن عمّار، أبو راس، الورتلاني، ابن زرفة، تيدنا وجيريت ميتزون ولعلّ القاسم المشترك بينهم هو عدم رغبتهم في ذكر الأخبار عن هذا المرفق، غير أنّ الأسير الألماني سيمون بفايفر أشار إلى هذا المرفق حينما كان يتحدّث عن معلّمه يوسف خوجة، ويطلب منه أن يدخل إلى حمّام القصر ويرتدي ثيابا نظيفة، وبعدها يسمح له بفايفر بالجلوس فوق الكنبة، وكان هذا الأخير يحب الاستماع إلى معلّمه[5].

إن كانت كتابات الدّيبلوماسيّين تحمل في ثناياها المهمّ دائما، فإنّ قلم وليام شارل خطّ عدّة كلمات لها علاقة بالحمّام، فقد ورد رأيه فيها بأنّها حمّامات عموميّة تستحقّ الذّكر، وأنّها تشبه بدقّة حمّامات القسطنطينية وحمّامات القاهرة، وغيرها من مدن الشّرق، وقال في شأنها أيضا بأنّها كثيرة، وأنّه

---

(1)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدرالسابق، ص94.

(2)- نفس المصدر، ص94.

(3)- نفس المصدر، ص94.

(4)- Venture de Paradis, op.cit, p119.

(5)- سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص51.

يهتمّ بها بعناية، والإقبال عليها من جمهور السّكّان كبير[1]، وعلى ذكر أنّ حمّامات مدينة الجزائر تشبه حمّامات القاهرة، فقد كانت حمّامات هذه الأخيرة من الرّخام تتوسّطها نافورة، تمتاز أرضيّتها بالجمال، وهي مغطّاة بالسّجاجيد، بها مواقد من الرّخام يستلقي عليها المستحمّ للتّدليك، وهي مزوّدة بالماء السّاخن والبارد ويقصدها المصريّون والأتراك والمغاربة، كما يسمح للنّساء بالذّهاب إلى الحمّامات، حيث خصّصت صباحا للرّجال ومساء للنّساء[2].

لقد ورد ذكر الحمّام في تأليف علي المرالي التّونسي **العود الجزائري**، في قضيّة مقتل سليمان (وليس سليم) على يد عرّوج[3]، مثل ما ذكره بعض مصادر الرّحلة الأوروبيّة، دون تفاصيل أخرى عن هذا المرفق أو عن الحياة فيه، وبقدر ما غاب ذكر هذا المرفق في رحلات عبد الرّحمن بن إدريس، وشونبيرغ وروزيه، فقد سجّل حضورا قويّا في رحلة الفرنسيّان ليسيور وويلد إلى الجزائر حيث قدّم هذين الرّسامان مشهدين لهذا المرفق، الأوّل لحمّام الدّاي[4]، والثّاني لأحد الحمّامات[5] العموميّة في المدينة، كما تطرّقا في حديثهما لأقسام الحمّام وقاعاته الثّلاثة، وإلى كيفيّة الاستحمام، والّتي لا تكاد تختلف عمّا ذكر عند باقي أصحاب مصادر الرّحلة، كما أنّهما ذكرا وجود المزابيّين كعمّال مختصّين في مجال الحمّامات وتطرّقا أيضا إلى اللّباس الخاص، الّذي يرتديه المستحم أثناء استحمامه، وفي هذا الشّأن نزوّد حديثنا بملحقين يبيّنان كل من حمّام الدّاي وأحد الحمّامات العموميّة في مدينة الجزائر، ذلك حسب ما رسم كل من ليسيور وويلد. (انظر الملحق رقم 06)[6]

4-شبكة المياه في المدينة:

يقول المولى عزّ وجلّ في محكم التّنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[7]، ونظرا لأهميّة الماء في الحياة، فقد قامت العديد من الحضارات والمدن على أساس توفّر هذا العنصر الحيوي، ولعلّ معظم المدن روعي فيها تواجد الماء سواء داخلها أو قريبا منها، الأمر الّذي انطبق على مدينة الجزائر،

---

(1)- وليام شالر، المصدر السّابق، ص99.

(2)- إلهام محمّد ذهني، المرجع السّابق، ص96.

(3)- علي المرالي التّونسي، المصدر السّابق، ص ص 43-44.

(4)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص30.

(5)- نفس المصدر، ص37.

(6)- نفس المصدر، ص30 وص37.

(7)- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 30.

حيث تحدّثت العديد من مصادر الرّحلة العربيّة منها والأوروبيّة عن المياه ونوعيّتها من جهة، وعن شبكتها وقنواتها وعيونها من جهة أخرى، فهذا حسن الوزّان يذكر بأنّه لاحظ في الجهة الشّرقيّة لمدينة الجزائر نهرا نصبت عليه طاحونات ويزوّد سكّان المدينة بالماء للشّروب، ولأغراض أخرى[1]، إن كان حسن الوزّان لم يفصّل كثيرا في كيفيّة تزويد سكّان مدينة الجزائر بالماء الشّروب، وماهي أنواع الأغراض الأخرى الّتي يستعملها سكّان المدينة بالماء؟ فإنّ مرمول كاربخال الرّحّالة والمؤرّخ الإسباني، كان أكثر دقّة في هذا المجال، فقد تحدّث عن وجود الخزّانات والآبار داخل المدينة وكذا وجود عين كبيرة يشرب منها أهل الجزائر، تصل إليهم مياهها بقنوات ممدودة تتفرع على مختلف الجهات[2]، وقد لاحظ وجود خزّان كبير للمياه في حصن يستعمل عند الضّرورة، وقال بأنّ استسقاء أفراد الحصن يكون من بئر في العادة على بعد اثني عشرة أو خمس عشرة خطوة من بابه [3].

لقد اعترف الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي بعذوبة مياه الآبار الموجودة في الحدائق حول مدينة الجزائر، وذكر بأنّ النّهر الّذي يجري بالجانب الشّرقي خارج المدينة يسمّى صافو "Savo"، يستعمل للشّرب كما يستعمل في تدوير الطّاحونات المائيّة، وفي وسط أحد الأبراج بمدينة الجزائر يوجد ماء عذب، وهي معلومات زوّده بها إسبانيٌّ كان يعيش في مدينة الجزائر[4].

يكاد ينطبق اعتراف نيكولاس دي نيكولاي على ما ذكره العديد من أصحاب مصادر الرّحلة، فيما يخصّ النّوعيّة الجيّدة لمياه مدينة الجزائر، حيث ذكر سيرفانتس الأسير الإسباني بأنّ ماء المدينة أحسن ماء في العالم[5]، وأنبأنا بأنّ مبنى البحريّة يحوي عينا ذات ماء زلال، يشرب منها الأسرى أثناء نزولهم من السّفن والبواخر[6].

وفي شأن المياه وشبكتها في مدينة الجزائر، فقد سجّل يراع هايدو الكثير، وقال بأنّه لا يمكنه أن ينسى الحديث عن العيون الجميلة الّتي تزيّن دواخل المدينة، أو الّتي هي موجودة بالقرب من الجدران (الأسوار)، فذكر بأنّ العين الأولى موجودة في قصر السّلطان، وهناك أخرى لصفر باشا، شيدت في سنة

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق،ص37.

[2]- مرمول كارباخال، المصدر السابق،ص364.

[3]- نفس المصدر، ص363.

[4]- Nicolas de Nicolay, op.cit, pp17-19.

[5]- جمال غلاّب، المرجع السابق، ص82.

[6]- نفس المرجع، ص76.

1580، وانتهى بها العمل في 20 أفريل من نفس السّنة، هذه العين تحتوي على خزّان رائع الّذي يوصل الماء إلى حوض رخامي مصنوع بدقّة، وهناك عين موجودة خارج باب البحريّة، لعلّها الّتي ذكرها سيرفانتس، وهي بالقرب من ساحل البحر مخصّصة للسّفن بكلّ أنواعها، وأيضا هناك عين موجودة في منزل رمضان باشا، الّذي كان سلطان الجزائر وتونس، وأخيرا في كلّ السّاحات المخصّصة لسكن الانكشاريّة توجد عيون، وكميّة الماء تغذّي ستّة عيون موجودة في المدينة[1].

إنّ وجود ستة عيون فقط في مدينة الجزائر في القرن السّادس عشر، ومهما كان عدد سكّانها، سيؤدّي إلى الاهتمام بزيادة إنجاز العديد من العيون، وهذا ما نسجّله في مصادر الرّحلة، والّتي بقدر ما ذكرت عدد العيون، فقد ذكرت مصادر هذه العيون ومنابعها، وفي مقدّمة هذه المصادر نجد أيضا هايدو، هذا الأخير، الّذي ذكر بأنّ الماء يصل إلى مدينة الجزائر من منبع يوجد على مسافة نصف ميل جنوب المدينة، من وسط إحدى الجبال، وبواسطة قنوات مغطاة أومكشوفة، وهذا ما نلاحظه عند برج الإمبراطور أو حسن باشا، وتدخل إلى المدينة من باب الجديد وبعدها توزع إلى ستّة اتّجاهات، جزء يذهب إلى خزّان سجن البايلك، وهو خزّان كبير، يستعمل كوسيلة نجدة أثناء هجوم ما أو حدوث جفاف، كما أنّ هايدو قال بأنّ ثلث سكّان المدينة ينقصهم الماء[2].

ولأنّ عدد الخزّانات في المدينة قليل، والآبار منها ما تحوي ماءً مالحا، فقد قام عرب أحمد الّذي كان سيّدا وحاكما في مدينة الجزائر بإنجاز عينين، الأولى بها ماء جيّد تقع على مسافة مائة خطوة من باب الواد، وهي تغذّى بأربع قنوات وبماء العديد من المنابع الموجودة غرب المدينة، والثّانية موجودة في ضواحي باب عزّون، كما أنّ هناك منبع لكنّه مالح، وعلى مسافة غير بعيدة، هناك العديد من الآبار والعيون الّتي ينبع منها ماءً عذب[3].

إذا كان أبو الحسن التّمقروتي قد نوّه بأنّ مدينة الجزائر كثيرة الخصب[4]، وهي دلالة على وجود وتوفّر الماء، فإنّ المقرّي في رحلته لم يتطرّق إلى المياه ونوعيّتها، غير أنّ أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة فيها الكثير ممّن اهتمّ بهذا الشّأن، فهذا الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس يعترف بوجود الخزّانات

---

(1)- Diego De Haedo, op.cit, pp225-226.

(2)- Ibid, p226.

(3)- Ibid, p226.

(4)- أبي الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص 90.

والآبار في المدينة كما أنّه أقرّ بوجود العيون في الثّكنات[1].

في القرن السّابع عشر عدّ الأب دان أكثر من مائة عين داخل مدينة الجزائر، وقال بأنّه خلال خمس وعشرين سنة فقط لم يكن هناك إلّا الخزّانات، وهذا ما يفنّد رأي هايدو الّذي أقرّ بوجود العيون رغم قلّتها، كما أقرّ بشبكتها، وذكر الأب دان في هذا الإطار بأنّ السّيّد "موسى"، وهو موريسكي، كان بإسبانيا، أقام قناة بين سنتي 1610-1611، توصل الماء إلى المدينة وهي على مسافة فرسخين، وإنّ إنجاز هذه القناة قام به فقراء المسيحيّين الأسرى تحت طائلة العذاب والحرارة، مثلما يقومون دائما بالعمل في الميناء وفي السّفن الكبيرة[2].

تحدّث إيمانويل دارندا الأسير الهولندي، على وجود منبع قريب من حصن الإمبراطور، يغذّي المدينة بماء عذب، بالإضافة إلى وجود خزّانات تملأها الأمطار، وقال بأنّ الماء يصل إلى المدينة بواسطة قنوات على الطّريقة الرّومانيّة، ويوزّع في أرجائها بواسطة أنابيب تحت الأرض، كما تملأ خزّانات أخرى موجودة في المدينة، وكلّ الأنابيب تجتمع في أنبوب واحد ينقل الباقي من الماء إلى البحر، كما توجد عند ساحل البحر عينا في متناول السّفن والبواخر[3].

لكلّ خزّان قناة (أنبوب)، وهي توزّع الماء باستمرار، وفي كل عين ربط إناء يستعمل للشّرب والّذي يريد ملأ الدّلاء عليه أن يحترم الطّابور، ما عدا اليهود الّذين عليهم أن يبقوا في الأخير.

وتكلّم إيمانويل دارندا عن الماء الفائض والّذي يجري في الأرض، قال عنه بأنّه يدخل في ثقوب قريبة من العيون ويتّجه كلّه إلى قناة وتكون نهايته في البحر، ويبدو أنّه تحدّث أيضا عن قنوات صرف المياه الّتي تصبّ هي الأخرى في البحر[4].

ولقد وجدنا في رحلة توماس هيز المبعوث الرّسمي الفرنسي إلى مدينة الجزائر بين سنتي 1675-1676 اهتماما بذكر نوعية ماء إحدى العيون، الموجودة بالقرب من المدينة، وهي عين السّلطان، الّتي قال عنها بأنّها تحوي ماءً جيّدا[5]، حيث أنّه شرب منها رفقة زميل له هو "كولوري" "Colory"، وقال بأنّها تقع بالقرب من مسكن كاتب المنزل الملكي، غير أنّ شوفاليه دارفيو في **مذكّراته عن مدينة**

---

[1]- Joao Mascarenhas, op.cit, pp68-70.

[2]- P.Piere D'An, op.cit, p91.

[3]- Imanuel D'Aranda, op. cit, p98.

[4]- Ibid , p98.

[5]- Thomas Hees, op.cit, p104.

الجزائر، فقد عدّ حوالي مائة وخمس وعشرين عينا داخل المدينة، وذكر بأنّ هناك قناة قديمة توصل الماء على بعد فرسخين من تواجده، واعترف بأنّ الماء جيّد وهو ضروري في بلد حارّ مثل الجزائر[1]، وقال في شأن آخر، بوجود نافورات وسط ساحات القيصريّات، أين يسكن الجنود، تستعمل للحاجة[2].

لم نجد ذكر شبكة المياه عند البعض من أصحاب مصادر الرّحلة من أمثال جوزيف بيتس، ابن زاكور، بوتي دولاكروا والجامعي، لأنّها رحلات علميّة وحجازيّة غلب عليها غرض الرّحلة، من جهة ولأنّ الرّحّالة لم يشدّ انتباهه الحديث عن المياه من جهة ثانية.

يكاد الدّيبلوماسي دي تاسي ينفرد برأيه الّذي قال فيه بعدم وجود الماء العذب في مدينة الجزائر، وذكر بأنّ كل منزل لديه صهريج أو خزّان وأرجع ذلك إلى قلّة التّساقط، وقال أيضا بأنّه في مرّات عديدة يكون السّكّان مجبرين على الذّهاب إلى الضّواحي للبحث عن المياه وملء خزّاناتهم، وأورد حادثة 1611 الّتي ذكرها الأب دان فيما يخصّ إيصال مياه منبع قريب من حصن الإمبراطور، وتمّ ربط المدينة بشبكة من الأنابيب والقنوات انطلاقا من ذلك المنبع، حيث أنّه صار يغذّي أكثر من مائة عين في المدينة[3].

نلمس زيادة عدد العيون في مدينة الجزائر من القرن السّادس عشر إلى القرن الثّامن عشر، من ستّة عيون إلى أكثر من مائة عين، إذا سلّمنا بما ذكرته مصادر الرّحلة، وهي دلالة على الاهتمام بهذا المرفق، سواء من طرف الأشخاص أو من طرف السّلطات العثمانيّة في مدينة الجزائر.

في اعتقادنا أنّ دي تاسي كان لديه مصدر معلومات آخر، اعتمد عليه في تدوين معارفه، وفي شأن شبكة المياه، حيث قال بأنّ كلّ الأنابيب توصل إلى خزّان موجود في المرفأ يستعمل لأغراض عدّة، والماء الضّائع يجتمع في قنوات صرف المياه ويصبّ في البحر، ممّا ينتج رائحة كريهة خصوصا في فصل الصّيف[4]، كما ذكر أسبقيّة الأتراك في الشّرب وملء الدّلاء عن بقيّة سكّان المدينة، وشدّ انتباهه ذلك الإناء المربوط بالعين لتسهيل عمليّة الشّرب فذكره في تأليفه[5].

ومن غير المستبعد أيضا أنّ الطبيب الانجليزي شو كان قد اطّلع على رحلة الدّيبلوماسي دي

(1)- Chevalier D’Arvieu, op.cit ,p223.

(2)- Ibid, p222.

(3)- Laugier de Tassy , op.cit , pp100-101.

(4)- Ibid, p101.

(5)- Ibid, p101.

تاسي، واقتبس منها ما تعلّق بشبكة مياه مدينة الجزائر[1]، في حين أنّه زاد من وجود عدد العيون في المدينة، حيث ذكر بأنّها مائة وخمسون عينا عموميّة[2]، الأمر الّذي يفهم منه بأنّه لم تكن هناك عيون داخل المساكن، ما عدا القلّة القليلة.

إنّ الطّبيب الفرنسي جين أندري بايسونال يقرّ بوجود الخزّانات ويذكر حادثة سنة 1611، الّتي تناولها كل من الأب دان ومن بعده دي تاسي، كما قال في هذا الشّأن أيضا بأنّ العيون في المدينة تغلق بواسطة سدّادات، وكل التّحصينات لديها خزّاناتها، كما أنّه لاحظ ذلك الخزّان الموجود بالميناء الّذي يستعمل للسّفن والبواخر[3].

وما يدلّ على اهتمام بعض رجال السّلطة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني بالماء، ما ذكره جوزيف مورقن في تأليفه حين قال بأنّ عرب أحمد باشا أقام عينا جارية تجتمع فيها العيون القريبة عند سور باب عزّون، كما أنّه أنشأ عينا أخرى كبيرة أمام باب الواد، وكان يقف على هذه الأعمال بنفسه[4].

أمّا فيما يخص الطّبيب الألماني هابنسترايت، لم يذكر في رحلته شبكة مياه مدينة الجزائر، ولا نوعيّة مياهها، ونفس الأمر ينطبق على ابن المسيّب في رحلته، غير أنّ عبد الرّزّاق بن حمادوش ابن المدينة، يزوّدنا بمعلومة في غاية الأهميّة، ويقول بأنّه رأى ميزان ماء، ورسم شكله في رحلته[5]، وقال بأنّ ماء الحامّة وماء تلاملي (تيليملي) من أعدل مياه الجزائر، وبعد ذلك قدّم شرحا يبيّن فيه كيفيّة عمل ميزان الماء[6]، ولولا غرابة هذا الجهاز بالنّسبة لابن حمادوش لما ذكره.

لقد اعتمد المبعوث الرّسمي الإسباني إلى مدينة الجزائر –بغية افتداء الأسرى سنة 1768– على عدّة مصادر رحلة سبقته إلى المدينة في كتابة أخباره عن المدينة، وفي شأن شبكة مياه المدينة بالذّات، قال بأنّ منابع المياه الّتي لم تكن كافية في الماضي لتزويد المدينة بالماء، مثلما شهد بذلك جين ليون وقراماي Gramay، ومن خلال ملاحظاتي اليوم هي كثيرة تزوّد المدينة بماء عذب جدّا وصحّي مثلما

---

[1]- Thomas Show , op.cit , p101.

[2]- Ibid, p290.

[3]- J.A.Peyssonel, op.cit, p251.

[4]- أبو القاسم سعد الله، **الجزائر في...**، المرجع السابق، ص35.

[5]- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص218.

[6]- نفس المصدر، ص 219.

هو موجود في مدريد، وخارج المدينة توجد عيون جميلة فوّارة، وكما قال هايدو بأنّ العيون موجودة في قصر الباي وفي الثّكنات أو مساكن الحاميّات، وفي الحمّامات العموميّة وكذلك في المساكن الخاصّة وفي مبنى البحريّة، وهناك أيضا ما هي للاستعمال العمومي منجزة في عدّة أماكن في المدينة تحت أقواس صغيرة أو في جوفات الجدران على الطّرق، وهي ذات سدّادات وشكلها يشبه ما هو موجود في باريس. إنّ المياه موصولة إلى مدينة الجزائر من تلّة مجاورة بواسطة قنوات سطحيّة، لكنّها ذات صيانة ناقصة، والفائض من هذه المياه يفضي إلى خزّان في المرفأ لتتزوّد منه السّفن[1]، وهذه ملاحظة العديد من الرّحّالة.

تنطبق شهادة القنصل فاليار مع سابقيه من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة عن عيون ماء في مدينة الجزائر، فالعيون عنده بعدد كبير، وهي جميلة جدّا وصحيّة، موجودة في المدينة، وموزّعة للاستعمال ولنظافة السّكّان[2].

ولعلّ الضّابط الرّوسي كوكوفتسوف في وصفه للجزائر أثناء رحلته، ذكر نوعيّة مياه المدينة، غير أنّ ترجمة مارسيل ايميريت واختصاره لتأليف كوكوفتسوف هذا أخلّ بعدم ذكره لهذا الجانب.

أما الطّبيب الفرنسي ديسفونتين الّذي حلّ بالمدينة سنة 1785، لم يتحدّث عن شبكة مياه المدينة بالرّغم من أنّه قدّم وصفا دقيقا لضواحيها كسهل متّيجة وما به من أنهار وآبار[3]، إلّا أنّ اعترافات كاثكارت الأسير الأمريكي الّذي عاش مدّة زمنيّة طويلة في المدينة، أكدّت عذوبة مياه المدينة من جهة، ووجود الصّهاريج في بعض أبراجها من جهة ثانية، وقال بأنّ هناك في قصر الدّاي ممر مرصوف ومغطى تمر به أنابيب يجري فيها ماء من أعذب ما في العالم من مياه[4]، وفي برج الفنار صهريج كبير للماء العذب، وأثناء حديثه عن براميل المياه الّتي توضع في السّفن، قال بأنّها تعبأ من طرف العبيد من عين عذبة المياه تقع قريبا من البحرية، وأعاب على العبيد عدم اهتمامهم بالنّظافة، وقال بأنّ ماء الشّرب الّذي تتزوّد به السّفن الحربيّة يتلوث بعد بضعة أيّام من بداية رحلتها[5].

لم يهتم كل من الزّياني في **ترجمانته الكبرى**، ولا المكناسي في **إحراز المعلى والرّقيب** بذكر

---

(1)- D'Alonso Cano, op.cit, pp62-63.

(2)- C.PH.Valliere ,op.cit , p2.

(3)- Desfontines, op.cit, pp98-99.

(4)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص93.

(5)- نفس المصدر، ص70و78.

شبكة مياه المدينة، والّذي قدّم معلومات متميزة في مجال شبكة مياه المدينة هو القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي، وقال بأن هناك خوجة العيون، ونادرا ما يتبدّل، ووظيفته قليلة الأرباح، كما أنّه أقرّ بعدم استطاعة أي شخص إدخال الماء إلى منزله إلّا إذا كان من رجال السّلطة، وبذل مساعي طائلة وأنفق مالا كثيرا، لأنّ هناك عيون عموميّة، وهي موزّعة على الحارات (الأحياء)، وكلّ ما يستطيع أن يحصل عليه صاحب الجاه هو وضع عين عموميّة تكون قريبة من سكنه[1]، وعلى غالب الظّنّ أنّها حقيقة إذ ما أخذنا في الحسبان تميّز الأتراك عن باقي طبقات مجتمع المدينة، لأنّه هناك عيون داخل بعض المنازل، إلّا أنّ الأغلبيّة تحوي صهاريج، ومعظم العيون الموجودة في المدينة هي عيون عموميّة في متناول جميع سكّان المدينة.

لم نعثر على معلومات حول شبكة مياه المدينة في **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب** (محمّد صلّى الله عليه وسلّم)، ولا في **نزهة الأنظار** للورتلاني، ولا في **الرّحلة القمريّة**، ولا في **مذكّرات تيدنا**، ولا في **يوميّات أسر جيريت ميتزون**، ولا فيما كتبه بفايفر.

إنّ المنزل الّذي كان يقيم فيه القنصل الأمريكي شالر، كان يحوي صهريجا في الطّابق الأرضي، حسب شهادة هذا الأخير، وقال بأنّ المنازل المزوّدة بالصّهاريج تحصل بها العائلة في موسم الأمطار ما يكفي الحاجة العاديّة من الماء[2].

وفيما يخصّ رحلة عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني الّتي تزامنت مع حملة اللّورد إكسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816، قال بأنّ أوّل عمل قام به الأسطول الإنجليزي، هو رمي ساقية الماء بثلاث مدافع[3]، دلالة منه على تحطيم أهمّ وسيلة تزوّد المدينة بالماء الشّروب.

إن كان الضّابط الألماني شون بيرغ يهمل الحديث عن شبكة المياه في المدينة سنة 1830، فإنّ قرينه روزيه ضابط الهندسة العسكريّة الفرنسيّة تحدّث عن وجود نافورات للوضوء في ساحات المساجد، وفي الثكنات، وهي ذات مياه عذبة، كما قال بأنّ العيون الموجودة في المدينة تغذّى من منابع موجودة في ضواحي المدينة، ومصادر هذه المنابع تقع على عمق قليل، كما ذكر بأنّ المياه مسيّرة بواسطة أنابيب إلى غاية نوافير وعيون المدينة[4].

---

(1)- Venture de Paradis, op.cit, p261.

(2)- وليام شالر، المصدر السّابق، ص ص 94-95.

(3)- عبد الرحمن بن ادريس، المصدر السابق، ص 210.

(4)- Rozet et Carrette ,op.cit, pp15-16.

يقدّم كل من ليسيور وويلد رسمين لعينين في ضواحي المدينة، الأولى سمّيت بمورد "مصطفى باشا"، تقع على شاطئ البحر بمقربة من المدينة، كانت تستعمل كمغسل للصّوف[1]، ولعلّ هذا ما ذكرته مصادر الرّحلة بأنّ للعيون استعمالات عديدة، والثّانية هي عين "بئر خادم" تقع على مسافة ثلاثة فراسخ من المدينة، أقيمت عليها أروقة زادت من زينتها وجمالها[2]، وهذا الأمر يؤكّد اعترافات العديد من أصحاب مصادر الرّحلة بأنّ العيون في مدينة الجزائر ذات هندسة رائعة، والاهتمام بها أخذ جانبا كبيرا في حياة المدينة[3](انظر الملحق رقم 7).

5-المقابر، الأضرحة والقبب:

جاء في **لسان العرب** عن ابن منظور بأنّ المقبرة من قبر: القبر أي مدفن الإنسان وجمعه قبور، المقبر المصدر، والمقبرة موضع القبور، قال الجوهري: المقبرة واحدة المقابر[4].

إذا كانت العديد من مصادر الرّحلة قيد الدّراسة لا تتحدّث عن المقابر، وبالأخص مصادر الرّحلة في القرن السّادس عشر، مثل **وصف إفريقيا**، **وإفريقيا لمارمول**، وكذا رحلة نيكولاس دي نيكولاي، فإنّ سيرفانتس الأسير الإسباني في مدينة الجزائر، قد تحدّث عن مقابر مدينة الجزائر الموجودة عند باب الواد، إذ قال بأنّه قريب من هذا الباب توجد مقبرة يوارى التّراب فيها الأتراك والجزائريون على السّواء، وفيها تقع قبور الدّايات الّذين حكموا الجزائر، وهي في مكان مرتفع يمكن تمييزها عن بقيّة القبور، ويلاحظها (يشاهدها) الزّائر والمسافر على السّواء من جهة البحر باتّجاه سيدي فرج، كما توجد هناك مقبرة المسيحيّين القريبة جدّا من ساحل البحر، يدفن فيها المسيحيّون مهما كانت مراتبهم، وهذا هو المكان الوحيد المسموح لهم بدفن موتاهم فيه، أمّا عن مقابر اليهود، فقد اشترى أراضيها أجدادهم بأسعار باهضة[5].

والجدير بالملاحظة في هذا الشّأن أيضا، أنّ هايدو قد دوّن الكثير كعادته عن القبور والأضرحة الموجودة بالقرب من أسوار مدينة الجزائر، ونسب القبور والأضرحة المتميّزة لأصحابها، دلالة على دقّة وصفه واهتمامه بهذا الأمر، حيث ذكر بأنّ خارج باب الواد هناك ستّة قبور متميّزة ذات قبب، الأولى

---

(1)- ليسيور وويلد، المصدر السابق، ص31.

(2)- نفس المصدر، ص34.

(3)- نفس المصدر،ص34.

(4)- ابن منظور، **لسان العرب**، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص5 (مادة قبر).

(5)- جمال غلاب، المرجع السابق، ص110.

أقامها حسان باشا سنة 1579، وهو مرتد من فينيا، والثّانية هي لصالح باشا، والثّالثة لحسن باشا الّذي خلّف صالح رايس ويوسف المرتد، الّذي قتل تاكلري وانتقم من موته، والقبر الرّابع للقائد صفر الّذي كان خليفة السّلطان وحاكم الجزائر، والقبران اللّذان هما في الأسفل بالقرب من البحر، القبر الكبير هو لحسن آغا، مرتد سرديني، الّذي كان في السّلطة حينما حدثت هجمة الإمبراطور شارل الخامس، والآخر صغير يحوي رفات محمد تاكلري باشا الجزائر[1]، وفي حديثه عن القبب، فقد قال بوجود ثلاث قبب خارج باب عزّون الأولى هي لسيدي تبقة، الثّانية هي لسيدي علي الزّواوي، والثّالثة بعيدة جدّا هي لأخ ملك بني عبّاس، الّذي كان غنيّا في زمن حسن باشا ابن بربروس، وقد توفّي بسبب الحمّى في مدينة الجزائر، فأقام عليه الباشا قبّة متميّزة بهندستها حتّى يحيي ذكراه[2].

لقد شدّت الأضرحة والقبب انتباه هايدو، وصرّح بأنّها مؤسّسات عامّة جدّ ملاحظة، تعود إلى الباشوات والقادة والمرابطين، وهي منجزة بذوق كبير على حدّ ذكره، وقد ذكر القبور الست المتميّزة الموجودة في مقبرة باب الواد ونسبها إلى أصحابها[3]، كما أسلفنا، وتحدّث أيضا عن مراسيم الجنازة، وقبل ذلك عن كيفية غسل الميّت وتكفينه وكلّ ما له علاقة بذلك[4]، وتكاد تكون الطّريقة نفسها والإجراءات الّتي ذكرها الرّحّالة في مصر، مع بعض الفروقات الطّفيفة[5].

لقد قدّم أبو الحسن التّمقروتي، الرّحّالة المغربي، ملاحظاته في شأن قبور الأولياء الصّالحين الّذين زارهم وتبرّك بهم على حدّ ذكره، حيث ذكر قبر الولي الصّالح أبي زيد سيدي عبد الرّحمن الثّعالبي، وقبر الولي الصّالح أبي العباس سيدي أحمد بن عبد الله الجزيري، وقبر الولي الصّالح أبو النّور، والموجود في رأس الجبل، وقال بأنّ كلّ هذه القبور خارج باب الواد[6]، وقد ذكرت مصادر الرّحلة ممّن اهتمّت بهذا الشّأن، بأنّ هذه القبور كانت محطّ مزار وجذب للعديد ممّن لهم حاجة على اختلاف مراتبهم وتنوّع وظائفهم.

وكان اعتراف ماسكارينهاس بأنّ القبور موجودة حول سور المدينة وفي كلّ الجهات، وهي قبور

---

(1)- Diego de Haedo ,**Topographie…** , op.cit, p227.

(2)-Ibid, p228.

(3) Ibid, pp227-228.

(4) Ibid,pp206-209.

(5)- إلهام محمّد علي ذهني، المرجع السّابق، ص93.

(6)- أبي الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص90.

الموريّين، والقبر الواحد لا يستعمل إلّا بعد مرور مائة عام، وبقدر ما كان غريبا في معلومته الأخيرة حول استعمال القبور، فإنّه أشار إلى أنّ العديد من العائلات الغنيّة تشتري قطعة أرض وتقيم عليها سور فيه باب، وفيها تدفن (تقبر) موتاها[1].

لا تكاد شهادة بيار دان الفرنسي، تخرج عمّا ذكرته مصادر الرّحلة فيما يخصّ مكان دفن الموتى خارج المدينة عند باب الواد، بالنّسبة للأتراك، اليهود والمسيحيّين، إلّا أنّه ذكر بأنّ المسيحيّين يتحصّلون على تاج الاستشهاد بعد أن يقتلوا من طرف الموريّين، وجانب الحقيقة حينما قال بأنّ هذا هو المكان الوحيد الّذي يدفن فيه الموتى[2]، لأنّ هناك أمكنة أخرى جهة باب عزّون، وداخل المدينة حتّى، يدفن فيها الموتى، ويذكر إيمانويل دارندا حادثة غريبة، تمثّلت في رمي رفات عظام مرابط في البحر، وذلك أثناء حدوث حملة مسيحيّة على المدينة، وهذا المرابط، قبّته تقع خارج باب الواد على اليسار، وهذا –أي ضريح المرابط– مقصد الأتراك[3].

وإذا كان توماس هيز قد شاهد المقابر جهة باب الواد عندما ذهب صحبة دوبا "Depas" خارج المدينة[4]، فإنّ شوفالييه دارفيو يعترف بوجود مقبرة كبيرة للمحمّديّين غير بعيدة عن باب عزّون، والّتي بها قبور العائلات الخاصّة، وهي مغلقة وعليها جدران صغيرة، كما لاحظ وجود بنايات مربّعة وصغيرة لمرابطين هناك، يلجأ إليها البعص من الأفراد لطلب حاجاتهم، كما ذكر وجود المقابر خارج أبواب المدينة وعددا كبيرا من الّصومعات هي لدراويش، وهم أكثر التزاما، وقال بأنّ مقبرة المسيحيّين خارج باب الواد، وفيها أيضا يتمّ حرق المخالفين للقوانين من المسيحيين[5]. وهي ملاحظة البعض من الرّحّالة وعلى رأسهم الأب دان.

لم يتحدّث بعض أصحاب مصادر الرّحلة عن المقابر، من أمثال جوزيف بيتس، صاحب الرّحلة الحجازيّة، وابن زاكور صاحب الرّحلة العلميّة والدّراسيّة وبوتي دولاكروا، صاحب الرّحلة الرّسميّة ولا حتّى الرّحّالة المغربي الجامعي، غير أنّ الدّيبلوماسي الفرنسي دي تاسي كتب في شأنها الكثير، وميّز أثناء حديثه عنها بين قبور العامّة وقبور الخاصّة، وقال في شأنها بأنّها خارج الأبواب، وبالقرب من المدينة وفي

---

(1) Joao Mascarenhas , op.cit,p87.

(2) P.Piere D'An , op.cit ,p90.

(3) Imanuel D'Aranda, op.cit, p106.

(4)- Thomas Hees, op.cit, p101.

(5)- Chevaler D'Arvieux, op.cit, pp220-221.

كلّ الجهات، حيث لاحظ العديد منها ماهي للباشوات والدّايات خارج باب الواد، وفيها قبب، مجيّرة (مبيّضة)[1]، ولاحظ تميّز ستّة قبور عن البقيّة، وقال بأنّها قبور دايات اغتيلوا في الدّيوان بسبب دسائس عديدة. أمّا قبور العامّة هي بسيطة جدّا حسب شهادته لديها حجارة مغروسة في الأرض تحدّد التابوت، وهناك وضعت الشّواهد جهة الرّأس والقدمين، وقبور الباشوات والدّايات متميزة بكتلة من حجارة منقوشة، ومنها ماهي لآغوات أو ضبّاط في الميليشيا، فيها عمود وضع بالقرب من التّابوت، ومنها ماهي لريّاس أو ضبّاط البحريّة عليها علم وضع فوق قبّة مذهّبة[2].

لقد أورد دي تاسي حادثة الموت الطّبيعي والعادي لعلي داي في 5 أفريل 1718، والّذي دفن في مقبرة مسوّرة داخل المدينة، والعامّة من النّاس كانوا يضعون على ضريحه الورد ويصلّون عليه ويترحّمون له، وينظرون إليه على أنّه قدّيس، كما ذكر الصّومعات الموجودة خارج الأبواب، وهي عبارة عن خلايا أو مصلّيات لمرابطين والنّساء تزورهنّ في أيام الجمعة[3]، دون أن يحدّد سبب هذه الزّيارات ولا شكلها.

بقدر ما أهمل الطّبيب الإنجليزي شو الحديث عن مقابر المدينة، فإنّ زميله في المهنة جين أندري بايسونال أقرّ بوجود القبور خارج المدينة مثلما هو الحال في كل مدن الأتراك[4]، ونحن هنا نتساءل: هل كل القبور في المدن التّركيّة تقع خارج الأسوار؟ وعلى سبيل الذّكر لا الحصر، فإنّ قبور مدينة دمشق كانت خارج أبواب المدينة، وأهمّها مقبرة الشّيخ رسلان، ومقبرة الباب الصّغير، ومقبرة باب الفراديس مثلما دوّنه بعض الرّحّالة الفرنسيّين[5].

وملاحظة بايسونال عن القبور، فهي عنده عديدة ومرتفعة بنحو قدم على الأرض، منها ما هي لأشخاص كانوا ذو مكانة واعتبار، عليها قبب مبيّضة، وفيها نرى ستّة قبور على شكل دائري لدايات اغتيلوا في اليوم الّذي حكموا فيه[6]، ولعلّ هذه الشّهادة تكاد تكون متكرّرة في العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

إنّ المقابر لم تستهو الآباء أثناء رحلتهم إلى مدينة الجزائر لافتداء أسراهم، شأنهم في ذلك شأن

---

(1)- Laugier de Tassy, op.cit, p122.

(2)- Ibid, p123.

(3)- Ibid,pp 123-124.

(4)- J. A. Peyssonnel, op.cit, pp255-256.

(5)- كارين صادر، **دمشق في نصوص الرّحّالة الفرنسيّين بين القرنين الخامس عشر والتّاسع عشر**، ط1، مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت،2010، ص48.

(3) J. A. Peyssonnel,o p.cit, p256.

السّيّد طولو وجوزيف مورقن، إلّا أنّ الطّبيب الألماني هابنسترايت في رحلته سجّل الكثير عنها، وذكر بأنّها تقع خارج المدينة، وهي تعتبر مزارات وبخاصّة أضرحة المرابطين الّتي تتّخذ أماكن للعبادة، كما أنّ العصاة يكونون في مأمن عند احتمائهم بأحد الأضرحة، وأنّ كل مسيحي يلجأ إليها ينظر إليه السّكّان على أنّه اعتنق الإسلام[1]، وهذا ما حدث لتيدنا الألماني الأسير حينما أراد أن يحصل على حريّته.

لقد دوّن هابنسترايت ملاحظته الفريدة عن قبور الدّايات الّذين ماتوا دون التّعرض للقتل، وقال بأنّها من الصّعب العثور عليها، فهي توجد في أماكن داخل المدينة، وتعتبر هي الأخرى مزارات للتّبرّك، أمّا الّذين يقتلون فيدفنون دون إقامة المراسيم في المقابر الواقعة خارج باب الواد، مثلما هي قبور الدّايات السّتّة المتميّزة، أمّا باقي القبور فهي بحسب مكانة أصحابها بين قبر رفيع المقام وآخر أقلّ شأنا، غير أنّ قبور رؤساء البحريّة من فئة قبودان باشا يعلوها علم يرفرف، وأثناء زيارة القبور هناك طقوس تقام مثل رش القبر بالعطر ونثر الزّهور عليه[2]، كما ذكر هابنسترايت مرابطة رجال بأضرحة معيّنة لأجل حراستها أو التّبرّك بها، وقال بأنّ غسل الأموات يتمّ في أحد الأماكن المخصّصة لذلك، ومنها يحمل الميّت برفقة أقاربه لإقامة الصّلاة عليه ودفنه[3].

لقد أوصى ابن المسيّب في رحلته إلى البقاع المقدّسة المسافر، الّذي يمرّ بمدينة الجزائر بأن يزور ضريح سيدي عبد الرّحمن الثّعالبي، حيث قال:

زر سـيدي عبـد الـرّحمن بركتـه ينفعنـا بهـا.
ليلـة الجمعـة أطلـع للشـيخ ترسـلك واذا كنـت صـريخ[4].

بينما ابن حمادوش يخبرنا بمكانة ضريح سيدي عبد الرّحمن عند أهل مدينة الجزائر، في ليلة القدر، حيث أنّه يحضرون إليه ويختمون صحيح البخاري هناك[5]، وفي شأن آخر يروي حادثة موت إبراهيم باشا وما صاحبها من إجراءات ومراسم، مثل رفع العلامات الخضر في الصّوامع، والصّلاة عليه في الجامع الكبير، وختم ثلاثين رجلا للقرآن حزبان لكلّ، وأخذ كل قارئ ربع سلطاني، كما تمّ عتق أمة

(1)- ج.أو.هابنسسترايت، المصدر السّابق، ص ص 37-38.
(2)- نفس المصدر، ص40.
(3)- نفس المصدر، ص40.
(4)- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث**...، المرجع السّابق، ص411.
(5)- ابن حمادوش، المصدر السّابق، ص126.

سوداء، ودفن بعد صلاة الظّهر في المقبرة الّتي في باب السّوق، تحت المكتب بإزاء العين[1].

بحكم أنّ كتابات الدّيبلوماسيّين والمبعوثّين الرّسميّين تحفل دائما بملاحظات هامّة، فإنّ شهادة فاليار القنصل الفرنسي في هذا السيّاق تعضد ما ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة، فالمقابر موجودة حول المدينة، وهي واسعة جدّا ومسوّرة، لا يمكن إدخال ميّتان في قبر واحد، على حدّ ذكره، وهناك تميّز لمقابر دون أخرى، والمقابر العاديّة ليس فيها ما يغطّيها سوى الحجارة، والغريب في شهادة فاليار الفرنسي أنّه قال بأنّ النّساء يبكين على مقابر الّتي آبائهن مدّة ثلاثة أو أربعة أشهر، ومرّة في الأسبوع يتناول الطّعام تحت خيمة مقامة بالقرب من ضريح، كما أنّ للمسيحيّين مقابرهم، وكذلك لليهود[2].

إنّ المشهد الّذي يستحقّ الذّكر والّذي صرّح به فاليار، أنّ المآتم (الجنازات) تقام بعظمة كبيرة وجاذبيّة شديدة، وهناك دائما كثرة وازدحام فيها، بحيث أنّ كل واحد من المشيّعين يعجّل لأن يحمل أحد أذرع النّقّالة الّتي عليها الميّت[3]، وهي دلالة على التّعاون والتّعاضد وبحثا وطلبا للأجر والثّواب.

على غالب الظّنّ أنّ كوكوفتسوف، الرّحّالة الرّوسي، تحدّث عن المقابر والأضرحة في الفصل السّابع من رحلته، لأنّه ذكر نواحي المدينة، غير أنّ تلخيص مارسيل إميريت Marcel Emerit لهذه الرّحلة، قد أخلّ بعدم ذكر المقابر.

أمّا فيما يخصّ معلومات كاثكارت فتكاد تنطبق تماما على ما ورد في مصادر رحلة أوروبيّة سبقته، حيث تحدّث عن المقابر الموجودة خارج باب الواد، منها ما هو للأتراك، للعرب، للمسيحيّين واليهود، غير أنّه أضاف رأيا آخر، بأنّ أبناء الطّائفة كانوا لا يزالون يسدّدون أقساط القطع الأرضيّة الّتي اشتراها أجدادهم[4]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشير هذا الأسير الدّقيق في معلوماته بأنّ حسن باشا ألّذي قتل بتاريخ 26 ماي 1788، دفن في قطعة أرض اشتراها بماله الخاص في مقبرة باب الواد، دون أيّة مراسم، ولم يشارك في تشييع جنازته تركيّ واحد، لأنّ الدّاي قد أصدر أوامر بإنزال عقوبة الموت لأي شخص يقوم بذلك[5]، وهذا ربّما راجع لتصرّفات حسن باشا الشّخصيّة وانفراده بالعديد من الأفعال دون الرّجوع للدّاي، على حدّ ذكر كاثكارت.

---

(1)-ابن حمادوش، المصدر السّابق، ص236.

(2)-C. PH. Valliere, op.cit, p30.

(3)- Ibid, p30.

(4)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص86.

(5)- نفس المصدر، ص123.

والحقيقة أنّ مصادر الرّحلة العربيّة اهتمّت أيّما اهتمام بأضرحة الأولياء الصّالحين، فهذا الرّحّالة عبد الوهاب المكناسي، أثناء عودته من المشرق، زار ضريح الأستاذ البركة سيدي عبد الرّحمن الثّعالبي وتبرّك بتربته ودعا الله هناك بما كان يرجو قبوله، هو ومن كان معه، ولم يدخل المكناسي المدينة بسبب وباء الطّاعون، غير أنّ المتميّز في رحلته أنّه دوّن ما وجده مكتوبا في خشبة معلّقة على ضريح هذا العالم، والّتي فيها عرّف بالثّعالبي ونسبه وسنة وفاته[1].

ومن الآراء المتميّزة في هذا المجال من مصادر الرّحلة الأوروبيّة، ما ذكره القنصل الفرنسي، فونتير دي بارادي، الّذي قال بأنّ الرّجل الّذي يتوفّى في حديقته، لا ينقل إلى المدينة لتأدية المأتم، ولا يستطيع أيّ هالك أن يدخل إلى المدينة لأنّه شاهد وفاة رايس في البحرية، نقل بواسطة قارب إلى المقبرة[2]، ولعلّ هذا ما يفسّر أنّه كان من غير الضّروري إدخاله إلى المدينة، وإلّا كيف نفسّر من جهة أخرى وفاة العديد من الأشخاص داخل المدينة، ومن خلالها يتمّ نقلهم إلى المقبرة.

لقد ذكر فونتير دي بارادي اهتمام الأشخاص بشراء قطع أرضيّة تكون فيها قبورهم، سواء خارج باب عزّون أو باب الواد، ويقيمون عليها سورا، ومنهم من يغرس بها أشجارا وأزهارا، ومنهم من يقيم من قربها عينا يقصدها النّاس، وقال بأنّ بابا محمد الخزنجي والموظّفين الكبار يهيّئون مآلهم الأخير بجانب باب عزّون، كما نقل مشهدا حيّا عن كيفيّة تلقّي العزاء في حالة وفاة ربّ الأسرة أبا كان أو زوجا في سقيفة المنزل لمدّة ثلاثة أيّام، وفيه النّساء يرتدين لباسهنّ، وكأنّهنّ على هيئة الخروج من المنزل[3].

ورد ذكر المقابر في بعض مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة، وإن تشابكت في حديثها عن الأضرحة والقبب والمقابر، فإنّها تكاد تكون في معظمها خارج باب الواد وباب عزّون، فابن عمّار صاحب الرّحلة الحجازيّة، **رحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب**، يذكر قراءة الموشحات النّبوية، وتلحينها يكون في المزارات[4]، ولعلّ من بينها ما كان في مقبرة باب الواد وباب عزّون السّالفي الذّكر، وفي ضريح عبد الرّحمن الثّعالبي على وجه التّحديد.

على قدر ما كان ضريح عبد الرّحمن الثّعالبي مقصد العديد من الرّحّالة والمارّة والنّاس، فقد كان

---

[1]- عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص330.

[2] - Venture de Paradis, op.cit, p261.

[3]- Ibid , p262.

[4]- أحمد ابن عمّار، المصدر السّابق، ص ص 15-16.

محطّ إقامة وراحة لمدّة معيّنة، كما كان هناك أيضا قاصده للحاجة والرغبة في تحقيق أمنية، وهذا ما ذكره كل من ابن زرفة العمري في **رحلته القمريّة** وتيدنا في مذكّرات أسره[1].

والجدير بالملاحظة والتّدوين ما سجّله سيمون بفايفر الألماني في مذكّراته في شأن قبور الأولياء والمزارات، وما ذكره عن حسين باشا (الدّاي حسين) سنة 1830، بأنّه أمر وزراءه أكثر من مرّة بزيارة قبور الأولياء على اختلافها فزاروها، وتصدقوا بالأموال على الفقراء، وذبحوا عندها الأبقار والأغنام للحيلولة دون دخول الفرنسيّين إليها، وركّز سيمون بفايفر على ثلاثة قبور للأولياء هم: سيدي عبد القادر، سيدي عبد الرّحمن وولده داده، ذات معجزات بإمكانها إنقاذ المدينة من الخراب والدّمار، وكانوا على يقين بأنّ ولد داده سوف ينقذ المدينة من الفرنسيّين[2].

وفيما يخصّ رأي القنصل الأمريكي شالر في المقابر، فقد قال في شأنها بأنّ العرب يحبّون بناء قبور فخمة لتخليد ذكرى موتاهم، وبعد ذلك يتركونها لنزوة الأحداث، فترى فيها ماهي مرتع للحيوانات وابن آوى الّذي يتجوّل بحريّة في أرجائها، كما ذكر بأنّه لم يلاحظ أي اشمئزاز من الأهالي لتواجد الحيوانات في مقابر موتاهم، وقال في نفس السّياق بأنّ المناطق المجاورة للمدينة بها مقابر مندثرة، وأنّها غير مسيّجة (لا يوجد بها سياج)[3]، وهي شهادة تختلف اختلافا كبيرا عمّا ذكر في مصادر الرّحلة الأخرى.

وإذا ما تأمّلنا شهادة عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني في رحلته، الّتي تزامنت مع حملة اللّورد إكسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816، فقد قال بأنّ الإنجليز هدّموا جزءا من قبّة العلامّة الفقيه الإمام الولي عبد الرّحمن الثّعالبي[4]، دلالة على أنّ ضريح هذا العالم كانت به قبّة، ونظرا لأهميّته فقد كان هدف ومرمى مدافع الإنجليز، حتّى تأثّر جرّاء ذاك القصف.

ويحدّثنا شونبيرغ الضّابط الألماني الّذي حلّ بالمدينة سنة1830، عن حادثة وقعت سنة 1805 أيّام الدّاي مصطفى، حيث طلب منه خصومه أن يتوجّه إلى قبّة المرابط القريبة للاحتماء بها، لأنّ بعض

---

[1]- ابن زرفة العمري، المصدر السّابق، ص231.

وأحميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيات الرّحلة والاسر**...، المرجع السّابق، ص ص 119-120.

[2]- سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص75.

[3]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص105.

[4]- عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص214.

الأفراد الانكشاريّين عزموا على قتله بسبب تعامله مع اليهود[1]. لكنّه لم يحدّد موقع قبّة ذلك المرابط.

لقدعثرنا في مصدر **رّحلة طّريفة في إيّالة الجزائر** على رسم يجسّد ضريح سيدي فرج بريشة السّيّد أوجين إيزاباي الّذي رافق الحملة الفرنسيّة سنة 1830، وفيها التّابوت الحجري مغطّى ومزيّن بنقوش وأعلام، كما أنّ قاعته مكسوّة (مفروشة) بالزّرابي[2]، وقد كان مقصد العديد من النّاس. وفي اعتقادنا من زاوية أخرى أنّ معظم الأضرحة في مدينة الجزائر كانت على شاكلة هذا الضّريح، مع اختلافات طفيفة في الهندسة.

ولنا في هذا المقام أيضا وتأكيدًا على أنّ خارج أسوار المدينة تعدّدت الأضرحة والمقابر والقبب ما ذكره ألبير دوفو في مؤلّفه[3]، وما قام الأستاذ مصطفى حمّوش بترجمته مضيفا إليه ما وجده في الوثائق العثمانيّة، ولنا أن نختار من هذا التّأليف الأخير، صورًا لأضرحة ومقابر وقبب[4]، انتشرت حول المدينة مثلما أقرّت به العديد من مصادر الرّحلة (انظر الملحق رقم 8).

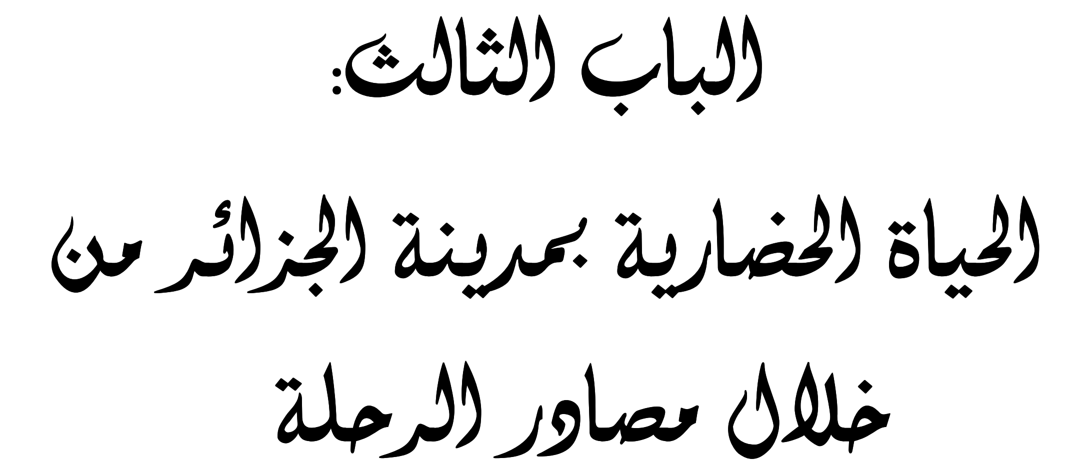
---

[1]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات**...، المرجع السّابق، ص ص 44-46.

[2]- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص38.

[3]- Albert Devoulx**, "Notes Historiques sur Les Mosquées..."** , op.cit.

[4]- مصطفى بن حمّوش، المرجع السّابق، ص ص 142و153و159...



الباب الثالث:

الحياة الحضارية بمدينة الجزائر من خلال مصادر الرحلة

الفصل الأول: الحياة في جانبيها السياسي والعسكري

الفصل الثاني: الحياة الحضارية في جانبيها الاجتماعي والاقتصادي

الفصل الثالث: الحياة الحضارية في جانبيها الثقافي والديني

الفصل الأول

الحياة الحضريّة في جانبيها السّياسي والعسكري

1- نظام الحكم

2-الدّيوان

3-الشّخصيّات النافذة في الحياة الحضريّة في المدينة

4-انكشاريّة مدينة الجزائر، ثكناتها والحياة داخلها

5-الرتب والنياشين

1- نظام الحكم:

عرف نظام الحكم في الجزائر إبّان العهد العثماني فترات تاريخيّة مميّزة، وكلّ عهد منها عرف نظاما سياسيّا معيّنا، وكان للحاكم فيه صلاحيّات عدّة وامتيازات مختلفة[1]، فمصادر الرّحلة في القرن السّادس عشر تحدّثت عن نظام الحكم، فهذا حسن الوزّان في تأليفه **وصف إفريقيا**، يقول بأنّ بربروس نودي به ملكا فضرب السكّة وأذعن له جميع السّكّان بالطّاعة، وأرسلوا إليه الخراج، وبعد أن قتل بتلمسان، بويع أحد إخوته المسمّى خير الدّين أميرا على الجزائر[2]، دون أن يحدّد كيفيّة هذه المبايعة، لأنّ حسن الوزّان في هذه الأثناء كان في قسنطينة وقد قيل له هذا الخبر فقط، أمّا المناداة ببربروس (لعلّه عروج) ملكا فقد كان الوزّان في مدينة الجزائر حينها، وبقدر ما أقرّ الوزّان بالملكيّة والمبايعة للإخوة بربروس، فقد ذكر مارمول كاربخال بأنّ بربروس استولى على الجزائر وأماكن أخرى[3]، دون ذكره حادثة المناداة والمبايعة، ولعلّ في هذا شيء من التّعصّب ونكران للحقيقة التّاريخيّة. وهذا ما انطبق على العديد من مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة، والّتي منها تأليف نيكولاس دي نيكولاي، الرّحّالة الفرنسي في منتصف القرن السّادس عشر، إلّا أنّه يعتبر حاكم الجزائر حينها مرّة ملكا ومرّة أخرى سلطانا[4].

وإذا كان الأسير الإسباني سير فانتس قد أسر أيّام الحاكم الحاج مامي، فإنّه يسمّيه بالملك، ويسمّي الجزائر بالإيّالة[5]، فإنّ ديغو دي هايدو الإسباني كذلك، والّذي التقى بسير فانتس أيّام أسره في مدينة الجزائر، قد أزال اللّبس في هذا الشّأن وقدّم الكثير عن نظام الحكم في مدينة الجزائر بين 1578 و1581، وقد اعترف بمراسلة سكّان المدينة لبربروس لكي يخلّصهم من الحصن الإسباني، الّذي أقيم أمام مدينتهم، وبعد تلبية بربروس لهذا النّداء، أصبح سيّد المدينة بعد قتله سليم التّومي[6].

وحادثة قتل عرّوج لسليم التّومي كانت في أوت 1516 على حدّ ذكره، ومنذ ذلك التّاريخ وقعت المنطقة تحت سيطرة الأتراك[7]، فالفارق الزّمني بين هذه الحادثة ووجود هايدو في المدينة أكثر من ستّين سنة، وعلى هذا فمن الراجح أنّ هايدو كانت له مصادر أخرى اعتمد عليها في تدوين كتابه

---

[1]- أحمد السّلماني، النّظام السّياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1994، ص10.

[2]- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص39.

[3]- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص364.

[4]- Nicolas de Nicolay, op.cit, pp18-21.

[5]- جمال غلّاب، المرجع السّابق، ص92.

[6] - Diego de Haedo,**Topographie…,** op.cit, pp24-26.

[7]- Ibid, p26.

طبوغرافيّة والتّاريخ العام لمدينة الجزائر.

ويكاد يكون هايدو المتميّز الأوّل من بين أصحاب مصادر الأسر، في تدوينه الكثير عن نظام الحكم في مدينة الجزائر، إذ يقول بأنّ قيادة المدينة وكلّ البلاد –أي الجزائر– موضوعة تحت سلطة مسيّر معيّن من طرف السّلطان، عادة لمدّة ثلاث سنوات، مرّات أكثر من ذلك، ومرّات أقل، واختيار هذا المسيّر لا يقع دائما على الأتراك، أحيانا يكون من المرتدّين (Rénègats)، أو من الموريّين (Moures) المدعومين من طرف الأتراك[1]، وهنا يذكر تأليفه الثّاني المعروف بعنوان: **تاريخ ملوك الجزائر**[2].

يقول هايدو بأنّ الأتراك يسمّون حاكم المدينة الباشا، كما أنّ هذا الاسم يعطى لكل من يحكم في هذه المملكة، لأنّ الّذين هم في هرم الدّولة أو المقاطعات يسموّن سنجق باشي، ويصحّح الخطأ الشّائع، بأنّ اسم الباشا لا يعني الملك لكن يعني الحاكم، لكن المسيحيّين يعطون هذا الحاكم اسم الملك[3].

الموريون ينعتون الحاكم بالسّلطان والملك بالسّيّد الرّفيع أيضا، على حدّ شهادة هايدو، كما ذكر هذا الأخير أيضا بأنّ الّذي يتقلّد منصب حاكم الجزائر، لا يعطى إلا لتعويض خدمات مقدّمة من قبل لمن يستحقّ ذلك، والحصول على هذا المنصب يكون بوسيط مهم، وله علاقة بسلطان الدّولة العثمانيّة، حيث أنّ حاكم الجزائر يمثّل سلطان الدّولة أحسن تمثيل، ويتحمّل مسؤوليّته ويقدّم أشياء مهمّة[4]، ولنا أن نستدل على هذه الوساطة بما ذكره خيرالدّين نفسه عن صالح رايس، والّذي تقلّد منصب حاكم الجزائر بين 1554-1556[5]، بعد وفاة خير الدّين.

الملك في الجزائر يرافقه الآغا، وبعض من أفراد الانكشاريّة، كما أنّه لا يستطيع أنّ يخرج عن رأيهم، وإذّا كانت هناك حرب ذات أهميّة، فحاكم الجزائر ينوب عنه نقيب عام يسمى بكلر باي، وعادة مايرسل كلّ من الملك (الباشا) والبكلر باي من القسطنطينيّة، وعموما فإنّ الّذي يتقلّد منصب البكلر باي يكون شخصا خبيرا في الفنون العسكريّة، لأنّ وظيفته ذات شرف وهي محترمة جدّا، وفي

(1)- Diego de Haedo,**Topographie…,**op.cit p234.

(2)-Diego de Haedo, **Histoire des Rois d'Alger**, trad. de l'espagnol par H.D.De Grammont, Adolphe Jourdan, Alger, 1881.

(3)- Diego de Haedo, **topographie…,** op.cit,pp234-235.

(4) – Ibid,p235.

(5)– خير الدّين بربروس، **مذكّرات خيرالدّين بربروس،** ت. محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2010، ص182.

نفس السّياق يذكر هايدو بأنّ الملك محاط بعدد كبير من الأشخاص يساعدونه في حكومة هذه البلاد، كما أنّ هناك من هو خليفة يلازم الملك، ويكون عادة إمّا تركيا أو مرتدّا، يحكم في مكان الملك، في حالة ما إذّا خرج هذّا الأخير من مدينة الجزائر برا أو بحرا، وهو الآخر يرشد وينصح ويسيّر الحكم، ماعدا في الحالات الإجراميّة[1].

أمّا عن التّمقروتي في رحلته **النّفحة المسكيّة في السفارة التركية،** فحاكم الجزائر عنده يحمل اسم الباشا والي البلد[2]، ولعلّ هذّا ما قصده هايدو في حديثه عن هذّه التّسمية.

وبقدر ما اعترفت المصادر التّاريخية بازدهار المرحلة الأولى من الحكم العثماني في الجزائر ما بين 1518-1588، -وهي مرحلة البايلاربايات-، فإنّ إقرار التّمقروتي في هذا الشّأن لا يكاد يخرج عن ذلك. حيث ذكر بأنّ ريّاس الجزائر يتصفون بالشّجاعة وقوّة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، حيث أنّهم يقهرون النّصارى في بلادهم[3]، وكما هو معروف فإنّ معظم حكّام الجزائر في هذّا العهد هم ريّاس بحر، أي باي لاربايات، وقد قدّم التمقروتي مثالا عن ذلك الرّايس أرنط مم[4]، ARNAT MAMI.

بينما الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس والّذي كان في مدينة الجزائر في القرن السّابع عشر (1621-1625)، فقد ذكر بأنّ مدينة الجزائر وكلّ المملكة تخضع لنائب الملك المسمّى الباشا والمرّسول من القسطنطينيّة، من التّركي الكبير لمدة سنة ومرّات أكثر من ذلك، وعموما فهو مرتد، وهذّه المسؤوليّة لا تعطى له حتّى ينفق المال الكثير، وفي حالة قدومه إلى الجزائر، وعندما يصل إلى مون تفوس[5] ، لعلّها تامنفوست، السّفينة الّتي تنقله تقذف طلقة مدفع حتّى تعلم الباشا القديم لكي يخلي مقر الإقامة حتّى يقيم بها الباشا الجديد، وإذا ما وصل إلى الميناء يجتمع النّاس لرؤيته ويحضر أشخاص من الدّيوان لمرافقته، ويكمل ماسكارنيهاس في وصف المشهد السّياسي، ويذكر ذلك الحديث الّذي عادة ما يكون بين الباشا وأعضاء الدّيوان، عن سبب المجيء والالتزام الواجب عليه تطبيقه، والمتمثّل في دفع أجرة الجنود كلّ شهرين دون تأخير يوم واحد، وعادة ما تكون في الأسبوع الأخير من نهاية

---

[1] - Diego de Haedo,**Topographie…,**op.cit, p235.

[2]-أبي الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص91.

[3]- نفس المصدر، ص90.

[4]- نفس المصدر، ص91.

يعتبر هايدو بأنّ مامي الباشا الأرناؤوطي، حكم الجزائريين 1583-1586م، وهو ألباني الأصل من إقليم أرناؤوط.

-Diego de Haedo, **Histoire…,** op. cit, pp205-207.

[5]- مونت فوس "Montfusse".

الشّهرين، ويحضر هذا الالزام الدّيوان والآغا نقيب الإنكشاريّين، ولعلّ الظّاهرة الّتي تستدعي الذّكر في هذّا الشّأن ما يفعله بعض الباشوات أثناء نزولهم من السّفينة، حيث يقومون برمي أربع أو خمس قطع نقدية تحت أقدّام النّاس، تفاؤلا وتيمّنا بالحظّ السّعيد لهم، وبعد ذلك يرافق إلى مسكنه (مقر الإقامة)، وفي الغد يجتمع الباشا بالدّيوان ويظهر لهم تعيينه، وبعد ذلك يسلّم كلّ حكومة البلاد، كما يذكر ماسكارنيهاس أنّ حاكم الجزائر، مجرد مستأجر، لأنّه ملتزم بأمور عدّة، ويرافقه من القسطنطينيّة تركي يسمّى الكايا "Caia"، يرشده ويكتب له، وهو ملازمه[1]، وهذّا ما ذكره هايدو، فيما يخصّ الخليفة التّركي أو المرتد الملازم للملك[2]، ولعلّ تعيين الموظّفين السّامين من الملك، ثمّ نائبه، ثمّ النّقيب العام للجيش والبارلارباي berlarbey، كانت من اختصاص السّلطان في الدّولة العثمانيّة، على حدّ اعتراف ماسكارينهاس[3].

ولأنّ رحلة أبي العباس أحمد المقري رحلة حجازيّة، فإنّ هذّا الرّحّالة لم يتطرّق إلى الحياة السّياسيّة في المدينة، غير أنّ الأب دان الفرنسي كانت له ملاحظاته وانطباعاته في هذا الجانب من الحياة، إذ يقول بأنّ الوحيد الّذي يحكم في الجزائر هو ميلشيا الانكشاريّة، وقد اعترف بتغيير طريقة الحكم، حيث أنّها لم تكن متشابهة كعهد خير الدّين وأخيه المتوفّي، إذّ صار السّيّد الكبير يبعث بالباشوات والحكّام إلى الجزائر، ومنهم من فرّ مرّات عدّة، بسبب الميليشيا الّتي أصبحت ثائرة ضدّ الحكّام في مدينة الجزائر، وهذا الأمر كان مصدر قلق كبير للسيّد الكبير في القسطنطينية، والّذي كان يبعث من يمثّله في الجزائر.

إنّ الباشا أو نائب الملك لديه كل شرف الدّولة ويحفظ الحكومة، لأنّ الميليشيا تغتصب السّلطة في مدينة الجزائر، كما أنّ هذا الباشا لا يستطيع أنّ يقوم بأي شيء إلاّ بحضور قادة هذه الميليشيا، وحتّى الموجودين في الدّيوان[4].

وقد اعترف الأب دان بأنّ الجزائر في تلك الأثناء (1634)، أصبحت في أيادي الانكشاريين بصفة مطلقة، رغم وجود الباشوات الجدد الّذين يرسلون من القسطنطينية والّذين يصطحبون عادة بعض الأفراد معهم، ممّن كانوا فقراء ورعاة أغنام، وفيما بعد يدرّبونهم على حمل السّلاح[5]، وهذا إشارة منه

---

[1]- Joao Mascarenhas op.cit, pp92-93.

[2]- Diego de Haedo,**Topographie…,** op. cit, p235.

[3]- Joao Mascarenhas, op.cit, p93.

[4]- P.P.Dan, op. cit, pp95-96.

[5]- Ibid, p96.

بأنّهم ليسوا أهلا للوظائف الّتي يتقلّدونها في الجزائر.

يكثر الحديث عن وصف المشاهد السّياسية أثناء تنصيب الباشا الجديد، ولعلّ ما ترجمه أحمد السّليماني أثناء هذه العملية على لسان قسّ هولندي كان في المدينة سنة1634، يصوّر بروتوكولا سياسيّا ينمّ عن مظهر حقيقي من مظاهر الحياة في المدينة؛ من طلقات مدفع، عزف موسيقى، على النّاي والمزامير، ومن تحضير لذلك الحصان المغربي المطعم بسرج فضّي... وكلّه مزيّن لاستقبال الباشا الجديد[1]، يؤكّد كلّ هذا على الاهتمام بهذه الإجراءات، وهي جانب مهمّ من الحياة الحضريّة في المدينة في شقّها السّياسي.

أمّا إمانويل دارندا، فقد ذكر حادثة المناداة بعروج ملكا على مدينة الجزائر، في الطّرق والشّوارع بعد قتل سليم التّومي، ثمّ يذكر بأنّ الباشا في الجزائر هو السّيّد لكلّ الطّوائف والأجناس، كما أنّه سيّد الحكومة، وهو يطبّق أوامر السّيّد الكبير (السّلطان)، إلّا أنّ تخوّفه يكون في حالات كثيرة من العسكريين إن لم يسدّد لهم أجرتهم الشّهريّة[2].

يتبين أنّ النّظام قد تغيّر أيضا أيّام تواجد الرّحّالة الفرنسي توماس هيز (1675-1676) في مدينة الجزائر، إذ يسمّي حاكم الجزائر باسم الباي[3]، وذلك أثناء مقابلته لمحمّد التّريكي، ومرّات أخرى يطلق عليه اسم الباشا، وفي رحلة هذا الفرنسي العديد من المظاهر السّياسية والإجراءات الواجب اتّباعها في القصر من طرف المبعوثين والدّيبلوماسيّين[4].

ولقد قدّم شوفالييه دارفيو العديد من ملاحظاته في الشّأن السّياسي، سواء في عهد الباشوات، أو الآغوات أو الدّايات، واعترف بأنّ مملكة أو دولة الجزائر تسيّر من طرف الباشوات المرسولين من السّيّد الكبير، منذ أن أصبحت البلاد تابعة له، وهؤلاء الباشوات ينهبون النّاس والبلاد نهبا حادّا، مستعملين القوّة، ومتحصّنين في القصبة، وذكر بأنّ للباشا كلّ الشّرف، اسمه في أعلى كلّ العقود والمعاهدات، كما أنّه يزار في السّاعات الأولى من البيرم (العيد)، وكذلك في أيام الاحتفالات[5].

---

(1)- أحمد السّليماني، **النظام السياسي**...، المرجع السّابق، ص ص13-14.

(2)- Imanuel D'aranda, op.cit p88 et p99.

(3)- تختلف مصادر الرّحلة الأوروبيّة خصوصا في تعريف هذّا المصطلح (بين العم، الخال والحاكم).

(4)- Thomas Hees, op. cit, pp95 et p117.

(5)- Chevalier D'Arvieux, op. cit,p242.

وفي اِعتقادنا أنّ هناك لبس في نوعيّة النّظام السّياسي في الجزائر عند بعض من أصحاب مصادر الرّحلة، والّذين منهم شوفالييه دارفيو، والّذي ذكر بأنّ الجزائر مملكة، ثمّ ذكر بأنّها جمهوريّة، وقال بأنّ قائدها في خطر كبير يهدّده من طرف الميليشيا، والّتي تعتبر هي السّيّدة، وهي أكثر شغبا وهيجانا وعصيانا[1]، ومن الرّاجح أنّ هذا الأمر عنده ظاهرة متكرّرة في مدينة الجزائر، اعترفت بها العديد من المصادر وفي مقدّمتها مصادر الرّحلة.

وفي زاوية أخرى، ينقل لنا شوفالييه دارفيو ما حدث في عهد الآغوات من اغتيال آغا لآخر، منذ 1660م إلى غاية مجيء الحاج محمّد دايا على الجزائر، والآغوات هم بابا كليب، رمضان، شعبان، علي، وذكر بأنّ الآغا الّذي يريد الحكم لمدّة طويلة عليه معرفة ثلاث أمور، وهي:

1- أنّ لا يتعرّض لإيذاء أي عسكري أثناء توزيعه للمرتبات.

2- أنّ يدفع المرتبات في أوقات منتظمة دون نقصان أو تأخر.

3- أن يرفع المرتبات من سنة إلى أخرى[2].

وفي شأن الدّاي، يقرّ شوفالييه دارفيو بتغيير في النّظام السّياسي من الآغوات إلى الدّايات، وأنّ أوّل داي هو حاجّي محمّد، ثمّ قدّم تفسيره لكلمة الدّاي حيث يقول: اسم الدّاي في اللّغة التّركيّة يعني الخال، والسّبب في هذه التّسمية والّتي تعطى لقائد الجمهوريّة (الجزائر)، فالسّيّد الكبير وكأنّه الأب، والجمهوريّة كالأم بالنّسبة للجنود، لأنّها تغذّيهم وتحميهم والدّاي كالأخ بالنّسبة للجمهوريّة، وبالتّالي فهو الخال بالنّسبة لكل من يخضع له، كما ذكر ظاهرة سياسيّة تمثّلت في وجود الانتخاب في المجلس (الدّيوان) بعد وفاة الدّاي، وقال أنّه عادة ما يختار الأكبر سنّا والخبير لكي يتقلّد المسؤوليّة[3].

أنبأنا الحاج يوسف في رحلته بخبر مهم، تمثّل في أنّ الدّاي هو من يعطي الإذن للأتراك المنخرطين في الوظائف لتأدية مناسك الحج[4]، أمّا فيما يخص بوتي دولاكروا في مذكّراته عن مدينة الجزائر، فقد قدّم الكثير عن الحياة السّياسيّة في المدينة، وذكر بأنّ سلطة هذه المملكة من نوع الأوليغارشي[5]، كما قال بأنّ هناك 49 باشا حكموا أسيادا، وسيطروا على تونس وطرابلس، لكنّ الأغلبيّة منهم تمّ اغتيالهم

---

(1)- Chevalier D'Arvieux, op. cit, p243.

(2)- Ibid, p246.

(3)-Ibid, p259.

(4)- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص23.

(5)- الأوليغارشي، مجموعة تتحكم في تسيير دواليب الحكم بالقوة والعنف.

من طرف شعبهم[1]، ونحن نعرف أنّ الميليشيا هي الّتي تقوم بعمليّة اغتيال الحكّام وليس الشّعب.

وأقدم بوتي دولاكروا على الإعتراف بثراء الباشوات وغناهم، والّذين منهم حسّان باشا، ثمّ تطرّق بعد ذلك إلى كلّ من إسماعيل باشا، والميزومورتو Misomorto ومصطفى، وحدّد سنة تولية كلّ واحد منهم، إلى غاية 1670، أين تمّ فيها اغتيال حاج علي من طرف الجنود، ليظهر تريكو TRICO كأوّل داي في مدينة الجزائر، حيث أنّه نصب من طرف الرّيّاس ونقباء البحريّة، وهم: الدّايات، البحريّون، وهم أسياد المملكة[2].

وفي هذا الصّدد أيضا، وفي حديثه عن الحياة السّياسيّة، تناول دولاكروا ذلك الصّراع الّذي كان محتدما بين الضّبّاط على كرسي الحكم في الجزائر، بين كل من الميزومورتو، إسماعيل باشا، إبراهيم خوجة وشعبان خوجة[3].

وتكاد مصادر الرّحلة الأوروبيّة تتناقل فيما بينها اختصاصات الدّاي، فهو المتصرّف في أملاك المملكة، وهو الّذي يشرف على عمليّة توزيع المرتبات، أمّا بالنّسبة للباشا فإنّه يضع ختمه في كلّ وثائق الدّولة، وهو الّذي يحمي مقرّرات سيّده الكبير، وهو ممثّل له في مدينة الجزائر، وأنّ إقامته في منزل الملك (يقصد الدّاي)، وهذا الأخير يتحصّل على شرفه من خلال انتخاب الجيش له والمجتمع في الدّيوان[4].

من بين مصادر الرّحلة العربيّة الّتي أهملت الحديث عن الحياة السّياسيّة نذكر: **نشر أزاهر البستان** لابن زاكور و**رحلة الجامعي**، ولعلّ الغرض من هاتين الرّحلتين حجب الحديث عن الأمور السّياسيّة وأظهر جانب آخر، وهو الحياة الثّقافيّة والعلميّة في المدينة حينذاك.

والحقيقة الواجب ذكرها، أنّ العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة اهتمّت بالحياة السّياسية، فهذا دي تاسي قد دوّن الكثير عن هذا الجانب، وهو يعتبر بأنّ الدّاي سيّد مطلق في البلاد، حيث ذكر بأنّه يكافئ ويعاقب حسب هواه، ينظّم المسارات والحاميات ويرتّب الوظائف، ولا يرجع إلى أحد في قيادته[5]، وهنا نتساءل، ما دور الدّيوان الّذي انتخب الدّاي؟ ونحن نعلم أنّ أفراد الدّيوان كلّهم من ضبّاط الميليشيا، والّتي أقرّ في شأنها دي تاسي وقال بأنّها مصدر ثورات خطيرة.

---

(1)- Marcel Emerit,"**un mémoire sur Alger**…", op. cit, p9.

(2)- Ibid, p10.

(3)- Ibid, pp10-13.

(4)-Ibid, p13.

(5)- Laugier de Tassy, op. cit, p129.

لقد وصف دي تاسي مشهدا حيّا عن انتخاب الدّاي، وكيفيّة حدوث ذلك في منزل الملك وفي الدّيوان بحضور الأعضاء المهمّين في الميليشيا، يترأسهم الآغا والّذي يطلب بصوت عال من الحضور من يريد أنّ يتقلّد منصب الدّاي، ثمّ بعد ذلك يذكر اسم أحد الأفراد، والذي يعتقد أنّه الأكثر استحقاقا لهذا المنصب، ويتوقّف ذلك على رفض أو قبول أعضاء الدّيوان له، إلى أن يقع الاختيار على واحد من المخيّرين، وبعد ذلك يهتف أعضاء الدّيوان كلّهم دلالة منهم على القبول، وفيما بعد يلبس القفطان ويتوجّه نحو كرسي العرش[1].

كما ذكر دي تاسي تفاصيل مهمّة عن عمليّة تنصيب الدّاي الجديد، والاحتفالات الّتي تقام لهذا الغرض، حيث قال بأنّه يهنأ ويبارك في السّاعات الأولى من طلوع شمس ذلك اليوم، وبعد ذلك يتقدّم منه القاضي ويقرأ عليه واجباته، والّتي يلزم بها ثمّ يباركه لقيادة المملكة وميليشيا الجزائر، ويمرّ أثناء ذلك أفراد الدّيوان لتقبيل يده، وهو بدوره يعدهم بالأمانة والطّاعة. وهذه العمليّة تكون في حدود السّاعة أو السّاعتين، لتليها عمليّة طلقات مدافع الأبراج والحصون[2]، تأكيدا على تنصيب الدّاي وموالاته.

ويذكر دي تاسي في نفس السّياق، أنّ اختبار الدّاي عادة ما يكون مصحوبا بالقتل والفتن، مثلما وقع في جوان سنة 1710، عند تنصيب علي داي حيث حدث صراع قوي بين الفرق المتصارعة في هذه القضيّة، وفيما بعد تطرق دي تاسي إلى حياة الدّاي، الّذي يعيش في القصر ولا يخرج منهّ إلاّ نادرا وفيه تقام الاحتفالات، وبه توجد حاشيته، كما تعالج فيه كلّ قضايا المملكة وبه أيضا القضاء، وخزينة الدّولة المغلقة، وإن تزوج الدّاي، فإنّه يملك سكنا خاصّا لعائلته، إلّا أنّه يجلس يوميّا على كرسي العرش وينظر في القضايا الّتي تعرض عليه ويستقبل من يقصده[3].

وفي اعتقادنا أنّ الدكتور شو كان ناقلا عن دي تاسي في هذا الشّأن، حيث أنّه أتى على ذكر كلّ ما قاله دي تاسي، فيما يخص كيفية انتخاب الدّاي، وتقليده منصبه والاحتفالات المصاحبة لهذا الحدث السياسي[4].

إنّ المتصفّح لرحلة الطّبيب الفرنسي جين أندري بايسونال، والّذي استقبل من طرف داي الجزائر

[1]- Laugier de Tassy,op.cit, pp129-130.

[2]-Ibid p130.

[3]- Ibid, pp130-134.

[4]- Thomas Shaw, op. cit, p153.

وقتها وهو عبدي آغا، يدرك حقيقة الصّراع حول السّلطة لأنّه أقرّ بتخوّف الدّاي عبدي آغا من علي خوجة أن يأخذ مكانه، واعتقد بأنّه جاسوس عليه، لذلك ناداه لكي يمثل أمامه في القصر[1].

أمّا فيما يخصّ معلومات الآباء في رحلة افتدائهم للأسرى عن الحياة السّياسيّة، فقد ذكروا بأنّ الحكومة هي تقريبا من نوع المونارشي Monarchique، ثمّ تطرّقواإلى ذكر المعلومات حول نظام الحكم بين كلّ من الدّاي والدّيوان وكيفيّة الانتخاب[2]، وتكاد تكون معلوماتهم نفسها الّتي ذكرها دي تاسي في هذا الشّأن، وكأنّ هناك مصدرا موحّدا في نقل المعلومات الّتي ذكرت في هذا الشّأن.

تجاهل السّيّد طولو ذكر نوعيّة النّظام السّياسي في الجزائر، وهو الّذي استقبله عبدي آغا سنة 1731 أكثر من مرّة، إلّا أنّه بيّن الختم الّذي ورد فيه اسم الدّاي، حيث قال: بأنّه الواثق بالصّمد عبدي بن محمّد[3]، وهي دلالة على أنّ الباشا الّذي كان اسمه يكتب في أعلى المواثيق والعهود قد اختفى، وهذا ما نوّهت به العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

ومن دون شك أنّ جوزيف مورقن تحدّث عن نوعية نظام الحكم، لأنّه خصّص لكل شخص حكم في الجزائر فصلا سواء في عهد الباي لاريايات أو في عهد الباشاوات، كما أنّ أبو القاسم سعد الله اعترف بأنّ كتاب مورغن كتاب سياسيّ بالدّرجة الأولى[4].

ولقد تناول الرّحّالة الألماني ج.أو.هابنسترايت نظام الحكم في الجزائر، منذ عهد عروج بربروس وأخيه خير الدّين الّذي انتخبه الجند على حدّ ذكره، واعترافه بسيادة الدّولة العثمانيّة على البلاد الجزائريّة، ومنذ عهده أصبحت ضمن أملاك السّلطان العثماني، الّذي كان يعزّز حمايتها بين الفينة والأخرى، بمجموعات من الانكشاريّة[5].

إنّ سنة 1710 هي الفاصل الزّمني، الّذي أقرّ به هابنسترايت في رفض الدّيوان في مدينة الجزائر استقبال الباشا ممثّل السّلطان، ومنذ ذلك التّاريخ، أصبح الدّاي صاحب السّيادة في حكم الجزائر، وقد ذكر هابنسترايت بأنّ قناصل الدّول الأجنبيّة يلقّبونه بالملك، وهو يتمتّع بسلطة مطلقة[6].

---

(1)- J.A.Peyssonnel, op. cit,p257.

(2)_ Camelin Francois et autres, op.cit,pp91-93.

(3)- Marcel Emerit," **Voyage de Paris…",** op. cit,p422.

(4)- أبو القاسم سعد الله، "**الجزائر في مؤلّف إنجليزي**..."، المرجع السّابق، ص ص30-31.

(5)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص27.

(6)- نفس المصدر، ص28.

أمّا عن الهديّة الّتي كانت ترسلها الجزائر إلى إستانبول، فكانت اعترافا منها بأحقيّة السّلطان في تولّي أمور المسلمين وشرعيّته في تمثيلهم، وهذا يجعل الدّايات في الجزائر يحتفلون بذلك ويستقبلون القابيبجي-باشي المرسول فوق العادة إلى الجزائر من قبل السّلطان العثماني[1].

ومثلما أقرّ العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة بوجود انتخاب واختيار للدّاي، كذلك الأمر ينطبق على هابنسترايت والّذي اعترف أيضا بوجود الصّراعات في الميليشيا وانقسامها إلى جماعات، وكلّ جماعة تحاول فرض مرشّحها، إلّا أنّ ما يستحق الذّكر هو ذلك المشهد الّذي وقف عليه هابنسترايت يوم عيد الأضحى، وهي المناسبة الّتي يمدّ فيها الدّاي يده ليقبّلها كل من حضر لتحيّته، فيكون بذلك عرضة للاعتداء والاغتيال حيث علّق على عبدي آغا حينها (1732)، بأنّه كان مصفرّ الوجه وهو يرتعد في ذلك اليوم[2].

ولأنّ رحلة ابن المسيّب التّلمساني، رحلة حجازية حدّد فيها صاحبها الطّريق من تلمسان إلى مكّة، معرجا على ذكر المدن والمناطق الّتي يمرّ بها الحاج، ومنها مدينة الجزائر، فقد سقطت ملامح نظام الحكم بالجزائر فيها، غير أنّ ابن حمادوش في رحلته يقرّ بما أعلنه بعض أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة، في رفض استقبال الباشا ممثّل السّلطان بتاريخ 10جوان 1710، من طرف أعضاء الدّيوان وسمّاه بـ: قبجي، وأرجع ذلك إلى انعدام المنفعة من مجيئه[3]، وكاد يتميّز ابن حمادوش بالدّقّة في ذكر التّاريخ وتفسيره لذلك الرّفض.

إنّ رحلة ابن حمادوش تحمل في طيّاتها العديد من ملامح الحياة السّياسيّة في المدينة، لأنّ صاحبها أفرد قائمة للباشوات في مدينة الجزائر من عهد إسحاق وعرّوج (915هـ)، إلى إبراهيم باشا(1145هـ)، وأقرّ بمبدأ المشورة والمبايعة للدّاي إبراهيم دولاتي[4]، من طرف أهل الحلّ والعقد (يقصد الدّيوان)، ثمّ وضح أوّل من انفرد بالملك والسّياسة في الجزائر، وهو عبد الله بلك باشي سنة 1064هـ، وقال أيضا بأنّ القبطان الحاج محمّد التّريكي داي أوّل من سمّي دولاتي، كما قال في نفس السّياق أنّ الحكم في الجزائر كان بيد الباشلار القادمين من إسلامبول ومن الخليفة العثماني[5].

---

(1)-، ج.أو.هابنسترايت، المصدرالسابق، ص28.

(2)- نفس المصدر ، ص41.

(3)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص120.

(4)- دولاتي، كلمة تجمع بين مصطلح الدّولة والدّاي.

(5)- عبد الرزاق بن حمادوش، المصدر السابق، ص ص225-228.

ومثلما تطرّق هابنسترايت إلى الهديّة المرسلة من الجزائر إلى إسطنبول، تطرّق إليها أيضا ابن حمادوش، لكنّ هذا الأخير قد فصّل في شأن الهديّة الّتي بعثها إبراهيم باشا(1145هـ) إلى إسطنبول، وهي أربعون نصرانيا وثمانية مكاحل ثمينة جدّا وأمور نفيسة أخرى، مقابل حصوله على الباشالك من السّلطان محمود خان[1]، وهذا الأمر كلّه يبيّن ملامح الحياة السّياسيّة في مدينة الجزائر وقتها.

اهتمّ دالنسو كانو المبعوث الرّسمي الإسباني إلى مدينة الجزائر سنة 1768، بذكر جوانب عدّة من الحياة السّياسية في المدينة، ولعلّه اعتمد في تدوين معارفه عن رحلات وكتب سبقه أصحابها إلى المدينة، وفي مقدّمتهم دي تاسي، كما ذكر حادثة 8 نوفمبر 1768، أثناء تحيّة الدّاي وتقبيل يده والّتي أوشكت أن تودي بحياته[2]، وهذا ما يدعم حقيقة هذا الفعل بين الحين والآخر في تغيير الحكّام في المدينة.

ومن الّذين تحدّثوا عن نظام الحكم أيضا في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، القنصل الفرنسي فاليار والضّابط الرّوسي كوكوفتسوف، حيث ذكرا كيفية الانتخاب وأقرّا بوجود الصّراع على كرسي الحكم بين ضبّاط الميليشيا[3]، إلّا أنّ فاليار قال بأنّ الخزناجي والآغا وخوجة الخيل هم الّذين عادة ما يصلون إلى منصب الحاكم، ثمّ ذكر نفس معلومات أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة المتمثّلة في مهام الدّاي، وكيفيّة تهنئته وخطورة منصبه، والّذي هو محل انقلاب ومؤامرة[4].

لم نعثر في رحلة الطّبيب الفرنسي ديسفونتين على الاهتمام بالحياة السّياسيّة ونوعيّة النّظام المسيّر للمدينة والمملكة، ونفس الشّيء ينطبق على كاثكارت الأسير الأمريكي، إلّا أنّ هذا الأخير ينعت الجزائر بالمملكة ويذكر الحاكم باسم الدّاي[5].

بينما الرّحالة المغربي الزّياني وأثناء حديثه عن حاكم الجزائر حسن باشا، فقد ذكره مرّة باسم الباشا، ومرّات أخرى باسم السّلطان الأعظم، وقال جلس على كرسي الخلافة السّعيد، ثمّ ذكر مهامه وإنجازاته وأثنى عليها بالمدح والتّفخيم[6].

---

[1]– عبد الرزاق بن حمادوش، المصدرالسابق ، ص233.

[2] - D'Alonso Cano, op.cit, pp89-95.

[3] C. PH. Valliere , op.cit, pp2-4 et Marcel Emerit, **"Description de L'Algérie en 1787…",** op.cit, p211.

[4] – Ibid, P4.

[5]–جيمس ليدر كاثكارت، المرجع السّابق.

[6]– أبوالقاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص151، ص375 وص379.

يتبيّن لنا من خلال ما صرّح به الزّياني بأنّ حاكم الجزائر هو السّلطان الأعظم، وهو فخر السّلاطين، وهو الباشا، وينمّ هذا الحكم على نوع من التّبجيل والتّقدير، وإلّا كيف نسمّي حاكم الدّولة العثمانيّة ككل؟ كما أنّ الزّياني لقي التّرحاب الكبير والمعاملة الحسنة في المدينة من طرف بعض موظّفي الدّولة، وتزامن وجوده في المدينة بتشييد حسن باشا لجامع كتشاوة، ولعلّ هذا ما أبهر الزّياني فراح يعظّم حاكم الجزائر حينها.

وبقدر ما وقع المكناسي في خطأ، حيث أنّه اعتبر حاكم الجزائر بايا[1]، وهذا سنة 1785، إلّا أنّ القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي كان دقيقا في شأن الحياة السّياسيّة، حيث ذكر الدّاي وعرّف به وأخبر عن وجود الانتخاب وتزكية الباب العالي وذلك بإرسال القفطان، كما تحدّث عن انفصال الجزائر عن الدّولة العثمانية منذ 1710، وتوقّف الباب العالي عن إرسال الباشوات إلى الجزائر، وشدّ انتباهه حادثة وقعت زمن محمّد عثمان باشا سنة 1768[2]، ذكرها دالنسو كانو وغيره، تمثّلت في محاولة اغتيال هذا الحاكم.

وإن كانت رحلة ابن عمّار قد اهتمّت بالمشرق، وهي رحلة حجازيّة، فيها الكثير عن مكّة والمدينة، أهمل صاحبها الحديث عن نظام الحكم في الجزائر، فإنّ الحسين الورتلاني صاحب **نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار** بقدر ما دوّن معارف جمّة عن المشرق، فقد كان بين الحين والآخر يذكر حاكم الجزائر، والغريب في الأمر أنّه كان ينعته بالسّلطان ومرّة بوالي الجزائر، حينما ذكر كورعبدي[3]، ونفس الأمر وجدناه عند أبو راس في رحلته **فتح الإله ومنته،** يذكر حاكم الجزائر بالسّلطان كما ذكره باسم الملك السّعيد[4]، دون تفاصيل أخرى تذكر.

وفي **الرّحلة القمريّة** المسجّلة بقلم ابن زرفة العمري فخر الدّين عنده أول ملوك الجزائر[5]، وطريقة تغيير الحاكم فيها تكون باتّفاق أهل الحل والعقد[6]، حسب ما صرّح به، كما أنّه ذكر مصطلح دولاتي[7]، الّذي وجدناه في رحلة ابن حمادوش.

---

(1)-عبد الوهاب المكناسي، المصدر السّابق، ص329.

(2)-Venture de Paradis, op.cit, pp197-199.

(3)-الحسين الورتيلاني، المصدر السّابق، ص623 وص121.

(4)-أبوراس النّاصر، **فتح الإله**...، المصدر السّابق، ص95.

(5)-ابن زرفة العمري، المصدر السّابق، ص224.

(6)-نفس المصدر، 227.

(7)- نفس المصدر، ص ص226-227.

والمتّصفح لما كتبه كلا من الأسيرين تيدنا الألماني وجيريت ميتزون الهولندي، واللّذان عاشا في مدينة الجزائر نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عن نظام الحكم، يجد ذلك اللّبس في المصطلحات عندهما بين ثلاث كلمات: السّلطان، الباشا والدّاي[1]، حيث أنهما لم يقدّما تفصيلا عن نوعيّة النّظام ولم يفردا له عناصر خاصّة، ولعلّ هذا راجع إلى الظّروف الّتي كانا فيها حينذاك في المدينة، وعدم رغبتهما في تدوين ذلك بعد فكاك أسرهما.

أمّا فيما يخصّ ما صرّح به سيمون بفايفر الألماني في مذكّراته، فيبدو أنّه كان مدركا لحقيقة النّظام السّياسي، فالدّاي عنده حاكم الجزائر والسّلطان هو حاكم الدّولة العثمانيّة ككل، والقطيعة الّتي حدثت بين الجانبين أثرت لا محالة على وضعيّة الجزائر[2]، لأنّها انفصلت تماما عن الدّولة العثمانيّة.

تبيّن لنا أنّ القنصل وليام شالر دوّن الكثير عن الحياة السّياسيّة في المدينة منذ سنة 1816 إلى غاية تواجده بها سنة 1825، كما أنّه علّق على تبعيّة الجزائر للدّولة العثمانيّة وانفصالها عنها في عهد الدّايات. وكان له رأيه الخاص في هذا الشّأن، وهو يعتبر أنّ نظام الحكم في الجزائر عبارة عن جمهورية عسكريّة ينتخب رئيسها لمدى الحياة، وهذا النّظام عنده كان يقوم على رئيس يتمتّع بالسّيادة، وعلى ديوان أي مجلس أعلى يشمل عددا من ضبّاط الميليشيا والتّشكيلات العسكريّة، وأنّ الدّيوان هو الّذي ينتخب الدّاي وينظر في الأمور والقضايا الّتي يعرضها الدّاي عليه[3].

إنّ معلومات وآراء شالر في غاية الأهميّة عن الحياة السّياسيّة في المدينة، حيث يذكر أنّ لقب الدّاي لا يكاد يلفظ في الجزائر، إنّما يستعمله الأجانب، والمرجع حسب رأيه أنّه كان كنية، غير أنّه قال أنّ معناه في اللّغة التّركيّة "العم"، عكس الّذين قالوا بأنّ معناه الخال[4].

والجدير بالذّكر في هذا المقام أيضا، ماذكره هذا القنصل عن تلك الهديّة الّتي كانت ترسلها الجزائر للدّولة العثمانيّة كل ثلاث سنوات، وفيما عدا هذه الهديّة فإنّ الجزائر لا تعترف بسلطان الدّولة العثمانيّة، أمّا فيما يخصّ حوادث اعتلاء الدّايات كرسي الحكم في الجزائر، فقال في شأنها ما قاله أصحاب مصادر الرّحلة من قبله فعادة ما تشوبها المؤامرات والفتن والمآسي الدّامية[5].

---

[1]- أحميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيّات**...، المرجع السّابق، ص ص121-127 وجيريت ميتزون، المصدر السّابق، ص24.

[2]-سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص45 وص73.

[3]-وليام شالر، المصدر السّابق، ص ص40-42.

[4]-نفس المصدر، ص43.

[5]-نفس المصدر، ص44.

ويقول شالر أنّ أي تركي مهما كان أصله أو وضعه، يستطيع أن يرشّح نفسه لمنصب الدّاي، وقد ساعد هذا الامتياز أدنى الأشخاص في الوصول إلى كرسي الحكم في الجزائر، كما اعترف شالر بأنّ الدّاي الّذي ينتخب لا يستطيع رفض هذا الشّرف، كما أنّه لا يستطيع أن يستقيل، حيث أنّه لا يعرف سوى كرسي العرش أو القبر[1].

تبيّن لنا أنّ شالر على حق في شأن التّسمية المعروفة عند العرب لحاكم الجزائر، فهو الباشا، ومرّات يعظّمونه فيطلقون عليه السّلطان باشا، وهذا ما يوافق ما ذكره الرّحّالة التّنلاني عبد الرّحمن بن إدريس[2].

وتأكيدا على ما ذكرته العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة فيمن يتقلّد منصب الحاكم في الجزائر، فقد شرح شون بيرغ الضّابط والرّحّالة الألماني بأنّ لا المواهب ولا الأمجاد هي الّتي تؤهّل صاحبها في الجزائر للوصول إلى المناصب العالية والمراكز المحترمة، وإنّما كان اختيار الحاكم هو المرجع الوحيد في ذلك[3]، لكن يبدو أنّ هذه الظاهرة السّياسيّة لم تكن طيلة العهد العثماني، لأنّ هناك من تقلّد هذا المنصب وهو أهل له وخاصّة في عهد الباي لاربايات كصالح رايس مثلا، والّذي اعترف معينوه بكفاءته من جهة وتوصية الضّبّاط السّامين لأجل ذلك من جهة ثانية.

ونحن نعلم أنّ شونبيرغ كان في المدينة سنة 1830، وتحدّث عن حوادث وقعت قبل ذلك وفي بداية القرن التّاسع عشر وحسب ما صرّح به هو، أنّ معلوماته المدوّنة انتقاها من رجل كان يعيش في المدينة، هذا الأخير دعّمه بمعارف سياسيّة هامّة فيها مشاهد عن الحياة الحضريّة في هذا الجانب، ولنا ما ذكره بأنّ تركيا المسمّى بالي Bali حاول الاستلاء على الحكم، بعد أن كان الدّاي مصطفى(1798-1805) في المسجد لأداء صلاة الجمعة، إلّا أنّ هذه المحاولة باءت بالفشل، وفي أكثر من مرّة صرّح شونبيرغ على لسان محدثه بأنّ تغيير الحاكم في الجزائر يكون من طرف الميليشيا، وعادة ما يتمّ القضاء عليه بالخنق، ومرّات بالقتل بالرّصاص أو بالسّيف...، وهذا ما حدث للعديد من الحكّام ماعدا علي خوجة الّذي مات موتة طبيعيّة، بالرّغم من أنّه أراد أن يستأصل شأفة الميليشيا وأن يجعل من الجزائر عرشا وراثيّا، وهو الّذي غيّر مقر إقامة الحاكم إلى القصبة في أعلى المدينة، وكلّ هذا العمل باء بالفشل، ليتصدّر الجزائر حسين باشا سنة 1818 إلى 1830، وهو الّذي كان يشغل منصب خوجة الخيل[4].

---

[1]-وليام شالر، المصدر السّابق،ص45.

[2]-عبد الرّحمان بن إدريس، المصدر السّابق، ص211 و215.

[3]-أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص39.

[4]-نفس المرجع ، ص ص40-73.

ولا يفوتنا في هذا المقام أيضا أن نذكر ما أقرّه شونبيرغ في رحلته، بأنّ الّذي يتقلّد منصب الدّاي قد يكون الخزناجي أو خوجة الخيل، كما اعترف هذا الضّابط الألماني ببقاء مرسوم تعيين الباشا والقفطان المألوف لا زالا يأتيان من القسطنطينيّة، وكان هذا أيّام أحمد خوجة (1805-1808)[1].

بينما معلومات الضّابط الفرنسي روزيه في رحلته في شأن الحياة السّياسية، فيبدو أنّه كان ناقلا من مصادر رحلة أخرى سبقته إلى المدينة، فقد تحدّث عن الدّاي وعن كيفيّة انتخابه، وصرّح هو الآخر بما صرّحت به معظم مصادر الرّحلة بأنّ العديد منهم قتل على كرسي الحكم، باستثناء واحد توفّي بسبب الطّاعون، وأنّ عناصر الميليشيا هم المحرّك الأساسي للنّظام السّياسي في الجزائر، وهم الأداة الفعّالة في تغيير الحاكم[2].

لقد وجدنا ما صرّحت به مصادر الرّحلة في الشّأن السّياسي المتعلّق بالجزائر، مطابقا أيضا لما ذكره علي المرالي التّونسي في تأليفه **العود الجزائري**، سواء عن تبعيّة الجزائر للدّولة العثمانيّة وعن انفصالها، وعن كيفيّة التّعيين والانتخاب وكذا المراحل الّتي مرّت بها الجزائر منذ عرّوج إلى غاية حسين باشا(من 1516 إلى 1830)[3]، لكنّه فيما يبدو أنه كان متحاملا جدّا على الفترة العثمانيّة في الجزائر

2-الدّيوان:

يعرّف مصطفى أحمد بن حموش الدّيوان على أنّه الملك ووزراؤه، كما أنّه عبارة عن المجلس الأعلى للحكم، وهو لفظ فارسي من معانيه البلاط الملكي ومجالس الحكم والإدارة، وفي الإدارة العثمانيّة بالجزائر كان يطلق على مجلس كبار ضبّاط الانكشاريّة، الّذين لا يقلّ عددهم عن سبعمائة شخص، حيث تتّخذ القرارات السّياسيّة المهمّة[4]، ومن هذا التّعريف فمصادر الرّحلة في بداية القرن السّادس عشر لم تتحدّث عن هذا المجلس، وغالب الظّنّ أنّه لم يتكوّن بعد، إذ لم نجد له ذكرا عند الوزّان، ولا عند مارمول كاربخال في رحلتيهما، غير أنّ ما يستحقّ الذّكر ما صرّح به الأسير سيرفانتس الّذي كان أمام قصر الحاكم ينتظر مصيره، كان فريق الدّيوان برمته في طريقه إلى استقبال باي قسنطينة، حيث قال بأنّهم كانوا يمتطون جيادا عربيّة مسرّجة بسروج فاخرة، وبعد التّحيّات والمراسيم التّقليديّة، عادوا أدراجهم

---

[1]-أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق،ص40، ص50 وص73.

[2]- Rozet et Carrette, op.cit, pp14-15.

[3] – علي المرالي التونسي، المصدر السابق، صفحات متفرقة.

[4]- مصطفى أحمد بن حموش، فقه العمران الاسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري، (956هـ/1549م-1246هـ/1830م)، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 2000، ص271.

بصحبة الباي إلى القصبة العتيقة في احتفاليّة يغلب عليها طابع الأبهة والعظمة[1].

يتبيّن أنّ من مهام الدّيوان استقبال البايات، في بروتوكول سياسي يصوّره الأسير الإسباني سيرفانتس حيث ذكر أنّ طاقم الدّيوان يشارك في هذه الاحتفاليّة مع مجموعة من الموظّفين، ويتحصّل الكل على جزء من هديّة منزل الحاكم، وفيما يعتقد أنّ الدّيوان الّذي تحدّث عنه سيرفانتس، هو قلّة قليلة جدّا من الموظّفين، كما أنّه صاحب القرار في قبول أو رفض الباي (حاكم المقاطعة)[2].

يبدو أنّه بعد مدّة زمنيّة قاربت أو فاقت الخمسين سنة من تبعية الجزائر إلى الدّولة العثمانيّة، ظهر الدّيوان كمجلس أعلى لحلّ المشاكل المستعصية في الجزائر واتّخاذ القرارات السّياسيّة الهامّة، وأفراد الدّيوان يذهبون إلى الميناء لاستقبال الباشا المبعوث من السّلطان العثماني[3]، وبعد ذلك النّقاش بينهم عن سبب المجيء والهدف والواجب الذي عليه فعله(أي على الباشا)، يذكر ماسكارنيهاس عادة سياسية يقوم بها الباشا الجديد وهي رمي النّقود في الأرض تيمّنا وتفاؤلا بمصير جميل، وفي الغد (اليوم الموالي)، يجتمع الدّيوان ويشهد أعضاؤه تعيين الباشا[4].

ولعلّ من بين مصادر الرّحلة والأسر المهمّة الّتي أتت على ذكر الدّيوان بشيء من التّفصيل في القرن السّابع عشر، هو **أسير في مدينة الجزائر** للبرتغالي ماسكارينهاس، الّذي ذكر بأنّ السّلطة الأساسيّة في مدينة الجزائر والأولى قبل كلّ شيء في السّلم وفي الحرب هي الدّيوان، مثلما هو معمول به في روما وفي بعض المقاطعات الأوروبيّة، ويتكوّن هذا الدّيوان من أفراد الانكشاريّة الّذين هم في الخدمة، وتواجدهم في المجلس حسب الأقدميّة، وهم:

- اليولداش: الجندي البسيط (4 أو 5 جنود في الدّيوان).
- أوداباشي: (رئيس مجموعة) وهم الستة القدامى الذين يتواجدون في الدّيوان.
- صولداشي: حرّاس الملك وهم أربعة.
- بولوكباشي: موروبولوكباشي يرافق الملك في كلّ تحرّكاته، وهو عبارة عن محامي الجنود، والباشا لا يتحدّث مع أفراد الانكشاريّة إلّا بحضوره، وهو الّذي يقدّم تقريره إلى نقيب الانكشاريّة وينقل

[1]- جمال غلاب، المرجع السابق، ص94.

[2]- نفس المرجع، ص95.

[3]- Joao Mascarenhas, op. cit, p92.

[4]- Ibid, p92.

ما قاله الباشا.

- ايا باشي: عددهم عشرون، وظيفتهم تسجيل كلّ احتياجات المدينة والحكومة.
- كاهيا الأغا: ملازم نقيب الانكشاريّة، وظيفته محترمة جدًا، ثمّ آغا الانكشاريّة[1].

يتّضح من خلال شهادة هذا الأسير البرتغالي أنّ أفراد الدّيوان كلّهم عسكريّون، يقاربون أو يفوقون الأربعين فردا فقط، كان هذا بين سنتي 1621-1625، لكن تصريحات الأب الفرنسي دان سنة 1634 تؤكّد أنّ الدّيوان عدد أفراده بين 700 و1500 فرد، إذ يذكر بأنّ الدّيوان هو مجلس الدّولة، سواء للمدينة أو لكلّ المملكة، يتكوّن من ضبّاط الميليشيا، ويقول بأنّه يعقد أربع مرّات في الأسبوع، يوم السّبت هو يوم الدّيوان الأكبر، يعقد في القصبة، والأيام الثّلاث الأخرى "الأحد، الأثنين، الثلاثاء" يعقد في ساحة منزل الباشا[2].

يستخلص المتصفّح لآراء الأب دان، بأنّ هناك نوعين من الدّيوان؛ الدّيوان الأكبر والدّيوان الأصغر "أو الصّغير"، وعلى حسب ما صرّح به أنّه حضر جلسة للدّيوان في 26 أوت 1634، وقدّم وصفا وتسميات لأفراد حضروا الدّيوان، إذ يقول:

- الآغا: رئيس هذا المجلس وكلّ الميليشيا، يجلس على كرسي الشّرف.
- السّكرتير: كاتب الدّيوان، وهو الّذي يدوّن مقرّرات المجلس في سجل خاص.
- 24 أجاباشي: وهم الضّبّاط في الميليشيا القريبين جدّا من الآغا (لعلّهم الأياباشي).
- بولوباشي: يقدّمون رأيهم ويصوّتون على القضايا المهمّة.
- أوداباشي: لم يذكر عددهم.
- منزول آغا، ثمّ شواش الدّيوان[3].

ويكمل الأب دان حديثه عن الدّيوان، إذ يقول بأنّ البولوباشي هم الأكثر نصحا ورأيا وعددا في مجالس الدّولة، وهم عادة ما يكونون واقفين مصطفّين وأيديهم مطوية، وكلّ القضايا تطرح وتعالج في الدّيوان باللّغة التّركيّة، وكلّ الضّبّاط لديهم الحق في الكلمة، وفي هذا الدّيوان دائما هناك التّرجمان الّذي

---

(1) – Joao Mascarenhas, op. cit, pp97-99.

(2)– P.P. DAn, op.cit, p101.

(3)– Ibid, p101.

يشرح للموريّين والمسيحيّين القرارات المتّخذة، والآغا هو الّذي يشرف على عمليّات جلسات الدّيوان، ويوجّه الكلمة للباشا، ثمّ إلى 24 أجاباشي ثمّ الكلمة يوزّعها إلى باقي الضبّاط، والباشولادار الأربع (يبدو أنّهم الصّولداشي المذكورون آنفا، المعيّنون من طرف الآغا)، يسمعون الدّيوان بصوت عالٍ القرارات والمستجدّات، ويحدث هذا كلّه تحت امرة وتوجيه الآغا[1].

ويبدو أنّ الأسير الهولندي إيمانويل دارندا قد أقرّ بوجود مجلس يسمّى الدّيوان، وذكر بأنّ عدد أفراده أربعون شخصا فقط[2]، وهو بهذا الإقرار فتح مجال الشّكّ في عدد أفراد الدّيوان والّذي يتبيّن بأنّه عدد غير ثابت، كما ذكر أيضا بأنّ اجتماع هذا المجلس ثلاث مرّات في الأسبوع في أحد أروقة قصر الباشا، ولعلّه يقصد الدّيوان الصّغير.

ولا بأس في هذا المقام أن نذكر ما صرّح به دارندا، بأنّ الباشا في الدّيوان يجلس القرفصاء على طاولة ترتفع بنحو قدمين بعيدا عن الجدار، وهي مغطّاة برداء حريري، وهناك اثنا عشر شخصا يأتون ويجلسون مثل الباشا، ستّة على يمينه وستّة على يساره، وبقيّة الجموع يقون واقفين، مشكّلين صفّين حول الطّاولة، وكلّ المشهد يشكّل دائرة بوترها[3].

يقول دارندا بأنّ كلّ القضايا المتعلّقة بالدّولة تحلّ في هذا المجلس والّذي يشرف عليه الباشا، حيث أنّه ينطق القضيّة المراد معالجتها بصوت عالٍ، وعليه أن يسمع آراء كلّ الحضور، حتّى آخر فرد في الدّيوان[4].

وبالرّغم من أنّ توماس هيز تحدّث كثيرا في رحلته عن الحياة الحضريّة بمدينة الجزائر في جانبها السّياسي، إلّا أنّه لم يخصّص ذكرا للدّيوان ما عدا تلك الإجراءات والبروتوكولات السّياسيّة، الّتي تحدث في المقابلات الرّسميّة والّتي شهدها داخل القصر، غير أنّ شوفالييه دارفيو يقول بأنّ في منزل الحاكم يجتمع الدّيوان، وهو يتكوّن من عدد لا محدود من الضبّاط الكبار والجنود القدامى، والّذين مرّوا على كل أنواع الخدمة، يجتمعون كلّ يوم سبت في منزل ملكهم[5]، وهذا عكس ما صرّحت به باقي مصادر الرّحلة بأنّ يوم السّبت هو يوم الدّيوان الأكبر والّذي يكون في القصبة، وليس في منزل الحاكم.

---

(1)-P.P. DAn, op.cit, p102.

(2)- Imanuel D'Aranda, op.cit, p103.

(3)- Ibid, p103.

(4)-Ibid, p103.

(5)- Chevalier D'Arvieux, op.cit, p249.

والجدير بالذّكر في هذا المقام، ما أقرّ به شوفالييه دارفيو بأنّ الباشا ممثّل السّلطان العثماني حينما يحضر جلسات الدّيوان لا يعترض أبدا على القرارات، وفي حالة ما إذا اعترض فإنّه لا يسمح له بأن يضع اسمه على العقود والمواثيق والعرائض، ويبدو لنا هذا الفعل مظهر مهمّ من مظاهر استقلال الجزائر عن الدّولة العثمانيّة.

لقد تحدّث شوفالييه دارفيو عن الشّواش الّذين يجوبون الشّوارع الهامّة في مدينة الجزائر، يعلّمون النّاس ما استجد من قبل الدّيوان، وقال بأنّ النّاصحين المهمّين في الدّيوان هم جنرالات الجيش، وقدّم وصفا لمشهد الحياة في الدّيوان[1] ، لا يكاد يختلف عمّا ذكر في مصادر رحلة أوروبيّة اهتمّت بهذا الشّأن.

وإنّ من بين أهمّ أصحاب مصادر الرّحلة الّذين اهتمّوا بالحياة السّياسيّة بمدينة الجزائر، وفي ديوانها بالتّحديد نذكر بوتي دولاكروا، الّذي وصف الدّيوان وصفا دقيقا إذ قال فيه: "يتكوّن من 86 شخصا، الباشا، الدّاي، آغا الانكشاريّة، الكيايا أو الملازم العام، 25 يايا باشي، 25 كاهية بلوك باشي، 4 باشوات، 20 يوري إيتش و8 فولاك، يجتمع كلّ يوم للنّظر في القضايا، ويوم السّبت يعقد الدّيوان الكبير المسمّى كالابا Calaba"[2]، وهو للأعمال العامّة، ويقول دولاكروا بأنّ في هذا اليوم يتمّ تغيير حرّاس الأبواب. ونفهم من هذا أنّ حرّاس أبواب المدينة الخمسة يتغيّرون كلّ أسبوع حسب شهادة دولاكروا.

وعن الدّيوان دائما يقول دولاكروا، حينما ينعقد الدّيوان، يأتي بالباشا أربع شواش، وحينما يصل ينادي رجل بأعلى صوته "الله أكبرومحمّد رسول الله" إلى غاية أن يجلس، وكلّ الدّيوان يردّد نفس العبارة بصوت عالٍ[3]، ثمّ أتى دولاكروا على ذكر كيفيّة سير مجريات جلسات الدّيوان، وقال بأنّ كلّ فرد في الدّيوان لديه الحق في إبداء رأيه، وهناك أربع باشودات يحضرون جلسات الدّيوان ويرفعون تقريرهم إلى كامل الانكشاريّة فيما بعد[4].

بقدر ما اختلف أصحاب مصادر الرّحلة في ذكر عدد أفراد الدّيوان، فقد تبيّن لنا بأنّ عددهم غير مضبوط، وقد يكون يرتفع بحسب عدد ضبّاط الانكشاريّة في المدينة، هذا من جهة ومن جهة

---

(1)-Chevalier D'Arvieux, op.cit, pp250-254.

(2)- Marcel Emerit, **"un mémoire sur Alger…"**,op.cit, p13.

(3)- Ibid,p14.

(4)-Ibid, p14.

أخرى اعتراف أصحاب مصادر الرّحلة بسماع كلّ الآراء في الدّيوان مهما كانت ومن أيّ جهة، دلالة على حريّة إبداء الرّأي والتّعبير في شؤون عديدة رغم الاختلافات في بعض الأحيان.

والملفت للانتباه في شأن الدّيوان ما ذكره ألفرد دابر Alfred D'Apper ، أنّ الباشا نفسه لا يملك الإذن بالدّخول إلى الدّيوان إن لم يناد عليه من طرف أعضاء الدّيوان[1]، ولا بأس أن نسرد في هذا المقام كيفيّة جلوس أعضاء الدّيوان حسب ما ذكره ألفرد دابر سنة 1686، وإن كانت لا تختلف كثيرا عمّا ذكره الأب دان:

- الآغا: هو الرّئيس، يجلس في الأعلى ويعرض الاقتراحات، إذا حضر الباشا يقول فقط رأيه، وهو مثل البقيّة يبدي رأيه فقط.

- المكان الثّاني: السكرتير (كاتب الدّيوان)، والّذي يدوّن كلّ ما توصّل إليه الاجتماع.

-المكان الثّالث: مخصّص لـ: 24 أجاباشي، وهم الضّبّاط الأوائل بعد الآغا، ويجلوس في رواق السّاحة، وحسب الأقدميّة يصطفّون.

- المكان الرّابع: مخصّص لـ: البولوكباشي، الّذين يبدون آراءهم في القضايا المطروحة.

- المكان الخامس: مخصّص لـ: الأوداباشي، وفي حالة ما إذا كانت هناك قضايا مهمّة ينادى المنزول آغا (متقاعدي الجيش)، والشّواش الّذين ينفذّون أوامر هذا المجلس هم في الصّفّ السّادس والأخير.

ويقول ألفرد دابر بانّ البولوكباشي والأوداباشي يكوّنون أكبر جزء من المجلس، والدّيوان عادة ما يحوي أكثر من 700 أو 800 فرد، لأنّ كلّ الضّبّاط الموجودين في المدينة يجتمعون فيه، وهذا العدد قد يرتفع إلى 1500 فرد عندما ينادى لمتقاعدي الجيش[2]، ويعلّق ألفرد دابر على مجريات جلسات الدّيوان إذا كان هناك عدم تفاهم ورضى، فقال عنها بأنّها تجمّعات صاخبة، وأنّ أعضاء الدّيوان تعساء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وهم يحكمون بكلّ سيادة، والقضايا في الدّيوان تعالج باللّغة التّركيّة وكأنّهم في استقلاليّة عن الباب العالي، والطّريقة الّتي تجمع بها الأصوات فالآغا يقدّم عرضه، ثمّ الكلمة تمرّ إلى الباشا (إن كان موجودا)، ثمّ إلى 24أجاباشي، ثمّ إلى الأربع ضبّاط المسمّون باشودار والّذين يعيدون ما

---

[1]- Alfred D'Apper, **Description de l'Afrique**, trad, française waeberge Bommet van someren, Paris, 1686, p181.
[2]- Ibid, p181.

قاله الآغا بصوت عال، وأخيرا تمرّ الكلمة إلى باقي الضّبّاط الآخرين الواحد تلوى الآخر، والآغا هو الّذي يشكّل النّتيجة ويحوصل الآراء[1].

نفس المعلومات الّتي يقدّمها دي تاسي عن الدّيوان[2]، وجدناها عند الطّبيب شو[3]، ولا تكاد تختلف عمّا ذكرناه آنفا، من حيث القاعة الّتي ينعقد فيها الدّيوان، وحضور كبار ضبّاط الانكشاريّة وكيفيّة جلوسهم، ونفس الأمر ينطبق على ما ذكره الآباء في رحلتهم لافتداء الأسرى سنة 1720[4]، وتكاد تكون الفكرة نفسها متداولة في مصادر الرّحلة.

أمّا فيما يخصّ آراء الطّبيب والرّحّالة الألماني هابنسترايت حول الدّيوان، فقد ذكر بأنّه يجتمع كلّ يوم سبت، وهو مجلس مؤلّف من كبار ضبّاط الوجاق، ويرأس الدّيوان آغا يتوّلى هذه المسؤوليّة لمدّة شهرين، يترك بعدها مكانه لآغا آخر، وأثناء هذه الفترة الّتي يتولّى فيها رئاسة الدّيوان يصاحبه في انتقاله عدّة شوّاش ينادون على المارّة:«أفسحوا المكان أفسحوا... الآغا قادم»، فهو الشّخص الوحيد الّذي يحظى بهذه المعاملة من دون بقيّة الضّبّاط السّامين[5]، دلالة على تميّزه وتفرّده.

أمّا الدّيوان عند الطّبيب الرّحّالة ابن حمادوش فهو أهل الحلّ والعقد، ومجلس اجتماع أرباب المشورة، ومن وظيفته المبايعة، وفي حين أنّ المبعوث والرّحّالة الإسباني دالنسو كانو تحدّث عن الدّيوان من حيث أنّه تجمّع عام لكلّ ضبّاط الميليشيا في القضايا المهمّة، وقال بأنّ الآغا هو رئيسه والباي عضو واحد منهم فقط، والكلّ فيه يدلي برأيه والحكم فيه للأغلبيّة، وينفرد دالنسو كانو بتحديد سنة 1630 كبداية لانعقاد الدّيوان الكبير في القصبة، لكنّه يذكره في يوم الخميس[6]، عكس الّذين ذكروا يوم السّبت هو يوم انعقاد الدّيوان الكبير، وهو بمثابة هيئة التّشريع في الجمهوريّة، وتؤخذ فيه القرارات بواسطة المداولات، كما نبّأنا بأنّ القاضي يحضر جلسات المداولات ويأخذ برأي الشّرع، وقال أيضا بأنّ في الدّيوان الكبير تقبّل يد الباي، بينما في الدّيوان العادي الّذي ينعقد ثلاثة أيّام في الأسبوع فيحضره الضّبّاط القدامى[7].

---

[1]-Alfred D'Apper, Op.cit, p181.

[2]- Laugier de tassy, op.cit, pp134-135.

[3]- Thomas Show, op.cit, pp158-160.

[4]- Jean de la Fay et autres, op.cit, p91.

[5]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص ص44-45.

[6]- D'Alonso Cano, op.cit, p111.

[7]- Ibid, p111.

وفي حقيقة الأمر ليست كلّ مصادر الرّحلة اهتمّت بهذا المجلس، حيث أنّنا لم نجد له ذكرا عند العديد منهم من أمثال الجامعي، مورقن، ابن المسيّب، كوكوفتسوف، ديسفونتين، الزّيّاني، المكناسي، أحمد بن عمّار، أبو راس النّاصر والحسين الورتلاني... ولعلّ هذا مردّه لأسباب عديدة في مقدّمتها غرض الرّحلات الّذي تنوّع بين العلميّة والحجازيّة من جهة والمظاهر الحياتيّة الّتي صادفها الرّحّالة من جهة أخرى، والّتي حالت دون الحديث عنه.

وممّا تجدر الإشارة إليه ذلك الوصف، الّذي قدّمه كاثكارت لقاعة الدّيوان وقال في شأنها، تنتشر فيها عرصات من المرمر وتقع في وسطها فوّارة أيضا من المرمر، وقد زيّنت بمرايا عديدة استجلبت من البندقيّة، وفي هذه القاعة يجلس الدّاي والخوجات الأربع ووزراء الدّولة، وفيها تحفظ وثائق الدّولة[1].

أمّا فيما يخصّ القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي، فقد أفاض في وصف الدّيوان وقال بأنّه هو مجلس الدّولة، والدّيوان العام أو المجلس العام، وذكر أعضاءه وهم: الدّاي، الخزناجي، آغا الهلالين، الكايا والضّبّاط الآخرين بالتّتابع، الكتّاب الكبار يجلسون على يمين الدّاي، والشّوّاش، وكيل الحرج و12 بولوكباشي يحملون مفاتيح الورشات، وكذلك نقيب الميناء والحرّاس والرّيّاس، والكايا والجاباباشي وآغا الصّبايحيّة والأوداباشي وكلّهم جالسون ، إلّا أنّ الشّوّاش يبقون واقفين أمام الدّاي، بالإضافة إلى وجود ترجمان الدّيوان[2]، دون ذكره عدد أفراد الدّيوان.

وممّا تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ ابن زرفة العمري في **الرحلة القمريّة** ذكر بأنّ أهل الحلّ والعقد (يقصد أعضاء الدّيوان)، هم الّذين يتّفقون على من يتولّى الحكم[3]، وهو بذلك يؤكّد اعترافات وإقرار أصحاب مصادر الرّحلة في هذا الشّأن، وهي المشورة والتّشاور في اختيار الحاكم دون تفاصيل أخرى، الّتي تميّزت بها مصادر الرّحلة الأوروبيّة، هو وصف الدّيوان ومكان انعقاده وكيفيّة حدوث ذلك وأفراده والطّريقة الّتي تعالج بها القضايا.

وكما أسلفنا أنّ مصادر الرّحلة العربيّة لم تقدّم الوصف الكامل والوافي للدّيوان، بل هذا ما لمسناه في مصادر الرّحلة الأوروبيّة، والّتي منها الرّحّالة الألماني شونبيرغ الّذي رافق الحملة الفرنسيّة، فقد قال بأنّ الدّيوان حكم على أنّ الخزينة هي ملك لدولة الجزائر، ومن ثمّ فهي ملك للمنتصر (فرنسا)، حتّى تضفي فرنسا نوعا من الشّرعيّة والأحقيّة في استيلائها على خزينة الدّولة، وفي شأن آخر عن الدّيوان، قال

---

(1)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص91.

(2)- Venture de Paradis,"**Tunis et Alger…",** op.cit , pp216-217.

(3)- ابن زرفة العمري، المصدر السّابق، ص227.

شونبيرغ بأنّه لأوّل مرّة في القرن 19، الدّيوان يتمكّن من ممارسة وظيفته الأساسيّة وهي اختيار داي جديد وهو خوجة الخيل حسين باشا[1]، والّتي يفهم منها أنّه كانت هناك خلافات ونزاعات في اختيار الحاكم بين أجنحة وضبّاط الميليشيا، كلّ جهة تحاول فرض مرشّحها، وهذا أيضا ما صرّحت به مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

ويبدو لنا أنّ علي المرالي التّونسي في تأليفه **العود الجزائري** حينما تحدّث عن الدّيوان، قام بترجمة نصٍّ بلغةٍ فرنسيّةٍ عن هذا المجلس، لأنّه نفس اعتراف مصادر الرّحلة الأوروبيّة عن هذه الهيئة أتى على ذكرها هذا الرّحّالة التّونسي، مثل كيفيّة الاجتماع، وضبّاط الميليشيا بتسمياتهم، ومكان جلوسهم ورئيسهم الأسن فيهم، وطريقة معالجتهم للقضايا المطروحة، وكذا اللّغة الّتي تناقش بها القضايا، ووجود ذلك الضّجيج في الدّيوان الّذي يحوي سبعمائة فرد في الأحوال الكبار، على حدّ ذكر علي المرالي التّونسي.

هناك ملاحظة أخيرة تفرض نفسها في شأن الدّيوان، والّذي كان يعقد في قاعة مفتوحة بمقرّ إقامة الحاكم، والّتي صوّرها الرّسامان الفرنسيّان ليسيور وويلد، وهذا ما يجعلنا نوظّفها كملحق يبيّن مكان انعقاد الدّيوان الصّغير.

وعموما فالملاحظات المسجّلة حول الدّيوان من خلال مصادر الرّحلة هي كالآتي:

- اختلفت مصادر الرّحلة في ذكر عدد أفراد الدّيوان من 40 إلى 86 إلى 700 إلى 800 فرد وإلى 1500 فرد في القضايا الكبرى.
- صرّحت بعض مصادر الرّحلة بوجود ديوانين، الصّغير يعقد في قصر الحاكم أيّام الأحد، الأثنين، الثّلاثاء، والكبير يعقد في القصبة (توجد في أعلى قمّة في المدينة).
- اختلفت مصادر الرّحلة الأوروبيّة في ذكر يوم انعقاد الدّيوان الكبير يوم الخميس أو يوم السّبت.
- اختلفت مصادر الرّحلة الأوروبيّة في ذكر عدد المرّات الّتي ينعقد فيها الدّيوان بين ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع.
- الدّيوان هيئة التّشريع في الجمهوريّة (المملكة)، يحدث فيه الضّجيج أثناء عدم التّفاهم حول قضيّة معيّنة، كما تطرح فيه انشغالات مدينة الجزائر من طرف الحضور.

---

[1]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات** ...، المرجع السّابق، ص ص36 و73.

- جلسات الدّيوان فيها نوع من حريّة الرّأي والقرارات المتّخذة فيه للأغلبيّة.
- غالبيّة الحضور في الدّيوان هم ضبّاط الميليشيا، والّذين يجلسون ويصطفّون فيه حسب الصّفوف والأقدميّة.
- الدّيوان في مصادر الرّحلة العربيّة هو أهل الحلّ والعقد وأصحاب المشورة.
- أنّ معلومات وآراء مصادر الرّحلة الأوروبيّة في شأن الدّيوان أكثر بكثير من مصادر الرّحلة العربيّة، والّتي كانت تذكره في سياق حديثها ليس إلّا.

3-الشّخصيّات النافذة في الحياة الحضرية في المدينة:

جاء بقلم أحد الكتّاب الفرنسيّين في القرن الثّامن عشر القول: إنّ الرّحلات تشكّل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، فالاختلاط والحياة مع الشّعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم والتّحقيق في دياناتهم ونظم حكمهم، غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا للمقارنة[1]، بين ما ألّفه وما وجده، وعلى هذا الأساس اهتمّت مصادر الرّحلة بذكر نوعيّة نظام الحكم، والشّخصيّات والموظّفين الّتي كان لها الدّور الأساسي والمهم، ليس فقط في مدينة الجزائر بل في كامل الإيّالة، وبحكم أنّهم كانوا يعيشون في مدينة الجزائر توجّب علينا ذكرهم:

- الحاكم: فحسن الوزّان يقول عن بربروس بأنّه ملك[2]، ومارمول كاربخال يذكر المرتدّين والأتراك الملازمين لحاكم الجزائر دون تحديد مهامهم ولا أسمائهم[3]، في حين أنّ الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي يقول بأنّ من بين الأعضاء الملازمين لحاكم الجزائر في قاعة الاستقبال هو القبطان آغا ومساعدوه، وفي هذا الشّأن يقول هايدو بأنّ للآغا السّلطة على الجميع بمن فيهم الحكّام، وعلى ملك الجزائر نفسه[4]، في حين أنّ سيرفانتس يذكر الشّخصيّات بأسمائها، تلك الّتي رافقت حاكم الجزائر لاستقبال باي قسنطينة وهم: الخزناجي، الآغا، الخوجة المكلّف برعاية الحيوانات والمدير العام للبحريّة[5]، ويبدو من خلال شهادته هاته أنّه ذكر أهمّ الموظّفين السّامين في الدّولة:

- الخزناجي: وهو المكلّف بخزينة الدّولة، والآغا هو القائد الأعلى للجيش.

- خوجة الخيل: مكلّف برعاية حيوانات المملكة.

- وكيل الخرج: مكلّف بالتّرسانة البحريّة، وكلّ ما يتعلّق بشؤون البحر والعلاقات الخارجيّة[6].

إن لم يهتم الرّحّالة المغربي التّمقروتي بالشّخصيّات والموظّفين، فإنّ الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس يؤكّد سطوة آغا الانكشاريّة على الباشا نفسه، كما يثبت أنّ جميع الشّخصيّات

---

(1)- حسين محمّد فهيم، **أدب الرّحلات** (عالم المعرفة) سلسلة كتب ثقافيّة شهريّة يصدرها المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص17.

(2)- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص39.

(3)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص 367.

(4)- Nicolas de Nicolay, op.cit, pp18-19.

(5)- جمال غلّاب، المرجع السّابق، ص95.

(6)- ناصر الدّين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، المرجع السّابق، ص ص164-173.

العسكريّة تؤثر في المجال السّياسي من خلال الدّيوان[1].

ويبدو أنّ اهتمام أبو العبّاس أحمد المقرّي بالجانب العلمي والثّقافي في المدينة أكثر من اهتمامه بجوانب أخرى، غير أنّ في رحلات الأب دان، إيمانويل دارندا، توماس هيز، شوفالييه دارفيو... الكثير عن الحياة السّياسيّة فيما تعلّق بالشّخصيّات الفاعلة ليس في المدينة فحسب، بل في كامل المملكة، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ ألفرد دابر في رحلته قد نوّه بأنّ للبرجوازيّة نصيب في التّسيير أيّام بربروس، إلّا أنّ الأمر تغيّر فيما بعد[2]، وصارت للميليشيا كلّ السّلطة.

لقد تحدّث الرّحّالة الفرنسي بوتي دولاكروا عن بعض الموظّفين في الدّولة، في عنصر مهمّ أطلق عليه عنوان درب الشّرف، وقال بأنّ جلّهم عسكريّون، مثل البيتمالجي، وهو وريث لمن لا وارث له[3]، لأنّه المشرف على مصلحة الأملاك والثّروات الّتي تؤول إلى الدّولة بعد موت أصحابها أو استعبادهم أو فقدانهم، فيما إذا انعدم ورثة شرعيّون لهم من إخوة أو أبناء أو أقارب[4].

كما قال بوتي دولاكروا بأنّ المزوار هو فارس التّرقّب[5]، ولعلّ التّعريف الصّادق لهذا الموظّف بأنّه يقوم بمهام شرطة الأخلاق، والمخالفات الاجتماعيّة بمساعدة أعوانه من المرسى[6]، لذلك سمّاه هذا الرّحّالة بفارس التّرقّب، كما يتّضح أنّه أحد موظّفي الخدمات الاجتماعيّة.

إنّ ما ذكره دي تاسي عن الخزناجي، الشّوّاش والتّرجمان المخصّص لمنزل الملك بضرورة تواجدهم دائما بالقرب من الدّاي، خصوصا إذا كان هذا الأخير يجلس على كرسي العرش (الحكم)[7]، ينطبق على العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه الخصوص، وهي ملازمة هؤلاء الموظّفين للحاكم.

كما ذكر دي تاسي الخوجات أو خوجات باشي، وقال بأنّهم أربعة كتّاب كبار والقديم فيهم يحمل سجل المرتبات والمصاريف الضّروريّة والثّاني للجمارك، والثّالث لعائدات الدّولة، والرّابع للعلاقات

---

(1)- Joao Mascarenhas, op.cit, p92.

(2)- Alfred D'Apper, op.cit, p181.

(3)- Marcel Emerit**," un mémoire sur Alger…",**op.cit, p15.

(4)- ناصر الدّين سعيدوني، **ورقات جزائرية**...، المرجع السّابق، ص167.

(5)- Marcel Emerit, **"un mémoire sur Alger…"**,op.cit, p15.

(6)- ناصر الدّين سعيدوني، **ورقات جزائرية**...، المرجع السّابق، ص186.

(7)- Laugier de Tassy, op.cit, p135.

الخارجيّة، ومكانهم دائما على يمين الدّاي (الحاكم)، يجيبون، يتأكّدون ويسجّلون كلّ حسب اختصاصه، ثمّ تطرّق إلى ذكر الخزندار (الخزناجي)، وقال بأنّه أمين مال الدّولة، ويكون أيضا دائما حاضرا مع الدّاي، والخزينة عبارة عن غرفة في قاعة الدّيوان، كما ذكر أيضا في نفس السّياق أنّ من أمناء المال من لا يعرف القراءة ولا الكتابة، والنّظر في الخزينة لا يكون إلّا بحضور الدّيوان (في حالة وضع شيء ما أو الأخذ منها)[1].

يبدو أنّ معلومات دي تاسي حول الموظّفين والشّخصيّات الفاعلة في مدينة الجزائر وفي الحياة الحضريّة فيها جدّ مهمّة وضروريّة، فقد أورد أيضا معلومة في غاية الأهميّة، وهي وجود محاسب تركي بجانب أمين المال بالإضافة إلى وجود يهوديّين، الأوّل يعمل على مراقبة النّقود والتّأكّد من سلامتها، والثّاني لوزنها والتثبت من حقيقتها، وكلّ ذلك يدوّن في سجل خاص[2]، وهذا ما يبيّن لنا نفوذ اليهود وامتهان البعض منهم صك العملة وما تعلّق بها.

وقد أورد أيضا دي تاسي شخصية شيخ البلد، كموظّف مهم في الحياة الحضريّة في المدينة، وقال بأنّه بمثابة جهاز الشّرطة، وكل ما يتعلّق بالتّرميم في المدينة، ناهيك عن الخوجة المراقب العام، خوجات الدّايلك، كتّاب الملك، وهم بعدد 80 لكل واحد منهم عمله الخاص (خوجة الخبز، خوجة اللّحم...)، التّرجمان الخاص بمنزل الملك، شوّاش منزل الملك، الباشوان اللّذان يرافقان الزّوّار للدّاي، القارديان باشي وهم مسيّرا سجون الدّايلك، ويشرفون على عمل العبيد ويقدّمون التّقارير يوميّا إلى الدّاي[3].

كما ذكر دي تاسي رئيس البحريّة، وسمّاه نقيب الميناء وعادة ما يكون كبيرا وخبيرا بشؤون البحر، وأيضا ذكر الأميرال والرّيّاس (نقباء السّفن)، الطّوبجي باشي (سادة المدافع)، وأخيرا ذكر المزوار وقال بأنّه الملازم العام للشّرطة، يملك الكلمة المهمّة في المدينة، ترافقه ثلّة من الحرّاس تجوب المدينة في اللّيل والنّهار، ويقدّم تقريره للدّاي ويراقب هذا المزوار النّساء العاهرات[4].

معظم معلومات دي تاسي أوردها الرّحّالة الإنجليزي توماس شو في شأن الحياة السّياسيّة والموظّفين الفاعلين فيها[5]، ورغم أنّ الرّحّالة الفرنسي الطّبيب جين أندري بايسونال قد قابل الدّاي

---

(1)-Laugier de Tassy, op.cit, pp140-141.

(2)-Ibid, p142.

(3)- Ibid, pp142-146.

(4)- Ibid, p146.

(5)- Thomas Shaw, op.cit, pp160-166.

عبدي آغا، وذكر عنده التّرجمان كموظّف والّذي كان واسطة في التّواصل بينهما قد أهمل ذكر جميع الموظّفين، في حين أنّ الآباء في رحلتهم لافتداء الأسرى في مدينة الجزائر سنة 1720، ذكروا بأنّ الدّاي كان يساعده أربعة كتّاب كبار ووزراء الدّولة على يمينه[1]، دون تفاصيل أخرى.

وقد عدّد المبعوث الإسباني دالنسو كانو العديد من الموظّفين في مدينة الجزائر أثناء رحلته، وذكر بأنّ الخوجات يشترط فيهم معرفة القراءة والكتابة، وقدّم أنواعا (مثل خوجة الزّيت، خوجة القمح...) ونوّه بوجود ترجمانين في القصر (مكان إقامة الحاكم) أحدهما تركي والآخر موري، وقال أيضا أنّ هناك حارسين اثنين للخزينة (مهيلاجي)، والشّوّاش هم بمثابة الحجّاب، ولديهم سياطات وقد أورد كذلك المزوار كموظّف مثل الشّرطي، مهمّته أمن وسلامة المدينة[2].

ومن المنصف أيضا في هذا الإطار أن نقرّ بأنّ القنصل فاليار قد أورد في كتابه الشّخصيّات الفاعلة والمؤثّرة في المدينة والمملكة معا[3]، وهو بذلك لا يختلف عمّا ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة الأخرى الّتي اهتمّت بهذا الأمر، أمّا الرّحّالة الرّوسي كوكوفتسوف فصرّح بأنّ الوظائف العليا هي من اختصاص ميليشيا الأتراك، وعموما هم الأفراد الّذين يأتون من الشّرق[4]، ومن الواضح أنّ هذه الوظائف العليا هي الخزناجي وخوجة الخيل والآغا والبيتمالجي... وغيرهم.

ومن الجدير بالذّكر أيضا أن نذكر ما كتبه الأسير الأمريكي كاثكارت، بأنّ الدّاي يساعده في مهامه كتّاب أربع، وحينما يجلس على كرسي الحكم يكون وزراء دولته قريبين منه[5]، دون تفاصيل أخرى عن هؤلاء الكتّاب ولا عن الوزراء أيضا.

وفي **التّرجمانة الكبرى** نستشف أهميّة شخصيّة أبو القاسم الزّيّاني، الّذي استقبلته عدّة شخصيّات من أهل دولة الباشا على حدّ ذكره وهم: القاضي، كاتب الباشا، حاجبه وصهره [6]، وأظهروا له حسن الاستقبال والضيافة وزادوا في كرمه.

وارتأينا في هذا الشّأن السّياسي أن نوضّح في جدول الشّخصيّات المهمّة والموظّفين الفاعلين في

---

(1)- P.François Comelin et autre, op.cit, p92.

(2)- D'Alonso Cano, op.cit, pp105-109.

(3)-C. PH. Valliere , op.cit, pp5-6.

(4)- Marcel Emerit**, "Description de l'Algérie…"**, op.cit, p211.

(5)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص91.

(6)- أبو القاسم الزّيّاني، المصدر السّابق، ص151.

الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر وفق ما صرّح به فونتير ديبارادي[1]، وهم الضّبّاط المكوّنون للحكومة:

الموظّف	مهامه	اسم الموظّف حينها
-الدّاي		-محمّد بن عثمان باشا.
-الخزناجي	-الوزير الأوّل، المسؤول عن خزينة الدّولة.	-حسان.
-وكيل الحرج	-وزير البحريّة "البحر وشؤونه".	-علي.
-محلّي أغاسي (الآغا).	-الوزير الثّاني، جنرال الحرب أرضا.	
-خوجة الخيل		-مصطفى.
-البيتمالجي	-عائدات المملكة، بيع الخيول، الإبل...	-علي.
-الكاتب الأوّل	-وريث من لا وريث له.	-أحمد خوجة.
-الكاتب الثّاني	-المسمى المكتاجي (المقطعجي) لدور اليولداش.	-حسان.
-الكاتب الثّالث	-باش دفترجي لـ: فرق العسكر.	/
-والكاتب الرّابع	-لسجل عائدات البايلك ولسجل الجمارك.	/
-وكيل الحرج الكبير	-مسؤول عن زيت البايلك.	-محمد.
-وكيل الحرج الصّغير	-مسؤول عن عدم تهريب شمع العسل.	-أحمد.

وإذا أهمل أصحاب مصادر الرّحلة الحجازّية الحديث عن الحياة السّياسيّة في بعض جوانبها مثل أحمد بن عمّار، الحسين الورتلاني، لاهتمامهما بشؤون دينيّة، كذلك انطبق الأمر على رحلة أبو راس النّاصر وابن زرفة العمري، أمّا في مصادر الأسر والّتي من أصحابها تيدنا، جيريت ميتزون وسيمون بفايفر، فيبدو أنّ وضعهم كعبيد سيطر على كتابتهم فلم يخصّصوا عناصر مهمّة أثناء حديثهم عن بعض الشّخصيات الفاعلة في المدينة ولا حتّى بعض الموظّفين، وإن ذكروا فقد جاؤوا في سياق حديثهم ليس إلّا، فهذا الأسير الألماني بفايفر يقول: "وكيل الخرج أفندي، الخزناجي أفندي، المزوار ورفاقه، كبير أمناء القصر، جلاد العبيد، قيّم القصر، أمين القصر، ساريان(خدّام هذا الطّبيب سيمون بفايفر) والآغا أفندي[2]... دون توضيح لمهامهم ووظائفهم.

إنّ شهادة وليام شالر القنصل الأمريكي حول الحكومة والموظّفين، تبيّن أنّه مدرك تماما لهذا الجانب إذ يقول: "إلى جانب الإدارة التّركيّة العامّة والّتي مقرّها العاصمة توجد حكومة تشمل شيخ

---

[1]- Venture de Paradis, **Tunis et Alger… ,** op.cit, pp214-216.

[2]- سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص ص14-34.

البلد، أو الحاكم المدني وكاهية، أو قائد الميليشيا في المدينة، وقول آغا أو مدير الشّرطة الّذي تشمل إدارته مراقبة الحمّامات ومنازل الدّعارة، وجميع الموظّفين في هذه الإدارة من الأهالي"[1]، وعلى ما يبدو أنّهم من موظّفي الخدمات الاجتماعيّة.

إنّ الملاحظة الّتي أبداها وليام شالر حول الشّرطة الجزائريّة تستحقّ الذّكر والإشادة، إذ يقول:«أنا أعتقد أنّه لا توجد مدينة أخرى في العالم يبدي فيها البوليس نشاطا أكبر ممّا تبديه الشّرطة الجزائريّة، الّتي لا تكاد جريمة تفلت من رقابتها، كما أنّه لا يوجد بلد آخر يتمتّع فيه المواطن وممتلكاته بأمن أكبر...»[2].وهي دلالة على أهميّة الأمن في حساب الحكومة وحرصها الشّديد على تحقيقه، وتحقيق أمن وممتلكات أشخاصها.

يخبرنا التّنلاني أنّ حادثة الهجوم على مدينة الجزائر من طرف اللّورد إكسماوث، وقعت في فصل الخريف، وأنّ أكابر البلد ورؤساء الجند كانوا متفرّقين في الحدائق، ولم يجد صاحب الجزائر كبراء دولته لمشاورتهم[3]، ولعلّه يقصد الوزراء والمقرّبين من الدّاي سالفي الذّكر، في حين ذكر قائد المرسى كموظّف وسمّاه علي، كما ذكر الشّاوش وأصحاب الباشا عمر، دون تفاصيل دقيقة في أسمائهم ولا وظائفهم.

لقد ذكر الضّابط والطّبيب الألماني شونبيرغ العديد من الموظّفين في رحلته سنة 1830[4]، لكن حديثه عنهم أيضا كان في سياق رحلته العسكريّة وليس تخصيصا دقيقا لمهامهم ووظائفهم، ويذكر شيئا مهما عن علي خوجة والّذي أسند جميع الوظائف إلى عدد كبير من الكراغلة والحضر أيضا[5]، وهي دلالة على تقرّب الحكومة من العنصر المحلي، لكن في آخر أيامها بمدينة الجزائر، وهذا بعدما استأثرت من قبل العناصر التّركيّة بالعديد من المناصب والوظائف الهامّة في الدّولة، وهو الأمر الّذي صرّحت به معظم مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه الخصوص.

الدّاي لديه وزراء منصّبون على كل القطاعات الإدارية المختلفة، وهم يقدّمون له التّقارير كلّ حسب قطاعه[6]، هذا هو اعتراف الضّابط الفرنسي روزيه في رحلته، وقد تبيّن لنا أنّ ما ذكره علي

---

[1]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص77.

[2]- نفس المصدر، ص78.

[3]- عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص ص210-215.

[4]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص39، ص40، ص56، ص59.

[5]- نفس المرجع، ص73.

[6]- Rozet et Carrette, op.cit, p14.

المرالي التّونسي في تأليفه عن الموظفين والوزراء في مدينة الجزائر، فرض علينا تعدادهم للاختلاف الواضح في بعض الأسماء فقد قال بأنّ أكبر الوزراء في دولة الجزائر كانوا: الخزناجي، الميكلاشي، لاميرانت، خوجة الدّاي، آغا المحلّى وخوجة الأحواشي، وكان هناك أيضا أربع خوجات يكتبون مختلف الأمور، وهم: الأوّل لمصاريف البلاد والرّواتب، والثّاني للجاليات والأقوام، والثّالث للمدخول والمصاريف والرّابع لأسجال البلديّة، وما بين مملكة الجزائر والبلدان الخارجيّة، بالإضافة إلى وجود ثمانين خوجة، كلّ واحد منهم مشغول بأمر معيّن[1].

وقد قدّم أمثلة عن بعض هؤلاء الخوجات، وهم:

نوعيّة عمل الخوجة	الملاحظة
1- خوجة يعرض الخبز على العساكر	- خوجة الخبز.
2- خوجة يقبض على الدّيوان الأفرضة	- خوجة أفرضة الدّيوان.
3- خوجة يسجّل عوائد القمارق	- خوجة الجمارك، القمرة أو القمرق.
4- خوجة يقوم بخزائن المعونة	- لعلّه خوجة الغنائم.
5- خوجة أبواب المدينة	- على كلّ باب من أبواب مدينة الجزائر هناك اثنان.
6- خوجة الدّاي	- البعض منهم يقرب من الدّاي.
7- خوجة الوزير	- البعض منهم يقرب من الوزير.
8- خوجة الضّيعة	
9- خوجة المراكب والنّقير	- خوجة الحدائق. خوجة السفن والمراكب البحرية.

بالإضافة إلى موظّفين آخرين، وهم: المزوار في اطمئنان المدينة(الأمن)، شيخ البلد وهو المحافظ للبلاد، البيتماجي والّذي يتمكّن من أرزاق الّذين ليس لهم وارث، التّرجمان والّذي ينبغي له أن يعرف العربيّة والتّركيّة، ويترجم بالتّركيّة المكاتب، وأخيرا رايس المرسى الّذي يتفقّد المراكب القرصانيّة، ويفرّق ويحكم على ما في السّفن[2].

---

[1]- علي المرالي التّونسي، المصدر السّابق، ص ص68-69.

[2]- نفس المرجع، ص69.

وإن اختلفت مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة في ذكر الموظّفين، سواء السّامين أو التّابعين أو حتّى موظّفي المصالح الإداريّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فقد اتّضح أنّه في مدينة الجزائر كانت هناك ثلّة كبيرة من الموظّفين، مقسّمين حسب الاختصاصات والمهام بغية تسهيل التحكم في الحياة الحضريّة في المدينة وتنظيم شؤونها، وقد انفردت مصادر الرّحلة الأوروبيّة عموما في ذكر نوعيّة الوظائف والمهام، وأسماء الموظّفين عن مصادر الرّحلة العربيّة، ولعلّ في هذا الشّأن أنّ الأوروبيّين كتبوا عمّا هو جديد عنهم وعن بيئتهم، وسجّلوا الغريب والمتميّز بحكم الاختلاف الحاصل في تسيير شؤون الحياة بين الأوروبيّين والمسلمين.

4_ انكشارية مدينة الجزائر، ثكناتها والحياة داخلها

نشأ الأتراك العثمانيون على البداوة والتّرحال، إلى أن اعتنقوا الإسلام فتحمّسوا له بقوة، وما إن أعلنوا عن إنشاء دولتهم بالأناضول سنة 1299، حتّى رفعوا راية الجهاد، وتعود قوّة هذه الدّولة الفتيّة إلى عدّة عوامل أهمّها: الحماس الدّيني، الصّفة العسكريّة للسّلاطين العثمانيّين وإنشاؤهم لأوّل جيش نظامي في العالم عرف بالجيش الانكشاري[1].

ومن هذا المنطلق فقد اختلفت مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة في الحديث عن انكشاريّة مدينة الجزائر، وقدّمت العديد من المعلومات والمعارف في هذا الشّأن العسكري، والّذي كان محور الحياة في هذه المدينة ، ورغم هذا فهناك من أصحاب مصادر الرّحلة من تجاهل ذكر هذه المؤسّسة العسكريّة، وفي مقدّمتهم حسن الوزّان وبيري رايس، أمّا مارمول كاربخال فيقول:« في المدينة حامية دائمة، تتكوّن من الحاكم وثلاثمائة من الجنود الأتراك»[2]، وعند حديثه عن حملة شارل كان على المدينة سنة 1541، يذكر أنّه كان في المدينة ثمانمائة من الأتراك، معظمهم من الفرسان..."[3]، وإن صدقت معلومات كاربخال فإنّ عدد الجنود قد تناقص، وأكيد أنّ لهذا التّناقص أسبابا خفيّة مؤثّرة، ولعلّ في مقدّمتها الأسباب الصّحيّة المتعلّقة بالأمراض والأوبئة (الطّاعون).

أمّا نيكولاس دي نيكولاي في رحلته سنة 1551، فيقرّ بأنّ الّذين ينادوهم بالأتراك في مدينة الجزائر كانوا يسكنون منزل الملك، في السّجون وفي البواخر[4]، دون أن يذكر عددهم ولا ثكناتهم، والجدير بالذّكر في هذا الشّأن ما صرّح به أنطونيو دي صوصا والّذي تعرّض في كلامه للانكشاريّة، وقال بأنّ أغلبهم من آباء مسيحيّين، وفي وصفه للحياة العسكريّة كحياة القادة، فقد قال عنهم بأنّ لهم الحريّة في التّملك والميراث، كما صرّح أيضا بذلك التّنافس الشّديد بين الانكشاريّة ورجال البحر، فيذكر على سبيل المثال أنّ الرّايس محمّد باشا ابن الرّايس صالح فسح لعدّة مرّات المجال للانكشارية للإقلاع في البحر رفقة الرّيّاس والقيام بنفس الدّور، وكذلك الحال بالنّسبة لريّاس البحر قد يكونون

---

[1]- جميلة معاشي، **الانكشاريّة والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، رسالة دكتوراه العلوم في التّاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008، ص2.

[2]-مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص363.

[3]- نفس المصدر، ص367.

[4]- Nicolas de Nicolay, op.cit, p18.

انكشاريّين[1].وعليه فإنّ دور الانكشاري قد يكون في البحر مثلما يكون دور رجال البحر في البر، وقد ابتعد هايدو عن الحقيقة التّاريخيّة حينما تكلّم عن تكوين الانكشاريّة، وقال بأنّ هذا النّظام بدأ في وقت السّلطان مراد[2]، وكما هو معلوم بأنّ هذا النّظام أحدثه السّلطان أورخان ثاني سلاطين آل عثمان (1326-1362) بتوجيه من أخيه الأكبر[3](علاء الدّين).

لقد قدّم هايدو نبذة تاريخيّة عن الانكشاريّة، وقال بأنّ هذا النّظام العسكري كان لا يتكوّن إلّا من أبناء المسيحيّين، وكان السّلطان يقوم بهذه العمليّة كلّ ثلاث سنوات في مقاطعة أوروبا المسمّاة رومانيا، ومن خلال هذا العمل يصير هؤلاء الأطفال عثمانيّين بالأساسيّات الّتي يتعلّمونها، ومنهم من يصير انكشاري ومنهم من يمتهن أشغال أخرى، وبنصيحة خير الدّين للسّيّد الكبير التّركي(السّلطان) بأنّ الجزائر يجب أن تحفظ بقوّة هذه الفرق التّركيّة[4]، لكن يقول هايدو إنّ هؤلاء المهاجرين إلى الجزائر لا هم انكشاريّين ولا هم أبناء مسيحيّين، وعند وصولهم إلى الجزائر يصيرون مثل الانكشاريّين.

وبقدر ما تحدّث الأسير الإسباني سيرفانتس عن رجال البحر والحياة الّتي يعيشونها في البحر[5]، فإنّ أبا الحسن التّمقروتي في رحلته **النّفحة المسكيّة** يعترف بأنّ مدينة الجزائر كثيرة الجند حصينة، دون ذكره العدد هذه، وفي شأن ريّاسها (رجال بحريتها) فإنّهم موصوفون بالشّجاعة وقوّة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النّصارى في بلادهم، فهم أفضل من ريّاس القسطنطينيّة بكثير، وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو، وقدّم مثالا على ذلك نشاط الرّايس أرناؤوط مم (مامي)[6]. ولعلّها شهادة واعتراف من رجل ديبلوماسي عارف بشؤون قوةّ الجزائر حينها، فيما يخصّ رجال البحريّة حينذاك(1590)، وهي تتّفق مع شهادة الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس (بين 1621-1625)، والذي قال بأنّ لهم السّطوة في البحر للوصول إلى أهدافهم، كما ذكر عدد انكشاريي المدينة بين ألفٍ وألف وخمسمائة، وعلّق على هيمنتهم فقال: "رغم قلّة عددهم إلّا أنّهم يسيطرون على كامل المنطقة،

(1)- عبد الله حمادي، "**جزائر القرن السّادس عشر**..."، المرجع السّابق، ص ص267-268.

(2)- Diego de Haedo, OP.Cit, P66.

(3)- علي الصّلابي، **الدّولة العثمانيّة عوامل النّهوض وأسباب السّقوط**، ط1، مؤسّسة اقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، المدينة المنوّرة، 2005، ص48.

(4)- Diego de Haedo, op.cit, pp66-67.

(5)- جمال غلّاب، المرجع السّابق، ص ص59-61.

(6)- أبي الحسن علي التّمقروتي، المصدر السّابق، ص90.

ويقومون بالحروب ضدّ كلّ الممالك المسيحيّة"[1].

إنّ ما حملته رحلة الأب دان عن ميليشيا المدينة في الفصل الثّالث من الكتاب الثّاني، فيها الكثير من العناصر المهمّة، حيث ذكر بأنّ هذه المدينة (الجزائر) تحكم وفقط من مسيّري الحرب، والّذين يضعون سلطاتهم وسيادتهم في قوّة سلاحهم، وقدّم وضعيّة الميليشيا وما كانت عليه حينذاك ودرجات الحماية العسكريّة في وسطهم، وذكر عدد الجنود المستعملين لحماية المدينة (بين ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف)، وهم عادة ما يسكنون في تسع ثكنات وهي الّتي تسمّى القصريّات، ويقول دان يستطيعون ممارسة الهوايات والمهن الّتي يعرفونها[2]، يبدو أنّ عدد الثّكنات الّتي ذكرها دان فيها من الشّكّ والرّيب حيث أنّ ج. دوني يذكر ثمان ثكنات فقط[3].

اعترف دان بالتّنوّع العرقي في الميليشيا؛ فيها من الأتراك، اليونانيّين، الإسبانيّين، الإيطاليّين، الإنجليز والألمان... وآخرين، وهم عادة ما يعيشون في وئام، وكان سلاحهم السّيف (الأحدب) والموسكيت، وهذا عادة ما يحملونه عند ذهابهم إلى الحرب أو في ثكناتهم أو أثناء عمليّاتهم البحريّة[4].

وقد قال دان بأنّ الآغا (القائد الأعلى للانكشاريّة) يأخذ من الجنود الانكشاريّين البسطاء (الأولداشي)، أربعة جنود لحماية الباشا وهم صولاشي Solachi، يقيمون في القصر ويأكلون هناك، وهم متميّزون عن البقيّة، فعلى عمامتهم قطعة نحاسيّة صفراء دائريّة، وكذا ريشة مالك الحزين[5].

أمّا معلومات الأسير الهولندي إيمانويل دارندا عن الحياة العسكريّة في مدينة الجزائر (بين 1640-1642)، فيقول بأنّ جزءا من الحاميّة تسكن في خمس منازل كبرى، مبنيّة بطريقة مربّعة وفي وسطها ساحات كبرى أين تكون خدمة الأسلحة، الواحدة من هذه المنازل تحتوي على حوالي 600 جندي، والكل يسكن فيها مجّانا، وهناك من الجنود من يكترون مسكنا ويقيمون فيه، ويستخدم لهم خاصّة وهي عادة ما تسمّى بالفنادق[6].

وتحدّث إيمانويل دارندا عن مرتبات الانكشاريّة، حيث ذكر بأنّ 8 دوبل Doubles هو مرتب

---

[1]- Joao Mascarenhas, op.cit, p102.

[2]- P.P.DAn, op.cit, p97.

[3]- J.Deney," **les registres de solde des Janissaires"**, in R.A, 1920, pp219-221.

[4]- P.P.DAn, op.cit, p97.

[5]- Ibid, p99.

[6]- Imanuel D'Aranda, op.cit, p98.

جندي خلال شهر (كل دوبل مورسكيّة تعادل 12 باتار "Batars"بنقود هولندا حينذاك)، ويزداد مرتب الجنود خلال سنوات الخدمة، وذكر كذلك حالات أخرى قد يزاد فيها المرتب كازدياد مولود للسّلطان الكبير (زيادة دوبل) أو قتل عدو في مناوشة، أو عند ملاقاة العرب، لكن يضيف دارندا أنّ كلّ الدّوبلات لا تتعدّى الأربعين[1].

كما انتبه دارندا إلى ذلك التّمييز بين الجنود الأحرار والجنود المتزوّجين، فقال بأنّ الصّنف الأوّل لديه امتيازات فيما يخص حصولهم على الخبز يوميّا (4 أرغفة) وإقامتهم في الثّكنة، عكس الصّنف الثّاني الّذي يفقد هذه الميزات، ولعلّها ذكرت في عدّة مصادر رحلة أوروبيّة.

إنّ دور الجنود يكمن في استتباب الأمن وحماية المدينة، والبعض منهم يذهب في مهمّات لجباية الضّرائب وآخرون لتعويض زملائهم في النّوبات، لكن الجزء الأكبر منهم مخصّص للعمليّات البحريّة، وما دوّنه دارندا أيضا في صيف 1641، قال بأنّ 65 سفينة (قرصنة) و4 سفن أخرى ذهبت في البحر، لكلّ واحدة ثروتها، وعموما كلّها مجهّزة بالجنود، ومن الجنود من يتوجّه إلى حديقته أو بيته والّذي لا يبعد عن المدينة إلّا بضع فراسخ (اثنين أو ثلاث)[2]، وهذا ما سجّله يراع بن عبد الرّحمان بن إدريس أيّام حملة اللّورد إكسماوث سنة 1816 في رحلته أيضا[3].

يذكر توماس هيز المبعوث الفرنسي إلى مدينة الجزائر في القرن السّابع عشر، بأنّه رأى مسكنا للجنود[4]، لكنّه لم يقدّم له وصفا ولم يشدّ انتباهه أو إعجابه، بالرّغم من اهتمام العديد من الرّحّالة الأوروبيّين بالجانب العسكري بمدينة الجزائر[5].

وما تجدر الإشارة إليه في رحلة هيز (1675-1676)، أنّه ذكر ثروة أحد أمراء السّفن في ذلك الوقت المسمّى إبراهيم والّذي يمتلك 280 عبد، حوالي 300 رؤوس أغنام (ماشية)، 10 جمال والعديد من البغال والأحصنة الجيّدة، وكذلك الحديقة الرّائعة الّتي كانت على مقربة من المدينة[6]، ويبدو أنّ ضواحي المدينة كانت متنفّسا حقيقيا للعديد من القادة والسّاسة، يضعون فيها ثروتهم ويلجأون إليها

---

(1)-Imanuel D'Aranda, op.cit, p102.

(2)-Ibid, p102.

(3)- عبد الرّحمان بن إدريس التّلاني، المصدر السّابق، ص210.

(4)- Thomas Hees, op.cit, p100.

(5)- Marcel Emerit, **"Un document inédit sur Alger …** , op.cit, pp233-242.

(6)- Thomas Hees, op.cit, p103.

أثناء راحتهم، كما كان اهتمام بعض من هؤلاء الضّبّاط الثّروة والمال.

ومن المفيد أن نذكر آراء الفرنسي الرّحّالة شوفالييه دارفيو حول انكشاريّة مدينة الجزائر، وممّا ذكره أنّ أبواب مدينتها محميّة من طرفهم، وكلّ الأتراك هم جنود في الجزائر، بالرّغم من أنّهم يتبدّلون كلّ مرّة، والميليشيا هذه تعقد اجتماعاتها في قاعة الدّيوان في النّهار، كما يوجد هناك ما يسمّى بالقيصريّات، وهي عبارة عن منازل واسعة يسكن فيها الجنود، لديها ساحات كبيرة (واسعة) وفي وسطها عدّة نافورات وحنفيّات للحاجة... ، وحول هذه السّاحات توجد الغرف، كلّ غرفة تحوي ثمانية أشخاص، وهذا العدد الكبير لم يمنع نظافة المكان بحكم تواجد بعض من العبيد، والّذي يقدّم ضريبة للدّيوان لأجل الإقامة بهذه القيصريّات وبيع الخمر والتّبغ واللّحوم، مقابل العمل على نظافتها[1].

وفي نفس الشّأن عن الميليشيا (أو الانكشاريّة)، يصرّح شوفالييه دارفيو ويقول هي السّيّدة في الجزائر، هي الأكثر شغبا وهيجانا وعصيانا، وتصرّفاتها غير لائقة[2]، وهنا لا بدّ أن نسجّل أنّ معظم أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة يتّفقون على هذا الرّأي والإقرار.

إنّ من بين مظاهر الحياة العسكريّة في مدينة الجزائر ما ذكره ألفرد دابر، بأنّ الجنود يتحصّلون على ذخيرتهم وغذائهم من الدّولة (وقليلا من الزّيت، الخل، الأرز، والكسكس)، وإذا كان الجندي يريد أكل اللحم فعليه شراؤه، ثمّ يقول بأنّ الجنود هم الّذين يعيّنون الآغا الّذي يمثّلهم في الدّيوان[3]، دون توضيحه لطريقة التّعيين، كما ذكر في نفس السّياق بأنّه لا يستطيع أي ساكن في المدينة أن يضرب جنديّا، ولا يستطيع القاضي أن يفعل شيئا للانكشاريّين، ومقاضاتهم تكون من طرف الآغا أو من طرف كاهيتهم[4].

بقدر ما تحدّث ألفرد دابر عن قيمة العسكري (الانكشاري) في المدينة، فقد استغرب لوجود عناصر متعدّدة ومختلفة تكوّن هذا الجهاز العسكري، فقال بأنّ فيه أتراكا يونانيّين، فرنسيّين، إسبانيين، إيطاليّين وألمانيّين...، وسلاحهم هو: البندقيّة، القوس، الموسكيت، السّيف وبعض السّهام، الّتي يرمونها بكثير من الدّقّة نحو الهدف[5].

---

(1)- Chevalier D'Arvieux, op.cit, p219 et p117.

(2)- Ibid, p117.

(3)- Alfred D'Apper, op.cit, pp178-179.

(4)-Ibid, p179.

(5)-Ibid, p179.

إذا كانت رحلة ابن زاكور الفاسي إلى مدينة الجزائر علميّة بحتة، ينعدم فيها الحديث عن الحياة العسكريّة، فإنّ رحلة الفرنسي بوتي دولاكروا سنة 1695، حملت في طيّاتها العديد من ملامح الحياة العسكريّة، والّتي منها ننتقي ما قاله هذا الرّحّالة: «...انكشاريّة المدينة تحصل على جزء من ثروة الباشا المتوفّى...»، سلطة الباشوات أنهيت من طرف الميليشيا (جيش المدينة...)، هناك 12000 انكشاريا يكوّن جيش مدينة الجزائر، الآغا هو قاضي الجنود في الجيش ويتبدّل كلّ شهرين، وفيما بعد يصير معزول آغا (أي متقاعد)، وراتبه يتوقّف عند 106 إيكيس في العام، ورواتب الجنود تقدّم كلّ شهرين بالآسبر (Aspre) ونصف البياستر الإسبانيّة (Piastre) المسمّاة باتاك كوردPataque Courdes، ومن المفيد أيضا أن نكمل ما أضافه عن الانكشاريّة بقوله: هي صاحبة السّلطة والقرار[1].

لقد تحدّث الفرنسي دي تاسي عن الحياة العسكريّة في المدينة، وأسهب في ذكرها ووصف جنود الانكشاريّة بأوصاف تنمّ عن مقتٍ شديد ، حيث قال: جيء بهم إلى الجزائر لكي يجنّبوا تعذيبهم نتيجة أخطائهم في المشرق، واعترف بأنّ عددهم هو 12000 تركي (مثل ما ذكره بوتي دولاكروا)، ولديهم امتيازات كبيرة، وكلّهم في الأعلى وهم أسياد المملكة، لهم السّلطة في كلّ شيء، وكلّهم يعطون اسم أفندي أو السّيّد، ومن خلال هذه الميليشيا يكون انتخاب الدّاي، وهم لا يعاقبون أمام الملأ (العامّة)، بل في أمكنة خاصّة، وعادة ما يخنقون عند آغا الميليشيا[2].

كما يذكر دي تاسي بأنّ الانكشاريّين في مدينة الجزائر يتميّزون باحترام كبير من طرف العرب والمور، وفي حالة عدم حصولهم على مرتّبهم، فإنّ الخطر الأوّل والضّرر الكبير يلحق بالدّاي، وتكاد تكون معارفه ومعلوماته حول وصف الثّكنات نفسها عند شوفالييه دارفيو من حيث وجود الماء، النّظافة، الصّيانة وكلّ الضّروريّات...[3].

وإنّه لمن المفيد أيضا أن نذكر آراءه وانطباعاته حول الحياة العسكريّة في المدينة، بحكم أنّه رجل ديبلوماسي، فقد ذكر دي تاسي أنّ الحكومة تقدّم للجندي أربع خبزات يوميّا، وكما يحقّ للجندي شراء اللّحم بأقلّ من سعره بالنّسبة للعامّة بالثلث، غير أنّ الامتيازات الّتي تكون له (للجندي) قبل زواجه تسقط عنه بعد زواجه، وهذا ما يمنع العديد منهم بعدم الزّواج[4].

---

(1)- Marcel Emerit,**"un mémoire sur Alger…"** , op.cit, pp10-15.

(2)- Laugier de Tassy, op.cit, pp125-126.

(3)-Ibid, p126.

(4)- Ibid, p127.

كما ذكر دي تاسي أنّ العرب والموريّين ممنوعون من الانضمام إلى الميليشيا، ويقول أيضا في حالة ما إذا وقع جندي في الأسر عند الأوروبيّين، فإنّه يكون في عداد الموتى، وتقوم الدّولة بالاستيلاء على ممتلكاته (الأثاث، التّجهيزات...) لأنّه لا يملك لا إخوة ولا أبناء، وفي حالة عودته، ترجع له الدّولة كلّ ممتلكاته، وتقدّم له راتبه الشّهري مجموع عام دفعة واحدة، وتزوّده ببندقيّة وسيف وأسلحة أخرى ضروريّة [1].

أمّا فيما يخصّ معلومات الدّكتور شو في رحلته عن الحياة العسكريّة في المدينة، فهي تشبه ما ذكره دي تاسي إلى حدّ كبير، لكن سنختار منها بعض الملامح والمؤشّرات: "المرتب الابتدائي للجندي هو 275 آسبر (4 فرنكات و59 سنتيم)، والمرتب الكبير هو 6 بياستر كوروند مألوفة وعاديّة (69 فرنك و60 سنتيم) خلال شهرين قمريّين، يسلّم الرّاتب في اليوم الثاني من الشهر القمري، بحضور الدّاي وآغا الميليشيا وآغا الباشي وضبّاط آخرين في الدّيوان، والكلّ يأتي إلى قصر الدّاي لتسلّمه، وهي (النّقود) قطع ذهبيّة وفضيّة جيّدة مفحوصة وموزونة، وينادى على الجنود الواحد تلوى الآخر... كما أشار شو أيضا إلى خروج المحلّة من مدينة الجزائر وكيفيّة ذلك بالتّفصيل، وشكلها وتكوينها وقوّتها، وقدّم معلومات عن البحريّة وعمل رجال البحر وعدّتهم وعتادهم[2].

وعن الآباء أثناء رحلتهم لافتداء الأسرى سنة 1720 في مدينة الجزائر، فإنّ حديثهم عن الحياة العسكريّة في المدينة ينطبق تماما مع ما ذكرته مصادر الرّحلة قبلهم، من حيث امتيازات الميليشيا، سيادتهم، كيفيّة محاكمة عناصرها، وصف ثكناتها، المؤونة المقدّمة لعناصرها وسلاحها المستعمل حينها[3].

وعن الطّبيب الفرنسي بايسونال، والّذي حلّ بالمدينة في القرن الثامن عشر، فقد قال بأنّه في سنة 1660 تمّ إنشاء خمس بنايات وهي ثكنات، تسمّى القصريّات Casseries، فيها يقيم الجنود الأتراك غير المتزوّجين، ثلاثة في كلّ غرفة، ويخدمون من طرف عبيد الدّايليك وفيها كلّ الضّروريّات، في كلّ ثكنة يقيم 600 عسكري، المتزوّجون يقيمون في المدينة بأموالهم، كما تحدّث عن تغيير الحاميّات، والحدث هذا ينطلق من مدينة الجزائر نحو شرق البلاد وغربها وذلك في شهر سبتمبر[4].

---

(1)–Laugier de Tassy, op.cit, p127.

(2)– Thomas Shaw, op.cit, pp188-194.

(3)– Jean de la Fay et autres, op.cit, p100.

(4)- J.A.Peyssonnel, op.ct, p246 et P252.

والملاحظة الجديرة بالذّكر عن جوزيف مورقن كما ذكر أبو القاسم سعد الله، أنّه كان ناقلا عن هايدو بعض أحداث القرن السادس عشر، بالرّغم من أنّه عاش في مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر، وتحدّث عن البحّارة الجزائريّين وقوّتهم البحريّة والعديد من شؤونهم في هذا المجال، في الفصلين الثّامن عشر والتّاسع عشر من تأليفه الضّخم[1].

في حين يذكر العالم والرّحّالة الألماني هابنسترايت، والّذي تزامن وجوده في المدينة مع الإنجليزي جوزيف مورقن، بأنّ الكراغلة يكوّنون مع العناصر التّركيّة جيشا تعداده مائة ألف رجل[2]، ولكن في المقابل فإنّ العديد من مصادر الرّحلة صرّحت بأنّ هذه الفئة كانت مهمّشة في الحكم وفي الجيش.

وقد أضاف هابنسترايت في شأن الحياة العسكريّة الكثير، فقد أقرّ بأنّ الجيش المعروف بالحاميّة يقسّم كلّ سنة إلى ثلاثة أقسام، تستخدم في بعض الأوقات لإرغام القبائل البربريّة والعربيّة على دفع الغرامات، ومن الجند من يشتغل بالعمل البحري، ومنهم من يعمل بالحاميّات المتمركزة في مواقع محدّدة بالمدينة[3].

وقد نوّه أيضا بإمكانيّة وصول الجندي البسيط إلى أعلى المراتب (الدّاي مثلا)، وقال بأنّ هذا الأخير يتحصّل على مرتبه يوم توزّع المرتبات على الجنود، وهي تقدّر حسب اعترافه بعشر قطع نقديّة من صنف إيكو، أمّا الحاميّة التّركيّة المعروفة بالنّوبة والّتي ترابط بالمدينة، فهي موزّعة على ثمان (08) ثكنات مهيّأة لإقامة الجند[4].

وفي شأن عدد الثّكنات، يبدو الاختلاف جليّا عند أصحاب مصادر الرّحلة خصوصا الأوروبيّة، وإن كانت الامتيازات الّتي يتحصّل عليها الانكشاريّون في مدينة الجزائر محلّ اعتراف مصادر الرّحلة الأوروبيّة، فإنّ قيمة العسكري ودوره في الحياة الحضريّة بصفة عامّة تكاد تكون هي الأخرى سمة ملاحظة بامتياز من الرّحّالة الأوروبيّين وهي كما يلي[5]:

- السّلطة العليا في البلاد بيد الجيش (الانكشاريّة)، يقبل ويعيّن الدّايات.
- حدوث الاغتيالات في صفوف الدّايات.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله ، "**الجزائر في مؤلّف إنجليزي ...**"، المرجع السّابق، ص31.

[2]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص29.

[3]- نفس المصدر، ص30.

[4]- نفس المصدر، ص 30.

[5]-نفس المصدر، ص ص31-32.

- خضوع جنود الانكشاريّة إلى قائدهم مباشرة.
- الأقدم في الجيش والأكبر سنّا هو من يكون مرتبه عاليا (10 ريالات في الشّهر).
- المعزول آغا (الرّجل الحرّ أو المتقاعد) يظلّ يتسلّم مرتبه حتّى وإن لم يقم بأيّ عمل.

وإن كانت رحلة ابن المسيّب التّلمساني حجازيّة ورحلة ابن حمادوش فيها نوع من السّيرة الذّاتيّة له، فإنّ دالنسو كانو المبعوث الإسباني إلى الجزائر لافتداء الأسرى بعد سنة 1768، قد اعتمد في تأليفه على ما دوّنه هايدو، قراماي، دان والأب لوزادا وحتّى دي تاسي، إلّا أنّه أقرّ بأنّ الكراغلة لا ينخرطون بسهولة في الميليشيا، ولا يستطيعون حتّى المرور على رتبة البولباشى (نقيب)، عددهم لا يتعدّى الألف[1].

وذكر بأنّ عمليّة الانخراط في الجيش تبدأ من أزمير بالأناضول من مختلف الأجناس، يساقون بعدها إلى الجزائر، ويتمّ تسجيلهم في سجل الميليشيا، ويتحصّلون على المرتب في أوّل يوم من حضورهم، ولعلّ في هذا الإقرار مبالغة، ثمّ يقول إنّ المرتب يبدأ من 7 موزونة في الشّهر، وفي بعض الحالات يرتفع المرتب بصايمة إلى أن يصل إلى مرتب مغلق وهو 60 بياستر، ولا يوجد ما هو فوق ذلك[2].

وفي شأن اللّباس ينبّئنا دالنسو كانو ويقول بأنّ النّقباء وبعض الرّؤساء يضعون عمامات، والجندي البسيط يتميّز بحمل السّيف في حزامه، وهو امتياز خاص أيام الحرب، والسّلاح يعطى للجندي في أوّل يوم من انخراطه وهو: مسدّسان، زجاجة مسحوق بارود وبندقيّة، ويجب عليه إعادة هاته الأسلحة بعد عام من الخدمة للمملكة ليتمّ تسليحه من جديد[3].

ويقول في شأن عدد الثّكنات، هنا سبع ثكنات، المسمّاة قصريّات أو مؤسّسات عموميّة، وهي تشبه تماما الأديرة، يعيش فيها الجنود جماعيّا، ثلاثة أو أربعة في غرفة واحدة، وإذا تزوّج الانكشاري فإنّه يفقد العديد من امتيازاته[4]. ويكاد يكون هذا الأمر القاسم المشترك بين العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

---

(1)- D'Alonso Cano, op.cit, p114.

(2)-Ibid, pp114-115.

(3)-Ibid, p115.

(4)-Ibid, p115.

يذكر القنصل الفرنسي فاليار بأنّ قوّات مملكة الجزائر سنة 1779 هي بين ستّة آلاف تركي و18 ألف أو 20000 صبايحي (خيّالة)، إلّا أنّ الكراغلة والخيّالة ليس لديهم مرتب، بل منحة فقط في حالة قتلهم لمسيحي، وهي بين 50 و60 ليرة (5 سكّة للرّأس)، كما ذكر إلزاميّة الدّولة في توفيرها للخبز للأتراك المنخرطين في الجيش، وإنّ الدّاي وكبار المملكة هم الّذين يشرفون على عمليّة توزيع المرتبات والخبز[1].

بحكم أنّ الرّوسي كوكوفتسوف ضابط في الهندسة العسكريّة، فإنّ تدوينه عن الحياة العسكريّة في المدينة قد أخذ القسط الكبير من ملاحظاته وانطباعاته، حسب المترجم مارسيل إميريت Marcel Emerit، حيث أنه في الفصل الثّامن تحدّث عن الجيش البرّي وضبّاطه، وفي هذا الفصل التاسع يعلمنا بالانكشاريّة من حيث؛ مرتباتها، نياشينها، كيفيّة الوصول إلى التّقاعد والآغا الّذي يستبدل كلّ شهرين، كما ذكر وظائف الضّبّاط، وقد أقرّ أيضا بأنّ الدّاي مدعوم من طرف الرّيّاس ونقباء البحريّة، بينما في الفصل العاشر تحدّث عن التّنظيم وسريان الجيش البرّي، وفي الفصل الحادي عشر تعرّض لسلاح الأسطول، وكيفيّة تقسيم المستوليات[2]، ومن دون شك فإنّ تقييدات هذا الضّابط في غاية الأهمّيّة عن جوانب الحياة العسكريّة في المدينة.

وبقدر ما أهمل الطّبيب الفرنسي ديسفونتين الحديث عن الحياة العسكريّة، ولعلّ لهذا الأمر ما يبرره، وهو اهتمامه بجمع الأعشاب والنّباتات النّادرة، بحكم أنّ رحلته كانت رحلة علميّة، فإنّ الأسير الأمريكي كاثكارت قد صرّح بوجود ست ثكنات عسكريّة تركيّة، وأشاد بنظافتها وجمالها، وكلّ ثكنة تقع تحت رعاية شخصيّة كبيرة كثيرة السّخاء[3].

ويردف قائلا بأنّ كلّ ثكنة تقع تحت حكم ضابط برتبة أمباشي وعدد آخر من الضّبّاط، الّذين هم تحت تصرّفه، وكذلك شاوش يقوم بتنفيذ الأوامر، كما يعيش بالثّكنة إمام يؤم الجنود في الصّلاة ، كما ذكر أيضا أنّ أبواب الثّكنة الخارجيّة تغلق عند الغروب، وتؤخذ مفاتيحها إلى قصر الدّاي في الوقت الّذي تؤخذ فيه مفاتيح أبواب المدينة كذلك، وتفتح أبواب الثّكنات وأبواب المدينة في الصّباح في نفس الوقت، وقد علّق كاثكارت على هذا الإجراء، بأنّه يتّخذ للحيلولة دون وقوع انقلابات وثورات، وهي كثيرة الحدوث خصوصا في اللّيل، كما صرّح كاثكارت بكثرة النّزلاء في الثّكنات (الجنود)، قبل

---

(1)-C. PH.Valliere, op.cit, pp21-22.

(2)- Marcel Emerit ,**" description de L'Algerie…"** , op.cit, p212.

(3)- جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص100.

انتشار وباء الطّاعون سنة 1786، والّذي حصد عددا كبيرا من الأرواح على حدّ قوله[1].

وفيما يخصّ رحلة الزّيّاني ففيها العديد من ملامح الحياة العسكريّة في مدينة الجزائر، وبالأخصّ عند إيابه من المشرق، حيث مدح الدّاي حسن وأظهر أعماله العسكريّة، وفي هذا الشّأن نذكر ما قاله: «ملأ خزائن الثّغور بالبارود، الكور، الحب، والسّلاح من المكاحل والسّيوف والأسنّة والرّماح وأكثر من الجواري المنشآت في البحر كالأعلام وشحنها بكل من عساكر الإسلام للتّضييق على أعداء الدّين برّا وبحرا...»[2] ، ولعلّ هذه الأعمال تنمّ عن الاهتمام بتوفير الأسلحة وتنويعها من جهة، والعمل على زيادة الجنود برّا وبحرا بسبب ذاك الصّراع الّذي كان قائما بين الإسلام والمسيحيّة.

لم تأخذ الحياة العسكريّة في رحلة المكناسي الاهتمام الكبير، إلّا أنّه أشار إلى حادثة حماية المدينة بالإبل، وتصدّي المسلمين لحملة إسبانيّة هاجمت المدينة، وعلى غالب الظّنّ أنّها حملة أوريلي سنة 1775[3]، والّتي وقعت قبل مجيء المكناسي إلى مدينة الجزائر.

وما ذكره القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي عن الحياة العسكريّة في مدينة الجزائر لجدير بالذّكر، حيث أنّه تحدّث عن اللّباس، السّلاح، الرّاتب والغذاء (الأكل)، وقال بأنّ اليولداش الّذي يأتي الجزائر عادة من أزمير ومن قرمان، يعطى له قميص من نسيج، مشد سترة خضراء، سروال من نسيج مقطّن وغطاء كبير وقلنسوة[4].

والقلنسوة على الطّريقة الجزائريّة، شال أحمر بربري لأجل الحزام وزوج من الأحذية مغطّى بصوف... وهذا كلّ ما يتحصّل عليه الجندي من الدّايليك، ويسكن في إحدى السّكنات المسمّاة قصريّات Cacherie، وهناك يجد حصيرا بمثابة سرير له، وهذه القصريّات هي اثنا عشرة[5].

أمّا عن السّلاح فقد دوّن ما يقرضه الدّايليك للجندي وهو اليطغان (الخنجر) ومسدّسان، وفي حالة عدم إرجاعها يسدّد ثمنها من أجرته، ولأنّه موجّه إلى الثّكنات أو إلى الحاميّات البعيدة عن المدينة،

---

(1)- جيمس ليدر كاثكارت،المصدرالسابق، ص100.

(2)- أبو القاسم الزّيّاني، المصدر السّابق، ص376.

(3)- Geronimo G.F,**"Expédition du Comte O'reilly contre Alger en 1775"**, in R.A, N9, année 1865.

(4)- Venture de Paradis, op.cit, p159.

(5)-Ibid, p159.

يعطى له أيضا مسحوق البارود لكي يصنع الذّخيرة[1].

وفيما يخصّ الرّاتب فيقول فونتير دي بارادي أنّ الجندي يتحصّل عليه بعد مرور شهرين (عكس ما ذكره دالنسو كانو سابقا)، ويسجّل على السّجلّ الكبير عند الكاتب الأوّل (الخوجة الأوّل)، تاريخ وصوله، اسمه، بلاده، شكله (صفته)، الثّكنة الموجّه إليها، الأوداباشي الّذي يعمل تحت إمرته والسريّة الّتي جنّد بها، من بين 420 أورته المكوّنة للأوجاق[2].

أمّا المبلغ فيحدّده فونتير دي بارادي بـ: 14 موزونة (نحو 40 صول)، وتزاد في كلّ السّنوات اللّاحقة، وفي ظروف حسنة بصايمة واحدة (1 صايمة تعادل 5 موزونة)، وقد تكون بعد رمضان مثلا، عند قيام حرب مع القبائل المجاورة، عند قنبلة الأوروبيّين للمدينة، موت الدّاي، اعتلاء سلطان جديد العرش أو إرسال كابيجي باشي من طرف الباب العالي وبالقفطان، و80 صايمة تشكّل الرّاتب المغلق[3]، يبدو أنّ هذا الرّاتب يرتفع من حين لآخر.

ويقول فونتير دي بارادي عن رجال البحريّة، يتلقّون راتبهم في البحريّة، ونقودهم يتولّاها الأميرال، وهو الّذي يوزّعها، وبابا علي هو الّذي سنّ هذه العمليّة، لأنّ هناك العديد من الدّايات قتلوا من طرف رجال البحريّة[4]، خصوصا الدّايات الأوائل بعد سنة 1671، حينما تغيّر نوع النّظام السّياسي من الآغوات إلى الدّايات.

وفيما يخصّ الغذاء فقد قال فونتير دي بارادي أنّ الأكل (الغذاء) المقدّم للجنود في الثّكنات وفي الحاميّات أحسن ممّا يقدّم لرجال البحريّة، حيث أنّهم يحصلون على الأرز، البرغل (القمح) وجزء من الحساء، واللّحم يكون مرّتين في الأسبوع... ، كما يعطى لهم الصّابون لغسل ثيابهم[5].

لم نجد ذكرا للحياة العسكريّة في مدينة الجزائر في رحلات أحمد بن عمّار، أبو راس النّاصر والحسين الورتلاني ولا حتّى لابن زرفة العمري وتيدنا، غير أنّ الأسير الإيطالي بانانتي تطرّق إلى العديد من جوانب الحياة العسكريّة، حيث ذكر قوّة الجزائر وأخلاق الميليشيا وهمينتها على الموريّين في الفصل

---

[1]-Venture de Paradis, op.cit, p160.

[2]-Ibid, p160.

[3]-Ibid, p161.

[4]-Ibid, p164.

[5]-Ibid, p165.

السّابع عشر، بينما في الفصل الثّامن عشر من تأليفه، تحدّث عن (القرصنة) وفائدة الأتراك في أعمال الحرب[1].

بينما الأسير الهولندي جيريت ميتزون ينبّئنا عن مظهر من مظاهر الحياة العسكريّة، حينما تعرّض للأسر، فقال: "فإنّهم قفزوا إلى ظهر باخرتنا وكلّ واحد منهم يمسك خنجره بيده..."[2]، وهو مشهد من مشاهد حياة البحّارة العثمانيّين على ظهر سفينة في عرض البحر.

في حين نجد الألماني بفايفر قد قدّم معلومات في غاية الدّقّة عن ملامح من الحياة العسكريّة والّتي منها: [3]

- تميّز ثكنات الانكشاريّة عن بقيّة البنايات الأخرى.
- أمام المدينة قلاع وحاميات رهيبة تحيط بالميناء كلّه.
- الانكشاريّون هم حرّاس القصر، وكان بعضهم يذهب إلى المقاهي، والبعض الآخر ينام فوق المقاعد.
- وجود الأعلام الجزائريّة الخضراء والحمراء الّتي ترفرف فوق الحاميات.
- الانكشاريّون يقومون بحراسة منزل القنصل السّرديني.
- وجود المؤامرات المفتعلة ضدّ حسين باشا في وسط الانكشاريّة...
- سخط الدّاي حسين باشا على الانكشاريّة، بمجرّد علمه بالمؤامرات...

ولعلّ معارف القنصل الأمريكي وليام شالر في شأن الجانب العسكري تستحقّ هي الأخرى الذّكر والتّعليق، فقد ذكر بأنّ عدد القوّات العسكرية بين 1500 و4000 رجل، أغلبهم من الجنود المتقدّمين في السّن والجنود حديثي التّجنيد[4]، وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ من جهة على تناقص القوّة العسكريّة، ومن جهة ثانية على ضعفها لأنّها تحوي كبار السّنّ وحديثي الانخراط بها.

---

[1]- PH.Pananti, **relation d' un séjour à Alger contenant des observation sur l'état actuel de cette régence** ,trad de l anglais obruat Elted, le normant,imp, librairie,Paris , pp459-480.

[2]- جيريت ميتزون، المصدر السّابق، ص ص12-20.

[3]- سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص1 وص14 وص48 وص71 وص76.

[4]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص77.

وفي شأن البحّارة، فقد أعاب شالر عدم معرفتهم العروض والجداول الفلكيّة بمجرّد دخولهم إلى المحيط الأطلسي، بالرّغم من أنّ كلّ هذا قد تعلّموه من الأجانب –يقصد المسيحيّين– ، وقال بأنّ "القرآن هو كلّ علوم هؤلاء القوم وآدابهم..."[1].

ويذكر أنّه في عدّة مناسبات قامت كتائب الانكشاريّة بنهب ممتلكات اليهود دون تمييز، كما ذكر وجود أربع ثكنات للجيوش التّركيّة[2]، وما يلاحظ على آراء شالر هو التّحامل على الأتراك، ومحاولة تبيان نقصهم المعرفي وكذا تهجّمهم على طائفة اليهود، غير أنّ عدد الثّكنات الّذي صرّح به يبقى محلّ شكّ وانتقاد.

يبدو فعلا أنّ رؤساء الجند في فصل الخريف يذهبون إلى منازلهم الرّيفيّة، هذا ما صرّح به الرّحّالة عبد الرّحمان التّنلاني التّواتي في رحلته إلى مدينة الجزائر سنة 1816[3]، وهو ما ذكر أيضا في عدّة مصادر رحلة أوروبيّة.

في حين أنّ الضّابط الألماني شونبيرغ الّذي حلّ بالمدينة مع جيش الحملة فقد أكّد حدوث عدّة وقائع لها علاقة بالحياة العسكريّة، كالارتقاء في المنصب من جندي إلى داي، وهذا ما حدث فعلا مع الدّاي مصطفى والّذي حكم الجزائر من 1798 إلى 1805، حيث اقتصر عمله في بداية الأمر على كنس الزّقاق الواقع أمام الثّكنة الّتي كان يقيم فيها، ثمّ ارتقى إلى عدّة وظائف آخرها الدّاي[4].

كما ذكر أنّ قاتل اليهودي بوجناح فرّ إلى ثكنته، واستقبل فيها بحفاوة كبيرة، وصرّح بذهاب المفتي وأعضاءٍ من الدّيوان إلى الثّكنة، الّتي كانت مصدر عدم رضى على الدّاي مصطفى لكسب ودّها والحيلولة دون قيامها بانقلاب، وأكّد أيضا أنّ الدّاي أحمد خوجة (1805–1808) جلس على كرسيّ العرش تحت هتافات الميليشيا[5].

وما دوّنه الضّابط الفرنسي روزيه في شأن الثّكنات، أنّها من المؤسّسات المهمّة في مدينة الجزائر، وهي عبارة عن بنايات كبيرة تحوي ساحات في وسطها، فيها العديد من الغرف في جوانب السّاحات،

---

(1)–وليام شالر، المصدر السّابق، ص ص81-82.

(2)– نفس المصدر ، ص90 وص98.

(3)– عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص210.

(4)– أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص210.

(5)– نفس المرجع ، ص44-46.

بها مياه عذبة وهي في غاية النّظافة والجمال[1]. ولعلّ هذا الاعتراف تتقاسمه العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

لقد انعدمت ملامح ومؤشّرات الحياة العسكريّة في مدينة الجزائر في رحلة ليسيور وويلد، بالرّغم من أنّهما قدّما رسما للعديد من مظاهر الحياة في المدينة بعد دخول الفرنسيّين إليها، ولعلّ لهذا الأمر تبريره الخاص، أنّهما لم يدخلا ثكنة، بالرّغم من وجود العديد منها، كما لم يقدما على رسم أيّ شيء له علاقة بالجانب العسكري.

---

[1]– Rozet et Carretez, op.cit, p16.

A.Berbrugger**, "les Casernes de Janissaires a Alger"**, in R.A, N° 3, 1858-1859, pp132-138 et pp139-150.

5- الرّتب والنّياشين:

اختلفت مصادر الرّحلة في تحديد رتب الجيش الانكشاري في مدينة الجزائر، ورغم هذا الاختلاف ألّا أنّها تتّفق في ذكر العديد من هذه الرّتب وصفات النّياشين والأوسمة الّتي كان يحملها أصحابها، مع ذكر وظيفة صاحب الرّتبة، ولنا أن نختار في هذا المقام ما ذكره الأب دان في تأليفه:

- الجندي الانكشاري البسيط المسمّى أولداشي Oldachis، بعد مدّة يصير في صف البيكلار Biquelars (من طبّاخي الدّيوان)، وهي الدّرجة الأولى للصّعود إلى رتب الضّبّاط الكبار، وهؤلاء البيكلار موجودون في القصريّات، المحلّات وفي الثّكنات، يحضرون الأكل والشّرب للضّبّاط والرّؤساء المهمّين في الميليشيا.

- من البيكلار (طبّاخي الدّيوان) يصيرون أوداباشي Odabachis، والّتي تعني عريف أو رئيس بعض الجنود، وعددهم غير ثابت، وعموما هم في حدود العشرة أو العشرين، ومرتب الواحد فيهم (في الشّهر القمري) هو 6 دوبل، ويزاد في بعض المرّات، يحمل لفّة عريضة بنصف قدم، تنزل على ظهره أيضا بنحو قدم طولا، وبها يضع ريشتين من النّعام.

- من الأوداباشي يرتقي إلى البولوباشي Bouloubachis أو النّقيب، ويعرف من خلال قطعة نحاسيّة صفراء والّتي تحمل على شاشه، وهي على شكل هرمي، وفي أعلاه يتمّ وضع ذاك الوسام.

- من البولوباشي يرتقي ويصير أجاباشي Ajabachis، والّذين هم بعدد 24 (أربعة وعشرين)، وهم الأساسيون في الدّيوان.

- من الأجاباشي يرتقي إلى الآغا (Aga) الرّئيس أو العقيد العام لكلّ الميليشيا، ويبقى فيها لمدّة شهرين فقط (آغا الهلالين)، ويناوله الباشا قميصا قرمزيّا.

- بعد شرف آغا يصير في صف منزول آغا Mansul Agas (أي متقاعد)، ويصبح دون أي عمل عسكري، ويحصل على أربعين دوبل (حوالي 20 ليرة)[1].

ويردف الأب دان قائلا: "إذا كان الدّيوان يريد اختيار رئيس (قائد)، سواء للثّكنات أو الجيش، يؤخذ هذا عادة من المنزول آغا، لأنّه رجل ذو خبرة في مجال السّلاح، ومحاكمة هؤلاء الجنود ومعاقبتهم لا تتمّ إلّا بواسطة قائدهم، والّذي هو الآغا أو الكايا (Caya) أي الملازم[2].

---

[1]- P.P.DAn, op.cit, pp97-98.

[2]-Ibid, p98.

كما أضاف الأب دان رتبة صولاشي (Solachi) وهم أربعة، يأخذهم الآغا من صف الأولداشي، وهم الّذين يقومون بحماية الباشا ويقيمون عنده، (يأكلون معه)، وهم الوحيدون الّذين يحملون السّيف الأحدب، متميّزون عن البقيّة، على شاشهم قطعة نحاسيّة (بلون ذهبي) توضع في أعلاه مع وجود ريشة مالك الحزين[1].

هذا ما ذكره الأب دان عن الرّتب والنّياشين، أمّا ما أورده دالنسو كانو المبعوث الإسباني إلى المدينة في هذا الشّأن فهو:

الجندي يرتقي من رتبة إلى رتبة، ومن مهنة إلى مهنة أخرى، إلى أن يصل إلى الآغا أو القائد الأعلى، وهذه الرّتب هي:

- الجندي البسيط المسمّى أولداشي.
- ثمّ يترقّى إلى صف صوفلاجي Sovladjis وهم ثمانية (08) وظيفتهم حماية الدّاي.
- ثمّ رتبة بيس Pies الأربعة (04) وهم المقرّبون جدّا.
- ثمّ يترقّى إلى بيكيلاجيس Biquiladj أو الطّباخين.
- ثمّ يرتقي إلى أولدافاكيس Oldavaquis (ضبّاط السرية) العرفاء والرّقباء.
- ثمّ يرتقي إلى بولوباشي Boloubachis (نقباء) والّذين يضعون أوسمتهم على مقدّمة العمامة، بالإضافة إلى وضعهم ريشات ذات ألوان عديدة في أيّام الاحتفالات، وإذا كانوا في سرياتهم فإنّهم يضعون فوق أكتافهم قطعة جلد بيضاء.
- ثمّ يترقّى إلى الأجاباشي: وهم 24 ملازمين للدّيوان عند انعقاده، ويجلسون في المقاعد الأماميّة، يتميّزون بارتدائهم برانس سوداء، ينادويهم الأسرى والأجانب باسم كابانيقرا Capanegras، ويكوّنون صفين.
- الكاهيا(Chiaya) أو الباك بلوباشي Baqui Bloubachi (رئيس الدّيوان).
- الآغا وهو الرّتبة العليا في الميليشيا، وهو القائد أو رئيس الجيش (النّقيب العام).
- معزول آغا: وهو المتقاعد[2].

---

[1]- P.P.DAn, op.cit, p99.

[2]- D'Alonso Cano, op.cit, pp117-119.

الفصل الثاني

الحياة الحضرية في جانبيها الاجتماعي والاقتصادي

1- مجتمع مدينة الجزائر(عدد أفراده، فئاته الاجتماعية والعلاقة بينها)

أ- في مصادر القرن 16و17م

ب-في مصادر الفترة من1720إلى1830

2-الأسواق والحرف في المدينة (الأنواع وأمكنة التواجد)

3- الفنادق (مشهد من مشاهد الحياة الاقتصاديّة)

4-النقود المستعملة في المدينة

1-مجتمع مدينة الجزائر: عدد أفراده، فئاته الاجتماعيّة والعلاقة بينها.

ا-في مصادر القرن 16و17م:

لقد تناولت العديد من مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة ملامح عدّة عن الحياة الاجتماعيّة لسكّان مدينة الجزائر، من حيث عددهم، فئاتهم، مكانة كل فئة، بالإضافة إلى علاقة الفئات ببعضها البعض، فهذا حسن الوزّان صرّح بوجود أربعة آلاف كانون في المدينة[1]، وفي كلّ مرّة حينما يتحدّث عن سكّانها يقول أهل الجزائر[2]، ونحن في هذا المقام لا ندري كيف توصّل حسن الوزّان إلى تعداد كوانين المدينة، ولماذا لم يحدّد ماهية السّكّان في المدينة ولم يقدّم تفصيلا في شأن فئاتها (أهلها)؟

بينما بيري رايس ضابط البحريّة العثمانيّة قد دوّن في كتابه **البحريّة** ما نصّه: "عندما أتيت لأوّل مرّة إلى هذه المنطقة، مجموعة عربيّة أقامت على الجزيرة حصنا وسكنت فيه..."[3]، فهو يقرّ بأنّ العرب هم الّذين أقاموا حصنا وسكنوا فيه، ولعلّهم عرب متّيجة (قبيلة الثّعالبة)، وللذّكر فإنّ كتاب **البحريّة** يحوي معلومات تفصيليّة عن موانئ المغرب العربي[4]، وهو في غاية الأهمّيّة يقدّم معلومات جمّة عنها قبل سنة 1520.

في حين أنّ الرّحّالة الإسباني مارمول كاربخال يعترف ببناء البربر لهذه المدينة، وأنّ الأتراك زادوها رقيا، كما أنّ النّصارى المرتدّين سكنوها[5]، وهذا ما يفسّر بداية التّنوّع العرقي في مدينة الجزائر بعد العشريّة الثّالثة من القرن 16م.

والمتأمّل لما ذكره الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي في رحلته سنة 1551، يجد ذاك الإقرار بالتّنوّع في العرق، وقد ذكر بأنّ حي البحريّة آهل بالسّكّان الأصليّين المور (Les Maures) والأتراك بأعداد كبيرة، كما في مدينة الجزائر المحمّديّين، المسيحيّين والأجناس من جميع الأمم (إسبانيّين، إيطاليّين...[6]) وغيرهم.

---

[1]- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

[2]- نفس المصدر، ص38.

[3]- Robert Mantrant**, "la description des cotes de l'Algérie dans le Kitab-I Bahriye de Piri Reis",** traduit, R.O.M.M, année 1973, volume15, N° 15-16, pp162-163.

[4]- رابحة محمّد خضير، **"من أعلام الجغرافيا البحريّة العثمانيّة، محي الدّين بيري رايس"**، مجلّة التّربية والتّعليم، المجلّة 16، العدد4، السّنة 2009، ص68.

[5]- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص ص362-363.

[6]- Nicolas de Nicolay, op.cit, pp17-18.

وتكاد تتّفق شهادة الأسير الإسباني أنطونيو دي صوصا مع رفيقه الكاتب الإسباني سيرفانتس، حيث أنّهما أشادا بتعدّد النّوعيّات العرقيّة في مدينة الجزائر غير المتجانسة، وقد ذكر الأوّل –دي صوصا– أنّ مدينة الجزائر تحوّلت حسب رأيه إلى ما يشبه برج بابل تاريخيًا[1].

يذكر هايدو سكّان مدينة الجزائر في الفصل الحادي عشر من تأليفه **طبوغرافيا والتّاريخ العام لمدينة الجزائر**، إذ يقول فيهم بأنّهم ينقسمون عموما إلى ثلاث فئات معروفة وهي: الموريّون، الأتراك واليهود، وهذه الفئة الأخيرة أفرادها بكثرة ومن أصول متنوّعة (بلدان)، والعنصر المسيحي الحر مرتفع قليلا، أغلبهم يعملون في التّجارة، بينما الموريّون هم أربع طبقات[2]:

أ–المولودون في المدينة: يقول هايدو في لغتهم يسمّونهم بلْدي أو حضري، يحتلّون حوالي 2500 بيت، سحنتهم بيضاء، وكذلك نساؤهم، أغلبهم يمارسون أنواع التّجارة، ومنهم الحرفيّون، وقدّم في هذا الشّأن لباسهم وطريقتهم في ذلك[3].

ب–القبائل: يأتون من جبالهم للسّكن في مدينة الجزائر، هم بالضّبط الأفارقة القدامى، ولدوا وترعرعوا في هذا الجزء من إفريقيا، منهم من ولد بجبال "كوكو"، كلّهم فقراء، الحاجة أتت بهم إلى المدينة، عادة ما يحملون وشما على خدّهم الأيمن، والأتراك يستخدمون قبائل زواوة في الحرب، كما ذكر هايدو أيضا نساء زواوة[4].

ج–العرب: يعيشون في مدينة الجزائر، ويأتون إليها باستمرار من دواويرهم، يقبلون الصّدقات ولا يعملون عند السّادة والشّخصيّات، يركضون في الشّوارع بغرض التّسوّل، والمهم في هذا الشّأن أنّ هايدو مقت خصالهم وحطّ من قيمتهم ومكانتهم الاجتماعيّة[5].

د–مهاجرو الأندلس: كانوا في ممالك غرناطة، أرقون، فالنسيا وكاتالونيا، جاؤوا عن طريق مرسيليا، والفرنسيّون هم الّذين أوصلوهم إلى هنا، يبدو أنّ في هذا الأمر مبالغة وتكتّم عن الحقيقة، ومن كان وراء حماية مهاجري الأندلس وإيصالهم إلى ساحل المغرب العربي، وقد ذكر هايدو بأنّهم ينقسمون إلى مجموعتين:

---

[1]- عبد الله حمادى، **جزائر القرن السادس عشر**...، المرجع السّابق، ص265.

[2]- Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, p49.

[3]- Ibid, p50.

[4]- Ibid, p53.

[4]-Ibid ,p53

1/المودجرس Mudejares: هم من الأندلس وغرناطة.

2/ الثّغريّون Tagarins: هم من أراقون، كاتالونيا وفالونسيا...

يقول هايدو في شأنهم بأنّهم يمتهنون الحرف المختلفة، ويعرفون كلّ المهن؛ العمل في البارود، القفّالة، الفحم، البناء، الخياطة وصناعة الأحذية، ولديهم حوانيت في الأمكنة الّتي تباع فيها البزازة، منهم حوالي ألف بيت في المدينة، أمّا عن الأتراك فقد قسّمهم إلى قسمين، القسم الأوّل هم الأتراك الأصليّون، من الأناضول ورومانيا، والقسم الثّاني هم أتراك المهنة وهم الأعلاج والمرتدّون، كانوا مسيحييّن بالدّم والأبوّة، ثمّ صاروا أتراكا بالتّطوّع[1]، يبدو أنّ هايدو كان مسجّلا بارعا للعديد من مظاهر الحياة في مدينة الجزائر، وفي مقدمتها الحياة الاجتماعيّة.

ولنا أيضا في هذا المقام، أن نسجّل بعض ملاحظات الأسير الإسباني سيرفانتس فيما يخص الحياة الاجتماعيّة، ومنها أنّ حركة العبيد التي كانت لا تنقطع عن الأسرى الجدد من المسيحيّين من مختلف الجنسيّات (إسبانيّة، إيطاليّة، نمساويّة...)، وأنّ الجزائريّين رحّبوا بالطّلائع الأولى من الفارّين من الأندلس (من غرناطة والمدن الجنوبيّة)، وقلق الجزائريّين ظاهرة واضحة على إخوانهم المسلمين المورسكيّين، كما ساند اليهود (من سكّان المدينة) الفارّين من الأندلس، وذكر أيضا أنّ القصر في مدينة الجزائر كان حكرا على المسيحيّين والأتراك فقط[2]، وهذه الملاحظة الأخيرة تكاد تكون القاسم المشترك بين العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة.

يبدو أنّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة مهتمّة اهتماما كبيرا بالحياة الاجتماعيّة، بعكس مصادر الرّحلة العربيّة، فهذا التّمقروتي يعترف بأنّ مدينة الجزائر آهلة، لكنّه لم يحدّد ويفصّل في ذلك، ويقول عنها أيضا بأنّها عامرة وكثيرة الجند، ولم يقدّم توضيحا لما ذكره[3]، وكان هذا أواخر القرن السّادس عشر(1589).

ولقد وجدنا ما ذكره الأسير البرتغالي جاو ماسكارينهاس عن اليهود في مدينة الجزائر بين سنتي 1621-1625 جيرا بالتدوين، حيث قال: هنا في مدينة الجزائر حوالي 150 بيتا لليهود، موزّعين على حيّين، وكلّ حي به معبد، وهم من جنسيّات وأمم مختلفة، منهم من أصول فرنسيّة، مايورقة، وآخرين من إسبانيا، ولكن الأغلبيّة هم بربر يدفعون ضريبة للملك مقابل إقامتهم في البلاد مقدارها

---

(1)-Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, pp54-57.

(2)- جمال غلّاب، المرجع السّابق، صص 79-96

(3)- أبو الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص18 وص90.

180 دوبلا أي 350 باتاك[1].

كما صرّح بظاهرة احتقار الموريّين لليهود، وقال بأنّ لباسهم أسود حتّى يكونوا معروفين عند الأتراك، ويتكوّن من قميص صوف، برنوس وشاشيّة سوداء، وهذا خاص بالّذين هم من إسبانيا وميورقا، وهذه الشّاشيّة بها ذنب بطول ذراع يسقط على الظّهر إلى غاية الحزام، وفي أرجلهم نعال بالية لأنّه يمنع عليهم ارتداء الأحذية، والنّساء اليهوديّات لهنّ نفس الثّياب فوق رؤوسهنّ، وعلى أجسادهنّ معاطف بيضاء، ولكن وجوههنّ مكشوفة (إلّا الموريّات والتّركيّات فهن يخفين وجوههّن)[2].

غابت الحياة الاجتماعيّة في مدينة الجزائر تماما في رحلة المقرّي العلميّة والحجازيّة، إلّا أنّ الأب الفرنسي دان أكّد أنّ المدينة مكتظّة، بها أكثر من مائة ألف ساكن، سواء أتراك أصليّين، موريّين، انكشاريّين، عبيد ويهود. وهذه الفئة الأخيرة هي ما بين تسعة آلاف وعشرة ألاف نسمة، لديهم معابدهم، وهم أحرار في ممارسة شعائرهم الدّينيّة[3]، ويرتدون شاشيّة سوداء تميّزهم عن بقيّة فئات مجتمع المدينة، غير أنّهم يلجأون في قضاياهم إلى المحاكم الإسلاميّة بسبب تعفّن نظامهم القضائي والّذي كثرت فيه الرّشوة والاستبداد[4].

والمتصفّح لما كتبه الأسير الهولندي إيمانويل دارندا في شأن عدد سكّان المدينة وكذا فئاتها الاجتماعيّة، يجد إقراره بمائة ألف ساكن مكوّنون مجتمع المدينة، منهم 12000 تركي وهم جنود، وما بين 30 إلى 40 ألف أسير من كلّ جنسيّات العالم، والباقي- يقول دارندا- أغنياء المدينة، مور، يهود، موريسك، وبعض التّجّار المسيحيّين[5].

لقد تميّز شوفالييه دارفيو الرّحّالة الفرنسي في ذكر عدد سكّان المدينة وفئاتها الاجتماعيّة، وحتّى العلاقة بين بعض فئاتها عن ابن بلده الفرنسي توماس هيز، الّذي كان يروي يوميّاته في رحلته إلى الجزائر بين سنتي 1675-1676، وقال دارفيو في هذا السّياق، نعدّ أكثر من مائة ألف ساكن في المدينة، ودليله في ذلك العدد المدهش والهائل للنّاس في الطّرق، وسكّان المدينة يتكوّنون من الأتراك الأصليّين

---

[1]- Joao Mascarenhas, op.cit, p75.

[2]- Ibid, pp75-76.

[3]- P.P.DAn, op.cit, p89.

[4]- الأمير بوغادة، **المؤسّسات في الجزائر أواخر العهد العثماني(القضاء أنموذجا)**، مذكّرة ماجيستير في التّاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، 2007-2008، ص111.

[5]- Imanuel D'Aranda, op.cit, pp98-99.

وكلّهم جنود، المرتدّين من كلّ الأجناس إلّا أنّهم غير خلوقين، الكراغلة (أبناء الجنود الأتراك والموريّات)، الموريّون وهم السّكّان الأصليّون للبلاد ولكن ليس لهم أيّ نصيب في تسيير الحكومة[1]، وقد ذكرت سياسة التّهميش للعنصر المحلّي[2].

ويذكر دارفيو أيضا الموريسكيّون، ويقول عنهم بأنّهم منحدرون من إسبانيا والبرتغال، ويسمّون بالأندلسيّين أو الثّغريّين ولهم تسمية أخرى وهي الغرناطيّون، أمّا اليهود فهم بأعداد كبيرة ومن أصول مختلفة، يتراوح عددهم بين 10000 أو 12000 شخص، في حين أنّ الأسرى المسيحيّين يمثّلون تقريبا نفس العدد[3].

إذا كانت رحلة جوزيف بيتس حجازيّة قد غاب فيها الحديث عن الحياة الاجتماعيّة في مدينة الجزائر، فإنّ ألفرد دابر في تأليفه **وصف إفريقيا**، قد تحدّث عن سكّان المدينة وأثنى على تعدّدهم العرقي[4]، أمّا رحلة ابن زاكور الفاسي فقد غلب عليها هي الأخرى غرضها العلمي والدّراسي، فاهتمّ صاحبها بهذا الجانب دون الجوانب الأخرى.

من المفيد أن نذكر ما سجّله بوتي دولاكروا أيّام رحلته إلى مدينة الجزائر سنة 1695 في شأن الثّغريّين والأسرى، فعن الفئة الأولى قال أنّ في سنة 1609 طرد الغرناطيّون المحمّديّون من إسبانيا، وجاؤوا للإقامة في إفريقيا، وأصبحوا يسمّون بالثّغريّين، بينما الفئة الثّانية فقال عنها بأنّها تقيم في أربعة (04) سجون، والآباء الإسبانيّون يقومون بعمليّة تحرير الأسرى ويذكّرونهم كلّ يوم بقداسهم، وذكر 35 ألف مسيحي يعيشون داخل المملكة، وقال في شأن آخر بأنّ البادستان هو المكان الّذي يباع فيه العبيد بالمزاد، ينادي المكلّف بالعبد، يسجّل اسمه وثمن فدائه أو بيعه، بينما عدد جنود انكشاريّة المدينة فقد صرّح بوتي دولاكروا بـ: 12000 جندي[5].

---

(1)- Chevalier D'Arvieux, op.cit, p223.

(2)- حنيفي هلايلي، **أوراق** ...، المرجع السابق، ص10.

(3)- Chevalier D'Arvieux, op.cit, p224.

(4)- Alfred D'Aprer, op.cit, p172.

(5)- Marcel Emerit**," un mémoire sur Alger…"**,op.cit, p9, p19.

ب-في مصادر الفترة من 1720 إلى1830:

يبدو أنّ عدد سكّان مدينة الجزائر عند أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة ليس دقيقا، وهو محل شكّ وريب، فمن المستحيل ومن غير المنطقي أن يبقى ثابتا من أيّام الأسير إمانويل دارندا (1640-1642) إلى أيّام الآباء (1720) في رحلة افتدائهم للأسرى، لكن الجدير بالذّكر أن نسجّل ملاحظتهم فيما يخصّ كره الدّاي للموريّين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكروا أربع أنواع من المور يكوّنون المجتمع وهم: (زواوة، العربجي، الجيبيجي والتّوبيجي)، يكونون في خدمة الحكومة (صيانة الذّخيرة والمدافع)[1]، وتقديم الأشخاص للحاجة، لكن الفكرة المعروفة هي أنّ سلطة الأتراك في المدن كانت قويّة مقارنة مع الرّيف[2].

ومن المفيد أيضا في شأن التّعداد السّكّاني في المدينة، وفئاتها الاجتماعيّة المتنوّعة أن ندرج ما ذكره الدّيبلوماسي دي تاسي في العشريّة الثّانية من القرن الثّامن عشر، فقد قال: "نعدّ حوالي مائة ألف ساكن في المدينة، وخمسة آلاف عائلة يهوديّة، وهم من أصل بربري، دون أن نذكر المسيحيّين[3]"، وفي نفس السياق ذكر ستة فئات اجتماعية هي:

أ- الأفارقة الأصليّون في البلد: (ربّما يقصد دي تاسي سكّان بسكرة وبني مزاب...)

ب- المور: منهم من يعيش في المدن، عملهم في ميدان التّجارة (على البرّ والبحر) وتحت إمرة الدّاي.

ج- العرب المحمّديّون: جاؤوا مع الفتح العربي الإسلامي إلى إفريقيا.

د- اليهود: عددهم كبير جدّا في مدينة الجزائر (منهم من الأندلس ومنهم من البربر)

ه- الأتراك: هم الحكّام والأسياد، مشهورون بالنّبلاء والطّبقة الرّاقية، يحتقرون السّكّان الأصليّين...

و- المسيحيّون: منهم الأحرار وهم التّجّار بأعداد قليلة، ومنهم الأسرى، أعدادهم كبيرة، يشتغلون في جميع الأعمال[4].

---

[1]- Jean de la Fay et autres, op.cit, pp88-105.

[2]- لطرش حنان، **السّلطة والمجتمع في الجزائر أواخر العهد العثماني**، مذكّرة ماجيستير في التّاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2005-2006، ص199.

[3]- Laugier de Tassy, op.cit, p105.

[4]-Ibid , pp45-57.

ومن الجدير بالذّكر أن نسجّل شهادة الرّحّالة توماس شو، والّذي اعترف بعدم إمكانيّة تحديد سكّان مدينة الجزائر، ورغم ذلك فقد ذكر حسب تخمينه أنّهم بين 80000 و135000 وحتّى 180000 نسمة، منهم المحمّديّون، اليهود والمسيحيّون[1]، لكن يبدو في تخمينه أنّه بالغ في هذا الشّأن كثيرا (180000نسمة)، وقد أضاف ملاحظته في شأن الأسرى، وقال بأنّهم صنفان، صنف أوّل هم أسرى الدّولة وهم أقلّ بؤسا وشقاءً، وصنف ثان وهم أسرى الأفراد والعائلات[2].

تكاد تكون معلومات الطّبيب الرّحّالة الفرنسي ج.أندري بايسونال تتّفق مع ما ذكره دي تاسي قبله[3]، ولم يقدّم السّيّد طولو في هذا الشّأن الكثير من المعلومات، ولكن ما يجب إبرازه هو حديثه عن سكّان ضواحي المدينة من زواوة، عربجي، توبيجي وجيبجي، الّذين يقدّمون خدمات جليلة للسّلطة[4].

إنّ ما ترجمه سعد الله أبو القاسم من كتاب جوزيف مورقن سنة 1731، يبيّن أنّ صاحب التّأليف ذكر فئات مجتمع المدينة في سياق حديثه ليس إلّا، بينما ما دوّنه الرّحّالة الألماني هابنسترايت في هذا الشّأن يستحقّ الذّكر والتّعليق، فقد قال بأنّ السّكّان ليسوا كلّهم من أصول واحدة، وقدّم لكلّ فئة تعريفاا، وبين مكانتها وعلاقتها مع الفئات الأخرى حيث كتب:

1- الأتراك: بيدهم الحكومة، ينحدرون من آباء وأمّهات أتراك، وهم في الغالب يستقدمون من المشرق، أو يؤتى بهم بالقوّة إلى الجزائر[5]، لكن هذا يبدو فيه مبالغة، وهم ينظرون إلى الجزائريّين نظرة ازدراء، ولا يجنّدون أحدا منهم في الحامية.

2- الكراغلة: فئة اجتماعيّة ظهرت نتيجة زواج الأتراك بالجزائريّات.

3- الحضر: هم السّكّان الأصليون في لمدينة، فرض عليهم الأتراك وضعيّة التّبعيّة المطلقة، لا يحقّ لهم حمل السّلاح وأملاكهم معرّضة للمصادرة لأقلّ خطأ يصدر منهم في حقّ الأتراك، يشتغلون كتجّار وعمّال، يخضعون بمحض إرادتهم لسير الحكم التّركي.

4- اليهود: المدينة مأهولة بهم، يسدّد كلّ واحد منهم ضريبة تقدّر بريالين في الشّهر.

---

[1]- Thomas Shaw, op.cit, p293.

[2]- Ibid, pp201-202.

[3]- J.A.Peyssonel, op.cit, pp250-254.

[4]- A.Berbrugger, "**un voyage de Paris à Alger…**", op.cit, p431.

[5]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص29.

5- عرب الأقاليم الدّاخليّة مثل: البساكرة، يعملون في تنظيف الشّوارع والمنازل والحراسة اللّيليّة، يوضعون تحت مراقبة أمينهم، ويتوجّب عليهم تسديد أيّ شيء قد يسرق في اللّيل (ولذا فمن النّادر أن نسمع بحدوث سرقات).

6- الأسرى الأوربيّون: أغلبهم من ألمانيا، إيطاليا، إسبانيا والبرتغال، عددهم قليل جدّا بمدينة الجزائر[1]، وفي هذا السّياق لعلّ عدد الأسرى الّذي صرّحت به مصادر الرّحلة مبالغ فيه، مثله مثل عدد سكّان المدينة، لكن يقول هابنسترايت في شأنهم بأنّهم يتمتّعون باحترام الأتراك، ويكونون في حماية إحدى الدّول الأوروبيّة الّتي تكون في حالة سلم مع حكومة الدّاي، ثمّ تحدّث عن البعثة الفرنسيّة المكلّفة بتحرير الأسرى والمستشفى الإسباني المكلّف بتقديم أعمال خيريّة كثيرة لفائدة جميع الأسرى[2]، خاصّة في مجال الطّب والاستشفاء[3]، ولعلّ المستشفى الإسباني هو أوّل مستشفى أسّسه الأب الإسباني سيباستيان دي يون سنة 1551[4].

ومن ظاهرة حريّة ممارسة الشّعائر الدّينيّة، يذكر هابنسترايت أيضا أنّه يوجد كاهن لبعض الأفراد اليونانيين يرعى شؤونهم الدّينيّة[5].

بقدر ما تغنّى ابن المسيّب بمدينة الجزائر أثناء رحلته إلى المشرق، فقد غفل عن ذكر بعض ملامحها الاجتماعيّة، شأنه في ذلك شأن ابن حمادوش في رحلته (**لسان المقال**)، غير أنّ دالنسو كانو الرّحّالة الإسباني لم يقبل بآراء الرّحّالة في قضيّة تعداد سكّان المدينة وناقش هذا القول، مبرزا ما ذكره الأب دان (15000 نسمة)، وقراماي (13200نسمة)، هايدو (12200نسمة)، لوزادا (بين 9000 و10000 نسمة) سيلفستر (12000نسمة) بالتّقريب، وليون الإفريقي (4 آلاف عائلة)، ولأنّها في عهد هذا الأخير كانت في بدايات ازدهارها ونموّها[6].

---

(1)- نفس المصدر، ص ص30-34.

(2)- نفس المصدر ، ص34.

(3)- حفيظة خشمون، **مهام مفتدى الأسرى والتزاماتهم الاجتماعيّة في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانيّة**، رسالة ماجيستير في التّاريخ الاجتماعي لدول المغرب العربي، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، قسنطينة، 2006-2007، ص77.

(4)- ناصر الدّين سعيدوني، "**الأحوال الصّحيّة والوضع الدّيمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني**"، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، العدد 34 و35، 1985م ومجلّة الثّقافة، العدد 91، 1986.

(5)-ج.أو,هابنسترايت، المصدر السّابق، ص35.

(6)- D'Alonso Cano, op.cit, p57.

لقد توصّل دالنسو كانو إلى أنّ العدد السّكّاني في المدينة أقل من 50000 نسمة، سنة 1768[1]، وفيما يبدو أنّ فئة الكراغلة لوحدها ذكرت بأكثر من 50000 نسمة عند القنصل الفرنسي فاليار، والّذي قدّم هم الآخر ملاحظاته وإحصائيّاته فيما يخص بعض فئات مجتمع المدينة سنة 1779-1781، الأتراك بين(6000 و10000) واليهود بين(6000 و7000) نسمة في كامل المملكة...، ميزتهم المكر والخداع[2].

وقد دوّن الضّابط الرّوسي كوكوفتسوف في رحلته إلى الجزائر ملامح عديدة للحياة الاجتماعيّة، والّتي نقتبس منها ما ذكره عن اليهود، الّذين كانوا من جنسيّات مختلفة ويملكون حق ممارسة طقوسهم الدّينيّة، ولا يستطيعون مغادرة البلاد إلّا بتقديم عربون، وعليهم العودة، ويهود ليفورن يعيشون في أحياء خاصّة، يقومون بالتّجارة الكبيرة، ويتمتّعون بالحريّة مثل الفرنسيّين، وهم تحت حماية قنصل فرنسا[3].

تفيدنا أيضا رحلة هذا الضّابط الرّوسي بمعلومات قيّمة في الجانب الاجتماعي فيما يخصّ فئة الأسرى، والّذين بمجرّد وصولهم إلى مدينة الجزائر يؤخذون إلى البادستان (مكان عمومي لبيعهم)، ومن بين ثمانية أسرى تأخذ الحكومة أسيرا واحدا، والبقيّة يقول كوكوفتسوف يعرضون للبيع بالعلن، ويتوقّف سعر الأسير على الرّايس الّذي يأتي بهم، وهو الّذي يحدّد ذلك، ومن خلال ما كان العبد يعمله تحدّد قيمته، ويقول أيضا بأنّ الأتراك والموريّين الّذين يشترون الأسرى، يلبسونهم بطريقة ملائمة ويثبتون على أذرعهم حلقات للدّلالة على أنّهم أسرى، وبعد ذلك يبدأ العبد في العمل مقابل حريّته، ويذكر أيضا إخفاء الأسرى لأصولهم الغنيّة والثّريّة، لأنّه إذا عرف أسيادهم ذلك يجبرونهم على دفع مبلغ ضخم لأجل افتدائهم[4].

ويقول كوكوفتسوف كذلك في شأن الأسرى وحياتهم، الكلّ في حالة جيّدة، يلبسون جيّدا، ويأكلون جيّدا وسكّان الجزائر يعاملونهم بإنسانيّة ويعالجونهم، عكس ما يعمل الأوروبيّون للأسرى الّذين يمتلكونهم، كما أنّ الأتراك لا يثقون إلّا في الأسرى المسيحيّين عكس الأهالي البربر، وكل خدم الدّاي والأتراك هم أسرى، وأسرى الدّاي أحسن وضعا بكثير من أسرى الأهالي، كما نجد الأسرى في ثكنات الانكشاريّة لتنظيفها وخدمة الجنود، ومنهم من يمارس مهنته الّتي كان يعملها من قبل، إلّا أنّ الجنود لا

---

(1)-D'Alonso Cano, op.cit, p60.

(2)-C. PH..Valliere, op.cit, pp9-10.

(3)- Marcel Emerit," **description de l'Algérie…"**, op.cit, p211.

(4)-Ibid, p212.

يستطيعون محاربة هؤلاء الأسرى على أخطائهم دون إذن القارديان باشي، والّذي هو موكّل بهم[1].

ومن الأسرى من يستخدم في الأشغال العامّة مثل: بناء السّفن، إصلاح القلاع والطّرقات، ويستريحون في أيّام الأعياد، وسياسة الدّولة الجزائريّة مهتمّة بترك الأسرى في صحّة جيّدة لكي تحصل على مبالغ افتداء كبيرة ومعتبرة، كما أنّ الأسرى المسيحيّين يؤخذون على متن البواخر والسّفن لأجل التّجذيف والعمل البحري، ومنهم من يخدم في الحدائق ويرعى الحيوانات[2]...

ولعلّ الملاحظة الواجب ذكرها في شأن الأسرى، أنّ الجزائر أيّام الدّاي حسن (1786) كانت تبادل الأوربيّين بضعاف أسرى المسلمين حسب ما ذكره الرّحّالة المغربي أبو القاسم الزّياني حينما قال: «...لا سرح أسراهم إلاّ بضعاف المسلمين من الفدية...»[3].

إنّ أغلب حديث كاثكارت الأسير الأمريكي عن حياة الأسرى ولباسهم ومعيشتهم، وتقديمه وصفا للعديد من مظاهر حياتهم في مرافق عدّة من مدينة الجزائر ومنشآتها، إلاّ أنّه لم يخصّص عناصر واضحة عن فئات مجتمع المدينة لكنّه يذكر العديد منها في سياق الحديث، غير أنّ القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي دوّن معارف جمّة عن الحياة الاجتماعيّة في المدينة، وأضاف عمّا ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة الأخرى فئة الجواجلة[4]، وقال في شأنهم بأنّ لديهم مكانة خاصّة عند الدّاي، يزوّدون أفران الدّايليك بما تحتاجه، ويصنعون الخبز لليولداش (للثّكنات) وللأسرى، بالإضافة إلى ذكره كلّ من المزابيّين والبساكرة وكذا اليولداش (الأوجاق) والأسرى[5]، لكنّها تكاد تنطبق على ما ذكرته مصادر رحلة سبقته إلى المنطقة.

والمتصفّح للرّحلات الحجازيّة كرحلتي ابن عمّا والورتلاني والرّحلات الفهرسيّة (كرحلة أبو راس النّاصر)، قلّما يعثر على إشارات لنوع الحياة الاجتماعيّة في جوانب معيّنة، ونفس الأمر ينطبق على الرّحلة القمريّة لابن زرفة العمري.

إلّا أنّ الأسير الألماني تيدنا دوّن في مذكّراته بعض الملاحظات، والّتي لها علاقة بالحياة الحضريّة في المدينة في جانبها الاجتماعي، فقد ذكر بأنّ العبيد مساكين، وأنّ اليهود يتاجرون في الأسرى، والّذي

---

(1)-Marcel Emerit," **description de l'Algérie...**", op.cit, p213.

(2)-Ibid, p213.

(3)- أبو القاسم الزّيّاني، المصدر السّابق، ص376.

(4)-Venture de Paradis, op.cit, p119.

(5) -Ibid,, p119, p143, p145, p153.

اشترى تيدنا في سوق البادستان كان يهوديّا، كما ذكر بأنّ المنزل الّذي كان ينزل فيه حينما يذهب من معسكر إلى مدينة الجزائر لا يخلو طوال النّهار من المسيحيّين المتسولين[1]، وإنّ صدقت روايته في هذا الشّأن، فإنّ منهم من كان يطمح للحصول على حريّته ويبحث عن المساعدة بأيّة وسيلة.

ولقد وجدنا فيما ذكره دولا ماي عن الحياة الاجتماعيّة بمدينة الجزائر في مستهل القرن التّاسع عشر ضروريّا في تسجيله في هذا الشّأن بالذّات، فقد ذكر الفئات الاجتماعيّة وعلّق على كلّ فئة وهي مرتّبة كالآتي:

أ- الأتراك: مثل الأسياد، لديهم كلّ الحقوق والامتيازات، كلّهم جنود، إلاّ أنّهم سيّئين.

ب- الكولوري (أو الكولوغلي): يكوّنون فئة ميسورة، تقترب من الموريّين أكثر، يهملون الأعمال العسكريّة، يحبّذون الذّهاب إلى الحدائق أو البقاء في المدينة، ويجلسون أمام بيوتهم والغليون في أفواههم.

ج- الموريّون: يعيشون على التّجارة، يلبسون مثل الأتراك، لا يحقّ لهم حمل السّلاح إلّا خنجر.

د_ القبائل: يفلحون الحقول في ضواحي المدينة.

هـ- البساكرة: أناس فقراء جدّا، يعملون في الأشغال المكروهة والشّاقة، ينامون في العراء على كراسي أمام المحلّات الّتي يحرسونها، ومنهم من يعمل في الحمّامات والأفران، وهم لطفاء[2].

و- اليهود: هم عند دولاماي فئة محتقرة، يمتهنون التّجارة والصّياغة، الّتي تغنيهم في بعض الأحيان، ويقول في شأنهم كذلك نعدّ حوالي خمس أو ست عائلات غنيّة وهي من ليفورن Livourne، تلعب دورا كبيرا، يهيمنون على الأتراك بالفساد، بينما الأسرى انخفض عددهم والمبلغ الّذي يفرضه الأتراك لأجل افتدائهم هو مورد هام، فالأسير البسيط مبلغ افتدائه بين 12ألف أو13ألف ليرة، والضّابط ضعف ذلك مرّة أو مرّتين[3].

ولا تخلو تقييدات الأسرى عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في شقّها الاجتماعي، من أمثال الأسير الإيطالي باناني، والهولندي جيريت ميتزون وحتّى الألماني سيمون بفايفر، إلّا أنّها عموما تصوّر مشاهد عن حياة أسير كلّ حسب ظروفه في تلك الفترة والأشخاص الّذين لقيهم والأمكنة الّتي عمل

---

[1]- أحميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيّات**...، المرجع السّابق، ص47.

[2]- M. EMERIT, **"Alger en 1800, D'après. Les mémoires inédits de la Maye"**, R. H. M, N°2, Tunis, 1974,p174.

[3]- Ibid, p174.

بها، وهذا ما يظهر جليّا أثناء حديثهم عن الأكل، اللّباس، المعاملة والنّوم... وغيرها من مظاهر الحياة اليوميّة.

ويفيدنا وليام شالر القنصل الأمريكي في مذكّراته، ببعض الملاحظات والانطباعات والّتي ارتأينا ذكرها لأنّها تكمل ما ذكر في مصادر رحلة أوروبيّة ومنها:

– اليهود: يوجد منهم 5000 نسمة (بين 1816-1824)، غير قابلين للاسترقاق، يمارسون السّمسرة وتبديل العملة وأعمال المصارف، يوجد منهم عدد كبير في الصّيارفة، والحكومة لا توظّف سوى اليهود لصكّ النّقود (ذهبا وفضّة)...[1].

– المزابيّون والبسكريون: يرعى شؤونهم وكيل، سلطته تشبه سلطة رئيس الطّائفة اليهوديّة.

– الزّنوج: هم في الأصل من العبيد اشتراهم أسيادهم، ولكن سرعان ما يحصلون على حرّيتهم باعتناقهم الإسلام[2].

– الأسرى: يقول شالر في شأنهم: "إنّه لمن المنصف القول بأنّ حالتهم هنا لم تكن أسوأ من أسرى الحرب، الّذين يقعون في أيدي البلدان المسيحيّة المتحضّرة "[3]، كما قال أيضا: الأسيرات يعاملن بالاحترام، أشغال الرّجال لم تكن مفرطة المشقّة، عدد من المناصب العليا يشغلها عبيد، كما وجد من العبيد من يغادر الجزائر وقلبه مفعم بالحسرة، وفضائع أسواق النخاسة الّتي قيل عنها الكثير وأحدثت ضجّة كبيرة، كلّها اتّهامات لا أساس لها من الصّحّة[4]. وقد اتّضح دور الأندلسيّين في مدينة الجزائر في عدّة جوانب (الحرف- التّجارة) من خلال كتابات الرّحّالة[5].

وينبّئنا الرّحّالة التّنلاني عبد الرّحمن بن إدريس بأنّ عدد الأسرى الّذين اشترط اللّورد إكسماوث إطلاق سراحهم أيّام حملته على مدينة الجزائر، والّذين هم من مدينة القرنة (يبدو أنّها ليفورن) كانوا على دراية بحملة اللّورد إكسماوث على المدينة[6].

---

(1)- وليام شالر، المصدر السّابق، ص89.

(2)- نفس المصدر ، ص92.

(3)- نفس المصدر، ص99.

(4)- نفس المصدر ، ص ص100-101.

(5)-Denise Brahimi, "**Quelque s jugement sur les maures andalous dans les régences**. **Turque au XVIII² siècle**, in R.H.C.M, N°9, 1970, pp39-51.

(6)- عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص ص211- 215.

ولقد حملت رحلة الضّابط الألماني شونبيرغ العديد من ملامح الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في شقّها الاجتماعي، حيث ذكر أنّ تعداد الأتراك سنة 1830 كان 17 ألف، وعليهم مغادرة البلاد في أقرب فرصة ممكنة، وأكّد معاملة العبيد المسيحيّين من طرف الدّاي مصطفى (1798-1805) معاملة إنسانيّة، كما كان لزوجة هذا الدّاي 200 من الوصيفات والعبيد، في حين أنّ عبيده من الخدم كانو خمسينا عبدا مسيحيّا، وفي شأنّ اليهود، فقد ذكر هيمنة اليهودي بوجناح على عدد من ضبّاط الانكشاريّة، حيث أنّهم كانوا يخضعون له كلّ الخضوع، هذا الأمر أدّى إلى حدوث فتنة بين اليهود من جهة والانكشاريّين وسكّان المدينة من جهة ثانية، راح ضحيّتها العديد من الضحايا، خصوصا في فئة اليهود[1].

وقد ذكر أيضا، بأنّ اليهود كانوا يدفعون لخزينة الحكومة 100 قرش ثمّ تطوّرت إلى 200، دون تحديد لكيفيّة ولمدّة الدّفع، ولعلّ الملاحظة الّتي سجّلها شونبيرغ وتستحقّ الذّكر أيضا، هي أنّ الكراغلة أصبحوا يشاركون في الجيش أيّام أحمد خوجة (1805م-1808م)، وأنّ الأتراك كانوا يعتبرون الحضري إنسانا خبيثا[2]، على حدّ وصفه، ربّما للعلاقة السّيّئة الّتي كانت تطبع الجانبين.

لقد ساءت العلاقة بين الانكشاريّة والدّاي أحمد خوجة، هذا الأخير الّذي أسند عدّة وظائف إليهم مع الحضر، وإن علي باشا (1817-1818) كوّن فرقة قويّة من الكراغلة والحضر، وكذلك فرقة من الزّنوج[3]، وهذا دلالة منه على أنّ هذه الفئات لم تكن تحصل على هذه الوظائف، والّتي كانت حكرا على الأتراك، لكنّ الضرورة والمصالح فرضت ذلك.

يقول الضّابط الفرنسي روزيه في رحلته إلى مدينة الجزائر سنة 1830، أنّ سكّانها يرتفعون إلى 30000 نسمة، ويتكوّنون من الموريّين، الأتراك، اليهود والسّود (الزّنوج)[4]، والتّونسي على المرالي في تأليفه العود الجزائري يذكر عدّة كلمات (مصطلحات) تنمّ عن بعض الفئات الاجتماعيّة الّتي سكنت المدينة ومنها: "العرب السّاكنون في البلد... والنّصارى والبرانيّة..."[5]، يبدو من خلال حديثه أنّه كان يقصد بالبرانيّة سكّان المناطق الدّاخلية من الجزائر (مثل البساكرة، بنو ميزاب) والّذين كانوا يأتون إلى

(1)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المصدر السّابق، ص ص36-44.

(2)- نفس المصدر ، ص ص47-48.

(3)- نفس المصدر، ص ص71-73.

(4)-Rozet et Carette, op.cit, p15.

(5)- علي المرالي التّونسي، المصدر السّابق، ص62.

المدينة للعمل بها، والعرب الّذين وفدوا إلى المنطقة منذ الفتح العربي لها، وربّما نضيف إليهم أعدادا من المورسكيّين الفارّين من الأندلس.

لقد أكّد علي المرالي التّونسي سطوة الأتراك وهيمنتهم في الجزائر، حيث قال: "...وصل هناك من أطراف البحر الأسود العصاف... وأخذ قضيب الملك وتمكّن في الجزائر من جميع الأنصاف..."[1]، وهذه الهيمنة والسّطوة كثيرا ما أشارت إليها مصادر الرّحلة الأوربيّة وفي العديد منها.

وفي الرّحلة الطّريفة للسيور وويلد وجدنا إشارات عديدة لملامح الحياة الاجتماعيّة، منها ما هو عن فئاتها ومنها ما هو عن العلاقة بين هذه الفئات، ونحن في هذا المقام نستغرب ما ذكره الرّحّالين بأنّ الجزائريّين تعوّدوا على الاستبداد منذ زمن طويل[2]، بل تعوّدوا على العيش أحرارا منذ أمد بعيد وحتّى أنّ كلمة أمازيغ تعني الحر.

وقد ذكرا أيضا بأنّ العبيد كانوا يشغلون الطّابق الأرضي من البنايات، وهذا ربّما للخدمات الّتي يقومون بها، وفي شأنّ اليهود فقد ذكر بأنّ عددهم تفاقم منذ أن حرّرتهم الهيمنة الفرنسيّة من حكم الأتراك ومنحتهم المساواة في الحقوق المدنيّة، وقدّما صورة لمأدبة غداء عند اليهود احتفالا لهم بمناسبة ازدياد مولود، بينما المغربي فكان يملك حوانيت للتّجارة، والمزابي يعمل في الحمّامات، والزّنوج منهم الأحرار، ومنهم العبيد[3]

2-الأسواق والحرف في المدينة (الأنواع وأمكنة التواجد):

تمثّل الأسواق المركز الحيوي للنّشاط التّجاري والاقتصادي[4]، ولذلك اهتمّت العديد من مصادر الرّحلة العربيّة والأوربيّة بذكر الأسواق وأنواعها وتعدّدها، فهذا حسن الوزّان يقول في هذا الشّأن بأنّ في مدينة الجزائر أسواق منسّقة كما يجب[5]، وهذا للدّلالة على تنظيمها وتصنيفها وتتابعها، وما يؤكد هذا ما أضافه الوزّان عن الحرف، بأنّه لكلّ حرفة مكانها الخاصّ بها، وهذا ما أكدّه أيضا مارمول كاربخال الرّحّالة الإسباني في تأليفه **إفريقيا** [6]، دون ذكره لأنواع الأسواق والحرف ولا مكان تواجدها، لأنّه

---

(1)- علي المرالي التّونسي، المصدر السّابق، ص59.

(2)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص41.

(3)- نفس المصدر، ص ص35-40.

(4)- مجموعة مؤلّفين، **أهميّة دراسة المدن العربيّة الإسلاميّة**، ط1، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، بيروت، 2001، ص31.

(5)- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

(6)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص363.

اعتمد في هذا الأمر على الوزّان.

وقد اعترف مارمول كاربخال في أيّامه، بأنّ مدينة الجزائر من أغنى مدن إفريقيا قاطبة، وقال بأنّ مقدار الجباية على تجارتها يعادل مقدار مداخيل مجموع المملكة[1]. ومن دون شكّ فإنّ جزءا من هذه المداخيل يأتي من الأسواق وعائداتها.

إنّ ما سجّله الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي سنة 1551، حينما مرّ بمدينة الجزائر في شأن الأسواق والتّجارة ما يستحق الذّكر، حيث ذكر بأنّ الحي في أسفل المدينة حيوي ونشيط بالتّجارة وهو موجود على واجهة البحر، يحصل فيه تجّار المدينة على أرباح طائلة، لأنّ فيه العديد من البضائع، وهم يتعاملون بالرّبا[2]. ولعلّ لهذا الاعتراف جانب صادق وآخر فيه مبالغة، فمن المعروف أنّ الرّبا صفة محرّمة في التّجارة عند المسلمين، وإنّ وجدت في المدينة حينها فإنّها على غالب الظّنّ تخصّ اليهود، وما ينبّئنا به أيضا نيكولاس دي نيكولاي أنّ بالمدينة سوقا يقصدها سكّان الجبال والسّهول حيث يجلبون الخضر والفواكه والحبوب والدّواجن[3]. ومنه يتّضح ما كانت تتحصّل عليه المدينة من ضواحيها الّتي تزوّد ساكنيها بما يحتاجونه من مواد وسلع.

وقد اعترف سيرفانتس بأنّ من خاصيّة مدينة الجزائر أيّام أسره، أنّ كلّ شيء يباع فيها ويشترى بسهولة، كما أنّها تستقبل العديد من التّجار الوافدين إليها من بقاع مختلفة، وإقامتهم بهذه المدينة غير قارة[4]، غير أنّ الأسير الإسباني هايدو قدّم في هذا السّياق معلومات في غاية الأهميّة، تنمّ عن وصفه للحياة الاقتصاديّة في المدينة، وارتأينا أنّ نذكر بعضا منها حيث يقول عن التّجّار: أنّهم يشكّلون الفئة الخامسة لسكّان المدينة، وعددهم كبير، منهم الأتراك، المرتدّين وأبناء المرتدّين بالإضافة إلى بعض اليهود، ومن التّجّار أيضا من كانوا انكشاريّين أو بحارة، ومنهم من تعوّد على مهنة التّجارة منذ الصّغر، أمّا فيما يخصّ المعروضات الموجودة في المدينة هي: (القمح، الشّعير، الأرز، الأبقار، الجمال، الخرفان، الصّوف، الزّيوت، الدّهون، العسل، التّين، العنب المجفّف، التّمور والحرير...)، ويردف قائلا بأنّه لا يمكن المتاجرة في الجلود والشّمع إلّا بموافقة من الباشا، وبينما المتاجرة بالعبيد المسيحيّين من كلّ الأعمار

---

(1)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص364.

(2)- Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

(3)-Ibid , p18.

(4)- عبد الله حمادي، "**جزائر القرن السّادس عشر...**"، المرجع السّابق، ص266.

ففيها فائدة كبيرة[1].

لقد ذكر هايدو كلّ السّلع والمواد الّتي كانت تدخل مدينة الجزائر، وحدّد المنطقة الّتي كانت تأتي منها فهو بذلك قدّم صورة حيّة عن النّشاط الاقتصادي من ناحية واردات المدينة، والّتي نستشفّ من خلالها موادا وسلعا أخرى كانت تباع في أسواق المدينة وهي[2]:

المواد والسّلع	المنطقة الّتي أتت منها
-الحديد، الرّصاص، القصدير، المسحوق، البساطات من كلّ الأصناف.	-إنجلترا.
- الخمر، الملح، بعض الأقمشة، الحايك الأحمر، اللآّلئ، الذّهب والفضّة.	-إسبانيا (كاتالونيا، فلنسيا).
-البزازة، المنسوجات القطنيّة، الحديد، الفولاذ، المسامير، الكبريت، الزّيت، السّكاكين الحادّة، العلك، الملح، الخمر، البندق...	-مرسيليا.
-الحرير المشبّك بكلّ الألوان، قماش دمشق، القماش الأملس والمخامل. -القدور، البساطات، الصّناديق، المرايا والصّابون الأبيض.	-البندقيّة وجنوة.
-الأواني، السّفن، المنسوجات، أقمشة الحمّامات، خناجر دمشقيّة، الأواني، الأحزمة، البساطات، القفاطين، الملاحق المنحوتة، الخزف الصّيني، الصّحون وأواني الشّرب...	-فيينا. -تركيا، الاسكندريّة، وطرابلس.
-التّوابل، الموصليّة، معاطف النّساء، التّمور، الزيت، الصّابون الأبيض.	
-المرجان وما يستخدم منه.	-تونس، التّجّار المور.
-دهون اللّحوم المصنوعة والمحفوظة (خليع).	و طبرقة.
-جلود الماعز، منسوجات حريريّة خشنة للباس العرب.	-بونة.
-العسل، العنب والتين المجفّفين.	-قسنطينة.
-بساطات إسبانيا، شواشي حمراء.	-شرشال.
-البرانس (ذات كتّان جيّد).	-وهران.
-العسل، الصّابون (من النّوع الجيّد) الذي يستعمل في الحمّامات.	-تلمسان.

(1)- Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, p102.

(2)-Ibid, pp103-104.

وقد ذكر هايدو بأنّ مدينة الجزائر تستبدل هذه السّلع الوافدة إليها بالمنتوجات المحليّة مثل الجلود، الشّمع والتّمور... وبعض المنتوجات الأخرى، بينما الحوانيت فقد قال في شأنها بأنّها موجودة بكثرة، تسيّر من طرف أبناء التّجّار، أو من طرف المرتدّين، وهم يجلسون فيها بطريقة القرفصاء، وهي (الحوانيت) في كلّ الأسواق في حدود ألفين، وهي لا تستعمل للمبيت[1]، ولعلّه الوحيد الّذي ذكر عدد حوانيت المدينة في القرن السادس عشر.

وغالبا ما اقترن ذكر الأسواق بالحرف، وهذا ما لمسناه عند الحسن الوزّان ومارمول كاربخال، إلّا أنّهما لم يفصّلا في ذكر أنواع الحرف ولا مكان تواجدها، بينما هايدو يصنّف حرفيّي مدينة الجزائر في الفئة السّادسة وهم الصّاغة، الخياطّون، صانعو الأحذية، صانعو السّروج، البنّاؤون وصانعو الأسلحة (السّهام، الرّماح)، حيث يقول في هذا الإطار، كلّ المهن والحرف المهمّة موجودة في مدينة الجزائر، إلّا أنّ أغلبيّة الحرفيّين هم من المرتدّين[2]، يبدو من خلال هذا الاعتراف أنّ فيه نوع من التّحيّز والمبالغة، وإلّا كيف نفسّر وجود حرف محليّة كثيرة يمتهنها مرتدون وأجانب.

لقد كان السّوق مترامي الأطراف، فيه كلّ البضائع من مختلف بلدان العالم، وتعرض فيه مختلف الحبوب للبيع (القمح والشّعير)، وهي عادة ما تأتي من المدن الدّاخليّة، وباعتها من الموريّين يأتون بها ببغالهم وجمالهم وخيولهم...، ثمّ بعد هذه السّلعة تأتي التّمور بمختلف أنواعها، ثمّ سوق الحيوانات (أبقار، أغنام، ماعز، أحمرة، خيول وجمال) -بساحة تافورة حاليّا-، ثمّ سوق الأخشاب ولوازم البناء وحطب الوقود، ثمّ يليها سوق الخضر والفواكه، ثمّ سوق الأقمشة والأحذية والبرانس والقشّابيّات والصّوف والصّوف المغزول بمختلف أنواعه[3].

كما توجد أيضا سوق جلود الحيوانات المدبوغة، لتأتي بعدها سوق العطّارين والأعشاب الطبيّة وهذا ما يفسر بأنّها أسواق منسّقة، وتمارس في السّوق بعض الألعاب البهلوانيّة وكذلك يظهر فيها المداح والحلقة... وغيرها، وبقدر ما يعرض في السّوق من بضائع وسلع، فهو أيضا مكان تبادل الأخبار وحلقة اتّصال بين عدّة فئات، من خلال تداول المعلومات فيه بشكل كبير جدّا[4].

إنّ اعتراف الرّحّالة المغربي أبي الحسن التّمقروتي بالدّور الاقتصادي لمدينة الجزائر أواخر القرن

---

(1)-Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, p106.

(2)-Ibid, p107.

(3)- جمال غلّاب، المرجع السّابق، ص85.

(4)- نفس المرجع ، ص ص86-89.

السّادس عشر يلح علينا ذكر ما دونّه في هذا الشّأن، فمدينة الجزائر عنده كثيرة الأسواق بعيدتها[1]، ولعّل ما يقصده هذا الرّحّالة هو تعدّد الأسواق في المدينة حسب السّلع، مثلما ذكره الرّحّالة قبله: (الوزّان، كاربخال، نيكولاس دي نيكولاي وهايدو...).

كما ذكر أيضا هذا الرّحّالة أنّ مدينة الجزائر أكثر تجّارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا[2]، وهذا دلالة على التّنوّع والتّعدّد في الأسواق والسّلع من جهة، وتعدّد التّجّار وكثرتهم من جهة ثانية.

يقول الأب دان بأنّ التّجّار الّذين يأتون إلى المدينة، كانوا يكترون بيتا للإقامة فيه، بينما التّجّار الموريّون والعرب الّذين يأتون بمنتجاتهم إلى المدينة كانوا يقيمون في باب الواد[3]، وهذا ما كانت عليه الحالة في القرن السّابع عشر، غير أنّها تعرف فيما بعد ما يسمّى بالفنادق، وإن كان الحسن الوزّان يقرّ بوجودها قبل ذلك.

لقد شاهد توماس هيز أيّام إقامته في مدينة الجزائر بين (1675-1676) سفينة جاءت من البرازيل مملوءة بـ 236 كيس سكر، 400 كيس تبغ برازيلي و4 أكياس كاكاو، بالإضافة إلى بعض أنياب الفيلة، وهذه السّفينة كانت تابعة للبرتغال تمّ الاستلاء عليها واقتيادها إلى مدينة الجزائر[4]. وعليه فمن دون شك أنّها توجّه للتجارة في السّوق.

أمّا الرّحّالة الفرنسي شوفالييه دارفيو فقد قال بأنّ حي باب عزّون به طريق طويل يؤدّي إلى ضاحية كبيرة، وبه يباع اللّحم والعديد من المنتوجات الّتي تأتي من الرّيف، والتجار الموريّون يقيمون في هذا الحي، بينما الطّريق الكبير والواسع في المدينة يقع بين باب الواد وباب عزّون، وهو الأجمل في كامل المدينة لأنّ به حوانيت السّلع[5].

تكاد تجمع مصادر الرّحلة الأوروبيّة على أنّ الطّريق الّذي بين الحوانيت والسّوق في مدينة الجزائر هو الأجمل والأوسع من كلّ طرق وشوارع المدينة، وهذا ما أورده أيضا ألفرد دابر في تأليفه **وصف**

---

[1]- أبو الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص90.

[2]- نفس المصدر، ص90.

[3]- P.P.DAN, op.cit, pp89-90.

[4]- Thomas Hees, op.cit, P119.

[5]-Chevallier D'Aarvieux, op.cit, pp219-220.

إفريقيا[1]، وبوتي دولاكروا في مذكّرته، غير أنّ هذا الأخير أضاف تعليقه فيما يخصّ البادستان (مكان بيع العبيد بالمزاد)، حيث أنّه ينادي المكلّف بهم ثمّ يسجّل اسم كلّ واحد منهم وثمن افتدائه أو بيعه[2].

كما أورد الطّبيب الرّحّالة الفرنسي بايسونال ملاحظته في شأن البادستان BAPTISTAN، وقال بأنّه المكان الّذي تباع فيه الأشياء المستولى عليها وهي تعود في الأصل إلى الدّاي أو الدّولة، وذكر أيضا بأنّها تباع في دكاكين محاطة بسور[3]، يبدو أنّ البادستان مكان لبيع العبيد والغنائم البحريّة في آن واحد.

أورد السّيّد طولو في رحلته إلى مدينة الجزائر العديد من القضايا الّتي تناولها مع داي الجزائر عبدي باشا سنة 1731، والّتي منها قضيّة التّاجر الفرنسي ميشان "MESCHEIN"، والّذي كانت في ذمّته ديون كبيرة للدّاي، إلّا أنّ السّيّد طولو حاول أنّ يتهّرب منها[4].

تمثّل تجارة الأسرى المسيحيّين أحد مصادر الدّخل الرئيسيّة[5] للمملكة ككل وللمدينة على وجه الخصوص، ولعلّ هذا الاعتراف يكاد يكون القاسم المشترك بين العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة والعربيّة معا[6].

وما يجب التّذكير به أنّ عبدالرّزّاق بن حمادوش في رحلته، يعترف بأنّ له دكّانا في وسط مدينة الجزائر وكان يجلس فيه بعد الصّلاة، كما أخبرنا عن حادثة مهمّة تمثّلت في تهربّه من المكس عند نزول بضاعته في ميناء المدينة[7]، وهي الّتي جاء بها من المغرب.

يتّضح أنّ التّجّار كانت من مهامهم أيضا البحث عن البيوت لإقامة الغرباء والمسافرين فيها، وهذا ما أخبرنا به أبو القاسم الزّياني في رحلته إذ قال:«... اجتمعت بأحد التّجّار وتسالمنا وكلّفته أنّ ينظر إلى بيتا، فقال لي أنّ البيت حاضر، فصحبني إلى البيت وفتحته ونظرته...»[8]، وكان هذا في طريق

---

(1)-Alfred D'Apper, op.cit, p169.

(2)-Marcel Emerit**, "un mémoire sur Alger…"**,op.cit, p17.

(3)-J.A.Paeyssonnel, op.cit, p251.

(4)-Marcel Emerit," **Voyage de paris a Alger…"**, op.cit, p423.

(5)- ج. أو. هابنسترايت، المصدر السّابق، ص42.

(6)-Marcel Emerit," **description de l'Algérie…**", op.cit, p212.

وأبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص376. -C. PH.Valliere, op.cit, p42.

(7)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص114.

(8)- أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص374.

عودته من المشرق.

إنّ من أهمّ مصادر الرّحلة الأوروبية والّتي ألقت الضّوء على الحرف والتّجارة في مدينة الجزائر، هي تأليف القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي، الّذي خصّص لهذا الأمر عنصرا سمّاه: "الصّناعة والتّجارة"، ونقتبس ممّا ذكره بعض العبارات الّتي تدلّ على نمط من الحياة الاقتصاديّة في المدينة:

«في مدينة الجزائر تصنع منسوجات وأقمشة كبيرة على طريقة المصريّين، وهي منسوجات مصنوعة من الحرير والكتّان ذات تجويفات، وهي مخصّصة لسكّان المدينة والرّيف، ولا شيء منها يصدّر، بالإضافة إلى صناعتهم الأحزمة الحريريّة من كلّ الألوان وكلّها كبيرة وعريضة»[1].

إنّ الشّرائط الّتي يتحدّث عنها فونتير دي بارادي، يقول في شأنها بأنّها ذات ألوان ساطعة وبنفسجيّة، وهي تباع بأثمان باهضة (شرائط الجزائر أغلى ثمنا وقيمة من غيرها)، وهي ذات استعمال كبير، لأنّها تستعمل لتزيين الأثاث، ولباس النّساء (عادة ما تكون في أذرع النّساء)، وكذلك تغطّى بها الأسرة... كما توجد السّتائر الّتي تتكوّن من طبقتين.

ويقول أيضا في شأنّ صناعة الشّاشيّة، أنّ بالمدينة صناعة الشّاشيّة الجزائريّة (أو الطّاقيّة)، وهي مصنوعة من صوف ذات تجاويف، يستعملها السّكّان، إلّا أنّها لا تصدّر، وشباب المدينة يضعون على رؤوسهم طاقيّة بسيطة حمراء صوفيّة، والنّساء يضعن طاقيّة مغطّاة بالحواشي الذّهبيّة والفضيّة وهي تسمّى الصّارمة[2].

ولقد أورد أيضا فونتير دي بارادي دباغة الجلود ذات الألوان الصّفراء، السّوداء، البنفسجيّة والحمراء... وقال عنها بأنّها تسمى بالجلود المدبوغة[3].

وذكر هذا القنصل بعض استعمالات الجلود، وقال هناك منها ما يستعمل للأحذية وتسمّى النّعل، وكذلك تستعمل لأحذية النّساء وحافظات النّقود، وبعض الأكياس الباهضة ولها حواشي مذهّبة وفضيّة، وقال بأنّ أنواع حافظات النقود تسمى جيوسدان Giusdan، بينما الأكياس تسمى بالاسكا Palasca، وهي تصدّر كثيرا إلى المشرق، كما تصنع في المدينة البساطات لكنّها قصيرة، إذا ما قورنت

---

[1]- Venture de Paradis, **Tunis et Alger…**,op.cit, p120.

[2]- Ibid, p121

[3]-Ibid, p122.

ببساطات قرمان (بالأناضول)، كما توجد الأغطية الصّوفيّة المسمّاة الحايك[1]، يتضح في هذا التّقييد الّذي دوّنه فونتير دي بارادي أنّ مدينة الجزائر نالت شهرة واسعة في مجال المنسوجات، ولعلّ العنصر الأندلسي الّذي وفد إلى المدينة كان له دور مميّز في ازدهار ورواج العديد من الحرف[2].

وأمّا التّجارة فيقول فونتير دي بارادي أنّ المدينة تصدّر من ميناءها الحبوب (القمح والشعير)، وكلّ أنواع الخضر باستثناء الفاصوليا البيضاء، كما تصدّر أيضا حمولات من الزّيت والشّمع والصّوف والجلود، يقول البايلك يشتري الصّوف ب8 بياستر ويبيعها ب10 بياستر، كما أنّ الصّوف المأخوذة من الرّؤوس الّتي تذبح في المدينة تستعمل كأغطية للأسرى واليولداش، والباقي منها تباع، بينما الجلود لديها خوجة خاص بها وكذلك الصّوف[3]، وهو الأمر الّذي يثبت احتكار الدّولة لتجارة هاتين المادّتين (الجلد والصّوف)...، وغيرها كالشّمع وحتّى القمح، وهذا ما لمسناه في تأليف وليام شالر القنصل الأمريكي في الجزائر[4].

يقول فونتير دي بارادي: كلّ الحرف في مدينة الجزائر لديها أمينها، وهذا الأخير هو الّذي يضبط السّعر لسلعته، وهو معيّن من طرف الدّاي[5]، وقد أورد صاحب تأليف **قانون أسواق مدينة الجزائر** معلومات في غاية الأهميّة عن الحرف وأمنائها من جهة، والأسواق وأنواعها من جهة أخرى وعن كيفيّة تحديد أسعار السّلع والمعروضات في المدينة[6].

وبما أنّنا بصدد الحديث عن الأسواق والحرف، فيبدو أنّ محمّد أبو راس في رحلته **فتح الإله ومنّته** كان يحاور عبد الرّحمن البدوي القرومي في حانوت بعض الطّلبة على حدّ ذكره[7]، للدّلالة على أنّ الحانوت كانت به بعض الأحاديث العلميّة والدّينيّة على غالب الظّنّ.

يفيدنا الأسير الهولندي جيريت ميتزون ببعض الحرف الّتي كان يقوم بها العبيد (الأسرى)، وهي

---

[1]-Venture de Paradis, **Tunis et Alger…** ,op.cit, p122.

[2]- عائشة غطّاس، **الحرف والحرفيّون بمدينة الجزائر (1700-1830) مقاربة اجتماعيّة واقتصاديّة** منشورات ANEP، الجزائر، ص229.

[3]- Venture de Paradis, **Tunis et Alger…,**op.cit, pp123-124.

[4]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص101.

[5]-Venture de Paradis, **Tunis et Alger…,**op.cit, p138.

[6]- عبد الله بن محمّد الشّويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ\ 1695-1705م)**، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدّين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

[7]- محمّد أبو راس، **فتح الإله ومنّته** ...، المصدر السّابق، ص92.

الحدادة، النجارة، البنّاء وصناعة الأقلعة، ويبدو أنّها حرف كانت تابعة للبايلك[1]، غير أنّ هناك الكثير من البنّائين من كانوا أندلسيّين، ومنهم حتّى من كان ينتسب إلى الأوجاق أو الجيش الانكشاري[2]، وحتّى إلى بقيّة الحضر.

لقد أفرد وليام شالر عنصرا خاصّا بالصّناعة في مدينة الجزائر، وهو بذلك يقصد الحرف الّتي كانت متداولة حينها (ق19م)، وأشاد بأنواع المصنوعات الجزائريّة من الحرير والصّوف والجلود، وقال في شأنّها: "المنتجات الجزائريّة أجمل وأمتن، وألوانها جميلة ودائمة، وعلى العموم لا توجد بضاعة أوروبيّة تفوق المنتجات الجزائريّة في هذا المجال..."[3]، وهو اعتراف يحمل في طيّاته الصّدق والحقيقة، لأنّ العديد من المصادر من اهتمّت بهذا الشأنّ ذكرت ذلك[4].

ومن المشاهد الواجب ذكرها الّتي أوردها وليام شالر في تأليفه عن الشّارع الرّئيسي في المدينة والّتي تعرض فيه مختلف السّلع، قال: «هناك نشاهد إسكافيّا يعكف بوقار... وقد جلس القرفصاء على الأحذية الّتي يصنعها وكلّها في متناول يده بحيث لا يحتاج إلى النّهوض...»[5]، كما ذكر وجود المقاهي الرّئيسيّة ودكاكين الحلّاقين بهذا الشارع.

والجدير بالذّكر أيضا أنّ وليام شالر سجّل ملاحظاته وانطباعاته في شأنّ صادرات وواردات الجزائر بالدّولار الإسباني، وعلّق على عجز الميزان التّجاري بمبالغ ضخمة (937000 دولار)، وقال بأنّه استقى معلوماته من وثيقة رسميّة، غير أنّنا لا نرى في ذلك تدليسا أو افتراء بحكم تراجع العائدات البحريّة ومداخيل الدّولة حينها.

وممّا تجدر الإشارة إليه في شأن رحلة عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني، أنّه حينما حدثت حملة اللّورد إكسماوث على المدينة سنة 1816، لم يكن هناك لا بيع ولا شراء، وعامّة أهل المدينة كانوا في همّ وغمّ وغاية في الخوف من رجوع ذلك النّصراني، على حدّ قوله، لكن بعد حدوث الصّلح همّت طائفة من البنّائين في حدود سبعين معلما للبناء وأربعة عشر مائة خديم في إصلاح ما هدّمته حملة اللّورد

---

[1]- جيريت ميتزون، المصدر السّابق، ص31.

[2]- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص ص233-235.

[3]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص93.

[5]- M Emerit**, les Quartiers Commerçants d'Alger a l'époque turque**. In Revue Algérie, N°25, 1952, PP6-13.

[5]- وليام شالر، المصدر السّابق، ص97.

إكسماوث[1]، دون تحديده لأسماء المعلمين أو عائلاتهم، لكن فيما يبدو أنّ هناك عائلات أندلسيّة تصدّرت جماعة البنّائين ومنها نذكر: عائلة الثّغري وعائلة اليعلاوي وهي عائلة محليّة تعاطت حرفة البناء منذ الثّلاثينات في القرن 17م، وأيضا عائلات أخرى مثل تعباست، الدّيملي، العيشاوي، القشطولي، البودواوي والخمراوي... وغيرها، وهي عائلات محليّة، وما يلفت الانتباه هو غياب العنصر التّركي والكرغلي في جماعة البنّائين[2].

وما لمسناه في رحلة الضّابط الألماني شونبيرغ هو سيطرة التّاجر والصراف اليهودي بوجناح على الشّؤون اليوميّة خصوصا أيّام الدّاي مصطفى، هذا الأخير الّذي وضع ثقته في ذاك التّاجر اليهودي، أمّا أيّام الدّاي حسين خوجة (1818-1830)، فلم تعد محاصيل الحبوب والزّيتون تكفي لسدّ حاجيات البلاد وبذلك زادت واردات الجزائر من المواد الغذائيّة والألبسة، في حين أنّ صادراتها كانت تتمثّل في الصّوف، الجلود، الشّمع ومنتجات أخرى صغيرة[3]، وهي نفس المنتوجات الّتي كانت تحتكر التّجارة فيها من قبل، مثلما ذكرته مصادر أوروبيّة اهتمّت بهذا الشّأن.

ولنا في شأن الحياة الاقتصاديّة عدّة صور من رسم ليسيور وويلد لتاجر مغربي، الصّبّاغ، الخرّاط وكذا وصف الدّكاكين وسوق باب عزّون... وبجانب كلّ رسم وضعا تعليقهما الخاص[4]. وسندرج رسوماتهما في ملاحق خاصّة.

ونختم حديثنا عن الأسواق والحرف الّتي هي مظهر من مظاهر الحياة الحضريّة في شقّها الاقتصادي، بالتّأكيد على التّنوّع والتّعدّد في هذا المجال، الّتي اعترفت به بعض مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة على حدّ سواء بهذين الجدولين[5]:

---

(1)- عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص ص213-214.

(2)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص233.

(3)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص75.

(4)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص7 وص23 وص22 وص7 وص21.

(5)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص ص208-209.

سوق البابوجيّة.	سوق السّمن.
سوق البادستان.	سوق الشّبارليّة.
سوق البرادعيّة.	سوق الشّمّاعين.
سوق البشماقجيّة.	سوق الصّاغة.
سوق البلاغجيّة.	سوق الصّبّاغين.
سوق التّماقين.	سوق الصّفارين.
سوق الجديد.	سوق العطّارين.
سوق الجرابة.	سوق العطّارين لليهود.
سوق الجمعة.	سوق الغرابليّة.
سوق الحاشية.	سوق الغزل.
سوق الحدّادين.	سوق الفرارية.
سوق الحرارين.	سوق الفكاهين.
سوق الحصارين.	سوق القبايل.
سوق الحلفاويّين.	سوق القزازين.
سوق الحوّاتين.	سوق القنداقجيّة.
سوق الخرّاطين.	سوق القيصريّة.
سوق الحزازين.	سوق الكبابطية.
سوق الخضّارين.	سوق الكبير.
سوق الخيّاطين.	سوق الكتّان.
سوق الدّبّاغين.	سوق الكساكسيّة.
دار الدّباغة.	سوق الملّاحين.
سوق الدّلالة.	سوق المقايسيّة.
سوق الدّيوان.	سوق المقفولجية.
سوق الذّكير.	سوق اللّوح.
سوق السّراجين	سوق السّمّارين.
سوق السّرارية.	

- أسواق مدينة الجزائر السّفلى الموجودة من باب عزّون إلى باب الواد وحولهما:

1- أسواق المهن والحرف اليدويّة:	
- سوق البرادعيّة.	- سوق السّراجين.
- سوق الحاشية.	- سوق السّمّارين.
- سوق الحدّادين.	- سوق الشّبارلية.
- سوق الحلفاويّين.	- سوق الصّفارين.
- سوق الخراطين.	- سوق الطّماجين.
- سوق الخياطيّن.	- سوق القبابطيّة.
- سوق الذّكير.	- سوق القنداقجيّة.
- سوق الرّقاعين.	

2- أسواق السّلع والمواد الغذائيّة:	
- سوق الجرابة.	- سوق الفكّاهين.
- سوق الخضّارين.	- سوق القبايل.
- سوق الدلالة.	- سوق الكبير.
- سوق الزّرع (رحبة الشعير).	- سوق الكتّان.
- سوق السّمن.	- سوق الملّاحين.
- سوق العطّارين.	- سوق رحية الفحم.

أسواق وسط المدينة:

1- أسواق المهن والحرف اليدويّة:	
سوق البشماقيّة، البلاغجيّة، الحزازين، العطارين، الحياكة، الذّوابة، الرّصايصيّة، الشّمقاجيّة، الشّمّاعين.	الصّبّاغين، الصّياغة، الغزل، الفراجة، الفرارية، القزازين، المقايسية، المقفولجية، زنقة النّحاس.

2- أسواق السّلع والمواد الغذائيّة:	
بادستان، سوق البحر، سوق الجديد، الحوّاتين، الخضّارين.	الدخان، القيصريّة، اللّوح، زنقة الدّيازين.

يبدو أنّ مدينة الجزائر عرفت العديد من المهن التّقليديّة والحرف اليدويّة، وكانت تمثّل نشاطا مهمّا يعتمد على مهارة اليد والتّقاليد المتوارثة، وإنّ انتشار معظم المشاغل اليدويّة والمهن التّقليديّة في أزقّة عرفت بأسماء الصّناعات التي احتضنتها يراقبها العديد من موظّفي البايلك (المحتسب، شيخ البلد، الأمين...)[1]، وهذا دلالة على مراعاة نظام التّخصّص في السّلع والحرف والّذي يعتبر من الخصائص المميّزة للمدينة العربيّة، وقد اعتبر أحد القواعد السّارية على الحياة الاقتصاديّة بمدينة الجزائر[2]، مع وجود بعض الاستثناءات في أماكن معيّنة من السّوق.

إنّ تنظيم وهيكلة السّوق بصفة عامّة، تعكس تردّد الفئات الاجتماعيّة على الورشات الحرفيّة والأسواق الّتي تعرض موادا أكثر استعمالا، فمثلا ما يحتاجه سكّان الرّيف، عادة يعرض بالقرب من أبواب المدينة لتسهيل الاقتناء، وهذا ما يعرف بأسواق الأطراف، ومنه تتّضح علاقة المدينة بالرّيف أو العكس[3].

---

(1)- عبد الله بن محمّد الشّويهد، المصدر السّابق، ص ص26-27.

(2)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص204.

(3)- الواليش فتيحة، **الحياة الحضريّة في بايلك الغرب الجزائري خلال ق18**، مذكّرة ماجستير التّاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1993-1994، ص96.

3-الفنادق مشهد من مشاهد الحياة الاقتصادية:

إنّ الفنادق منشآت متخصّصة في التّجارة الكبرى، والبيع بالجملة، وغالبا متخصّصة في بيع وعرض سلعة واحدة، وهي تتميّز بتنظيم شبيه بتنظيم الطّوائف إلى حدّ ما، وكذا الحرف في المدن العربيّة[1]، لذلك اهتمّت بذكرها العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة منها على وجه الخصوص، والّتي فصلت في شأنها أكثر من مصادر الرّحلة العربيّة، فرغم اعتراف الوزّان بأنّ بالمدينة عددا من الفنادق[2] إلاّ أنّه لم يقدّم وصفا لها ولم يحدّد ذاك العدد الّذي كانت عليه سنة 1516.

ومن دون شك فإنّ الفنادق يتوجّه إليها المسافرون ويحطّ بها التّجّار رحالهم ويتّخذون بعض غرفها مستودعات لسلعتهم[3]، وهناك من التّجّار من يكتري بيتا للإقامة فيه على حدّ ذكر الأب دان[4]، والّذي صرّح بعدم وجود فنادق أو أمكنة إقامة للتّجّار، ونحن في هذا المقام نستغرب من جدوى هذا التّصريح والنّبأ، لأنّ الفنادق وجدت قبل رحلة الأب دان إلى مدينة الجزائر.

ومن بين الرّحّالة الّذين قدّموا وصفا لهذا المرفق، هو الفرنسي شوفالييه دارفيو سنة 1676، الّذي قال في شأنها بأنّها بنايات كبيرة، مربّعة، يقيم فيها التّجّار الأجانب وهي كثيرة، بسبب وجود الأفراد الّذين يأتون إليها دوريّا لأجلّ بيع سلعتهم[5].

أمّا الرّحّالة الإنجليزي الطّبيب شو فقد دوّن في شأنّ هذا المرفق ما يلي: "تضمّ المدينة العديد من الفنادق، وهي عبارة عن هياكل سكن كبيرة خاصّة، وتحوي ساحات عديدة وغرفا للكراء وكذا ورشات، والتّجّار المشارقة (الأتراك وغيرهم) يقصدونها، والقادمون بالبضاعة إلى مدينة الجزائر يقيمون بها، أين يجدون كلّ الضّروريّات لتجارتهم وإقامتهم، بالإضافة إلى ذلك يقيم فيها بعض الجنود ويستأجرون غرفا في هذه الفنادق على حسابهم الخاص[6]، وهي نفس معلومات القنصل دي تاسي، والّذي يقرّ بوجود أربعة فنادق[7].

---

(1)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص217.

(2)- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص37.

(3)- عبد الله بن محمّد الشّويهد، المصدر السّابق، ص32.

(4)-P.P.DAN, op.cit, p89.

(5)-Chevalier D'Arvieux, op.cit, p 224.

(6) -Thomas show, op.cit, p291.

(7) -Laugier de Tassy, op.cit, p105.

يتّضح من تصريحات الدّكتور شو أنّ بالفنادق ورشات، وهي عادة لا تعكس تسمية الفندق، فمثلا فندق الزّيت وجدت به عدّة ورشات لصناعة الحرير والصّباغة، كمّا أنّ هناك بعض الفنادق عرفت بأسماء أصحابها[1]، وهذا ما لم نجد له أثرا في مصادر الرّحلة، بل تنبّئنا به الوثائق والمحفوظات الأرشيفيّة.

لقد صرّح أيضا المبعوث الإسباني دالنسو كانو في شأنّ الفنادق، بأنّها موجودة في المدينة وعددها أربعة، وهي عبارة عن منازل كبرى، تحوي دكاكين وسكنات مخصّصة لبعض الخواص، وهي تجؤر للتّجار المشارقة وبعض منافسيهم، يتمّ فيها عرض السّلع بالجملة لاستبدالها أو بيعها مثلما هو الحال في المعارض والأسواق[2].

وعليه فمن غير الممكن أنّ يظلّ عدد الفنادق ثابتا مابين رحلة دي تاسي (1718) ودالنسو كانو (1768)، ومن الدّراسة الّتي قامت بها عائشة غطّاس عن الحرف والحرفيّين في المدينة ما بين (1700-1830)، وجدت أنّ عدد الفنادق بالمدينة كان 45 فندقا[3]، وهي متواجدة في وسط المدينة وحول أبوابها، أين يكثر النّشاط والحركة (باب عزّون، باب الواد، باب الجزيرة، الشّارع الرّئيسي في المدينة)، ولنا في هذا الشأنّ أنّ نسوق قائمة لأهمّ الفنادق الّتي كانت موجودة في مدينة الجزائر[4]:

اسم الفندق:	ملاحظة:	اسم الفندق:	ملاحظة:	اسم الفندق:	ملاحظة:
-	-	فندق اللّباد.	-شرق المدينة.	-فندق	-وسط
فندق الحديد.	ناحية باب	-فندق الهوى.	-شرق المدينة.	الغراريّة.	المدينة.
-	عزّون.	-فندق	-شرق المدينة.	-فندق	
فندق أسفل	-	المارستان.		الشّمّاعين.	-وسط
جامع ميزو	ناحية باب	_فندق	-شرق المدينة.	-فندق القهوة	المدينة.
مورتو.	عزّون.	السّراجين.		الكبيرة.	
- فندق		-فندق	-شرق المدينة.	-فندق	-وسط
العزارة.	- ناحية باب	البرادعيّة.		الدّروج.	المدينة.
-	عزّون.	-فندق	-شرق المدينة.		

(1)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص217.

(2)- D'Alonso Cano, op.cit, p64.

(3)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص ص219-220.

(4)- محمّد بن عبد الله الشّويهد، المصدر السّابق، ص ص32-33.

<table>
<tr><td>فندق الحاج حسين.
– فندق باب عزون.</td><td>– ناحية باب عزّون.
– ناحية باب عزّون.</td><td rowspan="2">الفكاهين.
–فندق بكي مسلمان.
–فندق الزّيت.
–فندق الروز.
–فندق علي بتشين.</td><td rowspan="2">–شرق المدينة.
–شرق المدينة.
–شرق المدينة.
–شرق المدينة.</td><td></td><td>–وسط المدينة.</td></tr>
<tr><td>الفندق الجديد.
– فندق الخطيب.
–فندق حي لالاهم.
–فندق باب الواد.
– فندق القشّاش.</td><td>–والّذي نزل به التّنلاني.
–ناحية باب الوادي.
–ناحية باب الوادي.
–ناحية باب الوادي.
–ناحية باب الجزيرة.</td><td>–فندق المحتسب.
–فندق الكرموس.
–فندق السوق الجديد.
–فندق الشبارلية.
–فندق الدّيوان.
–فندق المراحين.
–فندق كتشاوة.</td><td>النّاحية الوسطى.
النّاحية الوسطى.
النّاحية الوسطى.
–النّاحية الوسطى.
النّاحية الوسطى.
النّاحية الوسطى.
النّاحية الوسطى.</td></tr>
</table>

لقد اكتفى الأسير الأمريكي كاثكارت بالإشارة إلى وجود عدد من الفنادق في مدينة الجزائر، الّتي كان يقيم بها بعض المتقاعدين من الجيش والأتراك المتزوّجين[1]، في حين أنّ الزّياني أثناء عودته من المشرق نزل بأحد الفنادق وسمّاه بيتا، إلّا أنّه لم يحدّد لا اسمه ولا مكان تواجده[2]، ولهذا الإغفال ما يبرّره، منه ما هو متعلّق بشخص الرّحّالة وميوله والهدف من رحلته.

---

[1]– جيمس ليدر كاثكارت، المصدر السّابق، ص100.

[2]– أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص374.

كما تفيدنا الإشارة الّتي وردت في رحلة عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني حينما حلّ بمدينة الجزائر سنة 1816 أنّه نزل في الفندق الجديد بباب عزّون واكترى فيه بيتا[1]، دون ذكره لأوصافه، وهذا النّقص والغموض الّذي يكتنف هذا الجانب تكمّله أيضا الوثائق الأرشيفيّة، والّتي تبيّن من خلالها أسماء الفنادق وخصائصها ولواحقها وعدد غرفها وبيوتها، فمثلا فندق المرجاني الواقع بكجاوة كان سنة 1736 لاكتراء الانكشاريّين دون غيرهم (المتزوّجين والمتقاعدين)، وكانت هناك حوالي إحدى عشر غرفة بفندق المحتسب في اكترائهم أيضا. كما كانت الفنادق مكان إقامة القادمين من المناطق الدّاخلية وبعض ممّن يزاولون مهنا متواضعة (كالحمّالة مثلا)، واختلفت أسعار الغرف في الفندق الواحد بين 8 و10 ريالات، كما خصّصت بعض الفنادق لأغراض محدّدة، كفندق المكاويّين الّذي خصّص لإقامة الحجّاج المارّين بمدينة الجزائر[2]، وعلى غالب الظّنّ أنّ هذا الفندق (المكاويّين) كان محلّ استقبال كلّ من ابن المسيّب التّلمساني والزّياني أبي القاسم في رحلتيهما.

وقد قدّم كلّ من ليسيور وويلد رسما دقيقا لفندق البحريّة في رحلتيهما إلى الجزائر بعد سنة 1830، وكان يعدّ من أكثر بنايات المدينة أناقة وميزة[3]، على حدّ تعليقهما، ويبدو حسب التّسمية أنّه يقع في حي البحريّة (أسفل المدينة)، وبالقرب من باب الجزيرة، وعلى غالب الظّنّ أنّه كان يقيم فيه الوافدون إلى المدينة عن طريق البحر، واكتراء الغرف في الفنادق يحتاج إلى وسيلة مهمّة لأجل هذا الغرض وهي النّقود، الّتي تعتبر زادا قويّا تحقّق الحاجات بواسطتها وتقضى الأغراض

4-النّقود المستعملة في المدينة:

إنّ أوّل شهادة عن بدايات العملة العثمانيّة في مدينة الجزائر[4]، هي الّتي صرّح بها حسن الوزّان سنة 1516، بعد مجيء بربروس الّذي نودي به ملكا فضرب السّكة، وأذعن له جميع السّكّان بالطّاعة وأرسلوا إليه الخراج[5]، لكنّ الوزّان لم يحدّد لا اسم السّكّة ولا نوعها ولا قيمتها...، وعلى ما يبدو كان هذا بعد1516، أي بعد استقرار عرّوج في مدينة الجزائر.

---

(1)- عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص209.

(2)- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص218.

(3)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص32.

(4)- المنوّر مرّوش، **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل**، ج1، دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2009، ص35.

(5)- الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص39.

إنّ أقدم قطعة نقدية مضروبة في مدينة الجزائر في العهد العثماني كانت باسم السّلطان سليم الأوّل، وتحمل تاريخ 918هـ/ 1512م وهو تاريخ تولّيه السّلطة[1]، ولعلّ هذا ما كان يقصده الحسن الوزّان.

وبقدر ما اعترف مارمول كاربخال بغنى مدينة الجزائر في رحلته، الّتي قال عنها بأنّ الأتراك هم الّذين زادوها تلك الثّروة بفضل ما وقع في أيديهم من غنائم أخذوها من النّصارى[2]، بقدر ما أهمل ذكر النّقود، ومن دون شكّ فإنّ من هذه الغنائم النّقود الأوروبيّة المتنوّعة حسب بلدان القارّة، ففيها الذّهب والفضّة... وغيرها مثل النّحاس والمعادن الأخرى.

ولعلّ أول من وصف بعض القطع النّقديّة في مدينة الجزائر وتحدّث عنها، هو الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي الّذي ذكر بأنّ الحجل كان يباع في مدينة الجزائر بأربع دنانير، وهي عملة فضيّة صغيرة بشكل مربّع[3].

في حين أنّ الرّحّالة التّمقروتي في رحلته **النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركية** حينما مرّ على مدينة الجزائر وأقام فيها مدّة، تعرّضت في نفس الفترة سفينتان جزائريّتان للقرصنة من طرف النّصارى، فقيل له أنّ الّذي كان في السّفينتين ألف ألف مثقال، وذكر له آخر أنّه 18 قنطارا ذهبا...[4]، على ما يبدو أنّ الأموال الّتي كانت على متن السّفينتين المتوجّهتين حينها إلى إسطنبول، كانت كثيرة جدّا وفيها جزء كبير كان يمثّل هدايا للسّلطان من طرف حكّام الجزائر، ومنها النّقود الذّهبيّة، وقد عثرنا على نوع من النّقود في عقود بيع[5].

لم نعثر على معلومات قيّمة عن النّقود والعملة في مدينة الجزائر في رحلة الأب دان ولا في رحلة توماس هيز، وإن ذكر بعض القطع النّقديّة فحديثها كان في السّياق لا أكثر ولا أقل[6]، فمثلا توماس هيز تحدّث عن قطعة الثّمانية وهي سكّة فضيّة قيمتها 8 ريالات.

---

(1)- المنوّر مرّوش، المرجع السّابق، ص36.

(2)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص362.

(3)-Nicolas de Nicolay, op.cit; pp17-18.

(4)- الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص91.

(7)- Saadeddine Bencheneb, **"Un Acte de Vente dressé a Alger en 1648"**, in R.A. année , pp287-290.

(6)- P.P.DAN, op.cit, et Thomas Hees, op.cit, pp98-111.

إنّ الفائدة الّتي لمسناها في المعلومات القيّمة الّتي دوّنها الأسير الإسباني هايدو في شأنّ النّقود، تفرض علينا ذكر ما سجّله في هذا الشّأن حيث قال: النّقود في مدينة الجزائر تتكوّن من قطع نحاسيّة، فضيّة وذهبيّة، وبالنّحاس تصك نقود رديئة ومتدنيّة القيمة وهي الّتي تسمّى خرّوبة بورب Bourbe، وهي دائريّة وكبيرة تشبه البلانكا blanca أو سونتيل البرتغال، وستّة منها تعطينا آسبر[1]. (6 خروبة= 1آسبر)، الآسبر Aspre قطعة نقديّة فضيّة، وهي كبيرة (مثل ربع البلانكا)، وهي بشكل مربّع، عشرة منها تعطينا ريال إسباني، وفي بعض الأحيان 11 أو12 تعطينا ريال[2]. ويقول هايدو تصك في الجزائر الآسبر والخروبة فقط.

ثمّ تأتي الرّوبية (الرّبيعة)"rubia"، وهي نقد ذهبي، فيها كثير من النّحاس وقيمتها متدّنية جدّا، وهي تساوي 25 آسبر، وهي بشكل دائري (وهي بكبر قطعة ريال صغيرة بسيطة).

بعد ذلك تأتي القطعة النّقديّة نصف الزّياني، وهي كذلك ذهبيّة مشوبة بالنّحاس تساوي 2 ربيعة أو 50 آسبر، والزّياني يساوي 100 أي في حدود 2دوبلا، الرّبيعة والزّياني تصكان في تلمسان، وتؤخذ من طرف العرب باسم السّيّد الّذي قام بصكّها، وهي سارية في كامل المملكة إلى غاية بسكرة والصّحراء المتاخمة لحدود السّود، وكذلك في الشّرق إلى غاية تونس، وهي أيضا سارية في مملكة كوكو وبني العباس[3].

وهناك القطعة النّقدية السّلطاني، وهي ذهب خالص وكلّ واحد سلطاني يساوي 140 آسبر، وهو يصكّ في الجزائر فقط، وفي إسبانيا يقول هايدو بأنّ السلطاني يساوي 125 آسبر، وجعفر باشا (سيّد الجزائر) رفعها إلى 130 آسبر سنة 1580. كما ذكر وجود قطعة نقديّة أخرى هي الأيكيس "ecus"، وقال بأنّ لديها محاسن أكثر، لأنّها قليلة ونادرة وأيكيس فرنسا أو صولاي Soleil، وكذلك نقود إيطاليا لها تقريبا نفس القيمة، لكن المستعملة كثيرا في مدينة الجزائر هي الإسبانيّة.

سكّة السّلطاني القسطنطينيّة تساوي 150 آسبر ومثقال فاس 175، لكن جعفر باشا في سنة 1580 رفع السّلطاني إلى 175 آسبر والمثقال إلى 225، لأنّ هذه النّقود قليلة الوجود في الجزائر، والملاحظة الأخيرة الّتي دوّنها هايدو تستحقّ الذّكر والتّحليل، وهي أنّ كلّ هذه القطع النّقديّة (الرّبّو،

---

(1)- Diego de Haedo, **Topographie…,**op.cit, p120.

(2)- Ibid, p130.

(3)- Ibid, p130.

الأيكيس، السّلطاني...) لديها قيم غير مؤكّدة وغير واضحة، لأنّ باشوات الجزائر يرفعون من قيمتها كما ينزلونها أحيانا، وهذا تبعا لمتطلّبات كلّ وقت (الشّدّة والرّخاء)[1].

ومن مصادر الرّحلة الأوروبيّة الّتي اهتمّت بشأنّ النّقود والعملة الّتي كانت متداولة في مدينة الجزائر هي **وصف إفريقيا** لألفرد دابر في النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر، حيث ذكر بأنّ النّقود الّتي كان التّجّار يتعاملون بها هي تقريبا نقود أجنبيّة مثل السّلطاني الذّهبي التّركي (لعلّه يقصد سكّة السّلطاني القسطنطينيّة) والّتي تساوي 1دوكة، ومثقال فاس الّتي تساوي 20صول هولنديّة، بتسولي والرّيال الإسباني، الأيكيس الفرنسي، دوكة هانغاريا... لكن العرب والموريّين لا يتعاملون إلّا بالأيكيس أو بستولي أو الرّيال الإسباني[2]، وهذا ما يبرر هيمنة الرّيال الإسباني في التّعاملات اليوميّة في مدينة الجزائر الّتي أكّدها المنوّر مرّوش، في تأليفيه **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل**[3].

والمتصفّح لرحلة ألفرد دابر يجد أوصافا للقطع النّقديّة وقيمتها حيث ذكرها كالآتي:

أ- الخرّوبة(burbas): تحمل سلاح نائب الملك على الجهتين (ستّة منها تعطينا 1أسبر).

ب- الآسبر(Aspres): نقود صغيرة فضيّة مربّعة، مسجّل عليها أحرف عربيّة (15 منها تعطينا 1ريال إسباني و24هي دوبلا (doubla)، والدّوبلا قطعة فضيّة أكثر بقليل من الأيكيس).

ج- النّقد الذّهبي مصكوك في تلمسان ومنها: (الرّبيعة) Rubies والّتي تساوي 35 آسبر، والميديان (Medians) والّتي تساوي 50 آسبر، بينما الزّياني تساوي 100 أسبر.

هذه القطع النّقديّة الثّلاثة تحمل اسم نائب الملك، مسجّل عليها بعض الأحرف الموريّة، وهي مستعملة في ممالك كوكو وبني العبّاس، وهي نقودهم المفضّلة، والزّياني هي العملة القديمة لملوك تلمسان، ولهذا السّبب تضرب هناك، واليهود هم الّذين يراقبون العملة الجزائريّة، ويقدّمون للباشا مبلغا في هذا الإطار[4].

إذا قمنا بمقارنة ما أورده هايدو عن العملة سنة 1580، وما دوّنه ألفرد دابر عنها سنة 1686

(1)- Diego de Haedo, **Topographie…,**op.cit, p130.

(2)- Alfred D'Apper, op.cit, p178.

(3)- المنوّر مرّوش، المرجع السّابق، ص39.

(4)- Alfred D'Apper, op.cit, p178.

يتّضح أنّ عدم الاستقرار لهذه العملات (النّقود) كان سمة تكاد تكون بارزة، وهذا ما ناقشه وأثبته الباحث الجزائري المنوّر مرّوش[1].

كما زوّدنا الفرنسي بوتي دولاكروا بمعلومات في غاية الدّقّة عن العملة والنّقود في مدينة الجزائر سنة 1695، حيث أنّه وأثناء حديثه عن ثروة أحد الباشوات ذكر اللّيرة والسّكّة الذّهبيّة، وحدّد سعر كلّ وسيلة كان يملكها الباشا (الخناجر، السّيوف والخوذات...)، وأكدّ على أنّ هذه الثّروة والذّهب والفضّة إنّما يتحصّل عليها أسياد المملكة من عمليّاتهم البحريّة[2]، وعلى غالب الظّنّ هي تحوي نقودا لدول أوروبيّة عديدة.

ولقد ذكر بوتي دولاكروا النّقود في إطار رواتب موظّفي المؤسّسة العسكريّة وغيرهم، فقد قال: مرتب الباشا هو 1.500 إيكيس خلال شهرين، مرتب المعزول آغا يتوقّف عند 106 ايكيس في العام، المفتي الموري لديه حوالي 1.300 إيكيس في السّنة، راتب الجنود يقدّم خلال شهرين بالآسبر ونصف البياستر الإسبانية المسمّاة باتاك كورد patapue courde، وإنّ هناك عددا من اليهود يحضرون عمليّات توزيع رواتب الجند وتكون عندهم حزم من الآسبر بقيمة البياستر، وأصغر راتب هو ثلاثة آسبر (أو ثلاثة ليارد) في اليوم، وهي ترتفع فيما بعد خلال كلّ سنوات الخدمة[3].

وفي نفس الشّأن يقول بوتي دولاكروا أنّ المزوار يأخذ واحد إيكيس خلال شهر، وأنّ الآسبر الفضيّة تساوي 232 لإيكيس واحد، لكنّ الإيكيس الإسباني يسمّى باتاك (pataque) له 20 بالمئة من قيمة إيكيس البلد، والّذي يملك الاسم ولا يملك النّوع[4]، وعلى الرّاجح هذا له علاقة بوزن النّقد والمادّة الّتي يصنع منها. ويردف بوتي دولاكروا قائلا عن العملة، أنّ هناك السّكة الفضيّة والّتي تساوي 2 إيكيس ونصف أمّا البستولي الإسباني فتساوي 5 إيكيس في البلد إلاّ ربع، ويؤكّد بأنّ اليهود هم الّذين ينكرون في النّقود[5].

والملاحظة الواجب ذكرها في هذا الشّأن، والّتي ردّدها بوتي دولاكروا أنّ من بين أسباب وفاة شعبان خوجة سنة 1695، هو اقتطاعه من رواتب الميليشيا في حدود البياستر الإسباني السيفلاني،

---

[1]- المنوّر مرّوش، المرجع السّابق، ص ص38-47.

[2]- Marcel Emerit, **"un mémoire sur Alger…"**,op.cit, p09.

[3]- Ibid, pp13-15.

[4]-Ibid, pp16-22.

[5]-Ibid, p21.

وكان الجنود غالبا ما يأخذون راتبهم بالبياستر الجزائري (وكان هذا يقدر 58 صول أي بمعنى 20 بالمئة أحسن من نقود الجزائر)[1].

لقد تبيّن في رحلة الآباء لافتداء الأسرى حوال 63 أسيرا بتاريخ 27 ديسمبر 1720، أنّهم أخذوا كميّة من النّقود عند مقابلتهم للدّاي، هذا الأخير الّذي اقترح مبلغ 3 آلاف بياستر، والآباء عرضوا 500 بياستر فقط[2]، إلى أن تمّ الاتّفاق بينهما على مبلغ الافتداء.

وممّا تجدر الإشارة إليه في شأن النّقود المستعملة في مدينة الجزائر، ما صرّح به الفرنسي دي تاسي، والّذي بدوره سجّل معلومات في غاية الأهميّة عن أنواع النّقود وكذا أوزانها وقيمتها، ويتّفق مع هايدو وألفريد دابر بأنّ النّقود الّتي تصكّ في الجزائر هي السّلطاني الذّهبي والآسبر، وهناك العديد من النّقود الأجنبيّة مستعملة في المدينة وهي: سكّة البندقية (Vinitien)، سلطاني المغرب، النّقود الذّهبيّة البرتغاليّة، بستولي إسباني والبياستر من كلّ الأوزان، وقيمة هذه الأنواع غير ثابتة، غير أنّ الباتاك شيك pataque chic هو النّقد الثّابت أو الباتاك آسبر، وهي مثل الفرنك أو اللّيرة، وهي تساوي دائما 20 صول، وهذه الباتاك تساوي دائما 232 آسبر، وهناك تلت بياستر تسمّى باتاك كورد pataque courde وهي بوزن 2 بستولي ونصف[3].

وارتأينا في هذا المقام أنّ نقدّم ما ذكره دي تاسي عن النّقود والعملات، وما يقابلهما أيّام تواجده بالمدينة (1718) في جدول متميّز وهو كالآتي:

جدول يوضح نوع النقد وقيمته حسب ما أورده لوجي دي تاسي[4]:

الرّقم	نوع النّقد	قيمته
1-	-سلطاني جزائري (أو مغربي).	تساوي 2 بياستر و4 ريو.
2-	_سكة (Vinitien).	تساوي 2 بياستر و6 ريو.
3-	-كريزاد برتغالية (crusade).	تساوي 7 بياستر.
4-	-بستولي إسباني (Pistolet ISP).	تساوي 4 بياستر و4 ريو.
5-	-بياستر سيفلاني أومكسيكي.	تساوي 3 باتاك و7 تيمن.

---

(1)- Marcel Emerit, **" un mémoire sur Alger…"**, op.cit,, p22.

(2)- Camelin Francoi et autres, op.cit, pp135-136.

(3)- Laugier de Tassy, op.cit, pp149-150.

(4)- Ibid, p150.

6-	-بياستر (وزن ليفورن).	تساوي 3 باتاك و6 تيمن.
7-	-بياستر (وزن تونس).	تساوي 3 باتاك و4 تيمن.
8-	-باتاك كورد (بياستر جزائرية).	تساوي 3 باتاك.

من خلال هذا الجدول يتّضح تنوّع العملة في مدينة الجزائر، مع تنوّع قيمتها، فمنها الذّهبيّة ومنها الفضيّة ومنها النّحاسيّة، كما يبدو أيضا تعدّد أوزانها، وبالتّالي هذا ما يؤثّر على قيمتها في التّبادل اليومي.

كمّا قدّم دي تاسي أنواعا أخرى وتعاريف متنوّعة لقطع نقدية منها الباتاك شيك، الّذي قال عنها بأنّها تساوي 232 آسبر، أمّا نوع الباتاك كورد (أو البياستر المستعمل) فهي تساوي 696 آسبر، التيمن Temins فهي عبارة عن شيك حقيقي، والتيمن تساوي 14 آسبر ونصف، والجزء الثّامن الباتاك شيك يساوي 29 آسبر، بينما الصّايمة فهي تساوي 50 آسبر، و14 صايمة تعطينا البياستر المستعمل، كما أكّد لوجي دي تاسي بأنّ الّذي يغشّ في النّقد من نوع سلطاني جزائري أو الآسبر يعاقب بالنّار (لعلّ هذا العقاب ينزل باليهود)، بينما الّذي يملك نقودا أجنبيّة ليس عليه أيّ خطر لأنّه يستطيع استبدالها، وهذا دلالة على أنّ مدينة الجزائر كانت بورصة للعديد من العملات الأجنبيّة بحكم سهولة التّعامل بها، حيث صرّح دي تاسي في هذا الشّأن بوجود العديد ممّن يستبدلون العملات في الطّرق، ومنهم الموريّون المهمّشون والمحتقرون والّذين يبدّلون القطع النّقديّة[1].

إنّ ما يؤكّد أنّ النّقود كانت ذات قيم متغيّرة، هو ما أورده أيضا الطّبيب الرّحّالة الإنجليزي توماس شو، الّذي ذكر بأنّ النّقود المتداولة في مدينة الجزائر هي لمختلف الشّعوب والأمم البحريّة الأوروبيّة، لكنّ المعروفة كثيرا هي الدّوبلا والبياستر الإسبانيّة، والأولى تساوي 84 فرنك والثّانية تساوي 5 فرنك و40 سنتيم، بينما أنواع نقود المملكة هي السّلطاني ذهبي والآسبر، وهذه الأخيرة هي نقود فضيّة صغيرة تساوي حوالي 1 سنتيم وثلثين، في حين أنّ الباتاك شيك هي نقد تساوي 231 آسبر أو 3 فرنك و48 سنتيم[2].

إذا كان عقاب من يغش في العملة هو النّار على حسب ما أورد الرّحّالة لوجي دي تاسي، فإنّ

---

(1)- Marcel Emerit**," un mémoire sur Alger…"**, op.cit, p150.

(2)- Thomas show, op.cit, pp208-209.

العالم والرّحّالة الألماني ج.أو.هابنسترايت يذكر بأنّ اليهودي أو النّصراني الّذي ينقص من معدن العملة، تقطع يديه ويشنق ويطاف بجثته على ظهر حمار في أرجاء المدينة[1].

كمّا تفيدنا رحلة هذا العالم الألماني إلى الجزائر سنة 1732 بدلالات أخرى عن النّقد والعملة في مدينة الجزائر، الّتي منها مداخيل الدّاي والّتي قدّرت ب200 ألف قرش أو فلورين في السّنة، وأنّ إطلاق سراح بعض موظّفي المناصب العليا الأسرى، يحتاج إلى مبالغ ضخمة والّتي منّها القابودان، يتطلّب إطلاق سراحه (فدائه) دفع 2500 قرش، بينما المعاون وصانع السّفن والجرّاح يدفع عن كلّ واحد 1500 قرش، في حين أنّ البحار فعليه تسديد 1000 قرش[2]، إذن فالقرش هو البياستر بينما الفلورين على الأرجح أنّها عملة لإحدى الإمارات البروسية (إمارة السّاكس)، والّتي جاء منها هذا الرّحّالة الألماني.

والمتصفّح أيضا في رحلة ابن حمادوش **لسان المقال في النّبأ عن الحسب والنّسب والحال** يجد بعض المؤشّرات الدّالة على تنوّع العملة واختلاف في ذكر أسمائها، فنجد السّلطاني الذّهبي والّتي دفع ابن حمادوش منها ثلاثا ثمن كراء المركب، كما يجد اسم ريال دراهم صغار منها ستّة آلاف ثمن مكحلة واحدة من مجموع ثمانية بعث بها الدّاي إبراهيم باشا إلى السّلطان محمود خان[3].

كما يجد ربع السّلطاني ذهبا، والّتي قدّمت لكلّ مقرئ قرآن عند وفاة إبراهيم باشا داي الجزائر، وهم في مجموع ثلاثين مقرئا[4]، بينما عقود الزّواج الّتي دوّنها ابن حمادوش في رحلته، ففيها من العملة المقدّمة في صداق المرأة والّتي نذكر منها دينار جزائريّة خمسينيّة[5]، الدّنانير الخمسينيّة هي وحدات حسابيّة فقط، ويقول المنوّر مرّوش أنّ أوّل ذكر للدّينار الخمسيني يعود إلى نهاية جمادى الثّانية 929ه/ أفريل 1522م في رسم بيع دار ب58 دينار[6].

كما يذكر في نفس الشّأن أنّه في سجلّات البايلك مثل سجلّات بيت المال، يستعمل الدّينار الخمسيني عموما، لكن في وثائق أخرى تمّ استعمال كلمة صايمة بدل دينار خمسيني، والمعنى واحد وهي

---

[1]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص39.

[2]- نفس المصدر، ص ص41-42.

[3]- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص ص114 وص233.

[4]- نفس المصدر ، ص236.

[5]- نفس المصدر، ص239.

[6]- المنوّر مرّوش، المرجع السّابق، ص37.

عملة حسابيّة تساوي 50 درهما[1].

يبدو أنّ الضّابط الرّوسي كوكوفتسوف أدرج معارف قيّمة عن النّقود في الجزائر، في الفصل الثّالث عشر من رحلته والّذي كان بعنوان: التّجارة، الإنتاج، موارد الدّولة ونقودها (عملتها)، ويقول مارسيل إمريت بأنّ هذا الفصل يحوي معلومات دقيقة ومهمّة في الجانب الاقتصادي[2].

لقد طغى الجانب العلمي على رحلة الفرنسي ديسفونتين، وكثر الحديث فيها عن الوصف الطّبوغرافي والنّباتي للمملكة، وأهمل الحديث فيها عن الجانب المالي والنّقدي، بينما في رحلة المغربي الزّياني **التّرجمانة الكبرى**، لمسنا فيها بعض المؤشّرات النّقديّة، حيث أنّه تحصّل على مبلغ ستمائة سلطاني من داي الجزائر حينها، في طريق ذهابه إلى البقاع المقدّسة، وطلب منه الدّعاء بالخير في الحرمين الشّريفين، وفي إيابه ذكر بأنّه تحصّل على أربعين سلطانيّا دورو[3]، من صديقه القاضي أبو عبد الله محمّد بن مالك، ويتّضح في هذا المقام الفرق بين السّلطاني والسّلطاني دورو ولعلّه في الوزن، وهو ما يؤثّر على قيمته.

لقد تحدّث فونتير دي بارادي عن دار السّكّة، وخصّص فقرة عن النّقود، حيث ذكر بأنّ النّقود تصكّ باسم السّيّد الكبير، ومن اليهود من يعملون في هذا المجال مجّانا، والدّاي هو الّذي يملك لوحده حقّ صكّ النّقود الفضيّة، كما ذكر بأنّ البياستر الإسباني في أيّامه كان يساوي 36 موزونة، وذكر نقودا أخرى هي اللّيرة الذّهبيّة و50 صول، وأكّد بأنّ العلامات الّتي تطبع على النّقود في يد أمين تركي الّذي يملك مفتاح دار السّكّة، ويكون دائما حاضرا في حالة صك النّقود الذّهبيّة والفضيّة[4].

ويقول فونتير دي بارادي أنّ هناك نوعين من الصّايمة؛ صايمة خاصّة برواتب الجنود وقيمتها هي 5 موزونات، وصايمة التّعامل اليومي وقيمتها 50 درهما[5]، وفي هذا الشّأن يعلّق المنوّر مرّوش ويقول صايمة التّعامل اليومي هي الدّينار الخمسيني، وكان وحدة حسابيّة حيث حلّ محل ريال دراهم صغار وقيمته 232 درهما[6]، وهذه الرّيالات الدّراهم الصّغار هي الّتي وجدناها في رحلة ابن حمادوش عند

---

[1]- المنوّر مرّوش، المرجع السّابق، ص37.

[2]- Marcel Emerit, **"description de l'Algérie…"**, opcit, p212.

[3]- أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص151 وص374.

[4]- Venture de paradis, **Tunis et Alger…,**op.cit, p261.

[5] - Venture de paradis, **"Alger au XVIII Siècle"** in R.A. 1895, pp265_314, et 1896, pp33.

[6]- المنوّر مرّوش، المرجع السّابق، ص55.

حديثه عن بعض عقود الزّواج في مدينة الجزائر وما تعلّق بصداق المرأة.

بقدر ما كانت رحلة ابن عمّار رحلة حجازيّة، ورحلة أبو راس النّاصر رحلة فهرسيّة وخاصّة، فقد أهملا الحديث عن العملة والنّقد، إلّا أنّنا عثرنا في الرّحلة القمريّة لابن زرفة العمري على دلالات نقديّة، حيث أنّه عندما تعرّضت مدينة الجزائر للغزو (الحملة) من طرف الفرنسيّين سنة 1094هـ، أيّام الدّاي بابا حسن، هذا الأخير اتّفق مع الفرنسيين على أن يعطيهم ثلاثمائة ألف ريال وخمسون كبيرة الموازين، مقابل ذهاب حملتهم وجلائهم عن المدينة، وهذا الأمر أغضب طائفة من الأتراك فقتلوه بعد ثلاث وعشرين يوما من ذلك الصّلح[1]، والحديث عن الرّيالات الكبيرة الوزن يدل على وجود الرّيالات ذات الوزن الخفيف.

وفي شأن آخر يقول ابن زرفة العمري في رحلته عن حملة إسبانيا على مدينة الجزائر سنة 1198هـ أنّها باءت بالفشل، وبعدها سنة (1199هـ) طلبت إسبانيا السّلم والصّلح وبذلت فيه نحو عشر مائة ألف دينار ما بين نقد ومدافع وبارود[2].

أمّا في رحلة عبد الرّحمن بن إدريس التّنلاني فإنّ النّقود عنده اقترنت بذكر أجرة بعض العمّال، بعد حملة اللّورد إكسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816، حيث يقول بأنّ أجرة الخديم سبعة موزونات والمعلّم اثنا عشرة موزونة وهم الّذين همّوا بإعادة بناء ما هدّمته حملة الإنجليزي إكسماوث[3].

يفيدنا شونبيرغ الطّبيب والضّابط الألماني في رحلته بمعارف حول العملة، والّذي كان يمتهنها منهم الصّراف اليهودي والتاجر بوجناح، وكان له تأثيره الكبير في الشّؤون اليوميّة[4].

وفي شأن الواردات الجزائريّة أيّام حسين خوجة (1818-1830) يقول شونبيرغ بأنّها وصلت إلى مليون قرش سنويا، أمّا صادراتها فلم تكن تتعدّى 200 ألف قرش، في حين أنّ الضّرائب الّتي أخذت مع بداية القرن التّاسع عشر بلغت 350 ألف قرش، واستقرّت كلّها في الخزينة، وانضمّت إليها كذلك مداخيل المكوس والأتاوات وهدايا الصّلح المقدّمة من طرف الدّول الأوروبيّة[5].

---

[1]- ابن زرفة العمري، المصدر السّابق، ص ص226-227.

[2]- نفس المصدر، ص229.

[3]- عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص213.

[4]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص40.

[5]- نفس المرجع، ص75.

وعن هدايا الدّول الأوروبيّة ارتأينا أن نذكر ما ورد في رحلة توماس هيز سنة 1675، قدّمت إلى الدّاي بابا حسن هديّة عبارة عن نسر ذهبي وقلادة ذهبيّة بقيمة 150 قطعة الثّمانية (سكة 8)[1]، وكثيرة هي تلك الهدايا المقدّمة من طرف قناصل ومبعوثي الدّول الأوروبيّة إلى حكّام الجزائر بغية كسب ودّهم والعمل على تحقيق رضاهم، من أجل حماية التّجارة الأوروبيّة في المتوسّط.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ رحلة الضّابط الألماني شونبيرغ تحمل في طيّاتها العديد من المؤشّرات النّقديّة والعملات، الّتي كانت موجودة في المدينة منذ الدّاي مصطفى (1798-1805) إلى الدّاي حسين خوجة (1818-1830)، وعادة ما تقترن عنده بمصاريف الدّولة وصادراتها وخزينتها وهي بالقروش (piastre)[2].

كما يجب ذكر ما أورده دولاماي في مذكّرته بأنّ إطلاق صراح بحّار بسيط يتطلّب مبلغ 12 أو 13 ألف ليرة بينما الضّابط يتطلّب ضعف هذا المبلغ وأكثر[3].

وأخيرا في حديثنا عن العملات الّتي كانت متداولة أواخر العهد العثماني في مدينة الجزائر نذكر ما أورده الضّابط الفرنسي روزيه في رحلته حيث ذكر العديد من العملات الذّهبيّة والفضيّة والنّحاسيّة، وما يقابل كلّ عملة بالفرنك الفرنسي حينها، فعن النّوع الأوّل (الذّهبيّة) ذكر سكّة السّلطاني القديم، والسّلطاني الجديد ونصف السّلطاني الجديد وربع السّلطاني الجديد وهي تساوي: 9,60، 8,90، 4,45، و2,22 على التّوالي، بينما النّوع الثّاني (السّكّة الفضيّة) فعدّد ستّة أصناف وهي (زوج بوجو، ريال بوجو، ربع بوجو، ثمن بوجو، باتاك شيك ونصف باتاك شيك)، وهي تساوي بالفرنك 3,72، 1,86، 0,47، 0,23، 0,62، 0,31 على التّوالي، في حين أنّ النّوع الثّالث (السّكّة النّحاسيّة) فعدّد منها أصناف وهي (الخروبة البيضاء، شيك نحاسيّة، و2 آسبر شيك نحاسيّة وآسبر شيك وهي تساوي بالفرنك 0,0038، 0,013، 0,005، 0,0026[4] على التّوالي أيضا، يبدو أنّ ميزان الصّرف بين العملات الجزائريّة والفرنسيّة مرتفع فيما يخصّ السّكّة الذّهبيّة وبعض أصناف السّكّة الفضيّة، حيث تبيّن ارتفاع قيمة العملات الجزائريّة، ولعلّ هذا راجع إلى وزن العملات أوّلا وإلى عيارها

---

(1)-Thomas Hees, op.cit, p110.

(2)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص ص35-76.

(3)- Marcel.Emerit**," Alger en 1800…"**, op.cit, p175.

(4)-Rozet, **Voyage dans la Régence d'Alger**. A.Bertrand, Lib, edition, Paris, 1833, p105.

نقلا عن: أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعاليّاته**...، المرجع السّابق، ص504.

ثانيا، بينما هناك عملات أخرى كانت أقل من الفرنك.

وأخيرا في حديثنا على العملات نورد ما ذكره الضّابط الفرنسي روزيه في رحلته عنها في الجزائر وما يقابلها بالفرنك.

العملات:	قيمتها بالفرنك:
-الذّهبيّة:	
-سكّة سلطاني قديم.	9,60-
-سكّة سلطاني جديد.	8,90-
-سكّة سلطاني جديد (2/1).	4,45-
-سكة سلطاني جديد (4/1).	2,22-
-الفضيّة:	
-زوج بوجو.	3,72-
-ريال بوجو.	1,86-
-ربيعة بوجو (4/1).	0,47-
-تيمن بوجو (8/1).	0,23-
-باتاك شيك (3/1).	0,62-
-نصف باتاك شيك (6/1 بوجو).	0,31-
-النّحاسيّة:	
-خرّوبة بيضاء (3/1 موزونة) 5 آسبر.	0,038-
-شيك نحاسيّة (تساوي 5/29) موزونة.	0,013-
-2 آسبر شيك نحاسيّة.	0,005-
-آسبر شيك = 1/29 موزونة.	0,0026-

يلاحظ التّنوّع النّقدي من ناحية النّوع (الذّهبي والفضّي والنّحاسي) كما يلاحظ أيضا التّعدّد من ناحية نفس النّوع، إذ نجد 4 إلى 6 أنواع متعدّدة في صنف واحد.

الفصل الثالث

الحياة الحضرية في جانبيها الثقافي والدّيني

1-اللّغات المتداولة في المدينة

2- ملابس ساكني المدينة

3-بعض العادات والتّقاليد في الزّواج، الختان...

4-الاحتفالات في الأعياد والمناسبات الدّينيّة

5-المرأة في المدينة

6-العلوم والفنون في المجتمع الحضري

1- اللّغات المتداولة في المدينة:

يقول أحد الكتّاب عن اللّغة بأنّها تمثّل الوعاء الحامل لكلّ المفاهيم، والجهة المخوّلة لاستيعاب كلّ الأمور المستحدثة والحاجات المتجدّدة والمفاهيم الجديدة[1]، والحقيقة أنّ حواضر الخلافة العثمانيّة شهدت تنوّعا عرقيا ومذهبيّا وهذا ما انعكس على المجتمع من النّاحية الثّقافيّة، وتمّ طبعه بأنساق وسمات حضاريّة[2]، ومن هذه الأخيرة نجد اللّغة الّتي تنوّعت وتعدّدت في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

إنّ حسن الوزّان الّذي نزل ضيفا في مدينة الجزائر، عند السّفير الّذي بعث به إلى إسبانيا والّذي قال بأنّه: "عاد حاملا معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من شاطبة إحدى مدن بلنسية..."[3]، وإن كان الشّك في عدد المخطوطات واردا، فإنّ اليقين بأنّ لغة الضّاد هي لغة العديد من المخطوطات الّتي أتى بها ذاك السّفير، حيث كانت على ما يبدو لغة الدّراسة والقراءة ولو في جزء من مجتمع مدينة الجزائر.

يقول مارمول كاربخال في تأليفه أنّ بمدينة الجزائر في أيّامه (ق16م) حوالي ثلاثمائة من الجنود الأتراك، وهي حامية دائمة بالإضافة إلى حاكمهم[4]، وهذا ما يفهم منه وجود اللّغة التّركية في وسط الطّبقة الحاكمة والمؤسّسة العسكريّة، ويصرّح في أكثر من موضع بمصطلح أتراك مدينة الجزائر، حيث كانت اللّغة التّركيّة هي وسيلة التّخاطب والتّفاهم فيما بينهم.

أمّا الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي الّذي صرّح بوجود أعداد كبيرة من الأتراك في مدينة الجزائر، فيعترف بأنّه كان يتحدّث إلى مجموعة من سكّان مدينة الجزائر ومنهم إسبانيًّا، يقول عنه: "استعملته بكلام حلو فقادني إلى أماكن عديدة في مدينة الجزائر"[5]، ونحن هنا نتساءل في هذا المقام عن اللّغة الّتي كانا يتحدّثان بها؟ (الرّحّالة الفرنسي والإسباني المقيم في المدينة).

---

(1)- رشيد فلكاوي، **"المفاهيم السّوسو لسانيّة الغربيّة وإشكاليّة ترجمتها إلى اللّغة العربيّة"**، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، العدد11، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2010، ص195.

(2)- محفوظ رموم، **الثّقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830) دراسة تاريخيّة أنثروبولوجيّة**، مذكّرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2002، ص51.

(3)- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص39.

(4)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص363.

(5)- Nicolas de Nicolay, op.cit, p17.

ولعلّ هذا ما يجيب عنه الأسير الإسباني هايدو، الّذي قال بأنّ هناك ثلاث لغات في مدينة الجزائر الأولى هي اللّغة التّركيّة الّتي يستعملها العثمانيّون فيما بينهم وبين المرتدّين والموريّين، وكثير من الأسرى المسيحيّين يتحدّثون جيّدا هذه اللّغة، بينما اللّغة الثّانية هي اللّغة العربيّة، وهي عموما مستعملة في كلّ مكان من المملكة باستثناء المناطق الموريّة، في حين أنّ اللّغة الثالثة هي اللغة الفرنكيّة Franque، وهي عبارة عن خليط من كلمات متعدّدة؛ إسبانيّة وإيطاليّة في معظمها وبعض الكلمات البرتغاليّة[1]، وعلى ما يظهر لنا أنّ اللّغة الأخيرة (الفرنكيّة) هي وسيلة تواصل بين الأسرى المسيحيّين وباقي سكّان المدينة وبعض المرتدّين على حدٍّ سواء.

إنّ المتصفّح لرحلة أبي الحسن التّمقروتي يجد إقرار واعتراف هذا الرّحّالة بوجود كتب الأندلس بكثرة في مدينة الجزائر[2]، ولعلّ هذا ما يثبت صحّة قول حسن الوزّان في شأن المخطوطات، رغم أنّ هذا الأخير زار المدينة في بدايات القرن السادس عشر (1516)، والثّاني زارها في أواخر القرن السادس عشر (1589).

تفيدنا رحلة أبي العبّاس أحمد المقرّي بمكانة اللّغة العربيّة بين العلماء، حيث كانت لغة التّواصل والتّخاطب فيما بينهم، عن طريق نظم الشّعر، حيث قال (المقرّي):" قال لنا الأديب ابن رأس العين يصلح هنا نظم، فقلت:

خرجنا مع المولى إلى رأس تافورة   فصارت به تلك المعاهد معمورة.

وقال ابن رأس العين:

وما أحد إلّا اعترته مسرّة وكانت   قلوب القوم بالجمع مسرورة[3].

ويعترف أحمد المقرّي بمجالسته لأناس أفاضل، فقال: مآثرهم بين الأكابر مشهورة، وفي هذا المقام يجب التّنويه بأنّ العلماء في مدينة الجزائر كانوا يتخاطبون فيما بينهم بالملغز (أي أبيات شعريّة تحمل في طيّاتها ألغازا)، والرّدّ يكون أيضا بالشّعر إجابة على تلك الألغاز، كما نستشف من رحلة أبي العبّاس أحمد المقرّي أيضا، كيفيّة إجازته لابن القاضي باللّغة العربيّة وهو أحد تلامذته[4].

---

[1]- Diego de Haedo, op.cit, pp127-129.

[2]- أبو الحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص90.

[3]- أبو العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص72.

[4]- نفس المصدر، ص ص72-77.

نجد الإشارة في الحديث عن اللّغة ما ذكره الرّحّالة الفرنسي الأب دان في تأليفه، حيث قال بأنّ كلّ القضايا في الدّيوان تكون باللّغة التّركيّة، لأنّ كلّ الضّبّاط يتكلّمون بها، وبالدّيوان دائما هناك ترجمان[1]، هذا الأخير الّذي ذكرته العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة على وجه الخصوص.

إنّ الرّحّالة الفرنسي توماس هيز، الّذي زار مدينة الجزائر بين 1675-1676، يذكر ذاك التّرجمان الفرنسي والّذي ولد بباريس وكان هو الواسطة بين الدّاي من جهة ومبعوثي فرنسا من جهة ثانية، لأجل عقد معاهدة سلم مع الحكومة الجزائريّة، ويبدو من خلال هذا الاعتراف أنّ التّرجمان الفرنسي كان يتقن اللّغتين التّركيّة والبرتغاليّة حيث تحدّث مع صديق توماس هيز، وهو المسمّى جاكوب دوبا Jacobe de bas، كما كانت وظيفة هذا التّرجمان أيضا مرافقة الوفود إلى الدّاي وإلى القصر (أيّام محمّد التّريكي)[2]، كما تحدّث توماس هيز عن وجود اللّغة الفرنكيّة **La langue franque**، وقد صادف وجوده في مدينة الجزائر أن قدّم للباشا ترجمانا ألمانيا، حتّى يكون في المستقبل هو ترجمان القصر[3].

يقول شوفالييه دارفيو الرّحّالة الفرنسي في شأن اللّغة في مدينة الجزائر، أنّ تعدّد الأفراد المسيحيّين في مدينة الجزائر يعود إلى ظاهرة الأسر، وقد كوّن الأسرى شيئا فشيئا لغة التّخاطب خصوصا مع أسيادهم، وهي مركّبة عموما من الإسبانية والإيطالية ولغات أخرى لها علاقة بها تسمّى اللّغة الفرنكيّة، بينما الموريّون الأصليّون الموجودون في البلاد لا يتكلّمون إلّا باللّغة الموريتانيّة الأصليّة، وهي تختلف عن اللّغة العربيّة الشّرقيّة، والجنود لا يتحدّثون بينهم إلّا باللّغة التّركيّة خصوصا في الدّيوان وفي تجمّعاتهم ومع الأشخاص المحترمين، وفي الدّيوان يقول دارفيو يوجد ترجمان، لكي يشرح للموريّين الإجراءات المتّخذة في شأن ما باللّغة العربيّة[4]، يتّضح أنّ دارفيو أضاف لغة رابعة للتّخاطب والتّواصل في مجتمع مدينة الجزائر وهي اللّغة الأمازيغيّة (لغة المور)، والّتي سمّاها اللّغة الأصليّة، لكنّها بين الموريّين الّذين يسكنون المدينة فقط كوسيلة للتّواصل بينهم.

وبنبّئنا عن اللّغة الفرنكيّة بأنّها إبداع ما بين الأسرى المسيحيّين وملّاكهم، بينما في شأن التّرجمان الموجود في الدّيوان، فهو ذاك الّذي يتقن اللّغة التّركيّة بالإضافة إلى اللّغة العربيّة، ويسمّيه

---

(1)- P.P.Dan, op.cit, p102.

(2)- Thomas Hees, op.cit, pp92- 93.

(3)- Ibid, pp94-98.

(4)- Chevalier D'arvieu, op.Cit, pp219-230.

شونبيرغ الرّحّالة الألماني ترجمان الشّؤون الحضريّة[1].

والملاحظة الواجب ذكرها في شأن اللّغات المتداولة في مدينة الجزائر من خلال ما أورده ألفرد دابر Alfred D'Apper أنّ الجزائريّين القدامى يتحدّثون الفينيقيّة، لكنّ العرب فيما بعد ترجموا لغتهم وهي اليوم (ق17م) لغة الكتابة، وكذلك توجد اللّغة التّركيّة، بينما الموريّون الأصليّون للبلد يتحدّثون الموركيّة القديمة، (لعلّها الأمازيغيّة وليست الموركيّة)، ويقول أيضا في مدينة الجزائر المحمّديّون والمسيحيّون يستخدمون لغة تتكوّن من الفرنسيّة، الإسبانيّة والإيطاليّة، وهي المسمّاة اللّغة الفرنكيّة، وأثناء الحديث تسمع ثلاث لغات[2].

يتّضح من رحلة ابن زاكور الفاسي والّتي كان غرضها الدّراسة والتّزوّد بالعلم من علماء مدينة الجزائر، أنّ اللّغة العربيّة هي لغة الدّراسة والتّواصل والتّخاطب، كما تبيّن نصوص إجازة علماء المدينة لابن زاكور تلك اللّغة الرّاقية، وهي اللّغة العربيّة والّتي استعملت بدرجة عالية في الصّياغة والتّراكيب واختيار المصطلحات[3]، وهذا عكس ما عرف عن نوعيّة الكتابة الّتي قيل عنها بأنّها تميل إلى العامّيّة[4].

والجدير بالذّكر أيضا في موضوع اللّغة، يقول بوتي دولاكروا في تأليفه **مذكّرة حول الجزائر سنة 1695**، أنّ مشروع معاهدة السّلم الّذي سجّل حينها بين الجزائر وفرنسا كتب باللّغة التّركيّة والفرنسيّة معا[5]، لأنّ اللّغة التّركيّة هي لغة الطّبقة الحاكمة في الجزائر.

كما يتّضح من رحلة الجامعي أنّ الكتاتيب في مدينة الجزائر مشحونة بالتّلاميذ والّذين كانوا يتعلّمون القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وكلّ هذا باللّغة العربيّة، وحفّاظ القرآن الكريم كانوا كثرا[6]، إذن فالتّعليم كان باللّغة العربيّة ولم يكن بلغة أخرى.

يبدو أنّ اللّغات الّتي كانت متداولة في مدينة الجزائر، لها علاقة وطيدة بفئات المجتمع الّتي كانت تسكن المدينة (أتراكا، عربا، موريّين، وأسرى مسيحيّين...إلخ)، ويتّضح أنّه لم يكن هناك مشكل في

---

[1]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص56.

[2]- Alfred D'apper, op.cit, p175.

[3]- ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص ص51-71.

[4]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، أو ابن رقيّة الجديري التّلمساني، "**الزّهرة النّيّرة فيما جرى في الجزائر حين أغار عليها جنود الكفرة**"، مجلّة تاريخ حضارة المغرب، العدد3، جامعة الجزائر، 1967، ص ص2-32.

[5]- Marcel Emerit, **"un mémoire sur Alger… "**, op.cit, p21.

[6]- عبد الرّحمن الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث**...، المرجع السّابق، ص150.

التّواصل والتّخاطب.

يحيلنا دي تاسي إلى قضيّة أخرى في شأن اللّغة، ويقول بأنّه هناك اللّغة التّركيّة، كما توجد اللّغة الفرنكيّة، والأجانب الّذين يحلّون بالمدينة يعرضون على الدّاي، ويسألهم باللّغة الفرنكيّة عن سبب مجيئهم إلى المدينة والوجهة الّتي هم بصدد الذّهاب إليها...، وغيرها من الأسئلة المعتاد طرحها على الأجانب[1]، وفي غالب الأحيان يكون هناك ترجمان يوضّح لهم المقاصد ويشرح لهم المطلوب، وهذا الشّأن لمسناه في عدّة مصادر رحلة أوروبيّة قيد الدّراسة[2].

والحقيقة الواجب ذكرها أنّ مصادر الرّحلة العربيّة لم تتحدّث عن اللّغات المتداولة في المدينة، ولم نجد لها عناصر واضحة المعالم في ثناياها، لكن نستنتج ممّا هو مدوّن فيها أنّ لغة التّخاطب والتّواصل والقراءة والكتابة كانت باللّغة العربيّة، هذه الأخيرة الّتي اختلف فيها مستوى الكتابة بين رحّالة وآخر، فمثلا مستوى كتابة ابن عمّار ابن مدينة الجزائر لرحلته يختلف تماما عن مستوى كتابة ابن حمادوش ابن المدينة كذلك في رحلته، ونفس الأمر ينطبق على رحلة أبي راس النّاصر مع رحلة ابن المسيّب التّلمساني كمثال آخر... وهكذا.

يقول مولاي بلحميسي في شأن اللّغة: "أحاديث تتبادل، وصراخات ونداءات وقهقهة ومشاجرات وضجيج تتناوب إلى الغسق، الضّوضاء في عشر لغات كما ذكر أحد الكتّاب"[3]، وهو مشهد من مشاهد الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، يدّل على التّنوّع اللّغوي وإن كان مبالغا فيه والّذي يخضع بدوره في غالب الأحيان إلى تنوّع عرقي بيّن وجلي، وهذا ما صرّحت به معظم مصادر الرّحلة.

إنّ المتصفّح لرحلة ابن حمادوش **لسان المقال** يجد في طيّاتها عقود الزّواج والّتي صيغت باللّغة العربيّة، وهذه العقود متعدّدة؛ منها ما يخصّ الدّاي إبراهيم باشا، ومنها ما يخصّ أخت ابن حمادوش، بالإضافة إلى بعض الخطب الّتي سجّلت هي الأخرى باللّغة العربيّة (وهي خطب الزّواج)[4].

---

(1)- Laugier de Tassy, op.cit, p70.

(2)- J.A.Peyssonnel, op.cit, p275, Desfontaines, op.cit, p97.

-وج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص22.

(3)- مولاي بلحميسي، **مدينة الجزائر من خلال مياهها من القرن 16 إلى القرن 19**، المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال والنّشر والإشهار، الجزائر، 1998، ص16.

(4)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص ص236-252.

وتبدو رحلة أبي راس مختلفة لأنّها اهتمّت بدرجة أوّليّة بالموضوعات العلميّة، فكان محلّ عناية لمن يقابله من علماء وشيوخ، وما يحفظه من علم أو رواية عن هؤلاء[1]، ولذلك كانت لغة رحلته لغة راقية وكان التّخاطب بينه وبين علماء مدينة الجزائر في علوم عدّة، منها؛ العلوم اللّغويّة، الأصوليّة والنّحويّة وغيرها، ناهيك عن كونها تحمل في ثناياها العديد من أنواع الكتب الّتي كانت تدرّس حينها، شأنه في هذا شأن ابن حمادوش مثل ما ذكره عن: **صحيح البخاري،** كتاب **القانون** لابن سينا، **تاريخ الدّول** للملطي، **تاريخ الكردبوس** للتّوزري[2].

وللإشارة أنّ هناك العديد من السّجلّات والدّفاتر الّتي دوّنت باللّغة التّركيّة، وكذا الوثائق، الّتي هي مصدر مهمّ وأساسي في التّعرف على الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، ومنها نذكر: **دفتر التّشريفات Tachrifat**[3]، وثيقة عهد الأمان، سجل غنائم البحر، بيان ثكنات الانكشاريّة وسجل أوجاق الجزائر... وغيرها[4]. وقد انكبّ العديد من الفرنسيّين على الاهتمام بها وبترجمتها إلى الفرنسيّة خصوصا (ألبير دوفولكسAlbert Devoulx)، دالفان Delphin وجون ديني Jean Deny وغيرهم [5]، لكن هذا يخرج عن دائرة حديثنا.

وخير ما نختم به الحديث عن اللّغات المتداولة في المدينة ما ذكره ماثيو كاري: "شعب الجزائر يتكلّم بصفة عامّة لغات مركّبة من العربيّة والموريسكيّة وبقايا الفينيقيّة القديمة، فجميع أصناف الأهالي...يفهمون langua Franca... وتعدّ هذه اللّهجة كقناة إعلاميّة للنّاس الّذين لا يفهمون بعضهم البعض إلاّ من خلال هذه اللّهجة[6]

2- ملابس ساكني المدينة:

إنّ أوّل مصدر رحلة تحدّث عن بعض ملابس سكّان مدينة الجزائر، هو تأليف الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي الّذي حلّ بالمدينة في بداية النّصف الثّاني من القرن السادس عشر

---

(1)- سميرة أنساعد، **الرّحلة إلى المشرق في الآدب الجزائري دراسة في النّشأة والتّطوّر والبنية،** شركة دار الهدى للطّباعة والنّشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص72-73.

(2)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، صفحات متعدّدة.

(3)- Tachrifat, **Recueil de notices Historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger**, Pub. Par Albert Devoulx, imp. de Gouvernement, 1852.

(4)- حنيفي هلايلي، **أوراق في تاريخ**...، المرجع السّابق، ص105.

(5)- نفس المرجع، ص ص106-107.

(6)- ماثيو كاري، **مختصر في تاريخ الجزائر**، ترجمة علي تابليت، طبع ثالة، الجزائر، 2013، ص26.

(1551)، والّذي قال بأنّ الملك – يقصد الحاكم- كان يرتدي جبّة دمشقيّة بيضاء، وكان يجلس في نهاية الرّواق على كرسي وطيء، في حين أنّ القبطان آغا، كان يرتدي جبّة طويلة من حرير وشاشا كبيرا يحمل عصا، بينما العبيد قد وضع على رؤوسهم قبّعات (طاقيات من قماش القطيفة)[1]...، لكنّ نيكولاس دي نيكولاي مرّ سريعا بمدينة الجزائر في سفارة رسميّة[2]، ولم يبق بها إلّا بضعة أيّام، زار فيها العديد من الأماكن رفقة إسباني كان يعيش في المدينة مدّة طويلة، ومن مشاهداته في شأن اللّباس: تلك قطعة القماش الّتي كان يرتديها الرّجال فوق رؤوسهم والّتي تنزل حتّى الذّقن، وكانوا يحملون السّكاكين والخناجر[3]، وتعتبر جزءا من لباسهم التّقليدي، ولعلّ ملاحظته هاته تدلّ على تميّز المشهد عند هذا الرّحّالة والّذي لم يألّفه من قبل، فكتب عنه (وجود الشّاش ووضع الخنجر أو السّكّين في الحزام).

يبدو أنّ الأسير الإسباني هايدو قد تحدّث في شأن لباس ساكني مدينة الجزائر عامّة، ولا نستطيع الاستغناء عن شهادته في هذا الشّأن في نهاية السّبعينيّات وبداية الثّمانينات من القرن السادس عشر (1578-1581)، إذ يقول بأنّ كلّ ملابسهم عريضة وواسعة، الرّجل يرتدي قميصا واسعا جدّا، بالإضافة إلى ارتدائه الجالوكو Jaleko أي القفطان المفتوح من الأمام، وعادة ما توضع أقفال على الصّدر، ولديه أذرع قصيرة تتوقّف عند المرفق فقط، تنزل هذه السّترة إلى السّاقين وفي بعض الأحيان إلى أسفل، بينما الأثرياء يرتدون الساتان Satain الدّمشقي، (لعلّ هذا ما أراد ذكره نيكولاس بالجبّة الدّمشقيّة)، والّذي ليس له طوق Col[4].

يقول هايدو، ولأجل تعويض غياب الأذرع في القفطان (من المرفق إلى المعصم)، عادة ما يتمّ وضع قطع قماش متحرّكة على الأذرع، وهي مصنوعة من الحرير أو المخمل، كما يضع الرّجل حزاما كتانيّا رقيقا مزخرفا بألوان عديدة على خصره، وفي الجانب الأيسر منه يوضع سكّين جميل عادة[5]، وهذا ما يثبت دقّة ملاحظة نيكولاس دي نيكولاي، وهناك من يحمل سيفا بدل السكّين.

ونظرا لإقامة هايدو الطّويلة في مدينة الجزائر، فقد ذكر بعض الألبسة الّتي يتمّ ارتداؤها في فصل الشّتاء، ومنها السّراويل الكتّانيّة والنّعال المطرّزة المسمّاة تماك Tumaque، وهي مصنوعة من

---

(1)- Nicolas de Nicolay, op.cit, p19.

(2)- المنوّر مرّوش، دراسات عن الجزائر في العهد...، المرجع السّابق، ص38.

(3)- Nicolas de Nicolay, op.cit, pp19-20.

(4)- Diego de Haedo, **Topograph**ie**…**, op.cit, p108.

(5)- Ibid, p109.

الجلود الصّفراء أو الحمراء، بينما في فصل الصّيف تكون السّراويل من نسيج (قماش) وتترك السّاقين عاريتين، باستثناء الشّخصيّات المهمّة.

والملاحظة الّتي سجّلها هايدو في شأن الأحذية والنّعال بأنّها أحذية جلديّة حمراء أو صفراء، وعادة ما تكون سهلة في لبسها ونزعها، وهي بسعر مرتفع وذات جودة في صنعها، كلّ المسلمين صغارا وكبارا، نبلاء وعاديّين، إلى غاية الباشا نفسه، عادة ما يضعون لهذه النّعال قطعة حديديّة هلاليّة في العقب تحدث ضجيجا في حالة السّير بها فوق الحجارة (في الطّريق المرصوفة)، يتبيّن أنّ هذه الظّاهرة مازالت مستمرّة إلى اليوم في عدّة أماكن ليس في مدينة الجزائر فحسب، بل في مناطق وجهات متعدّدة ومختلفة، أمّا عن المعاطف فقال بشأنها بأنّها تسمّى الفرجة "Ferdja"، وهي عادة ما تكون حمراء طويلة وعريضة ومفتوحة من الأمام، لا تملك طوق Col، ولها أذرع واسعة وطويلة إذ ما قورنت بالقفطان والسّترة، إذ أنّها تصل إلى غاية المعصم (الزّند)[1]، وفي حالة حدوث حر شديد في مدينة الجزائر، فإنّ هذه الفرجة (المعطف) تطوى أربع طبقات وتوضع على الكتف الأيسر، وهي عادة ما تلبس من طرف الأشخاص المهمّين والّذين لهم نفوذ[2].

كما يفيدنا هايدو في شأن آخر عن مسلمي المدينة الّذين يحلقون رؤوسهم كلّ أسبوع، بينما الأشخاص الرّسميّون يتركون لحاهم (يسدلون لحاهم) والانكشاريّون والبحريّون المشارقة يتميّزون بوجود الشّوارب فقط، والكلّ يلبس الشّاش Turban، المصنوع من القماش الرّهيف ناصع البياض، باستثناء الانكشاريّين بدرجة البولوكباشي، يلبسون طاقيّة حمراء بشكل مخروطي وعليها سعفة وهي المسمّاة Tortora، وتلفّ حولها قطعة قماشيّة بثلاث أو أربع دورات، وهي خصوصيّة هذه الرّتبة، بينما اليولداش (الجندي البسيط) لا يرتدي سوى القفطان، أي أنّه لا يلبس الفرجة ولا يضعها على كتفه، في حين أنّ الآتشي "Atchi" (الانكشاريّين الطّبّاخين) يلبسون ويحلقون بطريقة خاصّة، إذ أنّهم يرتدون قفاطين قصيرة جدّا وعادة ما تكون وسخة، ويضعون على رؤوسهم طاقيّة قماشيّة صغيرة عادة ما تكون مائلة إلى الجهة اليمنى، ومزيّنة بريشة طويلة للطّاووس أو لبعض الطّيور، ويقول أيضا أنّ كلّ الانكشاريّين مهما كانت رتبهم، تتمّ معرفتهم بسهولة من خلال حواشي ألبستهم المزيّنة والمزركشة (سواء السّترات، القفاطين والفرجات...)[3].

---

(1)-Diego de Haedo, **Topograph**ie**…**, op.cit, p109.

(2)- Ibid,p110.

(3)- Ibid, pp110-111.

وتجدر الإشارة إلى أنّ لباس الجنود والضّبّاط قد أشار إليه وذكره العديد من أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة، وعلى رأسهم الأب دان Dan[1] ودالنسو كانو Dalonso Cano[2]...وغيرهما. وعادة ما اقترن حديثهم عن اللّباس مع الرّتب والنّياشين (Les grades).

أمّا فيما يخصّ أطفال أبناء الأتراك والمرتدّين والانكشاريّين فإنّهم يلبسون وينتعلون مثل آبائهم، وعندما يصلون مرحلة الشّباب، يغطّون رؤوسهم بطاقيّة صغيرة ذات حرير مقصب أو مخمل أحمر، وهي عموما تتماشى مع ما يرتدي آباؤهم، بينما الأتراك والانكشاريّون الجدد الآتون من القسطنطينيّة، والّذين لا يملكون النّقود لشراء الألبسة على الطّريقة الجزائريّة يرتدون ثيابهم، وهي تختلف كثيرا عمّا ذكرناه، إذ هي سراويل طويلة بيضاء أو حمراء أو سوداء، دون فتحة، وخوذات قصيرة وثوب متعرّج بأكمام طويلة[3].

بالإضافة إلى هذا فإنّهم (الانكشاريّون الجدد) يضعون على رؤوسهم شواشي من مختلف الألوان ذات زوايا عديدة، وهي عادة شواشي عريضة مثلما هو الحال في ألمانيا، وأحذيتهم العسكريّة مرتفعة عن الأرض، ويستطيعون السّير بها دون خوف في الثّلج أو الجليد، ومنهم من يضع على الشّاشيّة ريشة مالك الحزين، وهو المسمّى عندهم "دالي" والّتي تعني الشّجاع والباسل[4].

تكاد تتّفق العديد من مصادر الرّحلة الأوروبيّة حول لباس اليهود في مدينة الجزائر، بحيث وجب عليهم ارتداء شاشيّة سوداء وكذلك بالنّسبة لباقي لباسهم فهو أسود، وهذا ما دوّنه الأب دان في رحلته[5]، ولعلّ هذا التقيّد في اللّباس كان قد فرض عليهم منذ زمن بعيد، وعلى حدّ ذكر عيسى شنّوف في تأليفه **يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود** أنّه كان أيّام الخليفة أبو يوسف المنصور، الّذي فرض عليهم ارتداء ثوب أسود بأكمام طويلة[6].

وممّا تجدر الإشارة إليه في شأن بعض ملابس ساكني المدينة، الّتي أوردها شوفالييه دارفيو Chevallier D'arvieux في رحلته، إذ يقول: هناك فئات وأجناس مختلفة مكوّنة للجمهوريّة، وكلّ

---

(1)- P.P.Dan, op.cit, p99

(2)- Dalonso Cano, op.cit, pp117-119.

(3)- Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, p111.

(4)- Ibid, p111.

(5)- P.P.DAn, op.cit, p89.

(6)- عيسى شنّوف، **يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود**، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص38.

واحدة لديها عاداتها الخاصّة بها، الموريّون والموريسكيّون وآخرون من سكّان المدينة، فالأتراك ينظرون إليهم على أساس أنّهم عبيد الجمهوريّة، لا يختلفون عن سكّان الرّيف في لباسهم إلّا في بياض ألبستهم ونظافتها، شاش صغير وبرنوس أبيض يوضع على الأكتاف وهو يستعمل مثل المعطف، وعادة ما تكون سيقانهم عارية، وينتعلون فقط البابوش، وهي أحذية مستوية توضع عليها قطع حديديّة على العقب[1]، وهذا ما دوّنه هايدو ودقّق في وصفه.

كما بدا لنا أنّ دارفيو اعتمد كثيرا على **طبوغرافيّة والتّاريخ العام لمدينة الجزائر** لصاحبه هايدو مع قليل من الاختلاف، إذ أنّه ذكر القميص، الكاميسول، الجوارب الحمراء، الأحذية الجلديّة الصّفراء أو الحمراء بالإضافة إلى البرنوس والشّاش الموصلي الأبيض والشّاشيّة الصّوفيّة الحمراء[2]، وفي شأن الكاميسول هو لباس دون أكمام يسمّى "الصّدريّة" وهي لاتملك فتحات سوى جهة الرّأس والذّراعين، بالإضافة إلى ارتدائهم القفطان، وهو مفتوح من الأمام لإظهار الصّدريّة، وهما عموما بألوان مختلفة.

ولقد قدّم دارفيو وصفا دقيقا للبرنوس الّذي كان يرتديه معظم سكّان مدينة الجزائر من المسلمين، حيث قال: هذه البرانس مطرّزة، وهي ضيّقة من الأعلى وعريضة جدّا من الأسفل ولها قلنسوات كبيرة، كما تستعمل في المطر، وهي عادة سوداء (لعلّه برنوس الوبر)، أمّا برانس الأطفال فهي حمراء، والأشخاص المحترمون والموجّهون للخدمة في الرّيف والأشخاص المرسلون والمفتون يرتدونها بيضاء، وهي تلبس في الصّيف وفي الشّتاء، توضع جهة الوبر من الدّاخل في الشّتاء وفي الصّيف يعكس اللّباس، وعندما يكون المطر يهطل تنزلق على البرنوس ولا يتبلّل[3].

وعن لباس اليهود يؤكّد دارفيو بأنّهم كانوا يرتدون ثيابا سوداء، تمييزا لهم عن باقي الأجناس من باقي سكّان المدينة، وهي سترة قصيرة تنزل إلى غاية خصرهم، مثل سترة أبنائنا الزّرقاء أو الحمراء، وفوق هذه السّترة يضعون برنوسهم الّذي لا يفارقهم حتّى لا يفقدون احترامهم في الأماكن الّتي يذهبون إليها وأماكن عملهم، كما يضعون فوق رؤوسهم شاشيّات صوفيّة سوداء، والفرق بين يهود مدينة الجزائر وبين القادمين من البلدان الأجنبيّة هو شكل الشاشيّة، فالقادمون من الخارج شواشيهم لها ذنب يتدلّى بطول قدم، وفيما يخصّ الأرجل فهي عارية في نعالهم (دون جوارب)، لكن الآتين من ليفورن والإسكندريّة من

(1)- Chevallier D'arvieux, op.cit, pp280-282.

(2)- Ibid, p282.

(3)- Ibid, pp282-283.

مصر يحملون قبّعات، والأغلبيّة يلبسون مثل الإيطاليّين والإسبانيّين[1].

ولنا أيضا في هذا المقام، أن ندوّن ما سجّله ألفرد دابر عن اللّباس، فيقول: المسيحيّون الأحرار الّذين يعيشون في مدينة الجزائر يلبسون مثلما يلبس سكّان بلادهم، لكن الآخرين (العبيد) يرتدون لباسا رمادي اللّون ويضعون طاقيّات على رؤوسهم، بينما السّواد الأعظم من النّاس ومنهم الموريّون يرتدون مع قمصانهم سراويل داخليّة نسيجيّة أو صوفيّة ولباسا صوفيّا أبيضا لديه قلنسوة في مؤخّرته، وعادة ما يرتدى مثل المعطف (إنّه البرنوس)، وفي فصل الصّيف يرتدون قمصانا عريضة وشاشا شفّافا، في حين أنّ الأتراك المهمّين لباسهم حسن، فهم عادة ما يرتدون التّنورات الحريريّة المورّدة وهي عريضة جدّا أو شاشا جيّدا ونعال على الطّريقة التّركيّة (الجزمة= Bottes)[2].

يبدو أنّ ملاحظات دي تاسي في شأن اللّباس، تتّفق مع ما ذكرته مصادر الرّحلة الأوروبيّة قبله من أمثال (دارفيو، ألفرد دابر، الأب دان، ... وغيرهم)، إذ تحدّث عن لباس الدّاي والشّخصيّات المهمّة وهو: (القمصان، السّراويل، وجود الخناجر كرمز للزّينة في الحزام، القمصان المزركشة والمطرزة والسّترات متعدّدة الألوان والّتي عادة ما تكون لها أزرار فضيّة أو ذهبيّة أو حريريّة...، وقدّم دي تاسي أوصافا دقيقة لكلّ نوع من هذه الألبسة، فمثلا عن القفطان، يقول: هو تنّورة طويلة مزيّن بالذّهب أو الفضّة أو الحرير، وألوانه المفضّلة عندهم هي: الأخضر، الأزرق، الأصفر، الأحمر والرّمادي، ويرفضون الألوان الأخرى، ولهذا القفطان أذرع عريضة إلى المرفق وعليه زركشة (طرز)، أمّا نعالهم فهي الخف (البابوش)، وهو أصفر أو أحمر جلدي دون عقب وفيه قطعة حديديّة، وعادة ما يترك النّعل عند مداخل الغرف في المنزل[3].

بينما الشّاش فهو يختلف عمّا هو مشرقي على حدّ ذكر دي تاسي، وإذ أنّه يوضع على طاقيّة رفيعة صوفيّة حمراء ويدار حولها (وهو قطعة قماش موصلي)، وهذه الطّريقة تسمّى التّلبينة Tulbent، وهي المفضّلة عند الأتراك[4].

أمّا الشّباب فيهتمّون بالشّوارب ويحلقون لحاهم، عكس الكبار الّذين يسدلونها، وفيما يخصّ البحريّين، فإنّهم يرتدون سراويل قطنيّة أو صوفيّة وسترات قصيرة وأحزمة توضع على الخصر وبرانس،

---

[1]- Chevallier D'arvieux , op.cit,p288.

[2]- Alfred D'Apper, op.cit, p175.

[3]- Laugier de Tassy, op.cit, pp59-60.

[4]- Ibid, p60.

وبعضا من الشّباب الأتراك والعرب والموريّين يتركون شعرا طويلا في مؤخّرة رؤوسهم، وهم يعتقدون أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه وسلّم يأخذهم منه ويضعهم في الجنّة[1].

ومن بين أصحاب مصادر الرّحلة ممّن وجدناه قد ذكر اللّباس، هو العالم الألماني والرّحّالة هابنسترايت، الّذي قال بأنّ الجزائريّين من أتباع الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، يقومون في الغالب بالحجّ إلى مكّة وبعد أداء هذه الفريضة يرتدون الملابس الخضراء، الّتي تنسب إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وهو اللّباس الّذي يميّز الأشراف الّذين يدّعون أنّهم من سلالة النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم[2].

ولنا أن نختار من رحلة دالنسو كانو إلى مدينة الجزائر سنة 1768 لافتداء الأسرى وصفا لملابس الشّواش الثّمانية، الّذين يأخذون النّاس للمحاكمة أمام الدّاي، حيث قال في ذلك: أنّهم يرتدون قبّعة خضراء يتدلّى منها وشاح على الظّهر، ولباسهم فيه أذرع (أكمام) تصل إلى المعصم، وعليه بعض الزّينة والزّركشة، وهو على شاكلة السّوتان القصير المشدود إلى الحزام الحريري العريض، بينما أحذيتهم فهي جلديّة، وفيها ما يصل إلى نصف السّاق، مزيّنة بمسامير وقطع حديديّة تصدر أصواتا في حالة السّير على الحجارة والطّرق المرصوفة، أمّا طاقيّتهم فهي بشكل هرمي ذات زوايا حادّة[3]، ويبدو أنّ تميّز هؤلاء في اللّباس يترجمه تميّز الوظيفة الّتي يؤدّونها، وحتّى يتمّ التّفريق بينهم وبين باقي الموظّفين في مدينة الجزائر حينها، حتّى أنّ القنصل فاليار يسمّيهم بالشّواش الخضر (Verts)[4].

لقد اعترف الرّحّالة والضّابط الرّوسي كوكوفتسوف بحسن ثياب الأسرى، الّذين كانوا في ملكيّة الدّاي[5]، دون أن يوضّح نوعيّة اللّباس ولا كيفيّته.

وبحكم أنّ سيمون بفايفر كان أسيرا في مدينة الجزائر، وفي قصر الدّاي بالذّات، فقد قال أنّ لباس الأسرى كان يتكوّن من قلنسوة حمراء وقميص وصدار (صدريّة) من الصّوف وسروالين ينتهيان فوق الرّكبة، ونعلين من النّوع الرّخيص[6]، إلّا أنّ حالة سيمون تغيّرت في اللّباس بمجرّد أن عُلم عنه بأنّه

---

(1)- Laugier de Tassy, op.cit,p61.

(2)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص47.

(3)- D'Alonso Cano, op.cit, p106.

(4)- C.PH.Vallière, op.cit, p15.

(5)- Marcel Emerit , **"description de l'Algérie…"**, op.cit, p213.

(6)- سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص17.

طبيب، فبدّلت ثيابه الأولى بثياب أخرى ثمينة، مصنوعة من القطن وقمصان رفيعة[1]، على حدّ قوله اعتبارا لمهنته ولمساعداته الّتي قدّمها لشخصيّة مهمّة في الجانب الصّحّي.

والحقيقة الواجب ذكرها في شأن ملابس بعض مسلمي مدينة الجزائر، فإنّ القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي قد أورد في مؤلّفه ملاحظاته، فقد قال بأنّ لباس الرّجال مركّب (معقّد)، فللخوجات عمامة، وهي شاش أبيض يوضع على الرّأس بشكل دائري، بينما البولكباشي والضّبّاط الآخرون من الأوجاق يرتدونه من الحرير الأحمر والمذهّب، وهو المسمّى عندهم بالشّد (Chidd)[2]، مظهره جيّد وهو متغيّر في شكله حسب حالة ومكانة كلّ شخصيّة، كما أورد باقي أجزاء اللّباس مثل: القفطان والصّدريّة Un Sidrié السّالفي الذّكر، ولباس آخر سمّاه بيداجي Bedaji وعليه تكون الجبّة (jubé) الكتّانيّة أو السّاتانيّة أو المخمليّة، والّتي تنزل إلى الورك على حدّ ذكره، ولديها أكمام عليها أزرار وعموما هي مطرّزة ومزركشة، ويقول عنها بأنّها تسمّى خليلي جيابا دولي (ghalilé giaba douli)، وفوق هذه الجبّة هناك جبّة أخرى دون أكمام، وهي أطول من الأولى بقليل تسمّى الكيباجي (kebajé)، وهي دائما من الكتّان بالنّسبة للرّجال والسّاتان بالنّسبة للأطفال وهي غنيّة بالتّطريز، دون أن ينسى ذاك الحزام الّذي يوضع على الخصر صوفيّا كان أو حريريا أو مذهّبا، وفي الجهة اليسرى يتمّ وضع الخنجر، وفوق كلّ هذه الألبسة يقول فونتير دي بارادي هناك البرنوس الأبيض أو الأسود[3].

لقد تنوّعت مصادر الرّحلة الأوروبيّة في ذكر اللّباس وتفنّنت في تدوين وصفه وكيفيّته عن مصادر الرّحلة العربيّة، الّتي اهتمّت بشؤون أخرى، ولعلّ لهذا ما يبرره وهو اهتمامها بتدوين كل ما هو جديد.

تبيّن اهتمام القنصل الفرنسي بذكر ملابس بعض مسلمي مدينة الجزائر، فذكر أيضا البالاسكا balasca وهي منقب الصّيّاد (أو الكيس) المذهّب، والّذي يوضع على الظّهر في حالة الذّهاب إلى المعارك، وذكر أيضا ذلك السّروال الكتّاني الّذي يعطى لليولداش والأسرى معا، بينما الأحذية فقد قال عنها بأنّها تسمّى سبّاط sabat، وأحذية النّساء الّتي تستعمل للخروج تسمّى شبيرلي Shibirlé، في حين أنّ البابوش فهو مستعمل عند الرّجال والنّساء معا، وقد قال أيضا بأنّ الدّاي والخوجات والشّوّاش وأفراد القانون والبولكباشي يرتدون بابوشا أصفرا، وأكّد على أنّ بابوش الشّوّاش فيه قطعة حديديّة من

[1]- سيمون بفايفر، المصدرالسابق، ص27.

[2]- Venture de Paradis, **Tunis et Alger…**,op.cit, p141.

[3]- Ibid, p142.

الأسفل ونحن نسمع سيرهم من بعيد[(1)].

وفي شأن البرنوس قال فونتير دي بارادي، هناك البرانيس السّوداء المصنوعة في معسكر والنّساء هنّ اللّواتي ينسجنها، وهي ذات صوف أسود طبيعي غير مصبوغة، وهي جيّدة وثقيلة، وثمنها ما بين 35 و40 فرنك، ويعتبر البرنوس الأسود لباس الاحتفال عند البولكباشي، بينما الدّاي والضّبّاط الكبار في الحكومة يرتدونه أبيضا على القفاطين والجبب المطرّزة[(2)].

لقد أشار محمّد أبو راس النّاصر في رحلته بأنّ القاضي السّيّد الهادي، الّذي التقى به في مدينة الجزائر كان يرتدي الحرير (يلبس حريرا)، فأراد معرفة الشّرع في ذلك من طرف أبو راس، وهذا الأخير أجابه بالتّرخيص في لبس الحرير بما ورد في تأليف أحمد بابا المسمّى "**كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الدّيباج**"[(3)].

لم نعثر في مصادر الرّحلة العربيّة على الاهتمام بذكر اللّباس، مثل **الرّحلة القمريّة ورحلة عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني** التّواتي في حين أنّ شونبيرغ الرّحّالة والضّابط الألماني قد أشار إلى وجود بعض الألبسة المستوردة في مدينة الجزائر[(4)]، غير أنّ الضّابط الفرنسي روزيه عثرنا في رحلته العسكريّة على صورة تبيّن ملابس الرّجال والنّساء معا سنة 1830[(5)]، ويتطابق الوصف فيها مع الحقيقة الواجب ذكرها في هذا الشّأن، إنّ في رحلة الرّسامين ليسيبور وويلد صورة تبيّن جميع تفاصيل اللّباس عند أحد مسلمي مدينة الجزائر، الّذي كان يرتدي صدريّة ذات خطوط حمراء وزرقاء وبيضاء وبرنوسا صوفيّا أبيضا، كما وضع على رأسه شدّا (شاشا) ربط بحزام من وبر[(6)]، وقد أكّد الرّسّامان على أنّ اليطغان (الخنجر) جزء مهمّ من اللّباس التّقليدي للعديد من السّكّان[(7)]. (أنظر الملحق رقم 9).

---

(1)-Venture de Paradis, **Tunis et Alger…**,op.cit, p142.

(2)- Ibid, p143.

(3)- محمّد أبو راس النّاصر، **فتح الإله**...،المصدر السّابق، ص ص91-92.

(4)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص75.

(5)- Rozet et Carrettes, op.cit, p34.

(6)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص13.

(7)- المصدر نفسه، ص41.

3-بعض العادات والتقاليد في الزواج والختان...

إنّ الحقيقة التّاريخيّة الواجب ذكرها في شأن العادات والتّقاليد، الّتي ذكرتها مصادر الرّحلة في مدينة الجزائر إبّان العهد العثماني أنّها متنوّعة ومتعدّدة، فهي تختلف حسب اختلاف الطّبقات والفئات الاجتماعيّة الّتي سكنت المدينة، ولهذا ارتأينا أن ننتقي بعض العادات والتّقاليد دون ذكرها كلّها.

فهذا دالنسو كانو الّذي حلّ بالمدينة سنة 1768، دوّن بعض عادات الجزائريّين في الزّواج، حيث قال أنّ الرّجل الّذي يريد أن يتزوّج لا يستطيع أن يرى عروسته، والزّواج يكون بتقرير من الآخرين، وفي حالة موافقة الزّوج وتفاهمه مع والدي العروس، يرسل إليهم بعض الأطعمة وأيّاما قبل العرس (الحفلة) يكون هناك الرّقص الأندلسي (المورسكي) في بيت العروس، هذه الأخيرة الّتي ترتدي ثيابا جميلة وتضع الجواهر والحلي في يديها وذراعيها وعادة ما تزيّن وجهها بألوان متعدّدة، وتقام وليمة في بيت العروس، وحينما يأتي العريس تغطّى عروسه برداء، ويأخذها على أنغام الطّبول والمزامير، وترافق العروس العديد من النّسوة، وبعد ليلة الدّخلة تعلن الأفراح على أنّ العروس عذراء[1].

يبدو أنّ دالنسو كانو كان يجهل كلّ العادات القبلية الّتي تسبق حفلة الزّواج، كالصّداق وباقي الترتيبات وكيفيّة الاختيار والوليمة الّتي تقام في بيت العريس... وما شابه ذلك، ولنا أن نذكر في هذا المقام ما سجّله وليام شالر، الّذي قال بأنّ تخطيط الزّواج يجرى بواسطة الأمّهات والعلاقات النّسويّة الّتي تسعى بين الطّرفين، ونساء مدينة الجزائر يلتقين إمّا في زيارات متبادلة في المنازل أو في الحمّامات العموميّة[2]، وفي هذه المناسبة، يتمّ وضع البدايات الأولى للزّواج واختيار الفتاة المناسبة لمن يرغب في الزّواج.

أمّا في شأن ختان الأطفال، فكانت بعض الأسر تقيم ولائم وأعراس لمدّة سبعة أيّام في الغالب، إلّا أنّ ابن حمادوش في رحلته، حينما ختن ابنه لم يقم وليمة ولا عرسا، حيث قال: "في يوم الجمعة لقيت حجاما فأخذته إلى داري، وظننت أنّ ابني لا يعرفه، فدخلت الدّار وقلت له اصعد مع عمّك إلى العلوي، ففرّ إلى خارج الباب فاتّبعته أنا والحجام ولم يعلم أهل المنزل ما هو الأمر، فقبضته وأتيت به العلوي وأمسكته فطهّره وكان ختانا لم يعلم به أحد، وكان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس..."[3].

---

(1)- D'alonso Cano, op.cit, p175.

(2)- وليام شالر، المصدر السّابق، ص87.

(3)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص118.

ووجدنا فيما ذكره أحمد الشّريف الزّهار في مصدره **مذكّرات**، أنّ مصطفى باشا حينما ختن ولديه أقام مهرجانا كبيرا بإزاء بستانه بعين الرّبط، ونصب الوطاقات والأخبية، واستقدم البايات وعمّالهم وكافّة أعيان أوطانهم ونادى مناديه في البلد بدعوة السّكّان، وأخرج الطّبّاخين من القصر وأضاف إليهم آخرون...، وجمع كلّ أهل الآلات من التّرك والعرب وجعل كلّ صنف وحده... واختلفوا في نفائس الأطعمة والإكثار منها، وكانوا يطعمون كافّة النّاس ثلاث مرّات في كلّ يوم والقهوة في كلّ وقت، وكانت المدافع تضرب كلّ يوم من جميع الحصون، وأصحاب الخيل يتسابقون...[1]، إنّه مشهد من مشاهد الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في الجانب الثّقافي، يدلّ على الاهتمام بهذه العادة والتّفنّن فيها.

كما قال أنّ النّوبة (الموسيقى) تضرب صباحا ومساءً...، وأصحاب الآلات يطوفون على من في الأخبية والوطاقات طائفة بعد طائفة...، واستمرّت الوليمة سبعة أيّام، وفي اليوم السّابع وزّع على كلّ من حضر عشرة محبوب لكلّ واحد، وكذلك وزّع على أهل الزّوايا والكتاتيب، وأكثر من إفاضة الصّدقات وتعميم الإحسان، وأمر مصطفى باشا بختان أولاد الفقراء فاجتمع منهم خلق كثير... وقضى دين المدينين... وبلغ الغاية في العطاء[2]، هذا حفل ختان الأثرياء، ومن الرّاجح أنّ حفل الختان في الطّبقات المتوسّطة يكون أقلّ بكثير ممّا ذكره أحمد الشّريف الزّهار.

ولقد لمسنا في مصادر الرّحلة عادة مهمّة مارسها العديد من سكّان مدينة الجزائر، المسلمين على وجه الخصوص، وهي زيارة الأضرحة والتّبرّك بقبور الأولياء خصوصا في **النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة** للتّمقروتي[3] أو **إحراز المعلى والرّقيب**... للمكناسي[4]، وكذا **لسان المقال** لابن حمادوش[5] وحتّى ابن المسيّب في رحلته إلى البقاع المقدّسة وفي قصيدته **يا الورشان**، يلحّ فيها على زيارة قبر عبد الرّحمان الثّعالبي[6]، وهناك عادة أخرى وهي الهروب والالتجاء إلى قبب المرابطين والّذي يذهب هناك ترفع عنه العقوبة، كما ذكر ذلك الرّحّالة الألماني شونبيرغ[7].

---

[1]- أحمد الشّريف الزّهار، **مذكّرات الحاج أحمد الشّريف الزّهار نقيب أشراف الجزائر 1168-1246هـ/1754-1830م**، تحقيق أحمد توفيق المدني، المؤسّسة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر 1974، ص82.

[2]- نفسه، ص83.

[3]- أبوالحسن التّمقروتي، المصدر السّابق، ص90.

[4]- ابن عثمان المكناسي، المصدر السّابق، ص330.

[5]- ابن حمادوش، المصدر السّابق، ص126.

[6]- ناصر الدّين سعيدوني، **من التّراث التّاريخي**...، المرجع السّابق، ص411.

[7]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات الرّحّالين**...، المرجع السّابق، ص46.

إنّ من أهمّ الحفلات الّتي كانت تقام في مدينة الجزائر، والّتي ذكرت في مصدر **رحلة طريفة في إيّالة الجزائر** هي ما يقوم بإعدادها وتنشيطها المزاور، وتجرى هذه الحفلات مساءً في فناء مربّع يتوسّط المسكن، والأرضيّة تزيّن بسجاد يتربّع فوقه المتفرّجون ويكوّنون حلقة، ويأخذ الموسيقيّون أماكنهم بينما شرفات الطّابق الأوّل والسّطح فيخصّصان للنّساء، فينزلن بالتّناوب ويقمن برقصات متنوّعة...، ولا يقتضي نوع الرّقص فضاءً واسعا لأنّ الرّاقصات يمكثن وهنّ يضربن الأرض بأقدامهنّ فوق زربيّة بعد أن ينشدن أغاني من النّوع المألوف عندهم، وعندما يتعبن يسدلن المنديل الّذي بين أيديهنّ ويتوقّفن عن الرّقص بعد حصولهنّ على قطع نقديّة من طرف المتفرّجين[1].

لقد كان عدد اليهود في مدينة الجزائر كبيرا، ولهم حقّ ممارسة شعائرهم الدّينيّة وجميع طقوسهم وعاداتهم، ومن هذه الأخيرة أنّهم دأبوا على الاحتفال بمناسبة ولادة الأطفال عندهم، وهذا ما قام برسمه الفنّانان الفرنسيّان ليسيور وويلد، كما صرّحا أنّ يهود مدينة الجزائر ينقسمون إلى ملّتين متباينتين؛ ملّة القريطيين الّذين يتعلّقون بالمعنى الضّيّق لشريعة موسى وملّة الربيين الذين يشرحون شريعة موسى معتمدين في هذا الأمر على التّقاليد الشّفويّة وتأويلات التّلمود[2].

وتفيدنا الكثير من مصادر الرّحلة بالعديد من العادات والتّقاليد، الّتي كانت تمارس في مدينة الجزائر بين الفينة والأخرى، وهي متكرّرة في غالب الأحيان ونجمعها فيما يلي:

– عادة قراءة **صحيح البخاري** في الجامع الكبير، وهذه العادة يذكرها ابن حمادوش عدّة مرّات في رحلته[3].

– عادة إكرام الضّيوف وتقديم يد العون لهم بما يحتاجون، خصوصا الحجّاج منهم، كما ذكر ذلك الزّياني في رحلته[4]، والوزّان قبله، والّذي نزل عند السّفير الّذي ذهب إلى الأندلس على حدّ ذكره[5]، ونفس الأمر ينطبق مع أبي راس النّاصر في رحلته، حيث نزل هو الآخر ضيفا عند بعض

---

(1)– ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص25.

(2)– نفس المصدر، ص39. وعن اليهود وهجراتهم وطوائفهم انظر نجوى طوبال، **طائفة اليهود** بمجتمع **مدينة الجزائر 1700–1830 من خلال سجلّات المحاكم الشّرعيّة**، دار الشّروق للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2008، ص ص60-74.

(3)– عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص118.

(4)– أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص151.

(5)– الحسن الوزّان، المصدر السّابق، ص39.

علماء المدينة حينها (محمّد بن مالك، محمّد بن جعدون وأحمد بن عمّار)[1].

– والمتصفّح لرحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر سنة 1732، يجد إشارة إلى العادات حيث قال: "عادات وتقاليد مدينة الجزائر تحدّدها ضوابط الشّريعة الإسلاميّة، فالمسلم الصّالح يتوجّب عليه حسن معاملة أصدقائه، كما يطلب منه أن يكون شديدا مع أعدائه رحيما بالمنهزمين"[2]، ويقول أيضا أنّ أغلب العادات الّتي يمارسها الجزائريّون تستند في أساسها إلى قوانين وليس فيها ما يفاجئ الأوروبّي، كغياب النّساء عن الحياة العامّة واحتشامهنّ الشّديد، فلا يسرن في الأزقّة دون حجاب، وعندما يسافرن على ظهور البغال يكن مختبئات في ستائر غريبة[3]، (وهذا ما سنشرحه في الحديث عن المرأة في عنصر لاحق).

– الامتناع عن شرب الخمر عند الأتقياء من المسلمين، ومعنى ذلك أنّه كان من المسلمين في مدينة الجزائر من يشرب الخمر[4]، على حدّ ذكر سيمون بفايفر في مذكّراته.

– عادة التّنزّه في الحدائق والذّهاب خارج مدينة الجزائر، إلى البيوت (المنازل) الّتي يملكها الأتراك في فحوص مدينة الجزائر، وقد ذكرت في عدّة مصادر رحلة عربيّة وأوروبيّة[5].

وكإضافة لما ذكرناه عن العادات والتّقاليد المصاحبة للزّواج، فقد أورد سعد الدّين بن شنب مقالة في غاية الأهميّة عن عقد زواج بمدينة الجزائر في بدايات القرن الثّامن عشر، تتضمن العديد من الشّروط الّتي كان معمولا بها في تلك الفترة فيما يخص الصّداق، (من نقود، ألبسة مثل القفاطين، قناطير الصّوف، الأمتين (الوصيفتين)... وأواقي الجواهر... وغيرها)[6]، وتكاد تنطبق على ما أورده ابن حمادوش في رحلته عن عقود الزواج.

---

[1]- أبو راس النّاصر، **فتح الإله**...،المصدر السّابق، ص ص91-98.

[2]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص46.

[3]- نفس المصدر، ص47.

[4]- سيمون بفايفر، المصدر السّابق، ص51.

[5]- عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص210.

[6]- Saad Eddine Bencheneb, **''un contrat de mariage algérois du début. Du XVIII² siècle''**, in A.I.E.O, 1959, pp98-117.

4-الاحتفالات في الأعياد والمناسبات الدّينيّة:

لم تتحدّث جميع مصادر الرّحلة عن المناسبات الدّينيّة الّتي يعرفها المسلمون، (شهر رمضان، ليلة القدر، العيدين، المولد النّبوي الشّريف...)، لكن هناك من أصحاب مصادر الرّحلة من صادف وجودهم في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني بعض المناسبات، فسجّلوا ما شاهدوه وقيّدوا في هذه الإحتفالات ملاحظاتهم وانطباعاتهم.

إنّ أوّل مصدر رحلة وجدناه يتحدّث عن شهر رمضان، هو لصاحبه توماس هيز في بداية الرّبع الأخير من القرن السّابع عشر، والّذي صادف الأثنين 18 من سنة 1675، حيث ذكر بأنّ المحمّديّين (يقصد المسلمين في مدينة الجزائر) أوّل يوم فيه يترقّبون الهلال الجديد، لذلك رأيناهم يصعدون إلى أسطح منازلهم لكي يشاهدوا الهلال، وبعد مدّة سمعنا المناداة في كامل المدينة إعلانا عن بداية رمضان والّذي يدوم شهرا إلى أن يرى هلالا جديدا، وقال توماس هيز: خلال هذا الشّهر لا يحقّ لهم (للمسلمين) الأكل ما عدا في اللّيل، وفي أثناء هذه المدة يمنع شرب الخمر والتّبغ، وفي الحانات يفرض نفس الشّيء، وفي اللّيل هناك ظاهرة قرع الطّبل عدّة مرّات للاستيقاظ، وكذلك يحدث طرق على أبواب المنازل لإعلام النّاس (السّكّان) بساعة السّحور، بينما بابا المدينة يبقيان مفتوحين، والتّجوّل في طرق المدينة وأزقّتها يكون بكلّ حريّة[1]...، وفي هذا الشّأن بالذّات دوّن الأسير الإسباني هايدو ملاحظاته أيّام أسره عن شهر رمضان والعادات المصاحبة له، وتحدّث عمّن يجوز لهم الأكل في رمضان مثل المرأة الحامل والمريض والمسافر[2].

ومن حديث توماس هيز يتّضح الاهتمام الكبير بشهر رمضان من خلال ترقّب رؤية هلاله وإعلام النّاس به، وقرع الطّبول وطرق الأبواب في وقت السّحور وكذا تلك الحريّة الّتي لم يعهدها سكّان مدينة الجزائر في اللّيل من خلال التّجوّل والاستمتاع بليالي رمضان، حيث يقول عنها دي تاسي بأنّ شهر رمضان شهر الصّيام، شهر مهرجانات للشّباب وللتّحرّر، وفي اللّيل يحملون الطّبول وآلات الموسيقى "Gitards"، وهم ينشدون ويغنّون وبين الفينة والأخرى يأكلون ويشربون، لكن الأشخاص المحترمين يبقون في منازلهم[3].

والمتصفّح لرحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت يجد حديثه عن رمضان، الّذي يمنع فيه

---

(1)- Thomas Hees, op.cit, pp102-103.

(2)- Diego de Haedo, op.cit, p159.

(3)- Laugier de Tassy, op.cit, p77.

الأكل والشّرب أثناء اليوم وطيلة الشّهر، اعترافه بأنّ الصّوم ليس منهكا سوى للطّبقة الدّنيا، وهي جماعة البرانيّة والّذين يلتزمون بالصّيام رغم ما يقومون به من أعمالٍ شاقة جدّا، بينما من هم في منزلة أرفع وهم الحضر يتجنّبون هذا الإجهاد ويحضّرون في اللّيل ما يقومون به في النّهار[1].

تكاد تتّفق مصادر الرّحلة الّتي تحدّثت عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني حول ظاهرة انعدام المهرجانات إلّا في رمضان وبعده، ومن هذه المصادر ما دوّنه الرّحّالة والضّابط الرّوسي كوكوفتسوف[2] في رحلته.

كما اعترف أيضا الضّابط الألماني شونبيرغ في رحلته إلى الجزائر سنة 1830، بأنّه في شهر رمضان يسمح للجنود بالبقاء في المدينة والتّسلية ما وجدوا إلى ذلك سبيلا[3]، يبدو من خلال هذا أنّ الجنود في باقي الأشهر كان لزاما عليهم المكوث في ثكناتهم، لأنّه وكما هو معروف أنّ مفاتيح أبواب المدينة والثّكنات كانت تسلّم للدّاي في المساء (عند غروب الشّمس).

ولقد صرّح كل من ليسيور وويلد في رحلتهما الطّريفة إلى إيّالة الجزائر بعد سنة 1830، بأنّ رمضان يدوم أربعين يوما[4]، وهما بذلك قد وقعا في خطأ يدلّ على أنّهما لم يعرفا عدد أيّام الصّيام عند المسلمين والّتي هي ما بين 29 و30 يوما، عكس الكثيرين من الكتّاب وأصحاب مصادر الرّحلة والقناصل ورجال الدّين... وغيرهم، من أمثال القنصل فاليار والّذي سجّل انطباعاته عن شهر رمضان وما يكون فيه[5]، وهو بذلك قد أكّد ما ورد في مصادر الرّحلة، مثل الامتناع عن الأكل والقهوة والتّدخين والشّرب طيلة النّهار، بينما في اللّيل يكون التّرفيه عن النّفس، ولعلّ الأمر نفسه ينطبق عمّا شاهده الرّحّالة الإنجليز في المشرق عند زيارتهم له، فليالي رمضان هي بمثابة حفلات[6].

وكما هم معروف، ففي شهر رمضان ليلة مباركة هي خير من ألف شهر، وفيها يقول المولى عزّ وجلّ: "﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ

---

[1]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص48.

[2]- Marcel Emerit, **"Description de l'Algérie…"**, op.cit, p211.

[3]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات**...، المرجع السّابق، ص57.

[4]- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص36.

[5]- C.PH.Vallière, op.cit, p32.

[6]- Joelle Redouane, **L'orient arabe vu par les voyageurs anglais,** entreprise nationale du livre, Alger, 1988, p190.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾"[1].

وفي هذا الموضوع دوّن ابن حمادوش الطّبيب الرّحّالة عادة أهل مدينة الجزائر في هذه اللّيلة، أنّ متولّي الجامع الكبير يفرغ قنطارا أو أكثر من الشّمع، ويفرّقه على ثلاثين شمعة خضراء ما بين الثّلاثة أرطال إلى الأربعة في كلّ واحدة، وبعد ذلك يحملونها إلى دار المفتي أو الوكيل، فإذا صلّى العصر أخرج المؤذّنون أو غيرهم الشموع في أيديهم ثمّ يطوفون مدينة الجزائر، يذهبون بها إلى دار الإمارة (مقر إقامة الحاكم) ويرجعون من طريق آخر، وأحد الموقتين ينشد، والباقي يرفعون أصواتهم بالصّلاة والسّلام على النّبي، إلى أن يدخلوا المسجد ويتمّ وضع تلك الشّموع في حسك ويشعلونها مع كثير من قناديل القوارير[2]، ولعلّ هذه الأمسية (اللّيلة) هي الّتي كتب عنها الرّحّالة الفرنسي روزيه حين قال: "المصابيح في المساجد تضاء في الاحتفالات الكبرى وفي الأمسيات المقدّسة عند المسلمين[3].

يصوّر ابن حمادوش في رحلته كلّ المشهد الاحتفالي بليلة القدر في مدينة الجزائر، حيث يذكر إحياء المسلمين الليل كلّه بالصلاة إلى غاية الفجر، وإذا قرب هذا الأخير أوتروا، وقرأوا ما تيسّر من الفواتح، ثمّ يؤذّن المؤذّن للفجر، فإذا ركع النّاس في الفجر صلّوا بغلس، وإذا فرغوا من التّسبيح وما يذكر بعد الصّلاة قرأوا حزب الصّبح، فإذا انتهوا من هذا أتى موقد القناديل ليأخذ تلك الشّموع إلى المحراب، وكان الإمام فيه مجتمعا بقرائه ويقرأون من باب "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة" إلى آخر الختم، ثمّ يسبّحون (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) ويعاد هذا التّسبيح مائة مرّة، ثمّ يرشّ بماء الورد كلّ الحاضرين، ويبدأ الإمام في قراءة الدّعاء المعدّ لذلك، والمصلّون رافعو أيديهم للتّأمين ثمّ ينصرفون[4].

ويقول ابن حمادوش في شأن هذا الفعل، بأنّه عادة الجزائر (يقصد المدينة) ومن يسكنها من المسلمين، ثمّ يذهبون إلى خارج المدينة نحو قبر سيدي عبد الرّحمان الثّعالبي، ويحضرون ختم البخاري أيضا على هذه الصّفة، وبعد ذلك يتهيأون للعيد، وقد حضر هو بنفسه في كلا الموضعين مع المسلمين[5].

والجدير بالذّكر أنّ الملاحظة الّتي دوّنها الأسير الإسباني هايدو عن ليلة السّابع والعشرين، هي ليلة

---

[1]- القرآن الكريم، سورة القدر، من الآية 1 إلى الآية 5.

[2]- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص ص125-126.

[3]- Rozet et Carrettes, op.cit, p15.

[4]- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص126.

[5]- نفس المصدر، ص126.

فيها احتفال كبير، وتوزّع الصّدقات على الفقراء بما فيها المأكولات في كلّ أرجاء المدينة، وفي آخر أيّام رمضان يتهيّأ النّاس لاستقبال العيد[1].

لم تذكر بعض مصادر الرّحلة الحديث عن الاحتفالات أيّام العيدين، مثل **وصف إفريقيا** للوزّان، **النّفحة المسكيّة للتّمقروتي** و**رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب**...، لكن في مصادر أخرى اهتمّ أصحابها بتدوين ما شاهدوه في مدينة الجزائر خلال هذه المناسبات الدّينيّة، وأوّل مصدر من المصادر الّتي هي قيد الدّراسة، والّتي جاء فيها ذكر عيد الفطر، وما يصاحبه من عادات وأعمال، هي رحلة الفرنسي توماس هيز، الّذي صادف وجوده في المدينة حلول العيد بعد شهر رمضان المعظّم، وهي مناسبة يتمّ فيها تهنئة الدّاي وتقبيل يده، لذلك يذهب النّاس إلى القصر (مقرّ إقامة الدّاي)، بعضهم يرتدي لباسا أخضرا والبعض الآخر لباسا أحمرا على حدّ قوله[2].

لقد قدّم توماس هيز وصفا دقيقا لمشهد فيه ألعاب المصارعة (المبارزة)[3] على الطّريقة التّركيّة، ويكاد حديثه ينطبق مع ما ورد في رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت، هذا الأخير الّذي دوّن معلومات في غاية الأهمّيّة عن عيد الفطر حيث قال: "مع نهاية شهر رمضان وعند رؤية هلال العيد، ينقل الخبر على جناح السّرعة إلى الدّاي ليأمر بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء شهر رمضان وحلول العيد الّذي يعرف لدى الأتراك ببيرم Bayram وفي لغة الفرانكا بباسكا Pasaca، ولقد جرت العادة في صبيحة اليوم الأوّل من عيد الفطر، أن يذهب النّاس لإلقاء السّلام وتقديم التّهنئة إلى الأفندي الأكبر أو الدّاي، وأثناء ذلك يكون هذا الأخير معرّضا لأخطار كبيرة..."[4]، ولعلّ في مقدّمتها محاولة الاغتيال، والّتي عادة ما كانت تحدث في مثل هذه المناسبات.

لقد ذهب ج.أو.هابنسترايت رفقة القنصل الإنجليزي لتقديم التّهاني للدّاي، فوجداه في لباس الحفل الرّسمي جالسا على جلد نمر في قاعة المجلس وأعضاء الدّيوان يحيطون به، وضعت أمامه مائدة يتناول عليها وجبة الغداء في أطباق من الفخّار، ويكون أوّل من يبدأ الأكل مع موظّفيه السّاميّين، بعدها يأتي دور قدماء الانكشاريّة ثمّ الجنود ثمّ العامّة قبل تقديم الحلويّات والقهوة[5].

---

(1)- Diego de Haedo, op.cit, p160.

(2)- Thomas Hees, op.cit, pp109-114.

(3)- Ibid, p115.

(4)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص ص48-49.

(5)- نفسه المصدر، ص49.

وفي شأن لعبة المصارعة (أو المبارزة) والّتي تكاد تتّفق عليها مصادر الرّحلة، الّتي ذكرت كيفيّتها، فيقول هابنسترايت هي مبارزة رسميّة اعتاد الأتراك القيام بها بين بعضهم البعض، حيث يغطّى المكان المخصّص لها بالرّمل ويتقدّم إليها المتصارعون شبه عراة، يرتدون فقط سراويل قصيرة من الجلد المدهون بالزّيت مثل بقيّة أجسامهم لتكون ملساء، وبعد الصّلاة يتبارى المتصارعون واحدا تلوى الآخر، فالّذي يسقط خصمه على ظهره هو الفائز، وعندما لا تحسم المصارعة تؤجّل إلى آخر أيّام العيد (اليوم الثّالث)، وعادة هذه المصارعة تكون مصحوبة بأنغام موسيقى الانكشاريّة، وبجانب هذه اللّعبة، يتسلّى النّاس بكلّ أنواع الألعاب...[1].

يقول القنصل فاليار بأنّ هذا الاحتفال (يوم العيد) مطابقا تماما لما يحدث في القسطنطينيّة، حيث يتمّ اختيار المتصارعين من بين أقوى وأضخم الرّجال، وعادة ما يكون من بينهم الشّواش الخضر[2]، (الّذين يقدّمون النّاس للمحاكمة).

وما تجدر الإشارة إليه، أنّ في أيّام العيد، الّتي يسمّيها بعض الرّحّالة الأوروبيّين مهرجانات[3] تقدّم فرقة من الزّنوج رقصات على أنغام الموسيقى[4]، ويرتدي الأطفال في هذه المناسبة لباسا جميلا وشواشي مزيّنة بالذّهب واللّؤلؤ وكذلك الكبار تكون ملابسهم حسنة ولائقة، وتكثر الحلويّات، وعادة ما تباع القهوة والشّراب البارد (المثلج) والتّبغ في الخيم خارج أسوار مدينة الجزائر، فهي عند الرّحّالة الأوروبيّين مهرجانات دينيّة.

أمّا فيما يخصّ الاحتفال بعيد الأضحى، فهابنسترايت الألماني يخبرنا عنه، فيقول: "قد سمح لي تأخّر إقلاع السّفينة بأن أحضر عيد بيرم والّذي يعرف بعيد الخروف "Pasaca de Carnieros"، لأنّ فيه يتمّ ذبح الخرفان وأكل لحومها بصفة فرديّة أو جماعيّة"[5]، وقد صادف حلول عيد الأضحى أيّام تواجد هذا الرّحّالة الألماني بالمدينة في الأوّل من شهر جوان سنة 1732، وفيه أيضا تقدّم التّهاني للدّاي في قصره وبعدها تقام وليمة كبيرة يحضرها كبار الشّخصيّات في الدّولة، على شرف الدّاي، وتقام فيه المبارزة مثلما يحدث في عيد الفطر، والّذي يسقط خصمه في المبارزة يحصل على كيس من القروش

---

(1)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص49.

(2)-C.PH.Vallière, op.cit, p32.

(3)- Marcel Emerit, **"Description de l'Algérie…"**, op.cit, p211.

(4)- Thomas Hees, op.cit, p118. ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص36

(5)- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص79.

"Piastres"[1].

وللفائدة التّاريخيّة، فإنّ هايدو الأسير الإسباني قد دوّن هو الآخر العديد من المعارف والمعلومات حول العيدين (الفطر والأضحى)، وكيفية الأحتفال بهاتين المناسبتين[2]، وتبيّن لنا أنّه ملاحظ دقيق ومسجّل بارع للمشاهد الغريبة عنه بكلّ تفاصيلها، رغم ما يحمله من مقت شديد للأتراك خصوصا والمسلمين عموما.

إذن الأعياد هي أيّام أفراح وسرور ولعب ورقص ومأكولات، وهي مهرجانات لكن مدّتها قصيرة جدّا[3]، ونفس الملاحظة قدّمها الرّحّالة الفرنسيّون عن المصريّين الّذين يحتفلون بعيد الفطر وعيد الأضحى، وكانوا يحرصون في رمضان على توزيع اللّحم على الفقراء ويسمحون لأطفالهم بالخروج والزّيارة، وفي ليلة القدر تقام الاحتفالات في شوارع القاهرة ويتمّ إنارة الفوانيس في المساجد والحوانيت[4].

أمّا فيما يخصّ الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف والّذي يصادف 12 ربيع الأوّل من كلّ سنة، فإنّ أحسن مصدر رحلة وجدناه يتحدّث عن هذه المناسبة، هو **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب** صلّى اللّه عليه وسلّم لأحمد بن عمّار، الّذي قال: "جرت عادة أهل بلادنا الجزائر، حرسها الله من الدّوائر، أنّه إذا دخل شهر ربيع الأوّل، انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعول، إلى نظم القصائد المديحيّات والموشحات النّبويّات ويلحنونها عن طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرؤونها بالأصوات المطربة، ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرّؤساء والنّظيمة من المساجد والمكاتب والمزارات وهم في أكمل زينة وفي أحسن وأجمل شارات تعظيما لهذا الموسم الّذي شرف به الإسلام..."[5].

والحقيقة أنّ العديد من علماء وأدباء مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، كانوا متضلعين في كتابة الموشحات النّبويّة والقصائد المديحيّة دلالة منهم على حبّهم العظيم للرّسول محمّد صلّى الله عليه

---

[1]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص ص79-80.

[2]- Diego de Haedo, op.cit, pp160-162.

[3]-C.PH.Vallière, op.cit, pp 32-33.

[4]- إلهام محمّد عي ذهني، المرجع السّابق، ص92.

[5]- أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص ص15-16.

وسلّم، من أمثال الشّيخ[1] أحمد المانجلّاتي[2].

ولنا في هذا المقام أن نذكر بعض الأبيات الشّعريّة، الّتي ألّفها كل من أحمد بن عمّار وأحمد المانجلّاتي، فيقول الأوّل[3]:

يـــا نســـيما بـــات مـــن زهـــر الرّبـــا   يقتفــــــــــي الرّكبــــــــــان.

احملــــن منّــــي ســــلاما طيّبـــا   لأهــــــــــل البـــــــــــان.

اقـــرأن منّـــي ســـلاما عبقـــا   إن بـــــــــدت نجـــــــــد.

أنّ لـــي قلبـــا إليهـــا شـــيّقا   شـــــــــقّه وجـــــــــد.

ويقول الثّاني (أحمد المانجلّاتي)[4]:

يـــا حســـن بـــدر لـــه كـــلام   يجلّـــــه الـــــرّوح الكلـــــيم.

علـــى هـــواه انطـــوت عظـــام   وجاهـــه فـــي الـــورى عظـــيم.

وفي موضع آخر من رحلة ابن عمّار، ذكر أنّ سكّان مدينة الجزائر من المسلمين يحتفلون بموسم مولده صلّى الله عليه وسلّم، ويتّخذون هذا الموسم عيدا من أعياد السّنة، تشريفا وتعظيما لليوم الّذي ظهر فيه نوره عليه الصّلاة والسّلام، وقد أورد أحمد بن عمّار العديد من الأدلّة الشّرعيّة الّتي تجيز الاحتفال بالمولد النّبوي من طرف العلماء[5].

وفي شأن الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف يقول هايدو: وبعد ثلاثة أشهر قمريّة وثلاثة عشر يوما بعد عيد الأضحى، يحتفل سكّان المدينة بالمولد النّبوي، وهم لا يخرجون للصّلاة مثلما هو الحال في العيدين إلى المكان المقدّس (مصلّى العيد)، لكن في هذه الأمسية يشعلون الشّموع والقناديل في كلّ مساجد المدينة، وكذلك في المنازل، ويحضّرون الكسكس بكميّات كبيرة مطبوخا مع اللّحم، ويجتمعون

---

(1)- الشّيخ: ستبقى دائما عبارة الشّيخ في الفكر العربي الإسلامي حيّزا مهمّا، مثلما تحتلّ مجالا معتبرا وقيما سامية خاصّة في حضارة الشّرق، فالشّيخ يمثّل رمز الوقار ورمز الورع والفكر والقدرة على التّأثير في الآخرين، ينظر: محمّد أوجرتني، **أسرة بن قانة ومكانتها السّياسيّة والاجتماعيّة خلال العهد العثماني**، مذكّرة ماجستير في التّاريخ الحديث، جامعة الأمير ع.القادر للعلوم الإسلاميّة، 2004-2005، ص70.

(2)- ابن علي وابن عمّار وآخرون، **أشعار جزائريّة**،المصدر السابق، ص137.

(3)- أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص16.

(4)- ابن علي وابن عمّار وآخرون،**أشعار جزائرية**، المصدر السّابق، ص137.

(5)- أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص92.

في ساحة المنزل ويأكلون ذلك جماعيّا (أهل البيت كلّهم)[1]، لكن ما يعاب على هايدو أنّ تأويلاته للعادات الدّينيّة كلّها خاطئة، وبعيدة كلّ البعد عن المفهوم الحقيقي والمغزى الصّحيح من الاحتفالات الدّينيّة، والّتي منها المولد النّبوي الشّريف.

وإن غاب نظم الموشحات والأزجال النّبويّة في الاحتفالات بالمولد النّبوي الشّريف حاليا، إلّا أنّ ظاهرة إشعال الشّموع وإيقاد الأنوار وتدارس سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ما زالت حاضرة وفي كثير من الأسر وفي العديد من مساجد المدينة.

5- المرأة في المدينة:

إنّ الحديث عن المرأة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني من خلال مصادر الرّحلة، أمر تكاد تتميّز به مصادر الرّحلة الأوروبيّة، الّتي تفنّنت وتنوّعت في الإخبار عن المرأة من حيث مكانتها، دورها، لباسها، بعض العادات والتّقاليد المتعلّقة بها وبشؤونها، وأوّل مصدر رحلة عثرنا فيه عن المرأة، هو رحلة مارمول كاربخال الّذي أكّد فيه دور امرأة مسنّة كانت تعيش في المدينة أنبأت بهزيمة تلحق الإسبانيّين المهاجمين لمدينة الجزائر، وصدّق النّاس نبوءتها، كما استغلّها الأتراك في تحريض المسلمين للدّفاع عن المدينة وتثبيط النّصارى[2]، ورغم ذلك تبقى رواية مارمول في شأن نبوءة هذه المرأة محلّ شكٍّ، وإن حدثت فعلا، فهي عامل مهمّ دلّ على أنّ العثمانيّين استخدموا أسلوب دعائي ووسيلة فعّالة في الدّفاع عن المدينة.

بقدر ما أقرّ الرّحّالة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي بأنّ نساء التّرك والموريّين لا يستطيع أحد رؤيتهنّ لارتدائهنّ ملابس مستورة جدّا[3]، إلّا أنّ بعض الرّحّالة دوّنوا الكثير في رحلاتهم عن نساء مدينة الجزائر، فهذا شوفالييه دارفيو يعترف في رحلته بصعوبة الكتابة عن لباس المرأة في مدينة الجزائر مثلا، لأنّه لا يوجد أيّ اتّصال معهنّ، إلّا أنّه رأى مرّة امرأة يهوديّة ومجموعة من النّساء والبنات برفقتهنّ، فدوّن ما يلي: "عندما يخرجن من منازلهنّ يغطّين من رؤوسهنّ إلى أرجلهنّ، حتّى أنّنا لا نستطيع أن نرى إلّا أعينهنّ..."[4] ولعلّ هذا ما أراد نيكولاس قوله.

وللحقيقة التّاريخيّة، فقد علّق شوفالييه دارفيو على بعض نساء مدينة الجزائر بأنّهنّ قصيرات

---

(1)- Diego de Haedo, **Topographie…**,op.cit, pp163-164.

(2)- مارمول كاربخال، المصدر السّابق، ص367.

(3)- Nicolas de Nicolay, op.cit, p19.

(4)- Chevalier D'Arvieux, op.cit, p285.

وثخينات، لأنّهنّ لا يخرجن إلّا عند الذّهاب إلى الحمّام أو زيارة القبور، برفقة أسيراتهنّ عند حمل الجفان الكبيرة، خشبيّة كانت أو نحاسيّة مملوءة بالطّعام للفقراء[1].

ورغم صعوبة وصف ملابس المرأة في مدينة الجزائر خصوصا المرأة المسلمة، إلّا أنّ شوفالييه دارفيو أقدم على ذكر عدة أنواع من لباس المرأة، مثل: السّراويل الدّاخليّة، القمصان الطّويلة، التّنّورات المزيّنة والمطرّزة بالحرير وبعدّة ألوان والكاميسول "Camissole"، ذو الأزرار الذّهبيّة أو الحريريّة، هذا في فصل الصّيف، بينما في فصل الشّتاء فهي ترتدي تنّورات طويلة وعريضة وقمصان عديدة، وسترة لا تساعدها على السّير أو الجلوس جيّدا[2]، (لعلّها العجار)، قطعة قماش تلفّ بها المرأة جسدها.

بينما شعرهنّ يقول دارفيو مضفور إلى الخلف وهو مسدول على ظهورهنّ ومشدود في نهايته بقطعة فضيّة بيّنة وجليّة، بينما الزّينة الّتي تضعنها على رؤوسهنّ فهي عموما مخمل، وهي مزيّنة بقطع نقديّة ذهبيّة أو فضيّة وكذلك بأحجار ولؤلؤ متعدّدة الألوان، وآذانهنّ مثقوبة لوضع بعض الأقراط فيها ذهبيّة أو فضيّة أو من أنواع أخرى.

ولقد استهجن شوفالييه دارفيو كلّ ما يتعلّق بملابس المرأة في مدينة الجزائر، فقال في شأن ذلك: "لا شيء حسن ومستحب"، وهو بذلك لم يخف عدم إعجابه بهذه العادات والتّقاليد الّتي تخصّ المرأة، حتّى عند زواجها، لأنّه أسهب في الحديث عن كيفيّة تزيين العروس، ولبسها الأساور والخواتيم والقلادات وتلك الزينة الّتي كانت تضعها على وجهها والأصباغ على يديها (لعلّها الحناء)[3]...

والمتصفّح لرحلة ألفرد دابر **وصف إفريقيا** يجد رأيه في نساء مدينة الجزائر، حيث قال عنهنّ بأنّهنّ لا يعملن أيّ شيء، يمضين وقتهنّ في الحديث والجلوس على البساطات أو الزّيارات أو الذّهاب إلى الحمّام أو إلى المقابر لزيارة موتاهنّ، وفي بعض الأحيان يتنزّهن في الحدائق، ويقوم الأتراك بحمايتهنّ[4]، يبدو هذا الحكم قاسيا من طرف الرّحّالة الفرنسي ألفرد دابر، فالمرأة في مدينة الجزائر كان لها دور عظيم في الحياة المنزليّة والّتي كان يُضرب بها المثل في عفّة النّساء، وكنّ يسهرن على تربية الأولاد على الأخلاق المحمودة

(1)- Chevalier D'Arvieux, op.cit,p285.

(2)- Ibid, p286.

(3)- Ibid, pp286-288.

(4)- Alfred D'Apper, op.cit, p175.

والسّير المرضية[1]، كما منهنّ من كانت تقوم بالخياطة والتطريز[2]، ناهيك عن الأعمال المنزليّة الأخرى.

وتكاد ملاحظات ألفرد دابر في شأن لباس النّساء في مدينة الجزائر تنطبق مع ما أورده شوفالييه دارفيو، دون تعليقه أو إصدار حكم على هذا اللّباس، وفيما يخصّ آراء بوتي دولاكروا حول نساء مدينة الجزائر، فقد أظهر مقته الشّديد لهنّ واستهجن أوصافهنّ وأفعالهنّ، لكنّه اعترف بذكائهنّ الجيّد وأساليبهنّ المتعدّدة في الحصول على ما يردن[3].

يفيدنا دي تاسي بالعديد من الملاحظات عن نساء مدينة الجزائر، فاليهوديات يقول عنهنّ بأنّهنّ يرتدين لباسهنّ مثل الموريّات، إلّا أنّ وجوههنّ مكشوفة حتّى يتميّزن عن المحمّديّات، واللّواتي لا نرى إلّا أعينهنّ، ويقول أيضا دي تاسي لا وجود للنّساء التّركيّات في مدينة الجزائر[4].

أمّا في شأن اللّباس فيقول عنهنّ بأنّهنّ يلبسن مثل الرّجال تقريبا سراويل طويلة، وهناك منهنّ من ينتعلن أحذية عاديّة وأخريات ينتعلن أحذية جلديّة غالية، وستراتهنّ وقفاطينهنّ عادة ما تكون من حرير، مزيّنة بالفضّة والذّهب، بينما شعورهنّ مضفورة وعليها بعض الجواهر والزّينة، كما تضعن في آذانهنّ أقراطا وعلى رقابهنّ حلي بخمس أو ست دورات بالإضافة إلى الأساور والخواتيم، ممّا يدلّ على غناهنّ وثرائهنّ، يرتدين قطعة قماشيّة بيضاء تغطّي أجسادهنّ من رؤوسهنّ إلى أرجلهنّ، وهي رقيقة وشفّافة، حتّى لا يظهر منهنّ إلّا أعينهنّ[5]، دلالة على الاحتشام والحياء، وهنّ في ذلك ممتثلات لأمر الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾وقوله أيضا: "﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾[6].

---

[1]-نور الدّين عبد القادر، المرجع السّابق، ص234.

[2]- عائشة غطّاس، المرجع السّابق، ص254.

[3]- Marcel Emerit, **"un mémoire sur Alger…"**,op.cit, p19.

[4]- Laugier de Tassy, op.cit, pp57-58.

[5]- Ibid, p61.

[6]- القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية 33 والآية 59.

ويقول في شأنهنّ الرّحّالة الألماني هابنسترايت، بأنّه نادرا ما تراهنّ في الشّوارع وإن حدث فيكنّ في احتشام شديد، ولا يسرن بدون حجاب، وعندما يسافرن يكنّ مختبئات في ستائر غريبة، وحدث أن طلب أحد الأتراك علاجا لزوجته من هابنسترايت فطلب هذا الأخير رؤية المريضة، فأجابه التّركي من الأفضل لزوجته أن تموت على أن يراها أحد[1].

والجدير بالذّكر أنّ رحلة القنصل الفرنسي فونتير دي بارادي حملت في طيّاتها حديثا كثيرا عن المرأة في مدينة الجزائر، وخصوصا في لباسها، حيث فصّل في كلّ أجزاء وأنواع هذا اللّباس، وأقرّ بوجود ذوق لدى الجزائريّات في التّطريز وزركشة الملابس، وعادة التّطريز بالذّهب هو الذي يحدّد سعر الملابس، ومن هذه الأخيرة ذكر[2]:

– القمصان: الحريريّة والقطنيّة الطّويلة وذات الأكمام العريضة، وهي غالية جدّا.

– القفطان: الأطلس (Satin) أو من قماش حريري وهو مطرّز، ينزل إلى غاية السّاق وهو ما يعرف بالغليلة (ghelila)، دون أكمام مفتوح من الأمام.

– السّروال: يرتدى فقط في حالة خروج المرأة من منزلها.

– الصّارمة: قطعة للزّينة توضع على الرّأس (ذهبيّة كانت أو فضيّة)، والذّهبيّة غالية الثّمن (من 700 إلى 1000 ليرة) أي ما يعادل مائة سكّة جزائريّة.

– العصبة: شريط ذهبي مزيّن بالجواهر واللآّلئ والزّمرّد، توضع على الجبهة.

– الخلخال: أساور ذهبيّة ضخمة يتمّ وضعها في السّاق (أسفل السّاق).

– الأساور: (Suar) تضعها المرأة من مرفقها إلى معصمها والخواتيم الّتي توضع في الأصابع، ومن الأساور نجد مسايس (Msàis) وهي ذهبيّة دون جواهر.

– ونجد أيضا المقياس: (Mekyas) وهو مصنوع من قرن الجاموس.

– الرّوتيش: (Routich) توضع قريبة من المعصم (وهو تقريبا مماثلا لما في أوروبا)

---

(1)– ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص47.

(2)- Venture de Paradis, **Tunis et Alger…,**op.cit, pp139-140.

– الدّرسا: (Dersa) أقراط توضع على الأذن، وهناك أيضا المناقش...

– والنّساء الغنيّات يضعن الأنبار (Anbara) وهي سلاسل ذهبيّة تنزل على الصّدر.

والغريب في الأمر أنّ فونتير دي بارادي تتبّع زينة المرأة في مدينة الجزائر عند ذهابها إلى الحفلات والأفراح "الزّواج، الختان"، وقال بأنّها ترتدي ثلاث أو أربع قفاطين مذهّبة تنزل إلى غاية العرقوب، وكلّها مزيّنة ومزركشة، بالإضافة إلى وضعها أبروك (Abrouk) على رأسها، وارتدائها بابوشا من الجلد أو من المخمّل مطرّز بالذّهب، وسروالا طويلا يصل إلى أسفل القدم، كما تضع الحنّاء في يديها ورجليها...[1].

بينما الضّابط الألماني شونبيرغ ينبّئنا في رحلته إلى الجزائر سنة 1830، بأنّ الدّاي مصطفى (1798-1805) كانت لديه شريكة واحدة، وضع في خدمتها حوالي مائتين من الوصيفات والعبيد[2]، وفي هذا الإطار تزخر الكثير من عقود الزّواج المدوّنة في رحلة ابن حمادوش[3] أو غيرها بشرط وجود أمة (خادمة) أو خادمتين في صداق المرأة في مدينة الجزائر، حتّى أنّ العديد من الكتّاب والرّحّالة علّقوا على هذا قائلين بأنّ الجزائريّين تعوّدوا على رؤية العبيد في منازلهم منذ مدّة، لكن يبدو أنّ امتلاك العبيد والوصيفات لم يكن في متناول كلّ الأسر في مدينة الجزائر، وقد كان يقتصر فقط على الأثرياء والّذين كانوا في رغد من العيش.

وتفيدنا **الرّحلة الطّريفة في إيّالة الجزائر** لليسيور وويلد في شأن النّساء الوصيفات، أنّهنّ لا تشتغلن إلّا في الأعمال المنزليّة، وكثيرا ما تكون خدمتهنّ أقلّ مشقّة من خدمة من يتحوّلن إلى فرنسا لخدمة المنازل[4]، وعادة ما تكون أعمالهنّ التّنظيف، الطّهي، التّرتيب وتزيين المنازل...

وفي حالة حدوث زيارة لأجنبي أو ضيف، حينما يدخل المنزل في مدينة الجزائر فإنّ النّساء ينبّأن مسبقا بذلك، فينعزلن في شققهنّ حتّى تنتهي تلك الزّيارة[5]، دلالة على الاستتار والاحتشام.

ويبدو أنّ ملاحظات الرّحّالة الإنجليز على نساء المشرق[6]، تكاد تنطبق في كثير من الخصائص

---

(1)-Venture de Paradis, **Tunis et Alger...,**op.cit, p141.

(2)- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلّفات الرّحّالين**...، المرجع السّابق، ص47.

(3)- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص241، ص244...

(4)- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص12.

(5)- نفس المصدر، ص25.

(6)- Joélle Redouane, op.cit, p96.

والميزات على نساء مدينة الجزائر في الأعراس، والحفلات واللّباس، هذا الأخير والّذي ذكره حسن الوزّان على نساء مصر حيث قال: «يظهر البذخ على لباس النّساء فهنّ يخرجن بالحليّ الّتي يلبسنها على شكل أطواق على الجبين ويضعن العصابات الغالية فوق رؤوسهنّ، ولباسهنّ ثوب من جوخ ذو أكمام طويلة، ويلففن أجسادهنّ بوشاح من القطن المستورد من الهند، ويضعن على وجوههنّ برقعا صغيرا أسود اللّون»(1)، وقال آخر: «النّساء لا يخرجن سافرات أبدا»(2).

وقد أوردت بعض مصادر الرّحلة كيفيّة عقاب النّساء، ولعلّه أحد الأنواع في ذلك دون تحديد سبب الجريمة، وهو ربطها بواسطة حبل ويتمّ وضعها في مؤخّرة السّفينة وتغمس في الماء لمدّة معيّنة إلى أن تخنق(3).

6-العلوم والفنون في المجتمع الحضري:

تناولت العديد من مصادر الرّحلة بنوعيها العربيّة والأوروبيّة العلوم والفنون، الّتي كانت معروفة وموجودة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، فهذا المقرّي أبو العبّاس في "رحلته إلى المشرق والمغرب"، يعطينا لمحة عن الحياة الثّقافيّة في المدينة أيّام مروره بها عند فئة العلماء، ولأنّه كان يجتمع بالعديد منهم ويدارسهم، طلبوا منه علم النّحو حيث قال(4):

يـــا فقهـــاء حضـــرة الجزائـــر ومـــن بهـــا قـــاطن وزائـــر.

طلبـــتم لـــديّ علـــم النّحـــو والبـــين ســـدّد السّـــهام نحـــوي.

كما أنّه اعترف بفضل العديد من علماء المدينة وفي عدّة علوم، ومنهم الشّيخ محمود بن حسين بن قرمان(5)، حيث قال فيه ما يلي:

زانـــك الله بالشّـــيخ الّـــذي بهـــرت علومـــه أوحـــد العليـــا ســـليمان.

.يـــا بحـــر علـــم حبانـــا مـــن جـــواهره فرائـــدًا قـــد تحلّـــت مـــنهنّ أثمـــان(6)

---

(1)- حسن الوزّان، المصدر السّابق، ص216.

(2)- إلهام محمّد علي ذهني، المرجع السّابق، ص96.

(3)- Alfred D'Apper, op.cit, p182.

(4)- أبو العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص74.

(5)- محمود بن حسين بن قرمان: عالم فقيه توفي سنة1063هـ/1606م تقلد الإفتاء (إبن المفتي،المصدر السابق،ص86.

(6)- أبو العبّاس أحمد المقرّي، المصدر السّابق، ص74.

والملاحظة الواجب ذكرها في شأن العلوم الّتي يوردها المقرّي في معظمها علوم نقليّة، كما فيها نوع من الألغاز على شكل أبيات شعريّة، وهي إحدى سمات التّخاطب بين العلماء في تلك الفترة، وكذا الإجازات[1]، (كإجازته لابن القاضي مثلا).

تفيدنا رحلة ابن زاكور الفاسي **نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان** بالعديد من العلوم الّتي كانت تدرّس حينها، ولأنّ رحلته دراسيّة علميّة في المقام الأوّل، حيث يقول عن العلماء في مدينة الجزائر: هم أحبار هذه الأمّة، نهلت من حياض علومهم حتّى تضلّعت، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتّى رويت، ومن العلماء الّذين ذكرهم: أبو حفص عمر بن محمّد المانجلّاتي، عبد الواحد السّجلماسي الأنصاري، الشّيخ سعيد بن إبراهيم قدّورة، أبو عبد الله محمّد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري، أبو عبد الله محمّد بن سعيد بن إبراهيم بن حمّودة الجزائري (عرف بقدّورة) وعبد الله بن خليفة[2]، ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر الكتب وأنواع العلوم الّتي ذكرها ابن زاكور، والّتي تعكس حقيقة الحياة الثّقافيّة في الجانب العلمي؛ **جمع الجوامع** وهو كتاب في أصول الفقه، **تلخيص المفتاح في البيان**، **مختصر الشّيخ السّنوسي** في المنطق، **ألفيّة العراقي** في المصطلح، **صحيح البخاري** في الحديث، **مختصر خليل** في الفقه، **نظم ابن عاصم** في الأحكام، بالإضافة إلى قراءته لكتاب **الشّفاء** للقاضي عيّاض، **البردة** للإمام البويصري في مدح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، **وأرجوزة التّلمساني** في الفرائض...[3]، وبدا لنا من خلال ما ذكره هذا الرّحّالة المغربي أهميّة معارفه ودقّة نقله عمّا حدث له في المدينة سنة 1682 مع علمائها وأدبائها وفقهائها، والّتي تعكس مشهدا حيّا وجانبا مضيئا في مدينة الجزائر والّتي قصدها هذا الرّحّالة بغية الاستزادة في العلم وطلب الإجازة من علمائها، لأنّ ابن زاكور من القلّة الّذين دخلوا مدينة الجزائر من دون أن يكون متوجّها إلى المشرق أو عائدا منه[4]، وقد حصل على الغرض الّذي من أجله حلّ بالمدينة.

والملاحظة المسجّلة في شأن رحلة الجامعي المغربي إلى مدينة الجزائر، أنّها حملت في طيّاتها مشاهدات وآراء تنمّ عن استحسانه للجانب الثّقافي والعلمي في المدينة، إذ يقول: «هي الجزائر والحمد

---

[1]- فوزيّة لزغم، **الإجازات العلميّة لعلماء الجزائر العثمانيّة 1518-1830**، دار سنجاق الدّين للكتاب، الجزائر، 2009، ص ص176-180.

[2]- ابن زاكور الفاسي، المصدر السّابق، ص ص40-71.

[3]- نفس المصدر، ص ص42-71.

[4]- لزغم فوزيّة، المرجع السّابق، ص209.

لله دار الجوهر الفرد في الأدب وعلم العقل والنّقل، وتنبت العلماء والصّالحين كما تنبت السّماء البقل...»[1]، ويعترف بحسن صفات علمائها وتضلّعهم في علم النّحو، الفقه، الحديث، وإحياء ليلة المولد النّبوي مثلما في القديم والحديث[2] (على حدّ قوله).

من بين أهمّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة الّتي تحدّثت عن العلوم والفنون في مجتمع مدينة الجزائر هو ما دوّنه الطّبيب الرّحّالة الإنجليزي توماس شو، والّذي قال بأنّ كل دراية هذا المجتمع اقتصرت اليوم على قليل من كتب الجغرافيا، وبعض الكتب العلميّة المملّة جدّا حول التّاريخ الحديث، ولأنّ كلّ ما يقوله لهم مؤلّفوهم في هذا الجانب، خصوصا قبل بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما هو إلّا قصص روائيّة[3].

ولقد دخل هذا الطّبيب (توماس شو) عند فلكي في مدينة الجزائر، وقد كان هذا الأخير يعمل لصالح الدّولة، حيث أنّه كان مكلّفا بضبط مواقيت الصّلاة، فقال عنه بأنّه لا يعرف من أمور مهنته إلّا القليل (يعرف المناطق الثّمانية الرّئيسيّة للرّياح، وإعداد خريطة بحريّة، لكنّها غير دقيقة)[4].

وعن الكيمياء فقد قال توماس شو، كانت قديما علم أجدادهم المفضّل، لكنّها اليوم اختزلت في تقطير ماء الورد فقط، وعن الطّبّ فقد ذكر بأنّ قليلا من أصحاب المهنة من يعرفون أسماء الأطبّاء العرب القدامى كالرّازي وابن رشد وآخرين، والتّرجمة الإسبانيّة ديسكوريد "Descorides"، هي الكتاب الوحيد المقروء[5]، يبدو في هذا الشّأن بالذّات أنّ توماس شو أصدر حكما قاسيا، فقد كان موجودا في القرن 12هـ/ 18م وكما هو معروف فإنّ المدينة أنجبت طبيبا وصيدليّا وعشّابا وهو ابن حمادوش، الّذي كان له باع طويل في الطّبّ ودراسة كتب القدامى وتحضير المعاجين والأشربة، وتأليف الرّسائل مثل **كشف الرّموز**[6]، **والجوهر المكنون** في الطّبّ.

وقد علّق توماس شو على طبيب الدّاي، الّذي كان إماما –على حدّ قوله– ورئيس الأطبّاء

(1)– عبد الرّحمان الجيلالي، **تاريخ المدن الثّلاث**...، المرجع السّابق، ص149.

(2)– نفس المصدر، ص150.

(3)– Thomas Show, op.cit, p79.

(4)– Ibid, p79.

(5)– Ibid, p80.

(6)– عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، ص ص120-121-160.

ونور الدّين عبد القادر، المرجع السّابق، ص ص215-217.

بأنّه أخطأ في تسمية هبوقراط "Hippocrate" وسمّاه بوقراط[1]، وتكاد تتّفق مصادر الرّحلة الأوروبيّة على أنّ الجانب الطّبّي في مدينة الجزائر أو في كامل المملكة غير مهتمّ به ولا يحظى بتقدير، بدليل انعدام الأطبّاء أو قلّتهم[2]، وللإشارة فإنّ بيار بواييه (Pièrre Boyer) قد قدّم في هذا الشّأن الكثير معتمدا على العديد من الرّحّالة الّذين حلّوا بالجزائر.

وقد صرّح توماس شو في رحلته قائلا: "إنّ حالة العلوم والتّعليم العام في هذه البلاد (والّتي منها مدينة الجزائر) لا تحمل في ثناياها لا علم ولا فن ولا درجة كمال، ومجمل معارفهم الحمّامات المعدنيّة، الكي لأمراض الرّوماتيزم في مناطق الألم، أمّا الحمّى فيستعملون لها نبتة تسمّى قلوبيلاريا Gloubilaria فريتكوزا Fruticosa، وفيما يخصّ أمراض الهواء يأخذون جذور البوكوكا Boukoka، وكلّ علاجهم تقليدي جدّا لكثير من الأمراض[3]، ولأنّ في العهد العثماني لم يوجد أيّ تعليم طبّي[4]، وقد قال في شأن علم الرّياضيّات بأنّه مجهول عند السّكّان، إلّا أنّ التّجّار يعرفون العمليّات الحسابيّة جيّدا، وهم يعتمدون أثناء ذلك على الذّاكرة فقط، وهم عادة ما يعدّون بأصابعهم[5].

أمّا بالنّسبة للموسيقى كفن، فقد ذكر توماس شو عدّة وسائل موسيقيّة كانت مستعملة والّتي منها نذكر: الأربيكا والقصبة (وهي أنبوب قصير مفتوح من الجهتين به ثلاث أو أربع ثقوب)، والطّبل والبندير (Tarr)، بالإضافة إلى وجود المزامير والرّباب والقيثارة بأحجام متعدّدة، وكذا القطع النّحاسيّة الّتي توضع في اليد وتضرب ببعضها البعض[6]، ويقول نور الدّين عبد القادر في هذا المقام بأنّها لمجرّد التّسلية والترويح النّفس مع مراعاة الأدب والاحترام، وقد نبغ أهل الجزائر في الموسيقى بأنواعها من أندلسي وشعبي، وتفوّقت الأغاني والموشحات النّبويّة[7] في مدينة الجزائر على باقي أنواع الأغاني، وهذا ما أقرّه أحمد بن عمّار في رحلته ألا وهو تلحين الموشحات وقصائد المديح النّبوي في ليلة المولد النّبوي الشّريف بالموسيقى[8].

---

(1)- Thomas Show, op.cit, p80.

(2)- Pièrre Boyer, **La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française**, librairie Hachette, 1963, pp204-208.

(3)- Thomas Show, op.cit, pp82-87.

(4)- فلّة الموساوي القشّاعي، المرجع السّابق، ص269.

(5)- Thomas Show, op.cit, p89.

(6)- Ibid, p90.

(7)- نور الدّين عبد القادر، المرجع السّابق، ص244.

(8)- أحمد بن عمّار، المصدر السّابق، ص ص15-16.

وتجدر الإشارة في شأن الطّبّ في مدينة الجزائر ما ذكره الرّحّالة والعالم الألماني هابنسترايت إلى ذاك الاحترام الكبير والتّقدير الفائق لمن يمتهن التّداوي بالأعشاب، حيث يطلقون عليه اسم الباربيرو "Barbiro"[1].

وكما هو معروف فإنّ حكّام الجزائر كان معظم أطبّائهم من الأجانب، وقد صوّر لنا هابنستر ايت مستوى المعارف الطبيّة، الّتي كان يملكها السّكّان والأتراك على حدّ سواء، حيث يقول: "لم أستطع أن أقنع هؤلاء النّاس بأنّ كلّ مرض من الأمراض يتطلّب دواءً خاصّا، فهم يعتقدون بأنّ دواء واحد كفيل أن يشفي كلّ الحالات المرضيّة، فضلا عن كونهم يحملون نظرة جيّدة عن كفاءة الأطبّاء النّصارى في هذا الشّأن ويدعونهم بالعلماء تعبيرا عن التّقدير الخاصّ الّذي يحضون به لديهم..."[2].

لم يوافق الدّاي على مغادرة هابنسترايت الجزائر إلّا بشرط، وهو أن يترك له الأدوية الّتي كان لها مفعول في معالجة ابنه، وكيفيّة استعمالها، ففعل هابنسترايت ما طلبه منه وقام بتحضيرها وسلّم الوصفة إلى الحرس الشّخصي، ليتمكّن فيما بعد من استخدامها في معالجة الأمراض الطّارئة[3]، ونفس الأمر حدث لسيمون بفايفر الأسير الألماني، والّذي كان طبيبا وكان يقدّم خدماته العلاجيّة لأفراد القصر الّذي كان يعيش فيه، وتجدر الإشارة إلى أنّه ذكر في مذكّراته بأنّ الدّاي أحضر له صيدليّة صغيرة وآلات الجراحة من باريس[4].

ونؤكّد في هذا المقام مرّة أخرى أنّ ابن حمادوش تميّز عن معاصريه بالجانب العلمي وخاصّة الطّب، فكان صيدليّا، طبيبا، فلكيّا ومنطقيّا، وكان يعتبر آخر ممثّل للطّبّ العربي الكبير[5]، ويذكر في رحلته العديد من العلوم الّتي تعلّمها وكتب فيها، مثل: **الدّرر على المختصر** في المنطق، **الجوهر المكنون** في الطّب، تعلّمه القنبلة (البونبة)، والقوس الإنجليزي وتأليفه في علم البلّوط، ورسمه خارطة رياح البحر، وتأليفه في الأسطرلاب، وفي قوس الشّمس (في الفلك)، وتأليفه في الهندسة والرّخامة الظّلية، ونسخه كتب ابن سينا وتركيبه الأشربة والمعاجين مثل معجون الصّلاح ومعجون الواحد وشراب

---

[1]- ج.أو.هابنسترايت، المصدر السّابق، ص65.

[2]- نفس المصدر، ص77.

[3]- نفس المصدر، ص77.

[4]- سيمون بفايفر، **مذكّرات جزائريّة عشيّة الاحتلال**، ترجمة وتقديم وتعليق أبو العيد دودو، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2009، ص34.

[5]- فلّة موساوي القشّاعي، المرجع السّابق، ص274.

المصطكي...[1].

وقد نوّه الباحثون الأوروبيّون بابن حمادوش، واعترفوا بقدراته العلميّة والطّبيّة عن باقي الأطبّاء والقائمين على العلاج في مدينة الجزائر أثناء العهد العثماني، بسبب إنجازاته وأبحاثه وأعماله في هذا الجانب.

وتزخر رحلة كلّ من المكناسي وابن زرفة العمري بفنون القتال، وبعض الطّرق الّتي استعملها العثمانيّون لصدّ هجمات الأوروبيّين[2]، ولأنّ مدينة الجزائر كانت معرّضة طيلة العهد العثماني لغارات أوروبيّة، فيبدو أنّهم اكتسبوا بعض الخبرات جرّاء ذلك ولو إلى حين.

وتفيدنا رحلة أبو راس النّاصر (**فتح الإله ومنّته**...) بأنواع العلوم الّتي كان يتدارسها مع كوكبة من علماء المدينة حينما رحل إليها، وهذه العلوم هي العلوم الفقهيّة، اللّغويّة، الأصوليّة، النّحويّة، التّوحيديّة والتّفسيريّة، مع كلّ من السّيّد محمّد بن جعدون، محمّد بن مالك، عبد الرّحمان البدوي القرومي، الحاج علي بن الأمير، أحمد بن عمّار، محمّد بن الحفّاف ومحمّد بن الشّاهد[3]، ممّا يفهم جليّا منها غياب العلوم العقليّة، إذ في مجملها تصنّف كعلوم نقليّة.

وللإشارة إلى علم الهندسة، فقد وجدناه حاضرا في رحلة الزّياني، الّذي وصف المسجد الّذي بناه حسن باشا (جامع كتشاوة) وعلّق على كلّ خصائصه الهندسيّة[4]، وكذا في رحلة عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني الّذي تزامنت رحلته إلى المدينة مع حملة اللّورد إكسماوث سنة 1816، وما تلاها من إعادة بناء وترميم لما تهدّم[5].

وارتأينا في هذا المقام، ألا وهو الحديث عن بعض العلوم والفنون الّتي وجدت في مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، أن نسجّل ملاحظات كل من الرّحّالين ليسيور وويلد في هذا الميدان[6]:

- في المقهى توجد الموسيقى، والموسيقار شخصيّة لها تقدير خاص، تقبض أموالا ضخمة،

---

[1]- عبد الرّزّاق بن حمادوش، المصدر السّابق، الفهرس.

[2]- ابن عثمان المكناسي، المصدر السّابق، ص331 وابن زرفة العمري، المصدر السّابق، ص ص225-229.

[3]- أبو راس النّاصر، **فتح الإله**...، المصدر السّابق، ص ص91-95.

[4]- أبو القاسم الزّياني، المصدر السّابق، ص374.

[5]- عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني، المصدر السّابق، ص213.

[6]- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص5.

ويتمتّع صاحبها بشرب القهوة والتّدخين مجّانا.

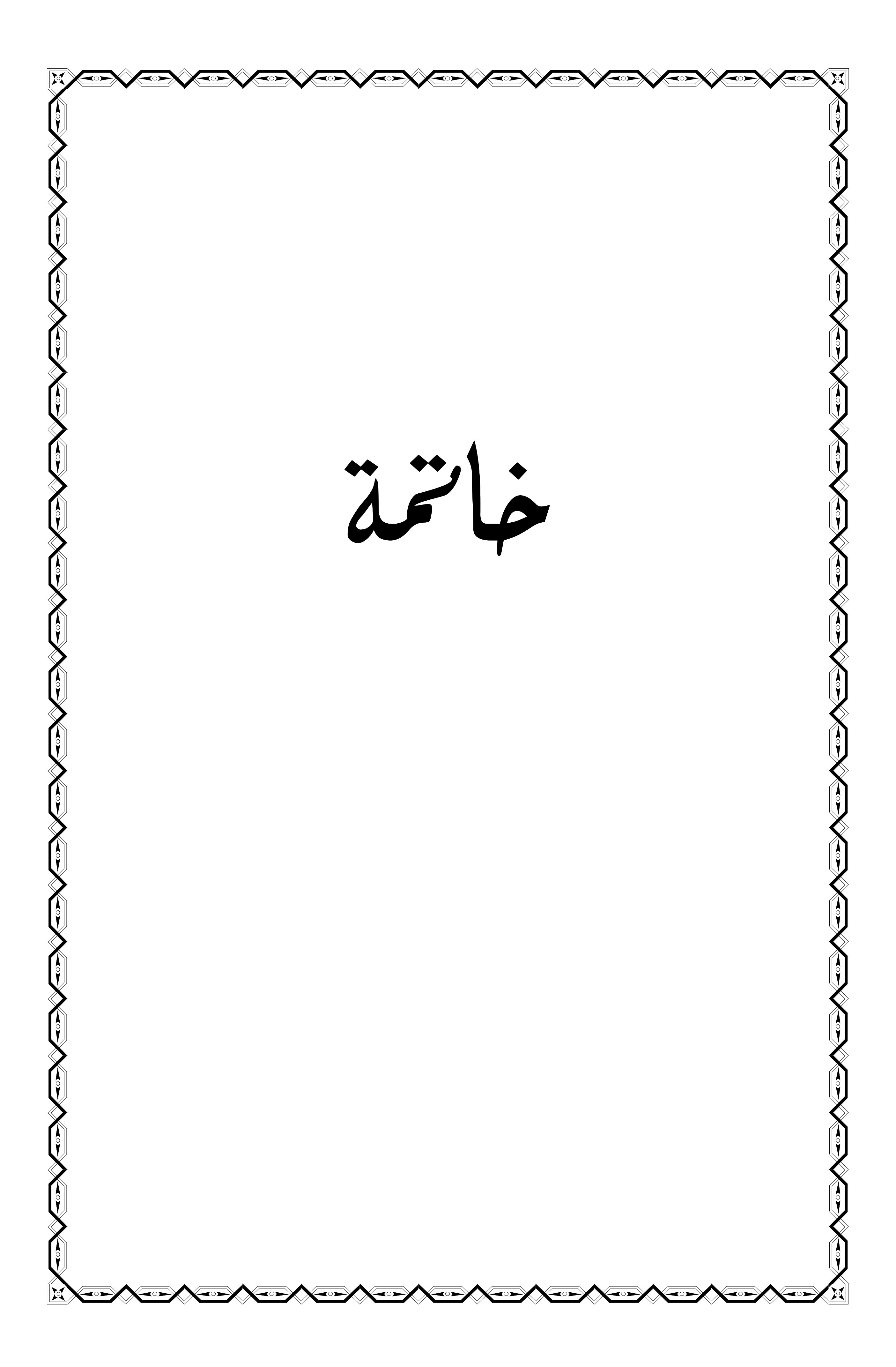
- الكمان العربي له وتران فقط، والكمان الأوروبّي مستعمل أيضا في الجزائر.
- وجود المندولينة الإيطاليّة.
- المزمار ذو الثّمانية ثقوب.
- الدّربوكة: مثل سنطورة القدماء (آلة مؤلّفة من إناء من الآجر المشوي مغلّفة بجلد).
- وفي شأن الهندسة المعماريّة فقد قال بأنّها لا تعنى بالتّفاصيل إلّا قليلا.
- لم يحرز الجزائريّون إلّا تقدّما قليلا في فنّ الميكانيك.
- لديهم براعة كبيرة في تقطير ماء الورد والياسمين، فهم يتقنون صنعه إتقانا لا يمكن أن يبلغه عندنا الكيميائيّون من ذوي الخبرة.
- يُظهر المغاربة مهارة لطيفة في النّحت والنّقش.
- يولي المغاربة عناية فائقة بفنّ الصّباغة والّذي له شهرة كبيرة[1].

وبجمل ما نختم به هذا الفصل ما ذكره أحد الباحثين عن صورة المغربي في الرّحلات الأوروبيّة هي تنوّع الرّحّالة الأوروبيّين واختلاف أهدافهم التّأليفيّة وتعدّد مصادرهم وتنوّع اهتماماتهم، خلف تراكما مهمّا زاخرا بالمعطيات المتضاربة والّتي ليست كلّها صحيحة وسليمة بالضّرورة، إذ أنّ معظمهم اعتمد على مرجعيّات واقعهم الاجتماعي والسّياسي لذلك أخطأ في جوانب عديدة خصّت الحياة الحضريّة في المغرب[2] ككل، والذي منه مدينة الجزائر وهي إحدى أهمّ مدنه، منذ بداية الفترة العثمانيّة (1516) إلى اليوم.

---

[1]- ليسيور وويلد، المصدر السّابق، ص ص8-23.

[2]- عبد الفتّاح الزّين، "**النّظرة للآخر، مقارنة بين نظرة الرّحّالة المغاربة لأوروبا والأوروبّيين للمغرب**"، منبر الحوار لحوار الأفكار والثّقافات، العدد38، مؤسّسة الفلاح للنّشر والتّوزيع، بيروت، 1999، ص67.



خاتمة

نستخلص ممّا تقدّم مجموعة من النّتائج والّتي تكمن في النّقاط التّالية:

استقبلت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني العديد من الرّحّالة، الّذين تنوّعت أغراض رحلاتهم وتعدّدت مرامي وأهداف تدوين ما شاهدوه في المدينة أو ما قيل لهم، ولذلك جاءت كتاباتهم تحمل في طيّاتها العديد من مظاهر الحياة الحضريّة في الجانب السّياسي، العسكري، الاجتماعي، الاقتصادي، الثّقافي والدّيني...

لقد حلّ بالمدينة رجال سياسة من أمثال توماس هيز، بوتي دولاكروا، السّيّد طولو ودالنسو كانو في مهمّات رسميّة، بغية افتداء الأسرى أو إعادة العلاقات بين بلدانهم والجزائر، أو طلب ودّ الجزائر وحمايتها لهم في عرض البحر الأبيض المتوسّط، بحكم قوّتها وهيمنتها عليه.

عرفت المدينة نزول سفراء ومبعوثين وقناصل أو موظّفين في الشّأن الدّيبلوماسي من أمثال الفرنسيين نيكولاس دي نيكولاي، شوفالييه دارفيو، لوجي دي تاسي وفونتير دي بارادي... وغيرهم، والمغربي التّمقروتي، دوّن كلّ واحد عنها بعض مشاهداته الّتي كانت بين الاستحسان والاستهجان.

كانت مدينة الجزائر قبلة طلّاب العلم من المغرب من أمثال ابن زاكور الفاسي والجامعي، واللّذان قدّما صورا حيّة عن الحياة العلميّة والدّراسيّة فيها، كما كانت قبلة العلماء والأطبّاء الأوروبيّين مثل توماس شو، بايسونال، هابنسترايت وديسفونتين لأغراض علميّة، إلّا أنّ رحلاتهم حملت في ثناياها أخبارا ومعارف متنوّعة، وإن غلب عليها الطّابع العلمي.

تعتبر رحلة حسن الوزّان **وصف إفريقيا** المصدر الرّئيسي الّذي اعتمد عليه العديد من كتّاب الرّحلة الأوروبيّين خصوصا في القرن السّادس عشر ومابعده، من أمثال مارمول كاربخال في مؤلّفه **إفريقيا**، وألفريد دابر في **وصف إفريقيا** وحتّى أبو القاسم الزّياني الّذي حلّ بالمدينة فقد دوّن أخبارا في غاية الأهمّيّة عن الحياة الحضريّة في المدينة (المساجد، بعض العادات والتّقاليد...)، وأراد أن يحاكي في تأليفه من سبقه إلى هذا الغرض.

لمسنا مؤشّرات عن الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، في الرّحلات الخاصّة والفهرسيّة عند كلّ من ابن حمادوش، أبو راس النّاصر، ابن زرفة العمري، ابن إدريس التّنلاني وليسيوروويلد، وفي عدّة جوانب.

كانت مدينة الجزائر في العهد العثماني محطّة استراحة وتوقّف للحجّاج والعلماء، الّذين كانوا يمرّون على الطّريق السّاحلي، فدوّنوا عنها بعض ملاحظاتهم وقيّدوا ما شاهدوه في متون رحلاتهم، من أمثال: أبو العبّاس أحمد المقرّي، ابن المسيّب التّلمساني، ابن عثمان المكناسي وأحمد بن عمّار، هذا

الأخير الّذي يعتبر ابن مدينة الجزائر، وقد سجّل في رحلته مظاهر الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف بالمدينة، وما كان يصاحبها من عادات وتقاليد.

نظرا لأهميّة مدينة الجزائر في العهد العثماني، وتحكّم رجال بحريّتها في البحر الأبيض المتوسّط منذ مطلع القرن السّادس عشر إلى بداية القرن التّاسع عشر، فقد كانت وجهة الاستطلاعيّين والعسكريّين الأوروبيّين من أمثال الضّابط الرّوسي كوكوفتسوف والفرنسيين روزيه وكاريت والألماني شونبيرغ والّذين قيّدوا رحلاتهم إلى الجزائر التي احتوت على العديد من مناحي الحياة الحضريّة، وتبيّن بأنّهم مشاهدون دقيقون وملاحظون ناقدون للعديد من الوقائع والأحداث، رغم اعتمادهم على رحلات من سبقهم.

لقد سجّلنا ذلك الاختلاف الكبير حول أصل ونشأة مدينة الجزائر بين مصادر الرّحلة العربيّة والأوروبيّة، هذه الأخيرة الّتي حاول معظم أصحابها التّركيز على الدّور الرّوماني، وتهميش الدّور الإفريقي والعربي الإسلامي في نشأة المدينة، كما ظهر ذلك الفرق الواسع في سبب تسمية المدينة (بالجزائر)، وفي اعتقادنا أنّ الأسباب الّتي ذكرها أصحاب مصادر الرّحلة قد خضعت لثقافة وأحكام كلّ رحّالة، ولاطّلاع البعض منهم على رحلات عديدة كانت قد طبعت حينها.

لقد أبدع أصحاب مصادر الرّحلة الأوروبيّة في وصف موقع مدينة الجزائر وموضعها والعديد من منشآتها (كالقصبة، القصور، المنازل والأحياء...)، وبعض مرافقها مثل: المساجد، الكتاتيب، الحمّامات، شبكة المياه، المقابر والأضرحة، وقدّموا وقائع وأحداث ومشاهدات عن مظاهر من الحياة داخلها، إلّا أنّ من بعض مصادر الرّحلة العربيّة من تفنّن أصحابها في ذكر المساجد والحياة داخلها، وكذا زيارة الأضرحة والقبور، كضريح عبد الرّحمان الثّعالبي.

الحقيقة الواجب ذكرها في شأن مصادر الرّحلة الأوروبيّة، أنّ أصحابها كتبوا عن كل شيء تعلّق بمدينة الجزائر، وبالحياة الحضريّة فيها، في جميع جوانبها، إذ ما قورنوا بأصحاب مصادر الرّحلة العربيّة، ولهذا الأمر تبريراته المنطقيّة والواقعيّة، فالأجنبي يكتب كلّ ما هو جديد عنه وعن بيئته وعمّا ألّفه، إذ تفوّقت في وصفها للحياة السّياسيّة والعسكريّة في المدينة، وكذا الاجتماعيّة، الاقتصاديّة وحتّى الثّقافيّة.

جاءت مصادر الرّحلة الأوروبيّة متنوّعة الحديث عن مظاهر الحياة الحضريّة في المدينة، بعكس مصادر الرّحلة العربيّة، الّتي عادة ما تقتصر على جانب أو جانبين، فعلى سبيل الذّكر لا الحصر نجد فونتير دي بارادي –القنصل الفرنسي– كتب عن عدّة مظاهر، بينما التّمقروتي كتب عن أضرحة الأولياء وشجاعة ريّاس بحر الجزائر.

لقد ورد ذكر منشآت المدينة ومرافقها في مصادر الرّحلة الأوروبيّة بأوصاف دقيقة، وتصوير بليغ فاق كثيرا وصف مصادر الرّحلة العربيّة، ما عدا وصف الزّياني لجامع كتشاوة الّذي انبهر به وبهندسته، فدقّق في وصفه، وكتب فيه أبياتا شعريّة دلّت على قيمة هذا المرفق في حياة مدينة الجزائر من جهة، ومن جهة أخرى إدراك هذا الرّحّالة لصنيع الصّدقة الجارية، وتعلّقه بالمساجد.

اختلفت مصادر الرّحلة الأوروبيّة المهتمّة بشأن العدد، في ذكر عدد المساجد الموجودة في المدينة وكذا المدارس والحمّامات، لكن يبدو أنّ هذا له علاقة بتطوّر سكّان المدينة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، في حين أنّها أشادت بالنّوعيّة الجيّدة للمياه الموجودة في مدينة الجزائر، والّتي كانت موزّعة على عدد كبير من العيون في المدينة.

في شأن الحياة السّياسيّة والعسكريّة سجّلنا تفوّق مصادر الرّحلة الأوروبيّة عن مصادر الرّحلة العربيّة، حيث أنّ الأولى كتب أصحابها عن ملامح عديدة تخصّ نوعيّة نظام الحكم والمراحل الّتي مرّ بها، وكذا مشاهداتهم في الدّيوان سواء الكبير أو الصّغير، والبروتوكولات الّتي كانت تصاحبها أثناء الانعقاد، بالإضافة إلى ذكرها للعديد من الشّخصيّات السّياسيّة، ودورها سواء في الحياة الحضريّة في المدينة أو في كامل المملكة، إذ ما تعلّق الأمر بالموظّفين السّامين (خوجة الخيل، وكيل الحرج، الخزناجي، الآغا...).

تفيدنا مصادر الرّحلة الأوروبيّة بمعارف ومعلومات في غاية الأهمّيّة عن انكشاريّة المدينة وثكناتها ورتب ونياشين أصحابها، بالرّغم من وجود أحكام مسبقة تلفّ تلك المعارف والمعلومات من جهة وتبنيهم آراء الازدراء والاحتقار لهذه المؤسّسة العسكريّة وتوضيحهم للأفضليّة الّتي كان يحظى بها الانكشاري في المدينة مهما كانت رتبته من جهة أخرى.

في شأن الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فقد ظهر جليّا اهتمام مصادر الرّحلة الأوروبيّة بالعديد من المظاهر الّتي خصّت هذا الجانب من حيث العدد السّكّاني لمجتمع المدينة، وفئاته المتنوّعة، وعلاقة الفئات ببعضها البعض، وأثبت تميّز العنصر التّركي والمنتمي للجيش الانكشاري عن باقي الفئات (الحضر، البرّانيّة، الدّخلاء...)، كما جاءت الأسواق ملازمة للحرف في مصادر الرّحلة، إلّا أنّه غاب

تحديد المكان بدقّة، ونوعيّة هذه الأسواق والحرف، ممّا حتّم علينا الاستعانة بمصادر في هذا الموضوع مثل **قانون أسواق مدينة الجزائر** أو دراسات متخصّصة مثل **الحرف والحرفيّون بمدينة الجزائر** لعائشة غطّاس.

ذكرت بعض الفنادق في مصادر الرّحلة العربيّة في سياق الحديث ليس إلّا، مثل ما ذكره عبد الرّحمان بن إدريس أو الزّياني في رحلتهما، إلّا أنّ مصادر الرّحلة الأوروبيّة تفنّنت في وصفها، وذكرت عددها والوظيفة الّتي كانت منوطة بها وكيف كانت الحياة داخلها.

لقد عرف مجتمع مدينة الجزائر العديد من النّقود والعملات، منها الذّهبيّة كالسّلطاني (القديم، الجديد، النّصف، الرّبع)، والفضيّة (البوجو، الرّيال، الرّبع، الثّمن، البدقة)، والنّحاسيّة (الموزونة والخرّوبة...)، حيث فيها ماكان يصكّ بمدينة الجزائر وفيها ما يصكّ خارجها، كما تداولت عملات بعض الدّول الأوروبيّة في مجتمع المدينة، وكان هناك العديد من الصرّافة في أحياء المدينة، وهذا ما ركّزت عليه مصادر الرّحلة الأوروبيّة، ولعلّ لهذا الأمر تبريرات منطقيّة، وهي وجود الأسرى الأوروبيّين في المدينة، والّذين عادة ما يحملون أموالهم وكذلك تلك الغنائم الأوروبيّة، الّتي كان يستولى عليها في عرض المتوسّط، وتحوّل إلى المدينة بالإضافة إلى مبالغ افتداء الأسرى، فقد كانت معظمها نقود وعملات أوروبيّة.

قدّمت مصادر الرّحلة الأوروبيّة مقتطفات عديدة من الحياة الحضريّة في المدينة في الجانب الثّقافي والدّيني، حيث اعترفت بتنوّع اللّغات في المجتمع، ووصفت ملابس ساكني المدينة وصفا دقيقا لعدّة طبقات وفئات وحتّى الرّجال والنّساء، وسجّلت ملاحظات فيما يخصّ المرأة، العلوم والفنون، وكذلك احتقر بعض الرّحّالة مستوى العلوم في مجتمع المدينة خصوصا العلوم العقليّة كالرّياضيّات، الفلك، الطّب والكيمياء، بينما مصادر الرّحلة العربيّة اقتصر حديثها عن مظاهر من الحياة الثّقافيّة في شأن دراسة العلوم النّقليّة، وذكرت بعض العادات الدّينيّة في مواسم معيّنة (مثل ليلة القدر والمولد النّبوي الشّريف).

تبيّن لنا أنّ معظم أصحاب مصادر الرّحلة قد اعتمدوا في تدوين رحلاتهم على رحلات من سبقهم إلى مدينة الجزائر، سواءٌ كانوا رحّالة عاديّين (الوزّان) أو سياسيّين (لوجي ديتاسي وفونتير دي بارادي) أو علماء (هابنسترايت) أو حجّاج أو غيرهم...، ولعلّ هذا الاستنتاج ينطبق على العديد من الرّحّالة عربا كانوا أم أوروبيّين.

لقد اعتمدنا في هذه الدّراسة على العديد من مصادر الأسر، وفي مقدّمتها كتاب هايدو (**طوبوغرافيّة والتّاريخ العام لمدينة الجزائر**)، تأليف جاو ماسكارينهاس، مذكّرات تيدنا ويوميّات جيريت ميتزون، وعلى كتب إيمانويل دارندا وجيمس ليدر كاثكارت والقنصل وليام شالر... وغيرهم، لأنّها تحتوي على أحداث ووقائع عديدة خصّت الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر، وهي تقريبا مكمّلة لما

ذكر في مصادر الرّحلة.

تبيّن لنا أنّ الغير كتب عنّا أكثر ممّا كتبنا عن أنفسنا، ففي فترة الدّراسة كتب عنّا المغاربة من أمثال (الوزّان، التّمقروتي، ابن زاكور، الجامعي، الزّياني، المكناسي، ... وغيرهم)، والفرنسيّون مثل (نيكولاس دي نيكولاي، الأب دان، توماس هيز، شوفالييه دارفيو، دابر، دولاكروا، ديتاسي، بايسونال، السّيّد طولو، فاليار، ديسفونتين، بارادي، روزيه، ليسيور وويلد...وغيرهم)، والإسبانيّون مثل (مارمول كاربخال، أنطونيو دي صوصا، هايدو، سارفانتس، ودالنسو كانو...وغيرهم)، والإنجليز مثل (جوزيف بيتس، توماس شو، وجوزيف مورقن...وغيرهم)، والأمريكيّون مثل (كاثكارت ووليام شالر... وغيرهما)، والهولنديّون مثل (إيمانويل دارندا وميتزون...وغيرهما)، وعن الدّولة العثمانيّة كتب بيري رايس كتابه **البحريّة** والّذي حمل إشارات واضحة عن مدينة الجزائر وساحلها حينذاك (قبل 1520).

يبدو أنّ مصادر الرّحلة غير كافية لمعرفة الصّورة الحقيقيّة للحياة الحضريّة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، لأنّ أصحابها كتبوا عنها حسب ظروفهم وانطباعاتهم وكذا أهداف رحلاتهم، وهذا ما حتّم علينا الاستعانة بمصادر أخرى معاصرة.

تبيّن لنا بأن مدينة الجزائر في العهد العثماني، كانت تحمل ملامح مدينة إسلاميّة، من حيث تمركز دار الإمارة والمسجد الجامع بها، وشارعها الرّئيسي (من باب الواد إلى باب عزّون)، وكذا ضيق أزقّتها وأنهجها، وتتابع أسواقها وحرفها، ونمط الحياة الحضريّة فيها، من حيث اللّباس، القوانين والنّظام الّذي حاكى عموما عدّة مدن إسلاميّة في تلك الفترة، حسب ما ذكره أندري رايمون في مؤلّفه **المدن العربيّة الكبرى في العهد العثماني**، وهذا ما حاول إخفاءه العديد من الباحثين والدّارسين الغربيّين مثل ج.مارسيه.

إنّ الفئات الاجتماعيّة الّتي وجدت في مدينة الجزائر المتعدّدة والمتنوّعة وتنظيمها الاقتصادي قد ساهما في إبراز ملامح المدينة العربيّة الإسلاميّة عامّة والمغاربيّة خاصّة، حيث أنّ لكلّ فئة مجالها المكاني المميّز، ولكلّ حرفة وسوق أيضا حيّزه الجغرافي المحدّد، وهذا يدلّ على ترتيب وتنظيم وتنسيق، وهذا أيضا ما توصّلت إليه فتيحة الواليش في بحثها **الحياة الحضريّة في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثّامن عشر**.

يبقى موضوع الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة قابل للإثراء والدراسة في جوانب عديدة ومصادر جديدة لم نتطرق لها في هذه الدراسة، وذلك راجع لكثرة مصادر الرحلة خصوصا المكتوبة بلغات أجنبية متنوعة.

الملاحق

ملحق رقم (1) : منظر عام لميناء و مدينة الجزائر في العهد العثماني[1].



(1)-www.youtub.com/searche

ملحق رقم (2) : صورة لخير الدين بربروس[1]



[1]-www.huffpostarab.com

ملحق رقم (**3**) : الجامع الكبير بمدينة الجزائر[1].



[1]-www.google.dz

ملحق رقم (**4**) : جامع كتشاوة بمدينة الجزائر[1] 2.



(1)-www.google.dz

ملحق رقم (5) : قصر عزيزة بمدينة الجزائر[1].



[1]-www.google.dz

ملحق رقم (**6**) : حمام بوشلاغم يتواجد على بضعة أمتار من ضريح عبد الرحمان الثعالبي [1].



[1]-www.google.dz

ملحق رقم (7) : عين بمدينة الجزائر[1].



[1]-www.google.dz

ملحق رقم (8) : ضريح عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر[1].



[1]-www.google.dz

ملحق رقم (**9**) : صورة الرايس حميدو[1].



[1]-Information 1972 blogspot.com

ملحق رقم (10) : مدرسة في مدينة الجزائر في العهد العثماني[1].



[1]-http://www.algeriagate.info/2014/06/blog-post_24.html

ملحق رقم (11) : شارع بمدينة الجزائر في العهد العثماني[1].



(1)-https://algerie-antique.blogspot.com/2016/01/8.html

ملحق رقم (12):

مدينة الجزائر في رحلة الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي 1551 ص ص17-18

"الجزائر مدينة إفريقية جد قديمة، أسست أولا من قبل شعب إفريقي يسمى "مزغنة"، وأخذت اسمها منه، ثمّ أصبحت مجمع اتخاذ القرارات، ثمّ إيول، وفيما بعد صارت المجلس الملكي ليوبا في وقت سيطرة الرومان على إفريقيا، ولتشريف القيصر سميت يولي القيصرية، بعدها أطلق عليها السكان الأصليون (المور) جزيرة بالعربية (الجزائر)، وهي جمع جزيرة لمجاورتها جزر البليار: ميورقا، منورقا واليابسة، ولكن الإسبان يسمونها الجزائر.

مهما يكن فهي تقع على البحر المتوسط، على منحدر جبل ومحاطة بجدران قوية، وهي ذات خندق وأرضيتها صلبة، شكلها تقريبا مثلثي، قاعدته على ساحل البحر وقمته في الجبل، حيث يوجد حصن كبير يشرف على المدينة والميناء.

أما بالنسبة للبنايات وفضلا عن القصر الملكي، توجد منازل جميلة مميزة، وبهذه المدينة عدد كبير من الحمامات والخانات حيث الأماكن والشوارع المنظمة، ولكل حرفة مكانها الخاص.

... في مكان شاسع شيدوا مسجدهم بهندسة رائعة، وأسفل منه بقليل مصنع السفن الحربية أين ترمم وتستخرج السفن وبعض البواخر الأخرى، هذا الحي حيوي ونشيط، به التجارة لوجوده على ساحل البحر، وهو آهل بالسكان الأصليين (المور) والأتراك...، يحصلون على أرباح طائلة ...

أغلبية الذين ينادونهم الأتراك في مدينة الجزائر يسكنون منزل الملك، السجون والبواخر، منهم المسيحيون والمحمديون من جميع الأمم...، يجوبون البحر الأبيض المتوسط ويأتون بعدد معتبر من المسيحيين ويقومون ببيعهم للموريين

خارج المدينة من الناحية الغربية، توجد حدائق جميلة وفيها مختلف أنواع الأشجار المثمرة، يوجد البطيخ من أجود الأنواع، وعندهم أنواع أخرى من الفواكه، حول الحدائق توجد آبار تحوي ماءا عذبا ... وبالناحية الشرقية خارج المدينة يجري نهر يصب في البحر يسمّى صافو (savo)، يستعمل للشرب ولأغراض أخرى مثل تدوير الطاحونات المائية.

ملحق رقم13:

مدينة الجزائر في "النفحة المسكية في السفارة التركية"، ص90.

"ثم دخلنا الجزائر يوم السبت ثامن ذي القعدة لليلة بقيت من غشت. وهي عامرة كثيرة الأسواق بعيدتها كثيرة الجند حصينة، لها ثلاثة أبواب، وفيها المسجد الجامع واسع. أمامه مالكي المذهب وفيها ثلاث خطب، أحدها للترك إمامهم حنفي المذهب، ومرساها عامر بالسفن، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش، ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير، وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا حتى أنهم يسمونها اسطنبول الصغرى وطلبة العلم بها، ولا بأس بهم إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتنان بها غلب عليهم كثيرا والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد افريقية، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا. وفي هذه المدينة قبر الولي الصالح أبي زيد سيدي عبد الرحمان الثعالبي وقبر الولي الصالح أبي العباس سيدي أحمد بن عبد الله الجزيري وقبر الولي الصالح أبي النور، كذا يقال له عند أهل البلد، وهو الذي قبره في رأس الجبل، وكل هؤلاء خارج باب الواد. وفيها غيرهم من الصالحين زرناهم وتبركنا بتربتهم رحمهم الله..."

ملحق رقم 14:

الديوان من رحلة بوتي دولاكروا (1695)، ص ص 13-14.

"الديوان يتكون من 86 شخصا وهم الباشا، الداي، آغا الأنكشارية، الكيايا أو الملازم العام، 25 يايا باشي، 25 كاهية بلوك باشي، 4 باشودات، 20 يوري ايتش و8 فولاك... يجتمع في كل الأيام للنظر في القضايا، ويوم السبت يعقد الديوان الكبير المسمى كالابا Calaba للأعمال العامة، وفي هذا اليوم يتم تغيير حراس الأبواب، وفي قرارات أعمال الدولة ينهض ويتلقى مقترحات وأسئلة الآغا، ويقترح من يأتي بعده، وهكذا دواليك، فمن شخص إلى آخر يتم تداول الحديث في الديوان حتى آخر فرد فيه ولو كان بسيطا...

وحينما ينعقد الديوان يأتي بالباشا أربع شواش وحينما يصل ينادي رجل بأعلى صوته، الله أكبر، محمد رسول الله، إلى غاية أن يجلس، وكل أعضاء الديوان يرددون نفس العبارة وبصوت عال.

الآغا هو قاضي الجنود في الجيش، يتغير كل شهرين، وفيما بعد يصير معزول آغا أي متقاعد، خارج الخدمة وراتبه يتوقف عند 106 إيكيس في العام.

القاضي مدني معين من طرف السلطان الأكبر، ينادي بالأحكام في الديوان، ويدون التقارير، لا يملك عائدا إلا من القضايا التي تعرض عليه، والمفتي هو قاضي الدين، هناك اثنان، تركي وموري (يعني عربي) بسبب التنوع الشعائري... المفتي الموري يتواجد بالمسجد الكبير، المفتي التركي معين من طرف السلطان الأكبر لا يتغير، يوجد في المملكة سوى الباشا، المفتي والقاضي الذين يتحصلون على راتبهم من السلطان الأكبر، بينما البقية رواتبهم من العائدات والمداخيل..."

ملحق رقم 15:

رمضان في مدينة الجزائر من خلال رحلة توماس هيز 1675 –1676، ص ص 102-103.

"وفي المساء المحمديون يتأهبون لرؤية الهلال، يصعدون إلى أسطح منازلهم يترقبون الهلال الجديد، وفيما بعد ينادي منادي في المدينة بحلول رمضان، وهذه المناسبة تدوم شهرا كاملا إلى غاية رؤيتهم هلالا، بعد هذه المدة وخلال شهر رمضان يحرم عليهم الأكل ماعدا في الليل، كما أنه يحرم عليهم شرب الخمر وتعاطي التبغ، وفي الحانات يكون الأمر نفسه، وفي الليل يحدث الضجيج، لأن عربة الطنبور توقظ الناس، وكذلك الطرق على الأبواب، وعادة ما تبقى أبواب المدينة مفتوحة إلى ساعات متأخرة من الليل، كما يحدث الترويح عن النفس في الطرقات والأزقة...".

رمضان من خلال رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت 1732، ص48

"لقد صادفت أنوصلت إلى الجزائر في الفترة التي تسبق الصيام، ولاحظت أنّ المسلمين يمتنعون عن الشرب و الأكل أثناء اليوم طيلة الشهر، وحتى ظهور قمر الشهر التالي. وهذا الصوم ليس منهكا سوى للطبقة الدنيا وهي جماعة البرانية، الذين يلتزمون به رغم ما يقومون به من أعمال منهكة جدا، بينما الذين هم في منزلة أرفع، وهم الحضر، يتجنبون هذا الإجهاد ويهيئون في الليل ما يقومون بعمله في النهار".

ملحق رقم 16:

مدينة الجزائر في مذكرات شوفالييه دارفيو (1675)، ص ص 219-220.

"مدينة الجزائر لا هي مثلثية الشكل كاملا، ولا هي مربعة، وكل البنايات فيها بيضاء ومرصوفة فوق بعضها البعض مثل مدرج، وهي ترى من بعيد وكأنها شراع سفينة، أعلى قمة بها أقيمت بها قلعة، ومنحدرها ينتهي إلى ساحل البحر، أسوارها تتبع تعرجات الهضبة التي أقيمت عليها، وهي بسيطة مع وجود دفاعات أخرى حولها على مسافات معينة، وهي مبنية بحجارة مصقولة وبجانب الميناء يوجد أقدم الأبراج.

في هذه المدينة خمسة أبواب، ولا أتحدث إلا على الأكثر ملاحظة فيها والتي منها ما يسمى باب عزون والذي به طريق طويل يؤدي إلى ضاحية كبيرة يباع فيها اللحم ومشتقاته والتي تأتي من الريف.

الموريون الذين يأتون إلى المدينة لأجل بيع سلعتهم يقيمون في هذا الحي (حي باب عزون)، ومن خلال فهذه الناحية والمدينة محمية من طرف عزون الأمير الموريتاني، وهذا الباب أخذ اسمه، وغير بعيد عن هذا نرى مقبرة كبيرة للمحمديين، وفيها قبور لعائلات خاصة، وهي مغلقة وعليها جدران صغيرة، ومنها ما هي لمرابطين، على شكل بنايات صغيرة ذات قبب يلجأ إليها البعض من الأفراد لطلب حاجاتهم، وهناك مقابر خارج باقي أبواب المدينة...

السكان في المدينة يتكونون من الأتراك الأصليين، وهم كلهم جنود، رغم أنهم يتبدلون في كل مرة، لهم السلطة، كما يوجد فيها المرتدّين وهم من كل الأجناس، إلا أنهم غير أشراف و ليسوا متخلقين، الكراغلة هم أبناء الجنود الأتراك والموريات، أمّا الموريون هم السكان الأصليون للبلاد وهم بأعداد كبيرة، ليس لهم أي نصيب في تسيير الحكومة...

المورسكيون هم المنحدرون من إسبانيا والبرتغال، يسمون بالأندلسيون أو الثغريون ونحن نسميهم بالغرناطيون، لأنهم الأوائل اللاجئون إلى المملكة من غرناطة، وهناك أيضا عدد كبير من اليهود ذو أصول مختلفة في حدود عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف شخص، وكذلك الأسرى المسيحيون يمثلون تقريبا نفس هذا العدد..."

ملحق رقم 17:

الحياة العسكرية في مدينة الجزائر من خلال كتاب لوجي دي تاسي، ص ص 126-127.

"الجنود الذين يكونون هذه الميليشيا لديهم امتيازات كبيرة، وكلهم من الطبقة الحاكمة، وهم أسياد المملكة، ولهم السلطة في كل شيء، وكلهم يعطون اسم أفندي أو السيد (سيدي حتى ولم يكن جنديا)، ومن خلال هذه الميليشيا يكون انتخاب الداي، الباي والضباط الآخرين لا يعاقبون أمام العامة، بل في أمكنة خاصة وعادة ما يخنقون عند آغا الميليشيا (عميد المشاة).

ويتميزون باحترام كبير عند العرب والمور، وفي حالة عدم حصولهم على مرتبهم فإن الخطر الأول والضرر الكبير يلحق بالداي، الجنود غير المتزوجين يسكنون في القصريات، وهي عبارة عن منازل كبيرة فيها نافورات وأحواض ماء للنظافة وكل الحاجات الضرورية، ولكل ثلاثة أفراد غرفة واحدة، وهناك عبيد لصيانة ونظافة هذه المنازل وهم يعملون تحت إمرة الحكومة.

الحكومة تعطي لكل جندي أربع خبزات يوميا، ولهم امتياز شراء اللحم أقل من سعره بالنسبة لبقية سكان المدينة بالثلث، وتتغير هذه الامتيازات إن تزوج الجندي (تسقط عنه العديد منها)، وهذا ما يمنع العديد منهم من الزواج.

العرب والموريون ممنوعون من الانضمام إلى الميليشيا ...، وفي حالة ما إذا وقع جندي في الأسر (عند الأوربيين)، يعتد بأنه ميت، وتقوم المملكة بالاستيلاء على ممتلكاته (الأثاث والتجهيزات)، لأنه لا يملك لا أخوة ولا أبناء عادة، وفي حالة عودته إلى المملكة ترجع له ممتلكاته وتقدم له راتبه الشهري بمجموع عام دفعة واحدة، وتزوده ببندقية وسيف وأسلحة أخرى ضرورية..."

ملحق رقم 18:

مرتب الانكشاري من خلال رحلة توماس شو، ص ص 187-189.

"كل الجنود المقبولين في الميليشيا مسجلين في سريات، دون أن يرتبطون بها، وهذا بغية الحصول على مرتباتهم فقط، المرتب ليس نفسه لجميع الانكشاريين، وهو يرتفع في كل السنوات في حدود 50 آسبر "Aspres"، بالإضافة إلى أنه يرتفع في حالات خاصة مثل مناسبة انتخاب داي جديد، عند الانتصار في حرب، في السلم وفي بعض الأفراح العامة، وفي احتفاليات السيد الكبير.

المرتب الابتدائي للجندي هو 275 آسبر (أي 4 فرنكات و59 سنتيم) والمرتب الكبير هو 6 بياستر (كورونت) مألوفة (أي 69 فرنك و60 سنتيم) خلال شهرين قمريين.

يسلم الراتب في اليوم الثاني من الشهر القمري، وذلك بحضور الداي وآغا الميليشيا وآغا الباشي وضباط آخرين في الديوان، والكل يأتي إلى قصر الداي لتسلم المرتب والنقود عبارة عن قطع نقدية ذهبية وفضية مفحوصة وموزونة من طرف المحقق.

ملحق رقم 19 :

لباس الانكشاري، سلاحه وغذاؤه من خلال كتاب فونتيردي بارادي، ص ص 159-160.

"اليولداش الذي يأتي إلى الجزائر عادة يكون من أزمير ومن قرمان، يعطى قميص من نسيج، مشد، سترة خضراء، سروال من نسيج مقطن وغطاء كبير وقلنسوة (على الطريقة الجزائرية)، شال أحمر لأجل الحزام وزوج من الأحذية مغطاة بصوف، ويسكن في إحدى الثكنات المسماة قصريات "Cacherie"، وهناك يجد حصيرة بمثابة سرير له، يقرضه الداي بندقية، يطغان، زوج مسدس، وفي حالة عدم إرجاعهم يسدد ثمنهم من أجرته لأنه موجه إلى الثكنات أو إلى الحاميات البعيدة عن مدينة الجزائر، ويعطى له ما يصلح به حذاؤه كما يعطى أيضا قليلا من مسحوق البارود لكي يصنع منه حبات الذخيرة...، يتحصل على راتبه بعد مرور شهريين، يسجل على السجل الكبير عند الكاتب الأول(الخوجة الأول)، اسمه، تاريخ وصوله، بلاده، شكله، الثكنة الموجه إليها، اوداباشي الذي يعمل تحت إمرته، السرية التي جنّد فيها (من بين 420 أورتة المكونة للأوجاق)...

في الثكنات وفي الحاميات يأكلون أحسن من رجال البحر، حيث يقدم لهم الأرز، البرغل، جزء من الحساء واللحم مرتين في الأسبوع كما يقدم لهم الصابون لغسل ثيابهم...، يعمل الانكشاري سنتين أو ثلاث سنوات ثمّ يأخذ راحة لمدة سنة، يستطيع من خلالها أن يمارس أية مهنة..."

ملحق رقم 20:

الأسرى في مدينة الجزائر من خلال رحلة الضابط الروسي كوكوفتسوف، ص ص 212-213.

"كل الأسرى عندما يصلون إلى مدينة الجزائر يؤخذون إلى البادستان (مكان عمومي)، وهنا يتم اختيار 1 من 8 تأخذه الحكومة، والبقية يباعون بالعلن، ويتوقف سعر الأسير على الرايس الذي أتى به، وهو الذي يحدد فئة هذا العبد، ومن خلال ما كان يعمله العبد تحدد قيمته.

الأتراك والموريون الذين يشترون الأسرى يلبسونهم بطريقة ملائمة، ويثبتون على أذرعهم حلقة للدلالة على أنهم أسرى، وبعدها يبدأ الأسير في العمل مقابل دفع مبلغ إفتدائه.

الأسرى المسيحيون يخفون كل الوسائل والحقائق المتعلقة بأصولهم الغنية والسرية بخصوص آبائهم، لأنه إذا عرف أسيادهم ذلك، أجبروهم على دفع مبلغ ضخم لأجل اقتدائهم، والأسرى يقسمون إلى قسمين:

أ-منهم من يوجه لخدمة داي الجزائر.

ب-ومنهم من يوجه لخدمة سكان مدينة الجزائر.

والكل في حالة جيدة، يلبسون جيدا، يأكلون جيدا، وخلال مدة أسرهم يعالجون ويعاملون معاملة إنسانية من طرف سكان المدينة، عكس ما يعمل الأوروبيون للأسرى الذين يمتلكونهم.

الأتراك لا يثقون إلا في الأسرى المسيحيين، عكس الأهالي البربر، كل خدم داي الجزائر والأتراك هم أسرى، وأسرى الداي أحسن وضعا من الآخرين، كما أن أسرى الداي يخدمون الجنود في إقامتهم، ومن خلال ذلك يتحصلون على غذائهم...، الجنود لا يستطيعون معاقبة هؤلاء الأسرى على أخطائهم دون إذن من القارديان باشي الذي هو موكل بهم...".



الفهارس

أولا: فهرس الأعلام

ثانيا: قائمة المصادر والمراجع

ثالثا: فهرس الموضوعات

أولا: فهرس الأعلام

ثانيا: قائمة المصادر والمراجع:

1- **المصادر غير المنشورة:**

1. البلوي خالد أبو البقاء، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 1566.

2. التّلمساني ابن رقيّة الجديري، **الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 1626 Cd50119.

3. ابن حمادوش عبد الرّزّاق، **كشف الرّموز في العقاقير**، مخطوط بـ: م.و.ج، رقم:1764 Cd255.

4. ابن حمادوش عبد الرّزّاق، **لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحسب والحال**، مخطوط بالخزانة العامّة بالرّباط رقم: ك463.

5. دفتر تشريفات، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 1649 Cd24.

6. أبو راس محمّد النّاصر، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 2003 Cd124-125.

7. أبو راس محمّد النّاصر، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 1632 Cd45.

8. راس محمّد النّاصر، **فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته**، منها ثلاث نسخ مخطوط، واحدة ملك عبد الحي الكتّاني، الخزانة العامّة بالرّباط. أبو

9. ابن زاكور الفاسي، **نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان**، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 1740 Cd19.

10. سجلّات استعملت كرواتب للجند: م.و.ج رقم: 1986.

11. ابن سينا، **القانون في الطّب**، مخطوط بـ: م.و.ج، رقم:1747 Cd188.

12. ابن الشّويهد يوسف، **قانون الأسواق في الجزائر العاصمة وعادات الأسواق**، مخطوط بـ: م.و.ج رقم: 2311 Cd269.

13. ابن عمّار أحمد، **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب**، مخطوط ب:م.و.ج رقم: Cd76-88 2757.

14. الورتلاني الحسين، **نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار**، مخطوط ب: م.و.ج رقم: Cd169 2743.

15. الورتلاني الحسين، **نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار**، نسخة بزاوية الهامل ببوسعادة، رقم: 30.

16. اليفرني محمّد، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، مخطوط ب: م.و.ج رقم: 1741 Cd68489.

2- المصادر المنشورة:

ا- العربيّة والمعرّبة:

1. أ.ليسيور وويلد، **رحلة طريفة في إيّالة الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق وترجمة محمّد جيجلي، ط2، شركة دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2002.

2. ألبير دوفو، **مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني**، ترجمة وتحقيق وتعليق مصطفى بن حمّوش، ط1، دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2007.

3. بربروس خير الدّين، **مذكّرات خير الدّين بربروس**، ترجمة محمّد درّاج، ط1، شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2010.

4. بفايفر سيمون، **مذكّرات أو لمحة تاريخيّة عن الجزائر**، تقديم وتعريب أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.

5. البكري أبو عبد الله، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب (المسالك والممالك)**، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

6. بيتس جوزيف، **رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة**، ترجمة ودراسة عبد الرّحمان عبد الله الشّيخ، الهيئة المصريّة العامّة، 1995.

7. التّلمساني ابن رقيّة الجديري، "**الزّهرة النيّرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**"، تحقيق سليم بابا عمر، مجلّة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 3، 1967.

8. التّمقروتي أبي الحسن علي، **النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة**، تقديم وتعليق سليمان الصّيد المحامي، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، تونس، 1988.

9. التّنلاني التّواتي عبد الرّحمان بن إدريس، "**رحلة عبد الرّحمان بن إدريس**"، تحقيق مختار حساني، حوليات جامعة الجزائر، العدد 16، ج1، جامعة الجزائر، 2006.

10. جيمس ليدر كاثكارت، **مذكّرات أسير الدّاي كاثكارت قنصل أمريكا في الجزائر**، ترجمة وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د.م.ج، الجزائر، 1982.

11. ابن حمادوش عبد الرّزّاق، **رحلة ابن حمادوش المسمّاة: لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحسب والحال**، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، موفم، الجزائر، 1983.

12. ابن حوقل النّصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

13. خوجة حمدان بن عثمان، **المرآة** ،تقديم وتعريب وتحقيق محمّد العربي الزّبيري، ط1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

14. أبو راس محمّد النّاصر، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، ج1، تقديم وتحقيق محمّد عالم، منشورات المركز الوطني في البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثّقافيّة، وهران، 2005.

15. أبو راس محمّد النّاصر، **فتح الإله ومنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته، حياة أبي راس الذّاتيّة والعلميّة**، تحقيق وضبط وتعليق محمّد بن عبد الكريم الجزائري، م.و.ك، الجزائر، 1990.

16. ابن زاكور الفاسي، **نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان** (ضمن كتاب: **ثلاث رحلات مغاربيّة**، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، طبعة خاصّة، المعرفة الدّوليّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2011).

17. ابن زرفة العمري، **الرّحلة القمريّة**، تحقيق مختار حسّاني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003.

18. الزّهّار أحمد الشّريف، **مذكّرات الحاج أحمد الشّريف الزّهّار نقيب أشراف الجزائر 1168هـ-1246هـ/1754م-1830م**، نشر وتحقيق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.

19. الزّياني أبو القاسم، **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّا وبحرا**، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، مكتبة فضالة، المغرب، 1967.

20. أبو زيد عبد الرّحمان الجامعي، **رحلة الجامعي** (ضمن تأليف: **تاريخ المدن الثّلاث، الجزائر-المدية-مليانة في موسمها الألفي**، ط1، دار الأمّة، الجزائر، 2007).

21. بن سودة عبد السّلام بن عبد القادر، **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثّالث عشر والرابع**، ومعه **تتمة تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين** (عبد الكبير الفاسي)، تنسيق وتحقيق محمد حجي، ط8، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1996.

22. شالر وليام، **مذكّرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)**، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

23. الشّويهد يوسف عبد الله بن محمّد، **قانون أسواق مدينة الجزائر 1695-1705**، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدّين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

24. الضّعيف عبد السّلام، **تاريخ الضّعيف أو تاريخ الدّولة السّعيدة**، تحقيق أحمد العماري، الرّباط، المغرب، 1987.

25. العبدري محمّد بن علي، **الرّحلة المغربيّة**، تحقيق أحمد بن جدّو، د.ت.

26. ابن علي، ابن عمّار... وآخرون، **أشعار جزائريّة**، تحقيق وتقديم أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1988.

27. ابن عمّار أحمد، **نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب**، نشر وتحقيق محمّد بن شيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902.

28. كاربخال مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمّد حجّي ومحمّد زينير ومحمّد الأخضر، ج1، ج2، ج3، مطابع المعارف الجديدة، الرّباط، المغرب، 1988-1989.

29. المرالي علي التّونسي، **العود الجزائري**، تقديم وعرض أحميدة عميراوي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2006.

30. ابن المسيّب عبد الله، **الدّيوان**، نشره محمّد بخوشة، تلمسان، 1370هـ.

31. ابن المسيّب عبد الله، **يا الورشان أقصد طيبة** (ضمن كتاب: **من التّراث التّاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرّخين ورحّالة وجغرافيّين** لناصر الدّين سعيدوني).

32. المغربي ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، حقّقه ووضع مقدّمته وعلّق عليه إسماعيل العربي، ط2، د.م.ج، الجزائر، 1982.

33. ابن المفتي حسين بن رجب، **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها**، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

34. المقدّسي شمس الدّين، **أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم**، علّق عليه ووضع حواشيه محمّد أمين الضّناوي، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003.

35. المقرّي أحمد أبي العبّاس، **رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق**، تحقيق محمّد بن معمّر، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلاميّة في شمال إفريقيا، جامعة وهران، مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2004.

36. المقرّي أحمد أبي العبّاس، **نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب**...، تحقيق إحسان عبّاس (8ج)، دار صادر، بيروت، 1968.

37. المكناسي محمّد بن عبد الوهاب، **رحلة المكناسي (إحراز المعلى والرّقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشّريف والخليل والتّبرّك بقبر الحبيب)**، تحقيق وتقديم محمّد بوكبّوط، دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، الإمارات العربيّة المتّحدة، 2003.

38. مؤلّف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكّة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، إدارة دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة.

39. ميتزون جيريت، **يوميات أسر في الجزائر (1814–1816)**، ترجمة إلى الفرنسيّة ج.هـ.بوسكي وج.ق.بوسكي ميراندول، تعريب محمّد زروال، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2011.

40. هابنسترايت.ج.أو، **رحلة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ/ 1732م**، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدّين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008.

41. الورتلاني الحسين، **نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار**، تحقيق محمّد بن أبي شنب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974.

42. الوزّان الحسن بن محمّد، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمّد حجّي ومحمّد الأخضر، ج1، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

43. اليفرني محمّد الصّغير بن محمّد، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، مطبعة حجريّة، فاس، المغرب، د.ت.

ب– الأجنبيّة :

1. Camelin (François) et autres, **voyage pour la rédemption de Captifs aux royaumes d'Alger et de Tunis fait en 1720**, avec approbation, privilège du Roy, Paris, France.
2. Chaouch (Sinan)**, histoire des frères BarbarousseArroudj et Khair-ed-Din, fondateurs de la régence d'Alger**, trad, deJean Michel Venture de Paradis (d'après l'édition établie par Sander Rang et Ferdinand Denis 1837), édition, grand Alger livre Alger, 2006.
3. D'Alonso (Cano)**, la régence d'Alger au XVIII^e siècle**, manuscrit présenté et traduit de l'espagnol par Dr.IsmetTerkiHassaine, édition Dar EL Quads, Oran, Alger, 2010.
4. Dan (Pièrre)**, histoire de la barbarie et de ses corsaires des Royaumes de villes d'Alger, de Tunis, de Salé et de Tripoli**, P.Rocolet, 1637 (2 éme édition renouée et augmentée, Paris, 1649).
5. D'Apper(Alfred)**, description de l'Afrique**, traduit française WaebergeBommet Van Someren, Paris, 1686.

6. D'Aranda(Emanuel), **les Captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel D'Aranda jadis esclave à Alger (XVII éme siècle),** texte établie par Latifa Zéghari, Casbah, édition, Alger, 2004.

7. D'Arvieux (Chevalier), **mémoire de Chevalier D'Arvieux envoyé extraordinaire du Roy à la porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli et autres échelles du levant…**, par le R.P.Jean Baptiste Labat, Paris.

8. De la Fay (Jean) et autres, **relation en forme de journal de voyage pour la rédemption des Captifs aux royaume de Maroc et d'Alger pendant les années 1723-1724-1725**, Paris, L.Seveste 1726.

9. De Nicolay (Nicolas), **Les quatre premiers livres des navigation et pérégrination orientale**, Lion, France, 1568.

10. De Tassy (Laugier), **Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, de ces forces de terre et de mer, de ces revenus, police, justice, politique et commerce** préface Noël Laveau et André Nouschi, édition Loysel, Paris, 1992.

11. Desfontaines (L.R), **le voyage botanique de Desfontaines dans les régences de Tunis et d'Alger, 1783-1786**, préface de Denise Brahimi, édition Cartaginoiserie, Tunis, 2010.

12. Desfontaines (L.R), **voyage dans les régences de Tunis et d'Alger (1783-1784)** publier par Dureau de la Malle, Paris, Gide, 1838.

13. Devoulx(Albert), **Tachrifat, recueil de note historique sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger**, imp.du gouvernement; Alger, 1852.

14. Haedo Fray (Diego), **histoire des rois d'Alger**, traduction de l'espagnol par Delmas De Grammont, édition, grand-Alger-livre, Alger, 2004.

15. Haedo Fray (Diego), **topographie et histoire générale d'Alger (la vie à Alger au seizième siècle**, traduction de l'espagnol

et notes de A.Berbrugger et Dr.Monnereau, présentation de Abdrrahmane Rebahi, 3[ed] Grand-Alger-livre, Alger, 2007.

16. Hees (Thomas)**, journal d'un voyage à Alger (1675-1676)** traduit par G.H.Bousquet et G.W.Bousquet Mirondolle, in R.A, 1957.

17. Lessore.(E) et Wyld.(W), **voyage pittoresque dans la régence d'Alger éxcuté en 1833,** 1ed Charles Motte, Paris, 1835.

18. Lithgow(William), **discoures of rare adventures and painfull pérégrination of long nineteene years travels from Scotland to the mostkingdom in Europe, Asia and Africa**, London, 1614, traduit et publier en français par Pierre Grand champs sous le titre "**Voyage dans les états barbaresques (1615-1616)**" in R.A.T.91, année 1947.

19. Mascarenhas (Joao)**, esclave à Alger (récit de captivité de Joao Mascarenhas 1621-1626**, traduit de Portugais, annoté, présenté par Palil Teyssier, édition chandingne, Paris, 1993.

20. Pananti (Philipe)**, relation d'un séjour à Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence**…, traduit de l'anglais obruat Elted, le normant, imprimeur librairie, Paris.

21. Peyssonnel Jean(André)**, voyage dans les régence de Tunis et d'Alger,** présentation et notes de Lucette Valensi, édition la découverte, Paris, 1987.

22. Rozet et Carrette**, Algérie états tripolitains**, édition, Bouslama, Tunis, 1980.

23. Show (Thomas)**, travels or observations relating to several parts of barbary and the levant**, Oxford, 1738, 2[éme] édition 1743, traduit français, abrégée par J.MacCarthy, Paris, 1830.

24. Valiere. (C. PH)**, l'Algérie en 1781**, présenté par Lucien Chaillou imprimerie nouvelle, Toulon; France, 1974.

25. Venture De Paradis (J.M)**, Alger au XVIII[e] siècle (1788-1790), mémoires, notes et observations d'un diplômate espion**,

présentation et notes par Abdrrahmane Rebahi, Grand-Alger-Livre, Alger, 2006.

26. Venture De Paradis (J.M)**, Tunis et Alger au XVIII^{e} siècle**, bib.Arab.Sindhad, Paris, 1983.

3- المراجع:

ا- العربيّة والمعرّبة:

1. إلتر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيّون في شمال إفريقيا**، ترجمة محمّد علي عامر، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1989.

2. أنساعد سميرة، **الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النّشأة والتّطوّر والبنية**، دار الهدى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009.

3. بلحميسي مولاي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

4. بلحميسي مولاي، **مدينة الجزائر من خلال مياهها من القرن 16 إلى القرن 19**، طبع المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال والنّشر والإشهار، الجزائر، 1989.

5. التّازي عبد الهادي، **رحلة الرّحلات، مكّة في مائة رحلة مغربيّة**، مراجعة عبّاس صالح، ج1، طاشكندي، مكّة، 2005.

6. الجيلالي عبد الرّحمان، **تاريخ الجزائر العام**، ج3، د.م.ج، الجزائر، 1994.

7. الجيلالي عبد الرّحمان، **تاريخ المدن الثّلاث، الجزائر، المديّة، مليانة في موسمها الألفي**، ط1، دار الأمّة، الجزائر، 2007.

8. حسن زكي محمّد، **الرّحّالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار الرّائد العربي، بيروت، لبنان، 1981.

9. حليمي عبد القادر، **مدينة الجزائر نشأتها وتطوّرها قبل 1830**، ط1، المطبعة العربيّة لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972.

10. بن حمّوش مصطفى، **المدينة والسّلطة في الإسلام (نموذج الجزائر في العهد العثماني)**، ط1، مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث، دبي، 1999.

11. بن حمّوش مصطفى، **فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 956هـ/1549م-1246هـ/1830م**، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 2000.

12. دودو أبو العيد، **الجزائر في مؤلّفات الرّحّالين الألمان 1830-1855**،م.و.ك، الجزائر، 1989.

13. سبنسر وليم، **الجزائر في عهد ريّاس البحر**، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.

14. سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج1، طبعة خاصّة، دار البصائر، الجزائر، 2007.

15. سعد الله أبو القاسم، **الطّبيب الرّحّالة ابن حمادوش حياته وآثاره**، د.م.ج، الجزائر، 1982.

16. سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

17. سعيدوني ناصر الدّين، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)**، م.و.ك، الجزائر، 1984.

18. سعيدوني ناصر الدّين، **من التّراث التّاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرّخين ورحّالة وجغرافيّين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

19. سعيدوني ناصر الدّين، **ورقات جزائريّة**، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2008.

20. السّليماني أحمد، **النّظام السّياسي الجزائري إبّان العهد العثماني**،مطبعة دحلب،الجزائر،1994

21. السّليماني أحمد، **تاريخ مدينة الجزائر**، د.م.ج.، الجزائر، 1989.

22. الشّاوش الحاج محمّد بن رمضان، **باقة السّوسان في التّعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، د.م.ج، الجزائر، 1995.

23. شنّوف عيسى، **يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود**، دار المعرفة، الجزائر، 2008.

24. شوفالييه كورين، **الثّلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510–1540**، ترجمة جمال حمادة، د.م.ج، الجزائر، 1991.

25. صادر كارين، **دمشق في نصوص الرّحّالة الفرنسيّين بين القرنين الخامس عشر والتّاسع عشر**، ط1، مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت، 2010.

26. الصّلابي علي محمّد، **الدّولة العثمانيّة عوامل النّهوض وأسباب السّقوط**، ط1، مؤسّسة اقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، الفسطاط، مصر، 2005.

27. عبّاد صالح، **الجزائر خلال الحكم التّركي، 1514–1830**، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2005.

28. العربي إسماعيل، **المدن المغربيّة**، م.و.ك، الجزائر، 1983.

29. عميراوي أحميدة، **الجزائر في أدبيّات الرّحلة والأسر، مذكّرات تيدنا أنموذجا**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003.

30. غلّاب جمال، **سير فانتس في الحامّة**، ط1، وزارة الثّقافة، الجزائر، 2005.

31. فهيم حسين محمّد، **أدب الرّحلات (138)**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

32. لزغم فوزيّة، **الإجازات العلميّة لعلماء الجزائر العثمانيّة (1518–1830)**، دار سنجاق الدّين للكتاب، الجزائر، 2009.

33. مجموعة من المؤلّفين، **أهميّة دراسة المدن العربيّة الإسلاميّة**، ط1، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، بيروت، لبنان، 2001.

34. المدني أحمد توفيق، **محمّد عثمان باشا داي الجزائر 1766–1791 سيرته –حروبه– أعماله نظام الدّولة والحياة العامّة في عهده**، م.و.ك، الجزائر، 1986.

35. مرّوش المنوّر، **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل**، ج1، دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2009.

36. مرّوك علي، **قصبة الجزائر**، تقديم محمّد تمّام، نشر وزارة الإعلام والثّقافة، الجزائر، طبع برنتراندوسترية غرافقة، برشلونة، إسبانيا، 1976.

37. الموساوي فلّة، **الواقع الصّحّي والسّكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518–1871**، وزارة الثّقافة، الجزائر، 2013.

38. نصّار حسين، **أدب الرّحلة**، ط1، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، لو نجمان: مصر، 1991.

39. نور الدّين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التّركي**، نشر لكليّة الآداب، جامعة الجزائر، 1965.

40. هلايلي حنيفي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008.

41. و.ولف، ج.ب، **الجزائر وأوروبا 1500–1830**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986.

ب–المراجع الأجنبيّة:

1. Belhamissi (Moulay), **Alger la ville au mille canons**, entreprise nationale du livre, Alger, 1990.
2. Benhamouche(Mustapha)**, DAR ES-SULTAN, l'algérois à l'époque ottomane, gestion urbaine et aménagement du territoire**, 1^{ed}, DAL EL-BASAIR, Alger, 2009.
3. Boyer (Pierre)**, la vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française**, librairie Hachette, 1963.
4. Brahimi (Denise)**, Opinions et regards des Européens sur le Maghreb au XVII^{e} siècle**, S. N.E. D, Alger, 1978.
5. Colin (Gabriel)**, Abdrazzaq el jazairi un médecin arabe du XII^{e} S. de l'Hegire**, thèse de médecin Montpellier, 1905.
6. Degrammont (H.D)**, histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830**, E.Leroux, Paris, 1887.

7. Gaid (Mouloud)**, l'Algérie sous les turques**, 2[ed], édition Mimouni, Alger, 1991.

8. Kaddache (Mahfoud), **Alger durant la période Ottamane**, O.P.U, Alger, 1992.

9. M'Hamsadji (Kaddour)**, EL QASBAH Zemàn, la Casbah d'Alger autre fois**, O.P.U, Alger, 2007.

10. Radouane (Joelle)**, l'orient arabe vu par les voyageurs anglais**, entreprise nationale de livre, Alger, 1988.

11. Raymond(André)**, grand ville arabe à l'époque Ottomane**, la bibliothèque arabe, édité par Pierre Bernard, édition Sindbad, Paris, 1985.

4- الدّوريات:

ا- العربيّة:

1. آبار ميشال، **"الجزائر في القرن السّابع عشر لرحّالة اسكتلندي"**، ترجمة حنيفي بن عيسى، الثّقافة، العدد3، الجزائر، 1971.

2. حسّاني مختار، "**رحلة عبد الرّحمان بن إدريس التّنلاني التّواتي**"، تحقيق حسّاني مختار، حوليات جامعة الجزائر، ج1، العدد16، جامعة الجزائر، 2006.

3. حمّادي عبد الله، **جزائر القرن السّادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان**"، المصادر، العدد6، الجزائر، 2002.

4. دودو أبو العيد، "**المؤرّخون الألمان والجزائر**"، الأصالة، العدد 14-15، الجزائر، 1973.

5. رابحة محمّد خضير، "**من أعلام الجغرافيا البحريّة العثمانيّة محي الدّين بيري رايس**"، مجلّة التّربية والعلم، المجلّة 16، العدد 4، جامعة الموصل (كليّة الآداب)، 2009.

6. الزّين عبد الفتّاح، **"النّظرة للآخر، مقارنة بين نظرة الرّحّالة المغاربة لأوروبا والأوروبيّين للمغرب**"، منبر الحوار،مؤسسه الفلاح، العدد 38، لبنان،1999.

7. سعد الله أبو القاسم، **"إجازة أحمد بن عمّار لخليل المرادي الشّامي**"، الثّقافة، العدد 45، الجزائر، 1978.

8. سعد الله أبو القاسم، "**أشعار ومقامات ابن حمادوش**"، الثّقافة، العدد 49، الجزائر، 1979.

9. سعد الله أبو القاسم، "**الجزائر في مؤلّف إنجليزي قديم**"، الأصالة، العدد 8، الجزائر.

10. سعد الله أبو القاسم، "**رسالة في الكرة الفلكيّة منسوبة إلى ابن حمادوش في القرن 18م**، حوليات جامعة الجزائر، العدد 05، الجزائر، 1991م.

11. سعيدوني ناصر الدّين، "**الأحوال الصّحيّة والوضع الدّيمغرافي في الجزائر**"، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، العدد34-35، تونس، 1985.

12. سعيدوني ناصر الدّين، "**الأحوال الصّحيّة والوضع الدّيمغرافي في الجزائر**"، الثّقافة، العدد91، الجزائر، 1986.

13. العربي إسماعيل، "**بجاية من خلال النّصوص الغربيّة**"، الأصالة، العدد 19، الجزائر، 1974.

14. فلكاري رشيد، "**المفاهيم السّوسولسانيّة الغربيّة وإشكاليّة ترجمتها إلى اللّغة العربيّة**"، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، العدد11، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2010.

15. الفندري منير، "**هابنسترايت وبعثة أمير سكسونيا العلميّة بشمال إفريقيا 1732-1733**"، المجلّة التّاريخيّة المغربيّة، السّنة 11، العدد 35-36، تونس، 1984.

16. فيلالي كمال، "**رجال الدّين الرّحّالة المسيحيّين في منظور لوجي دي تاسي سفير فوق العادة بالجزائر 1725م**"، مجلّة الهجرة والرّحلة، العدد1، مخبر الأبحاث حول حركة الهجرة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005.

ب- الأجنبيّة:

1. Arnaud (M.A), "**voyage extraordinaire et nouvelle agréable par Mohamed Bouras Ben Ahmed Ben Abd-El-Kader-en-Nasr**", in R.A, N°22, année 1878.

2. Bencheneb (Mohamed), "**litinéraire de Tlemcen à la Mekke par Ben Messaib (XVII[éme] siècle)**"; in R.A, N°44, année 1900.

3. Bencheneb (Saad ddine)**, "un acte de vente dressé à Alger en 1648",** in R.A,

4. Bencheneb (Saad ddine), **"un contrat de mariage algérois de début du XVIII[e] siècle",** in A.I.E.O, 1955.

5. Berbrugger.(A), "**les casernes de janissaires**", in R.A, N°3, 1958-1959.

6. Berbrugger.(A), **"un voyage de Paris à Alger en 1731 par le Sieur Tollot"**, in R.A, N°66, 11 année, 1867.

7. Brahimi (Denise)**, "quelque jugement sur les maures Andalous dans les régences turques au XVIII[e] siècle**", R.H.C.M. N°09, 1970.

8. Deny.(J), "**les registres de soldes des janissaires**", in R.A, année 1920.

9. Devoulx.(A), **"incident diplomatique à Alger en 1750**", in R.A, année 16, N°92, 1872.

10. Devoulx.(A)**, "notes historique sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger",** in R.A, N°9, 10, 11, année 1866, 1867…

11. Emerit (Marcel), **"Alger en 1800 d'après les mémoires inédits de la maye"**in R.H.M, N°02, 1974.

12. Emerit (Marcel), **"Description de l'Algérie en 1787 par un officier russe Kokovtsov"**, in R.H.M, N°4, 1957.

13. Emerit (Marcel)**, "les quartiers commerçants d'Alger à l'époque Turque**", R.Algéria, Alger, 1952.

14. Emerit (Marcel)**, "un document inédit sur Alger au XVII[e] siècle**", in A.I.E.O, 1959.

15. Emerit (Marcel), **"un mémoire sur Alger par Petit De la Croix 1695**", in A.I.E.O, Tomexi, édition loitypo et Jules Carbonel Alger, 1953.

16. Fendri (Mounir), **"trois Voyageurs Allemands en Tunisie au XVIII[e]**", in R.H.M, N°36, 1984.

17. Geronimo (G.F), **"expédition de Conte Oreilly contre Alger**", in R.A, N°09, année 1895.

18. Mantran (Robert), **"la description des cotes de l'Algerie dans El-Kitab-I Bahriye de Piri Reis**", in: (www.Persee.FR/web revue. Tinkardhit.haut et fort.com :أو الموقع التّالي).

19. Melki (Nourdine), **"Marmol Karvajal et ses sources arabe"**, acte 2éme colloque internationale sur Ibn Khaldoun du 1er ou 4 juillet, S.N.E.H. Alger, 1986.

20. Rosalem (Nicolas), **"la mission à Alger du consul de Venise Rosalem" 1753-1754**", in R.A, 1952.

21. Venture de Paradis (J.M), "**Alger au XVIIIe siècle**", in R.A, N°39, 40, 41, année 1896, 1897.

5- الرّسائل الجامعيّة:

1. أوجرتني محمّد، **أسرة بن قانة ومكانتها السّياسيّة والاجتماعيّة خلال العهد العثماني**، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2004-2005.

2. بلعمري فاتح، **مدينة الجزائر في القرن 12هـ/18م من خلال بعض الرّحّالة العرب والأوروبيّين –دراسة مقارنة**- رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2009.

3. بوغدادة الأمير، **المؤسّسات في الجزائر أواخر العهد العثماني (القضاء أنموذجا)**، رسالة ماجيستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلو الإسلاميّة، قسنطينة، 2008.

4. خشمون حفيظة، **مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعيّة في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانيّة**، رسالة ماجستير، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007.

5. خليفي زبيدة، **حركة التّأليف التّاريخي في العهد العثماني**، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2004-2005.

6. رموم محفوظ، **الثّقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني، 1519-1830، دراسة تاريخيّة انثروبولوجيّة**، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2002.

7. شويتام أرزقي، **المجتمع الجزائري وفعاليّاته في العهد العثماني 926هـ-1246هـ/ 1519م-1830م**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر.

8. صغيري سفيان، **العلاقات الجزائريّة العثمانيّة خلال عهد الدّايات (1671-1830)**، رسالة ماجستير، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والعلوم الإسلاميّة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012.

9. طوبال نجوى، **طائفة اليهود لمجتمع مدينة الجزائر 1700-1830 من خلال سجلّات المحاكم الشّرعيّة**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، طبع بدعم وزارة الثّقافة، 2008.

10. العابد زكريّا، **الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبيّة**، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2007.

11. غطّاس عائشة، **الحرف والحرفيّون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقاربة اجتماعيّة اقتصاديّة**، رسالة دكتوراه، قسم التّاريخ، جامعة الجزائر.

12. فرج محمّد فرج، **إقليم توات خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر ميلاديين**، دكتوراه الدّور الثّالث في التّاريخ، د.م.ج، الجزائر، 1977.

13. لطرش حنان، **السّلطة والمجتمع في الجزائر أواخر العهد العثماني**، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2005-2006.

14. معاشي جميلة، **الانكشاريّة والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، دكتوراه العلوم في التّاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008.

15. مقران حليمة، **موقع المخزينة في النّظام العثماني في الجزائر**، رسالة ماجستير كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، قسنطينة، 2004-2005.

16. الواليش فتيحة، **الحياة الحضريّة في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد التّاريخ، 1993-1994.

6-المعاجم والقواميس:

1. الحفناوي أبو القاسم، **تعريف الخلف برجال السّلف** ج1، ج2، ط2، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1985.

2. الحموي ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، بيروت، دار الفكر، د.ت.

3. الشّيخ أبو عمران وآخرون، **معجم مشاهير المغاربة**، منشورات حلب، الجزائر، 2000.

4. الصّديق محمّد الصّالح، **أعلام من المغرب العربي**، ج[1]، موفم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2000.

5. عبد المرابط التّرغي، **فهارس علماء المغرب منذ النّشأة إلى نهاية القرن الثّاني عشر للهجرة مذهبيّتها، تطوّرها، قيمتها العلميّة**، ط1، مطبعة النّجاح الجديد، الدّار البيضاء، المغرب، 1991.

6. **المنجد في اللغة و الأعلام** ، ط 39 ، دار المشرق ،2000 .

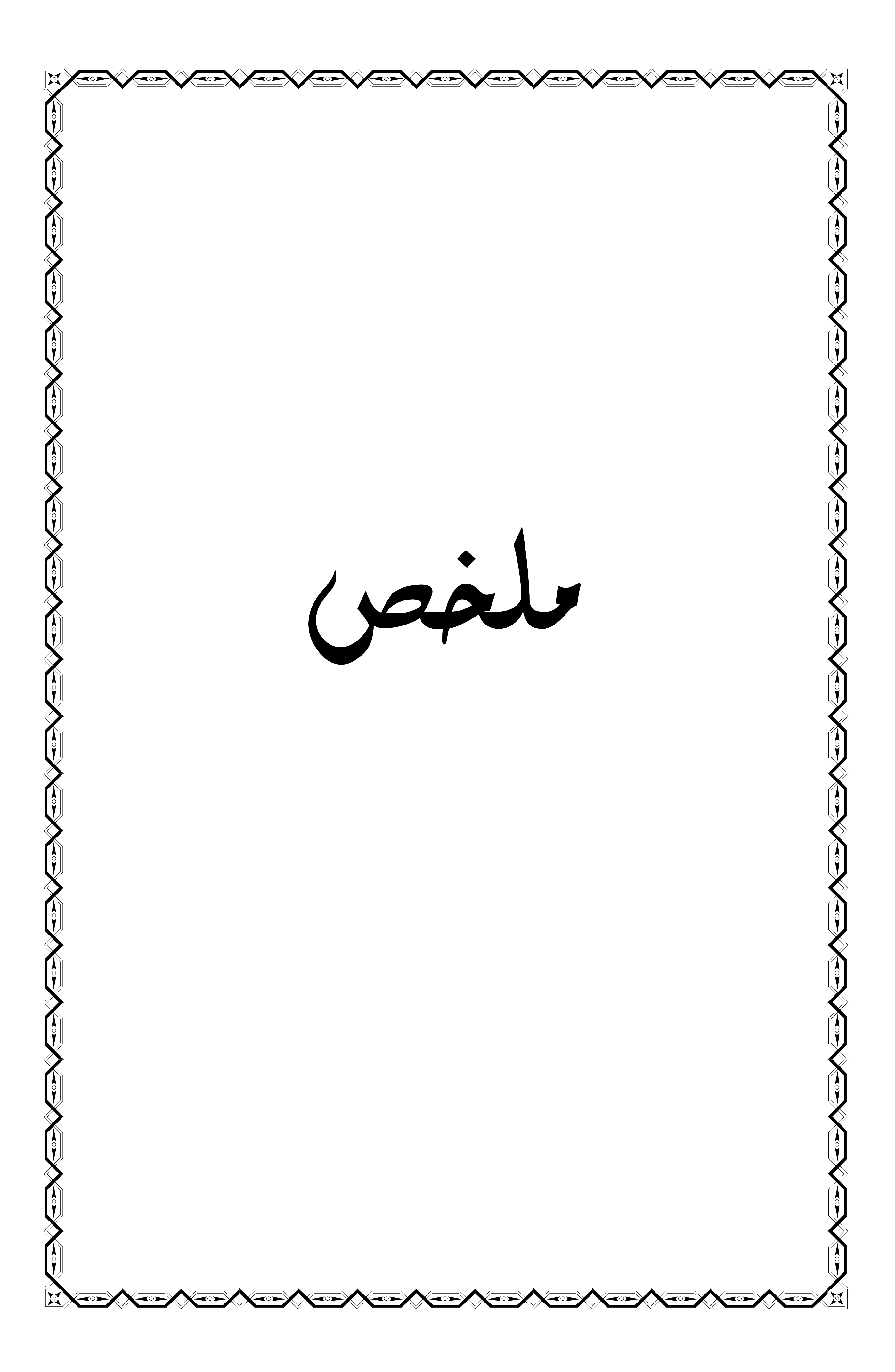
7. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل، **لسان العرب** ، دار صادر، بيروت.

8. نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر**، ط2، بيروت، 1980.

9. Dictionnaire encyclopédique poutou, petit la rousse, en couleurs libraire LA ROUSSE, Paris VI^{e}, 1980.

10. Dictionnaire El-Mounir Français-Arabe avec des cartes et des illustrations, DAR-Ennahar, 2011.

ثالثا: فهرس الموضوعات



ملخص

تتناول هذه الدراسة **الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة،** وهي مقسمة إلى ثلاثة أبواب، الباب الأول تضمن التعريف بأصحاب مصادر الرحلة وهم حوالي ثلاثين رحالة(عربا وأوربيين)، والباب الثاني تناول التعريف بمدينة الجزائر، بمنشآتها ومرافقها من خلال مصادر الرحلة، بينما الباب الثالث فقد احتوى على ملامح من الحياة الحضرية بالمدينة في جوانب عديدة سياسية، عسكرية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية ودينية.

لقد استقبلت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني العديد من الرحالة والذين تنوعت أهداف رحلاتهم وتعددت مرامي كتاباتهم، فقد حلّ بها سفراء ومبعوثين، قناصل، وموظفين....، وكانت أيضا قبلة لطلاب العلم والعلماء، كما كانت محطة للحجاج،التجار، المغامرين والعسكريين....وغيرهم ممّن كانوا يتوقون للرحلة إليها أو لغيرها، فدونوا ما شاهدوه وقيدوا ما قيل لهم، ولذلك كانت متون رحلاتهم زاخرة بالحديث عن الحياة الحضرية بالمدينة.

والحقيقة الواجب ذكرها في شأن الحياة الحضرية بمدينة الجزائر في العهد العثماني فقد كتب عنها أصحاب مصادر الرحلة الأوربية كثيرا عكس أصحاب مصادر الرحلة العربية، ولهذا الأمر تبريراته، فالأجنبي يكتب كلّ ما هو جديد عنه وعن بيئته، لكن بتفسيرات خاصة وأحكام مسبقة.

كما أنّ هناك العديد من الرحالة الذين كتبوا عن الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني استعملوا مصادر رحلة سبقهم أصحابها في الكتابة عن هذا الأمر، وينطبق ذلك على الرحالة العرب والأوربيين معا .

اختلفت مصادر الرحلة الأوربية المهتمة بشأن العدد في ذكر عدد المساجد الموجودة في المدينة وكذا المدارس والحمامات، لكن يبدو أنّ هذا له علاقة بتطور سكان المدينة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر.

يبدو أنّ مصادر الرحلة غير كافية لمعرفة الصورة الحقيقية التي كانت عليها الحياة الحضرية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية لأنّ أصحابها كتبوا عنها حسب ظروفهم وانطباعاتهم وكذلك حسب أهداف رحلاتهم، وهذا ما حتّم علينا الاستعانة بمصادر أخرى معاصرة.

تبين لنا بأنّ مدينة الجزائر في العهد العثماني كانت تحمل ملامح مدينة إسلامية، من حيث تمركز دار الإمارة (قصر الجنينة) والمسجد الجامع بها، ووجود الشارع الرئيسي (من باب عزون إلى باب الواد)، وكذا ضيق أزقتها وأنهجها وتتابع أسواقها وحرفها، ونمط الحياة الحضرية فيها الذي حاكى

عموما عدة مدن إسلامية في تلك الفترة

ويبقى موضوع الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة قابلا للإثراء والدراسة في جوانب أخرى عديدة لم نتطرق لها في هذا البحث، وذلك راجع لكثرة مصادر الرحلة وتنوعها، حيث منها: السياسية، السفارية، العلمية، الدراسية، الحجازية، الاستطلاعية، العسكرية، الخاصة، العامة، السياحية، الاستكشافية، الأثرية والفهرسية

Résumé.

Cette étude abordera la vie urbaine dans la ville d'Alger pendant l'ère Ottoman à travers les sources du voyage et elle est divisée en trois parties:

La première partie comporte un aperçu sur la biographie des voyageurs, ils étaient trente environ (arabes et européens).

La deuxième partie abordera une définition de la ville d'Alger, ses établissements et ses équipements à travers les sources de voyage, tandis que la troisième partie contiendra quelques aspects (cotés) de la vie citadine de la ville(politique, sociale, économique, culturelle, religieuse et militaire).

La ville d'Alger avait accueilli pendant l'ère Ottoman plusieurs voyageurs (explorateurs) dont leurs buts et leurs écrits diversifiés et différenciés, des ambassadeurs, des missionnaires, des consuls et des secrétaires, elle était aussi la cible des étudiants, des savants et des médecins, comme elle était une vraie station des pèlerins, des commerçants, des aventuriers et même des soldats…et d'autres qui avaient le grand plaisir et l'envie de voyager vers cette ville. Ils écrivirent tout ce qu'ils observaient et ce qu'il leur était dit, pour cela, leurs écrits de voyage étaient riches de parole sur la ville citadine de cette ville.

En fait, la réalité qu'on doit la citer à propos de la vie citadine dans la ville d'Alger pendant l'ère Ottoman, ce que les sources des écrivains voyageurs européens étaient différentes(ils disent le contraires) de celles des écrivains arabes, ce qui signifie que l'étranger quand il écrit tout est nouveau pour lui et il existe dans un milieu n'est plus le sien en donnant des représentations et des interprétations propres à lui et à ses tendances, la chose qui le pousse parfois à donner des jugements plutôt des préjugés personnels.

Ce qui concerne le nombre des mosquées dans cette ville, ainsi les écoles et les stations thermales, les sources du voyage européen

étaient différées, mais il parait que cela avait une relation avec le développement des habitants de la ville du XVI^{ème} siècle au XIX^{ème} siècle.

Il semble que les sources de ce voyage étaient insuffisantes pour connaitre la vraie image de la vie urbaine de la ville d'Alger pendant l'ère Ottoman car ceux qui avaient écrit sur elle, ils écrivirent selon leurs circonstances et leurs impressions, selon les objectifs de leurs voyages ce qui nous a obligé de se référer à d'autres sources plus authentiques.

On déduit que la ville d'Alger pendant l'ère Ottoman portait des aspects d'une ville islamique où se localise (Dar el Imara) (la maison du commandement) (le palais du Djnina) et la grande mosquée y se trouve, l'avenue principal (de la porte Azzoun jusqu'à Beb l'Oued), ainsi, ses quartiers et ses boulevards étroits où se succèdent ses marchés avec ses activités artisanales, la nature de la vie urbaine qui simulait généralement quelques villes Islamiques à cette époque là.

Le sujet sur la vie urbaine dans la ville d'Alger pendant l'ère ottoman à travers les sources de voyage reste discutable pour enrichir et faire des recherches dans d'autres cotés que nous n'avons pas abordés dans cette recherche pour l'abondance et la diversification des sources de voyage à savoir: politiques, diplomatiques, scientifiques, scolaires, découvrantes, privées, générales, exploratoires, antiques et enfin répertoriés… .

Abstract

This study deals with the **cultural life in Algiers during the Ottoman period through the sources of the journey** It is divided into 3 section

The first section included the definition of travelers and they were about 30 travelers.

The second section was the definition of the City of Algiers, its facilities through the sources of the Trip. While the third section contained feature features of the civilized life of the City in many aspects (political, military, social, economic, cultural and religious).

The City of Algiers welcomed many Travelers during the Ottoman period who diversified their travel destinations. Ambassadors, envoys, consuls and staff came there too. And it also was the all students, Scientists and doctors

Mecca. It was a station for pilgrims, merchants, adventurers and militaries. And others who were longing for the trip to it or to other places.

They wrote what they saw and recorded what was said to them And therefore their trips were full of talk about the civilized life of the city, and the truth about the civilized life of Algiers during the Ottoman period has been written by the European Travelers, and this has justification foreigners write all that is new to them and their environment, but wither special interpretation and prejudgments.

Many travelers also wrote about urban life in the City of Algiers in the Ottoman period using sources of the trip that travelers wrote about it. And that was related to European and Arab travelers, together.

The sources of the European travelers were different in mentioning the member of the mosques in the city, schools, and bathrooms, but this seems to be related to the development of the city s population from the 16 to the 19 century.

It seems that the sources of the trip aren't enough to know the real picture of the real life in the city of Algiers during the Ottoman

period, because travelers wrote about it according to their circumstances and impressions as well as the aims of the trip, this is why we were obliged to use their contemporary sources.

We knew that the city of Algiers in the Ottoman period had features of on an Islamic city in terms of the centre of the emirate and its mosque. And the presence of the main street (from Bab-El-wed to Bab Azzoun), and the warren of its streets and avenues , markets, traders and the modern lifestyle in terms of clothing, laws and the system that was there in Islamic cities that period.

The subject of modern life in the city of Algiers in the Ottoman period through the sources of the trip is still subject of enrichment and the study of other aspect was n t covered, due to the abundance and diversity of the sources of the journey.